وجدي نجيب المصري

البعد التوراتي للإرهاب الإسرائيلي



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

<u>انضم الى الجروب</u>

<u>انضم الى القناة</u>

البعد التوراتي للإرهاب الإسرائيلي

وجدي نجيب المصري

عن الكتاب..

هل سنبقى أسرى فكر نمطي بات يشكِّل حجر عثرة على طريق التطوُّر والانفتاح؟

وبأيِّ حقٍّ نمنع العقل من أن يكون الأساس لكل النتاج البشري ونقيِّدُه بأغلال الجهل والتبعية العمياء؟

كتابٌ يضع التوراة على طاولة التشريح، ويطرحُ مثل هذه الأسئلة التي تُفضي إلى المحظور والمناطق الفكرية غير المسموح ولوجها وما علاقتها بالعهد الجديد. ويستعين بكتّاب عرب وعالميين كسروا حاجز الخوف ذاك أمثال جلال العظم ومعروف الرصافي، وأرنولد توينبي، وروجيه غارودي وبول فندلي وليباي غاي كار، وتوماس طومسون، فضلاً عن آينشتاين وتشومسكي وسواهما...ويوغل في اتِّهام الصهاينة، حين اتَّخذوا من التوراة ذريعة للاستيلاء على فلسطين والأرض الموعودة، وحين لجأوا إلى بدعة السامية التي ليس لها أي مرتكز علمي أو سند تاريخي، والتي حرَّفوها وأمعنوا في استغلالها لمآربهم.

وماذا عن التوراة: "كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون ملكاً لكم"

إذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم... فتغنمها لنفسك؟"!

وما علاقة علاقتها بالعهد الجديد؟ وهل ثمَّة لُعبة من حكماء صهيون لهدم الإيمان وإلغاء الروح وبث الفتن والرذائل؟! والسيطرة على كل شيء؟

كتابٌ عميقٌ في البحث متجذِّر في التاريخ ومتعدِّد المراجع، قدَّم له نقيب الصحافة الأستاذ محمد البعلبكي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



جاء في الحديث الشريف: «إن لله على الناس حجتين، حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأما الظاهرة فالعقول فالرسل والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة كرمت العقل ورفعت مكانته إلى مقام الأنبياء».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجاء أيضاً: لما خلق الله العقل استنطقه، ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر. ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك، ولا أكملتك إلا فيمن أحب. أما إني إياك آمر، وإياك أنهي، وإياك أعاقب، وإياك أثيب».

إهداءٌ خاص

إلى والدي...

الذي باكراً رحلِ، لكنّه ظلّ ممسكاً بيدي، فأرشدني إلى طريق الحق والخير والجمال، أرفع كلماتي، من العقل إلى كلّ عقلٍ منفتحٍ قابلٍ للحوار كوسيلةٍ فضلى للتواصل الإنساني...

وجدي نجيب المصري

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



من القلب... وإلى القلب

هي كلمات شكر وامتنان أرفعها بداية إلى زوجتي الحبيبة التي ارتضت أن أبقى أسير الكلمات، قراءة وكتابة، لمدة سنتين، قدمت لي خلالها كلّ عون ودعم، وإلى ولديّ الغاليين اللذين لم يكفّا عن محاورتي وإبداء رأيهما السديد بموضوعات الكتاب، فاستجبت لمنطقهما أحياناً وحافظت على قناعاتي أحياناً أخرى.

أشكر الأستاذ الصديق عماد المصري الذي وقف دائماً إلى جانبي وحثّني على إنجاز هذا الكتاب. كما أشكر الأخ الصديق جهاد الشمعة الذي كان له الفضل بسحب كلّ التبريرات التي كنت أسوقها كأسباب تؤخرني عن إنجاز هذا العمل.

الشكر أيضاً للسيدين رؤوف ورفعت المصري والأستاذ نبيه العنداري والسيد نزيه نويهض والمهندس ناظم المصري، الذين قدّموا لي بعض المراجع التي أغنت البحث. والشكر والتقدير للأب الدكتور سهيل قاشا الذي شرح لي بعض ما التبس عليّ فهمه من الأناجيل، والذي جاءت مؤلفاته العديدة لترفد دراستي بالكثير من الحقائق التاريخية التي يجهلها الكثيرون. كما أتوجه بالشكر للدكتور شفيق المصري الذي زوّدني بمعلومات قانونية دولية قيّمة، وبالطبع لن أنسى أصحاب المؤلفات التي اعتمدتها كمراجع، والذين أتت كتاباتهم في غاية الجرأة والموضوعية.

كما أتقدم بأسمى معاني الشكر والتقدير من الصديق العقيد المتقاعد كمال الأعور الذي وافق دون تردد على إنجاز الطباعة الأولية لأوراق هذا الكتاب، في مكاتب مجلته الغرّاء «دفاع 21» ودون أيّ مقابل، ولا بد أيضاً من شكر الآنسة رويدا طوزه التي قامت بالطباعة وبذلت مجهوداً كبيراً في هذا المجال.

أتقدم أيضاً بالشكر من جمعية سيدات القلعة الخيرية التي أمّنت لي المكان المناسب لكي أختلي بالمراجع وأنكبّ على الكتابة بعيداً عن الضجيج. وبالرغم من عدم اعتماد الناشر تصميم الغلاف الذي أنجزه الأستاذ رغيد هلال بناءً على ما أعطيته من أفكار، لا يسعني إلاّ أن أتقدّم منه بالشكر أيضاً للجهود التي بذلها. وبالإضافة إلى الشكر أرفع كلمة تقدير واحترام إلى نقيب الصحافة الأستاذ محمد البعلبكي الذي شرّفني قلمه النابض بالفكر والمعرفة بكتابة التقديم. وكلمة محبة وتقدير للصديق الأستاذ وجدي شيّا الذي عرّفني إلى شركة المطبوعات للتوزيع والنشر والتي وافقت، مشكورةً، على نشر كتابي.

وأخيراً لا بدّ لي من شكر كلّ قارئ لهذا الكتاب سواء بذلك من وافقني على آرائي أو من خالفني، آملاً أن تبقى الكلمة الحرة صلة للوصل بين الباحثين عن المعرفة خارج نطاق المفاهيم المتوارثة.

وجدي نجيب المصري

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الإرهاب الإسرائيلي نابع من «التوراة»

بقلم

محمد البعلبكي

نقيب الصحافة اللبنانية

للأديان السماوية ثلاثة كتب: «الإنجيل»، «القرآن»، «التوراة».

وكتاب «التوراة» تناوله بالتحليل والنقد الباحث وجدي نجيب المصري، فغاص في باطنه، ووقف على أبعاده، واستنجد بكبار الفلاسفة والمفكرين والمؤرخين ليطلعوه على خفاياه وأسراره. وما حصل عليه هو أن كتاب «التوراة» ترك آثاراً سيئة على البشرية جمعاء، ذلك أن الإرهاب الإسرائيلي الذي شهده ويشهده العالم نابع من كلام التوراة.

لقد أضاء وجدي نجيب المصري على الإرهاب الإسرائيلي من جوانبه العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية والدينية في كتابه «البعد التوراتي للإرهاب الإسرائيلي». والتركيز الإعلامي الذي تمارسه وسائل الصهيونية على الإرهاب في العالم، ولا سيما بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر في نيويورك، إنما هو تزوير فاضح للحقائق وتضليل متعمّد للرأي العام عن الجرائم التي ترتكبها إسرائيل بحق الأبرياء.

إسرائيل لا يهمها في العالم سوى أن تبقى دولة عنصرية، دولة تبتز أغنياء الصهيونية العالمية لترتع سعيدةً في أرض اغتصبتها من سكانها الأصليين أي الفلسطينيين.

في نكبة 1948 طردت الفلسطينيين من أرضهم المقدسة، ودنّست الأماكن الدينية للمسيحيين والمسلمين في القدس. وما زالت حتى يومنا هذا تطرد أصحاب الأرض العرب في القدس وتقيم المستوطنات تلو المستوطنات في المدينة المقدسة. وشعارها «من النيل إلى الفرات حدودك يا إسرائيل» لا تحيد عنه قيد أنملة.

إن إسرائيل المتعطشة دوماً إلى الدماء مستمرة في تعنّتها وغيّها.. مستمرة في انتهاك الحق الفلسطيني وسلبه حقوقه المشروعة، متخذةً من «التوراة» دعماً مستميتاً.

وهذه الدولة مغروزة كلها في العنصرية. إن العنصرية دينها وديدنها، وكبار مفكري العالم اتهموها بالعنصرية التي تدعو حسب «التوراة» إلى إبادة كل من يتهجّم عليها وينعتها بالعنجهية. إنها الدولة المارقة.

إن ما يقدمه المؤلف وجدي نجيب المصري في كتابه من أدلة حول الأعمال القمعية التي تقوم بها إسرائيل داخل فلسطين وخارجها، يعطي صورة حقيقية لكتاب «التوراة» الذي تعتمده إسرائيل في تعاطيها مع المجتمعات التي تناصبها العداء.

لقد منحت الأمم المتحدة السلطة الفلسطينية اسم دولة غير عضو فيها. ومع ذلك ضربت إسرائيل عرض الحائط بهذه الدولة ورفضت الاعتراف بها. وهكذا تكون غير مبالية بقرارات الأمم المتحدة،

ناهيك بإصرارها على سلب فلسطينيي الداخل كل حقوقهم، مدعية أن تصرفاتها الهمجية هذه إنما هي نابعة من كتاب «التوراة».

لقد بذل مؤلف كتاب «البعد التوراتي للإرهاب الإسرائيلي» جهداً كبيراً في التعريف بكتاب «التوراة» الذي تستمد منه إسرائيل شريعتها، وهي لا محالة شريعة الغاب.

فهنيئاً له ولنا بكتاب يكشف عورات دولة إسرائيل العنصرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



البُعد التوراتي للإرهاب الإسرائيلي

العقل يجب أن يقدّم دائماً على النقل

ابن رشد

الفرق بين الحكيم والجاهل، أنّ الأول يناقش في الرأي والثاني يجادل في الحقائق...

من الفلسفة اليونانية

مقدمة

إذا ما تصفّحنا نِتاج العقل البشري منذ طفولته وصولاً إلى يومنا هذا، لا بدّ من أن ندرك مدى التطوُّر الذي لحق بهذا النتاج، وإنّه لمن الطبيعي والبديهي أن نَعِيَ أنّ هذا التطور سيستمر ولن يكون له مُستقَرّ ولن يعرف للطريق نهاية. ولمّا كان العلم اليوم يثبت أنّ الإنسان لا يستغلّ إلاّ نسبة قليلة جداً من قدراته العقلية، فإنّ هذا يدفعنا إلى التأكيد بأنّ هذه القدرات لا يمكن حصرها ضمن قوالب تاريخية محدّدة مهما بدت مظاهر هذه القوالب وكأنّها حقائق أبدية سرمدية لا يرقى إليها الشك، خاصة إذا ما أسبغنا عليها صفة الألوهة، هذه الصفة التي داعبت عواطف الإنسان الطفولية وعقله البدئي، والتي لا تزال تؤدي الدور الأهم بتسيير شؤون حياته وتؤثر بشكل فاعل ومباشر على مختلف مظاهرها. ومن نافل القول إنّه يستحيل علينا تلمُّس ومتابعة تطور الفكر الإنساني منذ أن كان الإنسان على سطح هذه الأرض، لأنّه بات من الثابت علميًّا، لغاية الآن، من خلال ما يتم اكتشافه من هياكل بشرية، بأنّ وجود النوع البشري على سطح الأرض يزيد عن مئتي ألف سنة. ففي دراسة أعدّها كلّ من الدكتور نزار حسيب القاق والدكتورة إعتدال معروف القاق تأكيد على أنّ «الحفريات الأثرية التي أُجريت طوال القرن الماضي أثبتت أنّ أقدم سكن في سوريا، وربما في الشرق عموماً، كان في مغاور يبرود إلى الشمال من مدينة دمشق (80 كلم)، والتي وُجدت فيها آثار تعود إلى مليون سنة. وكشف عالِم الآثار الألماني ألفرد روست عام 1930 عن حضارة تُعتبر من أقدم حضارات العالم هي الحضارة اليبرودية، نسبةً إلى بلدة يبرود، التي أثبت علماء الآثار والتاريخ أنّها أقدم مكان استوطنه إنسان ما قبل التاريخ، حيث يؤكّدون أنّ الإنسان استوطن هذه المنطقة منذ ما يزيد على ثلاث مئة ألف سنة. وهذا ما أكّدته، إضافة إلى روست، البعثة التابعة لجامعة كولومبيا عام 1964 والبعثة اليابانية عام 1987. وترجّح آراء الخبراء أن يكون إنسان يبرود قد سبق الإنسان النياندرتالي».

وإنسان هذه الحُقَب التاريخية الموغلة في القِدَم لم يترك لنا ما نستدل به على مستوى تفكيره، إذ كانت تصرفاته محكومة بالغريزة أكثر مما هي محكومة بالعقل، وعلينا أن ننتظر طويلاً كي نبدأ برؤية ملامح الفكر البشري مع الحضارة السومرية التي يعتبرها الباحث والمؤرِّخ فراس السوّاح «المنطلق الأساس للتاريخ البشري»(1). هذا القول أصبح حقيقة ثابتة لدى دارسي الحضارات ولم يعد بالإمكان علمياً تجاوز هذه الحقيقة أو تزويرها لخدمة أغراض سياسية بعيدة كلّ البُعد عن أيّ مفهوم علمي. لكنّ المؤسف أنّ هذه المقولة لا تزال مجهولة عند معظم الناس، ووحدهم أصحاب الاختصاص والباحثون يدركون ماهيتها وحقيقتها الثابتة، وحدهم يُقرّون عبر دراساتهم المقارنة بأنّ ما تمّ تأكيده

باسم الديانات السماوية عن الخلق استناداً إلى ما جاء في سفر التكوين في العهد القديم، ما هو إلا اقتباس عن الأساطير السومرية، وبالتالي لا يمكن اعتباره حقائق علمية أو تاريخية، بل هو مغامرة عقلية بدائية لتفسير ظواهر الكون التي كانت ولا تزال تشكّل لغزاً يحيّر العقول ويدفعها إلى التحليل والاستنباط دون أن يكون لها قوة الجزم القاطع، حتى لو تشابهت التحليلات والاستنتاجات لدرجة النسخ والنقل أحياناً، والتحوير والتغيير الطفيف أحياناً أخرى.

ومما لا شك فيه أنّ إسباغ السّمة الروحانية الإلهية السماوية على نِتاج الفكر الإنساني، شكّل عقبة بوجه التطور، وذلك نتيجة عدم السماح بمقاربة البحث بالموضوعات التي تطرّق إليها هذا النتاج. وكان من نتيجة ذلك سيطرة مفاهيم أسطورية على العقل البشري فحجّمته بدل أن تطلقه ليعمل في رحاب الفكر الإنساني دون قيود. يقول الدكتور محمد النويهي: «إذا كنّا جادين في سعينا «نحو ثورة ثقافية عربية شاملة» وجب علينا أن نبدأ بمواجهة هذه الحقيقة: إنّ العقبة الأولى في هذا السبيل هي العقبة الدينية، وإنّنا لن نصل إذن إلى الثورة المنشودة إلاّ إذا ذلّلنا هذه العقبة وأزحناها عن طريقنا». وصولاً إلى قوله: «ولمّا كان الموقف الفكري الغالب عليهم هو الموقف المحافظ الجامد، لهذا تجدهم في أغلب الأحوال يعارضون كلّ رأي جديد ومذهب جديد باسم الدين»(2) (هو يقصد بالطبع رجال الدين).

لكنّنا إذا نظرنا إلى الأديان وما نتج عنها من مذاهب لأدركنا أنّ هذا كان نتيجة طبيعية أفرزها العقل الذي لا يمكنه أن يقبل بالقوالب الجامدة المتحجّرة وهو الذي أعطى الحضارة البشرية، ولا يزال وسيبقى يعطيها كلّ الإبداع الذي لا يمكن لأيّ إنسان سَويّ أن ينكره. فلماذا لم يعد مقبولاً اليوم أن تتم مناقشة ما ورد في الكتب الدينية وقد كان ذلك مسموحاً عندما كان الإنسان يحبو حضارياً؟ لماذا يُعدّ إلحاداً وتجديفاً مجرد لفت الانتباه بأنّه لم يعد مقبولاً، وقد دخلنا القرن الحادي والعشرين، أن نبقى أسرى فكرٍ نمطي بات يشكّل حجر عثرة في طريق التطور والانفتاح على مكتشفات العصر الحديث؟ يقول الدكتور صادق جلال العظم: «لذلك سننظر إلى الدين باعتباره مجموعة من المعتقدات والتشريعات والشعائر والطقوس والمؤسسات التي تحيط بحياة الإنسان، في أوضاع معيّنة، إحاطةً شبه تامة. ويحتوي الدين بالإضافة إلى ذلك على عدد كبير من القصص والأساطير والروايات والآراء عن نشوء الكون وبنيانه»(3). إنّ هذه الحقيقة تترك المجال واسعاً أمام الإنسان العاقل إلى إعمال الفكر وصولاً إلى قناعاته الخاصة. فإذا كان الإيمان المطلَق ضرورة أساسية لتمييز الوثني عن المؤمن بالله الواحد، فإنّه لم يعد شرطاً ضرورياً في يومنا هذا، حيث أصبح جميع الناس مؤمنين، ولكن كلٌّ على طريقته ومذهبه». وهنا برزت مشكلة عقلية لا يمكننا تجاهلها وهي: أين تكمن الحقيقة في ظل الاختلاف الجذري الحاصل بين الديانات، ليس فقط حول ماهيّة الله، حتى لو تنكّر البعض لهذه الاختلافات، بل أيضاً حول المفاهيم اللاهوتية وما يتفرّع عنها من مقولات روحانية تخالف الواحدة الأخرى. هذا يدفعنا إلى تأكيد وجهة نظر الفيلسوف الأميركي وليَم جيمس في بحثه المعنوَن «إرادة الاعتقاد» والتي أوردها الدكتور صادق جلال العظم: «إنّ البيّنات العلمية والأدلّة العقلية غير كافية بحد ذاتها للبرهان على وجود الله أو عدم وجوده، لذلك يحق للإنسان أن يتخذ موقفاً من هذه المعضلة يتناسب مع عواطفه ومشاعره، متجاهلاً بذلك عدم قدرته العلمية والمنطقية على البتّ بهذه المشكلة بصورة حاسمة»(4). وهذا القول يتماهى مع ما قاله الفيلسوف والعالِم الرياضي «لابلاس»

لنابليون بونابارت عندما أهداه كتابه «نظام الكون» لدى سؤاله: وما المكان الذي يحتله الله في نظامك؟ فأجاب لابلاس: الله فرضية لا حاجة لي بها في نظامي(5).

هذا لا يعني مطلَقاً أنّه قد آن الأوان كي نتخلى عن الإيمان وننفي وجود الله، ولكنّه يعني في الوقت ذاته أنّه لا يمكن أن يُتّهم الإنسان الذي يحاول إعمال الفكر ببعض المسلّمات بالكفر، ولا يمكننا أصلاً أن نمنع العقل من أن يبقى المصدر الأساس لكل النتاج البشري تحليلاً ونقداً ونقضاً وإبداعاً جديداً، لا يمكن تقييده بأغلال الجهل أو الإيمان الطفولي. يقول الدكتور محمد النويهي بأنّ الإسلام «لم يدّع قط أنّ الله وحده هو مصدر القوانين كلّها، دينيّها ودنيويها، لأنّه يقرر مبدأ تطور الأحوال ولا يريد أن يقوم عائقاً أمام هذا التطور، ولا يريد أن يشلّ عقول البشر»(6).

إذن لا يمكننا أن نمنع العقل من التطرق إلى موضوعات وردت بشكل متشابه أحياناً وبشكل مختلف أحياناً أخرى في الكتب الدينية، ولا يمكننا باسم الدين أن نقول للعقل: لم يعد بإمكانك أن تقارب هذه الموضوعات لأنّها أصبحت من المحرَّمات وعليك إنْ أردت العمل أن تطرق أبواباً أخرى. حتى إنّه لا يمكننا أن نفرض على المؤمنين طريقة واحدة لإيمانهم. فعلى سبيل المثال لا الحصر يعتبر العامة أنّ الديانات السماوية ثلاث: اليهودية والمسيحية والمحمدية، وعندما نقول سماوية فهذا يعني أنّها أنزلت من الله بواسطة الروح القدس في المسيحية، وبواسطة الملاك جبريل في المحمدية ومباشرة من إله اليهود إلى أنبيائهم في اليهودية. وقد ميّزت هنا بين الله المتعارَف عليه في المسيحية والمحمدية وبين إله إسرائيل لأنّ هذا الأخير ميّز نفسه على أنّه إله خاص ببني إسرائيل، وسوف أقوم بتبيان ذلك في متن الكتاب.

وعندما نتكلم عن التنزيل لا يمكننا إلاّ أن نشير إلى أنّ المؤمنين منقسمون حول هذه المقولة، فهم بغالبيتهم لا يناقشون المسلّمات الدينية، ولكن الذين يقيسون الأمور بمقياس العقل لا يقتنعون بذلك. فعلى سبيل المثال لا الحصر يشرح الشاعر العراقي معروف الرصافي تحت عنوان: «هل القرآن مُنزل من السماء»، مفهوم السماء من وجهة نظر علمية ومفهوم الجهات الأربع، ثم يشرح المعنى اللغوي لكلمة إنزال وإمكانية استعمالها مجازياً للتعظيم والإجلال بكل ما يتعلق بالله(7). ويذكر الأمثلة التالية من القرآن الكريم: «فقد ورد الإنزال في القرآن على وجه لا يستلزم هبوطاً من علوّ إلى أسفل، إذ جاء استعماله في أمور كائنة في الأرض ولم تهبط من السماء كقوله في سورة الحديد: {وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس}، وفي سورة الأعراف: {يا بني آدم قد أنزلنا عليك لباساً يواري سوآتكم}، وفي سورة الزمر: {وأنزل عليكم من الأنعام ثمانية أزواج}. ولا ريب أنّ الحديد واللباس والأنعام كلّها من الأشياء الكائنة في الأرض، فالإنزال هنا بمعنى الخَلق، وإنّما عبّر عن خلقها بالإنزال للتعظيم. فاستعمال الإنزال في هذه الأمور قد يكون استعمالاً مجازياً أو هو اصطلاح قرآني خارج عن المعنى اللغوي لغرض من الأغراض البيانية»(8). ثم يصل إلى الجواب عن السؤال حول مفهوم التنزيل من الناحية الدينية فيقول: «فلماذا لا يكون إنزال القرآن من هذا القبيل أيضاً، بأن يكون بمعنى الإلهام، وإنّما عُبّر عنه بالإنزال تعظيماً للمُلهِم، خصوصاً إذا قلنا بأنّ القرآن هو المعاني لا الألفاظ كما ذهب إليه فريق من علماء الإسلام، حتى أنّ أبا حنيفة قال بصحة صلاة من قرأ في صلاته القرآن بالفارسية. فمعنى قولنا: إنّ الله أنزل القرآن على النبي محمد أنّه أُلهِمَ معانيه، ثم عبّر النبي عن تلك المعاني بألفاظ عربية وقرأها على الناس. ولا ينبغي للمؤمن بالله حق الإيمان إنْ كان محترِماً

للعقل ومخلصاً في الإيمان أن يخرج بإنزال القرآن عن حد هذا المعنى، وقد ذهب إليه فريق من علماء دين الإسلام من الذين يحترمون عقولهم ويخلصون لله إيمانهم».

وما يصح على القرآن الكريم يصح أيضاً على ما جاء على لسان السيد المسيح، وما ذكره لوقا في إنجيله مطلع الإصحاح الرابع عن أنّ المسيح رجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس يعني أنّ الإلهام الإلهي قد حلّ فيه بعد العمادة. ففي الإصحاح 321 كتب لوقا: «ولمّا اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً، وإذ كان يصلّي انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة وكان صوت من السماء قائلاً أنت ابني الحبيب بك سررت». فهل يُعقَل أن نأخذ معنى هذا الكلام بحرفيّته، أم نعتبره كلاماً مجازياً يشير إلى اكتمال الظروف الموضوعية لبدء المسيح ببشارته وفقاً لما ألهمَه به الله؟

يبقى علينا أن نؤكّد على حقيقة ثابتة وهي أنّه مهما حاولنا التقيُّد بالنصوص الدينية وصولاً إلى التحجّر، فإنّ هذا لن يغيّر في جوهر الحقيقة الإنسانية التي تعطي العقل الحق بالتحليل والاستنتاج والتبصُّر وصولاً إلى حد الاختلاف، وحرية الإعلان عن هذا الاختلاف عبر ما بات يُعرف بحق المُعتقَد وحق إبداء الرأي. فإذا كانت غالبية الناس تؤمن بسماوية الأديان وبكل ما ورد في الكتب الدينية، فإنّ هذا لا يلغي حقيقة أنّ هناك من يؤمن بالله من منظار خاص به، وهناك من لا يؤمن بالله بتاتاً، فهل هذه القناعات الخاصة تبرِّر إسقاط صفة الإنسانية عنهم؟ أو تستدعي قناعاتهم أن ننبذهم بسببها، وبأية وجهة حق؟ ألأنهم خالفوا الأغلبية قناعاتها؟ ومن يثبت أنّ الغالبية على حق؟ ألم تكن الغالبية على خطأ قبل الرُّسُل الذين هَدُوا الناس إلى الإيمان بالله الواحد؟ أوَليس ممكناً أن تكون هذه الأكثرية اليوم على خطأ ببعض المفاهيم التي تحاول أن تمنع العقل من أن يقاربها؟ فها هو الشيخ عبد الله العلايلي يقول: «لأيّة جماعة من البشر الحريّة في أن لا تتصل بالسماء من طريق محمد؛ (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (البقرة 2: 256)»(9). ويقول: «يتّضح ببيان جليّ أنّ خاصيّة الشريعة الأولى هي الطواعية ومجافاة التزمُّت والحرج والرَّهق»(10)(الرهق: الإثم والتهمة – المنجد).

فنحن إنْ فرضنا على العقل قوالب جامدة أمَتْناه، وبإماتته أمَتنا الروح لأنّها تعيش على نسغ الحياة المتدفّق عبر شرايين العقل. من هنا نفهم مقولة الفيلسوف ابن رُشد بأنّ العقل يجب أن يُقدّم على النقل. فهل يمكن أن نتصور أن يبقى الإنسان بعد ألف سنة من اليوم أسير معتقدات فُرِضت عليه؟ أليس من الطبيعي أن تتطور مفاهيمه مع تطورالعصر وما ينتجه العقل في جميع الحقوَل؟ ألا يأخذنا العجب اليوم عندما نفكر كيف كان العالم منذ مئة سنة، ولن أقول منذ آلاف السنين، وكيف أصبح الآن؟ فإذا قال قائل: وما علاقة هذا بالإيمان وبالحقائق الدينية الثابتة غير المتحولة لا سابقاً ولا لاحقاً؟ أجب بما أورده الدكتور صادق جلال العظم حول رأي الفيلسوف وِليَم جيمس بهذا الصدد: «لا يجوز أن نتقبل أو أن نرفض رأياً من الآراء ما لم تتوفر الأدلة والشواهد الكافية على صدقه أو كذبه. وعندما لا تتوفر هذه الشروط يجب علينا أن نعلّق الحكم، كذلك يجب أن يتناسب تمسّكنا برأي معيّن ودفاعنا عنه تناسباً طردياً مع قوة الحجج وكثرة الأدلة المتوفرة على صحته»(11)، ويستطرد قائلاً: «ألا توجد حالات شاذة يحق فيها للإنسان أن يعتقد بصدق قضية ما بالرغم من النقص الواضح في الأدلة والإثباتات على صدقها أو كذبها؟ أليس الاعتقاد الديني أو الإيمان بوجود الله هو إحدى هذه الحالات؟».

لقد تطرقت إلى هذا الموضوع لكي أقدم لأبواب هذا الكتاب انطلاقاً مما جاء في العهد القديم أو التوراة من أفكار أسطورية فُرضت على الأديان الأخرى على أنّها حقائق سماوية إلهية لا يجدر بأي ذي عقل أن يفكّر بمدى صدقيتها. فإذا كان ذلك مسموحاً في العصور الغابرة حيث كان الإنسان لا يزال حَدَثاً في عالم الحضارة والعِلم، فهل يصح، وها نحن قد بدأنا الألفية الثالثة، أن نبقى أسرى التزمُّت والخوف من مقاربة هذه المفاهيم؟ هل يجب أن يبقى حق النقد والاختلاف مقتصِراً على المفكّرين والباحثين، أم يجب أن يصل إلى كلّ العقول دون ترهيب؟ ألا يجدر بكل مؤمن أن يتوقف هنيهات قليلات ليبحث بشكل منطقي عقلاني عن مفاهيم فُرضت عليه بعامل الولادة فإذا به ينتمي مُلزَماً إلى هذا الدين أو ذاك؟ ومن قال إنّ الإيمان يحتّم عليك أن تكون منتمياً إلى أحد الأديان؟ فإذا كان الله واحداً، ألا يجب أن تكون الطريق إليه واحدة؟ فكيف نفسّر إذن الخلاف القائم بين الأديان حول طبيعة الله، وطُرق عبادته؟ ألا يقودنا ذلك إلى التساؤل مع الفيلسوف والشاعر أبي العلاء المعرّي حيث قال:

في اللاذقيةِ ضجةٌ

ما بين أحمَد والمسيح

هذا بناقوسٍ يدقّ

وذا بمئذنةٍ يصيح

كلٌّ يؤيّد دينه

يا ليتَ شعري ما الصحيح

على أنّ ما يهمّنا في هذا البحث، كما ذكرت، هو كتاب التوراة الذي سأسمح لنفسي أن أتناوله بالتدقيق بصحة ما جاء فيه نظراً للآثار السيئة التي تركها على البشرية ولا يزال، انطلاقاً من اعتباره كتاباً منزًّلا، وكلّ كلمة فيه هي من لدن الله، وبالتالي لا يمكن التطرُّق إلى مناقشة صدقيّتها ونتائجها. وما كنت لأتطرّق لهذا الموضوع لو بقيَت المفاهيم الواردة فيه حكراً، كما بقيّة الديانات، على أتباع هذا الدين. أمّا وأنّ تأثير ما جاء في هذا الكتاب على مجريات الأمور في شتى المجالات وعلى صعيد العالم أجمع، لم يعد خافياً على أحد، فلا يجوز أن نبقى صامتين حفاظاً على إحساس المؤمنين.

إنّي أحترم صاحب كلّ إيمان، ويجب ألاّ يشكّل الاختلاف في وجهات النظر، بين المؤمنين أنفسهم وبينهم وبين من يأخذ الأمور بمنظار العقل، أيّ مسلك تكفيريّ، انطلاقاً من حق الاختلاف والتنوُّع. أن تكون مؤمناً فهذا حق مكتَسَب من حقوقك، أمّا أن تفرض على الآخرين كلّ القناعات الخاصة التي تشكّل محور إيمانك، فهذا مما لا يقبله أي منطق. وهذا الموقف مردود انطلاقاً من المفهوم الحقوقي ذاته، فما هو حق لك وللمجموعة التي تلتقي معها على القناعات ذاتها، هو الحق ذاته الذي يعطي غيرك الحق بالتمسُّك بقناعاته، وعندما تتجاوز حدّك في محاولة فرض ما تؤمن به على الآخرين بالقوة والتهديد والابتزاز، تكون قد اخترت طريق الإرهاب، لأنّ الإرهاب، كما يحاول الصهاينة ومن يدور في فلكهم تصويره، ليس فقط محصوراً بفعل القتل المُتعمّد للآخرين، بل هو كلّ فعل يطاول حرية الآخرين التي تلامس كلّ مناحي الحياة.

فالتركيز الإعلامي الذي تمارسه وسائل الإعلام الصهيونية، أو الواقعة تحت تأثير النفوذ الصهيوني، على الإرهاب في العالم، وتصويره كأنّه نتاج للفكر الديني الإسلامي، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر في نيويورك، يعتبر تزويراً فاضحاً للحقائق وتضليلاً متعمَّدا للرأي العام عن الجرائم التي ترتكبها إسرائيل والولايات المتحدة بحق الأبرياء. ولهذا سنحاول الإضاءة على الإرهاب من جوانبه المختلفة، العسكرية منها والسياسية والاقتصادية والثقافية والدينية.

ولكي نستطيع القيام بذلك بشكل متجرد وموضوعي يجب أن نسمح لأنفسنا بإطلاق العقل من عقاله، كي يستطيع التحليل والاستنباط بعيداً عن الموروثات الفكرية الروحانية التي تشكّل مقاربتها محذوراً يجعل الذي يقوم به عُرضةً لسهام الجهل والتجنّي. فليس صحيحاً أبداً أنّه لا يمكن البحث بصحة ما هو متعارَف عليه أنّه مُنزل من لدن الله. فإذا كان الله قد ميّز الإنسان بالعقل، وإذا كان العقل قد أبدع الحضارات وأوصل الإنسان إلى ما هو عليه من تقدُّم ورُقيّ، فكيف نحاول أن نكبّله ونحدّ من انطلاقته التي يجب أن تكون لا متناهية؟ فإنْ قلنا بأنّ الكتب السماوية مقدّسات غير مسموح لأحد بأن يتعرض لها، كان الرد بأنّه لو لم يتعرّض المفكرون الأوائل لهذه الديانات بالنقد والتحليل والاجتهاد، لما كنّا نرى هذا الكمّ من المذاهب ضمن الديانة الواحدة. وعلى سبيل المثال لا الحصر يقول غاري رينارد Gary R.Renard في كتابه «اختفاء العالم» The disappearance of the universe أنّ هناك عشرين ألف كنيسة في الولايات المتحدة وحدها،(وهو لا يعني بالكنيسة البناء، وإنّما الاختلاف بفهم الأناجيل). وما كان هذا ليحصل لولا الحرية الفكرية وحرية التعبير المصانة في الولايات المتحدة إلى حدٍّ قد يتجاوز صيانتها في بقية بلدان العالم.

فالمطلوب من القارئ أن يُقبِل على قراءة هذا الكتاب بقلب المؤمن الذي يحترم قناعات الآخرين وحريتهم بالتعبير عن هذه القناعات، وبعقل منفتح متسلّح بالمنطق وليس بالعاطفة. فكما أحترم إيمان كلّ فرد وقناعاته، فمن حقي على الآخرين احترام قناعاتي.

وما كنت لأخوض غمار هذا البحث لو لم ألمس مقدار الإساءة إلى عقول البشر من خلال فرض نمط تفكيري معيّن وإلاّ كان التكفير والاتهامات المعلّبة، بحيث بات لا يجرؤ إلاّ قليلون على كسر القاعدة ومواجهة الإرهاب الفكري بالحجة والإقناع لمن فتح الله عقولهم. آن لنا أن نخرج من الغيتوات التي فُرضت علينا من رجال الدين ومن الأنظمة السياسية على السواء، وهذا الواقع هو ما دَفَعَ المفكّر إدوار سعيد إلى أن يقول: «في كلّ بلد عربي، ما زالت توجد معارضة ثقافية علمانية، تضم الكُتَّاب الأكثر موهبةً والفنانين والمحلّلين والسياسيين والمثقّفين، ومع أنّهم يشكّلون أقلية، فقد أرغم الكثير منهم، بالملاحقة، على الصمت أو الذهاب إلى المنفى»(12).

بالردّ على هذه المقولة يكون الإقلاع عن الصمت وبالعودة من المنفى الفكري، وبتحدي الفكر النمطي المتحجّر، والشروع بالتعبير عن كلّ ما يعتمل في عقولنا من آراء وأفكار، دون خوف داخلي متسائل: وماذا لو لم أكن على صواب؟ أو ماذا لو وُجّه لي سَيْل من الانتقادات؟ ودون وَجَل، مما قد تثيره أفكارنا وقناعاتنا من ردود سلبية، هي شأن طبيعي بدأ مع انطلاق الإرهاصات الأولى للفكر البشري، ولن يتوقف طالما أنّ العقل يعمل ويحلّل ويمحّص ويستنتج، يجب عدم التهيُّب من الولوج إلى البحث والتدقيق من باب العقل الواسع. وهذا الموقف المتنكّر للعقل وإمكانياته اللامحدودة هو ما حدا بالفيلسوف روجيه غارودي لأن يقول ما يلي: «إنّ هذا الكتاب مجرد تاريخ لإحدى الهرطقات: أي

تلك التي تقوم على جعل الدين أداة لسياسة تعتبر مقدسة بالاعتماد على قراءة حرفية واصطفائية لكلام موحًى به. إنّ هذا مرض قاتل لنهاية هذا العصر (القرن العشرين) حاولت أن أعرّفه سابقاً في «الأصوليات»(13). فإذا كان هذا الموقف برأي غارودي يشكّل مرضاً قاتلاً لنهاية القرن العشرين، فبماذا نصفه ونحن في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين؟ وهذا الموقف، كما أصبح ملموساً ومعروفاً، بات أكثر تشدُّدا من السابق ولم يبدِ أيّ تراجع أمام التطور الفكري الحديث.

أخوض غمار هذا البحث لا لأنتقد أُسس الإيمان وعواطف المؤمنين وقناعاتهم، وإنّما لتصويب هذه القناعات، إنْ أمكن، منطلقاً من المبدأ الذي يقول: المجتمع معرفة والمعرفة قوة (أنطون سعادة)، والمبدأ الآخر الذي يقول: «المعرفة هي أمّ جميع الفضائل» (سقراط).

فالمعرفة شرط أساس لتقدمنا في كلّ الميادين، وكلّ يوم يثبت لدينا بما لا يقبل الشك أنّ تسليمنا المطلَق بما جاء في الكتب السماوية، وخاصة التوراة، بات يعيق، ليس تقدّمنا فحسب، بل فعل العقل فينا أيضاً، ويلزمنا بما يشكل الخطر الأكبر على وجودنا وعلى حضارتنا. ما من شيء يمنع المؤمن من استعمال ميزان العقل فيطرح جانباً كلّ ما فُرض عليه باعتباره مقدسات، وذلك نتيجة مؤامرة تاريخية استعملت التكرار والإرهاب الفكري عبر آلاف السنين، فرسخت في ذاكرة الإنسان الطفولية، ولم تسمح لهذه الذاكرة باستعادة هذه المفاهيم لتشريحها ودرسها ليتم قبول المنطقي منها ونبذ كلّ ما لا يتوافق مع العقل الواعي النيِّر. المعرفة بحقيقة ما فُرض علينا باسم القداسة يحررنا من تاريخ مُثقَل بالأكاذيب الدنيئة، وتزوير التاريخ والحضارة الإنسانية المميّزة التي عرفتها بلادنا قبل تدوين التوراة بما يزيد على ألفَيْ سنة. المعرفة تكشف لنا الحقد الخبيث الذي مُورس بحق الديانتين المسيحية والمحمدية اللتين جاءتا كنقيضٍ لليهودية، وليس كما يروّجون إكمالاً لها، وإلاّ لماذا التآمر على المسيح ومحمد ونجاحهم باغتيال الأول ونجاة الثاني؟

في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين يجدر بنا أن نقف وقفة المتأمِّل الباحث عن جوهر الديانات لا المتمسِّك بقشورها، المتمحِّص بجوهرها الحضاري الإنساني الراقي لا المستسلم للفكر النمطي الذي وضع غشاوةً على عيون المؤمنين تمنعهم من سبر أغوار ما بُثّ في عقولهم على أنّه مُسلَّمات لا يمكن لأحد أن يقاربها درساً وتمعُّنا وتحليلاً، فكيف إنْ وصل الأمر إلى النقد فالنبذ والإنكار.

كثيرة هي الكتب التي أشارت إلى هذا الموضوع، منها ما أشار إليه عَرَضاً دون الغوص فيه، ومنها من أسهب تفصيلاً وشرحاً دون التطرُّق إلى كل الجوانب، وهذا طبيعي، إذ يصعب على الكاتب أن يحيط بهذا الموضوع من كلّ جوانبه في كتاب واحد. ولكن يبقى السؤال الذي يدعوك إلى الخجل والألم معاً: إلامَ هذا الصمت المخزي؟ فأجد نفسي أردّد مع الباحث جورجي كنعان «دعوني أحتجّ على الملتزمين الصمت التام حيال النصوص التوراتية التي تبعث على الخجل. وأحتجّ أيضاً على المتغابين عن المنكرات، المتغافلين عن الموبقات، العاجزين عن الغضب، الخُرس عن الاحتجاج، فإنّهم يصنعون لي كلّ الألم وكلّ الحزن وكلّ الغيظ»(14). إنّه الألم الذي دفعني إلى وضع هذا الكتاب. الألم أولاً من استمرار المؤامرة الظالمة على شعبنا بدعم أحمق من معظم دول العالم، وثانياً وهو الألم الأشدّ والأعمق الذي يصيب مني الصميم، وذلك من الجهل أو التجاهل التاريخي المستمر لهذا الورم السرطاني الذي زُرِع في أرضنا، ليس كما يحلو للبعض أن يستنتج بأنّه لأسباب سياسية

اقتصادية فقط، بل بداية لأسباب دينية عنصرية. يكفي هنا أن أستشهد ببعض ما قيل في هذا المجال لإثبات ما أقول، فالحاخام مئيركاهانا يقول: «لا يمكن التمييز بين الدولة وبين التوراة. لأنّ إسرائيل لم تقم بفضل قرارات الأمم المتحدة، بل بفضل التوراة». والكاتب الروسي الصهيوني بيرتز سمولنسكن يقول: «التوراة ركيزة دولتنا. ومن دون توراة لا وجود لدولة إسرائيل». أما البروفسور اليهودي يعقوب تالمون فيقول: «إن الحق اليهودي التاريخي بفلسطين يفتقر إلى أساس ثابت إذا تمّ إقصاء مسألة الإيمان بالوعد الإلهي، وفكرة الشعب الذي اختاره الرب واصطفاه، مما يؤدي حتماً إلى إظهار اليهود بمظهر الغُزاة الفاتحين والإمبرياليين».

والسؤال التالي أوجّهه إلى نفسي: ماذا سيغيّر كتابُكَ هذا من الواقع المفروض على عقول المؤمنين منذ آلاف السنين؟ وجواباً على ذلك أقول: لو فكّر كلّ كاتب بمثل هذا السؤال لما كنّا وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم من تقدم في جميع مجالات العلوم، وللجَمْنا العقل وكبحنا جماح التفكير وحكمنا بالإعدام على حرية الفكر والتعبير. إنّه الشعور بالذنب الذي يتحكّم بالإنسان إن اعتبر نفسه ملمًّا بشيء من الحقيقة وتخاذل عن إشراك الآخرين بذلك، تَوَافَق رأيهم مع رأيه أم اختلف لا فرق، إذ لا يمكن التكهُّن بذلك، ولا يمكن التراجع لمجرد التكهُّن.

في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين ما أحوجنا إلى العقل يقود خطانا، وإلى الجرأة تعطينا جرعات من القوة المؤيِّدة بصحة العقيدة والإيمان القويم.. فأيّ إنسان يقيس نِتاج الإبداع البشري الماورائي بمقاييس العقل لا بد من أن يصل إلى الحقيقة ذاتها التي توصَّل إليها من سبقه ومن سيليه في هذا المضمار. فبعد أن قطعت شوطاً بوضع هذا البحث، لفت نظري أحد معارفي إلى كتاب «القراءات الملعونة» للكاتب جود أبو صوان، وخلال قراءتي له وجدت أنّه طرح التساؤلات ذاتها التي ألحّت عليّ عند قراءتي للتوراة، فاستنتجت بأنّ القراءة العقلانية لا بدّ من أن توصل كلّ قارئ إلى الحقائق ذاتها، تماماً كما فعل الإيمان المطلَق بأصحابه، إذ جعلهم يقبلون بكلّ المرويّات التوراتية على أنّها حقائق أيضاً.

هي محاولة متواضعة أتمنى لها أن تشكّل مساهمة في مجال فضح المؤامرة والأكاذيب التي تجد في التوراة مستنداً دينياً مقدساً، تضاف إلى محاولات من سبقني في هذا المجال، وعلّها تشجِّع من لم يزل متهيِّبا الخوض في هذا الموضوع. فبما جاء على لسان إلههم يحاربوننا لإثبات حقهم، وبما جاء على لسان هذا الإله سنحاربهم لإثبات بطلان ادّعاءاتهم وإثبات حقّنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



مدخل

«لا أعرف بين حقوق الحياة الإنسانية حقاً يمكن أن يكون مطلَقاً. كلّ الحقوق منها نسبية، وكلّ الواجبات كذلك، إلاّ حق الكلمة، فهو في رأيي حق مطلَق لا قيود عليه، ولا منتهى له. والكلمة كما نعنيها، هي الفكرة الصادرة عن رؤية واقتناع. تستهدف الخير، لا الأذى، والبناء لا الهدم. وليس يعنينا بعد هذا أن تكون أقرب إلى الصواب أو إلى الخطأ».

خالد محمد خالد

أن يتنكّب أحد اليوم، بعد ما يقارب الألفين وخمس مئة سنة على تدوين التوراة، مسؤولية الإقدام على قراءتها قراءة عقلانية واعية بعيدة عن الفكر الديني النمطي، ومتحرّرة من الضغوط الممارَسة على عقول المؤمنين باسم القداسة والألوهية، فهذا يعني كسراً للتقليد الموروث وتسليماً بعدم إمكانية لجم العقل وتدجينه وتوجيهه لكي يقول ما يخدم دائماً أصحاب الغايات السياسية، الذين يتوسّلون الدين لتحقيقها. هي مسؤولية احترام عقل الإنسان واحترام الكلمة التي صدرت عنه منذ آلاف السنين ولا تزال تكمل مشوارها دون توقف. إذن هي مسؤولية الحرية بالدرجة الأولى، ومسؤولية التحرّر بالدرجة الثانية.

خمسة وعشرون قرناً ولا نزال نرزح تحت وطأة الكلمة غير المسؤولة التي غيّرت معالم هذا العالم. ألا يكفي هذا الزمن الضائع لكي يتوقف الكذب والتزوير والتحوير والاضطهاد والإرهاب باسم الله الذي نعرفه محبةً وغفراناً وتسامحاً، ولا نقرأه في التوراة إلا بُغضاً وحقداً وكذباً وخداعاً وإجراماً وإرهاباً؟ فإذا كان من غير المسموح في فترة زمنية معينة من الجهل، أن يستعمل الإنسان العقل مقياساً لكلّ ما قد وصله كتابياً من الأقدمين، وما يتحفنا به الكتّاب المحدثون في شتى الميادين، خاصة الفلسفية منها والماورائية، فإنّه لم يعد جائزاً اليوم أن يبقى هناك أي حاجز بين صاحب أيّ رأي وبين ما يريد أن يبدي رأيه به. فلا العقل يقبل بذلك، ولا القوانين الحديثة، التي تكفل وتشدد على حرية المعتقد وإبداء الرأي، تقبل بذلك أيضاً. وحدهم المتحجّرون الذين لا يزالون يعيشون في جاهلية الكلمة والتفكير يسارعون إلى قطع الطريق على كلّ من يحاول التحرر من تسلّطهم وجهلهم.

هم يزعمون أنّهم وجدوا الحقيقة المطلَقة التي لا يمكن لأحد أن يناقش ماهيّتها، وينسون أن لا حقائق نهائية في هذا الوجود اللامتناهي الذي لم نستطع أن نكتشف منه سوى جزء لا يُذكر، ولا تتعدى نسبته نسبة الذّرّة الواحدة إلى كوكب الأرض. قال أحد المعلمين: «يجب عليك أن تتبع من يفتش عن الحقيقة وتبتعد عن الذي يقول: وجدتها». فالعِلم يؤكد يوماً بعد يوم أنّ الأرض التي نعيش عليها هي كوكب من مليارات الكواكب في مجرّتنا، ومجرّتنا هي واحدة من مليارات المجرات التي تحتوي كل واحدة على مليارات الكواكب. يقول أرنولد توينبي «فضلاً عن ذلك فشمسنا إنما هي واحدة من عدد لا يُصدّق من الشموس التي تكوِّن كوكبتنا، وهذه نفسها إنّما هي واحدة في عدد من الكوكبات التي لا يُعرف عددها (فعدد الكوكبات المعروف يتزايد مع كل اتّساع في مجال الرؤية للمَرَاقب التي نستعملها). وهكذا فإنّ أبعادنا في محيطنا الحيوي بالمقارنة مع الأبعاد المعروفة للكون الطبيعي، هي دقيقة إلى درجة متناهية»(15). ويؤكّد العالِم اللبناني جورج الحلو بأنّ هناك كواكب لا تزال تتشكّل حتى يومنا هذا، ويستمر تشكّلها لملايين السنين، وهذا يسفّه نظرية الخلق التوراتية(16).

فانطلاقاً من الحقائق العلمية الحديثة، والتي يمكن بعد حين التوصل إلى حقائق أخرى قد تكون استطراداً لما توصّل إليه العلم اليوم، أو تكون حتى نقيضاً لما نعرفه، ألا يتبادر إلى أذهاننا احتمال وجود حياة أخرى، قد تشبه حياتنا وقد تختلف عنها جزئياً أو كلياً، وأنّ الكائنات الحية الأخرى التي قد تشبهنا وقد تختلف عنا، ليس فقط بالشكل بل بطريقة التفكير أيضاً، قد تكون توصّلت إلى حقائق عن هذا الوجود مختلفة كلياً أو جزئياً عما توصّلنا إليه؟ فإذا كان هذا الاحتمال وارداً أصبحت كلّ الحقائق خاضعة لقانون النسبية، وبات من غير المقبول القول بحقائق نهائية، حتى لو كان هذا القول يتناول ما جاء في بعض الكتب التي أُطلق عليها مجازياً «الكتب السماوية». فماذا يعني هذا القول؟ هل السماء موقع محدد لوجود الله؟ وما هو تعريف السماء علمياً؟ ما هذا إلاّ تعبير مجازي دَرَجت الشعوب في طفولتها الحضارية على استعماله لانبهارها بما يختزن الفضاء اللامتناهي الذي يحيط بنا من كواكب كالشمس والقمر والنجوم، فكانت تنظر إلى الأعلى بتعجُّب ودهشة. ولمّا حاول الإنسان تفسير خلق الكون كان من الطبيعي أن ينسبه إلى قوى خارقة في الطبيعة وجدها كلها في الأعالي لأنّها واضحة للعيان، ولم يكن يعرف أنّ الأرض كروية وهي كوكب كغيره من الكواكب.

لم يكن الإنسان يعلم حتى ما في باطن الأرض، كان عقله يتعاطى مع المحسوس والمنظور من الكون الفسيح الذي يتراءى أمامه، لذلك لم يكن بمقدوره اللجوء إلاّ إلى التجريد، وإلى محاولة رسم واقع خيالي لهذا الوجود، فكانت محاولات عديدة لشرح كيفية خلق هذا الكون على يد قوة خارقة موجودة في الأعالي. فبدأ بالنظر إلى فوق لمخاطبة هذه القوة، والتوسّل إليها لحمايته ومساعدته على اجتياز مصاعب الحياة، ثم أخذ بعد ذلك يبتدع رموزاً لهذه القوة اعتمدها كوسيلة تقرّبه ممن اعتبره سبب وجود هذا الكون. فأشعة الشمس التي كانت مصدراً لدفئه وتبديد الظلمة من حوله، ثم ضوء القمر والنجوم الذي يؤنس وحشته، والبرق والرعد والمطر والثلوج كانت بالنسبه له أموراً تهبط عليه من فوق، فاعتاد أن يرفع رأسه إلى فوق معتبراً أنّ هذه القوى هي الآلهة التي تدبِّر شؤونه. وبقيت هذه المفاهيم مسيطرة على الإنسان حتى بعد اهتدائه إلى التوحيد، فهو لا يزال يعتبر أنّ الله والجنة فوق، أما الشيطان والجحيم فتحت.

هذه المفاهيم كانت مقبولة لدى الإنسان البدائي، أما اليوم فيجب ألا تبقى كذلك حتى عند عامة المؤمنين. فيما مضى كان ذلك مقبولاً حيث كان الإنسان لا يزال يعتقد أنّ الأرض مسطّحة، فكان يجيل نظره فيما هو فوقه مندهشاً، أما ما هو قائم تحت قدميه فكان لا يزال مجهولاً. أما اليوم فما هو فوق بالنسبة إلينا هو تحت بالنسبة لمن هم في المَقلَب الآخر. وللشاعر معروف الرصافي قول في هذا الموضوع: «إنّ الجهات التي نعيّن بها مواقع ما حولنا من الأشياء ليس لها حقيقة ثابتة في الخارج، وإنّما هي من الأمور النسبية التي لا تكون إلاّ بالإضافة إلى غيرها. فما علا رؤوسنا سمّيناه فوق وتخيلناه عالياً، وما سفل عن أقدامنا سميّناه تحت وتصورناه سافلاً، ونحن لو ارتقينا بمرقاة إلى سمك أبعد مما فوق رؤوسنا لصار الفوق تحتاً وانقلب العالي سافلاً. وبالعكس لو انحدرنا إلى درك أسفل مما كان تحت أقدامنا لصار التحت فوقاً وانقلب السافل عالياً. وهكذا الأمام والخلف واليمين والشمال، نقول لما استقبلناه أمام ولما استدبرناه خلف، وإذا درنا بوجوهنا إلى ما استدبرناه صار الخلف أماماً والأمام خلفاً»(17). فهل من الممكن بعد ذلك أن نحدد موطناً لله نسبةً إلى وجودنا على سطح هذه الأرض؟ وكيف نسحب هذا التحديد بالنسبة إلى بقية الكواكب؟ أليس الأجدر بنا النظر إلى الله كمفهوم روحاني لا يحدّه مكان ولا زمان؟ وانطلاقاً من ذلك ألا يحق لنا مناقشة بعض «الكتب السماوية» التي

احتكرت الله وجعلته وقفاً على شعب معيَّن ناسبة إليه أبشع الأفعال وأنكرها، والتي لا تليق بالله الواحد الذي نفهمه اليوم محبةً خالصةً، وغفراناً لا متناهياً، وتسامحاً غير محدود؟

إنّ ما ورد في كتاب التوراة الذي سيكون على مشرحة بحثنا هذا لا يمكن أن يبقى، وباسم السماوية والألوهية والتقديس، بعيداً عن مبضع العقل. وهذا ما دفع بعالِم النفس اليهودي سيغموند فرويد إلى أن يقول: «وإنّه لمما يبعث على دهشة أكبر أيضاً أن نرى هذا الإله «يختار» لنفسه على حين بغتة شعباً من الشعوب ليجعل منه شعبـ «ـه» ويعلن أنّه إلهه. هذه، على ما أعتقد، واقعة يتيمة في تاريخ الأديان الإنسانية»(18). ويضيف: «وقد يحدث أحياناً، كما هو معروف، أن يختار شعب من الشعوب إلهاً جديداً، ولكن لم يحدث قط أن اختار إله من الآلهة شعباً جديدا». ويجب أن نلاحظ أنّ فرويد قد قال «تاريخ الأديان الإنسانية» وليس السماوية، فهو بذلك نسب الأديان إلى الإنسان وليس إلى السماء أي إلى الله. فالأديان، وإن كانت تُعتبر لغاية الآن كلاماً إلهياً، فهي بالنسبة لبعض دارسي التراث البشري وليدة الفكر الإنساني وتطوُّره، وطالما هي كذلك فليس بعجيب إنْ هي خضعت دائماً لمحاولات فهم جديدة تتخطى المتعارَف عليه. وأنا أوافق الكاتب جود أبو صوّان في قوله حول العقل: «فبدون العقل لا إله. وبدون العقل لا إيمان. وأفضل الإيمان بالله هو الإيمان العقليّ»(19).

لقد سمحت الكنيسة منذ نصف قرن بمناقشة نظرياتها حول السيد المسيح، فتخطت مرحلة الانغلاق المميت، وفتحت للعقل مجالات لم يكن مسموحاً له الخوض فيها في الماضي. يقول غاري رينارد: «لألف وست مئة سنة خَلَت كانت الكنيسة تمنع بشكل صارم مناقشة الكتاب المقدس أو نظرياتها اللاهوتية. ثم فجأة في العام 1960 تغيّر هذا الموقف حيث اتّخذ المجمع الفاتيكاني الثاني قراراً قلب بموجبه السياسة التي كانت متّبعة. فبينما كانت مناقشة المفاهيم الكنسية حول طبيعة المسيح تُعدّ هرطقة، تغيّر هذا الوضع استناداً إلى المنشور الذي صدر عام 1965 وسمح بموجبه مناقشة هذه المفاهيم انطلاقاً من دراسات صادقة وتحليلات فكرية موضوعية. فطلاب المعرفة يلقون اليوم التشجيع الكافي لكي يحقّقوا في كل شيء»(20).

صحيح أنّ غاري رينارد ساق هذه الأفكار على لسان اثنين يقول إنّهما ظهرا له في منزله لفترة تسع سنوات، وهي المدة التي استغرقها تأليف كتابه «اختفاء العالم»، ولكن هذا لا يمنعني من الاستشهاد بما ذكره لأنّه لو لم يكن ضمناً موافقاً عليه، لما أورده في كتابه، أو أنّه كان علّق على هذا القول، وهذا ينطبق على كلّ ما اخترته من كتابه. والكاتب ينتقد الكنيسة في مواضع أخرى من كتابه هذا والكتاب الذي تلاه «حقيقتك الخالدة» Your immortel reality، إذ أشار إلى استنسابية اختيار مواد الأناجيل الأربعة المعتمَدة، وطمس كتب أخرى مثل إنجيل القديس توما الذي تم اكتشاف أقدم نسخة عنه عام 1945 في نجع حمادي في مصر، إلى جانب كتاب آخر يطلق عليه اسم «كلمات المعلم»، حيث يعتبر الكاتب أنّ الرسل متّى ولوقا ومرقس استقوا منهما ما يتوافق مع قناعاتهم وأهملوا الباقي. كما يقول الكاتب بأنّ ما يُروى عن حادثة وضع توما إصبعه في جسد المسيح والتي أرادوا منها إثبات شكّه ليس سوى افتراء عليه لا أساس له من الصحة. وكان المقصود منه تشويه سمعة توما لكي يبتعد المؤمنون عن قراءة إنجيله لأنّ ما ورد فيه يناقض ببعضه قناعات الكنيسة.

إنّ هذا التطور من شأنه أن يفتح الباب واسعاً أمام الدارسين والباحثين لكي يخوضوا غمار البحث في كل ما جاء به الكتاب المقدّس، وبات يحق لهم استعمال العقل نبراساً ومقياساً، وبالتالي فسح المجال

أمام حق الاختلاف بالرأي والقناعات ومناقشة المسلمات التي كان يُحرّم التطرُّق إليها بالنقد سابقاً. لهذا يقول الكاتب غاري رينارد بأنّ صحة ما يُنسب إلى السيد المسيح من أقوال وردت في الأناجيل لا تتعدى العشرين في المئة، ويعطي مثالاً على ذلك بأنّ القول «أحبوا أعداءكم» المنسوب إلى السيد المسيح قاله يوحنا المعمدان، لأنّ المسيح برأيه لم يعرف مفهوم العداء لكي يتكلم عنه. ويقول أيضاً بأنّ الناس منذ ألفَيْ سنة أخذوا يزيدون أقوالهم إلى أقوال المسيح فغيّروا رسالته لكي تتناسب مع معتقداتهم، ولم يعد ممكناً التفريق بين كلماته الحقيقية وما تمت زيادته عليها.

ولعلّ هذا التطور لم يكن وحيداً في هذا المجال، بالرغم من أنّه بقي محصوراً بنخبة من المثقفين والدارسين ولم ينتقل إلى عامة المؤمنين بعد. فلقد بتنا نقرأ دراسات عن العهد القديم قام بها باحثون وعلماء آثار يهود يؤكدون فيها على أسطورية القصص التوراتية، وبالتالي ينفون إمكانية اعتماد هذه القصص كمستندٍ تاريخي لأحداث لم تقع برأيهم، وصولاً إلى إنكار وجود شخصيات رئيسية في أسفار العهد القديم كداود وسليمان وحتى موسى بذاته ورجوعاً إلى إبراهيم. وهذا ما سنحاول المساهمة بإلقاء الضوء عليه لإزالة الغشاوة عن أعين المؤمنين، المسيحيين منهم خاصة، لأنّ انجرارهم وراء الفكر الصهيوني شكّل حتى الآن خطراً مصيرياً وجودياً على جزء من شعبنا، ولا يزال يشكّل خطراً كبيراً على كامل وجودنا القومي وحضارتنا الإنسانية. إنّ إبراز الحقائق مسؤولية كلّ المثقفين والمفكرين والدارسين المتجردين من كلّ غاية سياسية أو دينية.

قال برتراند راسل: «كلّ معرفة أكيدة تنتمي إلى العلم، وكلّ ما هو مُعتَقَد، أي كلّ ما يتعدى المعرفة الأكيدة ينتمي إلى اللاهوت، ولكن بين العلم واللاهوت تمتد أرض حرام، هذه الأرض الحرام هي الفلسفة».

انطلاقاً من هذا القول بات لزاماً علينا أن نخرج من نفق الإيمان الأعمى إلى نور الإيمان الواعي. وما انكبابنا على نفي الادّعاءات التي تنسب كلاماً إلى الله قاله لآدم أولاً ثم لرجال محدّدين من ذريته إلاّ لكوننا وجدنا، كما وجد كثيرون من قبلنا، أنّ هذه الادّعاءات فيها تسفيه كبير للعقل. وما تسليطنا الضوء عليها إلاّ من قبيل المساهمة الفكرية علّها تحفّز العقول على عدم الاستكانة إلى المفاهيم الموروثة التي أوقعتنا في مغالطات تخطّت الشأن الديني وتعدّته إلى ميادين السياسة والاجتماع، وإذا بتأثيراتها السلبية تطال الديانات الأخرى وصولاً إلى الوجود الإنساني الذي دخل عصر القوميات ولمّا يخرج منه بعد.

فأن يبقى كتاب التوراة مصدراً أساسياً لكيفية خلق الكون والإنسان وما جاء فيه بعد عملية الخلق من قصص تم ربطها بإحكام أحياناً وبضعفٍ واضحٍ أحياناً أخرى لاختراع شعب من العدم، تجمّع على بعضه في مرحلة زمنيةٍ من البداوة لا تزال فصولها غامضة حتى اليوم، وهي عملياً لا تعنينا إلاّ بمقدار ما أسبغت على هذا الشعب، ذي الأصول المجهولة كأقوام كثيرة في التاريخ القديم، صفة الشعب المختار الذي كان ولا يزال خبيراً باستغلال هذه الصفة التي طبع نفسه بها وألزم الآخرين بتصديقها انطلاقاً من ربطها بكلام منسوب إلى الله وهو منه براء، فهذا برأيي ينافي كلّ الحقائق العلمية التي توصل إليها العقل. فإذا كان في البدء الكلمة، فإنّ الكلمة اليوم أصبحت ذات مسؤولية أكبر بكثير مما كان لها يوم كان الإنسان لم يزل في بداية مشواره الحضاري، هذا المشوار، الذي لا يمكن أن نحدد تاريخه إلاّ انطلاقاً مما وصل إلينا من نتاجٍ فكري لهذا الإنسان، اعتُبر بحق بأنّه بدء

التاريخ. وبين بداية هذا التاريخ الحضاري وبين ظهور الإنسان على سطح الأرض ملايين السنين. يقول أرنولد توينبي: «فإذا حسبنا أنّ الإنسان قديمٌ قِدَم الزمن الذي أصبح فيه متعذّرا على أجدادنا أن يصبحوا شيئاً آخر سوى بشر، هذا إذا أرادوا أن يستمروا بالبقاء، فإنّ هذا يعني أنّ الإنسان قد نشأ على شكل متميّز من أشكال الحياة، في الحقبة الوسطى، ومعنى هذا أنّ الإنسان قد مرّ على وجوده حتى اليوم، بين عشرين مليوناً وخمسة وعشرين مليوناً من السنين»(21). ونقلاً عن الموسوعة البريطانية أثبت أسعد زيدان: «إنّ عمر الكرة الأرضية على وجه التقريب هو ما بين 4 مليارات و 550 مليون سنة. وتقول الموسوعة أيضاً: «إنّ الحياة ابتدأت على الأرض منذ ملياري سنة ونصف المليار». أمّا عن حياة الإنسان فتقول: «إنّ حياة الإنسان على وجه اليابسة قد ابتدأت منذ أمد لا يقلّ عن مليون سنة»(22). فملايين السنين من عمر الإنسان انقضت في عملية تطور بطيء لم يشهد قفزات كالتي نشهدها في أيامنا هذه. كان على الإنسان أن ينتظر ملايين السنين لكي يخرج من الطور الحيواني ويخطو خطوات خجولة للانفلات من عقال الغرائز مع بدء إدراكه بالتميُّز عن المخلوقات الأخرى.

هذه الحقائق التي أثبتها العلم تتناقض كلياً مع محتويات سفر التكوين الوارد في التوراة والذي فرض نفسه على كلّ الأديان بأنّه الحقيقة الوحيدة النابعة من ذات الله والتي تفسُّر عملية خلق الوجود وما عليه. فإذا ما تتبعنا ذرية آدم بدءاً بإبراهيم وصولاً إلى السيد المسيح كما ورد في إنجيل متّى نجدها تنحصر باثنين وأربعين جيلاً. وإذا افترضنا أنّ عمر الجيل الواحد مئة سنة لحصلنا على فترة زمنية تقارب الأربعة آلاف سنة، يُضاف إليها ألفان من السنين من المسيح إلى اليوم. وإذا أضفنا ما أوردته التوراة من أعمار لآدم وذريته وصولاً إلى إبراهيم والتي تُقدَّر باثني عشر ألف سنة، إذا ما سلّمنا بالأعمار التي وردت وهي تتراوح ما بين930 سنة عمر آدم و 148 سنة عمر ناحور بن سروج لوصلنا إلى رقم تقريبي عن وجود الإنسان الأول، أي آدم، وهو 18 ألف سنة. فأيّ فارق هائل بين ما أقرّه العِلم وبين اقتناع المؤمنين بما جاء في التوراة؟

وعندما نقول إنّ الحقائق يمكن أن تتغير فمردّ ذلك إلى ما يمكن أن يكتشفه المنقّبون في كلّ أنحاء العالم من هياكل عظمية ربما لا تزال مطمورة في الأرض. ولقد ذكرنا في المقدمة أنّ أقدم هياكل عظمية وُجدت حتى الآن في مغاور يبرود في سوريا تعود إلى ما يزيد على مئتَيْ ألف سنة مطابقة لمواصفات الإنسان الحديث. علماً أن توينبي يذكر أنّ جمجمة أُخرجت عام 1972 تشبه جمجمة الإنسان العاقل وقد قدَّر العلماء عمرها بمليونين وست مئة ألف سنة(23). وحول هذا الموضوع كتب د. بشار خليف ما يلي: «أمّا عن أول تواجد بشري حتى الآن، فإنّ المجال الطبيعي والجيولوجي والحيوي، مفتوح أمام أدوات البحث والتنقيب والكشف. ودوماً تقدم المعطيات الجديدة حقائق تلغي ما سبقها وتفرض ذاتها في آن واحد. فإلى حين، كانت المعطيات المتوفرة تشير إلى أنّ لا آثار بشرية أو أدوات تدل على تواجد بشري يرقى لما قبل 3,5 مليون سنة»(24). ويضيف خليف: «في كتابه (الصيادون الأوائل) يشير د. سلطان محيسن إلى أنّ دلائل أول وجود إنساني في بلاد الشام تعود إلى مليون سنة في موقع ست مرخو في اللاذقية في سوريا»(25).

ماذا يعني هذا بالنسبة لنا؟ إنّه بكل بساطة يقول للمؤمنين الذين يعتمدون كلّ ما جاء في التوراة على أنّها حقائق إلهية منزلة، بأنّ العلم اليوم يُنكر ما وصل إلينا عن طريق التوراة من نظرة بدائية للخلق.

ولما كنا قد خطونا بشكل حثيث باتجاه إلغاء الأمية، فلا يجوز مطلقاً أن نبقى أسرى المفاهيم الدينية التي توخّت الأسطورة لشرح كيفية حدوث عملية الخلق. وبناءً على ذلك تتبادر إلى ذهننا جملة أسئلة، والسؤال الأول هو: بما أنّه لم يتم التأكد لغاية الآن من كيفية وجود الإنسان الأول ومكان وجوده، فهل وُجد الإنسان في مكان واحد ومنه انطلق في كلّ اتجاه؟ وهل كان ذلك معقولاً قبل أن يدخل عصر المدنية الأول الذي خوّله تطوير اكتشافاته وصولاً إلى اختراع وسائل النقل البدائية؟ أليس من المنطق أكثر القول بأنّ الإنسان وُجد في أكثر من بقعة على هذه الأرض وربما في وقت واحد أو في أوقات مختلفة ومتباعدة؟

لقد توصّل العالِم الدكتور سبنسر ولز، والذي يعمل مع National Geographic إلى نظرية تقول بأنّ الإنسان الأول وُجد في أفريقيا منذ حوالي 60 ألف سنة، ومن هناك أخذ بالانتقال في رحلة استغرقت آلاف السنين عبر آسيا وصولاً إلى أستراليا، معتمداً بنظريته هذه على أخذ عيّنات من سكان أفريقيا وآسيا، وخاصة الهند، وأستراليا لإثبات نظريته هذه. ولكننا عرفنا أنّ العلماء اكتشفوا هياكل عظمية تعود إلى مئات آلاف السنين، وأنّ أرنولد توينبي أورد أنّ العلماء اكتشفوا جمجمة تعود إلى أكثر من مليونَيْ سنة، وهذا ما يجعلنا نؤكد أنّ المكتشفات العلمية لن تقف عند حد طالما أنّ العقل البشري يعمل ويكتشف أجهزة حديثة ومطمورات قد تعطي في المستقبل الكثير من المعلومات للدارسين، والتي قد تغيّر كلّ ما توصلت إليه الأبحاث السابقة. ولكن ما لفت نظري، خلال مشاهدتي لفيلم وثائقي حول رحلة الإنسان للدكتور ولز، أنّه خلال زيارته لإحدى القبائل الأفريقية عرّف عن نفسه بأنّه أحد أحفاد سام. وهنا لا بد لي من طرح بعض التساؤلات: أولاً كيف يمكن للعالِم أن يبقى أسير هذا المفهوم الخرافي الذي ينكره العلم؟ وثانياً: بما أنّ نظريته تقوم على أنّ موطن الإنسان الأول هو أفريقيا، فهي تناقض إذن قوله بأنّه حفيد سام الذي تقول التوراة إنّ موطنه بلاد ما بين النهرين. وهذا دليل على أنّه حتى العلماء يقعون في مغالطات نتيجة المفاهيم الدينية التي تسيطر على تفكيرهم.

والسؤال الثاني يدور حول ما بات معروفاً بأنّ الإنسان لم يعرف الكلام ولم تكن لديه لغة، فكيف أتت التوراة على ذكر كل هذه الأسماء بدءاً بآدم وحواء واستمراراً بذريتهما وصولاً إلى إبراهيم ومَنْ بعده؟ يقول فيليب حتّي: «ومن المنجزات الباهرة التي أنجزها رجل العصر الحجري القديم اللغة، تلك الوسيلة التي يتميز بها الإنسان والتي بواسطتها يستطيع أن يتصل بباقي أبناء جنسه وأن يجعل من الأفراد وحدة مترابطة»(26)، إذن اللغة هي نِتاج التطور العقلاني الإنساني الذي اخترع هذه الآلة الفكرية للتواصل في بداية الأمر، ثم بدأ باستعمالها بعدما تقدّم في مضمار الحضارة لكي يودعها كلّ نتاجه الفكري.

والسؤال الثالث هو أنّه تم التوافق بين العلماء على أنّ التوراة قد دُوِّنت بعد السبي إلى بابل وخلال قرون عدة بدءاً من القرن الخامس ق.م. في أحسن الأحوال وصولاً إلى القرن الأول بعد الميلاد، وهذا يعني أنّ الفارق الزمني، حسب التوارة، ما بين آدم والتدوين يبلغ ما يقارب الخمسة عشر ألف سنة، وبما أن لا اللغة ولا الأرقام كان لهما وجود، فكيف وصلت هذه الأسماء مع أعمار أصحابها إلى كتبة التوراة؟ ومَنْ منا اليوم، وبالرغم من كل التقنيات الحديثة والإحصائيات والتسجيل، يستطيع أن يعرف مَن هو جدّه العاشر أو الخامس؟ وحسب يوسف أيوب حداد: «يؤكد المؤرّخون أنّ الأسفار الخمسة الأولى لم تأخذ شكلها المعروف إلاّ في فترة السبي البابلي (586 - 538 ق. م.)، وأنّها نُقِّحت خلال

القرنين التاليين. كما يرجّحون أنّ سفر دانيال وعدداً من المزامير كتبت أثناء فترة الحكم السلوقي لفلسطين وبالتحديد بين 168 و165 ق.م... فإنّه لم يكتمل (العهد القديم) حتى مجمع يامينا عام 90م الذي اعترف بمعظم الأسفار المعروفة اليوم»(27).

والسؤال الرابع يكمن في عدم قدرة العقل على التصديق بأنّ الله كلّم آدم ومَنْ تبعه من نسله مروراً بنوح وإبراهيم وصولاً إلى موسى والأنبياء وكأنّ اثنين من البشر يكلّم أحدهما الآخر. فإذا كان الله هو الكلمة لأنّه البدء، فالإنسان كما بات معروفاً لم يكن ناطقاً ولم تكن له لغة بعد، فبأية لغةٍ تخاطب مع الله؟

والسؤال الخامس ينطلق من الحقائق التي بات العلم يثبتها والتي تؤكد أنّ الوقت لم يكن له معنى للإنسان الأول، وكان عليه أن ينتظر ملايين السنين في رحلة التطور لكي يصل إلى مرحلة استيعاب الوقت بتعاقب الليل والنهار، وتحديد مفهوم السنة والشهر والأسبوع واليوم والساعة والدقيقة والثانية، وأنّ الجهات أيضاً لم تكن معروفة لديه، فكيف أتى تحديد عملية الخلق بستة أيام وإلصاق صفة التعب بالله فكان له اليوم السابع للاستراحة وسُمّي سبتاً؟ وحول هذه الفكرة كَتَب ول ديورانت في موسوعته قصة الحضارة ما يلي: «كان علم الفلك البابلي الأساس الذي بُنِيَ عليه التقويم المؤلّف من اثني عشر شهراً. إنّ تقسيم الشهر إلى أربعة أسابيع، وتقسيم مدار الساعة إلى اثنتي عشرة ساعة، وتقسيم الساعة إلى 60 دقيقة، والدقيقة إلى 60 ثانية، هذه وغيرها آثار بابلية لا شك فيها باقية من أيامهم إلى أيامنا». وهذا يعني أنّه كان على الإنسان أن ينتظر ملايين السنين قبل بلوغه هذه المرحلة التي خوّلته اختراع مفهوم الوقت وبالتالي وضع أسسه.

وللمؤرّخ جيمس برستد رأي في هذا الموضوع فيقول: «لقد ترك علم الفلك الكلداني في نفوسنا أثراً لا يُمحى، على الأقل في ما يتعلق بالأسماء التي نطلقها على أيام الأسبوع مثلاً، فهذه الأيام كلّها أو بعضها تحمل أسماء الكواكب البابلية». كما يؤكد على ذلك أيضاً الأب الدكتور سهيل قاشا: «وجميع الشعوب شرقية كانت أم غربية لا تزال حتى اليوم تستعمل النظام الإثني عشري (الذي قوامه 12) أو الستيني (الذي قوامه 60) لقياس الزمن وهو النظام الذي يعود في أصله إلى الحساب البابلي الذي نقله الفينيقيون إلى أوروبا. وكذلك تقسيم السنة إلى 12 شهراً، والأسبوع إلى 7 أيام، لا يزال التقسيم الزمني المُتبَع في عهدنا هذا، وهو بابلي الأصل»(28).

وإنْ نحن أردنا الإكمال بطرح الأسئلة على ما جاء في الأسفار من أمور لا تمتّ إلى العقل والمنطق بصلة، لكانت سلسلة لا متناهية من الأسئلة التي لا تجد لها جواباً إلاّ ما يؤكده معظم العلماء الموضوعيين بأنّ هذه الأسفار ما هي إلاّ كناية عن أساطير وقصص شعبية من ذاكرة الشعوب الفولكلورية، والتي أُخذت بمجملها عن أساطير الشعوب القديمة التي كان لها الفضل باختراع الرموز وأصواتها التي تعني شيئاً محدداً، وصولاً إلى تطوير ذلك إلى حروف كتبت بها بواكير تصورها البدائي لهذا الكون وللإنسان فوق هذه النقطة الصغيرة قياساً للكون اللامتناهي.

فعملية الادّعاء الحضاري لما يُعرف بالإسرائيليين أو العبرانيين باتت سخيفة بعد التأكيدات لغالبية العلماء والدارسين والمنقّبين بأنّ الحضارة وبالتالي التاريخ يبدأ بسومر. فأرنولد توينبي يقول: «ونحن أكثر تأكداً من أنّ جنوب غرب آسيا والأجزاء الشمالية القصوى في وادي النيل، قامت بالدور

الرئيسي في العصر الحجري الحديث، وبأنّ سومر - وهي السهول الرسوبية في الجزء المنخفض من وادي الرافدين - كانت مهد أقدم المدنيات»(29).

فنحن لا نستطيع أن نتكلم عن أيّ شعب إلاّ انطلاقاً مما تركه وراءه من آثار تدل على تاريخه. ولهذا السبب توافق العلماء على اعتبار سومر أم الحضارة، واعتبار أنّ التاريخ يبدأ بسومر، فقبل سومر كان الإنسان، دون شك، موجوداً لكن وجوده يبقى خارج التاريخ لأنّه لم يكن قد عرف اللغات والكتابة ليدوِّن إنجازاته في مختلف المجالات.

يقول فراس السواح: «ولقد كان للثقافة السومرية تأثير كبير على ثقافة الشرق الأدنى القديم. فهي التي أعطت المنطقة الخط المسماري الذي غدا واسطة الكتابة لدى جميع شعوب المنطقة. وهي التي طوّرت، منذ الأزمنة السحيقة، مبادئ دينية وروحية، ظلت سائدة فترة طويلة من الزمن، حتى وصلت تأثيراتها إلى الثقافة الإغريقية في الفترات المتأخرة جداً. وهي التي وضعت أولى الملاحم الشعرية، وأولى التراتيل الدينية والقصائد الدنيوية، وأولى التشريعات والقوانين والتنظيمات المدنية والسياسية. وباختصار: فالتاريخ يبدأ من سومر»(30). وهذه العبارة الأخيرة هي عنوان كتاب المؤرِّخ «كرامر» S. N. Kramer.

ولقد أورد الباحث جورجي كنعان مقطعاً مقتبساً من موسوعة قصة الحضارة للمؤرِّخ وِلْ ديورانت جاء فيه: «إنّ بابل العظيمة كانت موطن حضارة غنية وقوية، أوجدت علم الفلك، وكان لها فضل كبير في تقدُّم علوم الطب، وأنشأت علم اللغة، وأعدّت أوائل كتب القانون، وعلّمت اليونان مبادئ الحساب وعلم الطبيعة والفلسفة. وأمدّت اليهود بالقصص الميثولوجية التي أورثوها العالم. ومنها انتقلت إلى العرب المعارف العلمية والمعمارية التي أيقظوا بها أوروبا من سباتها في العصر الوسيط»(31). ويقول المؤرِّخ هندريك فان لون: «يجدر بنا القول إنّ معرفتنا العصرية بالرياضيات والفلكِ تقوم على مبادئ أولية وضعها الكلدانيون». كما أورد جورجي كنعان أقوالاً لبعض المؤرِّخين والمفكِّرين حول هذا الموضوع نثبت أهمها. فالمؤرِّخ فان لون يقول: «يجدر بنا القول إنّ معرفتنا العصرية بالفلك والرياضيات تقوم على مبادئ أولية وضعها البابليون». والمؤرخ اليوناني هير (480 – 425 ق.م) يقول: «إنّ الهيللينيين أخذوا الساعة الشمسية والمؤشِّر الشمسي وتقسيم النهار إلى اثنتي عشرة ساعة من البابليين». والمؤرِّخ بيرار يقول في مقدمة كتابه (الفينيقيون والأوديسة): «عندما بدأ اليونانيون يتلمسون المعارف العلمية والمعتقدات الميثولوجية الآسيوية (السورية)، كان قد تجمّع في منائر الشرق بعد ثلاثين قرناً من التطور تراث عظيم من الآداب والمعتقدات. وكانت العلوم قد توصلت إلى إنجازات ضخمة في حقول الحساب والهندسة والفلك والطب والكيمياء. بينما لم يكن لدى اليونانيين قبل ذلك أية أفكار ميثولوجية أو علمية خاصة بهم. وهكذا حصدوا دفعة واحدة ومن دون جهد ثمار ثلاثة آلاف سنة من الحضارة». وهذا تأكيد على أنّ حضارة الشعوب في الهلال السوري الخصيب قد سبقت كلّ الحضارات القديمة، بل كان لها تأثير مباشر على حضارات الشعوب الأخرى التي أتت بعدها، فكانت بحق أمّ الحضارة الإنسانية جمعاء.

افتتح السومريون عهد الحضارة الإنسانية وأتت الشعوب التي استوطنت الهلال السوري الخصيب بعدهم من كلدانيين وبابليين وكنعانيين وآراميين وعرب لتكمل البناء الحضاري. أما اليهود فلم يُغنوا الحضارة الإنسانية بشيء كما يدّعون، بل لم يعطوا الإنسانية إلاّ كتاباً «سماويا» هو كناية عن

مجموعة أساطير سبقتهم إليها شعوب أهدت الحضارة الإنسانية نتاجها الزاخر بكل القِيَم الاجتماعية البنّاءة، فأتت المؤامرة الصهيونية لتطمس فضل هذه الحضارة وتنسب إلى اليهود وتوراتهم الفضل الإبداعي الخلاّق.

أما المؤرِّخ فيليب حتّي فقد قسّم تاريخ الإنسان السابق للعصور التاريخية إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى وهي الأطول واستمرت برأيه مدة تزيد على نصف مليون سنة، تركّز خلالها همّ الإنسان على إيجاد الطعام أولاً ثم جمعه ثانية تأميناً لاستمراريته. أما المرحلة الثانية والتي دامت فترة زمنية أقل بكثير من الأولى وتُعدّ ببضعة آلاف من السنين فقد تخطى اهتمامه فيها عملية التفتيش وتخزين الطعام إلى إنتاجه من خلال الزراعة. أما المرحلة الثالثة فيعتبر أنّها مرحلة اكتشاف التصنيع عندما «صنع له فأساً يدوية منحوتة نحتاً خشناً عن طريق التشظية» واستعمال الصخر الصواني في البداية ثم الانتقال إلى العصر البرونزي فالحديدي. ثم يقول: «وهكذا نلحظ أنّ الطور الأول كان طور التوحُّش، وكان الطور الثاني طور الهمجية، والثالث طور المدنية. وقد تحدّر إلينا من الأدوات والأسلحة وبقايا الخزف ومن بقايا الهياكل العظمية وغيرها ما يشكّل سجلاً لهذا التطور. وجميع هذه الأمور التي ذكرنا حدثت قبل انبلاج عصر التاريخ، التاريخ المدوّن الذي بدأ باكتشاف نظام للكتابة. وقد بدأت الكتابة بالخط المسماري البابلي (السومري) ثم بالخط الهيروغليفي في مصر وذلك قُبَيْل منصرم الألف الرابع قبل الميلاد»(32)، أي قبل ظهور شخصية إبراهيم الخليل الأسطورية بأكثر من ألفٍ ومئتَيْ سنة. وكثيرة هي المراجع التي تركها لنا علماء كبار ومؤرخون ثقات وباحثون موضوعيون حول تاريخ بدء الحضارة، وما أوردنا من كتاباتهم في هذا المجال ليس إلاّ على سبيل المثال لا الحصر.

أما فيما خصّ أسفار التوراة التي سنبحثها من جوانب شتّى فقد سبقني إلى ذلك كُثُر من الدارسين سواء لجهة نسبتها إلى الله، أو تشابهها مع أساطير الشعوب التي سبقت ظهور القبائل العبرانية في أرض كنعان، أو لجهة احتوائها على مغالطات تاريخية تقلّل من شأنها التاريخي وصولاً إلى نفيِه، أو لجهة المبالغة والتناقض الواضحَيْن في متنها، ولكن قلّة هم الذين أشاروا إلى الترابط فيما بين الإرهاب الإسرائيلي الحالي وما جاء على لسان يَهْوَه في التوراة. فكثر هم الذين درسوا أسفار التوراة ونفوا عنها صفة التاريخ وصنّفوها في خانة الأساطير. يقول فراس السواح: «لست هنا بصدد كتابة مقدمة في فلسفة التاريخ. ولكني بصدد التقديم لأخطر سردية تاريخية أنتجها هذا العوج في الفكر والسيكولوجيا الإنسانية، وهي السردية المتعلّقة بما يُدعى «تاريخ بني إسرائيل» والتاريخ اليهودي الملحق به. فهنا التقت الرؤية المنحرفة للأيديولوجيا القومية بالرؤية المنحرفة للأيديولوجيا الدينية، وتعاونتا على صياغة أكثر السرديات ضلالاً وبُعداً عن حقائق التاريخ ومنطق الرؤية التاريخية. وهنا برزت وتجلّت القصة المشبعة بالأسطورة بأقوى أشكال سطوتها وتفوّقها على الحدث والواقع، عندما تحوّلت سلسلة ألف ليلة وليلة التوراتية إلى تاريخ فلسطين القديمة، وإلى مصدر موثوق من مصادر تاريخ الشرق القديم»(33).

ولا بأس قبل الانطلاق بعملية تشريح ما ورد في أسفار التوراة، كمدخل إلى موضوع بحثنا، من أن نشير إلى أنّ الشعوب القديمة التي تُعتبر بأنّها بانية الحضارة الإنسانية الأولى، كان لها إلى جانب ما قدّمته على صعيد الاختراعات الصناعية التي استعملت لتطوير الزراعة كالفأس والمعزق،

مساهمات جلى على الصعيد الفكري الماورائي. فبعد أن استطاع الإنسان الاطمئنان إلى قوّته الفردية والجماعية بردّ الأذى عنه، سواء الطبيعي منه أم تهديدات الحيوانات المتوحشة له، أخذ يلتفت إلى ما حوله باندهاش مبعثه كل ما يحيط به. فبدأ يوجّه عقله باتجاهات جديدة من ضمن اهتماماته وأولوياته. يقول جورجي كنعان: «فكانت محاولاته التفسيرية من قبَيل (المتلمس) البديهي للقوى الكونية التي كانت وراء عملية الخلق»(34). إذن بدأ الإنسان يستوعب أنّ وراء وجوده ووجود هذه القوى الطبيعية الخارقة قوّة أعظم وأقوى أبرزتها إلى الوجود وكانت سبباً لكينونتها. ويتابع كنعان: «وحين راح يصوغ ما توصل إليه من تفسيرات لم يكن لديه القدرة على التعليل المنظّم المتماسك، أو قوة الإدراك المقرونة بالتفكير، ولا القدرة على التأمل الذهني الذي نعرفه اليوم. فعمد إلى صياغة أفكاره أو تفسيراته للكون والخليقة في قالب قصصي خيالي هو ما ندعوه اليوم ميثولوجيا (التكوين) و(الخليقة) و(الأصول)، التي يندر أن يخلو منها تراث مجتمع».

وللباحث الأب الدكتور سهيل قاشا رأي مماثل في هذا المجال: «لقد كانت مسألة بدء العالم والحياة والإنسان، من أولى المسائل التي ألحّت على العقل البشري، والتي تصدى لمعالجتها منذ فجر طفولته، فلا نكاد نجد شعباً من الشعوب إلاّ ولديه أسطورة أو مجموعة أساطير في الخلق والتكوين وأصول الأشياء، نزولاً إلى العصر الحديث، حيث احتلّت هذه المسألة الجانب الأكبر من ميتافيزيقيا جميع الفلسفات، وشغلت حيِّزا هاماً في العلوم الحديثة، فحلّت النظريات العلمية محل الأسطورة، ومحل التأمل الفلسفي المجرد»(35). وفي هذا المجال نضيف بأنّ شعوباً كانت سبّاقة إلى هذه التأملات بالوجود وأخرى كانت متأثرة بما أنتجته الشعوب المتقدمة عليها زمنياً وحضارياً فقلّدتها، وجاء التقليد ناجحاً أحياناً وفاشلاً أحياناً أخرى. مثال على ذلك ما يؤكده الأب سهيل قاشا إذ يقول: «وليست الأساطير العبرانية المتأخرة سوى اقتباس وتطوير وتحريف للأساطير البابلية القديمة»(36).

ولم يقتصر تشابُه المعتقدات بين الشعوب على عملية تفسير خلق الكون والكائنات فحسب، بل تعدى ذلك إلى الطقوس والشعائر. ويعدّد فراس السواح تشابُه العادات في العالم القديم لجهة قتل الملوك ويعتبر ذلك جزءاً من الأيديولوجيا الملوكية الكنعانية التي نجد مثيلاً لها لدى قبائل الشايلوك التي كانت تسكن ضفاف النيل، كذلك الأمر في موزامبيق وأنغولا وروديسيا ومملكة كوردوفان في جنوب السودان، ثم انتقلت هذه الأيديولوجيا إلى اليونان والرومان والبلاد الإسكندينافية. فسواء تأثرت الشعوب بعضها ببعض، بالنتاج الفكري أم تشابَه هذا النتاج عن غير قصد نتيجة لجوهر العقل البشري الواحد، فإنّ هذا لا يعطي الحق للشعوب الحديثة أن تنسب إليها فضل الإبداع بما سبقتها إليه شعوب أخرى. ومن يرجع إلى دراسة طقوس العبادة لدى الشعوب القديمة يجد تشابهاً ملحوظاً بكيفية نظرة هذه الشعوب إلى الآلهة ودورها في حياة الإنسان، وصولاً إلى موتها وقيامتها(37). وخلال دراستنا لأسفار التوراة ستتضح لنا هذه النقاط بشكل واضح، خاصة عند مقارنتها بما ورد في الأساطير التي سبقتها.

أما لماذا لم يزل عامة الناس يؤمنون بأنّ التوراة هي الكتاب الديني السماوي الأول، وبأنّه يحتوي على الحقائق السماوية التي يجب ألا يفكر أحد بمعارضتها لأنّه بذلك يكون قد عارض مشيئة الله، فإنّه يعود لسببين:

الأول هو نجاح اليهود منذ القديم بدمج أسفار العهد القديم بأسفار العهد الجديد لكي يُضطر كل مسيحي إلى قراءتها قبل قراءة الأناجيل، ومن خلال الإيحاء للمسيحيين بأنّ جذور المسيحية تعود إلى اليهودية. لقد نجح اليهود في هذه المؤامرة، ونجحوا أكثر عندما أضافوا، كما يعتقد كثيرون من المؤرخين، في بداية إنجيل متّى مسألة نسب السيد المسيح وربطه بداود، لكي يوهموا المسيحيين بأنّ المسيح يهودي، وهو جاء ليكمل الناموس لا لينقضه. يقول شوقي خير الله: «خدعة جمع العهد الجديد إلى (العهد القديم) في كتاب واحد هي مؤامرة طال أمدها وينبغي أن تُلغى، وبخاصة أنّ اليهود يبغضون مريم أم يسوع أكثر مما يبغضون الابن»(38). ويقول الأب سهيل قاشا: «هذا الكتاب (التوراة) تمكّن اليهود من نشره واعتباره أهم كتاب في أوروبا في فترة القرون الوسطى المظلمة، فعملوا على إبرازه، وعلى اعتماده بأنّه كتاب مقدَّس، وعلى اعتباره أساساً تاريخياً للبشر... عبر هذه المقولة... أتوا (اليهود) إلى الكنيسة ببدعة ما يسمى الكتاب المقدس، فوحّدوا التوراة بالإنجيل زاعمين أنّ التوراة هو العهد القديم عهد الرب يهوه لشعبه المختار، والرب جدّد عهده مرة ثانية مع يسوع المسيح»(39). واضح من هذا الكلام أنّ قصد اليهود كان إضفاء صفة الألوهية على أساطيرهم الخيالية لاستغلالها باتجاهين: الأول، رفع الاضطهاد الذي كان يلحق بهم في أوروبا نتيجة سوء أعمالهم، والثاني، إبراز الحق الإلهي بأرض فلسطين بغية نَيْل دعم الدول الأوروبية لهم، وكان لهم ذلك.

أما السبب الثاني فيعود إلى كلّ مؤمن من حيث نظرته الخاصة إلى الدين وكيفية التعامل مع ما ورد في الكتب الدينية. وهنا لا بد من الإشارة إلى أنّ غالبية المؤمنين العظمى في كلّ الأديان تأخذ ما جاء في الكتب الدينية على أنّه مسلّمات لا يمكن مناقشتها.

بعد المسيح قام بعض تلامذته اليهود بكتابة ما بشّر به، لكنّ كتاباتهم ظلت محكومة، بعامل الخوف، بمفاهيمهم التوراتية إلى حدّ ما، ولأنّهم كانوا يخافون من مؤامرات اليهود التي أودت بحياة المسيح نفسه، لم يتجرأوا على مواجهتهم في أغلب الأحيان، فغدا كتاب التوراة الجزء الأول من الكتاب المقدس. ولكنّ هذا الكتاب لاقى سخط الكنيسة في أوروبا في العصور الوسطى فمنعت أتباعها من قراءته، وقامت معظم الدول الأوروبية بطرد اليهود منها. ففرنسا طردت اليهود عام 1306 وحذت حذوها كل من سكسونيا عام 1348، وهنغاريا عام 1360، وبلجيكا عام 1370، وسلوفاكيا عام 1380، والنمسا عام 1420، والأراضي المنخفضة عام 1444، وإسبانيا عام 1492، وليتوانيا عام 1495، والبرتغال عام 1498، وإيطاليا عام 1540، وبافاريا عام 1551. ومرّت سنوات عديدة قبل أن يُسمح لهم بالعودة، وبعض الدول أعادتهم ثم طردتهم من جديد. فما كان من اليهود، وقد علموا مقدار الكره الذي يكنّه لهم المسيحيون في أوروبا، إلاّ أن بدأوا بإدخال اليهود إلى الكهنوت المسيحي لنشر مذاهب جديدة والسيطرة على مراكز القرار، ومنها الكالفينية واللوثرية. يقول وليام غاي كار: «وقد قرّ قرار المتآمرين أول الأمر على شق الشعب الإنكليزي وإيقاع الخلاف بين الكنيسة والدولة، وللوصول إلى ذلك أدخلوا الكالفينية. وعلى العكس مما يعتقد كثير من الناس فإنّ مذهب كالفن كان من صنع اليهود، وقد استعملوه خصيصاً لإيقاع الانقسام بين المسيحيين وشق الشعب. أما الاسم الأصلي لكالفن فهو كوهين»(40).

ويقول مترجمو (العهد العتيق) طبعة المرسلين اليسوعيين لسنة 1876 في المقدمة: «لا يخفى أنّ جماعة المبتدعين من الشيعة البروتسطانتية منذ دخلوا البلاد السورية ما زال جلّ همهم مناصبة الإيمان الكاثوليكي بما هو جارٍ من أعمالهم في كلّ بلدة نزلوا فيها وقد لفّقوا في الدين كتباً شتى شحنوها بالقدح في حق البيعة المقدسة وتخطئة تعليمها الصحيح الطاهر وأكثروا عليها من الإرجاف والتحريف». ولو اكتفى المترجمون بالرد على تحريف الأناجيل المسيحية لكان عملهم مشكوراً، لكننا سرعان ما نتبيّن أنّهم يعنون كتاب التوراة لا الأناجيل. وهنا من حقنا أن نتساءل لماذا على رجل الدين المسيحي أن ينبري للدفاع عن التوراة، بدلاً من دفاعه عن الأناجيل المخترَقة من المفاهيم اليهودية، ودفاعه عن المقدّسات المسيحية التي يسعى اليهود دوماً إلى تدنيسها؟ فهم بسذاجتهم ما زالوا يعتبرون التوراة (كتاب الله)، ويا ليتهم اكتفوا بمواجهة من لا يزال يخطط لهدم الإيمان والكنيسة معاً فيقومون: «بما يقتضيه مجد الله وشرف الكنيسة»، لا بترجمة دقيقة للتوراة صوناً لها من تهم الهراطقة، بل بفضح «الكتاب الذي قدّم أسوأ النماذج الإنسانية وأكثرها مدعاة للنفور والإزدراء والاشمئزاز» (من عنوان كتاب جورجي كنعان فضح الكتاب).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والمؤسف هو أنّ توجيهات الفاتيكان لا تزال تركّز على أنّ العهد القديم ألّفه الرب وأوحى به إلى الكَتَبة. يقول الأب مايكل برير: «وقد أعادت توجيهات الفاتيكان بإيجاز وإجمال تعاليم الكنيسة الكاثوليكية عن الرؤيا: إنّ الحقائق المكشوفة سماوياً التي تحتويها النصوص المقدسة وتقدمها قد التزمت الكتابة بوحي من الروح القدس. فالكنيسة أمنا المقدّسة، التي تعتمد على إيمان الرسل، متمسّكة بأسفار العهد القديم والعهد الجديد معاً، وبكافة أجزائها، بصفتها مقدسة ومعترَف بصحتها، لأنّها كُتبت بوحي من روح القدس وأنّ الرب هو المؤلِّف، وتم تسليمها بما هي عليه إلى الكنيسة نفسها»(41). وهذا التصريح دعا الأب برير إلى التساؤل: «أوَليست الحقيقة التي تصوّر الرب بأنّه لا يوفق حتى بين الحد الأدنى من القِيَم الخلقية لإعلان الأمم المتحدة حول حقوق الإنسان أو بحسب توصيات اتفاقية جنيف الرابعة، إنّما تطرح أسئلة جادة لفهم ساذج لطبيعة الوحي الإلهي... ومع ذلك وفي ضوء الكشف المستمر لطبيعة اللغة وتعقيد خلق الرب ومراميه التحريرية بات واضحاً وجود حاجة إلى إعادة النظر في أسس المبدأ القائل إنّ النصوص حقيقة موحى بها»(42).

يقول جورجي كنعان حول الأسباب التي ما زالت تؤثر على الناس لجهة مراجعة معتقداتهم ما يلي: «أو لأنّ الناس في مجتمعنا ترفل في عهرٍ فكريّ ضعيف. فواحد يحتمي بالورع وآخر يخشى الاقتراب من المقدسات، وثالث تحدوه رغبةً ضارية في التهرُّب من مواجهة الحقيقة، ورابع يصرّ على التعامي، وعلى ممارسة عملية دفن العقل في رمال التقوى. ولذلك فهو، هو، باستعداده لتصديق كلّ ما هو مُدوَّن في الكتاب المقدس، واعتباره مسلّمات غير قابلة للنقاش، ولا تحتمل التساؤل أو التفكير، يعبّر عن سذاجة غريبة، وبساطة مدهشة، وجهل مدقع. وباختصار، يعبّر عن محنة الوعي في مجتمعات مختلفة»(43). فلغاية الآن لم يتناسق التقدم العلمي والتكنولوجي الذي كان نتيجة لتطور العقل البشري، مع تخلّف هذا العقل عن ولوج باب المناقشة الروحانية الموضوعية لأسس الإيمان، لأنّ الإيمان بالله الواحد لا يتعارض أبداً مع التدقيق بما جاء في الكتب التي بات من المتعارَف عليه بأنّها سماوية. وإذا كانت أسفار التوراة قد بقيت لفترة طويلة من الزمن بمنأىً عن النقد والمساءلة، وإذا كان استمرار اعتبارها المرجع التاريخي القديم الوحيد عن العبرانيين وعن الشعوب القديمة، فإنّ

هذا الواقع قد تبدل بعد اكتشاف ما خلفته الحضارات السومرية والبابلية والكلدانية والكنعانية والأشورية والآرامية. هذه الحضارات كلّها أقدم بكثير من ظهور العبرانيين على مسرح الأحداث في بلاد ما بين النهرين ثم في أرض كنعان.

إنّ ما كشفه علماء الآثار في أواخر القرن العشرين جاء ضربة قاضية للمؤرّخين، الصهاينة منهم والمسيحيين المتهوّدين، والذين لا يزال كثيرون منهم يكابرون غير آبهين بما يقدّمه المؤرّخون الموضوعيون من إثباتات تشير إلى أنّ كل المحاولات السابقة لخلق سند تاريخي ثابت لما باتوا يطلقون عليه (الشعب اليهودي) هي محاولات لا تمت إلى العلم ولا إلى المنطق ولا إلى التاريخ بأية صلة. بل أنّ المؤرخين الصهاينة والمتصهينين، منهم عن سابق تصوّر وتصميم ومنهم عن غباء أو عدم معرفة، حاولوا تزوير الحقائق لكي تتناسب مع غاياتهم السياسية عبر سعيِهم لمطابقة المكتشفات الأثرية مع مرويّات التوراة حتى لو اضطروا إلى تسخير ضمائرهم وموضوعيتهم العلمية لإثبات نظرياتهم. وهم لو اكتفوا بذلك لكان الأمر سهلاً، فقد كانوا يقومون بطمس الحقائق وصولاً إلى طمس تاريخ بلد كامل يعود إلى ما قبل بروزهم إلى الوجود عندما كانوا يرون أنّها تتعارض مع مساعيهم الهادفة إلى مطابقة ما يتكشّف لهم أثناء تنقيبهم عن تاريخهم المزعوم مع سرديات أسفار التوراة.

يقول شلومو ساند، وهو بروفسور يهودي: «عندما كانت تكتشف أحياناً معطيات تهدد صورة الماضي المتواصلة والمتسلسلة لتاريخ اليهود فبالكاد كان يتم ذكرها حتى، ورغم تسرُّب بعضها فقد تم (نسيانها) ودفنها بسرعة في مهاوي النسيان»(44). ويقول كيث وايتلام: «والخطاب المسيطر النابع من الدراسات الكتابية قد أسدل ستاراً على الوسائل التي أفرغ بها مصطلح فلسطين من الأهمية المكانية والزمانية، وصار التاريخ الفلسطيني واحداً من تواريخ كثيرة مقصيّة، مفرغة من الأهمية وفق شروط التاريخ العالمي ومبعدة إلى ما قبل التاريخ. ولقد أنقذت أوروبا والصهيونية في ما بعد الأهمية التاريخية للمنطقة من خلال بحثها عن إسرائيل: وهو بحث عن جذورها، الثقافية والحضارية، والتي كتمت التاريخ الفلسطيني. وإلى هذا التلفيق ذاته يجب أن نلتفت الآن لكي نستطيع تفسير الطرائق التي استطاع خطاب الدراسات الكتابية المهيمن من خلالها أن يحقق ذلك باسم البحث العلمي الموضوعي»(45).

وكان الكُتّاب الصهاينة يشنون حملات واسعة من الإدانة والتجريح والتشهير وصولاً كالعادة إلى الاتهام باللاسامية لكلّ من يحاول التعرض لتاريخهم أو لما يدعونه كتابهم المقدس بكل ما يحويه من أساطير وقصص شعبية مليئة بروح الإجرام والإرهاب. وهذا ما كانوا يفعلونه أيضاً مع الكُتّاب اليهود ومنهم شلومو ساند الذي قال: «اتّهمني المؤرّخون الصهاينة بأنّي مُنكر الشعب اليهودي»(46). وأضاف: «إلاّ أنّي لا أعتقد بأنّه كان في أيّ زمن مضى شعب يهودي واحد مثلما لم يكن هناك شعب مسلم واحد. لقد كان هناك ولا يزال يهود ومسلمون في التاريخ، وتاريخهم غني، متنوّع ومثير»(47). ثم أشار إلى ما قام به علماء الآثار الذين جنّدتهم حكومة إسرائيل للتنقيب ومطابقة ما يتم استخراجه من تحت التراب مما تركه الأقدمون مع ما ورد في أسفار العهد القديم لكي يثبتوا حقهم التاريخي في فلسطين من منطلق إلهي: «صحيح أنّه ظهرت هنا وهناك تناقضات معيّنة وأنّ جزءاً من المواد المكتشفة تمرّدت على عدم مراعاة النص المقدس، غير أنّ علماء الآثار قاموا جرياً على عاداتهم بحل المشاكل بطريقة تبريرية مُحكَمة استنطقوا فيها المعطيات الصماء كما يحلو

لهم ولاءموها لتتناغم مع الأصوات المتنفذة القادمة من كتاب التناخ»(48). ويتطرق الكاتب إلى نقطة بغاية الأهمية وهي أنّ التنقيب تركّز أولاً في الأراضي التي احتُلّت عام 1948، أمّا بعد احتلال المزيد من الأراضي عام 1967 فقد اتّسعت دائرة التنقيب علماً أنّه لم «يكن علماء الآثار الإسرائيليون مخوّلين حسب القانون الدولي بالحفر والتنقيب عن الآثار في المناطق المحتلة، ناهيكم عن سلب آثار قديمة منها، ولكن هذه كانت أرض (الوطن القديم) فمن ذا الذي يجرؤ على الاحتجاج؟». وللذين يرغبون بالمزيد من الوقوف على آراء المؤرخين الصهاينة، وتآمرهم على تاريخ منطقتنا ورأي بعض المؤرخين الثقات، الرجوع إلى كتاب شلومو ساند (اختراع الشعب اليهودي) الذي يُعتبر وثيقة إدانة لما قام به المؤرخون الصهاينة والمتصهينون إرادياً أو بفعل توجيه من حكومات إسرائيل المتعاقبة، مما حدا بالكاتب إلياس خوري إلى التعليق عليه بقوله: «مقولات ساند تذهب إلى المحرّم وتفككه، وهو بهذا ينقل النقاش التاريخي الإسرائيلي من إطار المؤرخين الجدد الذين كشفوا وقائع النكبة والطرد المنظّم العام 1948، إلى أفق جديد قوامه إعادة نظر جذرية في المُسلّمات الصهيونية وإخضاعها لمحاكمة تاريخية جذرية». يكفي أن نقتبس من الكتاب الفقرة التالية لكي ندرك أنّ الضغوط لا تفعل فعلها دائماً خاصة عندما تُوجّه لرجال نذروا أنفسهم لخدمة العلم لا غير، «باحثون آخرون ليسوا إسرائيليين، وفي مقدمتهم الأميركي توماس طومسون الجريء، أدركوا في مرحلة مبكرة جداً انعدام المنطق في هذه التأرخة المربكة، تماماً مثلما أدركوا انعدام الصدقية في التأرخة السابقة لألبرايت وورثته. هؤلاء الباحثون اقترحوا عوضاً عن ذلك التعاطي مع مجمل قصص الآباء على أنّها مجموعة قصصية مُختلَقة اخترعها في مرحلة متأخرة باحثون لاهوتيون أكفّاء»(49).

وشلومو ساند ليس الوحيد الذي توصل إلى هذه الحقيقة، ولا الذين استشهد بأبحاثهم كانوا الوحيدين الذين تجرؤوا على معارضة الفكر الصهيوني، فلقد قدّم فراس السواح عرضاً لآراء بعض المؤرخين حول هذا الموضوع: «إنّ جُلّ المؤرخين والآثاريين اليوم يعترف بعدم وجود مرجعية غير توراتية، يمكن أن تسهّل إقامة وضع إطار تاريخي لأحداث سفر التكوين. من هنا، فإنّ واقع البحث الأكاديمي يتدرّج بين موقف معتدل يقول بوجود عناصر تاريخية في روايات الآباء، من دون إرجاع هذه الروايات لأية فترة زمنية تاريخية محددة، إلى الموقف المتحرّر الذي يرى بأنّ روايات الآباء ليست إلاّ من قبيل القصّ الخيالي ولا تتمتع بسند تاريخي. فالباحث ديفو الذي يقف موقف الوسط بين المحافظين والمتحررين، يُظهر في كتابه الموسوعي عن تاريخ إسرائيل شكّه بإمكانية إرجاع عصر الآباء، بثقة علمية، إلى فترة تاريخية معيّنة»(50). ثم يستطرد إلى أقوال مؤرخين وباحثين آخرين مثل «فان سيتر» الذي توصل «إلى نتيجة مفادها أنّ البيانات المتوفرة حتى الآن غير كافية وغير مقنعة، وأنّ قصص الآباء لم تكن في أصلها تقاليد مكتوبة أو شفهية متداولة من عصور البرونز الوسيط، بل هي قصص مكتوبة وموضوعة لأول مرة خلال فترة السبي البابلي وما بعده». ثم ينتقل إلى ما قاله الباحث ماك كارتر من أنّه: «علينا أن ننتبه دوماً، في دراستنا لروايات الآباء، إلى أنّ هذه الروايات هي أيديولوجيا وليست تاريخاً». بعد ذلك يتوصل فراس السواح إلى خلاصة مفادها: «أنّ ما قدمناه من نقد نصي وتاريخي وأركيولوجي لسفر التكوين، وما استعرضناه من نتائج البحث الأكاديمي الحديث خلال ربع القرن الأخير من القرن العشرين، لا يؤدي بنا إلاّ إلى إسقاط عصر

الآباء تماماً من مرتبة التاريخ، وجعله في زمرة الملاحم الشعبية والقصص البطولي المعروف في تراث كل الشعوب».

وأزيد أنا على ذلك فأقول: لا ينبغي اعتبار عصر الآباء فحسب في زمرة الملاحم بل أنّ أسفار التوراة جميعها، بدءاً بالتكوين، ما هي إلاّ نشاط لفكر الكَتَبة اليهود الذين تعرّفوا إلى أساطير السومريين وغيرهم من الشعوب القديمة خلال وجودهم في بابل بعد أن قضى نبوخذ نصّر على مملكة يهوذا وخرّب مدينة أورشليم وأجبر معظم أهلها على الانتقال والعيش في بابل. وهذا الإجراء كان متَّبعا لدى الأشوريين مع كل الشعوب التي انتصروا عليها، ولم تكن أبداً وقفاً على اليهود كما يحاولون تصويره. وتركيزهم على عملية السبي إلى بابل ما هو إلاّ من قبيل تحريك مشاعر الناس ليشعروا بالشفقة عليهم في عملية ابتزاز واضحة درجوا على استخدامها لتحقيق مصالحهم قديماً، واستمدّوا منها حديثاً المثال فإذا بهم يستغلون ما أسموه بالمحرقة النازية (الهولوكوست) لابتزاز، ليس ألمانيا فحسب، بل معظم الدول الأوروبية بشكل خاص والأميركية بشكل عام.

وتوضيحاً لهذا الموضوع كتب فراس السواح ما يلي: «لم تكن عمليات التهجير المنظَّمة التي ابتدأت فعلياً في عهد تفلات فلاصر الثالث، بالأمر الثانوي في الأيديولوجية السياسية للإمبراطورية الأشورية، بل كانت عمادها الرئيسي. فلقد طالت سياسة التهجير كلّ المناطق الواقعة تحت سيطرة أشور، من إيران والخليج العربي صعوداً إلى جبال طوروس فهبوطاً نحو الساحل الفينيقي وصولاً إلى حدود مصر. وكانت لها نتائج عميقة الأثر على التكوين السياسي والسكاني والاقتصادي للأراضي المقهورة. وقد وصلنا حتى الآن حوالي150نصاً أشورياً تذكر عمليات ترحيل واسعة النطاق، والشعوب التي طالتها هذه العمليات، والمناطق التي تم تهجيرها إليها»(51). ثم يكمل: «يذكر العديد من نصوص الترحيل الأشورية أنّ شعوباً بأكملها قد سيقت إلى المنفى... أما عن أهداف سياسة التهجير الأشورية فمتعددة. فأولاً، كان التهجير بمثابة عقوبة للشعوب الثائرة، وثانياً، كان توطين المهجَّرين في المناطق الجديدة يستهدف تغيير التركيب السكاني في المناطق المتمردة، وثالثاً، كان قسم لا بأس به من المهجرين يوطّن في مناطق خالية من السكان بهدف إحيائها اقتصادياً والاستفادة منها لصالح التاج الأشوري»(52). ويقول حول الموضوع ذاته: «وقد غيّرت سياسة الترحيل الأشورية الخارطة الديموغرافية للشرق القديم بكامله، بعد أن طالت أكثر من 100 شعب وفق معلومات السجلات الأشورية ذاتها»(53).

فإذا كانت هذه هي سياسة الدولة الأشورية آنذاك فلماذا لم يتم التركيز إلاّ على نفي أبناء يهوذا؟ ألم يكن ذلك بغية تحقيق مصالح سياسية حيث لا يزال هذا التركيز ساري المفعول لغاية اليوم؟ ألا تستغل الصهيونية العالمية ما يسمى باضطهاد اليهود في العالم بدءاً من السبي الأول مروراً بالثاني وتدمير الهيكل، وصولاً إلى الثالث والتدمير الثاني للهيكل، والذي بات يُنكره معظم الدارسين وبينهم يهود، وانتهاءً بالهولوكوست في أربعينيات القرن الماضي والذي تثار حوله تساؤلات كثيرة أيضاً سنأتي على ذكرها لاحقاً؟

وحول السبي هناك آراء جريئة لباحثين يهود يستشهد بهم شلومو ساند فيقول: «أثبت حاييم ميلكوفسكي، وهو باحث من جامعة بار إيلان، أنّ مصطلح «جلوت» (منفى) وصف في القرن الثاني والثالث للميلاد عملية استبعاد سياسية وليس عملية اقتلاع من البلاد. أما يسرائيل يعكوف يوفال، وهو

مؤرخ من الجامعة العبرية فقد سعى إلى إثبات كون الميثة اليهودية المتجددة حول عملية النفي قد صُمِّمت عملياً في فترة متأخرة نسبياً، وذلك بالأساس بسبب ظهور الميثولوجيا المسيحية التي تحدثت عن نفي اليهود كقصاص لهم على صلب المسيح ورفض بشراه»(54).

وهنا لا بد من أن نشير إلى أنّ النفي إلى بابل لم يكن ذا نتائج سيئة على اليهود، لأنّهم عوملوا بالحُسنى، وفُتحت أمامهم مجالات للعمل والتقدم، وفرص للتعلّم، لأنّهم لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة بشكل عام. وخلال المنفى إلى بابل واتتهم الفرصة ليغرفوا من مَعين الحضارة البابلية فاستغلوها، وتغلغلوا في البلاط الملكي وتبوأوا مناصب رفيعة. وكان من نتيجة ذلك أنّه عندما قُدِّر لقورش أن يقضي على بابل، أجاز لليهود أن يعودوا إلى يهوذا لبناء الهيكل حسب زعمهم، فرفض كثيرون فكرة العودة لأنّهم كانوا قد استساغوا الإقامة في بابل، المدينة المتحضرة التي قدّمت لهم فرصاً لم يكونوا ليحلموا بها أبداً. يقول شلومو ساند: «والجدير بالذكر أنّه عاشت في بابل منذ القرن السادس ق.م جالية يهودية لم تسعَ قط نحو (العودة) فعلياً إلى الديار المقدسة»(55).

والمستوى المعيشي الرفيع الذي توصلوا له كان دافعاً للنبي إرميا لكي ينصحهم بكلام نَسَبَه إلى الله في الإصحاح التاسع والعشرين: «هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لكلّ السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل. ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمارها. خذوا نساءً ولدوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم وأعطوا بناتكم لرجال فيلدون بنين وبنات وأكثروا هناك ولا تقلقوا. واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلّوا لأجلها إلى الرب لأنّه بسلامها يكون لكم سلام».

على كلام إرميا هذا لنا ملاحظات عدة، أولاها إعادة سبب السبي إلى إرادة إله إسرائيل وذلك كنتيجة لغضبه عليهم لأنّهم خرجوا على الشريعة والناموس فكان عقابهم السبي. فماذا نقول إذن بكلّ الحروب التي خاضتها الدول، بعضها ضد بعض، ولا تزال؟ كيف تكون الحروب ضد إسرائيل القديمة والحديثة أمراً من الله، وتكون كلّ الحروب الأخرى من صنع الإنسان؟ بل أكثر من ذلك، لماذا حرب الأشوريين على إسرائيل ويهوذا من صنع الله، وبقية حروب الأشوريين التي خاضوها في الهلال الخصيب كلّه وصولاً إلى مصر كانت لتثبيت أركان المملكة؟ وثانيتها دعوته اليهود إلى الاندماج في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والحياتية لدرجة أنّه خالف الشريعة عندما طلب إليهم التزاوج المتبادل بينهم وبين أهل بابل، إذ ورد في الإصحاح السابع من سفر التثنية ما يلي: «متى أتى بك الربّ إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين سبع شعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم الربّ إلهك أمامك وضربتهم فإنّك تحرّمهم. لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم. بنتك لا تعطِ لابنه وبنته لا تأخذ لابنك». وهذا الكلام هو من وصايا موسى التي ادّعى أنّ الله أنزلها عليه حيث يقول في بداية الإصحاح السادس: «وهذه هي الوصايا والفرائض والأحكام التي أمر الربّ إلهكم أن أعلّمكم لتعملوها في الأرض»... فلماذا خالف إرميا وصايا موسى؟ السبب واضح برأيي وهو أنّه رأى أنّ مصلحة اليهود تقضي بمهادنة الحكم الأشوري القوي «لأنّه بسلامها يكون لكم سلام». وهذه هي ملاحظتنا الثالثة على كلامه إذ هي المرة الأولى، والوحيدة على ما أظن ،التي يرد فيها كلام جيّد على لسان أحد أنبياء إسرائيل يخصّ أعداءها. فالمسألة لا تعدو كونها تستّراً وتقيةً إلى حين يأتي أوان الانتقام بدليل قوله (12:25): «ويكون عند تمام السبعين سنة أنّي أعاقب ملك بابل وتلك الأمة يقول

الرب على إثمهم وأرض الكلدانيين وأجعلها خِرَباً أبدية». فلماذا بدّل الرب موقفه من بابل التي كان من قبل يطلب إلى شعبه «اليهود» أن يخدموا ملكها كما يجب أن تفعل كلّ الشعوب؟ ففي الإصحاح (5:27) نقرأ: «إنّي أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي على وجه الأرض بقوتي العظيمة وبذراعي الممدودة وأعطيتها لمن حسن في عينيّ (نبوخذ نصّر). والآن قد دفعت كلّ هذه الأراضي ليد نبوخذ نصّر ملك بابل عبدي وأعطيته أيضاً حيوان الحقل لتخدمه. فتخدمه كلّ الشعوب وابنه وابن أخيه حتى يأتي وقت أرضه أيضاً فتستخدمه شعوب كثيرة وملوك عظام. ويكون أنّ الأمة التي لا تخدم نبوخذ نصّر ملك بابل والتي لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل أنّي أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوبأ يقول الرب حتى أفنيها بيده».

فهل يعقل أن يُقدم الله على معاقبة أمة بكاملها بالقتل والجوع والوبأ لأنّها لم تذعن لأحد الفاتحين؟ هل هو الله حقاً أم هم كَتَبَة أسفار التوراة الذين نسبوا كلاماً من عندهم وقوّلوا الله بما يندى له جبين الإنسانية؟ إنّ هذه الأفكار السامة التي درجنا على تعليمها لأجيالنا لم تعد تتحلى بصفة القداسة حيث «كان اكتشاف رُقَم سومر وبابل وأشور وماري وأوغاريت، بداية لظهور اتجاه علمي جديد ينقد كتاب التوراة ويمحّصه بمنهج منفتح بعيد عن التعامل معه ككتاب مقدس يجسّد كلمة الإله الموحاة، وتمت إعادة النظر بمجمل معطياته التاريخية والأدبية والدينية على ضوء النصوص المكتشفة»(56).

وهذا هو الكاتب جود أبو صوان يطلب من رجال الكنيسة قراءة التوراة قراءة جديدة: «بالله عليكم يا رجال الكنيسة: كهنة وقساوسة، وإكليريكيين! بالله عليكم أيّها المسيحيون المثقفون في كلّ شيعكم ونحلكم، بكلّ درجاتكم ومن مختلف شعوب العالم بكلّ أديانه وأفكاره أن تعيدوا قراءة التوراة!... ادرسوها بوعي، وتبصّروا فيها ثم احكموا علينا، علّنا من الضالين ومن الذين لم يفهموا ما قرأوا، واهدونا السبيل فيكون لكم الأجر العظيم أو أعلنوا الحقيقة وقولوا الحق فيحرركم ونكون قد أوفيناه»(57)!

فهل من يسمع نداء العقل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الأول

الفصل بين الأصل والنحل

«في سبعينيّات القرن التاسع عشر، أي بعد تشارلز داروين ومؤلّفه «أصل الأنواع» أصبح من الصعب لأيّ تاريخ جديد بالتقدير أن يبدأ بقصّة الخليقة».

شلومو ساند

«وتحسّ بكلّ تأكيد أنّ أحبار اليهود قد اقتبسوا من تواريخ الأقطار التي جاسوا خلالها بعض الحكايات، فعبرنوا كلّ المعلومات التي كان الغرض منها تلفيق أكذب تاريخ للعالم. كلّ ذلك لاختراع ملفّقة الشعب اليهودي المختار».

جان لوي برنار

ظلت التوراة إلى منتصف القرن العشرين تُعدّ، إلى جانب اعتبارها الكتاب المقدّس الأول، كتاب التاريخ الأوحد الذي يسرد لنا تاريخ البشرية منذ أن خلق الله الكون والإنسان حسب الرواية التوراتية. وما حملة التنقيب التي ابتدأها علماء الآثار عام 1747 في العراق إلاّ وسيلة برأيهم لإثبات كل ما جاء في أسفار التوراة من قصص وروايات. ومع مطلع القرن العشرين وبدء الحركة الصهيونية السعي لإقامة وطن لليهود في فلسطين تحقيقاً للوعد الإلهي، شجّعت هذه الحركة بعض العلماء اليهود والمسيحيين المتهوّدين على بدء التنقيب في فلسطين، وحاولوا جاهدين تحوير مكتشفاتهم لكي يجعلوها مطابقة لمنطوق التوراة. لكن خطتهم هذه فشلت، إذ أنّهم لم يتمكنوا من شراء ضمائر كلّ الباحثين والأركيولوجيين، ومنهم يهود، حيث بادر هؤلاء إلى الكتابة عن مكتشفاتهم الأثرية التي تتعارض كلياً مع ما ورد في التوراة. بل أكثر من ذلك، فلقد أثبتوا أنّ ما كان متفقاً عليه بأنّه مسلّمات مقدسة لا يعدو كونه مجموعة من الأساطير قد تم اقتباسها عن سابقاتها من أساطير الشعوب القديمة. فسقطت عن التوراة أهم صفتين أضفاهما عليها رجال الدين من جهة والدارسون المغرضون من جهة ثانية، الصفة الأولى: القداسة، والصفة الثانية: الجذور التاريخية. وانطلاقاً من هاتين الصفتين أصبح كتاب التوراة، وبمؤامرة ذات قصد، الجزء الأول من الكتاب المقدس، لصونه من النقد أولاً، ولاستغلاله للسيطرة على عقول المؤمنين ثانياً. كما أصبح مادة للتشريح والدراسة على طاولة الكثيرين من علماء الآثار ودارسي التراث القديم.

يقول الأب سهيل قاشا: «وصار الاهتمام كبيراً جداً بدراسة الرُقم الطينية للكتابة المسمارية، ولكن المفاجأة كانت أنّه بعدما تمكّنوا (العلماء والدارسون) من اللغة جيداً، وجدوا فيها أشياء غريبة عنهم، أشياء ليس لها علاقة بالتوراة ولكنها أرقى من ذلك. وهنا بدأت مكانة التوراة تهتز»(58). ولم تقف السلطات الإسرائيلية واللوبي الصهيوني مكتوفي الأيدي، بل كانوا وما زالوا يمارسون أقسى درجات الضغط على كلّ من تسوّل له نفسه معارضة المخططات الإسرائيلية وتشويه «الحقائق» الواردة في التوراة. ويضيف الأب سهيل قاشا: «ومن هنا عمل اليهود على إنشاء متحف في فلسطين، أسموه

متحف التوراة، غايته أن يتابع كل الحفريات الأثرية في كل أنحاء العالم، والنظر في نتائجها من ناحية تقليل قيمة التوراة، والعمل على تزويرها وسرقتها»(59).

وفي هذا الإطار يقول فراس السواح: «أمّا عن السبب الثاني، وهو المتعلق بظروف وملابسات نشوء علم الآثار في فلسطين، فإنّ هذا العلم قد حُكم عليه منذ بداياته الأولى أن يكون علماً موجهاً لغاية واحدة، هي البحث عن أصول إسرائيل في الأرض المقدّسة، وإثبات تاريخية الرواية التوراتية»(60). إذن في البدء كان الهدف من التنقيب عن الآثار ملاقاة أهداف الحركة الصهيونية التي كانت تسعى إلى إقناع الأمم النافذة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بضرورة إقامة وطن لليهود فوق أرض فلسطين، مبرّرين ذلك بما ورد في التوراة في أكثر من موضع عن وعد إلهي بإعطائهم أرض الكنعانيين قديماً، حيث كانت فلسطين جزءاً منها. هذا الوعد الذي لفّقه كاتب سفر التكوين الذي اقتبس قصة الخلق من الأسطورة البابلية إينوما إيليش وأضاف إليها من خياله قصة جديدة تصف علاقة الرب بأبرام، الذي يصبح اسمه فيما بعد إبراهيم. ويلحظ فيليب حتّي وجود «تشابه بين قصة الخليقة عند العبرانيين القدماء وبين القصة ذاتها في بلاد ما بين النهرين، تشابه يسترعي الانتباه»(61).

وقبل تفصيل ما ورد في هذه القصة والتعليق عليه، أعود إلى بداية سفر التكوين، كي أقول إنّه بات من المؤكد بعد الدراسات المقارنة التي قام بها كثير من الدارسين على أنّ هذه الأسطورة تجد جذورها في الأسطورة السومرية إينوما إيليش كما قلنا، وإنّي أحيل القارئ، الذي يرغب بمعرفة المزيد عن الأصول التي نهل كَتَبَة التوراة منها قصصهم، إلى مؤلفات الباحثين فراس السواح والأب سهيل قاشا وجورجي كنعان الذين قاموا بعمل جبّار لفضح المؤامرة الصهيونية التي لم تنل من أرضنا فحسب، بل من تراثنا وحضارتنا وتاريخنا أيضاً. غير أنّي سأتطرق إلى عملية خلق الإنسان كما وردت في التوراة حيث نقرأ في سفر التكوين الإصحاح الأول من الفقرة 26 ما يلي: «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم»، أليس في هذا القول تجديف على العزّة الإلهية غير المنظورة أو المحسوسة؟ فمن هو الذي قد رأى الله لكي يقول بأنّ الإنسان على صورته وشبهه؟ فإن نحن اقتنعنا بأنّ هذا السرد حول عملية الخلق لا يعدو كونه سرداً ملحمياً أسطورياً، تكون المسألة قد لاقت طريقها إلى الحل. أما أن نستمرّ لغاية اليوم متشبّثين بقناعاتنا النمطية أنّ هذه القصة قد أنزلها الله على من دوّنها، أو أنّها وصلت إليه بعد آلاف السنين بالتواتر والانتقال مشافهة من جيل إلى جيل، ففي ذلك تسخيف للعقل وللإدراك وللحقائق العلمية التي أفرزها العقل ذاته الذي أنتج تلك الأساطير، فإلى من نحتكم؟ أإلى العلم أم إلى الخيال الأدبي؟

ثم يقول كاتب التوراة في سفر التكوين، الإصحاح الثاني الفقرة السابعة: «وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حية». أما في الفقرة 21 فيقول: «فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم. فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي». وهنا برأيي وقع الكاتب ببعض التناقض والخطأ. فإذا كان الله وحيداً في بدء عملية الخلق فلمن توجه بالكلام عندما قال نعمل الإنسان على صورتنا؟ ومن سمع قوله ولم يكن هناك أحد بعد؟ هذا إذا سلّمنا جدلاً

بأنّ الله يتكلم كما جعله كَتَبَة التوراة يفعل مع كل أنبياء إسرائيل وملوكها. أم أنّه كان يكلم نفسه؟ ثم عندما يقول ذكراً وأنثى خلقهم فهذا يعني خلقه لهم في الوقت ذاته دون أن تفصل فترة زمنية بعملية الخلق بين الذكر آدم والأنثى حواء. أما في الفقرة الثانية فنجد الله يجبل تراباً لصنع آدم ثم يوقع على آدم سُباتاً ليسحب ضلعاً منه ليصنع منها امرأة لآدم. فكيف علم آدم وهو نائم أنّ الله قد أخرج ضلعاً لكي يقول هذه الآن عظم من عظامي؟ فلو أراد الله لآدم أن يعلم كيف خلق له امرأته لما كان هناك من حاجة لإلقاء السُّبات عليه.

ويُعيد جودت السعد قصة خلق حواء من ضلع آدم إلى أسطورة دلمون السومرية والتي تعني الفردوس. أما عملية الخلق من تراب فنجدها في الأسطورة السومرية، كذلك فكرة خلق الإنسان على صورة الإله. ويشير فراس السواح إلى أن «الأسطورة السومرية المتعلقة بخلق الإنسان، هي أول أسطورة خطّتها يد الإنسان عن هذا الموضوع. وعلى منوالها جرت أساطير المنطقة، والمناطق المجاورة، التي استمدت منها عناصرها الأساسية، وخصوصاً فكرة تكوين الإنسان من طين، وفكرة تصوير الإنسان على صورة الآلهة»(62)، ثم يورد نص الأسطورة السومرية الذي يشير إلى عملية الخلق هذه من خلال هذا الحوار بين الإلهة «نمّو» التي تمثل المياه البدئية وبين ابنها أنكي:

أي بنيّ، انهض من مضجعك

واصنع أمراً حكيماً

اجعل للآلهة خدماً، يصنعون (لهم معاشهم)

فيجيبها أنكي:

إنّ الكائنات التي ارتأيت خلقها ستظهر للوجود

ولسوف نعلّق عليها صورة الآلهة

امزجي حفنة طين، من فوق مياه الأعماق

وسيقوم الصنّاع الإلهيون المَهَرة بتكثيف الطين وعجنه

ثم كوّني أنت له أعضاءه.

وفي كتابه «بابل والتوراة» ينقل الأب سهيل قاشا أسطراً من أسطورة سومرية يرد فيها خلق الإنسان من طين، نثبت بعضاً منها:

إنّ القدرة بيد الإله أنكي

فليعطني الطين لأخلقه

ثم ليذبح أحد الآلهة/ ومع لحمه ودمه فلتمزج الآلهة ننتو طيناً

وليكن امتزاج الإله مع الإنسان في الطين

وفي الفقرة الأولى من الإصحاح الثاني يتحفنا الكاتب بما يلي: «فأكملت السموات والأرض وكل جندها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدّسه». ولنا على هذا الكلام ملاحظات عدة: الأولى هي من كان موجوداً مع الله في عملية الخلق كي يتابع خطواته ويؤرّخ لها؟ والثانية هي أنّ الإنسان هو من أعطى الوقت قيمته، وأنّ البابليين هم أول من قسّم اليوم إلى ساعات والأسبوع إلى أيام والشهر إلى أسابيع والسنة إلى شهور. والثالثة هي إلصاق صفة التعب بالله وهو منزّه عن الصفات. فهل يعقل للخالق القادر على كل شيء أن يصاب بالتعب مثله مثل البشر لكي يستريح؟ والرابعة هي لماذا يقدّس الله اليوم الذي فيه استراح بدل تقديس الأيام التي عمل فيها وأبدع بعمله؟ أليست الراحة من شِيَم الخاملين؟ وعن مفهوم الزمن والوقت يتساءل إيكهارت تول Ekhart Tolle مؤلف كتاب The Power of Now: «إذا لم يكن على سطح الأرض بشر، بل نبات وحيوان فقط، هل كنّا نستطيع أن نتحدث عن الوقت؟ السؤال كم الساعة الآن؟ أو في أيّ يوم نحن من أيام السنة؟ سيكون بلا معنى. فمفهوم الوقت والجهات وضعه الإنسان في مراحل متقدمة من تطوّره الفكري كوسيلة لتنظيم حياته، وبعدما أصبح يعي أهمية الجماعة، زاد مفهوم الوقت لديه قيمة لأنّه بدأ بتأريخ الأحداث التي تمرّ بها الجماعات البشرية».

ثم يقول الكاتب في الإصحاح الثاني الفقرة الثامنة: «وغرس الربّ الإله جنة في عدن شرقاً. ووضع هناك آدم الذي جبله»، وهذا يعني أنّ الجنة موجودة على الأرض وليس في السماء كما هو متعارَف عليه بين المؤمنين. ويعلّق سهيل التغلبي قائلا: «أمّا فيما يتعلق بجنة عدن التي أوردتها التوراة، فقد خَلُص خبراء الآثار عبر اكتشافاتهم الأخيرة إلى أنّ فكرة الفردوس الإلهي ترجع إلى عهود قديمة، إذ عُثر على لوح نُقشت عليه قصيدة سومرية فيها تشابه بين المدونات التوراتية والقصة السومرية. حيث كان الفردوس بموجب القصة السومرية في أرض دلمون التي قال فيها الباحثون إنّها كانت في الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس، بينما أشارت مصادر أخرى إلى أنّها كانت في الجهة الغربية لساحل الخليج العربي وفي البحرين على وجه التحديد»(63). ويستطرد كاتب الأسطورة قائلاً: «وأنبت الرب الإله من الأرض كلّ شجرة شهية للنظر وجيّدة للأكل. وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر»، وفي الفقرة 16 يقول: «وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها».

يلفتنا هنا قول الكاتب بأنّ الله أنبت من الأرض كلّ شجرة ثم أوصى آدم بأن يأكل من جميع شجر الجنة وهذا يعني أنّ الأرض كلّها هي الجنة، وهذه هي الحقيقة العملية التي يتناقلها الناس دون أن يدروا أنّ الخالق قد أوجدهم في الجنة وأنّهم بأعمالهم الحسنة يبقون فيها، وبأعمالهم السيئة يخرجون منها، وما ذلك إلاّ للرمز والإشارة. أما لماذا يُقدم الله على منع آدم من أن يأكل من شجرة معرفة الخير والشر وإلاّ «موتاً يموت"؟ فهو لعمري إجراء لا يمكن أن يصدر عن الله، بل عن رغبة الكاتب القصصية بإبراز عقدة معينة يتم تجاوزها أو الوقوع في حبائلها فتستمر القصة إلى حين الوصول إلى عقدة ثانية. وكان المقصود هو الإشارة إلى حقيقة إنسانية أضاءت عليها الأساطير القديمة وهي صراع الخير والشر أو صراع الأضداد. هذه المفاهيم التي لا تزال تشغل حيِّزا كبيراً من الأبحاث الفلسفية لغاية اليوم، شكّلت في الماضي السحيق محفِّزا للعقل البشري لكي يسبر أغوارها، فكانت الأساطير خير وسيلة للتطرق إليها. ثم يأتي كلامه في الإصحاح الثاني عن النهر الذي يسقي الجنة

والروافد التي تتفرع عنه لكي يؤكد أنّ الجنة على الأرض وليست في الأعالي، لأنّ فكرة الجنة السماوية لم تكن بعد قد تبلورت، بل كان ينظر إلى السماء كموطن للآلهة التي حاول الإنسان أن يستدل على طريقة خلودها لكنّه لم يفلح. وهذه الفكرة تطرّقت إليها الأسطورة البابلية جلجامش. وأطلق على هذه الأسطورة اسم بطلها جلجامش الذي يسعى خلال أحداث الأسطورة إلى معرفة سرّ الخلود وكيفية الحصول عليه، فيصل إلى أوتنابشتيم الذي يقول له:

سأفتح لك يا جلجامش سرًّا خفياً

أجل سأبوح لك بسرّ من أسرار الآلهة

يوجد نبات مثل الشوك ينبت في الحياة

إنّه كالورد شوكه ينخر يديك كما يفعل الورد

فإذا ما حصلت يداك على هذا النبات وجدت الحياة الجديدة.

وبعد أن وجد جلجامش النبتة التي ستؤمّن له الخلود أراد العودة إلى وطنه» أوروكس»، وفي طريق عودته يحدث ما يلي:

وبعد ثلاثين ساعة مضاعفة توقفا ليُمضيا الليل (جلجامش والملاّح الذي أقلّه) وبعد فترة أبصر جلجامش بركةً ماؤها بارد

فنزل فيها ليغتسل في مائها

فشمّت حية (صلّ) عُرْفَ النبات

وخرجت (من الماء) واختطفت النبات

وفي عودتها نزعت عنها جلدها

فجلس جلجامش عند ذاك وأخذ يبكي

حتى جرت دموعه على وجنتيه.

هي الحية التي أغرت حواء بالأكل من شجرة الخير والشر وكانت سبباً لخروج آدم من «الجنة» وبالتالي خسارته الخلود، هي نفسها التي سرقت سرّ الخلود من جلجامش. وملحمة جلجامش أسبق بأكثر من ألف سنة من أساطير التوراة، وقد اطّلع عليها كَتَبَةَ التوراة في الرُقَم المحفوظة في مكتبة آشور بانيبال خلال وجودهم في بابل فنسجوا على منوالها. ويعلّق الأب سهيل قاشا فيقول: «مما يثير الدهشة والغرابة أنّ المكتشفات الأخيرة دلّت على أنّ قصة آدم وحواء، بما فيها قصة جنة عدن التي وردت في التوراة، قصة قديمة ترجع جذورها إلى عهود ما قبل التوراة»(64). وفي رأس الصفحة وضع رسماً لنقش سومري، يمثّل آدم وحواء وبينهما شجرة حيث تنتصب خلف المرأة حية. يُستنتج من هذا الرسم أنّ الحية تحاول إغراء حواء بالأكل من الشجرة. ثم يضيف قاشا: «ومما يذكر أنّ هذا النقش التاريخي وُضع قبل التوراة بزهاء ألفَيْ عام». ويؤكّد ذلك مفيد عرنوق في قوله: «ولقد عثر

على ختم بابلي يحمل رسم رجل وامرأة يجلسان متقابلين وبينهما شجرة يمدّان يديهما إلى ثمرها. وخلف المرأة تنتصب حية يقترب رأسها من رأس المرأة وكأنّها تهمس في أذنها. ويذكّرنا هذا الرسم بالقصة التوراتية من حيث الأحداث لا المضمون»(65).

ومما يؤسف له أن نجد لغاية اليوم من يعتبر أنّ حديث الحية مع حواء قد حصل فعلاً، كيف لا وقد ورد في (الكتاب المقدّس). ففي طبعة عام 1876 للعهد العتيق، الصادرة عن مطبعة المرسلين اليسوعيين في بيروت، حاشية في نهاية الكتاب تقول: «ينبغي أن نفهم بالحيّة المذكورة في هذا الفصل الشيطان عينه الذي ظهر في صورة الأفعى. وقد اجتهد قوم من الضالّين في هذا العصر من تكذيب المحاورة التي جرت بين حواء والحيّة فردّ عليهم الأب باطريتزي اليسوعي ردًّا قاطعاً في كتابه في تفسير الكتب الإلهية».

ألم يكن أجدر بكاتب هذه الملاحظة أن يركّز على الجزء الأول منها، وهو أنّ الشيطان تجسّد حيّة، وهذا يعني أنّها فكرة رمزية تشير إلى الوساوس التي تلعب بعقل الإنسان فينقاد وراء عواطفه الغرائزية؟ الله هو رمز للنور الشعشعاني الذي يفيض محبّة وجمالاً وخيراً وحقيقة. أمّا الشيطان فهو رمز للشر بكلّ تجليّاته.

إذن أظهرت المكتشفات المكتوبة والمنقوشة أنّ جذور سفر التكوين برمته موجودة في الأساطير القديمة مما يؤكد حقيقتين: الأولى أقدمية الأساطير السومرية والبابلية والكنعانية، والثانية عملية الاقتباس التي لا يرقى إليها شك.

ويشير فراس السواح في كتابه «مغامرة العقل الأولى» إلى نص بابلي يعود إلى القرن السادس ق.م. تم العثور عليه في الحفريات التي أجريت في مدينة سيبار حيث جاء في النص:

قام أيا بخلق زوجين شابين

وأعلا من شأنهما فوق جميع المخلوقات

وفي لوح آخر يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد تم العثور عليه في المكان الذي حدّده علماء الآثار كموقع لمدينة أشور نقرأ ما يلي:

عندما شُكّلت الأرض وأُخرجت

عندما حُدّدت مصائر الأرض والسماء

عندما استقرت شطآن دجلة والفرات

عندها آنو وإينليل وأيا

الآلهة الكبار

وبقية الآلهة المبجّلين

جلسوا جميعهم في مجمعهم المقدس

وبعد التشاور حول عملية الخلق التي قاموا بها، السماء والأرض والأنهار والأشجار، يتوصلون إلى قرار يقضي بذبح بعض الآلهة (آلهة الحِرَف)، لكي يستعملوا دماءها لخلق ذكر وأنثى مهمتهما الاهتمام بالأرض لكي تنتج الغلال الوفيرة:

لنذبح بعض آلهة اللامجا

ومن دمائهم فلنخلق الإنسان

ولنوكله بخدمة الآلهة...

«أوليجارد» و«ألجار»

سيكون اسماهما...

هذان الاسمان البابليان أصبحا مع الأسطورة التوراتية آدم وحواء، والفارق الوحيد هو أنّهما بقيا رمزاً لتكاثر النوع البشري في الأسطورة البابلية. أما في رواية التوراة فيصبحان حقيقة تاريخية لا يرقى إليها الشك. والمؤسف أنّ أجيالنا لا تزال تتربى على هذه الأكذوبة دون أن يكلّف المؤمنون أنفسهم وضع هذه الأساطير تحت أشعة العقل وصولاً إلى إسقاط صفة القداسة عنها، فتسقط معها صفتا الحقيقة والتاريخ.

ثم نصل إلى ما قاله الله لآدم لنلمس مدى سخف هذه الرواية وبدء الأعمال الإرهابية لهذا الله الذي اعتقده المؤمنون لغاية الآن الله الكوني الواحد الأحد، دون أن يتنبهوا إلى كونه إلهاً خاصاً بشعب واحد وليس إله جميع البشر، اخترعه كَتَبَة التوراة وجعلوه إله حرب يقود هذا الشعب الذي اختاره في مغامرات وهمية أثبتت الدراسات الحديثة أنّها من صنع الخيال. فكيف يلعن الله خالق هذا الكون الأرض لأنّ آدم انقاد إلى امرأته وأكل من شجرة الخير والشر التي منعه الله من أكل ثمرها؟ وما هي شجرة الخير والشر؟ أليست رمزاً يعكس مفهوم صراع الإنسان الخيّر مع الإنسان الشرّير؟ ومن هو الذي سمع الله يقول هذا القول لآدم فقام بتدوينه يوم لم يكن هناك لغة بعد؟ وهل يعقل أن ينتقل هذا الكلام من جيل إلى جيل ملايين السنين ليصل إلى كَتَبَة التوراة في القرن الخامس ق.م. فيقوموا بتدوينه؟

أليس من المنطقي اعتبار سفر التكوين بعد كلّ ما أوردناه من نصوص تثبت اقتباسه من الأساطير السومرية والبابلية، وما أشرنا إليه من مراجع استفاضت بمقارنة أسفار التوراة بالأساطير القديمة فإذا بها نسخة مشوّهة عنها، إذ إنّ الأولى مفعمة بالروح الإنسانية أما الثانية فبالإرهاب والإجرام والكذب والخداع والاستغلال، أليس من المنطقي اعتباره امتداداً لأساطير الشعوب القديمة؟ ثم أليس غريباً على الله الذي كان سبباً لوجود الإنسان أن يمنع عنه معرفة الخير والشر بمنعه الأكل من ثمار شجرة الخير والشر؟

وإذا محّصنا جيداً بتحذير الله لآدم عندما قال له: (تكوين 2:15) «لأنّك يوم تأكل منها موتاً تموت»، لوجب علينا أن نطرح سؤالين: الأول لماذا يسقط الله على آدم فوراً عقوبة الموت إنْ هو خالف إرادة الله، في الوقت الذي كان بإمكانه معاقبته بطريقة أخرى؟ والثاني هو لماذا لم ينفّذ الله تهديده فيميت آدم بدلاً من أن يخرجه من جنة عدن ويلعن الأرض بسببه (تكوين 3:17)، ويلعن الحية التي أغرت

حواء؟ وإذا كان الله قد كلم آدم عن شجرة الخير والشرّ فكيف علمت الحية بذلك وهل من ذي عقل اليوم يقتنع بأنّ الحية فعلاً تكلمت مع حواء وأغرتها، أم أنَّها قصة رمزية تشير إلى طبائع الإنسان الذي يحب استكشاف الأمور خاصة تلك المحرَّمة عليه؟ ثم إذا أصبح الإنسان «عارفاً الخير والشر» (تكوين 22:3)، فلماذا بادر إذن، وهو بعد على بساطته، إلى ارتكاب الشرور بدل فعله الخير، ليغضب الله فيقرر إبادته مع البهائم والطيور مستثنياً نوحاً وعائلته وزوجاً من كل كائن حي؟

وقول الله: «قد صار كواحد منّا» أي أنّ الإنسان، ولم يكن بعد هناك سوى آدم وحواء، قد أصبح في مرتبة الآلهة، والآلهة خالدون، فكيف يناقض الكاتب نفسه بقوله: «لعلّه يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً» (تكوين 22:3)، فأخرجه من الجنة؟ فإخراج الإنسان من الجنة، كما في الأسطورتين السومرية والبابلية حصل كي لا يصل الإنسان إلى الخلود. ثم بعد طرده هل من حاجة إلى حراسة شجرة الحياة حيث لم يعد في الجنة إنسان لكي يخاف الله عليها؟ «فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة»، (تكوين 24:3). إذن الجنة لم تكن في السموات، والله لم ينزل آدم منها إلى الأرض، بل أخرجه منها دون أن يحدّد إلى أين: «فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها (تكوين 23:3).

ويواجهنا سؤال آخر حول هذا الكلام، فعندما يقول الرب (تكوين 22:3): «هوذا الإنسان قد صار كواحد منا»... فهذا تأكيد من الرب بأنّ الإنسان أصبح من الآلهة، وهذا يعني أنّه، برأي الكاتب، ليس هناك إله واحد بل مجموعة من الآلهة وهو بهذا قد وقع في الشّرك. وهذا يعني أيضاً وأيضاً أنّ اليهودية ليست ديناً توحيدياً لأنّها لم تعرف الإله الواحد الأحد، بل اختارت لها إلهاً، وهذا الإله اختار العبرانيين شعباً له وحيداً، فيكونون بذلك ككلّ الشعوب القديمة اختاروا لهم إلهاً وقوّلوه ما أرادوا، وفرضوا أقواله على البشرية جمعاء على أنّها أقوال مقدّسة وردت على لسان الله منذ بداية الكون.

وإذا ما تتبّعنا هذا الإله كما صوّره كَتَبَةُ التوراة لتأكد لنا أنّه، ليس فقط إلهاً خاصاً بشعب محدود، بل هو إله حرب، هو رب الجنود كما نقرأ في معظم أسفار التوراة، الذي كان يسير أمام جيش العبرانيين ويقضي على أعدائهم. فهل يمكن لله الذي يعبده المؤمنون على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم أن يكون هو ذاته، إله اليهود، الذي لا عمل له إلا القتل والحرق والأمر بالنهب والتدمير والإبادة؟ سؤال برسم المؤمنين الذين لا يناقشون ما ورد في هذه الأسفار إما خوفاً، أو لا مبالاة، لأنّ عقلهم قاصر عن التدقيق والتمييز بين الحقيقة والخيال. تماماً كالكثيرين الذين يحضرون الأفلام والمسلسلات، ويتصرّفون تجاهها وكأنّها حقائق، فينهالون باللوم والتقريع على الممثل الذي أسند إليه دور الشرير، ويتحدثون بإعجاب وإكبار عن الممثل الذي أسند إليه دور البطل المُنقِذ.

وإذا ما انتقلنا إلى عملية التزاوج التي حصلت بين آدم وحواء، فنجد أنّه نتج عنها في البدء ولادة الأخوين قايين وهابيل، ثم لمّا بلغ آدم من العمر مئة وثلاثين سنة وُلد له ولد على شبهه وصورته فدعا اسمه شيثاً، وبعدها عاش ثماني مئة سنة وولد بنين وبنات، فكانت كلّ أيامه تسع مئة وثلاثين سنة. الملفت هنا هو أنّ محرّر التوراة قد ركّز على سلالة شيث ولم يأتِ على ذكر ما تبقى من مواليد آدم. وعندما نقرأ كتاب التوراة بأسفاره الخمسة الأولى ندرك الغاية من وراء ذلك، ويلاحظ القارئ أنّ التركيز دائماً ينصبّ على واحد من نسل الأب وإهمال من تبقى من ذريته للإضاءة على تسلسل

خيالي يربط الإسرائيليين أو العبرانيين بآدم وذلك مروراً بمحطات رئيسية مثل إبرام وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى إلخ...

وإذا كان آدم قد عرف حواء فولد منها، فمن أين أتت امرأة قايين الذي يقول محرّر التوراة في الإصحاح الرابع في الفقرة 17: «وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك... وولد لحنوك عيراد، وعيراد ولد محويائيل»... وهكذا كلّ ولد يلد ذكراً واحداً وصولاً إلى لامك الذي يتخذ امرأتين «اسم الواحدة عادة واسم الأخرى صلّة»، دون أن يكلّف الكاتب نفسه بذكر اسم والدهما ووالدتهما، فمن أين اختلقهما؟ ذريّة قايين هذه كانت له بعدما أقدم على قتل أخيه هابيل. أما إذا ما تمعّنا بالسبب الذي دعا قايين إلى قتل هابيل لأدركنا كم يبدو هذا الإله متعطشاً للدماء منذ بداية الخلق. نقرأ من الإصحاح الرابع: «..وكان هابيل راعياً للغنم وكان قايين عاملاً في الأرض... وحدث من بعد أيام أنّ قايين قدّم من أثمار الأرض قرباناً للرب. وقدّم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه. ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر». فماذا نستنتج من هذه القصة؟ لماذا لم ينظر الرب إلى قربان خيرات الأرض الذي قدّمه قايين بل نظر إلى الذبائح التي قدّمها هابيل؟ لأنّه إله يعشق رائحة الدم كما سيتبيّن لنا لاحقاً.

يكفي الآن أن نورد هذه المقاطع من سفر الخروج، الإصحاح التاسع والعشرين حيث نقرأ في الفقرة 16 ما يلي: «فتذبح الكبش وتأخذ دمه وترشّه على المذبح من كل ناحية... هو مُحرقة للرب. رائحة سرور. وقود هو للرب». ويتابع في الفقرة 21: «وتأخذ من الدم الذي على المذبح ومن دهن المسحة وتنضح على هرون وثيابه وعلى بنيه وثياب بنيه معه. فيتقدّس هو وثيابه وبنوه وثياب بنيه معه». هذا كلام الرب إلى موسى الذي كان قد أمره أيضاً في الإصحاح الرابع والعشرين أن يذبح ذبائح سلامة للرب من الثيران: «فأخذ موسى نصف الدم ووضعه في الطسوس. ونصف الدم رشه على المذبح». إذن هذا الإله الذي تجاهل خيرات الأرض وفضّل عليها الذبائح لم يغيّر من عاداته بل استمر إلهاً محباً لسفك الدماء فأتت الأساطير التوراتية كلّها مليئة بصور القتل والإبادة والتدمير، وكلّ ذلك برعاية الإله، إله بني إسرائيل. فهل يُعقل أن تكون هذه الأوامر، والتي سنفصّلها لاحقاً، صادرة عن الله الذي نعبده ونؤمن أنّه كلّي القدرة، العادل، الله الذي هو محبة خالصة، وتسامح صافٍ، وغفران لا متناهٍ؟

أمّا ما لا يمكن أن يتقبّله عقل فهو أنّ هذا الإله الذي كان سبباً مباشراً، من خلال تمييزه بين الأخوين، بقتل أحدهما للآخر، يضع علامة على القاتل كي لا يقتله أحد، ولا يكتفي بذلك بل إنّه يحلّل الانتقام ممن يقتل قايين بسبعة أضعاف. وأما لامك من سلالة قايين فيقول لامرأتيه «عادة وصلّة»: «اسمعا قوْلي يا امرأتيْ لامك. وأصغيا لكلامي. فإنّي قتلت رجلاً لجرحي. وفتى لشدخي. إنّه يُنتقم لقايين سبعة أضعاف. وأما للامك فسبعة وسبعين». فمنذ عملية الخلق الأولى بدأ هذا الإله ببث روح الانتقام بدل روح التسامح. ولماذا ينتقم للقاتل الذي يعترف بجرمه؟ إنّها المقدمة الأولى التي ستوصلنا إلى نفسية اليهود المشبعة بروح الانتقام، كيف لا وقد تربّوا وما زالوا على ذلك بدءاً من الصفحة الأولى من هذا الكتاب الذي فرضوه على البشرية على أنّه الكتاب المقدّس المنزّل الذي لا مجال لإنكار أية كلمة وردت فيه لأنّها كلمة الله. فهل من متبصّر بكلام الله هذا؟ وهل هناك من يجرؤ على إيقاف هذا الكفر بالله الواحد الأحد، ووضع هذا الكلام في خانته الأسطورية الحقيقية التي تدلّ على نفسية جماعة دينية

معقدة، والتي عِوَضاً عن أن تسعى للخروج من عقدة الدونية أدخلت نفسها في عقدة الفوقية، فانغلقت على ذاتها، وتركت إشعاعات حقدها تملأ أرجاء الأرض؟

ثم إذا عدنا لتتبّع ذرية آدم عبر ابنه شيث لوجدنا، كما سبق وذكرنا، أنّ التركيز تم على ذكر واحد من مواليد الذكَر الذي سبقه مع الإشارة إلى أنّ هذا الذكر قد وُلد له بنين وبنات، أما من هم ولماذا لم يذكر الكاتب أسماءهم وذراريهم؟ فما من أحد يدرك ذلك حتى الراسخين في العلم. يقول الأب مايكل برير في هذا المجال: «بعد أن يقدّم سفر التكوين (1: 11) تصوره لأصول الكون والعالم وحيواناته والكائنات البشرية، يتحول من التركيز على العديد من الناس على الأرض إلى التركيز على فرد واحد»(66).

وعن الأنساب وما رافقها من خصومات بين الأخ وأخيه في أكثر من موضع من التوراة يقول بولس الرسول في رسالته إلى تيطس: «وأمّا المباحثات والأنساب والخصومات والمنازعات الناموسية فاجتنبها لأنّها غير نافعة وباطلة».

فهل يقتنع معنا من لا يزال يعتبر التوراة أصل كلّ كلام منزل مقدّس، بأنّ غاية كَتَبَة التوراة باتت واضحة وهي اختراع شعب لا وجود له، فلفّقوا كلّ هذه الأنساب، وألّفوا كل هذه القصص الخيالية لإرضاء غرورهم وتعاليهم، فإذا بهذه الأساطير تفعل فعلها المدمّر في نفسية كلّ مؤمن، وتؤسس لحركة سياسية عنصرية غيّرت مجرى التاريخ ولا تزال تفعل فعلها على مختلف الصعد؟ يقول شلومو ساند: «وعلى الأرجح فإنّ مؤلفين متأخرين هم الذين اخترعوا وفخّموا الهوية الرسمية المشتركة العظيمة التي تأسست بطبيعة الحال برعاية ومباركة إله واحد. كذلك قام هؤلاء بالطريقة نفسها، مستعينين بخيالهم الخصب والمميّز، (وهو هنا يتكلم عن كَتَبَة أسفار التوراة) بإعادة نسخ وتدبيج قصص وروايات معروفة عن خلق الكون والطوفان الفظيع، ترحال الآباء وصراع يعقوب مع الملاك، خروج مصر وانشقاق البحر الأحمر، احتلال أرض كنعان، والتوقف العجيب للشمس في جبعون. وعليه فقد أسدت الميثات المركزية حول الأصل العريق لشعب المعجزات، الذي قدم من الصحراء واحتل بالقوة بلاداً واسعة وشيّد لنفسه مملكة عظيمة، خدمة مهمة ومخلصة لصعود القومية اليهودية والمشروع الاستيطاني اليهودي»(67).

فهل بعد هذا القول لكاتب يهودي من مسوّغ لاستمرارنا على بساطتنا الفكرية التي شرْنَقَنا الفكر اليهودي داخلها عن سابق تصوّر وتصميم؟ ألم يحن الوقت لكي نميط اللثام عن أكبر مؤامرة عرفها التاريخ بحق أرض وشعب باسم الله والقداسة والألوهة؟ أما آن الأوان لهذه المهزلة من أن تكون لها نهاية على يد المؤمنين أنفسهم، وذلك بالعودة إلى العقل والإقرار بأنّ كل ما جاءت به التوراة هو من باب الخيال الأدبي الذي تميّزت به شعوب بلاد ما بين النهرين خاصة، وسورية الطبيعية عامة، وأتى من يستغل هذا التراث وينسبه إليه بوقاحة قلّ نظيرها، بل ينسب لنفسه فضل إعطاء الإنسانية أرقى تراث عرفته لغاية اليوم؟ فعند قيام دولة إسرائيل في العام 1948، نقرأ من وثيقة الاستقلال التي أعلنت قيامها هذا المقطع: «نشأ الشعب اليهودي في أرض إسرائيل، وفيها اكتملت صورته الروحانية والدينية والسياسية، وفيها عاش حياة مستقلة في دولة ذات سيادة، وأنتج ثرواته الثقافية القومية والإنسانية، وأورث العالم أجمع كتاب الكتب الخالد».

هذا القول المؤسّس لدولة إسرائيل الحديثة ينقضه ما توصّل إليه الباحثون عن التاريخ الإسرائيلي القديم، وكثيرون منهم يهود، انتفضوا على أصحاب الفكر النمطي الجامد الذين بحسب رأي شلومو ساند «دأبوا لردح طويل من الزمن على التغاضي عن معطيات معروفة»، والذي دفع بساند استناداً إلى ما كشفه هؤلاء الدارسون الموضوعيون إلى القول: «لكن كل ما ذكر عن هذه المسائل وغيرها من أمور مرتبطة بالمورفولوجيا الثقافية الملموسة للحياة اليومية وللتاريخ المتعلق بها، لم يثر إلاّ اهتماماً ضئيلاً للغاية في أوساط جمهور الباحثين المنشغلين في اختلاق التاريخ الأزلي لِـ «شعب إسرائيل». فقد كان من الصعب عليهم الاعتراف بالحقيقة المزعجة التي تؤكد أنّه لم تنشأ ولم تظهر قط «ثقافة شعب يهودية» وإنّما ظهرت فقط «ثقافة ييديش شعبية» مشابهة لثقافات جيرانهم أكثر بكثير من كونها مشابهة لأنماط ثقافة الجاليات اليهودية في غرب أوروبا أو في شمال أفريقيا».

ثم يتابع موضحاً: «غير أنّ مجيء التاريخ الأنثربولوجي أتاح بداية الانحسار التدريجي للروايات القومية العليا التبسيطية. أحياناً يُخيَّل أنّ معظم الباحثين المتخصصين في «تاريخ شعب إسرائيل» لم يعرفوا بعد شيئاً عن هذا الصنف من الهستوريوغرافيا، ذلك بأنّ الكشف المعمّق لأنماط الحياة وأشكال الاتصال لدى الطوائف اليهودية في الماضي من شأنه أن يُبرز أكثر حقيقة بسيطة «آثمة»: فكلّما ابتعدنا عن الأعراف الدينية وتقدّمنا من ناحية بحثية في اتجاه ممارسات وعادات يومية متنوّعة، سنجد أنّه لم يكن هناك أبداً بين المؤمنين اليهود في أنحاء آسيا وأفريقيا وأوروبا أيّ قاسم مشترك إثنوغرافي علماني، فاليهودية العالمية كانت على الدوام ثقافة دينية مهمة، تتألف هي الأخرى من تيارات منفصلة، وليس «أمة» غريبة مشتتة ومشرّدة».

وقبل الانتقال إلى أسطورة نوح وطوفانه أود أن أشير إلى مسألتين: الأولى تتعلّق بما ورد في الإصحاح الثاني من سفر التكوين فقرة 15 حيث نقرأ: «وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنّة عدن ليعملها ويحفظها»، وكان الكاتب قد كتب قبل ذلك في الفقرة 10: «وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة. ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس. اسم الواحد فيشون. وهو المحيط بجميع أرض الجويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيّد. هناك المُقْلُ وحجر الجَزْع. واسم النهر الثاني جيحون. وهو المحيط بجميع أرض كوش. واسم النهر الثالث حدّاقل. وهو الجاري شرقيّ أشور. والنهر الرابع الفرات». من قراءتنا لهذه الفقرات يتأكد لنا، كما قلنا سابقاً، بأنّ الجنة موقع محدد على سطح الأرض، ومن التحديد الذي أورده الكاتب نفهم أنّها في منطقة ما من بلاد ما بين النهرين، هذه المنطقة التي كانت في زمن كتابة أسفار التوراة مركزاً لحضارة مميزة لفتت أنظار الكتبة الذين كانوا قريباً منها خلال وجودهم في بابل، والذين رأوا جنائنها المعلقة، وهم البدو الرحّل الذين كانوا لا يزالون يقيمون في الخيام، فكان من الطبيعي أن يعتبروا هذا المكان الذي فُرضت عليهم الإقامة فيه جنة، ففيه فُتحت أمامهم مجالات عديدة أهمها التعلّم والاطلاع على حضارة تلك المنطقة ثم تشريع باب البلاط الملكي أمامهم حيث تبوأوا أعلى المناصب، فضلاً عن قيامهم ببعض الأعمال الحِرفية والتجارية التي أعطتهم مردوداً جيِّدا خوّلهم عيش حياة رغيدة. لذلك رفض قسم كبير منهم العودة إلى أورشليم بعد احتلال بابل على يد قورش الفارسي واتخاذه قراراً بإعادة العبرانيين إلى أورشليم والسماح لهم بإعادة بناء الهيكل.

ولكن هل تحديد مكان الجنة وذكر اسم النهر أو النهرين والروافد المتفرعة يجعل الأسطورة حقيقية. بالطبع لا، فالأساطير السومرية والبابلية مليئة بأسماء الأماكن التي لا تزال معروفة حتى يومنا، وهذا لم يخرجها عن الإطار الأسطوري. ويحاول الأب سهيل قاشا تحديد موقع جنة عدن: «لقد تتبّعت آثار الأنهر الأربعة التي ورد ذكرها في الفصول الأولى من سفر التكوين مبدئياً من البقعة التي ذكرت التقاليد الإسرائيلية أنّها كانت (أبواب الجنة) ومستعيناً بالخرائط والمستويات التي توضح طوبوغرافية البلاد، فظهر لي أنّ الفرات يدخل دلتاه من نقطة تقع على بعد بضعة أميال جنوب بلدة هيت عند «أبواب بابل» حيث تركت حملة كورش الصغير المؤلفة من عشرة آلاف جندي، الصحاري ودخلت السهول الدلتاوية المنتهية بخليج العرب. والذي أطلق عليه السائر نحو الجنوب في اتجاه الفرات اسم «أبواب بابل»، وهو الذي سمّاه الأسرى اليهود الذين جيء بهم إلى سهول بابل (أبواب الجنة)»(68).

فهم نظروا إلى الجنة كواقع ملموس حيث الذهب الجيد، والجزْع (وهو نوع من الحجر فيه سواد وبياض (المنجد)، والمُقْل (وهو ثمر شجرة الدّوْم وهي من فصيلة النخليات يستخرج من ثمارها نوع من الدبس (المنجد)، ولم ينظروا إليها نظرة ماورائية على أنّها مستقرّ الأرواح الخيّرة بعد مفارقتها للجسد. والمسألة الثانية هي الإشارة إلى الذهب والجزع، فهل كان الإنسان الأول قد اكتشف المعدن الثمين وأصبح يدرك أهمية الحجارة الكريمة؟ أليس هذا السرد الأسطوري لعملية الخلق سرداً بدائياً بعيداً عن المنطق والتفكير السويّ؟ واكتشاف الذهب في الجنّة الأرضية يقودنا لاحقاً إلى القيمة التي أولاها اليهود للذهب من خلال استعماله بتزيين الهيكل وصنع الآنية ووضعها في خزانة الرب: «وأحرقوا المدينة بالنار مع كلّ ما بها. إنّما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب» (يشوع الإصحاح السادس فقرة 24). وسواء أكانت عدن في بلاد ما بين النهرين أم هي ذاتها عدن الحالية، فإنّ الأمر لا يعنينا إلاّ بالقدر الذي يحاولون فيه فرض ما أورده كَتَبَةُ التوراة، ليس على أنّه حقائق تاريخية وجغرافية فحسب، بل أيضاً أقوالٌ مقدّسة منزلة منزّهة عن كل تفسير وتشريح وتأويل.

وما يلفتنا أيضاً هو أعمار آدم وذريته حيث أنّ سيء الحظ فيهم عاش أكثر من سبع مئة سنة، فماذا يقول العلم بذلك. إنّه لمن الطبيعي أنّ الإنسان الأول كان يعمّر أكثر من إنسان أيامنا هذه، وعلى العلم أن يجيب إن كان الإنسان القديم قد تمكّن من أن يعيش هذه الأعمار المديدة. وبعد أن يعدد الكاتب، كما سبق وذكرنا، اسم وليد واحد بدءاً من شيث ابن آدم الذي ولد أنوش، وأنوش ولد قينان، وقينان ولد مهْلَلْئيل، ومهْلَلْئيل ولد يارد، ويارد ولد أخنوخ، وأخنوخ ولد متوشالح، ومتوشالح ولد لامك، ولامك الذي عاش مئة واثنتين وثمانين سنة ولد ابنا «ودعا اسمه نوحاً. قائلاً هذا يعزّينا عن عملنا وتعب أيدينا من قِبَل الأرض التي لعنها الرب وكان نوح ابن خمسمئة سنة وولد نوح ساماً وحاماً ويافث» (تكوين 5: 28). ومن الطبيعي أن يكون لنا أكثر من تعليق على هذا السرد القصصي «المقدس». الأول نحيله إلى رجال العلم أيضاً وهو هل بإمكان الإنسان القديم من الناحية البيولوجية التي لم تتغيّر حتى اليوم، أن ينجب وهو فوق المئة سنة، هذا إن سلّمنا جدلاً ببقائه حياً إلى ما بعد السبع أو الثماني أو التسع مئة سنة؟ والثاني هل بإمكان نوح وهو ابن خمس مئة سنة أن يعاشر زوجته التي لم يؤتَ على ذكرها، وينجب منها وهو بهذا العمر؟ والثالث لماذا تقصّد الكاتب ذكر اسم ذَكَر واحد لكل واحد من ذرية آدم، حتى إذا ما وصل إلى نوح ذكر اسم ثلاثة من أولاده، في الوقت الذي كان يكتفي مع الآخرين بالقول: «وولد بنين وبنات»؟ والسبب برأينا بسيط جداً، وهو أنّ الكاتب قاصٌ وما كتبه لا

علاقة له بكلام من الله ولا حتى بإنزال أو وحي من الله. ومسؤولية القاص بعملية سرده للقصة معرفة كيفية حياكة الحبكة القصصية.

فمع نوح يبدأ فصل آخر من عملية الخلق، ولقد أعطى الكاتب نوحاً دوراً مهماً في قصته الأسطورية وهو قد مهّد لذلك بالقول: «وأما نوح فوجد نعمة في عينيّ الرب» (تكوين 6: 8). فما هو سبب حلول النعمة على نوح فقط؟ هل يُعقَل أن يكون نوح الوحيد بين كلّ ذرية آدم الذي رأى الله فيه الصلاح فأسقط عليه النعمة؟ بالطبع لا، بل إنّها إرادة الكاتب لكي يصل بنا إلى مبتغاه. ولا بد لنا أيضاً من أن نلاحظ بأنّ كاتب التوراة كان يقفز قفزات زمنية خيالية. فهو ما أن يذكر أنّ لامك قد ولد نوحاً عندما كان عمره مئة واثنتين وثمانين سنة حتى يقول: «وعاش لامك بعدما ولد نوحاً خمس مئة وخمساً وتسعين سنة وولد بنين وبنات. فكانت كلّ أيام لامك سبع مئة وسبعاً وسبعين سنة ومات» (تكوين 5: 30). فمن هم هؤلاء «البنين والبنات»، وماذا فعلوا؟ ليس من الضروري أن نعرف لأنّ المهم هو نوح الذي سيخرج من صلبه سام جدّ العبرانيين. ثم فجأة ودون أن يخبرنا أيّ شيء عن نوح يقول: «وكان نوح ابن خمس مئة سنة وولد نوح ساماً وحاماً ويافث (تكوين 5: 32). فماذا كان يفعل خلال مئات السنوات من عمره؟ وأين كان يقيم؟ ومن هي زوجته؟ أسئلة غير مهمة بنظر كاتب التوراة، فهو كاتب القصة وهو المخرج وموزّع الأدوار.

وسنرى أنّ للأولاد الثلاثة دوراً لا يستطيع القيام به ولد واحد، فلقد كان نوح إذن بحاجة لأولاد ثلاثة، وسنكشف عن الدور أو الأدوار التي اختارها الكاتب لنوح وأولاده فيما يلي. وقبل البدء بالإضاءة على هذه الأدوار يجب التعليق على المقطع الأول من الإصحاح السادس حيث نقرأ: «وحدث لمّا ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أنّ أبناء الله رأوا بنات الناس أنّهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كلّ ما اختاروا. فقال الربّ لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة. كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضاً دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم». فمن هم أبناء الله الذين اتخذوا لأنفسهم نساءً من بنات الناس؟ هل هم الملائكة أم هم الآلهة الأخرى كما ورد في الأساطير السومرية والبابلية؟ وهل يكفي أن يقول الكاتب في مطلع كل إصحاح أو فقرة «وقال الرب» حتى نصدّق نحن أبناء القرن الحادي والعشرين أنّ هذا قد حصل فعلاً؟ وإذا كانت ذرية آدم لم تزل بعد في أجيالها الأولى، فمن أين أتى طغاة الأرض. وما موقع هذه الجملة الاعتراضية في سياق الكلام؟ ومن هم هؤلاء الجبابرة ذوو الاسم الذين ولدوا من تلقيح بني الله لبنات الناس؟

أما طبعة كتاب العهد العتيق للمرسلين اليسوعيين لسنة 1876 فتفسّر لنا عبارة (بنو الله) بما يلي: «بنو الله هم على الرأي الأعم أولاد شيث وإنما سُمّوا بذلك لأنّهم كانوا متدينين معروفين بالعبادة مزكّين بتقوى الله عزّ وجلّ، وأما بنات الناس فكنّ من ذرية قايين الفاجرة الفاسقة». فهل هناك ذو عقل يقبل بهذا التفسير السخيف؟ فإذا كان آدم قد دخل على حواء وأنجب قايين وهابيل الذي قتل، فهذا يعني أنّه لم يكن هناك غيرهما كولدين لآدم وحواء، فمن أين أتت امرأة قايين؟ ولماذا لم يذكر كاتب التوراة شيئاً عن زوجة شيث؟ بل قال فقط: «ولشيث أيضاً وُلد ابن فدعا اسمه أنوش. حينئذ ابتدئ أن يدعى باسم الربّ» (تكوين 4: 26)، ثم إذا كان قايين قد ارتكب جريمة قتل أخيه، فلماذا تكون كلّ ذريته فاجرة فاسقة، والله قد دمغه بعلامة لكي يحميه: «وجعل الربّ لقايين علامة لكي لا يقتله كلّ من

وجده» (تكوين 4: 15). فإذا كان الربّ قد أغدق على قايين الحماية على الرغم من كونه قاتلاً، فلماذا ألصق أصحاب (الرأي الأعم) صفتي الفجور والفسق بذريته؟ ولماذا اعتبروا أن بني الله هم أولاد شيث؟ وما هي الإثباتات أنّهم كانوا متدينين معروفين بالعبادة وتقوى الله والتوراة نفسها لم تذكر عنهم شيئاً؟ ألا يعتبر هذا التفسير من قبيل المغالاة التي لا تستند إلى منطق أو إلى دليل؟ ولماذا هذا التستر من آباء مسيحيين على غرابة ما جاء في التوراة؟ بل لماذا هذه المشاركة بالمؤامرة على المسيحية نفسها؟

ثم لكأنّي بالكاتب قد انتبه إلى مبالغته عندما بدأ يحدّد الأعمار، بدءاً من آدم الذي عاش تسع مئة وثلاثين سنة وصولاً إلى نوح الذي عاش تسع مئة وخمسين سنة، فقرر في هذه الفقرة أن يحدّد عمر الإنسان بمئة وعشرين سنة، وهو قد أخطأ في هذه أيضاً، إذ من غير الممكن أن يعيش الجميع عدد السنين ذاتها، إلاّ إذا كان يقصد من هذا تحديد الحد الأقصى. وهذا يُظهر الإرباك الذي رافق الكاتب خلال سرده لأحداث هذه الأسطورة.

وما أن نبدأ بقراءة المقطع الثاني من الإصحاح السادس حتى يبدأ دور نوح بالبروز: «ورأى الربّ أنّ شرّ الإنسان قد كثر في الأرض. وأنّ كلّ تصوّر أفكار قلبه إنّما هو شرير كلّ يوم. فحزن الرب أنّه عمل الإنسان في الأرض. وتأسّف في قلبه. فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأنّي حزنت أنّي عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة في عينيّ الرب». ويبدأ الفيلم الأميركي الطويل بكل دراميته. فإذا ما أخذنا كلّ ذرية آدم وصولاً إلى نوح فكم من الممكن أن يكون قد وصل تعدادها؟ لنقل بضعة آلاف. فهل يعقل لهؤلاء البدائيين البسطاء أن يملأوا الأرض شروراً تقضّ مضاجع الله في عليائه؟ أليس هذا قمة السخف والانزلاق بالمدارك الإنسانية إلى الحضيض؟

وإذا كان الكاتب قد نسب إلى الله في عملية الخلق صفة التعب، وحدّد تعبه في يوم السبت فاستراح وأعلن السبت مقدَّسا، فها هو الكاتب الآن يجدّف على العزة الإلهية مرّة ثانية فينسب إلى الله الحزن والأسف، وهو بذلك إنما عيّن نفسه أميناً لسرّ الله يخبره بمكنونات قلبه وبقراراته. وهل يمكن لله الذي خلق الإنسان والبهائم وطيور السماء أن يمحو كائناته عن وجه الأرض بسبب شرور الإنسان؟ وما ذنب البهائم والطيور؟ وهل الله قليل الصبر لكي يقوم بهذا العمل الذي، إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على ضيق صدره بمخلوقاته وعلى إجرامه عندما قرّر محوها عن وجه الأرض؟ ألا يعتبر هذا الكلام تجنّيًا على الذات الإلهية ووصماً لها بصفات هي منزّهة عنها؟ أليس في هذا العمل بداية الثقافة الإرهابية الأولى في التاريخ الإنساني؟ وأين هو هذا الإله اليوم من الجرائم التي تُرتكب بحق الإنسانية ومعظمها على يد شعبه المختار؟

ولا بد هنا من طرح السؤال التالي: إذا كان الله قد خلقنا وكتب لكل واحد منّا في صحيفته كلّ ما سيقوم به وسيصادفه من مشاكل وما سيواجهه من أحداث وكيفية رد فعله عليها، ثم يُقدم على محاسبتنا على ما قمنا به، ألا يكون بذلك ظالماً لنا بحيث يجعلنا نتحمل وزر ما قد خططه لنا سلفاً؟ وفي هذا المجال يطرح غاري رينارد في كتابه «اختفاء العالم» التساؤل التالي: «يبدو أنّ الله قد تقصّد أن يوقع الإنسان بالخطيئة، ويجعله يرتكب الأخطاء انطلاقاً من أحداث مقدّرة الحصول، أي من هندسته، لكي يتمكن من معاقبته فيشعر بالسعادة»، ويأتينا الجواب: «هكذا تظهر الأمور، ولكن هل يمكن أن يفعل

الله ذلك؟ إذا كان لديك طفل، فهل تفعل به ذلك؟ وهل يمكن عندها الثقة بإله كهذا؟ ألا يمكن اتهامه باضطهاد أبنائه؟ إذن فما هي حقيقة الأمر؟ الجواب سهل لمن يرفع الغشاوة عن عينيه. الله لا يمكن أن يقوم بذلك. إنّه ليس غبياً». ويقول الكاتب أيضاً: «الخير فقط يأتي من الله وأيّ شيء آخر فهو من صنعنا»(69). وهذا يعني بشكل قاطع أنّ الله ليس بوارد إبادة أبنائه الذين خلقهم، وأنا أتكلم هنا انطلاقاً من المفاهيم الدينية لا العلمية، حتى لو ارتكبوا الشرور لأنّه لا يُعقل بأيّ حال من الأحوال أن يتحول الجميع أشراراً دفعة واحدة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية ليس من العدل الإلهي أن يأخذ الجميع بجريرة نفرٍ قليلٍ عاثوا في الأرض فساداً.

لكنّ كاتب التوراة لا يأبه للمنطق فيقرر أنّ الله قد رأى «الأرض فإذا هي قد فسُدتْ. إذ كان كلّ بشر قد أفسد طريقه على الأرض» (تكوين 12:6). لقد كان ذلك سبباً اتخذه الكاتب كمبرر للدخول الدرامي إلى أسطورة الطوفان. فإذا لم يكن هناك شرور فليس لله من سبب للقضاء على الإنسان والمخلوقات الأخرى، بل أكثر من ذلك على الأرض برمتها: «فها أنا مهلكهم مع الأرض» (تكوين 6: 13). ثم تظهر روح هذا الإله الإجرامية فيقول لنوح: «فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كلّ جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت» (تكوين 6: 17). قال ذلك لنوح بعد أن أمره بصنع الفلك من خشب جفر وأعطاه المقاييس وطريقة طليه بالقار كي لا يتسرّب إليه الماء. وأمره بدخول الفلك مع بنيه وأمرأته ونساء بنيه، «ومن كل حيّ ذي جسد اثنين... وتكون ذكراً وأنثى... ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله» (تكوين 6: 19).

إنّ كلّ هذه القصة، مع ما تبع الطوفان الذي حصل يوم كان نوح ابن ست مئة سنة، والذي يفوق الوصف ولا يقرّه العقل، حيث يذكر الكاتب أنّ المياه تعاظمت على الأرض بحيث أنّها ارتفعت على الجبال الشامخة «خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه. فتغطت الجبال» تكوين (7: 20)، إنّما تدلّ على مدى المبالغة التي تظهر بوضوح خلال السرد القصصي، هذه المبالغة التي تميّزت بها الأسطورة لدى كل الشعوب القديمة. فنحن نرى حتى في هذه الأيام أعاصير المحيطات يصل فيها ارتفاع الموج إلى ثلاثين متراً وليس فقط خمسة عشر ذراعاً، لكنّ ذلك يحصل على الشواطئ وليس فوق الجبال، ومهما ارتفعت الأمواج فإنّها لا تصل إلى قمم الجبال.

وبالطبع، فإنّ كاتب هذه الأسطر لم يكن يعلم بالعوامل الجيولوجية التي حصلت منذ ملايين السنين حيث تغيرت طبوغرافية الأرض فبرزت جبال من تحت الماء، وانفصلت أجزاء من اليابسة عن بعضها مشكِّلةً الجزر، إلى ما هنالك من أحداث جيولوجية لسنا في مجال الخوض فيها. وعلى قارئ هذه القصة في التوراة أن يقرأ شبيهتها التي سبقتها إلى الوجود نتيجة تفاعل العقل السومري وبعده البابلي مع محيطه الطبيعي فأنتج، قبل التوراة بما لا يقل عن ألف سنة، ملحمة جلجامش التي تحوي أسطورة الطوفان. ففي مدينة «نفر» السومرية تم العثور على نص تمت ترجمته فإذا هو يحكي عن قصة الطوفان الذي أرسله الإله على الأرض، نقتبس بعض الأسطر من هذه الأسطورة كما وردت في كتاب «مغامرة العقل الأولى» لفراس السواح وكذلك في كتاب «التوراة البابلية» لسهيل قاشا:

إنّا مرسلو طوفاناً من المطر

فيقضي على بني الإنسان

ذلك حكم وقضاء من مجمع الآلهة
أمر آنو وإنليل
فنضع حداً لمكوث البشر
ثم يستطرد:
هبت العاصفة كلّها دفعةً واحدة
ومعها انداحت سيول الطوفان فوق وجه الأرض
ولسبعة أيام وسبع ليال
غمرت سيول الأمطار وجه الأرض
ودفعت العواصف المركب العملاق فوق المياه العظيمة
ثم ظهر «أوتو» ناشراً ضوءه في السماء على الأرض
فتح زيوسودرا كوةً في المركب الكبير
تاركاً أشعة البطل أوتو تدخل منه...
ثم نقرأ الأسطر التالية:
قوّضْ بيتك وابنِ سفينة،
اهجرْ ممتلكاتك وانجُ بنفسك،
اتركْ متاعك وأنقذْ حياتك،
اعملْ على حمل بذرة كل ذي حياة،
والسفينة التي أنت بانيها،
ستكون وفقاً لمقاسات مضبوطة،
فيكون عرضها معادلاً لطولها
وغطّها كما هي المياه السفلى.
وصولاً إلى ما كتبه عن السفينة:
وفي اليوم الخامس أنهيت هيكل السفينة
... وارتفاع جدرانها مائة
وطول كل جانب من جوانب سطحها مائة وعشرون ذراعاً

حدّدت شكلها الخارجي

وستة سطوح سفلية بنيت فيها

وبذلك قسّمتها لسبعة طوابق،

كما قمت بتقسيم أرضيتها لتسعة أقسام

وثبتّ على جوانبها مصدّات المياه

زوّدتها بالمؤن والذخيرة

وسكبت في الفرن ست وزنات من القار

وثلاث وزنات من الإسفلت...

كل ما لدي من بذور كل شيء حي حملت إليها

وبعد أن أدخلت إليها أهلي وأقاربي جميعاً

وطرائد البرية ووحوشها وكل أصحاب الحرف...

وما أن أزف الموعد

حتى أرسل سيد العاصفة مطراً مدمراً في المساء...

ستة أيام وست ليالٍ...

ومع حلول اليوم السابع، العاصفة والطوفان

خففت من وطأتها...

وأخذ البحر يهدأ والعاصفة تسكن والطوفان يتوقف.

فتحت نافذة فوقع النور على وجهي...

ثم نهضت وتطلعت في كل الاتجاهات

مستطلعاً حدود البحر

على بعد اثنتي عشرة ساعة مضاعفة، انبثقت قطع من الأرض

واستقرت السفينة على جبل (نصير)...

وعندما حلّ اليوم السابع

أتيت بحمامة وأطلقتها في السماء

طارت الحمامة بعيداً وما لبثت أن عادت إليّ

لم تجد مستقراً فآبت

فأتيت بسنونو وأطلقته في السماء

طار بعيداً وما لبث أن عاد إليّ...

ثم أتيت بغراب وأطلقته في السماء

فطار الغراب بعيداً ولما رأى أن الماء قد انحسر

أكل وحام وحطّ ولم يعد.

سأكتفي بهذا القدر من الأسطر المقروءة من هاتين الملحمتين وأحيل القارئ الحصيف إلى كتاب التوراة وتحديداً سفر التكوين بدءاً من الإصحاح السادس: 13، حيث يعطي الله نوحاً مقاييس السفينة أو كما شاء كاتب التوراة أن يدعوه فلكاً علّه يميّز أسطورته عن سابقاتها ببعض القشور التي لم تنفعه بتمويه سرقته، وطريقة طليها بالقار مروراً بالإصحاح السابع حيث يأمر الله نوحاً بدخول الفلك مع أهل بيته والبهائم الطاهرة (وكأنّ هناك بهائم طاهرة وأخرى نجسة) ولم يقل زوجاً بل قال سبعة سبعة. (تكوين 7: 2). ثم يناقض الكاتب نفسه إذ يقول: «ودخلت إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة» (تكوين 7: 15). وكاتب التوراة يطيل أمد الطوفان فيجعله أربعين يوماً وأربعين ليلة، ويجعل فترة الانتظار، قبل بدء الاختبار ذاته الذي ورد في أسطورة جلجامش، أطول، فيجعلها مئة وخمسين يوماً، ويجعل الفلك يستقر فوق جبل آخر اسمه آراراط.

والمذهل المخجل أنّ اليهود المتمسّكين بحرفية هذه القصص، والذين لا يزالون يعتبرون كلّ كلمة فيها من لدن الله، لا يزالون أيضاً يفتشون عن بقايا هذا الفلك، ولن يأخذني العجب إن هم يوماً، وعلى طريقة أفلام هوليود، عتّقوا بعض الأخشاب ودفنوها فوق جبل أراراط في أرمينيا وادّعوا أنّها بقايا فلك نوح. فهل يتجرّؤون على ذلك بوجود التقنيات الحديثة حيث يقول شلومو ساند: «وتطور تكنولوجيا الفحص بواسطة كاربون 14 جاء ليؤكد الاستنتاج المؤلم بأنّ البناء الضخم في المنطقة الشمالية لم يشيّد على يد سليمان وإنّما في فترة مملكة إسرائيل»(70). فإذا كان العلم اليوم قادراً بهذه الدقة على تأكيد أو نفي بعض الأمور الغابرة فإنّه لن يقف ساكتاً أمام أمر كهذا في حال حدوثه، وهو ما يردع اليهود عن الإقدام على مثل هذا العمل. وبالعودة إلى الطوفان نصل إلى الفقرة السادسة من الإصحاح الثامن، والتي تتطابق مع نص أسطورة جلجامش لجهة فتح طاقة الفلك وإرسال الحمامة. لكنّه يختلف مع أسطورة جلجامش لجهة عدم إرساله سنونوة أو غراباً، بل كرّر إطلاق الحمامة مرة ثانية فعادت إليه بغصن زيتون أنبأه بأنّ المياه بدأت بالانحسار، فأعاد الكرّة مرّة ثالثة، وهذا ما فعله جلجامش، فلم تعد فعَلِمَ أنّ المياه قد نشفت عن الأرض. ولعلّ الملفت أنّه بعد انحسار الطوفان في الأسطورة البابلية يقوم جلجامش بتقديم القربان للآلهة فيقول:

سكبت خمر القربان على قمة الجبل

أقمت سبعة قدور وسبعة أخر

وجمعت تحتها قصب السكر الحلو وخشب الأرز والآس

فتشمّم الآلهة الرائحة الزكية...

فقربان جلجامش كان خمراً، والخمر مصنوعة من العنب، وعندما أوقد محرقة، أحرق قصب السكّر وخشب الأرز والآس، أي أنّ ما قدّمه كان من خيرات الأرض تماماً كما فعل قايين، في سفر التكوين الإصحاح الرابع، عندما قدّم قرباناً للرب من أثمار الأرض فلم يلتفت الرب إلى قربانه بل إلى قربان أخيه هابيل التفت لأنّ قربانه كان من أبكار غنمه، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً. وها هو نوح يتبع هابيل فيقدّم بعد نجاته من الطوفان قرباناً على مذبح الرب الذي بناه «من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة واصعد محرقات على المذبح. فتنسّم الرب رائحة الرضى» (تكوين 8: 20). آلهة جلجامش أحبت رائحة خشب الأرز الزكية، أما إله نوح فأرضته رائحة حرق البهائم والطيور، فأيّ فارق بين النفسية البابلية الإنسانية السامية وبين نفسية كاتب أسفار التوراة العبراني التي لا يُشمّ منها غير رائحة القتل والإبادة؟ ثم إذا كان نوح قد قدّم قربانه من الطيور والبهائم التي حملها معه، وهي كانت من كل نوع، ذكراً وأنثى، فكيف عادت وتكاثرت؟ فهذا يجعلنا ندرك كم كان كاتب الملحمة السومرية والبابلية أشدّ ذكاءً من كاتب الأسطورة التوراتية، لأنّ قربانه كان خمراً ومحرقته كانت من خشب الأرز والآس وقصب السكّر، فلم يقع في الفخ الذي وقع فيه كاتب التوراة الذي كان يدرك برأيي أنّه لم يكن يكتب ديناً، بل أسطورة أخرى تشبَّها بمن سبقه، ولم يكن يعلم أنّ هذه الأسطورة ستُفرض على البشرية على أنّها حقائق إلهية غير قابلة للنقاش. وحول مسألة التحريف التي قام بها محرّر التوراة، الذي بدّل جزئياً بعض المعطيات في القصص القديمة لكي يتمكّن من خداع الناس والادّعاء بأنّه هو المبدع، أو كما أراد أن يوهم الناس بأنّ كل ما هو مكتوب فهو كلام الله لا علاقة له به، وبأنه هو الواسطة، يقول توماس ل. طومسون: «وهذا النمط من التحريف يجب أن لا يلتبس مع الروايات المختلفة للقصة الواحدة، مثل قصَّتَيْ الطوفان، اللتين كان التحوير فيهما على مستوى المقولة والفكرة الرئيسية»(71) كما يشير بشكل واضح إلى مسألة الاقتباس بقوله: «يُقدّم نوح كرمز للتقوى وكآدم جديد يُقدّم في بنية مغلّفية لطبعة من قصة الطوفان مأخوذة من أسطورتَيْ أتراهاسيس وغلغامش»(72). ويعود إلى الموضوع ذاته فيقول: «إنّ قصة نوح والطوفان في الكتاب (التوراة)، تنقيح عبراني للقصة الرافدينية الشهيرة من الحكايات الخرافية لـ(زيوسودرا وأترهاسيس وأوتنابشتيم) هي حكاية القضاء الإلهي»(73).

أما جودت السعد فقد أضاء على هذا الموضوع بقوله: «لقد كشفت حتى الآن ثلاث قصص بابلية عن الطوفان: الأولى – حسب اكتشافها – بطلها (أوتو – نبشتم) والثانية بطلها (زيو – سدرا) والثالثة ذكرها فرير كينسكي وبطلها يحمل اسم (أرهاسيس) الأمر الذي يؤكد شيوع هذه القصة إلى الحد الذي وصلت معه بسهولة إلى كتبة التوراة فوظّفوها في كتابة سفر التكوين»(74). وهذه الأساطير الثلاث كشف عنها المنقّبون في مكتبة أشور بانيبال في نينوى.

ويُنهي كاتب سفر التكوين الإصحاح الثامن بأسخف مما بدأه إذ يقول: «وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأنّ تصوُّر قلب الإنسان شرير منذ حداثته ولا أعود أيضاً أميت كلّ حيّ كما فعلت» (تكوين 8: 21). وعلى هذا الكلام لنا تعليق. أولاً إذا كان الله قال في قلبه هذا القول فكيف علم به الكاتب؟ وإذا كان الله يعلم أنّ الإنسان مطبوع على الشر، فلماذا لعن الأرض بسببه ثم تراجع عن ذلك؟ وإذا لم يكن يعلم فهذا يعني أنّ علم الله ناقص، وهذا أيضاً انتقاص من قدرة

الله اللامحدودة. أما نحن فنعلم بأنّ الله لا علاقة له بهذا الكلام، بل أكثر من ذلك نعود لنؤكد بأنّ كاتب التوراة قد سرق هذه الفكرة من الأسطورة البابلية حيث تُظهر الآلهة ندمها بعد إرسال الطوفان حيث نقرأ:

ففتح أيا فمه مخاطباً إنليل المقاتل:

أيها المحارب، أيها الحكم بين الآلهة

كيف، آه كيف، دونما تفكّر، جلبت هذا الطوفان؟

حمل المذنب ذنبه، والآثم إثمه...

كنت تستطيع بدل الطوفان أن تسلّط الأسود لتنقص عدد البشر

كنت تستطيع أن تطلق الذئاب فتنقص من تعدادهم...

فصعد إنليل إلى السفينة

وأخذ بيدي وأصعدني معه

كما أصعد زوجتي أيضاً وجعلها تركع إلى جواري

ثم وقف بيننا ولمس جبهتينا مباركاً...

ولقد أورد فراس السواح نصوصاً مشابهة من أساطير أخرى مثل نص نيبور الذي يعود إلى الدولة البابلية القديمة حيث نقرأ:

سأقوم بإفلات المياه

... سوف يأخذ الناس أجمعين

... قبل أن يحلّ الطوفان

... سأسبّب الخراب والدمار والفناء

... قم ببناء السفينة

... سيكون هيكلها

سفينة عظيمة، وسيكون اسمها حافظة الحياة

... قم بتغطيتها بغطاء متين

وإلى السفينة التي صنعت

اجلب وحوش البر وطيور السماء

إنّ وضعية لوح الآجر الذي وجد هذا النص مكتوباً عليه لم يسمح بقراءة مفصّلة لحوادث الطوفان التي ترويها الأسطورة، لكنّ المعنى واضح والشبه بيِّن.

ونقرأ أيضاً من ملحمة أتراحسيس والتي تشكّل نصاً بابلياً ثالثاً عن الطوفان يؤكد أنّ هذه القصة هي أسطورة شعبية متداولة لدى شعوب العالم القديم قبل أن يكون هناك عبرانيون أو إسرائيليون أو يهود:

وفي الوقت المحدّد الذي سأعيّنه لك

ادخل الفلك واغلق عليك بابك

احمل إليها الحبوب والمتاع والمواشي

زوجك وعائلتك وأقرباءك وأصحاب الحِرَف

طرائد البرية ووحوشها، وما استطعت من آكلة الأعشاب...

ففتح أتراحسيس فمه وقال محدًّثا «أيا» مولاه:

لم يسبق لي أن بنيت سفينة

فهلاّ رسمت لي شكلاً لها على الأرض

أستعين به على بنائها....

أما الأب سهيل قاشا فبالإضافة إلى إضاءته على هذا الحدث وإشارته إلى اقتباسه من الأساطير السومرية والبابلية القديمة، يشير أيضاً إلى وجود هذه الأسطورة في الأدب الهندي القديم: «هناك أيضاً وجود للقصة وفكرتها في الثقافات الفارسية والإغريقية والرومانية وغيرها، ولكن لغايات البحث الموثّق من حيث الفكرة والسبق الزمني والمنطقة التي عاش فيها مسبيو بابل من اليهود اخترت القصص من بلاد الرافدين ومررت على القصة الهندية لغورها في القِدَم»(75). ولمن يريد الاستزادة حول مقتبسات التوراة فإنّنا نحيله إلى كتاب فراس السواح «مدخل إلى نصوص الشرق القديم»، ففيه إثباتات عن المسروقات التي اقترفها كاتب التوراة من آداب الشعوب القديمة، وتأكيد على أنّ كلّ قصص التوراة بدءاً بقصة آدم وحواء، مروراً بقصة قايين وهابيل، وخلق الإنسان من طين، وعطلة السبت، وغضب الآلهة وما قامت به من تدمير، والحية، والطوفان، وسفينة نوح، وصولاً، كما سنرى، إلى قصة يوسف لها مثيلاتها في تراث شعوب الشرق القديم.

كذلك للأب الدكتور سهيل قاشا أكثر من مؤلَّف فضح فيه هذه السرقات، التي، ما كنّا لنقول عنها سرقات لو لم يدّع اليهود أنّها من إبداعهم وأنّ الكتاب الذي حواها، كتابهم الديني التوراة، هو الكتاب المقدس الخالد الذي قدّموه للبشرية. يكفي أن ننهي كلامنا حول هذا الموضوع بما نقله سهيل التغلبي عن الباحث ألبرايت، والذي يعتبر من الذين جاروا اليهود بتأكيدهم على تاريخية قصصهم التوراتية ولم يستطع كباحث أحياناً الوقوف في وجه العلم، حيث نقرأ: «وفي مسألة الطوفان، ذكر ألبرايت في كتابه (الشعب اليهودي قديماً وحديثاً) قوله: فقد أصبح الآن على وجه التأكيد أنّ القصص العبرية

المتعلقة بالخليقة والطوفان والجنّة إمّا أن تكون مأخوذة من السومريين مباشرة أو مأخوذة عن طريق الأكديين والعموريين»(76).

نكتفي بهذه الأمثلة التي تؤكد بشكل قاطع ونهائي على أنّ محرّري أسفار التوراة قد اعتمدوا بشكل رئيس على ما قرأوا من أساطير سومرية وبابلية عند وصولهم إلى بابل بعد سقوط أورشليم على يد نبوخذ نصر عام 587 ق.م. وهذا ما حدا بفراس السواح إلى القول: «لقد كتب مؤلّفو التوراة نص الطوفان معتمدين بشكل واضح على أكثر من نص بابلي، مع بعض التعديل والتغيير»(77).

فالدور الأول الذي أسنده الكاتب إلى نوح انتهى مع نهاية الطوفان وخلاص نوح وأهل بيته مع أنواع البهائم والطيور التي حملها معه في الفلك. ثم يبدأ الدور الثاني الذي يظهر سبب ذكر ثلاثة من أبناء نوح بدلاً من واحد فقط. فها هو يقول في (تكوين 7: 18): «وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافث. وحام هو أبو كنعان. هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح. ومن هؤلاء تشعّبت كلّ الأرض».

لقد اكتفى الكاتب بذكر ثلاثة فقط من أولاد نوح ولم يقل، كما قال عن غيره من ذرية آدم، وولد بنين وبنات، وذلك كي يتمكن نوح أولاً من حملهم معه في الفلك مع زوجاتهم، وثانياً لأنّه رسم لكلّ واحد من هؤلاء الأبناء دوراً. وهو قد حدّد فوراً أنّ حام هو أبو كنعان تمهيداً لإسقاط اللعنة عليه، واعتبر أنّ شعوب الأرض قد انحدرت من أبناء نوح الثلاثة فأين ذهب بذريَّتَيْ حام ويافث؟ ثم يأتي الدور الثاني الذي أسنده لأبناء نوح فيقول في (تكوين 9: 20): «وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عوْرة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما. فلمّا استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته. وقال مبارك الربّ إله سام. وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام. وليكن كنعان عبداً لهم».

فكيف لغاية الآن لم يستوقف هذا الكلام أحداً، وفيه جذور التمييز العنصري العرقي غير المبرَّر. فإذا كان نوح في عينيّ الرب رجلاً باراً، وقد باركه الله مع بنيه (تكوين 9: 1): «وبارك الله نوحاً وبنيه»، فأيّة قيمة للعنة نوح لكنعان؟ وهل لعنة نوح أقوى من بركة الله؟

وكيف يكون نوح رجلاً باراً فيسكر ويتعرّى؟ وما ذنب ابنه حام إن دخل عليه في خبائه ورأى عورته؟ هل هذا العمل يعتبر جريمة ارتكبها حام فاستحق عليها اللعنة، أليس السكر هو العمل الأخرق الذي أقدم عليه الرجل البار نوح؟ وإذا كان حام هو الذي رأى عورة أبيه فأغضبه، فلماذا حلّت لعنة نوح على كنعان ابن حام بدلاً من أن تحلّ على حام نفسه؟ ولماذا يؤخذ الأبناء بجريرة الآباء؟ هذا ما سيظهر معنا لاحقاً عندما نصل إلى موسى وشريعته.

ولماذا قال نوح مبارك الرب إله سام فقط؟ ولماذا لم يشرك يافث أيضاً بهذا القول وهو شريك سام بإلقاء الرداء عليه؟ وهل يستحق عمل حام أن يقرر نوح بأن يصبح حام وذريته عبيداً؟ ولماذا خصّ سام بالبركة وقال: «ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام؟ وعندما يقول: «مبارك الرب إله سام» ألا يعني هذا أنّ هناك آلهة أخرى للآخرين وبالتالي أليس هذا أيضاً دليلاً على أنّ العبرانيين لم يعرفوا أبداً التوحيد؟ وهل يعقل أن يبارك الإنسان، مهما علت منزلته، الله أم أنّ الله هو الذي يبارك خلقه؟

أسئلة كثيرة قد يعتبرها البعض سطحية، ولكن عندما يدرك هذا البعض أنّ النص الذي أفرز هذه الأسئلة كان له الأثر الأكثر سوءاً على البشرية لأيقن أهمية هذه الأسئلة. سبق وقلنا بأنّ التركيز على ذكر واحد من ذرية آدم كان له هدف واحد ملازم لأفكار كاتب أو كتبة أسفار التوراة، وهو اختلاق شعب وإعادة جذوره إلى المخلوق الأول آدم، بتسلسل ذرّي خيالي يخرج عن كل منطق، مروراً بشخصيات خيالية طبعت تاريخ هذا الشعب بطابعها الخاص وأضفت عليه صفة الشعب المختار، ونسبت هذا الاختيار إلى الله لكي لا يستطيع أحد مناقشة أيّة كلمة صدرت عنه لأنّها إلهية مقدسة، ولا أيّ موقف مهما بلغ شأنه في سلم القِيَم، صعوداً أو هبوطاً لا فرق، فهو صادر عن الله، فحذارِ حذارِ من مجرد التفكير بالمساءلة والمجادلة والاستفسار. والدور الثالث الذي أسنده الكاتب لنوح هو حصر الأمم في الأرض بعد الطوفان بذريته. وكان قد أعلن أنّ حام هو أبو كنعان قبل وقوع حادث رؤية حام لأبيه نوح عارياً، ولم يعلن أبوّة سام ويافث لأحد، بل فعل ذلك بعد موت نوح إذ عدَّد أبناءهما الذين وُلدوا لهما بعد الطوفان.

وما يهمنا من كلّ هذا السرد الأسطوري هو أنّ البشرية جمعاء، ولغاية هذا اليوم، لا تزال خاضعة لتأثير هذه الأسطورة والتي تحولت إلى حقيقة، فإذا بالعلماء والدارسين ورجال الفكر فضلاً عن المؤمنين العاديين، يؤكدون بكلّ كتاباتهم على وجود شعوب سامية وأخرى حامية. ولقد أعتبر الكاتب إيلان هاليفي أنّ إرجاع البشر إلى نسل أولاد نوح هو تصنيف عرقي أوحى بالعنصرية: «إنّ التقسيم إلى الأنساب الثلاثة، سام وحام ويافث، الذي يعتبر منذ أمد بعيد كتصنيف عرقي - ألسني للأُسَر البشرية قد أوحى بالعنصرية الرِقيّة لأوروبا ولأميركا المسيحيَّتَيْن وبالألسنية الزائفة العنصرية للقرن التاسع عشر وصولاً للعنصرياتِ المبيدة للجنس في الزمن المعاصر»(78). ثم يضيف قائلاً: «إنّ هذا التقسيم الخرافي الذي يجهل اتّساع العالم وتعددية الشعوب والحضارات التي يدركها الشرق القديم لم تؤيد لا بالتاريخ ولا بالألسنية». ونحن لا نستطيع بعد الآن السكوت على هذه المقولة التي فبركها كاتب التوراة وتمسكت بها الصهيونية العالمية كالعصا تهزها في وجه كلّ من يحاول انتقاد تصرفات اليهود عامة أو إسرائيل خاصة فتتهمه بمعاداة السامية.

وقبل الانتقال إلى هذا الموضوع الحساس والمهم، لا بدّ من التساؤل أيضاً، إذا كانت الأمم قد تفرّعت عن سام وحام ويافث، فلماذا التركيز على الساميين والحاميين فقط دون الإتيان على ذكر اليافثيين؟ علماً أن الكاتب قد عدّد ذرية يافث في مطلع الإصحاح العاشر: «بنو يافث جومر وماجوج وماداي وياوان وتوبال وماش وتيراس...» ثم من بين كل هؤلاء يذكر أبناء جومر وأبناء ياوان ويتجاهل أبناء البقية من أبناء يافث. ونتساءل دائماً لماذا؟ ولا نجد جواباً. وكذلك فعل مع بني سام إذ يعدد من بني سام عيلام وأشور وأرفشكاد ولود وأرام، وبعدها يركّز على أولاد أرام وأرفكشاد فقط. أما بالنسبة إلى أولاد حام فقد عدّد منهم كوش ومطريم وفوط وكنعان، ومن هذا التسلسل نفهم أنّ كنعان هو الأصغر فلماذا وقعت لعنة نوح عليه وحده دون سائر إخوته؟ الجواب يأتينا في سِفْرَيْ العدد والتثنية، بعدما تتفتق عبقرية كاتب التوراة عن أسطورة موسى والخروج بشعبه من مصر ودخوله أرض كنعان التي وعده الإله رب الجنود بها، بل جدّد له الوعد الذي أعطاه لإبراهيم وإسحق ويعقوب بإعطائهم إياها، وستكون لنا عودة إلى هذا الموضوع لاحقاً. ومن أولاد حام يستثني الكاتب فوط فلا يأتي على ذكر ذريته.

والملفت أنّ الكاتب يعيد مملكة بابل إلى نمرود ابن كوش ابن حام، وواضح أنّ الأجيال بين آدم ونمرود، أي بين بدء ظهور الإنسان وصولاً إلى نمرود لا تتعدى بضعة آلاف من السنين، بينما العلم اليوم يؤكد كما سبق وذكرنا وجود الإنسان منذ ملايين السنين، ومدينة بابل على قِدَمها تعود إلى الألف الثالث ق.م.، فهل نصدّق العلم أم الأسطورة؟ والمدن السومرية كانت أقدم من بابل فلماذا لم يأتِ على ذكرها.

يقول أرنولد توينبي: «والمدن، الدول المحلية الأخرى التي خلقت إمبراطورية أسرة أور الثالثة الزائلة كانت أشنونا وأشور وبابل(79)...». وهذا يعني أنّ أور، التي خرج منها إبراهيم كما ورد في التوراة، وسومر وأكد هي أقدم من بابل، ونحن أيضاً نجد الجواب على سؤالنا هذا في الأسفار اللاحقة وتحديداً بعد هزيمة إسرائيل ويهوذا على يد القائديْن البابلييْن سرجون ونبوخذ نصّر. فسرجون قد حاصر وافتتح السامرة عام 721 ق.م. حيث يقول في نص له: «لقد حاصرت السامرة وفتحتها، وسبيت 27290 فرداً من سكانها...» غير أنّ كاتب التوراة الذي بدأ بتحريرها بعد ما لا يقل عن مئتين وخمسين سنة نسب ذلك إلى القائد الأشوري شلمانصر.

وفي هذا الخصوص يقول فراس السواح: «إن غياب اسم صارغون (سرجون) من هذا الخبر التوراتي ليدل مرة أخرى على أنّ محرّر سفر الملوك الثاني لم يكن بين يديه إلا نتفاً وأخباراً متفرقة عن تلك الفترة، وغير مترابطة. فهو لم يسمع بصارغون الذي كان إمبراطوراً على المشرق بكامله... ولم يخصه بخبر واحد لا في هذا الموضع من سفر الملوك، ولا في غيره»(80). أما سقوط أورشليم على يد نبوخذ نصّر فقد تم عام 587 ق.م. وأما عن عدد المسبيين بعد هذه المعركة فلا نص التوراة ولا أية نصوص أشورية جاءت على ذكره، بل أنّ التضارب واضح في النصوص التوراتية ما بين سفر إرميا وأخبار الأيام الثاني وسفر الملوك الثاني. وما يهمنا من كلّ ذلك هو تساؤلنا المشروع عن هذه الجملة الاعتراضية في الإصحاح العاشر والتي أقحمها الكاتب خلال ذكره لذريّة حام حيث قال إن كوش ولد نمرود الذي كان جباراً في الأرض، واسترسل مفسًّرا معنى نمرود فإذا به مرادفاً للصفة «جبار» حتى يصل إلى القول: «وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكد وكلنة في أرض شنعار» تكوين (10: 10). ولم نقع على أيّ نص تاريخي يؤكد هذا الادعاء.

أما فيما خص أولاد سام الذين كان من المفترض أن يبدأ محرِّر التوراة بتعدادهم أولاً لأنّ سام هو أكبر إخوته، فلقد ترك تعدادهم للنهاية حيث يعدّد في (تكوين 10: 22): «بنو سام عيلام وأشور وأرفشكاد ولود وأرام»، وكان قد ذكر أيضاً أنّ سام هو أبو كلّ بني عابر، أما عندما يلجأ إلى التفصيل فهو يختار من بينهم أرام وأرفشكاد وعابر فيعدّد أولادهم كما فعل مع آرام، أو يذكر ولداً واحداً كما فعل مع أرفشكاد الذي ولد شالح وشالح ولد عابر. ولعابر ولد ابنان. اسم الواحد فالج واسم أخيه يقطان. فهل هذان لعابر ابن شالح أم لعابر ابن سام؟ أما عيلام وأشور ولود فيسقطهم الكاتب ولا يأتي على ذكر ذرّيتهم على الإطلاق. وهذه السردية حول الذرية بدءاً من آدم تبدو لنا استنسابية كما رأينا حيث يسير الكاتب على هذا المنوال في كلّ أسفار التوراة، والسبب واحد وهو التركيز على شخص معيّن وملاحقة ذريته التي سيخرج منها العبرانيون. أما بالنسبة لهذا التسلسل الذري فإنّنا لا نجد له أيّ سند تاريخي، وهذا شيء طبيعي لأنّه من صنع خيال الكَتَبَة، فكلّ هذه الأسماء، حتى ولو اقترنت

بأماكن لا تزال معروفة حتى اليوم، لا تعني أنّها تدل على أشخاص حقيقيين. ففي النص الأشوري الذي عثر عليه في خرائب أشور يقول كاتب الأسطورة:

أما وقد حدّدنا مصائر السماء والأرض

وجرت القنوات في مجاريها، وتوضّعت الخنادق

واستقرت شطآن دجلة والفرات...

فهل ذكر هذين النهرين اللذين لا يزالان يحتفظان حتى يومنا هذا بالاسم نفسه، يؤكد أنّ كل ما ورد في الأسطورة من أعمال قام بها الآلهة هي حقيقة ثابتة؟ بالطبع لا، فمن كتب الأسطورة استعان بأسماء الأماكن حيث كان موجوداً، أما أشخاص الأسطورة فإنّهم من صنع الخيال ككل شخصيات أيّة قصة يضعها أي أديب أو مؤلف. فالأسطورة وإنْ استندت أحياناً إلى أماكن جغرافية وأحداث حقيقية فإنّها سرعان ما تعود لتخضع إلى سطوة الخيال دون كابح لجماحه.

ويتبادر إلى أذهاننا سؤال آخر وهو: إذا كان أشور هو أحد أبناء سام، فلماذا يأتي على ذكره خلال تعداده لذرية حام بأنّه «من تلك الأرض خرج أشور وبنى نينوى..» (تكوين 10: 11) ألم يكن أجدر بالكاتب أن يشير إلى ذلك عند الكلام عن ذريّة سام؟ وما ذلك برأينا إلاّ لسبب وحيد، وهو ضعف السبك القصصي الأسطوري، وهذا ما سنأتي على ذكره لاحقاً، حيث وقع كَتَبَة التوراة بالعديد من التناقضات الفاضحة، مما يؤكد مرة جديدة أن لا علاقة لله بما هو وارد في هذه الأسفار وهي لا تعدو كونها أساطير خيالية. يقول مفيد عرنوق: «والأب تيار (دو شاردان) بجدليته العلمية هذه رفض النظرة الأسطورية القديمة، لأنّ العلم الحديث يرفضها قطعاً، فهو إذن يرفض قصة التكوين التوراتية ليتبنى نظرة جديدة تواكب العلم الحديث ولا يرفضها العقل»(81). ويصل مفيد عرنوق إلى نتيجة مفادها أنّ بعض آباء الكنيسة، مثل الأب تيار دو شاردان، قد تبنوا مبدأ التطور وفق معطيات العلم الحديث، وبناء على فهمهم المادي الروحي لمبدأ التطور اعتبروا «قصة التكوين التوراتية خرافة، من مخيِّلة الإنسان البدائي الذي لم يكن باستطاعته فهم ظواهر الوجود فهماً فلسفياً عملياً واضحاً». علماً بأنّ ما تركه لنا التراث السومري والبابلي والكنعاني، إنّما يدل على الإشراقات الأولى للعقل البشري على طريق اكتناه ماهية الوجود بفكر ما ورائي بدائي (بالنسبة إلى المدى الذي أدركه التطور الفكري الإنساني الحديث، أما حينها أي منذ خمسة آلاف سنة فقد كان يُعتبر فتحاً لآفاق لم يسبق للعقل البشري أن طرق أبوابها).

وقبل الانتقال إلى الإصحاح الحادي عشر يجب أن نذكر ملاحظتنا الأخيرة حول ما جاء في الإصحاح العاشر حول كنعان ابن حام، حيث كنا قد أشرنا إلى أنّ كنعان هو واحد بين أربعة أخوة وُلِدوا لحام وهو الأصغر. فلماذا اختاره نوح من بين الأربعة فأسقط عليه اللعنة؟ إنّ من يتابع قراءة التوراة يدرك أنّ ذلك كان توطئة للمخطط الذي وضعه الكاتب لأسطورته، والقاضي باختراع شعب لا أرض له، لأنّه أصلاً غير موجود، ومنحه أرض شعب آخر فقط لمجرد أنّ الكاتب الذي كان يعيش في أرض كنعان كان يعلم أنّها أرض خير، وأنّها بلاد قد قطعت شوطاً بعيداً في ميدان التطور والرُّقيّ.

لذلك جعل الكاتب الله يظهر لأبرام ويعده بأرض الكنعانيين: «وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض. وظهر الرب لأبرام وقال لِنَسْلِكَ أعطي هذه الأرض» (تكوين 12: 6)، ألم يلعن نوح حاماً؟ وألم يعلن الكاتب أنّ كنعان هو ابن حام وأنّه سيكون عبداً لأخيه سام؟ فإنّه من الطبيعي إذن أن يقتلع الرب (رب إسرائيل) كنعان من أرضه، ويقدّم هذه الأرض هدية لذرية أبرام التي لم تولد بعد. ثم يقول في (تكوين 15: 18): «في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلا: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات». أما لماذا شمل الكاتب على لسان الله أراضي من مصر، فإنّ ذلك سيتوضّح في سفر الخروج.

هذا الميثاق الثنائي الاستثنائي الذي قطعه الله مع أبرام يتكرّر مع إسحاق ويعقوب وصولاً إلى موسى. فمع تقدم الكاتب بفصول أسطورته كان يعيد التأكيد بأنّ أرض كنعان الملعون وعبد أخيه سام يجب أن تؤول إلى ذرية سام أي إلى الإسرائيليين العبرانيين اليهود. وها هو الكاتب في سفر الخروج (إصحاح 33: 1) يجعل الله يقول لموسى: «وقال الرب لموسى اذهب اصعد من هنا أنت والشعب الذي أصعدته من أرض مصر إلى الأرض التي حلفت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها. وأنا أرسل أمامك ملاكاً وأطرد الكنعانيين والأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً». إذن ليس على أتباع موسى أن يقاتلوا للاستيلاء على الأرض، فملاك الرب جاهز لطرد أبناء حام من الأرض التي حوّلوها إلى بساتين واستخرجوا خيراتها، وتقديمها على طبق من ذهب لأبناء عمومتهم. فأيّ إله عادل يُقدِم على عمل كهذا؟ وأيّ عقل بشريّ سَويّ يصدّق هذه الأقوال المنسوبة إلى الله الذي سنكتشف لاحقاً بأنّه ليس إلهاً كونياً واحداً يعبده البشر أجمعين، بل هو إله شعب خاص لم يشأ إشراك شعوب أخرى بعبادته، استأثر به وجعله يقوم له بأعمال لا يقبلها عقل ولا منطق ولا إنسانية، إله قبلي حقود لا يعيش إلاّ على تنسّم رائحة الأضحية.

ولم يترك الكاتب فرصة إلاّ وكان يُقوّل الله على ألسنة ذريّة سام ما يستكمل به خطته لتجميع القبائل البربرية التي كانت تتسلّل إلى كنعان تحت راية واحدة، علّه بذلك يجعل منهم شعباً ذا قيمة أسوة بشعوب المنطقة. ففي سفر التثنية (الإصحاح 1: 6) يعيد على لسان موسى ما قاله الله سابقاً: «الربّ إلهنا (ولم يقل إله الكون) كلّمنا في حوريب قائلاً: كفاكم قعود في هذا الجبل. تحوّلوا وارتحلوا وادخلوا جبل الأموريين وكلّ ما يليه من العربة والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر أرض الكنعاني ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات». فهذا الكاتب العبراني الذي كان، على ما يبدو، يعرف جغرافية الهلال الخصيب بشكل جيد، كان طامعاً بأن يمتلك شعبه كل هذه المنطقة، فمهّد لذلك بأسطورة خلق الكون ثم خلق آدم، وابتكر سلسلة من أبناء آدم المتحدّرين من أب واحد، مهملاً الآخرين، ثم مضيئاً على بعضهم لغاية محددة، كما في حالة كنعان ابن حام، الذي لعنه نوح لذنب ليس له فيه أيّة علاقة، فقط لكي يكون مبرِّراً ينسبه الكاتب إلى الله، إله إسرائيل، الذي يجعله الكاتب صاحب مكتب عقاري يتلاعب بممتلكات الناس على هواه، فيطرد هذا من ملكه ويعطيه لذاك مستخدماً بذلك حقّه الإلهي المقدّس والذي استغله لصالح شعب واحد فقط على سطح هذه الأرض.

فهل يكون هذا الإله إله الخلق الواحد، الذي أوجد الإنسان، بأيّة طريقة لا فرق، الإله المسؤول عن كلّ أبنائه، صنيعة يديه، هو ذاته مسؤولاً عن التمييز بينهم، فيبارك من يشاء ويسمح لغيره بلعن من يشاء، يطرد شعوباً ويعمل بها قتلاً وإبادة، ويصطفي من بين شعوب الأرض قاطبة شعباً واحداً، مهما

ارتكب من موبقات، يبقى هو المميّز الحائز على كل الدعم للقيام بحرب إبادة على الآخرين؟ فإذا كانت هذه المفاهيم قد سيطرت على عقول البشر آلاف السنين بفعل الغباء أو الخوف أو الحَوَل الفكري، فهل يجوز أن يستمر الوضع على حاله في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين؟

أسئلة كثيرة سنستمر بطرحها مع كلّ مقطع من هذه الأساطير التي، وبالرغم من أنّ الكثيرين من أصحاب الاختصاص باتوا يرفضون القبول بقدسيتها وألوهيتها وتنزيهها عن إمكانية الجدل والمناقشة، لا تزال لغاية اليوم تؤثر بشكل سلبي ونسبي على مجمل حياة الشعوب، وحيث نتلقى نحن في منطقة الهلال السوري الخصيب أعلى نسبة من سلبيتها.

ننتقل مع الكاتب الفذ إلى الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين الذي يفسّر فيه مسألة تعدد اللغات واختلاف كلّ واحدة عن الأخرى بأسخف ما يمكن أن يتصوّره العقل. فيقول (تكوين 11: 5): «فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما، وقال الرب هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كلّ ما ينوون أن يعملوه. هلمّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبدّدهم الرب من هناك على وجه كلّ الأرض. فكفّوا عن بنيان المدينة، لذلك دعي اسمها بابل. لأنّ الربّ هناك بلبل لسان كلّ الأرض. ومن هناك بدّدهم الرب على وجه كلّ الأرض».

وعلى هذا الكلام لنا ملاحظات كثيرة. واضح أنّ الكاتب ينظر إلى الله كواحد من البشر يتجوّل بينهم ويحادثهم ويعقد معهم الصفقات، وهو مرة يغضب عليهم لكثرة شرورهم فيقرر إبادتهم إلاّ واحداً منهم مع ذريته، ومرة يحقد على بني الإنسان لأنّهم يتفاهمون بلسان واحد، ويقومون متضامنين ببناء مدينة واحدة. وكنّا قد أشرنا سابقاً إلى أنّ الإنسان عاش ملايين السنين قبل أن يتوصل إلى اختراع أدوات حجرية وبعدها برونزية فحديدية تساعده على الانتقال من العيش في المغاور الطبيعية إلى العيش في أماكن يقوم بنفسه بتصميمها وبنائها. وأشرنا أيضاً إلى أنّ بابل لم تكن، حسب ما يؤكد المؤرخون والدارسون، المدينة الأولى في تاريخ البشرية. فلماذا لم يرَ الرب ما بُني قبلها من مدن؟

ولئن سلّمنا بهذه النظرية السطحية، فلماذا يغضب الله مجدداً على الإنسان إن هو رآه قد باشر العمل على تطوير حياته؟ عاقب آدم لأنّه أكل من شجرة الخير والشر، وها هو الآن يعاقب ذريته لا لشيء إلا لأنّه وجدهم وقد أصبحوا قادرين على العمل وإنجاز كلّ ما ينوون عليه. فهل يعقل أن يقوم الله الذي خلق الإنسان وميّزه عن بقية مخلوقاته بالعقل القابل للتطوُّر الذي يقود إلى التقدُّم والترقّي، بإنكار هذا عليه وتخريب كلّ ما صنعت يداه؟ فأيّ إله يقوم بهذا الفعل المدمّر؟ إنّه الإله الأسطوري الذي تخيّله عقل كاتب التوراة بشكله البدائي، فسيطر عليه وجعله يقول كلّ ما كان يعتمل في قلب هذا الكاتب وفكره من حقد وبغض وكراهية وروح إجرامية. إنّه ليس الله، بل هو الكاتب بكل العقد التي سيطرت على تفكيره المريض فأنتج لنا أساطير مفعمة بصفات الكاتب ذاتها، غلّفها بالقداسة والألوهة، ونجح من أتى بعده بفرضها على أنّها منزلة من السماء.

أما بابل فلم يعد بخافٍ على أحد أنّها بُنيت في عهود متأخرة عن غيرها من حواضر بلاد ما بين النهرين وكنعان. يقول جورجي كنعان: «والواقع أنّ التنقيبات التي أجريت إلى الآن (1998) في بعض المواقع أثبتت أنّ بعض المدن الكنعانية كأريحا وبيت شان وجازر ومجدّو وأورشليم وجبيل وأوغاريت، تسبق التاريخ. وقد أرجع علماء الآثار مدينة أريحا إلى ما قبل الألف السابع ق.م. وهذا ما حمل بعضهم على اعتبارها أقدم مدينة في العالم ما تزال قائمة حتى اليوم»(82). ولقد أخذ كنعان هذا الكلام عن الباحث W. Keller من كتابه The Bible as History, London 1980.

وأما عن تسمية بابل بهذا الاسم فعلماء اللغات يعيدونه إلى ما تعنيه هذه الكلمة باللغة الأم، فيشير جورجي كنعان إلى ذلك في مؤلفه «محمد واليهودية» حيث يؤكد أنّ محرّر التوراة الذي فسّر اسم بابل انطلاقاً من أحداث قصته الأسطورية «لم يكن يدري أنّ المجتمع في حوض النهرين كان قد بلغ مرحلة عالية من الحضارة والعمران قبل أن يظهر آدم التوراة بآلاف السنين. وتيمُّناً بـ«إيل» (الله) وتقرُّبا منه أطلقوا على المدينة التي بنوها اسم بابل (باب إيل – باب الله)». وتأكيداً لهذا الرأي نقرأ

بعض ما جاء من أبيات في اللوح الخامس من الملحمة السومرية أينوما إيليش على لسان الإله مردوخ:

... هناك أبني بيتاً لي وهيكلاً

به قدس الأقداس رمز جلالتي

وعندما تصعدون من الأبسو للاجتماع (الأبسو أي المياه العذبة)

سيكون مفتوحاً لاستقبالكم وبه تبيتون

سأدعو اسمه بابل، أي بيت الآلهة الكبرى...»

ويذكر الأب سهيل قاشا «أنّ بابل تعني باب إيل، باب الإله، أو باب الآلهة، أو بيت الله على عكس ما تفسّره التوراة»(83)، ويتابع: «هذه الرواية التوراتية نضعها تحت عدسة النقد الفكري الديني لكشف حقيقة الحقد الدفين لليهود في قلوبهم وإلى حد هذا اليوم». ويشير أيضاً إلى التناقض الذي وقع فيه الكاتب في هذا المقطع، إذ إنّه قال في البداية «فنزل الرب»، ثم يعود فيقول على لسان الرب: «هلمّ ننزل ونبلبل»، فمع من كان الله يتحدث؟ ومن دعا لكي ينزل معه لبلبلة ألسن الناس؟

أما أخناتون فقد أتى على ذكر، ليس تعدد اللغات فحسب، بل الطبائع والألوان أيضاً، فوجد أنّها من صنع الله، ولم تكن أبداً بمفهومه انتقاماً من الله مارسه بحق مخلوقاته. نقرأ من ترتيلته الثانية التي أثبتها فراس السواح في كتابه «مدخل إلى نصوص الشرق القديم:

في أرض سورية، وفي النوبة، وفي مصر، (وفي كل مكان)،

أعطيت لكلّ مكانه، وقسّمت له نصيبه، وعدّدت أيامه،

شعوب ميّزتها بألسنتها وطبائعها وألوانها، فجعلتها أمماً مختلفة.

أنت ربّهم جميعاً، الذي يتعب نفسه لأجلهم...

أخناتون رأى الله خادماً للناس الذين خلقهم، ولم يطلب منهم أبداً أن يخافوه أو أن يتعبّدوا له. فالعبادة الحقيقية هي القيام بكل ما يرضي الله من أفعال صالحة وليس من أقوال مزخرفة. الله لم يطلب من الإنسان أبداً أن يبني له هياكل ومعابد، لا ولم يقل له أن يصرف الساعات وهو يتمتم ببغائياً جملاً لا يفقه معناها. الله ليس بحاجة إلى الإنسان كي يبخّر له صباح مساء إثباتاً لوجوده. وهذا الكلام يتماهى مع كلام السيد المسيح: «ومتى صلّيت فلا تكن كالمرائين. فإنّهم يحبّون أن يُصلّوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس. الحق أقول لكم إنّهم استوفوا أجرهم. وأمّا أنت فمتى صلّيت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء. فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية. وحينما تُصلّون لا تكرّروا الكلام باطلاً كالأمم. فإنّهم يظنون أنّه بكثرة الكلام يُستجاب لهم. فلا تتشبّهوا بهم. لأنّ أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه» (متّى 6: 1-8).

أما المتصوّف بايزيد البسطامي فقد قال: «دخل الله عقول خلقه، فوجدها عاجزة عن إدراكه، فصرفها إلى عبادته».

وقال مفكر آخر: «إنّ الخالق قرَّب العارفين بمعرفته، وشغل الآخرين بعبادته» (ينسب إلى البيروني).

أما التفسير التاريخي العلمي لتعدّد اللغات فيشير إليه جورجي كنعان بالتالي: «هذه المجتمعات توحّد ما بينها روابط عديدة من الأصول الاجتماعية والمفاهيم الاعتقادية والأصول اللغوية والثقافية. والواقع أنّ علماء اللغة يجنحون بغالبيتهم إلى الاعتقاد بوجود لغة أم تعددت لهجاتها أو ألسنتها إثر انتشارها الجغرافي الواسع، وخضوعها لمؤثرات إقليمية مختلفة. وأنّ هذه اللغة الأم هي لغة الصحراء العربية القديمة التي تحدّرت منها تلك اللهجات أو الألسن إثر موجات الهجرة المتعاقبة باتجاه الشمال – حوض النهرين، والشمال الغربي – سوريا الوسطى والغربية حتى شواطئ المتوسط الشرقية»(84). ويبقى كلّ ذلك مجرد تحليل منطقي بعيد عن القصة والأسطورة، ولا مجال للوصول إلى حقيقة راسخة طالما أنّنا لا نملك أيّ مستند تاريخي يشير إلى اللغة الأولى.

أما علماء اللغات فقد توصّلوا إلى تحديد التشابه الجذري للغات فتبين لهم أنّ جميع اللغات التي سادت في الهلال السوري الخصيب، بما فيها العبرية، ذات أصل واحد حافظت على التشابه فيما بينها عبر العديد من المفردات: «وإبراهيم نفسه كان يسمى «آرامياً تائهاً» وفي الترجمة اليونانية (لسفر التكوين) «سورياً تائهاً». ويبدو واضحاً أنّ آباء الشعب العبراني جاؤوا مع الهجرة الآرامية إلى سوريا وكانوا يتكلمون الآرامية قبل توطّنهم فلسطين. وبعد أن أقاموا في فلسطين تعلّموا اللسان الكنعاني الذي أصبح فيما بعد اللغة العبرية التي كُتبت بها أسفار العهد القديم»(85). غير أنّ حتّي أخطأ عندما قال في مقطع آخر «ولم يمضِ وقت طويل حتى كان الآراميون قد اقتبسوا عن أبناء عمومتهم الساميين من الأموريين والكنعانيين» لأنّ الكنعانيين هم أبناء حام وليسوا أبناء سام.

ومهما حاول العلماء والمؤرخون تحليل ظاهرة اللغة فلن يتوصلوا إلى حقيقة مشتركة فيما بينهم، بل سيبقى الخلاف قائماً، إذ كما ذكرت ليس بين أيدينا أيّ مستند تاريخي يشير إلى اللغة الأولى، علماً أنّ الحفريات توصلت حتى الآن إلى تحديد اللغة السومرية المسمارية اللغة المكتوبة الأولى حيث تبعتها الهيروغليفية المصرية. أما عدا ذلك فيبقى من باب الاجتهاد والتحليل والاستنتاج.

وبعد هذه الواقعة العظيمة في تاريخ البشرية حسب الأسطورة التوراتية يعيدنا الكاتب مرة ثانية إلى ذرية سام ويختار من بين أبناء سام واحداً فقط هو أرفكشاد الذي وُلد لسام بعد الطوفان وهو بعمر مئة سنة. وبدلاً من تعداد مواليد سام كما فعل في الإصحاح العاشر، يعود في الإصحاح الحادي عشر في الفقرة 11 إلى سابق عادته بذكر ولد واحد وهو أرفكشاد حيث يردف بالقول: «وولد بنين وبنات». ثم يتابع ذرية أرفكشاد عبر ولد ذكر واحد، فأرفكشاد ولد شالح، وشالح ولد عابر، وعابر ولد فالج، وفالج ولد رَعُوَ، ورَعُو ولد سَرُوج، وسروج ولد ناحور، وناحور ولد تارح، وتارح أخيراً ولد أبرام وناحور وهاران. فتركيز الكاتب في هذا الإصحاح على ولد واحد من ذرية أرفكشاد هدفه الوصول إلى أبرام، كما كان هدفه سابقاً الوصول إلى سام. فأبرام هو المحطة الثانية وإليه سيسند الكاتب مهمة لا تقلّ أهميةً عن تلك التي أسندها إلى سام. وهذا هو الربّ يختار من كلّ ذرية سام رجلاً واحداً يباركه كما فعل مع نوح ويبدأ بالكلام المباشر معه. غير أنّه يشير قبل مقطع واحد من بدء الله كلامه مع أبرام إلى أنّ تارح والد أبرام قد أخذه مع لوط ابن هاران ولده الثاني، وساراي زوجة أبرام «فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك. ولا يخبرنا

أيّ شيء عن رحلة كنعان ابن حام، كيف ومتى وصل إلى سورية الوسطى؟ ومن كان يسكنها قبل وصوله؟ وكانت أيام تارح مئتين وخمسين سنة. ومات تارح في حاران» (تكوين 11: 31).

وفي الإصحاح الثاني عشر يبدأ تعاطف الرب مع أبرام فيقول له في مطلعه: «وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظّم اسمك. وتكون بركة. وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض». فأبرام كان قد خرج مع أبيه تارح قاصداً أرض كنعان، وهذا قرار معقول إذ إنّ الناس ولغاية اليوم يقررون ترك موطنهم الأصلي ويختارون بلداً آخر يكون لهم مقصداً. فلماذا تدخّل الله مع أبرام قائلاً: «اذهب من أرضك إلى الأرض التي أريك؟ فالله لم يحدد الأرض التي سيريه إياها مسبقاً، فهل أخذ بيد أبرام وسار معه حتى وصل إلى أرض كنعان؟

إنّ القصد من ذلك هو ربط قرار تارح بالذهاب إلى كنعان، حيث مات قبل أن يتحقق له ذلك، بقرار إلهي اختار به الرب أبرام ليكون أباً لأمة عظيمة، وليكون مباركاً من قِبَل الرب الذي عاد ليكرّس مبدأ لعنة نوح لكنعان. وهذا القرار الإلهي هو الحق المكتسب الذي من خلاله سطر كاتب التوراة أسطورته الخيالية فأخرج اليهود من مصر وأدخلهم أرض كنعان. وهذا القرار الإلهي هو الذي استندت إليه الصهيونية الحديثة لإقناع دول العالم بحق اليهود «باستعادة» أرض إسرائيل التاريخية أي فلسطين. وهذا القرار هو الذي لا يزال يشكّل ورقة الضغط التي تستعملها إسرائيل في وجه شعوب العالم لإقناعها بأنّ الدولة اليهودية ضرورية لإثبات صدقية كلام الله. وهذا القرار هو الذي لا يزال يعطي الحق للإرهاب الإسرائيلي بالإبادة والقتل والتدمير والتجويع. هذا القرار الإلهي المزعوم هو من صنع مخيّلة كاتب أسفار التوراة، وهي دون شك مخيّلة خصبة استطاعت اختلاق أكبر أكذوبة في تاريخ البشرية. لقد حاولت الصهيونية إقناع العالم، بدءاً من أواخر القرن التاسع عشر، بأنّ أرض فلسطين خالية من السكان من جهة، وهي الأرض التي وعدهم الله بها في غابر الأزمان من جهة أخرى، لذلك هم يسعون إلى تحقيق الوعد الإلهي دون أن يكون بذلك حرج للغير. فانطلت الكذبة على الكثيرين، أما الذين وقفوا في وجه هذا المخطط الشرس فكان للصهيونية معهم شأن آخر سنأتي على ذكره لاحقاً.

نقرأ لشلومو ساند: «بناءً على ذلك فإنّ هذا الوطن (فلسطين) لم يكن تابعاً قط للـ «محتلين» العرب، ومن هنا نبع الحق والسيادة اليهوديان على «أرض بلا شعب» موعودة لِـ«شعب بلا أرض»(86). إنّ هذه المقولة القومية، التي تحوّلت بصيغها المختلفة إلى مقولة شعبية شائعة في الحركة الصهيونية، كانت برمتها ثمرة مُتخيّل تاريخي يكمن النفي في صلبه». ونحن إذ نؤكد على هذا الرأي نستند إلى ما أوردناه من كلام كاتب التوراة حول أنّ الكنعانيين كانوا في الأرض، والذي تكرّر أكثر من مرة وفي أغلب الأسفار. أما في القرن العشرين فإنّه لا داع لأيّ إثبات لأنّ الصور التي أفرج عنها منذ سنة أو يزيد، وشهادات الذين لا يزالون أحياء، وكلّ الإرهاب الذي ما زلنا نشهده لغاية اليوم، لأكبر دليل على أنّ الصهيونية استغلّت التوراة بما يتلاءم مع غايتها السياسية.

ولمّا كان الكاتب وضع الخطوط العريضة لهذه الأسطورة، فقد اختار أبرام من بين أولاد تارح لكي يسند إليه الدور الرئيس بإنجاب ذرية تشكّل الأمة العظيمة التي حدّثه عنها الله في مطلع الإصحاح الثاني عشر. وها أبرام يأخذ زوجته العاقر ساراي ولوط ابن أخيه هاران ويتوجه إلى أرض كنعان

مع «النفوس التي امتلكها في حاران» (تكوين 12: 5). فكيف امتلك أبرام ولوط هذه النفوس في حاران التي كانت مجرد محطة لهما وهما في طريقهما إلى كنعان؟ ثم يطلعنا الكاتب على أنّ أبرام فور وصوله إلى كنعان، وتحديداً «إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة»، يظهر الله مجدداً لأبرام ليؤكد له الوعد القاضي بإعطاء أرض كنعان لنسل أبرام. «فبنى مذبحاً للربّ الذي ظهر له» (تكوين 12: 7).

فإذا كان أبرام قد وصل إلى كنعان وبنى مذبحاً للرب، فلماذا لم يستقر هناك بدلاً من الاستمرار بالترحال الدائم نحو الجنوب؟ يتبين لنا مقصد الكاتب بعد قراءتنا للفقرة التالية التي يشير فيها، ودون مقدمات، إلى حدوث جوع في الأرض أجبر أبرام على الانحدار نحو مصر «لأنّ الجوع في الأرض كان شديداً» (تكوين 12: 10). فإذا كان الجوع الشديد قد عمّ الأرض، فلماذا توجه أبرام إذن إلى مصر؟ هل مصر خارج الأرض؟ وهل كان الكاتب في ذلك الوقت على علم بكل ما يجري على سطح الأرض؟ أما إذا حاول أحدهم القول بأنّ هذا الكلام لا علاقة للكاتب به من حيث هو كلام الله، لقلنا بأنّ ذلك ضرب من ضروب الكلام السطحي، لأنّنا سنتتبع كلام الله لأبرام ولمن أتى بعده وصولاً إلى موسى، لنجد أنّ هذا الكلام المنسوب إلى الله هو التجديف بحد ذاته، لأنّه يصف الله بأبشع الصفات وهو منزّه عنها.

وعندما يقول الكاتب «وكان الكنعانيون في الأرض» (تكوين 12: 6)، فهذا يعني أنّ الكنعانيين وجدوا في الأرض التي دُعيت باسمهم قبل زمن بعيد من وصول أبرام، جدّ العبرانيين كما يحلو لهم اعتباره، إلى هذه الأرض. وها هو الكاتب يؤكد في (الإصحاح 37: 1) أنّ يعقوب قد سكن «في أرض غربة أبيه في أرض كنعان». ثم يعود ليقول في سفر التثنية (26: 5) على لسان موسى: «آرامياً تائهاً كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرّب هناك في نفر قليل فصار هناك أمة كبيرة وعظيمة وكثيرة». فإذا كان أبرام آرامياً، فهذا يعني أنّه ليس غريباً عن أرض كنعان لأنّ الكنعانيين والآراميين أولاد عمومة حسب ذرية كلّ من سام وحام كما أوردها الكاتب. وفي هذه الحال يسقط ادّعاء اليهود بأنّهم دخلوا أرض الكنعانيين عنوة مع فتوحات يشوع الوهمية، بل إنّه يؤكد ما توصلت إليه الأبحاث الحديثة من أن وجود العبرانيين في كنعان كان طبيعياً ولم يدخلوا أرض كنعان بالقوة بل كانوا مقيمين فيها.

يقول فراس السواح: «وفي الحقيقة، فإنّ رواية الخروج من مصر من بدايتها في مدينة رعمسيس إلى نهايتها عند شاطئ نهر الأردن لم تجد لها سنداً حتى الآن من شاهد تاريخي أو أركيولوجي»(87). وهذا ما يؤكد لنا مرة جديدة أنّ هذه القصة لا تمت إلى التاريخ بصلة، وبالتالي لا يمكن اعتبار أسفار التوراة مرجعاً تاريخياً للخليقة بشكل عام، ولبني إسرائيل بشكل خاص، لأنّ الدراسات تثبت يوماً بعد يوم أنّ هذه القصص هي أساطير مختلقة، وما علاقة الله بها إلاّ كعلاقته مع الوحي الذي ألهم كُتّاب الأساطير الأقدم، والذي لا يزال يلهم الناس لغاية اليوم، كلّ حسب اختصاصه، بقصة أو قصيدة، أو قطعة موسيقية، أو لوحة، أو اختراع علمي إلخ...

أما الغريب الذي لا يمكن هضمه في أحداث قصة أبرام، الذي يعتبر أبو الأنبياء والتوحيد، فهي قصته عندما انحدر إلى مصر بسبب الجوع، فنقرأ في الإصحاح الثاني عشر الفقرة 11: «وحدث لمّا قَرُب أن يدخل مصر أنّه قال لساراي امرأته إنّي قد علمت أنّك امرأة حسنة المنظر. فيكون إذا رآك المصريون أنّهم يقولون هذه امرأته. فيقتلونني ويستبقونك. قولي إنّك أختي. ليكون لي خير بسببك

وتحيا نفسي من أجلك». فمن هذا المقطع نستخلص ملاحظات عدة. الأولى أنّ أبرام كان ابن خمس وسبعين سنة عندما خرج من حاران، ولا نعلم كم من السنين قد مرّ وهو في ترحاله إلى مصر مروراً بأرض كنعان، وهذا يعني أنّ ساراي امرأته كانت أيضاً قد تجاوزت السبعين، أفلا يدعونا ذلك للتساؤل حول قول أبرام لها «إنّي قد علمت أنّك امرأة حسنة المنظر» إذ هل يعقل أنّه لم ينتبه إلى جمال زوجته إلا في ذلك الوقت؟ وهل يُعقل لأيّة امرأة مهما بلغ بها الجمال أن تبقى كذلك وهي في سن الشيخوخة ليخاف من إغوائها للرجال؟ وهل كانت مصر خالية من النساء الجميلات لكي ينظر إليها المصريون فيروا فرادة جمالها؟ وإذا صح ذلك فهل يُعقل أن يُقدموا على قتل أبرام للاستيلاء على زوجته؟ وألا يُعتبر موقف أبرام هذا مدعاة للشك والريبة بأخلاقها، لأنّ فيه تأكيد على مبدأ الكذب لتحقيق الغاية، والمتاجرة بزوجته للحصول على الخير الوفير؟

ونحن إنْ أكملنا القصة زاد عجبنا إذ نقرأ بأنّ ما توقعه أبرام قد حصل: «ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون. فصنع إلى أبرام خيراً بسببها... فضرب الربّ فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام» (تكوين 12: 15). فهنا نجد أنّ الرب يكرّر ما فعله مع نوح الذي سكر فتعرّى فتمت معاقبة حفيده كنعان لإثم ارتكبه نوح، فبدلاً من معاقبة أبرام على كذبه ومتاجرته بزوجته، يعاقب الله فرعون لأنّه أخذ ساراي امرأة أبرام. ألا تعتقد أخي المؤمن بأنّه يجب التوقّف والتمعّن بهذه المزاعم التي تسيء إلى أبرام وإلى الله في آن؟ ألا يأخذك العجب أيضاً من استمرار الناس حتى اليوم بتناقل هذه الأخبار على أنّها حقائق إلهية؟ ألا تأخذك الدهشة عندما تعلم بأنّ فرعون، وبدلاً من غضبه على أبرام ومعاقبته، يجزل له العطاء، بعد أن يعيد إليه زوجته، فيطلقه مع ما يملك، وقد «كان أبرام غنياً جداً في المواشي والفضة والذهب»؟ ألم يكن من المنطقي أن يستعيد فرعون من أبرام ما أعطاه من خير بسببها إذ «صار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتُن وجمال» (تكوين 12: 16). ولم يتحدث الكاتب عن الفضة والذهب في هذا المقطع؟ إنّنا نتقبل ذلك بالطبع عندما نعتبر ذلك قصصاً شعبياً أسطورياً، أما أن نبقى معصوبي الأعين فلا نقارب هذه القصص مقاربةً عقلانية، فإنّ ذلك يجعلنا شهود زور على أكبر أكذوبة عرفتها البشرية أدت إلى أبشع جريمة بحق الإنسانية.

يقول شلومو ساند: «هذا الكتاب (التناخ أو التوراة) كان يمكن أن يشكّل بالنسبة لنا وثيقة تاريخية أمينة أكثر لو كنّا متيقنين بدرجة كافية من معرفتنا للتواريخ الدقيقة لكتابة كلّ جزء من أجزائه»(88). فالباحثون يؤكدون أنّ الكتابة قد تمت خلال السبي البابلي واستمر التنقيح والزيادة إلى ما بعد الميلاد بقرون، أي أنّ الكتابة تمت بدءاً من القرن الخامس ق.م. عن أحداث يُرجعها الكاتب إلى بدء الخليقة فكيف لنا أن نتعرّف إلى دقة التواريخ والأحداث الواردة؟ وكيف لنا أن ننكر ما توصل إليه الأركيولوجيون من الكشف عن الأساطير السومرية والبابلية والكنعانية الأقدم بما يزيد عن ألف أو ألفَيْ سنة؟

ثم يشير ساند إلى المؤامرة التي جعلت من هذا الكتاب مقدساً لتحقيق غاية سياسية فيقول: «إنّ كتاب التناخ الذي اعتُبر دائماً من جانب الثقافات الدينية التوحيدية الثلاث – اليهودية والمسيحية والإسلام – كتاباً مقدَّسا أملاه الربّ برهاناً على تجلّيه وعلوّه، صار يُستخدم أكثر فأكثر، منذ ظهور بيارق القومية في العصر الحديث، كمؤلّف من وضع البشر ليستعينوا به في استرجاع ماضيهم»(89). ويردف

قائلاً: «فضلاً عن ذلك فقد رُقي إلى مرتبة «ميثوتاريخ» لا يجوز الاستئناف عليه لأنّه يشكل حقيقة بدهية مفروغاً منها. ومعنى ذلك أنّه موضع القداسة العلمانية الذي لا يجوز المساس به، بل ينبغي الانطلاق منه في التفكير عند الحديث عن «الشعب» و«القومية».

فكيف لعقل المؤمن الواعي أن يستمر بتقبل هذه المواقف الباطلة المفعمة بالعنصرية والمغلّفة بالنفاق وبالإرهاب؟ أم أنّ المؤمنين كلهم سيتصرفون كتلك السيدة الكندية الكاثوليكية التي تحدث عنها فورست قائلاً: «فبعد أن استمعت من أستاذ جامعي قدير في القدس إلى شرح واضح وصادق لوجهة النظر الفلسطينية، قالت: إنّني لا أبالي بما يشرح ويوضح، فالكتاب المقدّس يقول إنّ الله أعطى اليهود فلسطين، وهذا يكفيني». أم كذلك المسيحي الأصولي من الولايات المتحدة الذي يقول: «إنّ اليهود هم الشعب الوحيد في العالم الذي يمتلك الأرض بحق إلهي». أم نكرّر مع الرئيس الأسبق للولايات المتحدة جيمي كارتر بأنّ «إنشاء دولة إسرائيل هو إنجاز للنبوءة التوراتية»؟ وهل يأخذنا العجب بعد ذلك إن سمعنا غولدا مائير، رئيسة وزراء دولة إسرائيل، تصرّح: «لقد وُجدت هذه البلاد تنفيذاً لوعد صدر عن الرب بالذات. ومن السخف أن نسأله بيانات عن شرعية ذلك»(90).

فإذا كانت الصهيونية غير مهتمة بتلك البيانات فلأنّها انطلقت مما دبّجه اليهود من أكاذيب نسبوها إلى الله. أما نحن فمن حقنا، بل من واجبنا، أن نطالب، ليس فقط الدول التي تتصرف وفق مصالحها، بل المؤمنين الذين خدّرتهم الدعايات الصهيونية، والإرهاب الصهيوني، أن استفيقوا من غيبوبتكم قبل فوات الأوان، لأنّ مؤامرة الصهيونية على الأديان مستمرة، ولن تتوقف إلاّ إذا تحقق أحد أمرَيْن لا ثالث لهما: الأول انتصار مؤامرتها، والثاني وعي المؤمنين وعملهم على إيقافها بالقوة. وما على المؤمنين إلا قراءة «بروتوكولات حكماء صهيون» للوقوف على مخططاتهم. نقرأ للمؤرخ عجاج نويهض تحت هذا العنوان: «متى ما ولجنا أبواب مملكتنا، لا يليق بنا أن يكون فيها دين آخر غير ديننا، وهو دين الله الواحد المرتبط به مصيرنا. فيجب علينا أن نكنس جميع الأديان الأخرى على اختلاف صورها»(91).

ونتابع رحلة أبرام عائداً من مصر إلى بيت إيل حيث نصب خيمة له وبنى مذبحاً للرب. فأراد الكاتب إبعاد لوط عن أبرام لكي يصبّ كلّ اهتمامه على هذا الأخير لأنّه خطط أن يسند إليه دوراً مهماً، فقال بأنّ الأرض لم تحتملهما أن يسكنا معاً، «فاختار لوط لنفسه كلّ دائرة الأردن وارتحل لوط شرقاً. فاعتزل الواحد عن الآخر. أبرام سكن في أرض كنعان ولوط سكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم. وكان أهل سدوم أشراراً وخطاة لدى الرب جداً» (تكوين 13: 11). فهل يُعقل أن يكون كلّ سكان سدوم أشراراً وخطاة؟ أم أنّها مقدمة لما خططه الكاتب لهذه المدينة ولأختها عمورة على يد الربّ؟ سنصل إلى ذلك، ولكن في البداية أشير إلى أنّ الرب يعود ليكلّم أبرام قائلاً: «لأنّ جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد. وأجعل نسلك كتراب الأرض. حتى إذا استطاع أحد أن يَعُدّ تراب الأرض فنسلك أيضاً يعدّ... فنقل أبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون. بنى هناك مذبحاً للرب». وهنا نرى أنّ كلام الرب لم يصح، لأنّنا إذا اعتبرنا، كما يريد اليهود، أنّهم وحدهم من نسل أبرام وهم شعب الله المختار، لوجدنا أنّهم لا يشكّلون اليوم إلاّ نسبة ضئيلة جداً من مجموع عدد سكان الأرض، وأنّ أتباع بقية الأديان يفوقونهم عدداً بعشرات آلاف المرات.

ثم لماذا لم يرجع أبرام إلى بيت إيل أو إلى بلوطة مورة في شكيم موطئ قدمه الأول في أرض كنعان وحيث ظهر له الرب هناك أيضاً وقال لنسلك أعطي هذه الأرض. وأيّة أهمية تبقى لهذا الوعد متى أكّد لنا العلم الحديث على لسان كثيرين من العلماء ودارسي الآثار على أنّ إبراهيم شخصية خيالية؟ يقول يوسف أيوب حداد، نقلاً عن كمال الصليبي من مؤلفه «خفايا التوراة» إنّ الباحثين حاولوا «عبثاً التوصل إلى معلومات ثابتة تاريخياً بشأن شخصية إبراهيم لما لها من مكانة دينية هامة، منذ القرن الماضي، فلم يوفّقوا في ذلك». ثمّ يقول نقلاً عن مقال لفراس السواح نشر في مجلة الفكر الديمقراطي في العدد رقم 1: «واتضح أنّ كلّ ما كتب ويكتب اليوم حول الفترة الممتدة من إبراهيم إلى يوسف هو محض تخيُّل وافتراض، ومحاولة لاستقراء نصوص التوراة وتفسيرها بكثير من حرية الخيال، إذ لا يمكن أن نتوقع العثور على أية بيّنات آثارية تثبت رواية سفر التكوين».

ثم يردف أيضاً نقلاً عن عصام الدين حفني ناصف من كتابه (اليهودية بين الأسطورة والحقيقة): «وفي جملتها قصص إبراهيم ولوط وإسماعيل ويعقوب ويوسف وموسى، هي فيما يرى علماء التاريخ، لا تعدو أن تكون أساطير لا تمتّ إلى علم التاريخ بصلة». أما شلومو ساند فإنّه يشير بكل وضوح في كتابه «اختراع الشعب اليهودي» إلى أنّ المؤلفين المتأخرين لكتاب التوراة قد «اخترعوا وفخّموا الهوية الرسمية المشتركة العظيمة التي تأسست بطبيعة الحال برعاية ومباركة إله واحد. كذلك قام هؤلاء بالطريقة نفسها، مستعينين بخيالهم الخصب المميّز، بإعادة نسخ وتدبيج قصص وروايات معروفة عن خلق الكون والطوفان الفظيع، ترحال الآباء (أولهم أبرام) وصراع يعقوب مع الملاك، خروج مصر وانشقاق البحر الأحمر، احتلال كنعان، والتوقف العجيب للشمس في جبعون». ففي هذا المقطع يدق ساند مسماراً جديداً في نعش هذا الكتاب من حيث اعتباره كتاباً سماوياً مقدساً من خلال تأكيده على أسطورية هذه القصص النابعة من خيال كتّابها المتميز. ونقرأ في مجلة National Geographic مقالاً بعنوان Journey of faith للكاتب Tad Szuie نقتطف منه المقاطع التالية:

«طرحت على العلماء السؤال التالي: «هل وجد يوماً في هذا العالم رجل اسمه إبراهيم؟»

في أغلب الأحيان أبدوا احترامهم قائلين: «لا يمكننا دحض وجوده» ولكنهم كانوا مقتنعين بعدم جدوى محاولة إيجاد فرد من لحم ودم.

قال إسرائيل فينكلشتاين وهو عالم آثار توراتي في جامعة تل أبيب: «إبراهيم فوق متناول الإيجاد». دون وجود أي دليل على وجود البطريرك، البحث عن إبراهيم تاريخي يفوق في صعوبته البحث عن يسوع تاريخي.

قال الحاخام مناحيم فرومان الذي يقطن بجوار الخليل: «بالنسبة إلي يعتبر إبراهيم فلسفة، إنه ثقافة. قد يكون إبراهيم حقيقة تاريخية أو لا يكون. إنه رسالة حب ولطف. إبراهيم عبارة عن فكرة. إنه عبارة عن كل شيء. لا أحتاج إلى وجوده كفرد من لحم ودم».

لو كان إبراهيم شخصاً متعلماً لدرس اللغات وعلم الحساب والمحاسبة ولكن فوق كل هذا لكان انغمس في الأدب السامري. لكان هذا الوسط الفكري الذي ترعرع فيه». (ميشالوسكي)

التقيت في نابلس بأفنر غورين، وهو عالم آثار يمتلك معرفة واسعة للتاريخ التوراتي. رحنا نبحث عن دليل عن مدينة شكيم التي سكنها إبراهيم ولكننا لم نتوصل إلى أيّة معلومة يمكن ربطها بالبطريرك.

قال مانفريد بيتاك وهو رئيس مجلس إدارة معهد علوم الآثار المصرية في جامعة فيينا، الذي يقود عملية التنقيب في الموقع الأثري: «لا شيء مطلقاً». كان هذا جوابه الفوري الذي أعطاني إياه حينما سألته عما تفيد به المصادر التاريخية المصرية حول إبراهيم. قال: «فيما يخص المصريين، يبدو وكأن إبراهيم لم يطأ قط بقدمه دلتا النيل».

ويقول روجيه غارودي: «إنّ البقايا الأركيولوجية لمدينة أور في العراق، لا تقدّم لنا أيّة معلومات حول إبراهيم كما أنّ الكشوف في خرائب طروادة لا تعلمنا شيئاً حول هكتور أوبريام»(92). فكلام غارودي واضح باعتباره إبراهيم شخصية أسطورية تماماً مثل هكتور في أسطورة حرب طروادة.

وننقل كلاماً أثبته فراس السواح نقلاً عن الأركيولوجي زائيف هيرتزوغ الأستاذ في جامعة تل أبيب: «إنّ الحفريات المكثّفة في أرض إسرائيل خلال القرن العشرين قد أوصلتنا إلى نتائج مُحبطة. كل شيء مُختلف، ونحن لم نعثر على شيء يتفق والرواية التوراتية. إنّ قصص الآباء في سفر التكوين هي مجرد أساطير، ونحن لم نهبط إلى مصر ولم نخرج منها. لم نَتُه في صحراء سيناء، ولم ندخل إلى فلسطين بحملة عسكرية صاعقة احتلّت الأرض ووزعتها على الأسباط»(93). إنّ في هذا الكلام من عالم آثار إسرائيلي لأفضل إثبات على كلّ ما كتبناه حتى الآن، بل على كلّ ما كُتب في هذا المجال، وهذا ما يُسقط عن التوراة قداستها ويحفّزنا للطلب من المؤمنين، المسيحيين بشكل خاص، ومن السلطات الكنسية العليا، إعادة النظر بالكتاب المقدس لجهة احتوائه على أسفار العهد القديم بالدرجة الأولى، وعلى بعض ما ورد في الأناجيل مما يعتبر غير ذي علاقة بما قاله السيد المسيح. ويشرح غاري رينارد تعاليم السيد المسيح بطريقة جديدة ومختلفة عمّا هو متعارف عليه فيقول إنّ قصة التكوين هي قصة رمزية عن خلق الكون(94). وإذا كان الأمر كذلك فهل يصح بعد اليوم أن يبقى المؤمنون، والدول الغربية، يدعمون مزاعم إسرائيل حول حق اليهود المكتَسب في أرض فلسطين؟

وإذا أردنا التعليق على كلّ فقرة أو جملة واردة في سفر التكوين لاحتجنا إلى مئات الصفحات وربما الآلاف، لأنّنا لا نستطيع قراءتها كما يفعل المؤمن العادي، فالعقل يستوقفنا عند كلّ كلمة لنقيس معانيها وندقّق بتوافقها مع ما يتقبّله العقل. لكنّنا سنشير إلى المحطات المهمة التي تعتبر المرتكزات الأساسية في هذه الأسطورة. فعندما يذكر الكاتب في الإصحاح الرابع عشر أنّ ملكيْ سدوم وعمورة قد هربا وسقطا هناك بعد حربهما مع ملوك آخرين، وأنّ الباقين من سدوم وعمورة قد هربوا إلى الجبل، فكيف عادوا إلى هاتين المدينتين ليحاصروا بيت لوط لأنّهم علموا بدخول ملاكين إليه؟ وهل لا نزال نعيش في جاهلية عقلية لكي نصدّق قصة دخول الملاكين على لوط؟ وهل يمكن لعقلنا اليوم أن يقبل قصة إمطار الربّ على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من السماء؟ ولماذا غضب الرب على سدوم، وهذا ملكها يقول لأبرام: «أعطني النفوس وأمّا الأملاك فخذها لنفسك» (14: 21)، وهذا التصرف إن دلّ على شيء فإنّما يدل على كرم لا يجارى وإنسانية مثلى دفعته للتخلي عن كلّ ممتلكاته لاستعادة شعبه.

وهل يمكن أن نتصور سخافة أسوأ من قول الكاتب: «ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح»؟(تكوين 19: 26). وأيّ رب هو هذا الذي يمطر شعبه كبريتاً وناراً؟ هل يمكن أن يكون هو ذاته الإله - الله الواحد الأحد الذي يعبده جميع البشر، أم أنّه الإله القبلي، إله الحرب - رب الجنود الذي اخترعه الكاتب ليقود بني إسرائيل، فيبيد أعداءهم لكي تصبح أرض كنعان خالية فيسيطرون عليها تحقيقاً لوعد هذا الإله لهم؟

هل علينا أن نوافق على ما جاء في مقررات المؤتمر الصهيوني – المسيحي الذي انعقد في القدس المحتلة منتصف نيسان عام 1988، حيث دعا المؤتمرون «الدول جميعها إلى الاعتراف بقداسة ما وعد الله به الشعب اليهودي من إعطائهم أرض كنعان ملكاً أبدياً، واحترام هذا الوعد»؟ أم علينا أن نستفيق على فداحة المؤامرة التي حاكتها الصهيونية ضدنا، ولا تزال مستمرة بتنفيذ فصولها حتى الآن؟ فإذا كان إلههم قد وعدهم بهذه الأرض، فلماذا لم يأتِ إله المسيحيين، ولا إله المسلمين، وهو واحد، على ذكر هذا الوعد؟ وانطلاقاً من هذا ألا يحق لنا التأكيد بأنّ إلههم هو غير الله الذي يعبده سائر الناس، وبأنّهم مشركون لا علاقة لهم ولا لديانتهم بالتوحيد؟

وإذا صدّقنا بأنّ ملك سدوم الذي هرب وسقط، قد عاد إلى سدوم وخرج لاستقبال أبرام، ألا يعني ذلك بأنّه رجل صالح كملكي صادق ملك شاليم الذي كان كاهناً للعلي، والذي بارك أبرام قائلاً: «مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض»؟ وقول الكاتب هذا عن ملكي صادق ألا يعتبر إقراراً بأنّ هذا الكاهن لم يكن وثنياً بل كان قد سبق أبرام إلى الإيمان بالله العلي مالك السموات والأرض، وبالتالي كان قد عرف التوحيد قبل أبرام وقبل موسى؟ لذلك ورد في رسالة بولس إلى العبرانيين الإصحاح الخامس الفقرة الخامسة: «كذلك المسيح أيضاً لم يمجّد نفسه ليصير رئيس كهنة بل الذي قال له أنت ابني أنا اليوم ولدتك». كما يقول أيضاً في موضع آخر: «أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق». وهذا يعني أنّ ملكي صادق كان أرفع رتبة من أبرام ومن موسى لأنّه كان قد عرف التوحيد الحقيقي، لذلك أُعطي المسيح رتبة ملكي صادق أي جعله الله في منزلة ملكي صادق كاهن الله العلي وملك شاليم.

ومما يدل أيضاً على رفعة رتبة ملكي صادق هو ما ذكره الكاتب من قيام هذا الكاهن بمباركة أبرام ولم يقل العكس. ودليلنا على ذلك أيضاً هو بولس الرسول الذي أشار إلى أنّ المسيح كان كاهناً آخر على رتبة ملكي صادق «ولا يُقال على رتبة هرون» من رسالة إلى العبرانيين (7: 11). وهرون هو أخ موسى الذي جعله الربّ نبياً مع موسى، «وهرون أخوك يكون نبيّك» (خروج 7: 1). ثم يقول الكاتب على لسان الربّ محدِّثا موسى: «وقرّب إليك هرون أخاك وبنيه معه من بين بني إسرائيل ليكهن لي... واصنع ثياباً مقدّسة لهرون أخيك للمجد والبهاء» (خروج 28: 1). «وتقدّم هرون وبنيه إلى باب خيمة الاجتماع وتغسلهم بماء... وتضع العمامة على رأسه. وتجعل الإكليل المقدّس على العمامة. وتأخذ دهن المسحة وتسكبه على رأسه وتمسحه». فهرون إذن كانت له مرتبة رفيعة إذ يأتي بعد موسى، لكن إله الكون الحقيقي تجاهله وتجاهل موسى وجعل رتبة المسيح بمستوى رتبة ملكي صادق.

فهل بعد هذا من شك بأنّ الكنعانيين الذين وفد إليهم أبرام كانوا يعبدون الله الواحد، وأنّ ما تحدثت عنه التوراة من آلهتهم كالبعليم والعشتروت والإيل، إنّما هي صفات لإله واحد أحد، وأنّ أصنامهم لا تدل

على أنّهم كانوا وثنيين لأنّهم كانوا يعتبرونها رموزاً تذكرهم بالخالق الأوحد. يقول جورجي كنعان: «والجدير بالانتباه إليه أنّ التماثيل لم تكن في مفهوم المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية، أصناماً يؤدي لها الناس فروض العبادة أو مراسم التقديس. وإنّما هي رموز مادية لمفاهيم مجردة. أي لما هو فوق الطبيعة البشرية. التمثال رمز لجوهر»(95). ويتوصل إلى حقيقة مفادها: «إنّ الموسوية لم تعرف التوحيد، أي الإله الواحد، فيهوه، باعتبار موسى وأحبار بني إسرائيل، واحد، ولكنّه ليس الإله الوحيد في العالم. وهذا الإله الواحد مقصور على بني إسرائيل وحدهم. وبالتالي ليس إله البشر أجمعين. أما الأقوام والأمم الأخرى فلها، باعتبارهم طبعاً، آلهتها التي تحميها وترعاها»(96).

من هنا تأكيدنا على أنّ العبرانيين كانوا مشركين لا موحِّدين، وأنّ التوحيد عرفه سكان سورية قبل اليهودية بما لا يقل عن ألفَيْ سنة. وكانوا ينظرون إلى الله على أنّه سيد الرحمة والقدرة والعظمة، وعلى أنّه يختزن كلّ المدلولات السامية، ولم يكن الله بالنسبة لهم إله حرب وقتل وإبادة.

وانطلاقاً من هذا الواقع الذي كان يعيشه الإنسان السوري القديم توصل جورجي كنعان إلى القول: «تبيّن لنا في ما تقدم أنّ الإنسان القديم في سوريا الطبيعية آمن بقيمة مطلقة، قدرة روحية، تعلو على الإنسان. أعطاها صفة وليس اسماً. وأنّ الصفة «العالي» التي أطلقها الأكديون في البادية السورية على القوة والسلطة المطلقتين اللتين توحي بهما السماء، تطوّرت صيغتها على ألسنة مجتمعات هذه الأرض إلى «إيل – إله – الله». وتحوّلت في الألف الأول ق.م. في مفهوم مجتمعات سورية الوسطى والجنوبية الشرقية، إلى اسم»(97). ويتابع قائلاً: «أما المؤرخون الغربيون فقد اعتبروا هذه الصفات المتعددة للموصوف الواحد أسماء آلهة، فقالوا الإله آن، والإله إيل، والإله ميردوك، والإله أشور، والإله بعل، والإله نرجال، والإله أدون، وإلى آخر ما هنالك من صفات»(98).

فلا عجب إذن من أن يعتبر، معظم الدارسين للتراث القديم وتاريخ الشعوب القديمة بأنّها كانت وثنية تعبد الأصنام وبأنّ التوحيد قد بدأ مع موسى. أما المتجردون من الدارسين والباحثين فقد رأوا الأمور على حقيقتها، لأنّهم لم يسمحوا لأحد، وتحت وطأة أيّ ضغط، أن يؤثّر على فهمهم العقلاني لما وصل إليهم من القدماء. فسيغموند فرويد اليهودي يقول: «ليس ثمة من اعتبار، مهما جلّ، بقادر على إغوائي بتجاهل الحقيقة باسم مصلحة قومية مزعومة»(99). ومن ثم يتوصل في بحثه إلى نتيجة مفادها أنّه: «إذا كان موسى حقاً وفعلاً مصرياً، وإذا كان قد أعطى اليهود ديانته ذاتها، فقد كانت ديانة أخناتون، ديانة آتون». هذه النتيجة توصَّل إليها فرويد بعد ما كان قد مهّد لها بقوله: «سعيت في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى أن أدعم بحجة جديدة الفرضية القائلة بأنّ موسى، محرر الشعب اليهودي ومشرّعه، كان مصرياً، لا يهودياً»(100).

أما نحن، وسواء كانت هذه الفرضية - الاستنتاج صحيحة أم لا، فما يهمنا الإضاءة عليه هو أنّ موسى أخذ التوحيد عن أخناتون، وأخناتون هو الفرعون الرابع من السلالة الثامنة عشرة، والذي قام بإصلاح ديني متقدم، إذ دعا إلى عبادة إله واحد، وجعل تل العمارنة عاصمة له، وحكم من العام 1372 حتى 1354 ق.م. واسمه الأصلي أمنحوتب أو أمينوفيس. وتاريخ حكمه تقديريّ لأنّ البعض يعتبر أنّ حكمه قد ابتدأ عام 1375 وانتهى بموته عام 1358 ق.م. أما فيليب حتّي فيجعل فترة حكمه ما بين 1377 و 1361 ق.م. ويقول بأنّه يمكن اعتباره أول شخصية في التاريخ رفع من مكانة إلهه

المفضل أتون، ولكنّه لم يكن أول مُوحّد. أمّا أرنولد توينبي فيحدّد حكم أخناتون بين عامَيْ 1367 و 1350 ق.م.

ثم يعود فرويد للتأكيد على «أنّ الفكرة الدينية العظيمة التي جعل موسى من نفسه داعيتها وراعيها لم تكن فكرته، وإنّما اقتبسها من مليكه أخناتون، وربما كان هذا الأخير، الذي قام البرهان الساطع على عظمته وأهميته بوصفه مؤسّس ديانة، قد امتثل لإيحاءات انتقلت إليه، عن طريق أمه أو عن أيّ طريق آخر، من آسيا الدانية أو النائية». وإذا كان فرويد لم يقم بتحديد واضح لمصدر فكرة التوحيد التي اعتنقها أخناتون وأخذها عنه موسى، فإنّنا نشير إلى أنّ أخناتون تأثر بفكرة التوحيد التي وصلت إليه عن طريق جدته زوجة تحوتمس الرابع التي كانت أميرة ميتانية، أنجبت أمنحوتب الثالث الذي أنجب بدوره أمنحوتب الرابع الذي تلقّب بلقب أخناتون بعد دعوته التوحيدية، وعن طريق والدته أيضاً التي كانت أخت أحد الملوك الكاشيين، والكاشيون شعب تبنّى الحضارة البابلية، وأصبح سيداً على البلاد أكثر من أربعة قرون(101).

وهذا يؤكد ببساطة وبكلّ وضوح أنّ التوحيد عُرف في بابل ومنها انتقل إلى الشعوب الأخرى، وأنّ توحيد موسى لم يدم طويلاً، لأنّ موسى عاد وأسبغ على إله الكون صفة إله إسرائيل فيكون بذلك قد قزّم هذا الإله وجعله إلهاً خاصاً بشعب، كما كانت عادة الشعوب القديمة، وهذا يعني استطراداً اقتناعه بوجود أكثر من إله، مما يقوّض دعائم التوحيد. هذا إذا ما سلّمنا بأنّ موسى شخصية حقيقية كما افترض فرويد بعدما تساءل عن تاريخية هذه الشخصية، وهو عاد ليؤكد على أنّ قصة موسى ليست سوى أسطورة تعود بجذورها إلى عصور أقدم من موسى: «إن أيّ مؤرخ لا يستطيع أن يرى في القصة التوراتية عن حياة موسى «والخروج» سوى أسطورة ورعة أدخلت تعديلاً مغرضاً على مأثور مغرق في القدم»(102). وما كلام فرويد هذا إلا نسف علمي واضح ودقيق لكل «الحقائق الوهمية» التي فرضتها الصهيونية على العالم بدهاء منقطع النظير، مستخدمة بذلك كلّ وسائل الترغيب والترهيب. واستناداً إلى ما تقدم نستطيع القول بأن ليس هناك موحِّد أول، بل هناك موحّدون أولون هم سكان سورية القدماء الذين عرفوا عبادة الإله الواحد ممارسة يومية ولم يسعوا لتأسيس ديانة. إنّ كُتَّاب التوراة هم الذين اختلقوا هذه الفكرة، فاخترعوا الإله، وجعلوا الإله يختارهم كشعبه المفضّل، وسرقوا إنتاج الشعوب الفكري الروحي ونسبوه إلى إلههم على لسان موسى، وسنأتي على تفصيل ذلك لاحقاً.

وبالعودة إلى رحلة أبرام يستوقفنا ما قاله الكاتب، على لسان الرب، لأبرام في الإصحاح الخامس عشر الفقرة 13: «فقال لأبرام اعلم يقيناً أنّ نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ويُستعبدون لهم (أي لسكان تلك الأرض). فيذلّونهم أربعمئة سنة. ثم الأمة التي يستعبدون لها أنا أدينها. وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة... وفي ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً: «لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات». وقبل هذا الكلام يتحفنا الكاتب بأسخف ما يمكن أن يقرأه إنسان عن تصرف هذا الربّ الذي جعلوه منفِّذا لكل رغباتهم، إذ يقول: «ثم أخرجه إلى الخارج وقال انظر إلى السماء وعدّ النجوم إن استطعت أن تعدّها. وقال له هكذا يكون نسلك. فآمن بالرب فحسبه له بِرًّا. وقال له أنا الربّ الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها. فقال أيها السيد الرب بماذا أعلم أنّي أرثها. فقال له خذ لي عجلة ثلثية وعنزة ثلثية وكبشاً ثلثياً ويمامة

وحمامة. فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه. وأما الطير فلم يشقه. فنزلت الجوارح على الجثث وكان أبرام يزجرها» (تكوين 5:15).

فأيّ إثبات هذا الذي طلبه الرب من أبرام على حقه باستلام أرض الكنعانيين، التي ليست له ولا لنسله، كميراث له؟ وكيف يجيز المؤمنون لأنفسهم تصديق هذه القصة الخيالية عن قول الربّ وطلبه؟ وطالما أنّ الربّ قد قرّر نقل ملكية أرض كنعان إلى أبرام ونسله، فلماذا جعل أمة غريبة تستعبدهم لأربع مئة سنة، فيغضب الله عليها ويُدينها؟ أليس ذلك بدء حياكة خيوط المؤامرة التي أرادت أن تُظهر نسل أبرام كشعب معذّب مضطّهد تمهيداً لتخليصه من معذبيه ومضطهديه وفق إرادة إلهية لا يمكن لأحد مناقشتها؟ أليس تسلسل كل هذه القصص التي بدأت مع أبرام ولمّا تنتهي فصولاً بعد، مروراً بعبوديتهم في مصر وخروجهم منها، والمنفى الذي ينفيه التاريخ والموضوعيون من دارسيه، وصولاً إلى الهولوكوست الذي تشوبه علامات استفهام كثيرة، أليس كلّ ذلك اختلاقاً لظلم يبرّر لهم إرهابهم وظلمهم للآخرين؟ أما الآخرون إن ظُلموا فإنّما لطبائع الاستبداد في الإنسان، أمّا ظلمهم فتنفيذ لأوامر إلههم، وهذا ما نحاول الإضاءة عليه، فنحن لا نناقشهم بإيمانهم ومعتقداتهم ومقولات إلههم، إلاّ لأنّهم فرضوها علينا على أنّها كلام الله، إله الكون، إله جميع الناس، وهو ليس كذلك، بل مجرد إله قبلي خاص لشعب معيّن، فضحت مدوّنات الشعوب أكاذيبه وتلفيقاته، ولا يبقى علينا إلاّ أن نقول كفى، ما كان الله يوماً خاصاً بشعب دون آخر، ولا كان ناصراً لشعب دون آخر، ولا كان معاقِباً لشعب بجريرة شعب آخر.

ولقد بدأ بعض الكتبة اليهود، الذين واجهوا الإرهاب الصهيوني الإعلامي فأبوا أن يكونوا شهود زور على أبشع مؤامرة إنسانية قامت بها الصهيونية باسم الدين والله، بمواجهة هذه المقولات الماورائية الخيالية. فها هو إسرائيل شاحاك يستهزئ بالوعد الإلهي لإبراهيم بإعطائه أرض كنعان، وما نتج عن استغلال هذا الوعد حديثاً لقيام دولة إسرائيل بالقوة وتجميع شتات يهود العالم في أرض لا علاقة لهم بها: «ولسوء الحظ، فقد نتج عن الاعتراف المتسرّع بإسرائيل كدولة، 45 عاماً من التشويش الفتّاك، وتدمير ما ظنّ رفاق الدرب الصهيونيون أنّه سيغدو دولة تعددية، تكون وطناً للسكان الأصليين من مسلمين ومسيحيين ويهود، ووطناً للذين تظاهروا منهم بالاعتقاد أنّ وكيل العقارات الأكبر في السماء، قد وهبهم، وإلى الأبد، أراضي يهودا والسامرة»(103).

ثم يلفتنا المقطع السادس من الإصحاح الخامس عشر حيث ورد: «فآمن بالرب فحسبه له برًّا»، وحصل ذلك بعد أن صار كلام الربّ إلى أبرام في الرؤيا وبعد أن «أخرجه إلى خارج وقال انظر إلى السماء وعدّ النجوم إن استطعت أن تعدّها. وقال له هكذا يكون نسلك»، عندها آمن أبرام بالرب، وهذا يعني أنّه قبل ذلك لم يكن قد آمن بعد على الرغم من ظهور الله مرات عدة بدءاً من بداية الإصحاح الثاني عشر، إذ يفاجئنا كاتب السفر بقول الرب لأبرام، دون أية مقدمات، بأنْ «اذهب من أرضك وعشيرتك إلخ (تكوين 12: 1) وما يليه، ثم يعود في المقطع 14 من الإصحاح 13 ليكلّمه ويحدّد له الأرض التي سيمنحه إيّاها: «ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. لأنّ جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد...»، فلماذا لم يعلن أبرام إيمانه بالله بعد هذا الكلام؟ هل كان بحاجة إلى اختبار صدق الله معه فانتظر تأكيداً من الله لوعده ليثبّت الإيمان في قلبه؟ وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الله كان يعلم سريرة أبرام، وأنّه غير

مؤمن، لذلك كان عليه أن يعيد تأكيد الوعد أكثر من مرة. ففي المقطع 18 من الإصحاح الخامس عشر يعود الكاتب ليقول: «في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً، لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات». في هذا المقطع نرى أنّ الله انتقل من الوعد إلى الميثاق وهو أشدّ وألزم.

أما قصة ساراي امرأة أبرام العاقر وظهور ملاك الرب عليها وطمأنتها بأنّها ستلد فنجد لها ما يشبهها في الأساطير القديمة حيث يشير فراس السوّاح إلى هذه الواقعة وإلى التطابق الواضح بين أحداث ملحمة جلجامش وأقهات لجهة قيام الإله بطمأنة إحدى شخصيات الملحمة الذي يشتكي من عدم تمكّن زوجته من الإنجاب، وكيف يتجلى الملاك للزوجة ويبشّرها بأن سيكون لها ولد من رحمها(104). وهنا أيضاً نتساءل حول مغزى قيام ساراي بدفع جاريتها هاجر لأبرام كي ينجب منها، إذ لماذا لم يُقدِم الملاك على خطوته بجعل ساراي قادرة على الإنجاب بعد وصول أبرام إلى سن السادسة والثمانين؟ ولم يكتفِ الملاك بذلك بل قال لهاجر: «... تكثيراً أكثّر نسلك فلا يعدّ من الكثرة» (تكوين 16: 10). والملفت أنّ الملاك أيضاً يحدّد لهاجر أنّها ستلد ابناً ويأمرها بأنّ تسميه إسماعيل بحجة أنّ الربّ قد سمع مذلّتها، ولكنه يُردف أيضاً قائلاً لها: «وإنّه يكون إنساناً وحشياً»، وإسماعيل هذا الإنسان الوحشي هو جدّ العرب بالمفهوم التوراتي، أليس هذا دليلاً كافياً بالنسبة لليهود لاعتبار العرب كلّهم متوحشين؟ فالحكم صدر على هذا المولود قبل ولادته ورسم له الدور المطلوب والمصير المحتوم.

وقبل التقدُّم لمتابعة رحلة أبرام يستوقفنا تصرف غريب من محرّري الأسفار وهو تغيير الأسماء وتبرير إطلاق أسماء (علم أو أمكنة) وتفسيرها وربطها بمبررات لا علاقة لها بالمنطق. مثال ذلك ما قامت به هاجر بعد زيارة الملاك لها وقوله عن إسماعيل: «وأمام جميع إخوته يسكن»، فيستطرد المحرر قائلاً: «فدعت اسم الربّ الذي تكلّم معها أنت إيل رئي. لأنّها قالت أههنا أيضاً رأيت بعد رؤية. لذلك دُعيت البئر بئر لحيْ رئي» (تكوين 16: 13). والملفت هنا أنّ هاجر دعت اسم الربّ إيل، وهذا يدل على أنّها كانت على معرفة بإيل الإله الكنعاني فإذا كانت الجارية تعرف إيل، فلماذا لم يكن إبراهيم على علم به هو وزوجته؟ وإيل كان الإله الأوحد بالنسبة لسكان سورية الطبيعية وما أسماء الآلهة الأخرى إلا صفات له كما أوضحنا سابقاً بناء على شروحات مستفيضة في هذا الباب في كتاب «محمد واليهودية» لجورجي كنعان.

وفي الإصحاح السابع عشر يظهر الربّ مجدداً لأبرام ويأمره بالسير أمامه ويجدّد له العهد ويَعِدُ، بتكثير ذرّيته ويجعله «أباً لجمهور من الأمم. فلا يُدعى اسمك بعدُ أبرام بل يكون اسمك إبراهيم». فما هو المغزى من ذلك؟ وما الفرق بين أن يكون اسمه أبرام أو إبراهيم؟ وهذا ما حدث أيضاً مع يعقوب الذي بدّل الله اسمه بعد معركة معه إلى إسرائيل. فما هو القصد من ذلك وما هو الهدف؟ أكان الاسم مثلاً يعاقبة أو يعقوبيون سيؤثر على هذه الذرية فاستبدله الربّ بإسرائيل ليصبح اسمهم إسرائيليين؟ إنّها الإثارة التي تتميّز بها الأسطورة ولا علاقة لذلك بأيّ مفهوم ديني أو إلهي.

وبعد هذا التغيير يعود الربّ ليؤكّد لأبرام وعده قائلاً: «وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كلّ أرض كنعان ملكاً أبدياً. وأكون إلههم (تكوين 17: 8). وهنا يتأكد لنا بما لا يقبل الشك أنّ إبراهيم لم يكن يملك شبراً واحداً من أرض كنعان بل كانت تلك الأرض أرض غربته، أي الأرض التي هاجر

إليها بمفهوم أيامنا هذه، والرب قد حددها بقوله (أرض كل كنعان) وثبّتها له ملكاً أبدياً، وثبّت نفسه إلهاً لإبراهيم وذريّته. ففي هذه الجملة تكمن المؤامرة التاريخية على بلادنا، وفيها ينطوي أكبر إعلان عنصريّ عرفه التاريخ.

فإذا كان هذا الربّ هو بالفعل خالق هذا الكون وإله جميع البشر الذين خلقهم، فكيف يسمح لنفسه باقتلاع خلقه الكنعانيين من أرضهم المسماة على اسمهم ومنحها لرجل غريب وتسجيلها باسم ذريّته غير آبه بتداعيات خطوته هذه، أو على الأقل دون إيجاد حلّ لهذا القرار العقاري الذي سيولّد دون شك نزاعاً بين صاحب الأرض الأصلي وهذا الوافد الجديد؟ إنّه الربّ إله الكون، ألم يكن بمقدوره، والأرض كانت غير مأهولة في ذلك الوقت كما هي عليه الآن؛ أن يأخذ بيد أبرام = إبراهيم إلى أرض بكر يقيم فيها ويكثّر نسله قدر ما شاء، ويفعل ما يشاء دون إلحاق الأذيّة بالآخرين؟ وكيف يمكن لهذا الإلٰه أن ينسى كلّ مخلوقاته ويقوقع نفسه مع شخص واحد وما سينجبه من ذريّة؟ وإذا كان هو الربّ الكونيّ فلماذا لم يحدد للشعوب الأخرى آلهتها والأرض التي تخصها أسوة بذريّة إبراهيم؟ وإن هو فعل ألا يكون هو قد قاد البشر إلى الإشراك لا إلى التوحيد؟

يعود بنا هذا التساؤل إلى الإشارة مرة ثانية لما قاله سيغموند فرويد بهذا الشأن في كتابه «موسى والتوحيد»: «وإنّه لممّا يبعث على دهشة أكبر أيضاً أن نرى هذا الإله «يختار» لنفسه على حين بغتة شعباً من الشعوب ليجعل منه شعبـ «ـه» ويعلن أنّه إلهه. هذه، على ما أعتقد، واقعة يتيمة في تاريخ الأديان الإنسانية... وقد يحدث أحياناً، كما هو معروف، أن يختار شعب من الشعوب إلهاً جديداً، ولكن لم يحدث قط أن اختار إله من الآلهة شعباً جديداً»(105).

ثم نتابع المحرر في المقطع التاسع من الإصحاح السابع عشر طالباً من إبراهيم على لسان الله أن يحفظ عهده هو وكلّ نسله في أجيالهم المتعاقبة. أما ما هو هذا العهد؟ هل هو الإيمان بالله الواحد الأحد؟ هل هو دعوة إلى الأخلاق الحسنة وإلى التعامل الإنساني مع الآخرين؟ هل هو الانفتاح ودعوة من لا دين له، أو لمن كانوا يعتبرونهم وثنيين أو متعددي الآلهة، إلى عبادة هذا الإله الأحد والدخول في عالم التوحيد؟ بالطبع لم يكن العهد ليتطرق إلى شيء من هذا بل: «يُختن منكم كلّ ذكر. فتختتنون في لحم غرلتكم. فيكون علامة عهد بيني وبينكم. ابن ثمانية أيام يُختن منكم كلّ ذكر في أجيالكم. وليد البيت والمبتاع بفضة من كلّ ابن غريب ليس من نسلك... فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً. وأما الذكر الأغلف الذي لا يُختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنّه قد نكث عهدي» (تكوين 17: 10).

ونحن وإن حاولنا أن نتفهم هذا العهد الذي لا يمتّ إلى الروحانية والقدسية والألوهة بشيء، فكيف نفسّر أمر الله بقتل كلّ ذكر لا يختن لأنّه يكون قد نكث العهد؟ هل يستأهل عدم إزالة غرلة الطفل الذكر هذا العقاب الإرهابي المميت؟ ألا يستدعي منّا ذلك وقفة تأمل لهذا الأمر الغريب يصدر عن «الله» الرحيم الغفور الأرفع والأسمى من أن يتقيد بشيء مادي تافه؟ نستطيع أن نستوعب لو جاء كلام الله بمثابة تنبيه إلى أنّ إجراء هذا العمل له منافع صحية، كما جاء في القرآن الكريم حول ضرورة اجتناب الخمر والميسر، ولكن أن يكون هذا العهد هو العلاقة الوطيدة الأبدية التي تربط إبراهيم ونسله بالله، فإنّ ذلك لا يعدو كونه مدعاة للسخرية، ويدعونا إلى الاستطراد والتساؤل عن موقف الله من أيّ ذكرٍ لا ينتمي إلى سلالة إبراهيم ويُجري عملية الختان، فهل هذا بكافٍ ليصبح

مرضياً عليه داخلاً بصلب هذا العهد؟ ويجعلنا أيضاً نتساءل عن ذنب الطفل، الذي لا يقوم أهله بختنه، فيقتله الله لذنب اقترفه أبواه؟ ألم يكن بوسعه مثلاً تحميل الرجل غير المختون مسؤولية الإسراع إلى القيام بعملية الختان وإلاّ ترتّب على ذلك بعض المفاعيل الصحية؟ هل يُعقل ألاّ يخطر على بال هذا الإله إلاّ القتل دائماً لمن لا يتقيّد بتعليماته مهما كان فيها من غرابة؟ وهل هذا العهد، الذي جعل الله الختان مرتكزه الأساس، هو بالفعل عهد مقدّس؟ وكيف يكون كذلك والختان كان معروفاً لدى الشعوب القديمة وبالتالي لا يمكن اعتباره خاصاً ببني إسرائيل؟

يعيد سيغموند فرويد الختان إلى المصريين، وبما أنّه توصَّل إلى قناعة بأنّ موسى مصري لا علاقة له بالعبرانيين، فهو يتساءل: «إذا كان موسى قد وهب اليهود، لا ديانة جديدة فحسب، بل شريعة الختان أيضاً، فهذا لأنّه كان مصرياً ولم يكن يهودياً، الأمر الذي يترتّب عليه أنّ الدين الموسوي كان في أرجح الظن ديانة مصرية»(106). وبهذا الاستنتاج يكون فرويد قد أماط اللثام عن ثلاث حقائق: الأولى أنّ موسى رجل مصري لا علاقة له باليهود، والثانية أنّ الديانة الموسوية هي ديانة مصرية نسبها اليهود لأنفسهم، والثالثة أنّ الختان عادة مصرية قديمة سبقت الوجود اليهودي. ويبدو أنّ إلههم كان متخلفاً عن تطور الشعوب غير عالم بعاداتها فحاول الاستئثار بهذه العادة بجعلها عهداً خاصاً بينه وبين شعبه بني إسرائيل.

ويشير سهيل التغلبي إلى هذا الموضوع بقوله: «مارس المصريون عملية الختان في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، أي قبل ظهور أتباع موسى بألف وثلاثمائة عام (استناداً إلى ما جاء في كتاب أ. كلاي «ضوء على الشريعة البابلية القديمة»). وقد ثبت أنّ عادة الختان كانت شائعة عند بعض القبائل في الجزيرة العربية منذ عصور غابرة، وأنّها لم تسر من اليهود إلى العرب كما يُظن. هذا وقد ذكرت شواهد أنّ الفينيقيين قاموا قديماً بعملية الختان (استناداً إلى كتاب د. هوك «جذور الطقوس البدائية»). وأورد د. هوك أنّ الختان كان معروفاً في فلسطين غير اليهود في القرن الأول والثاني بعد الميلاد»(107). كلّ هذا يدل على تأثر الشعوب بعضها بعادات بعض، ولا علاقة لله بهذه العادات والتقاليد.

ثم يقفز الكاتب مرة أخرى، ومباشرة بعد هذا العهد الغريب، ليغيّر اسم ساراي زوجة إبراهيم لتصبح ساره، «وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً. أباركها فتكون أمماً وملوك شعوب منها يكونون. فسقط إبراهيم على وجهه وضحك. وقال في قلبه هل يولد لابن مئة سنة وهل تلد ساره وهي بنت تسعين سنة» (تكوين 17: 16). وهنا أعود لأكرر السؤال: طالما أنّ الله، كما نؤمن به، كلّي القدرة فلماذا لم يبارك ساره ويجعلها تنجب عندما علم بنيتها دفع جاريتها هاجر لزوجها إبراهيم لكي ينجب منها؟ وكيف يبارك الله ساره بعدما علم بفعلتها على أثر علمها بحبل هاجر، التي تعالت على سيدتها مما دفع بساره إلى رفع شكواها إلى أبرام، الذي بدوره، بدلاً من وضع حدٍّ لهذا الخلاف الطارئ كونه رجلاً برًّا مباركاً من الله، قام بدفع الجارية إلى زوجته ساره قائلاً لها: «افعلي بها ما يحسن في عينيك. فأذلّتها ساراي» (تكوين 16: 6). أما مسألة سقوط إبراهيم على وجهه وضحكه في قلبه من كلام الله ألا يستدل منها أنّه، وحتى تلك اللحظة، لم يكن يتحلى بالإيمان المطلق مما دعاه للاستخفاف بكلام الله؟ أما عن تعجبه من إمكانية إنجابه وهو ابن مئة وزوجته بنت تسعين، فإنّه يدل على أنّ الكاتب كان يعرف بيولوجية الإنسان، فكيف وقع في بداية سفر التكوين بخطأ يتمثّل بذكر أعمار الأوائل والتي

تجاوزت التسع مئة سنة، وجعلهم ينجبون بعمر يناهز الخمس مئة سنة؟ لعل العلم يعطينا جواباً مقنعاً لهذه المسألة.

وكأنّ المحرّر انتبه هذه المرة إلى أنّه درج على إهمال كلّ المواليد ما عدا ذكراً واحداً يكمل به أسطورته، فكتب على لسان إبراهيم سائلاً الله أن يدع ابنه إسماعيل من جاريته هاجر يعيش أمامه، فإذا بالله يعود ليؤكد لإبراهيم أنّ زوجته ساره ستلد له ابناً ويحدّد له اسمه: إسحق، ويؤكد لإبراهيم أنّه سيقيم معه عهداً أبدياً، وبالطبع سيكون نسله خاضعاً لهذا العهد. ويطمئن إبراهيم بأنّ: «إسماعيل سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثّره كثيراً جداً. اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمّة كبيرة. ولكن عهدي أقيمه مع إسحق الذي تلده لك ساره في هذا الوقت من السنة الآتية» (تكوين 17: 20). ومن خلال تتبعنا لهذا السرد «التاريخي» سنرى أين سيصبح إسماعيل ومن هم أولاده الرؤساء الإثنا عشر. ولا يمكننا إلاّ أن نتساءل: ألم يكن هذا الإله هو الذي نفخ روح العنصرية في شعبه المختار من خلال تمييزه بين ابن الجارية إسماعيل وابن الست إسحق؟ كما يلفتنا هنا عدد أبناء إسماعيل الذين حدّدهم بإثني عشر حيث يعود هذا العدد ذاته ليظهر مع أسباط إسرائيل الإثني عشر.

ثم يتحفنا المحرّر بحديث مباشر بين إبراهيم وزوجته ساره من جهة وبين الربّ من جهة أخرى، وقد دار مجدداً حول حمل ساره وهي في هذه السن المتقدمة، والتي ضحكت من هذا الخبر وكذبت على الله بأنّها لم تضحك، لكنّ الله العليم بكلّ شاردة وواردة لا يغضب على ساره لعدم إيمانها، ويجيبها «بل ضحكتِ».

وبينما إبراهيم «كان لم يزل قائماً أمام الرب» تناهى إلى أسماع الرب فجأة صراخ سدوم وعمورة فأعلن أنّ خطيتهم «قد عظمت جداً»، والمحرّر كان قد مهّد لذلك في الإصحاح 13 حيث قال في الفقرة 13: «وكان أهل سدوم أشراراً وخطاة لدى الرب جداً». فقال: «أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إليّ.. وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم» (تكوين 18: 20). فإذا كان إبراهيم لم يزل قائماً أمام الربّ، فهذا يعني أنّ الربّ كان على الأرض، فلماذا قال أنزل وأرى ولم يقل أذهب وأرى؟ ثم يستطرد الكاتب فيقول: «فتقدّم إبراهيم وقال أفتُهلك البارّ مع الأثيم... حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البارّ مع الأثيم... أديّان كلّ الأرض لا يصنع عدلاً». (تكوين 18: 23). وكيف يمكن أن نمرّ على هذا الكلام مرور الكرام دون تدقيق وتشريح لمعانيه.

في البداية لم يقل الرب لإبراهيم، فيما سبق هذا الكلام، بأنّه سيهلك أهل سدوم وعمورة، فكيف علم إبراهيم بنيّة الربّ؟ ثم يظهر لنا المحرّر أن إبراهيم يتحلى بحكمة أكثر من الله، فيقدّم للرب النصح بعدم إهلاك البارّ بجريرة الآثم، وصولاً إلى تقريع الرب الديّان الذي يفترض به أن يكون عادلاً. أيّ كفر هذا؟ وإذا كان إبراهيم بارًّا له منزلة عند الله، فكيف قبِل أن يطرد الله شعباً بكامله من أرضه ليعطيه إياها ويمسحها باسم نسله؟ أين كان مفهومه للعدل في تلك اللحظة التي أطلق الربّ فيها وعده باستباحة أرض الغير وقتلهم وتشريدهم كما سيظهر معنا لاحقاً؟

والأعجب من ذلك أنّه، في الفقرات التي تلي، يخوض إبراهيم مناقصةً مع الرب ويتوصّل في نهايتها معه إلى اتفاق يقضي بأنّه إنْ لم يكن في سدوم أكثر من عشرة خطاة فإنّه لا يُهلك سدوم من أجل العشرة. فلماذا توسط إبراهيم لأهل سدوم؟ ولم يتوسط لأهل بقية كنعان؟ ويأتينا الجواب سريعاً. ففي

مطلع الإصحاح التاسع عشر يُعلمنا المحرّر أنّ لوطاً ابن هاران شقيق إبراهيم كان يسكن سدوم، فكان من الطبيعي أن يخوض مع الربّ هذه المناقصة لكي ينقذ لوط من انتقام الرب. ولوط لم يباركه الرب كما فعل بإبراهيم، ومع ذلك يريدنا أن نصدّق هلوسته «التاريخية» بأنّ ملاكين قد جاءا «إلى سدوم مساءً وكان لوط جالساً في باب سدوم»، فقام واستقبلهما وأبى إلاّ أن يستضيفهما، ويخلّصهما من رجال المدينة الذين أحاطوا ببيت لوط طالبين تسليمهم الرجلين اللذين دخلا إلى المنزل (أي الملاكين المتجسّدين). ثم يقول لوط للرجال: «لا تفعلوا شراً يا إخوتي. هوذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً. أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم» (تكوين 19: 7).

يا له من تصرُّف أخلاقي راقٍ! فهل يمكن لأحد أن يثني على عمل لوط، الذي أراد أن يحمي المستجيرين به، فيضحّي بشرفه وكرامته فيسلّم ابنتيه إلى الرجال ليفعلوا بهما ما يشاؤون؟ أيّ توجيه أخلاقي يُستمدّ من هذه القصة نستطيع أن نقرأه لأبنائنا لكي يسلكوا الصراط المستقيم؟ وما هو هدف الدين إن لم يكن الارتقاء بحياة الإنسان والسير به نحو الفضيلة ودفعه للتمسك بالقِيَم الإنسانية المُثلى والترفُّع عن الحياة البهيمية الغريزية؟ وكيف يمكن بعد هذا الكلام أن نعتبر لوطاً أحد الأنبياء؟ غريبة هي هذه الديانة المدعوّة زوراً سماوية مقدّسة، والتي لم يقم نبي من أنبيائها بعمل أخلاقيّ مشرّف، ولا سُمع منهم كلام يدلّ على رفعة الأنبياء وتنزّههم عن كلّ ما من شأنه أن يسيء إلى سمعتهم.

ويبقى سؤال أخير حول هذا المقطع وهو: لماذا لم يخبرنا المحرّر عن زوجة لوط التي لم يأتِ على ذكر لها بل فاجأنا بأنّ للوط ابنتين؟ ثم يتضح لنا من سرد القصة أنّ للوط بنين وبنات وأصهاراً أيضاً، طلب الملاكان منه أن يخرجهم جميعاً من المدينة لأنّ الربّ عاد وقرّر أن يُهلك المدينة، فيأخذا بيده ويخرجاه مع زوجته المجهولة وابنتيه استجابة لشفقة الربّ عليه! وكان أن «أمطر الربّ على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الربّ من السماء وقلب تلك المدن وكلّ الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض. ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح» (تكوين 19: 24). هل من عقل بدائي في هذه الأيام يتقبل مثل هذا الكلام والعمل الإرهابي المنسوب إلى الربّ؟ وأيّ ربّ يمطر مخلوقاته كبريتاً وناراً؟ وهل العلم يقرّ بهذه الخرافة السخيفة التي، وفي أحسن الأحوال، يجب أن تفسّر بأنّها دعوة للناس لكي يبتعدوا عن الشرور، ويعيشوا باستقامة لكي ينالوا رضى الله، الغني أصلاً عن التأثر بأفعال الناس، والذي لا يمكن أن يصدر عنه مثل هذا العمل الإجرامي الانتقامي؟

أليس من واجبنا مقارنة أفعال هذا الإله وأقواله مع أقوال السيد المسيح الذي أجاب تلميذيه يعقوب ويوحنا عندما سألاه: «يا ربّ أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتُفنيهم كما فعل إيليا أيضاً»، «فالتفت وانتهرهما وقال لستما تعلمان من أيّ روح أنتما. لأنّ ابن الإنسان لم يأتِ ليُهلك أنفس الناس بل ليخلّص» (لوقا 9: 54). ولماذا لم يأتِ أيّ مستند تاريخي آخر على ذكر هذه الحادثة على أهميتها، وقد وصلتنا أخبار عن أحداث حصلت في أوقات متأخرة عن هذه ولا تعلو أهميتها على هذه الحادثة. هذا يوصلنا إلى قناعة بدأ بعض الباحثين الثقات الاعتماد عليها مفادها: «الحقيقة التاريخية مثلها مثل الخيانة بالنسبة إلى الدستور، يجب أن تقوم على شاهدين على فعل علني، أو على اعتراف أمام محكمة علنية»... أحكام المؤرخ معرّضة دائماً للمراجعة وقلّة من أحكامه قطعية»(108).

فإذا كان هدف محرّر التوراة كتابة مبادئ دينية فقد فشل فشلاً ذريعاً انطلاقاً من الأمثلة التي قرأناها عن تصرف من دعاهم بالأنبياء الأبرار الذين كان يجتمع بهم الله ويتكلم معهم. وإذا كان هدفه كتابة

تاريخ عن بني إسرائيل يعيد فيه جذورهم إلى المخلوق الأول آدم مروراً بنوح وسام وإبراهيم فقد فشل الفشل الأكبر لأنّ «صورة ماضي إسرائيل كما وردت في معظم فصول الكتاب العبري ليست إلاّ قصة خيالية. إنّها توليف وتركيب كما هو حال معظم الصور عن الماضي التي ركّبتها المجتمعات القديمة (ونستطيع أن نضيف الحديثة أيضاً...). إنّ تسييس التاريخ في طريقة تقديم ماضي إسرائيل، لم يتحول إلى قضية كبيرة، لأنّ معظم الباحثين الكتابيين كانوا متّفقين على أساسيات المشروع، مستغلّين تقليدياً القدر الكبير من الإيمان والثقة في تاريخية المصادر الكتابية مع الثقة في موضوعية الباحث المعاصر»(109). ونقرأ لشلومو ساند ما يلي: «هذا الكتاب (التوراة) كان يمكن أن يشكّل بالنسبة لنا وثيقة تاريخية أمينة أكثر لو كنّا متيقنين بدرجة كافية من معرفتنا للتواريخ الدقيقة لكتابة كلّ جزء من أجزائه... فضلاً عن ذلك فقد رُقّي إلى مرتبة «ميثوتاريخ» لا يجوز الاستئناف عليه لأنّه يشكّل حقيقة بدهية مفروغاً منها. معنى ذلك أنّه موضع القداسة العلمانية الذي لا يجوز المساس به، بل ينبغي الانطلاق منه في التفكير عند الحديث عن «الشعب» و«القومية»(110).

لقد وضع ساند إصبعه على الجرح، وهو المفكّر اليهودي، الذي أبى أن يكون وقوداً في أتون الكذب والخداع الصهيونيين على حساب موضوعيته العلمية، كاشفاً المؤامرة التي لا تزال مستمرة، ولا أعتقد بأنّها ستقف عند حد في المدى المنظور. فهو يشير بوضوح إلى أنّ كتاب التوراة لا يعدو كونه كتاباً أسطورياً أُضفيت عليه صبغة القداسة لكي تمنع حتى أصحاب النظرة العلمية من مقاربته إلاّ انطلاقاً من كونه كتاباً مقدساً، كلّ ما ورد فيه هو كلام الله أو سرد لما قام به الله من أجل «شعبه المختار». وبالتالي هو الأساس وكلّ ما ورد بعده مردّه إليه، هو الجذور الضاربة في التاريخ وما عداه فروع لا قيمة لها إلاّ بقدر ارتباطها بهذه الجذور. وساند مثله مثل فرويد وروجيه غارودي وغيرهم كثيرون، كتبوا قناعاتهم غير آبهين بالضغوط التي توقّعوا أن تُمارس عليهم لأنّهم خرجوا عن المألوف وعن المسموح به. فهو يقول في مقدمة الكتاب: «اتّهمني المؤرخون الصهاينة بأنّي منكر الشعب اليهودي... إلا أنّي لا أعتقد بأنّه كان في أي زمن مضى شعب يهودي واحد مثلما لم يكن هناك شعب مسلم واحد. لقد كان هناك ولا يزال يهود ومسلمون في التاريخ، وتاريخهم غني، متنوع ومثير»(111). أما فرويد فيقول: «إنّ تجريد شعب من الشعوب من الرجل (وهو يعني موسى) الذي يحتفي به على أنّه أعظم أبنائه ليس بتهمة بهيجة ينجزها المرء بخفة قلب. ولكن ليس ثمة من اعتبار، مهما جُلّ، بقادر على إغوائي بتجاهل الحقيقة باسم مصلحة قومية مزعومة»(112).

أما روجيه غارودي فيقول في مقدمة كتابه: «وأحاربه اليوم عند اليهود في كتابي هذا... مغامراً بأنّ استنزل على رأسي ما نعرفه من الصواعق الإسرائيلية – الصهيونية، التي لم تكن تحب أن يذكرها هيرش Hirsh بقوله: إنّ الصهيونية تريد تعريف الشعب اليهودي، ككيان قومي.. إنّ هذا هرطقة». وقد عنى بكلمته (أحاربه) التاريخ عندما يقوم «على جعل الدين أداة لسياسة تُعتبر مقدّسة بالاعتماد على قراءة حرفية واصطفائية لكلام موحى به»(113).

وأعتقد جازماً أنّه، وبالرغم من كلّ ما قد قيل وكتب على لسان كبار المفكّرين، لم يطرأ أيّ تبديل على عقلية دارسي المرويات التوراتية الكلاسيكيين، بل نحن لا نزال نرى أنّ الصهيونية والحكومات الإسرائيلية المتعاقبة لا ينفكّون عن توجيه الباحثين اليهود والمتهوّدين لكتابة المزيد من الأبحاث عن تاريخ وهمي، مستغلين كلّ الوسائل لكي يطابقوا بين المرويّات والمكتشفات الأثرية، غافلين عن

أبحاث بعض الدارسين والأركيولوجيين وعلماء اللغات القديمة الثقات الذين توصلوا إلى قناعة واحدة مشتركة مفادها أنّ أسفار التوراة لا يمكن اعتبارها مستنداً تاريخياً، وأنّ ما ورد فيها من أحداث هو من مخيّلة الذين حرّروها مستندين إلى بعض الأسفار التي تروي أحداثاً قريبة من عهد كتابتها إلى هذه الأحداث مع إضفاء عناصر الإثارة من مخيلاتهم. ولقد تبيّن لنا حتى الآن، ونحن لم نتجاوز ثلث إصحاحات سفر التكوين، الأول في سلسلة الأسفار، أنّ كلّ ما ورد فيه لا يقبله العقل، بل أكثر من ذلك، حيث ينطلق الكاتب من فرضيات نظرته البدائية للتكوين، إلى أحداث أسطورية تستند بقوة على ما سبقها من أساطير الشعوب، قامت بها شخصيات أسطورية أيضاً شبيهة بشخصيات الأساطير المتقدمة، التي لم يسع كتّابها إلى إلصاق صفة القداسة والألوهة بها، فبقيت تراثاً أدبياً سامياً يخبرنا عن نظرة الإنسان إلى الكون والحياة.

وأجد نفسي مجبراً على إكمال المشوار حتى أصل إلى نهاية سفر التكوين، كي أفضح الادّعاءات اليهودية علّني أساهم في ما سبقني إليه باحثون كبار وضعوا المدماك الأساس للقراءات العقلانية الواعية غير آبهين بحملات التهديد المتعددة الأوجه من أبواق الصهيونية. «وحدث لمّا أخرب الله مدن الدائرة أنّ الله ذكر إبراهيم وأرسل لوطاً من وسط الانقلاب. حين قلب المدن التي سكن فيها لوط» (تكوين 19: 29). فهنا ينسب الكاتب إلى الله أوسع عملية تخريب، إذ قضى على مدينتين بكل ما فيهما من بشر وحيوان، وذلك بعدما كان قد وعد إبراهيم بألاّ يهلك الجميع بجريرة البعض حتى لو كان الآثمون عشرة. فإذا به يتراجع عن وعده دون أن يذكر لنا الكاتب مثلاً بأنّ الله وجد أنّ الأشرار يفوق عددهم العدد الذي تكلّم به إبراهيم مع الله. لم يكن له همّ إلاّ أن ينقذ لوطاً وأهل بيته، ثم يقتصر هذا الهم على إنقاذ لوط وابنتيه. فزوجته تحوّلت إلى عمود ملح، صدّق أو لا تصدّق، أمّا أصهاره وبنوه وبناته فلم يعد لهم وجود، لقد انتهى دورهم. وأما لوط فقد صعد «من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه. لأنّه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلمّ نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه. فنُحيي من أبينا نسلاً» (تكوين 19: 20). وهكذا كان، فتناوبتا ليلة بعد أخرى على هذا الفعل الشنيع دون أي رادع أخلاقي، ويريدوننا اليوم أنّ نقتنع معهم أنّهم أعطونا أعظم كتاب وأنّهم أسدوا للحضارة الإنسانية خدمة لا تثمّن.

نحن ندرك تماماً أنّ الإنسان، قبل أن يبدأ مشواره الحضاري، كان يتزاوج كالحيوان، بمعنى أنّ مفهوم العائلة من حيث الالتزام بامرأة واحدة، أي الارتباط الدائم، لم يكن قد تبلور لديه بعد، فكان من الطبيعي أن يمارس الجنس مع أخته وأمه. أما ما يلفتنا في ما نقله إلينا محرّر التوراة فهو فكرة الخداع التي يلجأ إليها أبطال أسطورته، والذين نعتبرهم من الأبرار الأولياء الصالحين. فإبراهيم كذب على فرعون بشأن زوجته، ولم يشعر بأيّ ضرر إن أخذ فرعون زوجته شرط أن يجزل له العطاء، وابنتا لوط أسكرتا أباهما ولم تكلّفا نفسيهما عناء الانتظار للالتقاء برجل يؤمن استمرار نسل لوط. فإذا كان الله قد قضى على سدوم وعمورة، ألم يكن هناك في صوغر رجال؟ أو في أيّة محلة أخرى؟ أم أنّهما كانتا تعتبران أنّ سدوم وعمورة هما الكون كلّه؟ وطالما أنّهما كانتا تعرفان الخمر ومفعولها، أليس حريًّا بلوط أن يكون على علم بذلك أيضاً؟ وإن كان هو يعلم بأنّ الإكثار من الخمر يقود إلى السكر وفقدان الرشد، فلماذا ساير ابنتيه بفعلتهما؟ ألا يكون شريكاً لهما بهذا العمل المشين؟ وكيف ندعوه نبياً باراً بعد كلّ هذا؟ وإذا كان لليهود حق، لا أنكره عليهم، بتصديق هذه الأساطير، فلماذا علينا أن نقبل

بفرضها علينا كمقدّسات غير قابلة للنظر بصحتها، إن على صعيد الحدث التاريخي أم على صعيد القبول المنطقي العقلاني بهذا الحدث؟ وإذا كان الربّ قد غضب على سدوم وعمورة لكثرة شرور أهلهما، فلماذا لم يغضب على الشر الذي ارتكبته ابنتا لوط؟

وفي نهاية الإصحاح 19 ندرك لماذا اختلق المحرر هذه القصة إذ يقول: «فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب. وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بنْ عمي. وهو أبو بني عمّون إلى اليوم» (تكوين 19: 26). لقد سمع المحرر عن بني موآب وبني عمّون فجاءت مخيّلته بهذه القصة لتخبرنا من أين جاء هؤلاء. فكما اخترع نوحاً وأولاده وصولاً إلى إبراهيم كان على الكاتب أن يفسّر لنا جذور من سيكون لهم دور على مسرح أسطورته. وأعود لأؤكد أنّه ولغاية اليوم لم يتوفر أي مستند أركيولوجي يؤكد على شخصية واحدة أو حادثة واحدة أوردها المحرّر في هذا السفر أو في الأسفار التي تليه. ونحن إنْ طرحنا الأسئلة حول الأحداث الواردة في هذا السفر، فليس لأنّنا نصدّقها ونؤمن بها، بل تفنيداً لمزاعم من حرّرها، وإظهاراً للحقيقة التي لا تعوّل كثيراً على هذه الأحداث عند مقاربتها للتاريخ. وأخيراً علّنا نستطيع أن نكشف اللثام أمام المؤمنين الحقيقيين عن مدى أسطورية هذه الأحداث وعدم صلتها بالواقع التاريخي وحتى الديني الأخلاقي التوحيدي.

أما في مطلع الإصحاح العشرين فيكرّر المحرّر حادثة إبراهيم مع الفرعون يوم ادّعى أنّ ساره زوجته هي أخته، فإذا به ينتقل إلى «أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرّب في جرار. وقال إبراهيم عن ساره امرأته هي أختي. فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ ساره» (تكوين 20: 1). لماذا لم يرتدع إبراهيم ويعتبر من فعلته الأولى؟ الجواب بسيط لأنّ الكاتب جعل غضب الله ينصبّ على فرعون بدلاً من إبراهيم، وجعل فرعون يجزل لإبراهيم العطايا بدلاً من معاقبته. فإذن الخطأ يقود ليس إلى العقاب بل إلى الثراء، فلماذا لا تتكرر الحادثة مع ملك آخر وفي مكان آخر؟ ومجدداً بدلاً من أن ينال إبراهيم عقابه نتيجة كذبه على أبيمالك، يتراءى الله لأبيمالك في الحلم، وبعد أخذ وردّ يقول الله لأبيمالك: «فالآن ردّ امرأة الرجل فإنّه نبيّ فيصلّي لأجلك فتحيا. وإن كنت لست تردّها فاعلم أنّك موتاً تموت أنت وكلّ من لك» (تكوين 20: 7). ألا يحق لنا أن نتساءل كيف يمكن أن يكون نبيًّا من يتاجر بزوجته مرتين، وكيف يمكن لله أن يُميت، ليس من لا ذنب له فحسب، بل كلّ رعيّته؟

نحن نعلم أنّ الغالبية العظمى من المؤمنين اليوم يعتقدون بالحساب والآخرة، ولكن هل يُعقل أن يؤمنوا بإله يقتل الأبرياء لذنب اقترفه رجل واحد فقط لمجرد أنّ هذا الشخص انتقاه الله من بين كلّ البشر، فباركه وأمسك بيده وسار به خارج موطنه وحلّل إبادة شعب آمن لكي ينقل الأرض التي سكنها منذ آلاف السنين، وأقام فيها الحضارة الإنسانية الأولى، إلى هذا الوافد الجديد الذي يرتكب الموبقات دون وازع أخلاقي، فيُجازى خيراً بدل العقاب الرادع؟ كيف يمكن، حتى انطلاقاً من قناعتنا الخاصة بأنّ هذه القصة خيالية وأبطالها أسطوريون، أن نعتبر أنّها قدّمت للإنسانية درساً في الأخلاق والقِيَم؟ يتحدث شلومو ساند عن كتاب الـ «سيبيلا» الذي كُتِب في القرن الثاني قبل الميلاد في فترة مملكة الحشمونائيم كما يتحدث عن الوثنية قائلاً: «والوثنية هي شيء آثم وخسيس بينما العقيدة اليهودية هي نظرية الحق والعدل والأخوة والرحمة. عبدة الأصنام مصابون باللواط، في حين أنّ

اليهود منزّهون عن كل الفواحش. لذلك على عبدة الشجر والحجر أن يتحولوا إلى عقيدة الحق وإلا فسوف يُعاقبون بغضب شديد من الله»(114).

يناقض هذا الكلام كلّ ما أوردناه من إثباتات وردت في التوراة عن الأخلاق الفاسدة التي تُرجمت كذباً وفسقاً وارتكاباً للفواحش. فكيف يكون اليهود منزّهون عنها والذين ارتكبوها هم أنبياؤهم الذي يفترض بهم أن يكونوا قدوة للناس؟ أما عن عَبَدَة الأصنام واتهامهم باللواط فإنّه يدعو للسخرية لأنّ اللواط حالة جسدية لا علاقة لها بالمعتقدات الدينية، ولأنّ اليهود هم أكثر من مارسها بل هم مارسوا ما هو أبشع من ذلك، وأعني ممارسة الجنس مع البهائم.

وهذه الأفعال الفاحشة التي كانوا يمارسونها دعت المحرّر إلى استصدار جملة من الوصايا ساقها على لسان موسى لكي يحدّ من إغراقهم بممارسة الموبقات، لذلك هم آخر من يحق له أن يحاضر بالعفاف والأخلاق والقِيَم. وللتأكيد على أنّهم كانوا يرتدّون عن عبادة إلههم الخاص، وليس الله، كي يعبدوا صنماً أو أصناماً نقرأ لجورجي كنعان: «ورغم النواهي الصارمة التي أطلقها في وجوههم زعماؤهم وكهّانهم، كقول موسى «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة، ولا تسجد لهن ولا تعبدهن» (خروج 20: 4)، فقد ظلّ بنو إسرائيل «يصنعون لأنفسهم تماثيل مسبوكة» (هوشع 13: 12)، «ويذبحون للبعليم ويبخّرون للتماثيل المنحوتة»، (هوشع 11: 2)، حتى «امتلأت أرضهم أوثاناً» (إشعيا 2: 68)، وصارت «أصنام بيت إسرائيل كلّها مرسومة على الحائط (في الهيكل) ويقف قدّامها سبعون رجلاً من شيوخ بيت إسرائيل» (حزقيال 8: 10)(115)، هذا على سبيل المثال لا الحصر، ولمن يريد الاستزادة من أخلاقيات اليهود عليه أن يضع الإيمان جانباً ويقرأ التوراة بعين العقل، عندها فقط يستطيع أن يرى بوضوح أنّ كلّ ما جاء في هذا الكتاب لا علاقة له من قريب أو بعيد بمفهوم الدين المتعارَف عليه. إنّه دين خاص بشعب خاص: نعم. هل هو، كما يدّعون، الدين التوحيدي الأول الذي كشف أسرار الخلق ودعا الناس إلى الكف عن عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله الواحد؟ بالطبع لا، بل هذا محض افتراء على الحقيقة وتشويه لها. وإكمال رحلتنا عبر أسفاره سيوضح لنا الكثير من الخفايا التي بقيت كذلك فقط لأنّها وُضعت تحت عنوان القداسة فسلمت، إلى حدّ ما، من النقد العقلاني ومن ضرورة نزع هذه الصفة عنها. ولأتباع هذا «الدين» ملء الحق بأنّ يستمروا على ما هم عليه من تحجّر شرط أن يكفّوا شرورهم عن البشر أجمعين.

وبالعودة إلى الملك أبيمالك الذي حسُنت ساره زوجة إبراهيم بعينيه، فإنّنا نجده يتصرّف مع إبراهيم تصرّف فرعون: «فأخذ أبيمالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماءً وأعطاها لإبراهيم. وردّ إليه ساره امرأته. وقال أبيمالك هوذا أرضي قدّامك. اسكن في ما حسُن في عينيك... فصلّى إبراهيم إلى الله. فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فولدن. لأنّ الربّ كان قد أغلق كلّ رحم لبيت أبيمالك بسبب ساره امرأة إبراهيم». فإذا كان أبيمالك قد أعاد سارة فوراً لزوجها بعدما تراءى له الله في الحلم وأعلمه أنّها متزوجة وتراجع عن قراره بإغلاق أرحام نساء بيت أبيمالك، فكيف يحبلن ويلدن فور إسقاط هذه اللعنة عنهن؟ ألم يكن أجدر بخيال المحرّر أن يخترع لنا قصة تدوم تسعة أشهر على الأقل يفتح بعدها أرحام النساء؟ ألا تأخذك أخي المؤمن الرعدة من تصرّف هذا «الربّ» الذي يحكم على إناث شعب بأكمله أن يصبحن عاقرات لأنّ ملكهن اتّخذ لنفسه امرأة لم يعلم أنّها متزوّجة؟ كيف يمكن أن نعبد إلهاً لا عمل له إلاّ الانتقام الإرهابي من خلقه، غير آبهٍ إن كانوا آثمين أم أبرياء؟

وها هي ساره المباركة من جديد تَقدِم على عمل لا يليق بها، حيث نقرأ من الإصحاح 21: 6: «ورأت ساره ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح. فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها. لأنّ ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق». فهل المزاح جريمة تستحق حرمان الولد من إرث أبيه والطرد مع أمه؟ والأغرب من ذلك أنّ الله، بدلاً من أن يُلهم إبراهيم عدم الانجرار وراء رغبات زوجته، نراه يتفق مع ساره ويقول لإبراهيم: «في كلّ ما تقول لك ساره اسمع لقولها» ثم يخبرنا الكاتب ماذا حلّ بهاجر وولدها إسماعيل، فإذا بالله يحنّ عليهما فينجوا من قسوة الطبيعة ويكبر إسماعيل ويتزوج مصرية. أما كيف وصل إلى مصر وتعرّف بها، فهو خبر غير ذي أهمية، لأنّ المحرر حصر كلّ الإثارة بنسل إبراهيم، الذي سنبقى متابعين لرحلته الأسطورية لكي نقف على أطرف التفاصيل التي لا تصلح إلا للتندّر والتسلية كقصص ألف ليلة وليلة.

وقبل أن ننتقل مع المحرّر إلى الإصحاح الثاني والعشرين لا بد من أن نشير إلى ملاحظتين، الأولى قوله: «ودعا هناك باسم الرب الإله السرمدي» (تكوين 21: 23)، وهذا يعني تناقضاً واضحاً في تفكير المحرّر الذي يجعل الله أحياناً إلهاً لبني إسرائيل فقط، وأحياناً أخرى، كما في هذه الجملة، يعتبره الإله السرمدي دون تحديد، حيث يمكننا أن نفهم بأنّ المحرّر كان يعيش حالة الإرباك الذهني، فهو ساعة يكون موحِّداً ينظر إلى الله نظرة كونية، وساعة يجعله إلهاً خاصاً بإبراهيم وذريته. والملاحظة الثانية إشارته المتكررة إلى تغرّب إبراهيم في أرض ليست له وهي أرض فلسطين كما يحدّدها الكاتب بوضوح، وهذا يشكّل رداً واضحاً على السذّج الذين ما زالوا يعتبرون أنّ فلسطين حق مكتسب لليهود لأنهم كانوا فيها قبل الفلسطينيين، وهذا ما تنكره، إضافة إلى مرويّات التوراة، كل المكتشفات الأثرية ودراسات الباحثين. ولا يبقى لدى اليهود من مبرِّر لمطالبتهم بأرض فلسطين إلا «الوعد الإلهي» الذي قطعه الله لأبرام = إبراهيم بعد غضب نوح على ولده حام أبي كنعان، فأقطع على طريقة ملوك أوروبا في العصور الوسطى، أرض كنعان لأبرام ابن تارح ابن الجيل الثامن من ذرية سام المبارك. وفي هذا المجال نقرأ قولاً للبروفسور اليهودي الإسرائيلي يعقوب تالمون أورده جورجي كنعان في كتابه: «الحق اليهودي التاريخي في فلسطين يفتقر إلى أساس ثابت في ما لو تمّ إقصاء الإيمان بالوعد الإلهي، وفكرة الشعب الذي اختاره الرب واصطفاه. مما يؤدي حتماً إلى إظهار اليهود بمظهر الغزاة، الفاتحين، والإمبرياليين»(116)، وهم كذلك.

في مطلع الإصحاح الثاني والعشرين يقول الكاتب بأنّ الله امتحن إبراهيم حيث طلب منه أن يقدّم وحيده إسحق محرقة فامتثل إبراهيم حتى إذا ما همّ بتنفيذ أمر الله أوقفه ملاك الرب قائلاً: «لا تمدّ يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً، لأنّي الآن علمت أنّك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني» (تكوين 22: 12). وبالطبع لا نستطيع إلاّ أن نتساءل: أليس الله العلي القدير، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، العالم بسرائر النفوس وخفايا الضمائر، بغنى عن هذه التجربة ليكتشف ثبات إيمان إبراهيم؟ ألا يمكننا أن نعتبر ما ورد في سورة إبراهيم: (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ)(آية 38) أوضح تأكيد على ما نقول، وكذلك ما ورد في سورة آل عمران: (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ) (آية 29)، وما ورد في رسالة بولس الرسول إلى يعقوب يؤكد بما لا يقبل الشك بأنّ الله لا يجرّب خلقه لأنّه يعلم ما في سرائرهم وهو بغنًى عن إخضاعهم للتجارب: «لا يقل أحد إذا جُرِّب إنّي أجرّب من قِبَل الله، لأنّ الله غير مُجرّب بالشرور وهو لا يُجرّب أحداً».

والمؤمنون بقلوبهم وعقولهم ألا يفهمون أن هذه الحادثة أمثولة رمزية يُراد منها تثبيت الإيمان؟ أمّا طلب الله بأنّ يحرق إبراهيم ولده تقدمة لله على رأس الجبل فإنّما يدلّ على استمرار طقوس فولكلورية غارقة في القدم، تمسَّك بها أبناء إسرائيل، أو قل، ألزمهم بها كاتب التوراة وأصبحت رمزاً لإلههم الخاص الذي يحب رائحة الدم والشواء كما مرّ معنا، بينما كانت شعوب بلاد ما بين النهرين المتحضرة قد تخطّت هذه الطقوس البدائية إلى إقامة محرقات من الخشب ذي الرائحة الزكية.

وانطلق الكاتب من هذه الواقعة لكي يجعل الله مرة جديدة يبارك إبراهيم ويعده بتكثير نسله كنجوم السماء ورمل شاطئ البحر، الأمر الذي لم يتحقق، إضافة إلى وعده بأنّ «يرث نسلك باب أعدائه، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض» (تكوين 22: 17). فمن أين اختلق الكاتب لإبراهيم الأعداء، أو افترض وجودهم؟ وإذا كان قد قرر مباركة جميع أمم الأرض بسبب فعلة إبراهيم، فهذا يعني أنّ كلّ الأمم أصبحت مباركة، واستطراداً يجب أن يعمّ فيها فعل الخير وينتفي الشر، وأن يعمّ السلام فلا تكون هناك عداوة بين الناس. لكنّ الكاتب الذي كان يسرد قصة لم يكن ليدقّق بكلّ كلمة يكتبها، وكان يراهن على بدائية تفكير الناس في ذلك الوقت، ولقد نجح رهانه، واستمر هذا النجاح إلى يومنا هذا، إذ نعرف جيداً أنّ هذه القصص ما زالت تُدرّس للأطفال، ومن مختلف الديانات، فمن منّا لا يعلم ويؤمن بقصة آدم وحواء والتفاحة، وبقصة إبراهيم مع ولده إسحق؟ وهذا بالتحديد ما جعلني أذكر في المقدمة السبب الرئيس الذي دفعني إلى وضع هذا الكتاب، وهو ليس حرمان الطائفة اليهودية حقها بالإيمان بما ورد في كتابها، وإنّما أولاً دعوة المؤمنين من الديانات الأخرى، وهم ليسوا ملزمين بالإيمان بهذه المعتقدات، لأنّ لهم مما جاء في أديانهم خير زاد ونقضاً لما جاء به الدين اليهودي، وثانياً لأنّ المؤامرة التي انبثقت عن هذه الديانة قد أصابت بلادنا في الصميم، وكان تأثيرها على عقول كلّ الناس على اختلاف أديانهم سلبياً نتيجة موافقتهم العمياء على ما جاء فيها، دون النظر إلى تداعياتها التي لا يزال العالم أجمع، وليس فقط أمتنا، يعاني منها لغاية اليوم، مع تأكيدنا على استمرارية المعاناة إلى أمدٍ غير منظور.

إنّنا ندافع عن حقهم بالإيمان بكل كلمة وردت في كتابهم، ولكننا في الوقت ذاته نحتفظ بحقنا بفضح ما نُسب إلى الله زوراً في هذا الكتاب، وما يحمله في صفحاته من دعوات للقتل والإبادة والكذب والخداع والتآمر والسرقة والزنى دون أيّ رادع. ومن حقنا أن نميط اللثام عن أسوأ مؤامرة عرفها التاريخ القديم والحديث. ولنا من كلام فولتير ما يشكّل عنواناً عريضاً لمفاهيمنا إذ يقول: «قد أخالف رأياً تقوله، لكنّي أدافع حتى الموت عن حقك بقوله».

أما الإصحاح الثالث والعشرون ففيه خبر موت ساره ونقاش بين إبراهيم وبني حث، الذين عرفوا بأنّ إبراهيم من الأولياء الصالحين، وبدلاً من أن يوافقوا على طلب إبراهيم ببيعه مكان قبر ليدفن ميته، قائلاً: «أنا غريب ونزيل عندكم» (تكوين 23:4)، قالوا له: «في أفضل قبورنا ادفن ميتك. لا يمنع أحد منّا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك، فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث» (تكوين 23: 6)، لكنّ إبراهيم أصرّ على دفع ثمن الأرض وقد كان اختار مغارة المكفيلة لصاحبها عفرون بن صوحر الذي كان موجوداً بين بني حثّ فأجابه: «الحقل وهبتك إياه. والمغارة التي فيه لك وهبتها» (تكوين 23: 11)، وبالرغم من كلّ ما أظهره بنو حثّ وصاحب المغارة الذي تخلى عن كلّ حقله لإبراهيم فقد أبى هذا الأخير إلاّ أن يدفع ثمن الحقل. فاغتنم سخاء صاحب الحقل الذي قال له: «يا سيدي اسمعني.

أرض بأربع مئة شاقل فضة ما هي بيني وبينك. فادفن ميتك. فسمع إبراهيم لعفرون. ووزن إبراهيم لعفرون الفضة التي ذكرها في مسامع بني حثّ. أربع مئة شاقل فضة جائزة عند التجار» (تكوين 23: 15).

فماذا نفهم من هذا التصرف؟ هل إصرار إبراهيم على دفع ثمن الأرض كان نتيجة أخلاقياته التي ترفض أخذ أملاك الغير مجاناً؟ بالطبع لا، لأنّه لو كان يفكّر كذلك، فلماذا لم ينصح الله يوم وعده بكلّ أرض كنعان، محاولاً إقناعه أنّه لا يجوز طرد شعب والاستيلاء على أرضه، كما نصحه يوم قرّر معاقبة سدوم، قائلاً لله: «أديّان كلّ الأرض لا يصنع عدلاً» (تكوين 18: 25). لماذا لم يقبل كَرَم الحثيين وانفتاحهم وإنسانيتهم وتقديرهم للموتى، فأبى إلاّ أن يدفع ثمن الأرض؟ سبب ذلك برأيي يكمن بما كان إبراهيم يعدّ له من تملك لكلّ أرض كنعان. إنّه الأسلوب الذي اتبعه اليهود في القرن العشرين عندما بدأت مؤامراتهم الجديدة للاستيلاء على فلسطين حيث أسست الحركة الصهيونية صندوق النقد اليهودي، الذي كان يُغذّى من تبرعات المتموّلين اليهود، فانطلقوا بعملية شراء الأراضي، لا كما يعتقد عامة الناس من فقراء فلسطين، بل من إقطاعيي فلسطين وكثر بينهم كانوا لبنانيين. وبالرغم من ذلك لم يستطيعوا شراء الكثير بل نسبة ضئيلة من أرض فلسطين، أما ما تبقى منها فسيطروا عليه بالقتل والإبادة والإرهاب، كما تعلّموا من أساطير يشوع.

وتأكيداً لقولنا هذا نستشهد بما كتبه إيلان هاليفي حيث يقول: «إن إجلاء الفلسطينيين خارج المكان المطموع فيه من قِبَل المستوطنين ليقيموا عليه... لم يتم سوى في سنة 1948 «بالدم والنار». وفي سنة 1947 امتلك اليهود 6 بالمئة من الأراضي التي كانت قد اكتُسِبت قبل الثلاثينيات أي قبل أن يبدأ موقف الحكومة البريطانية في التأرجح وفي فرض قيود صارمة سواء على الهجرة أو على بيع الأراضي. وقد تناقص معدّل المشتريات العقارية خلال الثلاثينيات بعد أن بلغ الأوج في سنة 1924 مع نهاية المسألة الضخمة لأراضي مرج ابن عامر التي اشتراها الصندوق القومي اليهودي من العائلة اليونانية – البيروتية سرسق: أربع وعشرون مزرعة وقرية بيعت دفعة واحدة، وتم إجلاء كل سكانها من قِبَل الشرطة الإنكليزية»(117).

ونقرأ من كتاب سعيد نفّاع ما يلي: «... استطاعت الحركة الصهيونية اقتناء الكثير من الأراضي من ملاّكين خارج فلسطين من عائلات لبنانية: سرسق، تيّان، تويني، مدوّر وغيرها؛ كانت هذه العائلات استولت على أجود أراضي فلسطين – مرج ابن عامر – في المزاد الذي أعلنته السلطة العثمانية سنة 1869 لاستيفاء الضرائب من الفلاحين أصحاب الأراضي»(118)، وكذلك من عائلات فلسطينية: كسّار، حجّار وروك، ووجهاء من الرملة وصفد...

أما مصادر الصهيونية فقد أوردت: أراضٍ كثيرة من فلسطين، كانت ملكاً لإقطاعيين من خارج فلسطين، كانوا من أوائل من باع الأراضي للشركات اليهودية، طبعاً دون أخذ رأي الفلاحين. سنة 1900 اشترت إحدى الشركات أراضي واسعة في الجليل الأسفل. وكالعادة باشر كبير موظفي البارون المشهور «أوزوفيتسكي» عمليات التسجيل استعداداً لإخلاء الفلاحين، وكان سنده في ذلك رشيد بيك، والي بيروت... وقف القائمقام أمين أرسلان الدرزي (هكذا في المصدر) مع الفلاّحين، وقد حارب، ليس فقط الظلم الذي أحاق بالفلاحين، إنّما كان همّه أيضاً أن لا تتغيّر التركيبة القومية

للواء(119)، إلى درجة رفض تسجيل الأراضي في القائمقامية، معارضاً بيع الأراضي لليهود وعلى مدى السنوات 1899 – 1908 (120).

وقوله أربع مئة شاقل فضة يدلّ أيضاً على أنّ الشاقل كان العملة التي يتداولها الكنعانيون قبل وصول بني إسرائيل إلى كنعان، وهم البدو الذين لم يعرفوا الحضارة. لكنّهم أعادوا تسمية عملتهم الحديثة بهذا الاسم (شاقل) محاولين إيهام الناس أنّ هذه العملة كانت عملتهم في الأيام الماضية مما يدلّ على أنّهم كانوا قد قطعوا شوطاً بعيداً في مدارج الحضارة منتقلين من عصر البداوة إلى عصر التجارة التي تحتاج إلى أكثر من مجرد تبادل المحاصيل، بل إلى عمليات بيع وشراء، فاخترعوا العملة الفضية. أما من يقرأ التوراة بدقة فإنّه لا بد من أن يكتشف زيف هذا الادعاء أيضاً. ففي كتاب «شريعة حمورابي، ثَبْتٌ لبعض قوانين حمورابي التي يُجمِع الدارسون أنّ موسى (أو كاتب التوراة) استقى شريعته منها، ومثال على ذلك: «إن ضرب رجل ابنة رجل حرّ مما تسبب في إجهاضها فعليه أن يدفع عشر شيكلات من الفضة مقابل حملها»(121)، وفي الحاشية ورد أنّ الشيكل يزن 8 غرامات وبالكنعانية شيقل. ولما كان حمورابي قد حكم ما بين 1771 و 1669 ق.م.، فهذا يعني أنّ مملكته استعملت هذه العملة قبل وجود الإسرائيليين وقائدهم موسى بما لا يقلّ عن أربع مئة سنة، واستعمال هذه العملة أيام حمورابي دليل على وجودها قبله أيضاً، والدليل الدامغ هو ورود ذكر لهذه العملة في التوراة أيام إبراهيم يوم لم يكن هناك بعد وجود للإسرائيليين. وهذا ما يؤكد رأينا أنّهم استغلوا ذكر هذه العملة التي كان كاتب التوراة قد علم بها خلال وجوده في بابل، فأعادوا إحياءها لإثبات أقدميّتهم في الأرض.

ودليلنا على الفارق الكبير بين نفسية إبراهيم وأهل كنعان يرد مباشرة في مطلع الإصحاح الرابع والعشرين، إذ يخبرنا المحرّر أنّ إبراهيم قد شاخ فطلب من عبده أن يضع يده تحت فخذه ويحلف «بالربّ إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لإبني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم... بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لإبني إسحق» (تكوين 24: 2). فبالرغم من كلّ الترحاب الذي لقيه من بني حثّ في كنعان، وبالرغم من كلّ النزعة الإنسانية التي عبّروا عنها لإبراهيم إثر وفاة ساره، إلاّ أنّه أبى أن يبادلهم بالمثل.

هذه الحادثة هي أيضاً تدل على تفكير الكاتب العنصري والذي بدا واضحاً لنا من خلال تمييزه بين أبناء الأب الواحد لأنّه كان قد خطّط للوصول بهذه الذريّة إلى نظرية الشعب المختار، والذي جعل موسى يكرّسها من خلال وصاياه حيث يقول لشعبه في مطلع الإصحاح السادس من سفر التثنية: «وهذه هي الوصايا والفرائض والأحكام التي أمر الربّ إلهكم أن أعلّمكم لتعملوها في الأرض التي أنتم عابرون إليها لتمتلكوها...» (تثنية 6: 1)، ثم يردف في الإصحاح السابع قائلاً: «... لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم. بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لابنك...» (تثنية: 7 – 3). هذه العنصرية طبعت بعد ذلك بقرون كلّ تصرفات اليهود، وما فتئت تفعل فعلها السلبي في عقول المؤمنين، فها نحن في القرن الحادي والعشرين لا نزال نأخذ موقفاً حازماً ممّن يتزوج، ليس من غير طائفته فحسب، بل أيضاً من غير مذهبه في الطائفة الواحدة. هذا الموقف الذي يتفاوت بتنكّر الأهل لأولادهم وصولاً إلى تحليل دمائهم.

وبالعودة إلى عبد إبراهيم نجد أنّه سمع كلام مولاه إبراهيم وتوجّه إلى أرام النهرين إلى مدينة ناحور أخي إبراهيم والذي كان الكاتب قد عاد إليه في ختام الإصحاح الثاني والعشرين فكتب: «وحدث بعد هذه الأمور أنّ إبراهيم أخبر وقيل له هوذا مِلكة قد ولدت هي أيضاً بنين لناحور أخيك. عوصاً بكره وبوزاً أخاه وقموئيل أبا أرام وكاسَد وحزواً وفلداش ويدْلاف وبتوئيل. وولد بتوئيل رِفقة» (تكوين 22: 20). ومن كلّ مواليد ناحور لم يهتم الكاتب كالعادة، إلاّ برفقة إبنة بتوئيل لأنّه خطّط كي تصبح زوجة لإسحق بن إبراهيم. واستجاب الرب لإبراهيم فإذا بعبده، وعن طريق الصدفة التي تذكّرنا بصدف القصص والأفلام، يلتقي برفقة التي تصرفت معه بكياسة إذ سقته الماء من جرّتها وملأت المسقاة بالماء لكي تشرب الجمال، فأعجب بها العبد وسألها عن أهلها فعلم أنّها بنت ناحور عمّ إسحق، فأهداها أساور ذهب، ثم يأتي لابان شقيق رِفقة فتطلعه على ما حصل معها، فيكلّم العبد قائلاً له: «ادخل يا مبارك الربّ» (تكوين 24: 31)، لأنّه كان قد علم من أخته أنّ الرجل هو عبد إبراهيم، وهذا يعني أنّه يجب أن يكون مباركاً طالما أنّ الله قد بارك سيّده. إنّه منطق محرّر التوراة البعيد عن كلّ منطق. وبعد أنْ قام أهل رِفقة بواجب الضيافة شرح لهم العبد فحوى مهمّته التي تقضي بطلب يد رفقة لتكون زوجة لإسحق بناءً على تقادير من الربّ شرحها العبد بالتفصيل، وصولاً إلى قوله: «وخررت وسجدت للربّ وباركت الربّ إله سيّدي إبراهيم...» (تكوين 24: 48). فهل الله بحاجة إلى بركة العبد أم العكس هو صحيح؟ أمّا «لابان وبتوئيل فقالا من عند الربّ خرج الأمر. لا نقدر أن نكلّمك بشرّ أو خير. هوذا رِفقة قدّامك. خذها واذهب. فلتكن زوجة لابن سيّدك كما تكلّم الربّ» (تكوين 24: 50). نلاحظ أن الكاتب ذكر أولاً أن رفقة هي بنت بتوئيل بن ناحور، ثم يعود فيقول بعد ذلك بأسطر بأنها بنت ناحور. وهذا مثل من أمثلة التناقض الكثيرة التي تحفل بها هذه الأساطير. ويتردّد ذلك أيضاً في الصفحة 131 حيث يعلمنا الكاتب أن ناحور هو والد رفقة لنعود فنفهم من كلامه بأنه جدّها.

ومع بداية الإصحاح الخامس والعشرين يخبرنا المحرّر أنّ إبراهيم عاد فتزوج ثانية من قطورة، هذا بعدما كان قد أخبرنا في مطلع الإصحاح الرابع والعشرين أنّ إبراهيم قد شاخ وتقدّم في الأيام. أمّا أن يتزوج رجل كهل قد «تقدَّم في الأيام» فهذا شيء طبيعي لأنّ الرجل بحاجة إلى امرأة تقوم على خدمته، أما أن ينجب منها وهو بهذه السن المتقدمة «زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحاً» فهذا ما لا نفهمه وما لا يقرّه عقل، ويأخذنا العجب أيضاً عندما نعلم عَرَضاً أنّ لإبراهيم العديد من السراري اللواتي أعطى إبراهيم أبناءهن «عطايا وصرفهم عن إسحق ابنه شرقاً إلى أرض المشرق وهو بعد حي». تصرّف نبيل آخر من رجل بارّ إذ هو لم يكتفِ بإبعاد هاجر وابنها إسمعيل، بل أيضاً أبعد السراري وأولاده منهن الذين لم يذكر المحرّر شيئاً عن أولادهن، وما ذلك إلاّ لأنّ بطولة القصة ستستمرّ مع ولد واحد لإبراهيم هو إسحق، فعلى الآخرين أن يختفوا من الوجود.

وها هو إبراهيم يموت عن مئة وخمس وسبعين سنة وإذ بالمحرّر، ودون سابق إنذار، يستجلب إسمعيل من بريّة فاران بعدما طرده والده إبراهيم مع أمه هاجر، لكي يدفن إبراهيم مع إسحق في مغارة المكفيلة التي دُفِنت فيها ساره، وإذا بالربّ مجدَّدا ينسى إسماعيل ويبارك بعد موت إبراهيم «إسحق ابنه. وسكن إسحق عند بئر لحي رئي» أي عند البئر التي تكلّم الرب مع هاجر قربها والتي أطلقت عليها هاجر اسم بئر لحي. فلماذا قرّر الكاتب إسكان إسحق في هذا الموقع وليس إسمعيل ابن هاجر؟ بالطبع لن يستطيع أحد الإجابة عن هذه الأسئلة المشروعة التي تخوّلنا وضع علامات استفهام

عديدة حتى لو نحن سلمنا بواقعية وتاريخية هذه الأحداث، فكيف إذا لم تحصل لدينا قناعة مبدئية بكل ما جاء في هذا الكتاب، ليس فقط من أحداث، وإنّما بوجود هذه الشخصيات التي اختلقها خيال الكاتب أو الكَتَبَة ونسجوا حولها الأساطير.

وكعادته، التي درج المحرّر عليها، يقوم بتعداد مواليد إسمعيل بن إبراهيم، فإذا بهم «اثنا عشر رئيساً حسب قبائلهم. وهذه سِنُو حياة إسمعيل. مئة وسبع وثلاثون سنة. وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه. وسكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجيء نحو أشور. أمام جميع إخوته نزل» (تكوين 25: 16). فما هو المغزى من ذكرهم إذا كان المحرر سيعتّم على سيرتهم بعد موت إسمعيل؟ ومن هو الذي نزل أمام جميع إخوته؟ ألم يقل المحرّر بأنّ أبناء إسمعيل الإثني عشر سكنوا حويلة؟ علماً أنّنا لا نقف على أثر لمعظم الأماكن التي وردت في التوراة، وهذا ما استند إليه الباحثون ليؤكدوا أنّ هذه المرويات لا تندرج في بابي التاريخ والجغرافيا، بل هي قصص خيالي يندرج في باب الأدبيات.

ثم ينتقل المحرّر ليطلعنا على مواليد إسحق فيقول: «وكان إسحق ابن أربعين سنة لمّا اتّخذ لنفسه زوجة رفقة بنت بتوئيل الأرامي أخت لابان الأرامي من فدّان أرام». فإذا ما حاولنا تحليل هذا الكلام لوجدنا أنّ ناحور والد رفقة ولابان كان أرامياً أيضاً، وناحور هذا هو شقيق إبراهيم، فاستطراداً نصل إلى النتيجة المنطقية وهي أنّ إبراهيم أيضاً كان أرامياً ولم يكن عبرياً أي لا علاقة لإبراهيم بالعبريين ومن ثم باليهود وهذا ما يؤكّده القرآن الكريم حيث ورد في سورة آل عمران: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (آية 67). وهذه الآية تؤكد حقيقة ثانية وهي أنّ اليهود، الذين اعتبروا أنفسهم من ذرية إبراهيم، هم مشركون، كما أوضحنا سابقاً، وذلك لأنّهم قد اختلط عليهم مفهوم الإله الكوني، وأرادوا، خلال وجودهم في بابل حين بدأ الكَتَبَة تدوين هذه الأساطير، أن يخترعوا تاريخاً لهم يستطيعون من خلاله التباهي على الشعوب التي كانت تقطن بلاد ما بين النهرين وأرض كنعان، هذه الشعوب التي أظهرت لنا الاكتشافات الأثرية بأنّها صاحبة حضارة إنسانية متقدمة لم يستطع اليهود مجاراتها فانغلقوا على أنفسهم وما زالوا حتى اليوم. وهم لو اكتفوا بهذا الانغلاق وكفّوا شرّهم عن الناس لما كنّا والإنسانية جمعاء نعاني من مؤامراتهم ومخطّطاتهم الجهنمية التي كانت نتيجة طبيعية لشعورهم بالدونية، فإذا بالعنصرية تشكّل برأيهم الحل لكلّ مشاكلهم، وقد يكون هذا صحيحاً لكنّه أتى على حساب الآخرين.

وها هي القدرة الإلهية، كما ظهرت لنا في الأساطير القديمة، تتدخل مجدداً مع امرأة إسحق العاقر فتحبل و«تزاحم الولدان في بطنها... فقال لها الربّ في بطنك أمّتان. ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعب. وكبير يُستعبد لصغير» (تكوين 25: 22). فإذا كان لا يخفى على الله شيء كما مرّ معنا، وهذا ما نفهمه، فكيف علمت رفقة أنّها تحمل توأمين قبل أن يعلمها الله بذلك؟ هل كانوا يملكون في ذلك الوقت المعرفة الطبية والآلات التي بإمكانها أن تحدد ليس ذلك فحسب بل نوع الجنين أيضاً؟ ومرّة جديدة يفصح الكاتب عن مخطّط قصته إذ كشف الربّ لرفقة بأنّها ستكون أمًّا لأمتين، ورسم لهما مستقبلهما، فإذا به ينطوي على قتال فانتصار فاستعباد الصغير للكبير.

ثم بدأ المحرّر بكشف مخططه بعد ولادة التوأمين عيسو ويعقوب. فإسحق أحب عيسو «لأنّ في فمه صيداً» (تكوين 25: 28)، ورفقة أحبّت يعقوب. ومن جديد تتضح لنا نفسية الكاتب العنصرية والتي تجلّت بجعله الأبوين يفضلانِ كلّ واحد منهما ابناً على الآخر. وهو إذ فعل ذلك فإنّما ليُكمل حَبك

قصته التي تظهر لنا أيضاً وجهاً آخر من وجوه نفسية هؤلاء الناس التي غذتها ديانتهم، هذا الوجه هو التآمر والخديعة. وإذا ما نحن أكملنا قراءة القصة لعلمنا كيف تآمر يعقوب على عيسو لأخذ بكوريته، حيث يطلعنا المحرّر على عادة من عاداتهم وهي أنّ الأب يبارك فقط بكره من أولاده، وبما أنّ عيسو قد خرج أولاً من رحم أمه فإنّه بات يُعتبر البكر، فاحتال عليه يعقوب حتى وعده عيسو ببيعه بكوريته: «فباع بكوريته ليعقوب» (تكوين 25: 23). لقد بدأ اهتمام المحرر ينصبّ على يعقوب، فهو الذي سيحمل الأمانة، أمانة تأمين النسل الذي سيخرج منه الإسرائيليون. وكما فعل إبراهيم مع فرعون ومع أبيمالك حين قدّم زوجته على أنّها أخته، نجد أنّ إسحق قد ورث عن أبيه الكذب فإذا به يقول لأبيمالك، ملك الفلسطينيين، بأنّ رِفقة هي أخته «لأنّه خاف أن يقول امرأتي لعلّ أهل المكان يقتلونني من أجل رِفقة لأنّها كانت حسنة المنظر» (تكوين 26: 7). القصة ذاتها تتكرر لكنّ المحرر شاء هذه المرة أن يغيّر بالتفاصيل، فلم يطلبها أبيمالك من إسحق وإنّما رآها بعد أيام من الكوة فإذا بإسحق يداعبها فعلم أنّها زوجته، فحذّر الناس بأنّ لا يمسّها أحد بسوء ولا حتى زوجها.

«وزرع إسحق في تلك الأرض فأصاب في تلك السنة مئة ضعف وباركه الرب» (تكوين 26: 12). والأرض هذه هي أرض جرار، أي أرض أبيمالك ملك الفلسطينيين، فكيف آلت الأرض إلى إسحق، وماذا زرع فيها فعاد الزرع إليه مئة ضعف؟ لا يخبرنا المحرر بشيء سوى أنّ الربّ كان يكلّم إسحق ويرشده إلى مصيره ويباركه لذلك: «تعاظم الرجل وكان يتزايد في التعاظم حتى صار عظيماً جداً. فكان له مواشٍ من الغنم ومواشٍ من البقر وعبيد كثيرون. فحسده الفلسطينيون. وجميع الآبار التي حفرها عبيد أبيه في أيّام إبراهيم أبيه طمّها الفلسطينيون وملأوها تراباً. وقال أبيمالك لإسحق اذهب من عندنا لأنّك أقوى منّا جدًّا. فمضى إسحق من هناك ونزل في وادي جرار وأقام هناك» (تكوين 26: 13-17).

كيف يمكننا أن نصدّق تلفيقات المحرر هذه؟ كيف يمكن لأبيمالك أن يطرد إسحق وهو الذي كان قد أعطى إبراهيم «غنماً وبقراً وعبيداً وإماءً... وقال أبيمالك هوذا أرضي قدّامك. اسكن في ما حسن في عينيك» (تكوين 20: 15). هل يمكن لملك هذه صفاته أن يتغير فجأة فيحسد إسحق لأنّه أصبح ذا شأن عظيم؟ والفلسطينيون الذين رحّبوا بإبراهيم منذ وصوله إلى أرض كنعان، ورفضوا أن يبيعوه أرضاً ليجعلها قبراً لزوجته ساره، واعتبروه واحداً منهم فباركه ملكي صادق الكاهن العلي، هل يمكن أن ينقلبوا فجأة إلى حاسدين لإسحق لأنّه أصبح ذا شأن؟ ألا يؤكد لنا تكرار الأحداث وتصويرها بالعبارات ذاتها عن خيال قصصي ساذج، ركيك، بعيد عن الواقع؟ ألم يكن ذلك متعمداً لإيغال صدور هؤلاء الوافدين على أرض كنعان ضد الفلسطينيين لكي يبرر فيما بعد حروبهم الوهمية وانتصاراتهم الدونكيشوتية على الفلسطينيين؟

وإذا كان الفلسطينيون قد طمّوا الآبار التي حفرها إبراهيم، وأبعد أبيمالك إسحق عن هذه الأرض «فمضى إسحق من هناك» فكيف «عاد إسحق ونبش آبار الماء التي حفروها في أيام إبراهيم أبيه وطمّها الفلسطينيون بعد موت أبيه؟ كان إسحق قد غادر الأرض التي تحتوي على هذه الآبار، والفلسطينيون، وكما ذكر المحرّر سابقاً، لم يقوموا بطمّها بعد موت إبراهيم كما ذكر لاحقاً، وإنّما تركوها ولم يجرِ طمّها إلاّ بعدما حسدوا إسحق على ما وصل إليه من عظمة. إنّه الإرباك الذي رافق المحرر أو المحرِّرين في كلّ أسفار التوراة والذي أوقعه، أو أوقعهم، بالتناقض أحياناً كثيرة. وفي هذا

المجال يقول توماس طومسون: «وفيما يمكن للمرء أن يرى سيطرة كمية لهذا التصور أو ذاك في الروايات المتتابعة، فالنص النهائي وخاصة للأسفار التوراتية الأكبر يمثّل خليطاً متنافراً، إلى حد كبير، من اللاهوتيات والإيديولوجيات المتناقضة بحدة"(122). فطومسون، إضافة إلى إشارته إلى التناقض قد أكّد أنّ هذه الأسفار ليست تاريخاً ولا هي حقائق لا يرقى إليها الشك، بل هي أفكار أيديولوجية لاهوتية لا يمكن بأيّ شكل إسباغ صفة القداسة والألوهية عليها.

ويتحفنا الكاتب بسلسلة من محاولات إسحق لحفر الآبار وتسميتها وفشله لأنّ رعاة جرار خاصموه عليها. حتى كان أن «ظهر له الربّ في تلك الليلة وقال أنا إله إبراهيم أبيك» (تكوين 26: 24). فلماذا لم يقل الربّ: أنا إله الكون، إله السموات والأرض، إله كلّ البشر والمخلوقات؟ وعندما يقول أنا إله إبراهيم، فهو بذلك أفسح المجال أمام كلّ إنسان، وليس فقط كلّ شعب، أن يكون له إله، وهذا يدعونا مجدًّدا للتأكيد على أنّ الإسرائيليين لم يعرفوا التوحيد، وإنْ هم عرفوه فإنّما تأثّرا بغيرهم من شعوب سورية أو مصر، حيث كانوا يعودون دائماً إلى عبادة الأصنام حتى بعدما تعرّفوا إلى يهوه واتخذوه إلهاً خاصاً بهم وجعلوه يتبنّاهم كشعبه المختار.

ولن نقف عند كلّ حادثة، بل سنحاول التوقف عند المفاصل الأساسية التي تركت بصمةً ما على مسار الأسطورة. فها هو الكاتب مرة أخرى يختلق سبباً لتفضيل يعقوب على عيسو من قِبَل أبويه، فيجعله يتزوج من امرأتين حثّيتين «فكانتا مرارة نفس لإسحق ورفقة» (تكوين 26: 25). وبالرغم من ذلك بقي إسحق يؤثر ابنه عيسو على يعقوب، ولم يكن هذا ليروق لرفقة فتآمرت مع يعقوب على خداع زوجها إسحق الذي «شاخ وكلّت عيناه عن النظر» (تكوين 27: 1). ونجحت الحيلة وبارك إسحق يعقوب ظاناً أنّه عيسو، علماً أنّ يعقوب لم يكن بحاجة إلى كلّ هذا الخداع لأنّه سبق واشترى بكورية أخيه عيسو. وحسناً فعل الكاتب بإظهار نفسية هؤلاء الناس الماكرة، دون قصد منه، وهذا ما اعترف به إسحق لعيسو قائلاً: «قد جاء أخوك بمكرٍ وأخذ بركتك» (تكوين 27: 25). فصرخ عيسو «صرخة عظيمة ومُرّة جداً. وقال لأبيه باركني أنا أيضاً يا أبي» (تكوين 27: 24).

ومن حقنا أن نتساءل: لماذا لم يبارك إسحق ابنه الثاني أيضاً؟ وما الفرق، وهما توأمان، أن يكون أحدهما قد أقبل على الحياة بفارق ثوانٍ معدودات؟ خاصة أنّ المحرّر لم يقدّم لهذا الحدث بأيّة معلومة تفيد بأنّ البكر فقط ينال البركة. أمّا من يتتبّع هذه الأسطورة فيدرك غاية المحرّر من وراء ذلك، وهي حصر نسب الإسرائيليين بواحد فقط يتسلسل من ذرية نوح إنْ لم نقل ذرية آدم. إنّها هلوسة ما بعدها هلوسة، ومكر ما بعده مكر، ومؤامرة شيطانية تمّ حَبك خيوطها لتظهر مُحكَمة إنْ نُظر إليها بعين المؤمن الذي يسلّم بحرفية الكتاب، أمّا بالنسبة إلى من ينظر إليها بعين العقل فلا بدّ من أنْ يراها على حقيقتها، أي قصصاً خيالية لا ترقى حتى إلى مصاف الأدب الإنساني. وفي هذا الصدد يقول توماس طومسون: «قوائم السلالات وقصص الأنساب تبرز، مثل النصوص العديدة الموسومة بالنزعة المنحازة والدعائية بوضوح كبير، أو يمكن اعتبارها كتزوير شفاف»(123).

وقبل نهاية الإصحاح السابع والعشرين وإسدال الستارة على هذه المسرحية يروي المحرر أنّ عيسو حقد على يعقوب: «وقال عيسو في قلبه قرُبت أيام مناحة أبي. فأقتل يعقوب أخي. فأخبرت رفقة بكلام عيسو ابنها الأكبر» (تكوين 27: 41). فإذا كان عيسو قد قال هذا الكلام في قلبه، فمن علِم به لكي يُخبر رِفقة؟ أليس هذا الكلام تسخيفاً لعقول الناس ومداركهم؟ ونصل إلى النتيجة التي أرادها الكاتب

عندما يقول على لسان رِفقة التي أبلغت إسحق أن: «مللت حياتي من أجل بنات حث. إن كان يعقوب يأخذ زوجة من بنات حثَ مثل هؤلاء من بنات الأرض فلماذا لي حياة» (تكوين 27: 46).

قالت هذا بعد أن خطّطت ليعقوب هربه إلى ديار أخيها لابان متمنية أن يلتقي بفتاة من عشيرتها لتكون له زوجة، فتكون قد ضربت عصفورين بحجر واحد: حققت ليعقوب الأمان بهربه من وجه أخيه، ومنحه الفرصة للزواج من بنات آرام بدلاً من وقوعه بغرام إحدى الحثيات كما أراد المحرّر لعيسو أن يفعل، وكان لها ذلك.

ونتابع رحلتنا مع ذريّة إبراهيم التي لم تحد عن المسار الذي رسمه لها الأب الأول. فهذا هو إسحق يبارك يعقوب ويوصيه بألاّ يأخذ زوجة له من بنات كنعان، ويؤكد له ما كانت رِفقة أمه قد خطّطت له، أي الذهاب إلى فدّان أرام ليأخذ زوجة له من بنات لابان خاله.

ومع يعقوب يتغيّر أسلوب المحرّر، فبدلاً من جعل الله يكلّم يعقوب مباشرة ليؤكد له الوعد والعهد، جعل المحرّر يعقوب يرى الله خلال حلمه واقفاً على سلّم «منصوبة على الأرض ورأسها يمسّ السماء» (تكوين 28: 12)، فيكلمه الرب وهو يحلم، فيعيد عليه الكلام ذاته الذي أعاده على مسامع إبراهيم أكثر من مرة، وكذلك على مسامع إسحق، وخلاصته أنّ الله سيعطيه الأرض، ويكثّر نسله الذي سيتمدد في كلّ الاتجاهات، ويكون مباركاً ليس وحده وإنّما جميع قبائل الأرض. وما أن يستيقظ يعقوب من نومه حتى يكلّم نفسه قائلاً: بأنّ «الربّ في هذا المكان وأنا لم أعلم. وخاف وقال ما أرهب هذا المكان. ما هذا إلاّ بيت الله وهذا باب السماء» (تكوين 28: 16).

فإذا كان الله قد بارك جميع الأمم بسبب إبراهيم ومن بعده إسحق ويعقوب، فلماذا إذن سلّط بني إسرائيل على سكان كنعان، ولماذا أمرهم بإبادتهم، وبعدم الزواج منهم، وعدم إقامة أية عهود معهم؟ ونفهم أيضاً أنّ يعقوب هذا، الذي باركه أبوه إسحق، لم يكن يؤمن بالله حتى تراءى له في المنام، وحتى حينها لم يدرك المفهوم الحقيقي لله، من هنا قال بأنّ الربّ في هذا المكان، وكأنّه ليس موجوداً في مكان آخر، وبأنّ هذا المكان هو بيت الله وهذا باب السماء، وكأنّ الله بحاجة إلى بيت محدد والسماء بحاجة إلى باب؟ أليس هذا التفكير بدائياً ساذجاً إذا ما قارنّاه بأقوال الموحّدين الحقيقيين، فإذا ما قرأنا ما تبقّى لنا من أفكار أخناتون التوحيدية، والتي أسماها الدارسون تراتيل، لوجدنا الفرق واضحاً بين تقييد الإله بشخص واحد، ثم بشعب واحد، وحصره أيضاً في مكان واحد كما هو وارد في التوراة، وبين هذه التراتيل التي ترى الله جمالاً يملأ الكون، وأشعة دافئة تحتضن كلّ المخلوقات، ومحبة صافية تغمر كلّ شعوب الأرض. نحيل القارئ إلى ترتيلتين باقيتين أثبتهما فراس السواح في كتابه «مدخل إلى نصوص الشرق القديم» نقتطف منهما بضعة أسطر. فمن الترتيلة الأولى نقرأ:

كم هو جميل شروقك في أفق السماء،

أي آتون الحي، مبتدأ الحياة.

عندما تظهر في الأفق الشرقي

يملأ جمالك كلّ قطر،

أنتِ فاتن وعظيم ومتألّق ومطلّ من علاليك على كلّ أرض.

وكل المخلوقات بين يديك تطوّقهم بمحبتك...

أنت خالق الخصوبة في المرأة، وصانع بذور الرجل،

أنت من يعطي الحياة للجنين في رحم أمّه...

ما أكثر صنائعك يا ربّ، إنّها خافية علينا.

أيها الإله الواحد الذي لا مثيل له.

ومن الترتيلة الثانية نقرأ:

إنّك تشرق بجلال يا آتون الحي، ربّ الأبدية

كم أنت متألّق وعظيم وجميل،

وكم هو حبك واسع وعميم.

أنت الذي صنع نفسه وصنع كلّ الأصقاع،

وخلق كلّ ما عليها...

جمالك ينعش كلّ قلب، جمالك حياة...

إنّك واحد، ومخلوقاتك التي تمدّها بالحياة لا تُحصى.

هذا هو التوحيد الحقيقي الذي لا يجد فيه المؤمن رعباً، ولا خوفاً، ولا تهديداً، ولا انتقاماً، ولا دعوة لإلغاء الآخر، بل محبة وجمالاً وخيراً وحقاً يشمل الكلّ ويغمر الكون على اتّساعه اللامتناهي. وأخناتون، كما سبق وأشرنا، كان قد أخذ التوحيد عن شعوب سورية القديمة.

ثم يُكمل الكاتب قصته عن يعقوب فيقول: «ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل» (تكوين 28: 19). ألا يفسّر لنا هذا الكلام أنّ السومريين والبابليين والكنعانيين، سكان سورية القدماء، كانوا يعبدون إلهاً واحداً هو إيل، قبل وصول إبراهيم إليهم، وأنّ ملكي صادق، ملك شاليم، الذي «كان كاهناً لله العلي» (تكوين 14: 18)، هو أقدم من آمن بالله الواحد؟ ألا يعني ذلك أيضاً أنّ إبراهيم أخذ التوحيد عنهم، لكنّ كاتب التوراة جعله يُشرك عندما خصّه بإله، وخصّ هذا الإله بشعب مختار لا علاقة لبقية الناس به؟ ألا يُعتبر هذا تراجعاً إلى الوراء بدلاً من إكمال ما بدأته الحضارات القديمة من بناء المدماك الأول لأسس صرح الإيمان الإنساني التوحيدي؟ وكم هو الفارق عظيم بين تفكير كلّ من إبراهيم وإسحق ويعقوب الذين كان الشك بالله ملازماً لهم وبين قول بولس الرسول في رسالته إلى يعقوب: «الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب هي هذه افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم». إذن الإيمان الحقيقي يكمن بالأفعال والممارسة وليس بالطقوس، لذلك يقول بولس الرسول في الرسالة نفسها: «ولكن هل تريد أن تعلم أيّها الإنسانُ الباطلُ أنّ الإيمان بدون أعمال ميّت».

واستناداً إلى هذا المفهوم الراقي للإيمان كيف يمكن أن نفهم كلام يعقوب الذي وضع شرطاً لكي يصبح الربّ إلهاً له؟ فيقول في الإصحاح (تكوين 28: 20) «ونذر يعقوب نذراً قائلاً إن كان الله معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه وأعطاني خبزاً لآكل وثياباً لألبس ورجعت بسلام إلى بيت أبي أن يكون الربّ لي إلهاً. وهذا الحجر الذي أقمته عموداً يكون بيت الله...». إذن لو لم يجعل الكاتب الله يعتني بيعقوب ويعيده سالماً إلى دياره، لكنّا شهدنا من يعقوب حركة عصيان وإنكار لله. ويعقوب بقوله: «وهذا الحجر... يكون بيت الله»، إنّما يتصرف كتصرّف الوثنيين ويقصّر بإدراك جوهر الله الحقيقي.

إن جوهر الله كان أسمى بكثير بنظر سكان سورية الطبيعية القدماء من نظرة الإسرائيليين إليه، فالإسرائيليون جعلوه إله حرب، ربّ الجنود، ويتقدمهم خلال معاركهم، بل هو ينوب عنهم بإبادة أعدائهم. أمّا بالنسبة إلى الشعوب السورية فقد كان الله أو السيد العالي «في مفهومهم أباً للإنسان رؤوفاً رحوما، وأمًّا عطوفاً تفعل الخير وتتصح به. كان انتصاراً لروح الإنسان على المادية البحتة، وتكريساً لفكرة الخير والبركة التي أراد لها الإنسان القديم في سوريا الطبيعية أن تعمّ وتنتشر... وإنّما جعلوا منه قيمة روحية وأخلاقية سمت بالإنسان الذي آمن به. وسمت بفكرة الألوهة التي احتضنها ذلك الإنسان»(124). وباختصار فإن إله الشعوب السورية كان «مسكوناً بهاجس أخلاقي» أمّا إله الإسرائيليين فقد كان مسكوناً بالحقد الأعمى وبالغضب وحب الانتقام، وهذه صفات لا يمكن وفقاً لأي تبرير أن تلصق بالله.

ونُكمل الرحلة مع يعقوب الذي رأى راحيل ابنة لابان فأعجبته، «وأخبر يعقوب راحيل أنّه أخو أبيها... فكان حين سمع لابان خبر يعقوب ابن أخته...» (تكوين 29: 12)، ففي هاتين الجملتين المتتاليتين تناقض رهيب، ففي الأولى نعلم أنّ يعقوب هو شقيق للابان والد راحيل، وهذا يعني أنّه عمّها، أما في الجملة الثانية فنعلم أنّه ابن أخت لابان وهذا يعني أنّه ابن عمّتها. وهذا التناقض موجود بكثرة في أسفار التوراة جميعها، وسيكون لنا عودة مفصّلة إلى هذا الموضوع. وهذا التناقض أشار إليه أكثر من دارس وباحث، حيث أشرنا إلى قول في هذا المجال لتوماس ل. طومسون.

ولمّا كانت نفسية المحرّر تنطوي على الخديعة والكذب، فقد جاءت قصصه مليئة بهاتين النقيصتين، بدلاً من أن ترتكز كتاباته على الفضائل، فما بالنا مع الذين لا يزالون يعتقدون أنّ هذا كلام الله، ألا يحق لنا أن نسأل: وهل يمكن أن يكون الله كاذباً ومخادعاً؟ ألا تكشف لنا هذه القصص زيف الادّعاء بقداستها وبضرورة السعي إلى تفنيدها، وإلاّ يكون إيماننا ناقصاً؟ أما هاتان النقيصتان اللتان لمسناهما من خلال تصرّف إبراهيم وإسحق عندما كذبا بشأن زوجتيهما بغية خداع من رحّب بهما وأحسن وفادتهما ليكون لهما خير بسببهما، فيضعهما بتصرف لابان مع ابن أخته يعقوب الذي أحب راحيل صغرى لابان. ولما كانت ابنة لابان الكبرى تعاني من مرض في عينيها، احتال لابان ودفعها ليلاً إلى يعقوب قائلاً إنّها راحيل، مشترطاً على يعقوب أن يعمل لديه سبع سنين مجاناً. إنّها عملية بيع إذن تظهر مدى القيمة التي تعطيها التوراة للمرأة. وبعد أن اكتشف يعقوب الخديعة يقول للابان: «ما هذا الذي صنعت بي. أليس براحيل خدمت عندك. فلماذا خدعتني. فقال لابان لا يُفعل هكذا في مكاننا أن نعطي الصغيرة قبل البكر» (تكوين 29: 25). فإذا كانت تلك عادة هؤلاء القوم، فلماذا لم يصارح

يعقوب بذلك منذ البداية؟ والجواب بسيط، إنّها، إلى جانب الخداع والكذب، نفسية الاستغلال التي لا تزال تسيطر على اليهود حتى أيامنا هذه.

وما يثير السخرية هو الحل الذي ابتدعه لابان إذ قال ليعقوب: «أكمل أسبوع هذه فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة التي تخدمني أيضاً سبع سنين أخر». فأيّ والد يفعل ذلك بابنتيه؟ ألا يعيدنا ذلك إلى ما قلناه سابقاً عن التوراة بأنّها لا تتضمن أيّة دروس أخلاقية تدعو للتشبّث بالفضائل الإنسانية والابتعاد عن الفواحش؟ ويجاري يعقوب خاله ويعمل عنده سبع سنوات أخر، ودون سبب يرى «الربّ أنّ ليئة مكروهة ففتح رحمها. وأمّا راحيل فكانت عاقراً» (تكوين 29: 31). لأيّة أسباب رأى الربّ ليئة مكروهة؟ وهل كره الناس لها مبرر لفتح رحمها وإغلاق رحم أختها؟ لم يكن برأيي هناك من سبب إلاّ أنّ الكاتب، وليس الله، أراد أن تكون ليئة أمًّا لأربعة من أسباط إسرائيل هم رأوبين، شمعون، لاوي ويهوذا. وتتكرر بين يعقوب وراحيل القصة ذاتها التي حصلت بين إبراهيم وساره العاقر والتي أعطت جاريتها هاجر لإبراهيم كي تلد له، فإذا براحيل التي غارت من أختها تعطي جاريتها بلهة ليعقوب فتلد له ذكراً «فقالت راحيل قد قضى لي الله وسمع أيضاً لصوتي وأعطاني ابناً. لذلك دعت اسمه داناً» (تكوين 30: 6). وولدت بلهة ليعقوب ذكراً آخر «فقالت راحيل مصارعات الله قد صارعت أختي وغلبت. فدعت اسمه نفتالي» (تكوين 30: 8). فما هو المعنى والمغزى من هذه التسميات التي تكثر في هذا السفر والتي لا تنطوي على أي معنى؟ ثم ما المغزى من تكرار الحدث ذاته في أكثر من قصة؟ أليس هذا بدليل كافٍ على تدني مستوى السبك الأدبي يُوجَّه لمن أراد من الدارسين إسباغ صفة الأدب الراقي على هذه الأسفار وإخراجها من باب التاريخ؟

ويشير توماس طومسون إلى التكرار ويعتبره «تكراراً يفتقر إلى الذكاء»(125). ثم يذكر لنا الكاتب أنّ ليئة التي توقفت عن الولادة قد دفعت بجاريتها زلفة إلى يعقوب والتي ولدت له ذكرين أيضاً وذكرت أسباباً غير منطقية كالعادة فأسمتهما جاداً وأشَير. ثم تحبل ليئة مجدداً وتنجب ذكرين وتتفنّن باختلاق مبرر تسميتهما يسّاكر وزبولون. وتتدخل الآلهة كما فعلت مع ساره: «ذكر الله رحيل وسمع لها الله وفتح رحمها. فحبلت وولدت ابناً. فقالت قد نزع الله عاري. ودعت اسمه يوسف قائلة يزيدني الربّ ابناً آخر». وبهذا يصبح أولاد يعقوب من زوجتيه الأختين ومن جاريتيهما إثنا عشر ذكراً هم الذين سيصبحون أسباط إسرائيل.

وإذا تابع القارئ أحداث الإصحاح الثلاثين من سفر التكوين لأخذه العجب من استمرار الخداع، ولكن هذه المرة يقوم به يعقوب لكي يستولي على قطعان خاله ووالد زوجتيه، فجعل الغنم تتوحّم كالنساء على قضبان من خشب اللوز والدلب فيتغيّر لون صوفها. وهدف الكاتب من وراء كلّ ذلك أن يجعل من يعقوب رجلاً موفور الثروة قبل عودته إلى ديار أبيه. ويكمل يعقوب خداعه فيطلب من زوجتيه الهرب معه وهكذا فعلتا، وقامت راحيل بسرقة أصنام أبيها. ولن أتوقف عند تفاصيل هذه القصة لسخافتها، ولكن عليّ أن أشير إلى ما ورد في نهاية الإصحاح الحادي والثلاثين حيث يختتم المحرر الخلاف بين لابان ويعقوب بعهد قائلاً: «إله إبراهيم وآلهة ناحور آلهة أبيهما يقضون بيننا» (تكوين 31: 53). فإبراهيم هو جد يعقوب وهو عم لابان ابن ناحور، فإن كان قد توصل فعلاً إلى عبادة إله واحد فلماذا حصر عبادته بذريته فقط ولم ينقلها أيضاً إلى ذرية أخيه؟ أليس من واجب الأنبياء، في ذلك الوقت، دعوة كلّ البشر إلى ترك عبادة الأصنام والانتقال إلى عبادة الله الواحد خالق هذا الكون

وكل ما عليه؟ أم أنّ الكاتب، وكما أشرنا سابقاً، أراد لإبراهيم وذريته فقط التنعم بقدرة هذا الإله الذي سيسير أمامهم لقتل أعدائهم وإبادتهم وتهجيرهم؟ ألم يقل السيد المسيح لتلاميذه «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلّها» (مرقس 16: 15). ألم تُتوَج آيات قرآنية كثيرة بـ«يا أيّها المؤمنون» دون أن تكون موجّهة لشعب أو لعرق أو لفئة من الناس دون الآخرين؟ وأيّ فضل يكون لرسول إن هو فقط توجّه بدعوته لعبادة الله الواحد إلى قومه فقط؟ فاعتبرهم الأحق بهذه الدعوة، المختارين لتلقيها مع ما يعني ذلك من حقوق مكتسبة يُسبغها عليهم ربّ الدعوة ويمنعها عن غيرهم؟

ومع بداية الإصحاح الثاني والثلاثين يطلب منّا المحرر أن نصدّق ونؤمن دون جدال بأنّ ملائكة الله قد لاقت يعقوب العائد مع زوجته وقطعان غنمه، وأنّ يعقوب قد قال لنفسه: »... هذا جيش الله» (تكوين 32: 2). فإنْ سلّمنا جدلاً بالملائكة وتجسدها أمام البشر، فكيف يمكن لها أن تتجسد أمام من يعلمون بأنّه مخادع؟ ولماذا قال يعقوب: «هذا جيش الله؟ ألا يدعونا ذلك للتفكير بنيّة محرر التوراة التي تجلت في الأسفار التالية بجعل الله «رباً للجنود»، وبهذا تكون الملائكة «جيشاً لله» يسيّره حسبما يشاء، أو حسب إرادة المحرر، التي تبدت لنا من خلال الأسفار إرادة إرهابية، لا همّ لها سوى الإحاطة ببني إسرائيل والسير أمامهم للقضاء على أعدائهم، هذا بالرغم من كلّ السيئات التي كانوا يرتكبونها: «اذكر لا تنسَ كيف أسخطت الربّ إلهك في البرية. من اليوم الذي خرجت فيه من أرض مصر حتى أتيتم إلى هذا المكان كنتم تقاومون الربّ» (تثنية 9: 7).

فإذا كانت أعمالهم السيئة قد جلبت عليهم سخط الرب، ألا يحق لنا أن نتساءل عن سبب استمرار هذا «الربّ» بالوقوف إلى جانب هذا الشعب الذي استمر بمقاومة الربّ، أي وصايا الربّ؟ ألا يحق لنا أن نتساءل عن تمييز هذا «الربّ» بين شعب وشعب، طالما أنّه إله الكون والمخلوقات، ولماذا إذا أخطأ شعبه المختار استمر بغفران ذنوبه، أمّا إذا أخطأت الشعوب الأخرى، والتي لم تُعرَف ما هي أخطاؤها، فمصيرها يجب أن يكون الإبادة؟ كيف تفهم عزيزي المؤمن ما قاله موسى: «اسمع يا إسرائيل. أنت اليوم عابر الأردُنّ لكي تدخل وتمتلك شعوباً أكبر وأعظم منك ومدناً عظيمة ومحصّنة إلى السماء. قوماً عظاماً وطوالاً بني عَناق الذين عرفتهم وسمعت من يقف في وجه بني عناق. فاعلم اليوم أنّ الربّ إلهك هو العابر أمامك ناراً آكلة. هو يبيدهم ويُذلّهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعاً كما كلّمك الربّ» (تثنية 9: 1). هل يتقبّل عقلك أن يتحوّل الرب إلى نار آكلة وإلى آلة إبادة، بدل أن يكون فيضاً من المحبة والمغفرة؟

وبالعودة إلى يعقوب فإنّنا نجده يحتال مجدداً فيجمع الهدايا كي يقدّمها لأخيه علّه يغفر خديعته له يوم استولى على بكوريته وبركة أبيه وهي حق للبكر!! أمّا ما جرى في آخر هذا الإصحاح مع يعقوب فهو من أغرب الغرائب، إذ «بقي يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنّه لا يقدر عليه ضرب حُقّ فخذه. فانخلع حُقّ فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال أطلقني لأنّه قد طلع الفجر. فقال لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له ما اسمك. فقال يعقوب. فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل. لأنّك جاهدت مع الله والناس وقدرت» (تكوين 32: 24)... لن نمرّ على هذا الكلام مرور الكرام، ولا حتى مرور السذّج، إذ يتبيّن لنا أنّ هذا الإنسان الذي صارعه يعقوب ليس سوى الله. فلماذا يتجسد الله إنساناً ليصارع يعقوب الذي كان قد باركه وهداه؟ وإذا كان هذا الإنسان هو الله متجسداً فكيف لم يقدر على غلبة يعقوب؟ وإذا كان يعقوب لم يعلم بأنّ هذا الإنسان الذي

يصارعه هو الله، فلماذا قال له لا أطلقك إن لم تباركني؟ وما حاجته لبركة من إنسان مثله إذا كان قد حصل على بركة الله؟ وما هو السبب الذي دعا الله إلى تغيير اسم يعقوب إلى إسرائيل؟ أسئلة يمكن لأيّ قارئ أن يطرحها إنْ هو أفسح للعقل المجال كي يتمعّن بهذه القصص ويصغي إلى بولس الرسول ينبّه الناس أن «يكونوا أصحّاء في الإيمان لا يُصغون إلى خرافات يهودية ووصايا أناس مرتدّين عن الحق» (من رسالة بولس إلى تيطس). أليس اختراع هذه القصة سبباً لبعث بني إسرائيل إلى الوجود؟ وماذا كان يُضير المحرّر أن يدعوهم يعاقبة نسبة إلى يعقوب كما تساءلنا سابقاً؟ ألا يعني هذا أنّ جماعة تواجدت على أرض كنعان قبل فترة السبي، عرفت باسم الإسرائيليين، فأتى محرّر التوراة بهذه الأساطير بدءاً من آدم وصولاً إلى يعقوب ليخترع لهم نسباً يعيدهم من خلاله إلى الإنسان الأول، ويخترع لهم شخصيات وهمية يسبغ عليها صفات النبوة، ويجعل من الله حارساً دائماً لها، يقوم بمباركتها بالرغم من كلّ أفعالها المشينة؟

ويقول توماس طومسون: «الفكرة المتكررة عن هداية الله لإسرائيل وقيامه بدور نشط في الحوادث التاريخية وسيطرته على تاريخ العالم، لم تكن في أي حال فكرة خاصة بإسرائيل، لأنّها وصف نموذجي للعمل الإلهي وُجد في السجلات التاريخية في كلّ أرجاء الشرق الأدنى القديم، كما كانت فكرة سائدة في الأدب منذ الحقبة الأشورية، وبعدها»(126) ويضيف: «لسوء الحظ، دراسات الأسفار الخمسة الأولى والنقد الأدبي شبه التاريخي عامة، لم تصل بعد إلى نقطة تمكننا من إعادة بناء التاريخ من المرويات مباشرة... وبمعزل عن المرويات التوراتية لم توجد إسرائيل هذه أبداً كحقيقة تاريخية قابلة للبحث والحكم التاريخي المستقل»، لأنّ «القصص الواردة ضمن هذه المرويات الواسعة، تحمل بصورة عامة سمة «القصص التقليدي» الذي يقف بعيداً عن التأريخ والتاريخ». وكان قد أكّد على عدم جواز اعتبار المرويات التوراتية ذات جذور تاريخية «على أساس الوضع الحالي للدراسات والأبحاث، معظم الأطر القانونية والمنقّحة لقصص المرويات التوراتية، لا يمكن أن تجتاز أي فحص تاريخي دقيق»(127).

وبالعودة إلى صراع يعقوب مع الله الذي انتهى بأنّ غيّر الله اسم يعقوب إلى إسرائيل فإنّنا نقرأ تفسيراً لهذا التغيير من المحرّر الذي يقول: «لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل. لأنّك جاهدت مع الله والناس وقدرت» (تكوين 32: 28). وفعل جاهد كما فهمه جورجي كنعان من سياق القصة يعني صارع، لأنّ يعقوب كان يصارع الله، أمّا المعنى الحقيقي بالنسبة إليه فيفسّره قائلاً «وكما ظل مفهوم «العالي» (إيل – الله) مُكتنفاً بالغموض والإبهام في الذهن الإسرائيلي، كذلك ظلت الأسماء التي تدخل في تركيبتها صفة «إيل» غامضة مبهمة في أذهانهم أيضاً. فالاسم المركّب «إسرائيل» (ييسّر الله أو الله ييسّر) كان شائعاً في سوريا الجنوبية مثل هب إيل (يعطي الله). ولكن الحَبر المحرّر لم يقف لضحالة وعيه وانغلاق فكره، على معنى الاسم، فأعطاه معنى يجاهد الله أي يصارعه»(128).

وأنا أرى أنّ السبب الذي دفع بالمحرّر إلى تحوير معنى الاسم يعود إلى مؤامرته على اللغة البابلية السائدة في ذلك الوقت، ومحاولته إظهار بعض الكلمات وكأنّها إنتاج العبقرية الإسرائيلية. ولقد فشل بذلك لأنّ من يراجع الأمثلة التي أثبتها جورجي كنعان في كتابه يدرك هذه الحقيقة، إذ يردف قائلاً: «أمّا اسم المكان الذي تمت فيه جولة المصارعة، فدعاه يعقوب، على زعم المحرّر، «فنيئيل» قائلاً لأنّي نظرت الله وجهاً لوجه. فـ «فنيئيل» باعتباره تعني وجه الله. بينما هو في الحقيقة يعني منعطف

أو ركن أو مفترق إيل». ثم يورد العديد من الكلمات التي حوّرها محرّر التوراة عن أصلها البابلي أو الكنعاني والتي تدخل في تركيبتها صفة «إيل». ويقدّم جورجي كنعان لنا ثبتاً آخر بالعديد من الكلمات التي تدخل في تركيبها صفة «إيل» مرجعاً ذلك إلى «أنّ الإنسان القديم في سوريا الطبيعية وفي العربيتين الشمالية والجنوبية، أكّد منذ عهد مبكّر في تاريخ نضجه الروحي والفكري على العلاقة الوطيدة بين مفهوم «السيد» «العالي» – الله وبين القيم الأخلاقية»(129). وعلى سبيل المثال لا الحصر نورد بعض هذه الكلمات ومعانيها: عزّ إيل (يعزّز الله)، عون إيل (يبهج الله)، رام إيل (يعلي الله)، حصر إيل (يحفظ الله) ومنها اسم بلده حصرايل اللبنانية، سعد إيل (يساعد الله) ومنها اسم بلدة سعدنايل، قرن إيل (مجد الله)، ومنها اسم بلدة قرنايل لا كما تعلمناها في كتب التاريخ (قرن المال)، عزر إيل (يساعد الله) حوّلها محرّر التوراة إلى عزرائيل أي الموت أو خاطف الأرواح، عمانوئيل (الله معنا)، «والمسيح (يسوع الناصري) دُعي عمانوئيل الذي يعني الله معنا».

أما تفسير التوراة فنقرأه في الإصحاح 32 من سفر التكوين: «فقال لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل. لأنّك جاهدت مع الله والناس وقدرت». فإسرائيل بمفهوم التوراة هو المجاهد مع الله. وأما جرجي كنعان فيقول عن هذا الاسم المركّب إسرائيل بأنّه يعني «ييسّر الله وقد كان شائعاً في سوريا الجنوبية مثل هب إيل (يعطي الله)». ثم ينتقد محرّر التوراة قائلاً إنّه «لم يقف لضحالة وعيه وانغلاق فكره، على معنى الاسم، فأعطاه معنى يجاهد الله أي يصارعه». وفي المنجد، وتفسيراً لمعنى إسرائيل نقرأ: معناه بالعبرية رجل الله، فالمعنى صحيح ولكن نسبة هذه الكلمة إلى اللغة العبرية خطأ، فأولاً عندما غيّر إله التوراة اسم يعقوب إلى إسرائيل لم تكن اللغة العبرية قد وُجدت بعد، وثانياً لأنّ إيل هو إله شعوب الهلال السوري الخصيب حيث كان الناس يتسمون باسمه زائد صفة ما، والأمثلة على ذلك كثيرة.

يبقى أن نشير، قبل أن نكمل رحلتنا مع الإصحاح الثالث والثلاثين، إلى الجملة التي يقول فيها يعقوب: «لأنّي نظرت الله وجهاً لوجه» (تكوين 32: 30)، لنتساءل إنْ كان قد شعر أحد من المؤمنين بشيء من الشك حول إمكانية أن يرى أحد من البشر الله، أو أن يقابله وجهاً لوجه؟ أهو استغباء لقدرات الناس العقلية، أم هو إسفاف بالسرد القصصي؟ إنّه في الواقع لا هذا ولا ذاك، بل هو من مقتضيات السرد الأسطوري الذي درج عليه القدماء وجعلوا الآلهة تتدخل بشؤونهم الحياتية اليومية. ومحرّر التوراة، المتأثر بالأدب السومري والبابلي، نسج على وتيرة الأساطير التي وصلنا بعضها وأثبتناه في أكثر من صفحة، مما يثبت بما لا يقبل الشك أنّ كلّ هذه المرويات لا تمت إلى الحقيقة بصلة، ولا تتضمّن أي معنىً لاهوتي أو ديني سماوي مقدّس كما يدّعون.

على ما ورد في الإصحاح 33 لنا ملاحظات عدة. الأولى قول المحرر بأنّ يعقوب رفع «عينيه ونظر وإذا عيسو مقبل ومعه أربع مئة رجل» فكيف عدّهم وهم ما زالوا بعيدين عنه. الثانية: من هم هؤلاء، أهم أولاد عيسو أم عبيده؟ لم يعلمنا المحرر بشيء. أما عن جيش الله الذي جلبه يعقوب معه، فنجد المحرّر يقدمه إلى عيسو على أنّه أولاد يعقوب من زوجتيه وجاريتيهما. أما لماذا هذا الجيش، فنجد الإجابة عند يعقوب: «لأجد نعمة في عينيّ سيدي». والثالثة الحجة التي قالها يعقوب لعيسو لكي لا يسير برفقته واعداً إياه أن يلحق به إلى سعير. فلماذا لم ينفّذ وعده بل ذهب إلى سكّوت. أما الرابعة فانتقاله إلى أمام مدينة شكيم وابتياعه قطعة الحقل «التي نصب فيها خيمته من يد بني حمور أبي شكيم

بمئة قسيطة. وأقام هناك مذبحاً ودعاه إيل إله إسرائيل». والخامسة أنّ إيل كان معروفاً لدى شعوب سورية القديمة على أنّه السيد العالي، إله الكون، وكانوا قد عرفوا التوحيد من خلاله، وهذا يعني أنّ يعقوب قد خرج عن دين جدّه إبراهيم واعتنق عبادة إيل، لكنّه اعتبره إلهاً خاصاً بإسرائيل، فوقع في الشرك مجدداً مما يؤكّد لنا مرة جديدة أنّ بني إسرائيل لم يعرفوا التوحيد أبداً.

أمّا الإصحاح الرابع والثلاثون فهو درس في المكر والخديعة، الصفتين اللتين لازمتا الشخصيات التوراتية، يضاف إليهما صفتا الإجرام والإرهاب، اللتان يمكن اعتبار ظهورهما بدءاً من هذا الإصحاح، مؤشراً على بدء تنفيذ بني إسرائيل لوصايا ربّهم الإرهابي. رأينا كيف استقر يعقوب بعد طول تنقل أمام مدينة شكيم، وها هو المحرّر يستكمل هذه القصة جاعلاً من شكيم ابن حمور الحِويّ رئيس الأرض يرى دينة ابنة ليئة ويعقوب فيضطجع معها ويُذلّها، ثم يجد نفسه متعلقاً بها فأحبّها ولاطفها وطلب من أبيه أن يكلّم يعقوب أباها لتكون زوجة له. وعندما علم بنو يعقوب غضبوا «لأنّه صنع قباحة في إسرائيل بمضاجعة ابنة يعقوب.. وهكذا لا يصنع» (تكوين 34: 7).

وفجأة تثور كرامة رجال يعقوب لفعل اشتركت فيه الفتاة لأنّ المحرر لم يقل إنّ شكيم ضاجعها مكرهة أي اغتصبها. وهذا يجعلنا نطرح جملة أسئلة: أين كان الشرف عندما سلّم إبراهيم زوجته مرتين: الأولى للفرعون والثانية لأبيمالك لكي يكون له خير من ورائها؟ وأين كان الشرف عندما فعل إسحق الفعلة ذاتها فسلّم زوجته لأبيمالك أيضاً، الذي توقف على ما يبدو عن التقدم بالسن، فاستطاع أن يدخل على زوجة الأب والابن، وذلك بعد زمن طويل لو لم تمنعه صدفة اكتشاف الخديعة؟ وأين كان الشرف عندما أسكرت ابنتا لوط أباهما واضطجعتا معه؟ هذا إن نحن اكتفينا بما قرأناه عن العلاقات الجنسية، أما إذا سحبنا مفهوم الشرف على كل تصرفات الإنسان اللاأخلاقية فلتعذّر علينا تعدادها في هذا الكتاب المليء بالأفعال المشينة.

وإذا ما تابعنا أحداث القصة لوجدنا أنّ حمور والد شكيم الذي طلب الفتاة من أهلها لتكون زوجة لابنه ، يتمتع بأخلاق عالية، إذ إنّه بهذا العمل يرفع المذلّة المزعومة عنها، عارضاً عليهم السكن فوق أرضه بل التملك والمتاجرة أيضاً، كما طلب إليهم أن يكثّروا المهر عليه شرط أن يعطوه الفتاة. «فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر وتكلّموا... فقالوا لهما لا نستطيع أن نفعل هذا الأمر أن نعطي أختنا لرجل أغلف. (شرط أخلاقي شريف). لأنّه عار لنا... إن صرتم مثلنا بختنكم كلّ ذكر نعطيكم بناتنا ونأخذ لنا بناتكم ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً» (تكوين 34: 13). حسناً فعل المؤلف بأن اعترف بمكر بني يعقوب، والمكر لا يعني فقط الدهاء بل هو يتضمن الكذب أيضاً. فأذعن حمور وشعبه لهذا الشرط وذلك فقط لتأكيد حب ابنه شكيم لدينة بنت يعقوب. وقبل أن نكمل القصة لا بد من أن نلفت نظر القارئ إلى أنّ المحرّر أطلق على يعقوب وأهل بيته لقب بني يعقوب ولم يقل بني إسرائيل بعد أن أبدل الله اسم يعقوب إلى إسرائيل. وهذا ما كنّا لفتنا النظر إليه سائلين عن مغزى هذا الإبدال.

ونتابع المحرّر ونقرأ: «فسمع لحمور وشكيم ابنه جميع الخارجين من باب المدينة. واختتن كلّ ذكر... فحدث في اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين أنّ ابني يعقوب شمعون ولاوي أخوي دينة أخذا كلّ واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كلّ ذكر. وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف... ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة. لأنّهم نجّسوا أختهم. غنمهم وبقرهم وحميرهم وكلّ ما في المدينة وما في

الحقل أخذوه. وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في البيوت» (تكوين 34: 24)...

لا بدّ لنا من التوقف عند هذا المقطع ففيه أولاً، وكما سبق أن قلت، بداية لممارسة الإرهاب المنظم المرتكز على مبدأ الخديعة. وثانياً فيه بداية للمبالغة التي تتصف بها قصص التوراة والتي سنفرد لها باباً خاصاً، إذ كيف يعقل لاثنين فقط أن يقتلا كلّ رجال المدينة حتى ولو كانوا يتوجعون بعد عملية الختان؟ وثالثاً استمرار بروز النفسية اليهودية المنطوية على أسوأ النقائص المتمثلة بالمكر والخداع والكذب والقتل والسرقة، لدرجة أنّ يعقوب ألصق صفة السرقة بالله إذ قال لزوجتيه: «فقد سلب الله مواشي أبيكما وأعطاني» (تكوين 31: 9). فماذا كان موقف يعقوب البار من عمل ولديه وجميع بني يعقوب؟ قال: «كدّرتماني بتكريهكما إيّاي عند سكان الأرض الكنعانيين والفِرزيين وأنا نفر قليل. فيجتمعون علي ويضربونني فأبيد أنا وبيتي» (34: 20). فماذا نفهم من هذا القول؟ لم يؤنّبهم على فعلتهم غير الأخلاقية؟ ولا على غدرهم ونكثهم بالوعد؟ أنّبهم فقط لخوفه من سوء المصير وهو نفر قليل، إذن هي المصلحة الخاصة التي تحكم أخلاقهم لا القيم الإنسانية، والقاريء الحصيف لا تأخذه الدهشة عندما تظهر له تباعاً أخلاق شخصيات التوراة التي يتفاخرون بأنّها كتاب الإنسانية الخالد. ففي كتابه «فضح الكتاب» اقتبس جورجي كنعان مقطعاً من كتاب ج. سميث God and Man in Early Israel وهذا نصه: «الواقع أنّ هذه الحوادث في حياة يعقوب، التي تعبّر عن طواياه السيئة ونواياه الخدّاعة وجشعه المطلق، وتسلّحه بالمكر والتلوّن، هي نماذج مما تحفل به حياته التي استوت على الغدر وازدهرت بفضله. وهو بدوره يُعتبر نموذجاً حقيقياً لأخلاق اتباعه. وعلى هذا تُعتبر تسميتهم باسمه (إسرائيليين) ميراثاً دقيقاً».

بعد ذلك يؤكد المحرّر ليعقوب، عن لسان الله، أنّه قد غيّر اسمه إلى إسرائيل: «لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل» (تكوين 35: 10). فلماذا احتاج يعقوب التأكيد على تغيير اسمه أكثر من مرة؟ أليس لأنّ إيمانه بإلهه كان ناقصاً؟ وبالرغم من ذلك يعيد الله تجديد الوعد ليعقوب، الوعد الذي كان قد أعطاه لإبراهيم وإسحق: «والأرض التي أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها. ولنسلك من بعدك أعطي الأرض... ودعا يعقوب اسم المكان الذي فيه تكلّم الله معه بيت إيل». إنّها المرة الثانية التي يطلق يعقوب على المكان «بيت إيل»، وهذا التكرار يُعدّ ضعفاً في السَّبك القصصي، وهو كثير جداً في التوراة: ولقد أشار إلى ذلك توماس طومسون(130).

ألم يرافقه إله هذا المكان في حلّه وترحاله مذكّرا إياه بأنّه «إله بيت إيل» (تكوين 31: 13؟) أليس بيت إيل معبداً كان يعقوب يقيمه من حجر في كلّ مكان يظهر له فيه الله ويكلّمه؟: «وأقام هناك مذبحاً ودعاه إيل إله إسرائيل» (تكوين 33: 20). وكيف يكون إيل إلهاً لإسرائيل وقد كان إلهاً لكل شعوب سورية التي سبقت الإسرائيليين؟ وشعوب سوريا لم تدّع ملكية هذا الإله، ولم تلصق به إلاّ صفات المحبة والرعاية والغفران، ولم تطلب منه أبداً أن يسير بجيوشه لإبادة الشعوب الأخرى. فكيف سمح محرر التوراة لنفسه باحتكار هذا الإله وبمسخه من إله كوني يغمر ضياؤه الكون إلى إله خاص بشعب لا تصدر عنه إلاّ الأعمال التي تفوح منها رائحة الإرهاب قتلاً وسرقة ومكراً وزنىً؟ ألا يجد المؤمن عند قراءته لهذه القصص فارقاً شاسعاً بين ما تحتويه من أفعال منسوبة إلى الله، وبين ما جاء على لسان السيّد المسيح من أقوال كلّها تناقض ما ورد في الأولى؟

فلماذا يا أخي المؤمن المسيحي لا تزال متشبثاً بما قد فرض عليك على أنّه جذور وجوهر ديانتك، وديانتك براء من كلّ ذلك؟ بل لماذا لا تزال ماضياً بدعم المشروع الصهيوني الذي يستمد كلّ ملامحه من أساطير التوراة وتتغافل عن حقيقة باتت واضحة وهي أنّ العدو اللدود لليهودية هو المسيحية، وهذا ما دعا الكاتب روبير عبده غانم إلى أن يشير إلى ذلك بقوله: «قد يكون اليهود، منذ القرن الثامن عشر، دعاة نشر محو المسيحية أو علمنة المجتمعات الأوروبية، ولربّما كانوا المتسببين بالقطيعة الحاصلة بين المسيحية وبين المجتمعات المعاصرة، إذ أنّ تأثير فكرهم لا بل سعاياتهم الواضحة للعيان ليست بمنأى عن ذلك. ففي قلب المجتمعات، يتعارض وجود اليهودي الهدّام ومحطّم القِيَم التقليدية مع وجود الدولة المسيحية ذاتها. وبما أنّه يطمح إلى القيام بثورة عالمية، فإنّه يهاجم المسيحية أولاً، باعتبارها سدّ الدفاع الأوّل الذي يعترضه»(131).

أما أنا فلا أقول «قد وربّما» كما فعل الكاتب، بل أؤكّد على ذلك استناداً إلى ما يثبته المؤرخ عجاج نويهض على لسان حكماء صهيون: «متى ما ولجنا أبواب مملكتنا، لا يليق بنا أن يكون فيها دين آخر غير ديننا، وهو دين الله الواحد المرتبط به مصيرنا، من حيث كوننا الشعب المختار، وبواسطته ارتبط مصير العالم بمصيرنا. فيجب علينا أن نكنس جميع الأديان الأخرى على اختلاف صورها(132)...»، وصولاً إلى ما كتبه عن مخططاتهم: «وسيتولى فلاسفتنا بالشرح والتوضيح، الكشف عمّا تنطوي عليه معتقدات الغوييم (أي الشعوب الأخرى) من عوار (أي عيب). غير أنّه لن يُسمح بأنّ يُطرح ديننا للبحث ابتغاء الوقوف على مقاصده وغاياته الصحيحة، إذ هذا علمه محصور بنا، مقصور علينا وحدنا، ونحن دائماً حريصون على ألاّ نبوح بأسراره لغيرنا»(133). ولقد سبق لنا وأشرنا إلى أمثلة تهجم فيها اليهود على كلّ من تسوّل له نفسه، ليس فقط نقد ما جاء في كتابهم، بل أيضاً انتقاد سياسات إسرائيل الإجرامية التي اتخذت من تعاليم التوراة نبراساً لها يهديها إلى عالم الإرهاب الواسع.

ومرة جديدة يرحل يعقوب من بيت إيل فيصل إلى أفراته التي نفهم بعد أسطر أنّها بيت لحم، فتموت راحيل وهي تلد، فأسمت ولدها وهي تلفظ أنفاسها «بن أوني، وأمّا أبوه فدعاه بنيامين» (تكوين 35: 18). وببنيامين هذا يصبح أولاد يعقوب (إسرائيل) اثني عشر يشكّلون أسباط بني إسرائيل. وبدءاً من نهاية هذا الإصحاح يبدأ المحرر باستعمال إسرائيل للدلالة على أهل بيت يعقوب جميعهم. وقبل نهاية هذا الإصحاح يأبى المحرّر إلاّ أن يتحفنا بقصة أخلاقية جديدة تؤكد بما لا يقبل الشكّ على مدى «الرّفعة والشرف» اللذين كانا عنواناً لتصرفات بني إسرائيل، فيقول: «وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً في تلك الأرض أنّ رأوبين (وهو ابن يعقوب من ليئة) ذهب واضطجع مع بلهة سريّة أبيه. وبلهة هذه لم تكن «سريّة» بل كانت زوجة يعقوب، إذ أنّ زوجة يعقوب راحيل لمّا علمت أنّها عاقر لا تنجب غارت من أختها ليئة، زوجة يعقوب أيضاً، دفعت بجاريتها بلهة إلى يعقوب: «فأعطته بلهة جاريتها زوجة» (تكوين 30: 4)، وهذا يعني أنّه اضطجع مع زوجة أبيه دون أيّ رادع أخلاقي أو وازع من شرف.

وتصرّف رأوبين هذا، مع ما سبقه من تصرفات «أبرار» بني إسرائيل شكّل القاعدة التي رست عليها العادات اليهودية التي ارتكزت أيضاً إلى حرفية النصوص ولم تفقه الرموز. يقول روبير عبده غانم: «إنّه لأمر واقع أن تكون العادات اليهوديّة قد حُظّرت في القرون الوسطى، لا بسبب كونها مدانة

فحسب، بل لأنّهم كانوا يفترضون أنّها مدعاة للفضيحة»(134). هذان المثلان أوردهما على سبيل المثال لا الحصر، عسى أن أكون بذلك قد ساهمت، مثلما فعل من سبقني، بكشف النقاب عن أكبر فضيحة عرفتها القرون الحديثة والمستندة على الفضائح الأساسية التي كانت وراء نشوء إسرائيل المزعومة قديماً.

أما الإصحاح السادس والثلاثون ففيه عودة إلى عيسو وذريته. وما يلفتنا هو مطلع هذا الإصحاح الذي يقول فيه المحرّر: «وهذه مواليد عيسو الذي هو أدوم». فلماذا أصبح عيسو أدوم؟ لم يذكر لنا المحرّر أيّ سبب كما فعل مع يعقوب، بل كرّر ذلك أكثر من مرة، وأتحفنا بمجموعة من الأسماء، منها ما هو لزوجات عيسو الكنعانيات، أو لزوجتيه الأخريين الحثية والحويّة، وكلّ أولاد عيسو برأيه أمراء. ثم يورد أسماء الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبلما مَلك مَلِك لبني إسرائيل. فإذا كان هناك ملوك قبل ملوك ذرية عيسو (أدوم)، فهذا يعني أنّ الأرض التي ملكوا عليها لم تكن تدعى أدوم لأنّ عيسو (أدوم) أعطى إسمه لهذه الأرض بعد إقامته فيها. وهذا من الأخطاء العديدة التي ارتكبها المحرّر في أكثر من إصحاح ومن سفر.

ولن نتوقف كثيراً عند هذا الإصحاح لأنّ المحرر أثبته فقط لكي يوصلنا إلى حقيقة مفادها أنّ عيسو وكلّ ذريته التي، كما ورد في هذا الإصحاح من أسماء، قد تكاثرت بشكل غير طبيعي فاضطر للرحيل والابتعاد عن أخيه يعقوب (إسرائيل) ذي الاثني عشر سبطاً «لأنّ أملاكهما كانت كثيرة على السكنى معاً ولم تستطع أرض غربتهما أن تحملهما من أجل مواشيهما» (تكوين 36: 7). أما الغاية الحقيقية من وراء هذا الانفصال فهي أنّ المحرّر سيهمل عيسو وذريته وسيركّز على يعقوب (إسرائيل) وذريته: أي الإسرائيليين. وهنا لا بدّ من أن نتساءل حول عدم دعوة يعقوب لأخيه، الذي استقبله بالترحاب ناسياً ما فعله به، لكي يؤمن بإله بني إسرائيل إنْ كان هذا الإله كما يدّعون إله الكون الذي ألغى الآلهة الأخرى، وبه توصلوا إلى التوحيد؟ ألا يوصلنا ذلك إلى الحقيقة الأساس وهي أنّ هذه القبيلة الغارقة بوثنيتها اخترعت هذه الأساطير لكي تكون مرتكزاً لها يدل على شأنها التاريخي، ومجدها العسكري، وقوتها الروحية؟ ألم تكن عقدة الدونية التي شعروا بها من خلال احتكاكهم بشعوب سورية الحضارية هي المحفّز الذي دفع الكتبة إلى اختراع هذا التاريخ الوهمي، لكي يعوضوا عن النقص الذي شعروا به تجاه الشعوب التي كانت قد سبقتهم في معارج الحضارة بأشواط كثيرة؟

يقول الأب مايكل برير: «تم تلفيق خرافة مسعدة لكي تُقدَّم على أنّها مثال مجيد رائع على البطولة اليهودية التي تعزز روح التحدي. وكان نحمان بن يهوذا قد بيّن كيف أنّ القصة الخرافية تُخترع عمداً، وكيف تُلفّق وتُدعم خلال المشروعات والمنظمات البارزة في اليشوف. وتم بناؤها كرمز للبطولة المركزية القومية في الثقافة الصهيونية العلمانية الجديدة في أثناء بناء الأمة منذ العشرينيات وحتى قيام الدولة بعد عام 1948"(135). ألا يدلّ ذلك على نفسيتهم المريضة التي دفعتهم إلى سلوك هذا الطريق بدلاً من الاندماج مع هذه الشعوب، والاستفادة من حضارتها ثم الإدلاء بدلوهم بإغناء هذه الحضارة بما يمكن أن يضيفوه إلى مداميكها؟ تكثر الأسئلة وتبقى الأجوبة عاجزة عن سبر أغوار هذه التجربة التي لا تزال حتى اليوم تفعل فعلها السيء بمسار الحضارة الإنسانية.

ونَكمل مع المحرّر هذه الرحلة الأسطورية فنقرأ في مطلع الإصحاح السابع والثلاثين ما يلي: «وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان. هذه مواليد يعقوب. يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام عند بني بلهة وبني زلفة امرأتي أبيه. وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم. وأما إسرائيل فأحبّ يوسف أكثر من سائر بنيه لأنّه ابن شيخوخته...» (تكوين 37:1). فإذا كان إبراهيم قد سكن أرض كنعان وكذلك فعل ابنه إسحق وولداه عيسو ويعقوب (إسرائيل)، فهذا يعني أنّ الكنعانيين قد رحّبوا بالوافدين الجدد، كما تذكر التوراة، وأنّ نظرتهم الإنسانية دفعتهم إلى احتضان هؤلاء الغرباء دون أن يعلموا بوعد الله لهم بأنّه سيعطيهم أرضهم. فإذا كان الكنعانيون مسالمين ولم يسببوا أيّة إشكالية لهؤلاء المستوطنين، فلماذا شنّ عليهم يشوع حرب إبادة؟ ولماذا حمّل المحرر في أسفار الخروج والعدد والتثنية قصصه كلّ هذا الكم من الإجرام والحقد والرجاسة؟ أعتقد أنّه انطلق من واقعية أثّرت على مضمون إنتاجه الأدبي، هذه الواقعية التي أدّت إلى وصف دقيق لنفسية هذه القبيلة التي قصّرت عن استيعاب المفهوم الحضاري الإنساني لدى شعوب سورية القديمة.

ولو اكتفى الكَتَبَة بنقل مشاعر هذا الشعب فقط، لكان عملهم مثالاً للصدق وللأمانة، أمّا وقد ألصقوا بالله كلّ هذه الأفعال والأقوال وصولاً إلى أهدافهم السياسية فهذا ممّا لا يقبله عقل، فكيف إذا ما علمنا ولمسنا مدى تأثير ما كتبوا على عقول المؤمنين منذ ثلاثة آلاف سنة؟ وهنا نعود لنلفت النظر إلى أنّه لو كان ذلك مقبولاً فيما مضى من أيام نتيجة سذاجة الناس والنأي بأنفسهم عن مقاربة ما وصل إليهم على أنّه مقدّس وسماوي، فما بالنا اليوم نستمر أرضاً خصبة للتضليل، متناسين الرسالات الحقيقية، غافلين عمّا توصّل إليه الباحثون والدارسون والأركيولوجيون من إثباتات تؤكد، ما سبق وأشرنا إليه، على أسطورية هذه القصص وفقدان أيّة علاقة لها بالتاريخ والحقيقة.

ولا يمكننا إلاّ أن نستمرّ بطرح الأسئلة حول تفضيل إسرائيل ليوسف على كلّ بنيه. فالسبب الذي ساقه المحرّر هو أنّ يوسف ابن شيخوخة يعقوب، وكان قد أعلمنا أنّ راحيل والدة يوسف عادت وولدت ليعقوب ذكراً دعته، وهي تلفظ أنفاسها أثناء الولادة، بن أوني ودعاه يعقوب بنيامين، فيكون بنيامين هذا هو أصغر أبناء يعقوب وهو ابن شيخوخته. فلماذا اختار المحرّر يوسف لا بنيامين ليكون الشخصية البطولية لقصته الجديدة؟ ولماذا صرف المحرّر نظره عن أبناء يعقوب الآخرين وأهملهم وذراريهم، عدا واحداً منهم هو يهوذا الذي جعله المحرر أيضاً يدخل على امرأة كنعانية فتلد له ثلاثة ذكور: عيرا وأوتان وشيلة. ومباشرة نجد أنّ عيراً هذا يكبر ويزوجه أبوه من ثامار ويعتبره: «شريراً في عينيّ الربّ. فأماته الربّ. فقال يهوذا لأوتان ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها وأقم نسلاً لأخيك» (تكوين 38: 7). فما هي الشرور التي ارتكبها عير؟ وهل كان الشرير الوحيد على وجه الأرض لكي يميته الربّ ويترك بقية الأشرار؟ وكيف نصدّق هذه الأقاصيص التي، واستناداً إلى التوراة، حصلت قبل ما لا يقلّ عن ألف سنة من تاريخ تدوينها؟

ثم نعلم أنّ أوتان قد أماته الله لأنّه رفض أن ينجب من ثامار زوجة أخيه «لكي لا يعطي نسلاً لأخيه» (تكوين 38: 9)، فأعاد يهوذا ثامار التي نصبت فخاً ليهوذا بخلعها ثياب ترملها «وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل عينايم التي على طريق تمنة... فنظرها يهوذا وحسبها زانية... فمال إليها على الطريق وقال هاتي أدخل عليك... ودخل عليها، فحبلت منه» (تكوين 38: 14). فإنْ سلّمنا جدلاً

أنّ يهوذا هذا، والذي كان قد أصبح كهلاً، كان لا يزال يتمتع بقواه الجنسية، فلماذا لم يتخذ له زوجة أخرى بعد وفاة زوجته؟ ولماذا لم يأتِ المحرّر على ذِكْر صاحب يهوذا العَدُلامي الذي كان يصحبه عندما رأى ثامار وظنّ أنّها زانية فراودها عن نفسها ودخل عليها؟ ألا يشبه ذلك ما نسمعه اليوم من تعليق على بعض الأحداث التي تجري في الأفلام والمسلسلات التلفزيونية عندما نجدها غير منطقية لا يتقبلها عقل بالقول: هكذا يريد المخرج، فإذا بنا نقول عن قصص التوراة: هكذا يريد الكاتب؟

أمّا عن قصة يوسف التي يرويها الكاتب في الإصحاح السابع والثلاثين فإنّها بداية تعكس النفسية الإجرامية لهذا الشعب المتمثلة بقتل الأخوة لأخيهم، كما حصل مع ولدَي آدم: قايين وهابيل. وتتوضح لنا الصورة أكثر إن نحن فهمنا بأنّها قصص رمزية تصوّر الأحاسيس الإنسانية التي يمكن أن تتجسد أفعالاً سيئة إن لم يكن بمقدور الإنسان التحكّم فيها. يقول الأب سهيل قاشا: «ويُرمز بآدم إلى الذكور من البشر، ويرمز بحواء إلى الإناث منهم، كما يرمز بقايين إلى طبقة الفلاحين وهابيل إلى طبقة الرعاة. وهذه هي الطريقة الشرقية في تسجيل الحقائق أو سرد الحوادث»(136). إذن كلّ هذه الأسماء بدءاً بآدم لا تدلّ على أشخاص حقيقيين، بل هي مجرد رموز تشير إلى مفاهيم محددة.

وينقل إلينا الأب قاشا من أسطورتين سومريتين أحداث مناظرتين، الأولى قامت بين الراعي والفلاح، والثانية بين الماشية والغلّة. وبنتيجة المناظرة (الثانية) كان حكم الإله إلى جانب الزراعة الممثلة بالفلاّح مما أنهى الخصام بين المتناظرين وأدى إلى الوئام بين الأخوين أو الأختين. أما في التوراة فقد أدت المناظرة أمام الله، بين قايين الفلاح وأخيه هابيل راعي الغنم، إلى قتل أحدهما للآخر، وهذا يشكّل فارقاً شاسعاً يميّز الأسطورة السومرية التي تركز على سمو الأخلاق والقِيَم عن الأسطورة التوراتية المنحولة والتي ركّزت منذ البداية على القتل.

وحول أسباب التحوير الذي تقصّده كاتب التوراة للأسطورة السومرية يقول الأب قاشا: «يتضح من هذه الفقرة أنّ شعب سورية الجنوبية كان يتعاطى الزراعة فهو إذن يمثل الفلاح في المناظرة السومرية والتوراتية. ففي حال تبني مضمون القصة السومرية، يجب أن ينتصر الإله إلى الفلاح - قايين - هذا يعين بكلّ وضوح إلى كنعان المزارع لا هابيل الراعي الممثل للشعب العبري. وبموجب ذلك تسقط قيمة الشعب العبري (اليهودي) أمام الشعب الكنعاني وهذا يتضارب مع مصالح اليهود ومدوناتهم للأيام المستقبلية. وأمام هذا القلق في نقل الأسطورة عمدوا إلى تحويرها وجعل نصرة الله لـ«هابيل» دون «قايين»، ثم إمعاناً في الروح العدائية نحو شعب كنعان جعلوا قايين يقتل هابيل وبذلك انقلب مفهوم الأسطورة التي هي بالأساس صراع بين حضارتين ينتهي بالوئام والخير إلى قصة قاتل أخيه دون مبرر، تحدياً لقرار الإله وللعرف الإنساني»(137).ومع يوسف وصل المحرّر إلى مفترق طرق، وكأنّه أراد بأنّ «تمثّل شخصية يوسف نقطة الاتصال بين عصر الآباء وعصر العبودية في مصر والخروج منها»(138). فجعله يقضي طفولته وبداية شبابه في كنعان، ثم يروي ما فعله به أخوته فإذا به يقع بالتناقض عندما يقول: «تعالوا نبيعه للإسمعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنّه أخونا ولحمنا. فسمع له إخوته. واجتاز رجال مديانيون تجار. فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسمعيليين بعشرين من الفضة» (تكوين 37: 27). فلماذا ترك إخوة يوسف التجار المديانيين يسحبونه من البئر ويبيعونه للإسمعيليين؟ وكيف عرف هؤلاء التجار بوجود يوسف في البئر؟ ثم يعود في آخر الإصحاح ليخبرنا بأنّ المديانيين هم الذين باعوا يوسف «في مصر لفوطيفار

خصيّ فرعون رئيس الشرطة» (37: 36؟) فكيف حصل هذا؟ هل عاد المديانيون واستعادوا يوسف من الإسمعيليين حتى يقوموا ببيعه لفوطيفار؟

إنّ هذا التناقض يدل بوضوح تام بأنّ هذه القصص هي نتاج الخيال البشري وهي لا تمت إلى الحقائق التاريخية بأيّة صلة، ويتأكد لنا ذلك أيضاً من عودة المحرّر إلى الوقوع بالتناقض من جديد إذ يذكر في مطلع الإصحاح التاسع والثلاثين بأنّ يوسف أنزل إلى مصر «واشتراه فوطيفار خصيّ فرعون رئيس الشرطة رجل مصري من يد الإسماعيليين الذين أنزلوه إلى هناك» (تكوين 39: 1). لقد غيّر المحرّر واقعة بيع يوسف ثلاث مرات متتالية، أفلا يحق لنا أن نشير إلى ذلك مؤكدين على ما توصل إليه معظم الباحثين الثقات من أسطورية هذه الشخصيات والقصص على السواء. ألم يكن فرويد على صواب عندما استنتج من قصة يوسف درساً أعانه على فهم نفسية الإنسان فقال: «ولا يجوز أصلاً للابن الأثير الذي يجاهر والده المهاب الجانب بإيثاره له وتفضيله إياه أن تأخذه الدهشة من غيرة إخوته وأخواته وحسدهم. والخرافة اليهودية عن يوسف الذي باعه إخوته تكشف النقاب منذ ذلك العهد عن النتائج المحتملة لمثل هذه الغيرة أو مثل هذا الحسد»(139). إذن لا يمكننا إلاّ أن نؤكد مجدداً على رمزية هذه القصص التي حاولت سبر أغوار النفس البشرية وما يعتمل داخلها من أحاسيس يحكمها التضاد.

ويعود فراس السواح إلى القول: «تبدي القصة (قصة يوسف) عناصر شائعة ومألوفة في الأدب الشعبي شرقاً وغرباً، وذلك مثل: «1- محبة الأب للإبن الأصغر، 2- مكائد الإخوة والأخوات، 3- النجاة من المكائد المدبّرة، 4- اغتراب الشاب المستضعف في أرضه، 5- إغواء الشاب الوسيم المستقيم من قِبَل امرأة فاتنة، 6- هناك عنصر ميثولوجي يضاف إلى هذه العناصر، وهو فترة السنوات السبع الخصيبة التي تليها فترة سنوات سبع عجاف، مما هو معروف في أدبيات مصر وبلاد الرافدين، وبشكل خاص في أدبيات أوغاريت الكنعانية»(140). ثم يكمل المؤلف: «فالقصة والحالة هذه تنتمي إلى الرومانس أكثر من انتمائها إلى التاريخ الموثق... فاسم الفرعون، الذي استوزر يوسف غير مذكور»(141). ويشير الكاتب أيضاً إلى الفارق الزمني بين ما هو معروف عن وقوع أحداث القصة زمن الهكسوس، لأنّ تحوتمس الثالث (1490 – 1436 ق.م.) هو أول من اتخذ لقب فرعون، وبين الزمن الذي يفهم من القصة التوراتية على أنّها جرت في الألف الأول قبل الميلاد. ويصل فراس السواح إلى الاستنتاج بأنّ «القصة تعود في أصولها إلى زمن ما غير محدد في الألف الأول قبل الميلاد، وأنّ المحرّر التوراتي قد اعتمد عدة أشكال للقصة بعضها سوري وبعضها مصري، وأضاف إلى عناصرها الخيالية عناصر أخرى واقعية مستمدة من أحداث معروفة قريبة إليه. إنّ ربط قصة يوسف بعصر الهكسوس، مما كان شائعاً بين الباحثين، لم يعد مقبولاً الآن، والقصة برمتها عبارة عن أخيلة أدبية معلّقة في فضاء تاريخي».

ولإضفاء شيء من الحركية المسرحية أو ما يُسمى بلغة الأفلام السينمائية (Action)، يخبرنا الكاتب كيف أنّ زوجة فوطيفار الذي اشترى يوسف و"وكّله علي بيته ودفع إلى يده كلّ ما كان له» (تكوين 39: 5)، قد راودت يوسف عن نفسه، حيث كان قد وطّأ لهذا الحدث بقوله: «وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر» (تكوين 39: 6)، فتمنّع عن مجاراتها قائلاً لها: «كيف أصنع هذا الشرّ العظيم وأخطئ إلى الله» (تكوين 39: 9)، ويا ليته تمسّك بهذه الفضائل الأخلاقية في كلّ سردياته،

إذن لكان أتحفنا بكتاب يهدي إلى الصراط المستقيم وينهى عن ارتكاب الموبقات والفواحش. أما لماذا جعل من يوسف شخصية مخالفة بأفعالها أفعال الشخصيات التي سبقتها، فلربما كان مردّه إلى أنّه كان قد وضع تصوراً لقصته يجعل من خلاله يوسف مظلوماً لكي يبرر لاحقاً ما أصاب ظالميه من عقاب إلهي رهيب.

ثم إذا كان الكاتب قد أشار إلى أنّ فوطيفار هذا كان خصيًّا، فكيف يمكن له أن يتزوج؟ وإن هو تزوّج بالفعل، أكان يحق له أن يطالب زوجته إن هي خانته مع رجل آخر؟ ألم يكن أولى بالكاتب أن يجعله رجلاً عادياً، فتأتي خيانة زوجته للدلالة على الطبع الملازم للنوع البشري منذ أن وُجِد؟

ولا بد من الإشارة إلى ما ورد على لسان زوجة فوطيفار بعدما هرب منها يوسف، «قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا» (تكوين 39: 14)، وهي المرة الأولى التي يأتي المحرّر على ذكر العبرانيين، علماً أنّه في ذلك الوقت كان اسمهم إسرائيليين نسبة إلى يعقوب (إسرائيل). ويتكرّر هذا المصطلح مرة ثانية في سفر الخروج الإصحاح الثاني في المقطع الحادي عشر: «فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته»، ويبدأ التداول به بعد ذلك فنقرأ في سفر الخروج (3: 18): «فإذا سمعوا لقولك. تدخل أنت وشيوخ بني إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له الربّ إله العبرانيين التقانا». فلماذا هذا الخلط بين الإسرائيليين والعبرانيين؟ ولماذا اعتماد اسمين لهؤلاء البدو الرُّحَّل؟ وحول هذا الاسم كتب كثير من الدارسين ومنهم من أنكر أيّة علاقة بين هذا اللفظ وبين الإسرائيليين. فلقد استعان به الكاتب ليضفي نوعاً من الشأن لهؤلاء المتنقلين من مكان إلى آخر، لأنّ العبرانيين أو العابيرو كما ورد اسمهم في أكثر من مستند كانوا جماعات محاربة يحسب لها حساب. يقول الأب سهيل قاشا: «ظهرت رسائل تل العمارنة، وظهرت فيها كلمة خابيرو، كلمة مؤلَّفة من ثلاثة أحرف، فتبنّى اليهود هذه المسألة على اعتبار أنّ خابيرو تعني عابيرو أي عِبري، يعني اليهود. وبدأت التنقيبات والترجمات لهذه الرسائل. فتبيّن أنّ الخابيرو كانوا مجرد قطّاع طُرُق في شبه جزيرة سيناء، يقطعون الطريق على القوافل بين مصر وسوريا، أي الخط التجاري في ذلك الوقت. فلمّا أثبتت الاكتشافات ذلك، تنصّلوا من الموضوع ولم يعودوا يعترفون به»(142).

ويذكر فراس السواح ما يلي: «تراخت قبضة مصر عن مناطق نفوذها في سوريا الجنوبية، وتركت الممالك الصغيرة لصراعاتها الداخلية، ولهجمات جماعات العابيرو المرتزقة التي كانت تؤجّر خدماتها لمن يدفع من الأمراء المتنافسين»(143).

ولا بدّ لنا من الاستشهاد بما أورده الباحث والمؤرِّخ توماس طومسون إذ يقول: «هذا الموضوع يصبح واضحاً تماماً إذا دققنا في الأسلوب الذي اعتمده ليمخي عندما عالج التاريخ السابق للملكية وخاصة معالجته لِـ «عابيرو» العصر البرونزي المتأخر و"فلسطينيين» العصر الحديدي. قرار ليمخي بأن يأمل من «عابيرو» احتمال أن يكونوا أصل إسرائيل مجرد افتراض واع: فكرة تنتظر البينات. مراجعة م. ليفيراني الحديثة لتفسير رسائل تل العمارنة أكدت أنّ الـ «عابيرو» طبقة دنيا ناقمة ولاجئون، هربوا من القمع الإمبريالي المصري إلى المناطق الجبلية ليعيشوا لصوصاً وقطّاع طرق ضد روّاد التجارة البرية. ويظهر أنّهم استقروا أخيراً في المناطق الجبلية بعد حقبة تل العمارنة وشكّلوا - بضغط من الفلسطينيين - هياكل سياسية من سلالات وعشائر أصبحت فيما بعد إسرائيل بموجب نظريات الترابط القبلي. هذه التغيرات تربط الـ «عابيرو» الذين نجدهم في رسائل تل

العمارنة بالاستقرار في المناطق الجبلية أوائل العصر الحديدي، الذي يرتأي ليمخي أنّه قد يكون شكل نواة شعب طوّر بعد وقت لاحق تقاليد قصصية غالباً ما تعرف تطابقاً بين تعبير «إسرائيليين» وتعبير «عبريم» الذي يبدو عرقياً. المهم بالنسبة لهذا التفسير هو الجهد اللازم لإيضاح، لا التطور التاريخي من «عابيرو» إلى عبريم» فحسب، بل التحوُّل اللفظي من «عابيرو» كطبقة اجتماعية إلى «عبريم» العرقي الذي نجده في التوراة. الاعتراضات على بناء أساسه تماثل عابيرو - عبريم عديدة. لوريتز، الذي ينتقد بحدة جهود المؤرخين الرامية إلى الربط بين الـ «عابيرو» والـ «عبرانيين» يبيّن الخطأ الفادح الذي تنطوي عليه هذه المحاولات لشرح أصول إسرائيل على أساس هذا الربط. نقده المدمّر بسيط ومستقيم: لا توجد بيِّنات تاريخية تربط بين رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر والـ «عابيرو» المذكورين فيها، مع أصول إسرائيل. ومهما كانت الروابط اللغوية بين هذه التعابير المختلفة جذرية، لا سبب يدعونا لأن نرى هذا الموضع اللغوي، مرتبطاً بأي شكل كان بتاريخ أصول إسرائيل» (144).

ويعود هذا الباحث إلى التأكيد على هذه النظرية فيقول: «لقب عابيرو (لا سيما في ألواح تل العمارنة) يُستعمل لوصف تصرفات قُطّاع الطّرق، ويبدو أنّه يشير إلى طبقة اجتماعية أو جماعات متنازعة مع بعض حكام العصر البرونزي الأخير، ولكنّه لا يستعمل في أي حال، للإشارة إلى أيّة مجموعة إثنية معينة في فلسطين» (145). وهذا يدعونا إلى التساؤل عن كيفية إدخال محرّر التوراة لهذه اللفظة على قصة يوسف عندما قالت زوجة فوطيفار لأهلها: «قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا». وإذا كان العابيرو مجرد قُطاع طرق، فما هي علاقتهم بالإسرائيليين التي أشار إليها محرّر التوراة عندما قال على لسان يوسف: «لأنّي قد سُرقت من أرض العبرانيين» (تكوين 40: 15) فأين هي أرض العبرانيين هؤلاء؟ فإذا كان يوسف قد قصد الأرض التي كان يعيش فيها مع يعقوب أبيه وأخوته، فهي لم تُعرف أبداً باسم أرض العبرانيين، بل عُرفت، كما ورد ذلك في التوراة وفي أكثر من موضع، باسم أرض كنعان، وفي مواضع أخرى باسم فلسطين.

والدليل على ذلك نجده في التوراة نفسها وبعد عدة صفحات على عبارة يوسف «لأنّي قد سُرقت من أرض العبرانيين»، إذ يقول محرّر التوراة في الإصحاح الثاني والأربعين المقطع السابع: «وقال لهم من أين جئتم. فقالوا من أرض كنعان لنشتري طعاماً». هذا السؤال واجه به يوسف إخوته الذين قالوا له جئنا من أرض كنعان. فيوسف كان يعيش مع إخوته في أرض كنعان وليس في أرض العبرانيين. ثم يؤكدون ذلك مرة ثانية بقولهم: «نحن بنو رجل واحد في أرض كنعان» (تكوين 42: 13)، ومرة ثالثة إذ يقول المحرّر: «فجاءوا إلى يعقوب أبيهم إلى أرض كنعان» (تكوين 42: 29). كلّ ذلك يؤكد أنّ أبناء يعقوب أي الإسرائيليين لم تكن لهم أرض خاصة في كنعان بل كانوا يعيشون فيها، إن نحن سلّمنا بصحة هذه المرويّات، كغيرهم من شعوب كنعان، ولكن المحرر كان قد لفّق أكاذيبه الأسطورية وجعل من إلهه المختار صاحب مكتب عقاري يحتال على شعب كنعان فيطرده من أرضه ليقدّمها هدية لشعبه المختار من ذرية إبراهيم.

وبالعودة إلى العبرانيين نجد أنّ هذا الخلط ليس إلاّ من قبيل تخبط كَتَبَة التوراة الواضح بكمّ هائل من أسماء الأشخاص والأمكنة التي لا يمكن اعتبارها بأي شكل من الأشكال تأكيداً على الصدقية التاريخية. وحتى اسم إسرائيل لم يرد في أي مستند قديم على كثرتها، بل تم ذكر إسرائيل فقط في

لوحة الفرعون المصري مرنفتاح، والدارسون مختلفون حول معناها وما ترمي إليه. ولقد استعرض الباحث توماس طومسون آراء الباحثين في هذا الموضوع ليصل إلى نتيجة مفادها أنّ «مجموعة إسرائيل التي هزمها مرنفتاح ليست إسرائيل ستاغر المذكورة في القضاة 5، ولا إسرائيل إستروم وإيدلمان في مرتفعات أفرايم. هم بالأحرى، مجموعة محدودة تماماً ضمن سكان فلسطين تحمل الاسم الذي يرد هنا لأول مرة، وفي مرحلة لاحقة متأخرة من تاريخ فلسطين، أصبح يحمل معنى مختلفاً إلى حد كبير». وهذا الاختلاف بين الباحثين والمؤرخين حول أصول إسرائيل دفع بطومسون إلى القول: «بأنّ البحث التفصيلي للمشكلات المحيطة بأصول إسرائيل يمكن أن يبدأ فقط عندما تنجح الطوبوغرافيا والأركيولوجيا بتقديم بينات مستقلة تملأ الفجوات العديدة التي خلقتها الأشكال الأدبية المختلفة للروايات» (146).

هذا إقرار من عالِم كبير بأنّ كلّ ما يدّعيه بعض الباحثين من توافق بين المكتشفات الأثرية والمرويّات التوراتية هو محض أوهام كان الدافع منها تثبيت حق إسرائيل الإلهي بأرض فلسطين بتحريض من الصهيونية العالمية. وعلى سبيل المثال لا الحصر نشير إلى أنّ باحثاً (مهماً) مثل نوث، يعتبر أنّ المرويّات التوراتية هي المصدر الرئيس لتاريخ إسرائيل القديم، أما الأركيولوجيا فدورها ثانوي ومحدود جداً. بينما يرى الباحث غاربيني «أنّ الملكية الموحّدة قد أوجدت قصصاً خلال الفترة التي يدعوها فترة السبي وما بعده، كعصر ذهبي يقارن بعصر آرثر في إنجلترا. ويقول أيضاً بأنّ كلّ تاريخ إسرائيل القديم يجب أن يعتبر هيكلاً مصطنعاً شكّلته دوافع لاحقة لأيّة بيّنة معروفة عن حوادثه. إن تاريخ إسرائيل الحقيقي، بنظر غاربيني، يبدأ بشظايا المعلومات المتوفرة لدينا عن سلالة عمري والنقوش القليلة الباقية من القرن الثامن إلى السادس ق.م. كما لا يجد غاربيني في المرويّات التوراتية مصدراً مضموناً لتاريخ موثوق بعدما يعتبره هو «السبي»: لأنّ الروايات المزعومة عن التاريخ الإسرائيلي في الحقبة الفارسية تعتمد هي نفسها على الأوهام الإيديولوجية المستخلصة من فترات متأخرة كثيراً عن الحوادث التي يبدو أنّها تعيد سردها (147).

وبالعودة إلى يوسف لا بدّ من أن نشير إلى التشابه بين بعض تفاصيل قصته وبعض ما جاء في الأساطير الأقدم. قال يوسف لأخوته: «إنّي حلمت حلماً أيضاً وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي» (تكوين 37: 9)، حيث رأى الأب سهيل قاشا تشابهاً بين هذا الحلم وحلم جلجامش إذ نقرأ: «كلكامش يعرفك رآك في أحلامه، وعلى أمه ننشون قصّ أحلامه، قال رأيت يا أمي في منامي، رأيت نجوم السماء جميع نجوم السماء، وعند قدمي سجد أحدها».

أما فراس السواح فيرى تشابهاً بمسألة التحرش الجنسي التي تعرّض لها يوسف: «وتروي أسطورة حثية كيف حاولت أشيرتو إغواء إله العاصفة (الذي يعادل بعل الكنعاني) وكيف رفض تقرّبها وأعرض عنها، فشكته إلى زوجها إيل، ولعلّها ادّعت أنّه هو الذي تقرّب منها، مثلما ادّعت زوجة فوطيفار المصري أنّ يوسف هو الذي حاول إغواءها» (148). أما في ما خص تفسير يوسف حلم الفرعون، والذي لا زالت الألسن تتناقله لغاية اليوم فيجب أن نشير إلى أنّ مسألة الجوع الذي حلّ بمصر والشرق الأدنى وصل إلى أُذن كاتب التوراة من المرويّات الشفهية عما حلّ بمنطقة فلسطين ومعظم سوريا الجنوبية من جفاف أدى إلى نزوح المزارعين عن أراضيهم منذ مطلع القرن الرابع عشر.

يقول فراس السواح: «لاحظ علماء الآثار حدوث تدهور تدريجي في الحضارة الكنعانية على الساحل السوري وفي فلسطين وسوريا الجنوبية ابتداءً من ذروة حضارة عصر البرونز في القرن السادس عشر.. ولكنّ أسباب هذا التدهور بقيت خافية على المؤرخين حتى وقت قريب، ولم نستطع فهمها إلاّ من خلال المعلومات التي قدّمها علم تحول المناخ العالمي، الذي نشأ في الستينيات من القرن العشرين ونضج في الثمانينيات. وهذه المعلومات تشير إلى حدوث موجة جفاف بطيئة وطويلة... وكانت منطقة فلسطين وسوريا الجنوبية أول من تلقى هذه الموجة، بسبب حساسية معظم مناطقها للجفاف، وقلة معدلاتها المطرية مقارنة ببقية مناطق بلاد الشام... ولم يصمد طويلاً أمام نُذر الكارثة إلاّ قرى الأودية الخصيبة»(149). ثم يُردف الكاتب قائلاً: «فمع مطلع القرن الثالث عشر امتدت آثار الجفاف إلى كلّ مكان من المناطق الشرقية لحوض المتوسط (عدا مصر التي نجت منها بسبب انتظام فيضان النيل)(150).

أما توماس طومسون فقد رأى أنّ فترة الجفاف هذه امتدت ما بين 2350 و 1950 ق.م. والتي أدت «إلى انهيار زراعي بحجم كارثي يشبه الذي جرى خلال الفترة الأقصر من الألف الخامس»(151). ويبدو أنّ حالة مناخية مشابهة عادت فسيطرت على المنطقة ما بين 1200 و 1000 ق.م. وعنها يقول طومسون: «هناك بيِّنات وفيرة تؤيد حصول جفاف طويل الأمد ومجاعات توجب الانهيار الاقتصادي والسياسي في العصر البرونزي الأخير»(152). ثم يتابع قائلاً: «أطروحة د. ل. دونلي أكدت وجود تغيّر مناخي (حوالي 1200 ق.م.)، أدى إلى ظروف الجفاف التي افترض كاربنتر وجودها في ميسينيا، وتزامنتا في كلّ أرجاء نصف الكرة الأرضية. حدد ستيبنغ ذروة هذا الجفاف بين 1200 و 1190 ق.م.، واستند بذلك إلى إشارات على جفاف ومجاعة في الإمبراطورية الحثية، وردت في النصوص المصرية التي تتحدث عن إرسال الحبوب إلى الأناضول وأوغاريت أثناء فترة حكم مرنفتاح»(153).

فإذا كانت أحداث هذا الجفاف وما نتج عنها من مجاعة وإمداد بلاد الأناضول وأوغاريت في كنعان بالحبوب قد تم تسجيلها في عهد الفرعون مرنفتاح، فلماذا لم يتم تسجيل ما جرى بين يوسف والفرعون المجهول؟ وإذا كانت كلمة إسرائيل الواردة في لوحة مرنفتاح تدل بالفعل إلى مملكة إسرائيل المزعومة فلماذا لم يتم ذكر اسم الملك على العادة التي درج عليها الملوك المنتصرون تلك الأيام؟ لقد استوحى كاتب التوراة من المرويّات الشفهية المتداولة عن الجفاف والمجاعة وإمداد مصر بلاد الأناضول وأوغاريت بالحبوب، فأسلم القياد لخياله الذي أتحفنا بقصة يوسف وحكمته بتفسير حلم الفرعون، ثم وصوله إلى المركز الثاني بعد الفرعون، كلّ ذلك دون أن يأتي المحرر على ذكر اسم الفرعون. فكيف يمكن لدارسين كبار في أيامنا هذه أن يستمروا باعتبار قصص التوراة عن الآباء حقائق لا يرقى إليها الشك، لمجرد ربطها بكلام إله قبلي لا هم له إلاّ الانتصار لشعبه الخاص رغم كلّ الشرور التي أقدم على ارتكابها.

وإذا كان إخوة يوسف قد توجهوا إلى مصر بناءً على طلب يعقوب لأنّه «رأى أنّه يوجد قمح في مصر» (تكوين 42: 1)، ثم عاد، بعد أن «فرغوا من أكل القمح الذي جاءوا به من مصر» (تكوين 43: 2)، أن طلب إليهم مرة ثانية أن يذهبوا إلى شراء المزيد من القمح لأنّ الجوع كان شديداً في الأرض، فكيف نفسّر طلب إسرائيل من أولاده الذي ورد بعد أسطر أي في (تكوين 43: 11) «خذوا

من أفخر جنى الأرض في أوعيتكم وانزلوا للرجل (يوسف) هدية. قليلاً من البَلسان (شجر له زهر أبيض بهيئة العناقيد يُستخرَج منه دِهْنٌ عَطِر الرائحة وهو من فصيلة البخوريات – المنجد) وقليلاً من العسل وكثيراء (الكَثِيراء: رطوبة تخرج من أصل شجرة تكون بجبال بيروت ولبنان – محيط المحيط للمعلّم بطرس البستاني طبعة 1870) ولاذناً (نوع من العلوك – المنجد) وفستقاً ولوزاً»؟ كيف يتفق هذا القول مع قوله في بداية الإصحاح «وكان الجوع شديداً في الأرض»؟ وهل كان من يملك جنى الأرض الذي عدده، فعلاً يعاني من الجوع الشديد، أم أن محرّر التوراة كعادته يقع في التناقض تلو الآخر؟ وهل يعقل لهذه الأقاصيص أن تكون كلاماً أوحى به الله للكاتب على ما يدّعي اللاهوتيون؟

وإذا استرسلنا مع الكاتب وأحداث قصته لوجدنا أنّ الله يتدخل مرة جديدة ليقول ليعقوب: «لا تخف من النزول إلى مصر لأنّي أجعلك أمة عظيمة هناك» (تكوين 46: 3). فإذا كان هذا «الله» هو ذاته إله الكون، وهو ذاته من اختار له شعب إسرائيل شعباً خاصاً من بين كلّ الشعوب ووعده بأرض كنعان من النيل إلى الفرات، فلماذا لم يساعده على البقاء في أرض كنعان؟ ولماذا كان عليه، وهو الكليّ القدرة، أن يضرب أرض كنعان بالجفاف كي يحلّ الجوع فيضطر يعقوب (إسرائيل) إلى الارتحال من أرض كنعان إلى مصر بناءً على طلب ولده يوسف الذي أسكنه «في أرض مصر في أفضل الأرض في أرض رعمسيس كما أمر فرعون» (تكوين 47: 11). نفهم من هذا الكلام أنّ الأرض التي سكن فيها يوسف كانت تخص الفرعون رعمسيس، فأيّ واحد منهم؟ التاريخ المصري يعلمنا بوجود أحد عشر فرعوناً تسموا بهذا الاسم من السلالتين التاسعة عشرة والعشرين. وما هذا إلاّ دليل آخر على عدم دقة معلومات المحرّرين الذين سبق وذكرنا أنّهم دوّنوا هذه الأساطير ما بين القرن السادس أو الخامس أثناء وجودهم في بابل ولغاية القرن الأول أو الثاني بعد المسيح.

ولك أخي القارئ أن تتصور عدد الكَتَبَة الذين توالوا على إكمال هذا العمل، فهل وحي الله كان ينتقل من واحد لآخر لإتمام هذه المهمة؟ وها هو الكاتب يعود ليحدّد المكان الذي أقام فيه بنو إسرائيل فإذا به يدعوه جاسان. وعلى الرغم من كلّ الخير الذي لقيه يوسف في مصر، وعلى رغم الحفاوة التي استقبل بها فرعون وشعب مصر يعقوب وكلّ ذريته، نجده عندما دنا منه الموت يستحلف ولده يوسف أن لا يدفنه في مصر، بل أن يحمله ليدفنه في مقبرة آبائه، فحلف له. وكأنّ المحرّر قد عاد فذكر ما كتبه عن وعد الله لإبراهيم وإسحق ويعقوب بإعطائهم أرض كنعان، فكان من الطبيعي أن يُبرز تعلّق يعقوب بهذه الأرض، هذا التعلّق الذي عبّر عنه بأمنيته والتي تقضي بدفنه في أرض آبائه التي استولوا عليها بفرمان رباني. ونرى يعقوب هذه المرة، وبإرادة منه لا بمكر أو خديعة، يبارك أصغر ولدي يوسف، وعندما خال يوسف أنّ أباه قد أخطأ بين البكر والصغير وأراد أن يصحّح هذا الخطأ، أكد له يعقوب أنّه لم يخطئ وأنّ ابنه البكر أيضاً «يكون شعباً وهو أيضاً يصير كبيراً» (تكوين 48: 19)، أما «الصغير يكون أكبر منه ونسله يكون جمهوراً من الأمم». لماذا هذا القرار؟ وما الفرق إن هو ترك البكر يصير جمهوراً من الأمم؟ ألم يكن الاثنان حفيدَيْه؟ أليس هذا استمراراً لنهج التمييز الذي بدأه إلههم منذ قايين وهابيل؟

ويستمر التمييز الذي يبدو واضحاً بالكلام الذي قاله يعقوب لأولاده متنبئاً «بما يصيبكم في آخر الأيام»، وما على القارئ إلاّ أن يعود إلى الإصحاح 49 من سفر التكوين ليلمس هذا التمييز، فإذا بشمعون ولاوي بنظر أبيهما «آلات ظلم سيوفهما»، يهوذا «جرو أسد»، يسّاكر «حمار جسيم رابض

بين الحظائر»، دان «حيّة على الطريق أفعواناً على السبيل يلسع عقبي الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء»، بنيامين «ذئب يفترس. في الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسّم نهباً». أما رأوبين بكره فهو «فضل الرفعة وفضل العز»، وزبولون فعند «ساحل البحر يسكن وهو عند ساحل السفن وجانبه عند صيدون»، وأشير «خبزه سمين وهو يعطي لذّات ملوك»، وجاد «يزحمه جيش. ولكنّه يزحم مؤخّره»، ونفتالي «أيّلة مسيّبة يعطي أقوالاً حسنة»، أما يوسف فله عند يعقوب الحصة الأكبر فهو «غصن شجرة مثمرة. أغصان قد ارتفعت فوق حائط. ومن يديْ عزيز يعقوب من هناك من الرّاعي صخر إسرائيل... تأتي بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت... بركات أبيك فاقت على بركات أبويّ».

فبركات يعقوب برأيه فاقت بركات إبراهيم وإسحق، لماذا؟ لأنّ يعقوب قد بدّل الله اسمه إلى إسرائيل، وهذا الاسم لم يعد اسماً لشخص بل أطلق على كلّ ذرية يعقوب. فمن هنا كانت البداية الثانية، إذا صح التعبير، باختراع الشعب الإسرائيلي. أما لماذا لم يعطِ المحرّر دوراً رئيساً لأيٍّ من أولاد يوسف؟ ولماذا اختار أن يكون لموسى ذي النسب المجهول الدور الرئيس بنزول الشريعة عليه بعد إخراجه بني إسرائيل من مصر، سؤالان لا جواب منطقياً عليهما. إنّها، على ما أعتقد، الحبكة القصصية والغموض الذي تتميّز به القصة بقصد تحفيز مخيّلة القارئ.

وينتهي سفر التكوين بالإشارة إلى أنّ يوسف وبيت أبيه قد سكنوا مصر، وأنّه قال لأخوته: »... أنا أموت. و لكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب. واستحلف يوسف بني إسرائيل قائلاً الله سيفتقدكم. فتصعدون عظامي من هنا» (تكوين 50: 24). فإذا كنّا قد تساءلنا حول طلب يعقوب بأن يُدفن في مغارة المكفيلة مع آبائه على الرغم من كلّ الترحيب الذي لقيه في مصر، من الفرعون والشعب على السواء، فما بالنا بيوسف الذي عاش معظم حياته في مصر، ووصل إلى أعلى منصب بعد الفرعون؟ ولماذا أراده الكاتب أن يطلب من ذريته نقل عظامه؟ أما إلى أين؟ فهو لم يحدد بل قال: من هنا فقط.

وبذلك تنتهي قصص الآباء الخيالية التي ظلّت مسيطرة على دراسات اللاهوتيين والباحثين وعلماء الآثار لغاية النصف الأول من القرن العشرين. أما بعد أن اتخذ عِلم الآثار منحاه العلمي المتجرد، البعيد عن التسييس، فقد بدأت ترتفع أصوات كثيرة تؤكد على أسطورية هذه القصص وبعدها عن الحقيقة والتاريخ. نقرأ لفراس السواح: «يقول هيرتسوغ بأنّ الحفريات المكثّفة في أرض إسرائيل خلال القرن العشرين قد أوصلتنا إلى نتائج محبطة. كلّ شيء مختلف، ونحن لم نعثر على شيء يتفق والرواية التوراتية. إنّ قصص الآباء في سفر التكوين هي مجرد أساطير...»(154). ويؤكد السواح على عدم إمكانية اعتبار مرويات التوراة مصدراً تاريخياً موثوقاً، فيقول: «إنّ أيّ دارس مبتدئ لعلم التاريخ يكتشف من القراءة الأولى لسفر التكوين أنّ ما يرويه لنا من قصص لا يمكن تصنيفه في زمرة الأخبار التاريخية بأيّ معيار من المعايير. لا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون»(155).

من جهته يؤكد الأب الدكتور سهيل قاشا على تأثر محرري التوراة بأساطير الحضارات المتقدمة عليهم فيقول: «وفي التوراة بعض عادات تظهر لنا نابية شاذة. ولكن في مخلفات التاريخ والآثار ما يثبت وجودها عند الأقدمين ويلقي عليها بعض نور. من ذلك ذبيحة إسحق التي تدل على تقريب ضحايا بشرية. فإنّها تبدو أقل غرابة إذا ما علمنا أنّ في قبور الكلدانيين وفي مرتفعات فلسطين بقايا

أجساد أطفال وعبيد تبدو فيها آثار الذبيحة. وكذلك الكبش الذي وجده إبراهيم الخليل في العليقة فافتدى به وحيده، إطاعة لأمر ملاك الرب، فقد وجد تمثاله في مدينة أور الكلدانية»(156). وهذا الإثبات، إضافة إلى ما سقناه من أمثلة على نقل محرّري التوراة أقاصيصهم عن الأصل السومري أو الكلداني أو البابلي أو الكنعاني، لخير دليل على أسطورية هذه الأقاصيص المدعوة زوراً مقدسة ، وعلى عدم علاقتها بالوقائع التاريخية. فإذا سقطت عنها صفتا القدسية والتاريخانية فماذا يبقى منها غير أقاصيص للتسلية والتندر؟

ويستشهد الأب قاشا بقولٍ للكاتب الفرنسي جان لوي برنار يؤكد من خلاله أنّ «أحبار اليهود قد اقتبسوا من تواريخ الأقطار التي جاسوا خلالها بعض الحكايات، فعبرنوا كلّ المعلومات التي كان الغرض منها تلفيق أكذب تاريخ للعالم. كلّ ذلك لاختراع مُلفّقة الشعب اليهودي المختار»(157). ويقول توماس طومسون: «إنّ العهد القديم لم يكن تاريخاً تحوّل إلى خيال بل خيالاً تحوّل إلى تاريخ»(158). ولقد تم ذلك على يد دارسي التوراة الذين تم توجيههم على يد الصهيونية لضرورة مطابقة المكتشفات الأثرية في فلسطين مع مرويات التوراة حتى لو كان ذلك على حساب تزوير البيّنات والأدلة. وهذا ما دعا الكاتب إلى انتقاد بعض هؤلاء الدارسين حيث قال: «واشترك ألبرايت وألت في الهدف، أي إعادة تشكيل تاريخ إسرائيل القديم على أساس التقييم النقدي والتوفيق بين الدراسات التوراتية والأركيولوجية المتعلقة بالشرق الأدنى»(159)، وانطلاقاً من موقفه الناقد هذا توصل إلى التأكيد على أنّ «هذه المحاولة للتوفيق بين البيّنات التوراتية وغير التوراتية كإثبات لتاريخانية إسرائيل القديمة، سرعان ما دخلت مرحلة الانهيار، التي ما زالت متواصلة حتى اليوم»(160).

أما شلومو ساند فيقول: «هؤلاء الباحثون اقترحوا عوضاً عن ذلك التعاطي مع مجمل قصص الآباء على أنّها مجموعة قصصية مُختلقة اخترعها في مرحلة متأخرة باحثون لاهوتيون أكفّاء»(161). من جهته يقول كيث وايتلام: «ولكن فيليب دِفِيس (1992م) أشار إلى أنّ إسرائيل المطروحة في الدراسات الكتابية هي بنية مُشادة على القراءة الخاطئة للتراث الكتابي وبعيدة عن الحقيقة التاريخية»(162). ثم يردف قائلاً: «إنّ الدراسات المختلفة هي دراسات مضلِّلة لأنّها لا تكشف أيّ شيء عمّا يُسمّى ظهور إسرائيل»(163). كما انتقد وايتلام كبار الدارسين الذين، وباسم العلم والموضوعية، وسواء عن جهل أو عن سابق تصوّر وتصميم، حَرَفوا البحوث عن غايتها العلمية، وذلك لتحقيق غاية الصهيونية المتمثلة بكشف تاريخ إسرائيل المزعوم عن طريق إيهام الرأي العام بأنّ المكتشفات الأثرية تؤكد ما هو وارد في كتاب التوراة. وها هو يفضح مقاصد ألبرايت السياسية فيقول: «ولكن المفارقة أنّ المعطيات الآثارية ذاتها من الحفريات وعمليات المسح للمنطقة، هي التي نسفت اختلاقه للماضي. وبإعادة النظر يصبح من الأسهل رؤية أنّ تركيبته كانت مجرد ماضٍ مُتخيَّل مرتبط بالحاضر، كما هو الحال عند ألت. إلاّ أنّ المضامين السياسية لعمله ظلّت بشكل عام بعيدة عن التفحّص ومغطّاة بالتركيز على إنجازاته في ميدان العمل الآثاري والدراسات الكتابية عموماً»(164).

وبناءً على دراسته الشاملة لهذا الموضوع يتوصل كيث وايتلام إلى استنتاج منطقي مفاده أنّ «النتيجة الأهم بالنسبة إلى البحث التاريخي الإشارة إلى موت «التاريخ الكتابي» والذي يحل محله بالتدريج،

الاعتراف المتزايد بالتاريخ الفلسطيني كموضوع له أحقيته الخاصة به». وهو الذي كان قد توصل إلى نتيجة أهم من هذه إذ قال بأنّ «تاريخ إسرائيل إذا نُظر إليه من منظور أبعد هو لحظة في ذلك المدى الواسع الذي يشكّله التاريخ الفلسطيني»(165). ويضيف: «وهذا التأثير كبير لأنّ وجود الكثيرين من طلابه (ألبرايت) يسيطرون على البحث العلمي الأميركي الكتابي من خلال مواقعهم وترقياتهم إلى مواقع (أكاديمية) أعلى. كما أنّ منشوراتهم وتدريباتهم لأجيال جديدة تالية من الطلاب تعني أنّ آراء ألبرايت وأبحاثه قد تركت علامتها الراسخة في هذا المجال. وقد استطلع بورك لونغ الآلية التي تم من خلالها توالد آراء ألبرايت حتى من خلال أعماله غير المنشورة. إنّ خلق هذه الشبكة الفاعلة وتدعيمها عامل هام أيضاً لطرح مشكلة أين يمكن أن توجد دراسة تاريخ فلسطين القديمة في المستقبل وهي تتحرر من سيطرة الدراسات الكتابية»(166).

ولمزيد من التأكيد على ما سبق وذكرناه من أسطورية كلّ قصص سفر التكوين نقرأ ليوسف أيوب حداد ما يلي: «واتضح أنّ كلّ ما كُتب ويُكتب اليوم حول الفترة الممتدة من إبراهيم إلى يوسف هو محض تخيُّل وافتراض، ومحاولة لاستقراء نصوص التوراة وتفسيرها بكثير من حرّية الخيال... إذ لا يمكن أن نتوقع العثور على أيّة بيّنات آثارية تثبت رواية سفر التكوين... وفي جملتها قصص إبراهيم ولوط وإسماعيل ويعقوب ويوسف وموسى، هي فيما يرى علماء التاريخ، لا تعدو أن تكون أساطير لا تمت إلى علم التاريخ بصلة»(167)، والمقطع الأخير نقله الكاتب عن كتاب «اليهودية بين الأسطورة والحقيقة - نشوء وتطور العقيدة الموسوية» لعصام الدين حفني ناصف. وعن بدء الزمن والخلق كما وردت في سفر التكوين نستشهد بما كتبه اليهودي إيلان هاليفي إذ يقول: «واليهود، هم يحسبون الزمن بدءاً من... خلق الكون! من المؤكد أنّه يبدو من السذاجة تماماً أن نتخيل اليوم كما تؤكد العقيدة الحاخامية أنّ العالم قد خُلق منذ خمسة آلاف وسبعمائة وأربعين سنة بالضبط. ما من حاجة قط أن نبرهن على أنّ هذا الحساب قرن الأوسطي الذي يعود إلى الكتابة التوراتية الثانية منذ أكثر من عشرة قرون خلت هو حساب خاطئ»(168).

إنّ العالم اليوم، كما في الأمس البعيد، يشهد عمليات تزوير في شتى مناحي النشاط الإنساني. ففي الشعر العربي القديم مثلاً كُثُر هم الشعراء المغمورون الذين كانوا يقولون شعراً ثم ينسبونه إلى شاعر مشهور. وفي الرسم كثر هم الذين زوّروا لوحات كبار الرسامين، قس على ذلك ما حدث عموماً مع كلّ المبدعين. وفي هذا المجال لم يشذ كتبة التوراة عن الطبيعة الإنسانية فغرفوا من معين الحضارات التي سبقتهم ولم يكتفوا بذلك، بل ادّعوا أنّهم مبدعو هذه الأساطير وفرضوها على الحضارات الإنسانية اللاحقة على أنّها نتاجهم الفكري الروحاني المقدّس. ومع التقدم الذي رافق علم الآثار بدأت تتكشف خيوط المؤامرة الصهيونية، التي استغلت هذا العلم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، حيث بدأت ترتفع أصوات أركيولوجيين موضوعيين لم تستطع عصا الصهيونية ترويضهم ففضحوا بأبحاثهم المستفيضة مقاصد الصهيونية السياسية التي استغلت مشاعر المؤمنين المتعلقين بالنصوص الكتابية ليحرفوا العلم عن مقاصده. فكان من نتيجة ذلك أنّهم استطاعوا الفصل بين الأصل المتمثل بالأساطير والأدبيات السورية القديمة التي تسبق ما ورد في التوراة بمسافة زمنية تُقدَّر بين ألف وألفَين وخمس مئة سنة، وبين النحل أي الأساطير التي وضعوها على نسق أساطير بلاد ما بين النهرين وكنعان خلال وجودهم في حاضرة ذلك العصر بابل العظيمة.

فهل من الجائز أن نجاريهم بمتابعة تعميم هذه الأكاذيب على الأجيال البريئة، أم على كل واحد منّا إعادة النظر بما فُرض عليه فيتوصل إلى ما توصل إليه الفيلسوف اليهودي سبينوزا من حقيقة مفادها أنّ ما ورد في التوراة لا يعدو كونه قوانين خاصة باليهود لسنا ملزمين بها: «لقد أدركت أنّ الأحكام الموحى بها من الله إلى موسى لم تكن شيئاً آخر سوى القانون الخاص بدولة العبرانيين، وبالنتيجة فإنّ لا أحد من خارجهم كان ملزماً بالتسليم بها، وعلاوة على ذلك فهم أنفسهم لم يكونوا ملزمين بها أثناء مدة دولتهم». لقد استحق سبينوزا غضب اليهود عليه، لكنّه لم يتراجع عن قناعاته، فهلاّ كان لنا مثلاً نحتذي به فنترك لليهود حقهم بأنّ يؤمنوا بما شاؤوا، ونتمسك بما أتت به الرسالتان الإسلاميتان الإنسانيتان المسيحية والمحمدية، ففيهما ما يكفي من زاد للدنيا وللآخرة؟ أم أنّنا سنبقى أسرى التلفيقات الصهيونية التي تسعى إلى تدميرنا واقتلاعنا من أرضنا وطمس حضارتنا؟

سنكمل رحلتنا عبر أسفار التوراة لكي نضع إصبعنا على الجرح الأكثر نزفاً، أعني به إرهاب الدولة العبرية التي تستمد نهجها مما جاء في كتاب اليهود الديني، آملاً من القارئ التحلي بالكثير من الصبر والرّويّة لكي يستطيع رؤية الحقيقة بعين المؤمن العاقل دون التخلي عن الإيمان كفطرة إنسانية ضرورية للكثيرين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني

الخروج الأسطوري والدخول الخيالي

«هجرة مصر ما هي إلاّ قصة وهمية أو حادثة رمزية وليس لها أدنى أصل حقيقي»

«دائرة معارف القرن العشرين»

مجلد 2، ص 702

«إنّنا نعرف الآن أنّ ما يُدعى بعصر الآباء الذي ابتدأ بإبراهيم وانتهى برحيل أولاد يعقوب واستقرارهم في مصر، هو عبارة عن مجموعة قصص مستوحاة من ماضٍ خرافي لا يمكن وضعه في إطارٍ تاريخي حقيقي»

«الوجه الآخر للمسيح»

فراس السوّاح

أوضحنا في الفصل الأول أنّ سفر التكوين هو محاولة بدائية لتفسير وجود الكون والمخلوقات، وبما أنّه كُتب بعد ما لا يقلّ عن ألفَيْ سنة من أساطير السومريين، فإنّه لم يقدّم أيّ جديد على هذا الصعيد، بل يمكننا القول بأنّ قصصه جاءت نسخة عمّا سبقها، وفي بعض الأحيان مبتذلة، لم تستطع الارتقاء إلى المستوى الإنساني الذي كانت قد وصلته الأساطير الأقدم. وانطلاقاً من مبدأ التطور الذي رافق رحلة الإنسان الحضارية نستطيع التأكيد بأنّ التوراة لم تأتِ بجديد، بل أنّها أسفّت عمّا سبقها من فكر إنساني كوني منفتح، لامس القِيَم الاجتماعية الهادفة إلى الارتقاء بالإنسان، وتدرّج بالمفاهيم اللاهوتية الماورائية حتى وصل إلى وحدانية الإله الأعظم والخالق الأوحد. لقد أوجد كاتب الأسفار إلهاً جديداً محلياً قبلياً وأعطاه صفات إنسانية بعيدة عن الألوهة، وجعله عنصرياً يختار له شعباً واحداً خاصاً مميَّزا، ويسلّطه على بقية الشعوب يُعمل فيها قتلاً ونهباً وتشريداً. ولكي نستطيع إثبات ما نقوله نتابع رحلة أبناء يعقوب (إسرائيل) الذين تركوا أرض كنعان ووفدوا إلى مصر حيث كان يوسف، أخوهم الأصغر، قد وصل إلى أعلى مركز في بلاط فرعون.

ففي الإصحاح الأول من سفر الخروج نقرأ من المقطع السادس ما يلي: «ومات يوسف وكلّ إخوته وجميع ذلك الجيل. وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جداً وامتلأت الأرض منهم». فإذا «كانت جميع نفوس الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفساً» (خروج 1: 5)، وإذا كان الجيل الأول، أي يوسف وأخوته الأحد عشر قد ماتوا جميعاً، فهذا يعني أنّ عدد الذين ظلوا أحياء ثمانية وخمسون نفراً، فكيف يمكن لهؤلاء أن يتوالدوا فتمتلىء الأرض منهم؟ فلو حدّد الكاتب فترة زمنية طويلة لهان الأمر، أمّا أن يتم التكاثر بعد موت الجيل الأول مباشرة، فإنّ ذلك دون شك من قبيل المبالغة التي حفلت بها التوراة والتي سنفرد لها باباً خاصاً. وما هذا الأسلوب الذي اتّبعه الكاتب برأيي إلاّ لإضفاء الأهمية على بني إسرائيل التي ستصل إلى مداها مع ظهور موسى، واستنزال الكاتب الشريعة عليه وصولاً إلى حروب يشوع الوهمية.

ومباشرة بعد ذلك ينتقل الكاتب في المقطع الثامن ليقول: «ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف». لم يذكر الكاتب اسم هذا الملك ممّا يسقط الصدقية التاريخية عن الرواية التوراتية، ويدفعنا هذا الخبر إلى طرح سؤال بديهي وهو: إذا كان يوسف قد لقي حظوة لدى فرعون مصر، ولم يذكر الكاتب اسم هذا الفرعون أيضاً، لدرجة أنّ فرعون «قال ليوسف انظر. قد جعلتك على كلّ أرض مصر. وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف. وألبسه ثياب بُوصٍ ووضع طوق ذهب في عنقه. وأركبه في مركبته الثانية ونادوا أمامه اركعوا. وجعله على كل أرض مصر. وقال فرعون ليوسف أنا فرعون. فبدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله في كلّ أرض مصر» (خروج 1: 41 – 44)، فكيف يمكن لأيّ ملك جديد يتسلّم الحكم أن لا يكون على معرفة بيوسف، وهو الرجل الثاني في المملكة بعد فرعون مباشرة، يلبس خاتمه ويسجد الناس له، ولا يقومون بأيّ عمل، في أرض مصر كلّها، دون أمره؟ ألا يستدعي منّا ذلك أن نترك الفكر النمطي جانباً، ولو لثوانٍ معدودة، لنتأمّل بمدى توافق هذه القصة عقلانياً مع منطق وقوع الأحداث؟

يقول معروف الرصافي: «أمّا الذي يتغلّب عقله الفطري بوفوره وغزارته على هذه العقلية المُكْتَسَبة فهو يكون بخلاف ذلك أي لا يكون خاضعاً للتقاليد الموروثة بل ينظر إليها وإلى كلّ أمر من الأمور بمنظار من عقله الفطري الوافر الغزير، فما كان منها حقاً قَبِله، وما كان منها باطلاً رفضه»(169). وإذا كان العقل بالنسبة لابن رشد «لا يعرف حدًّا لبحثه. ومتى وُضع له حدّ فإنّ ذلك بمثابة خنقه وقتله»، وكلّ «شيء لا يقبله العقل والبرهان العلمي يجب تأويله»(170)، فإنّه حريّ بنا أن نعرض هذه القصص على العقل الفطري لا المُكْتَسَب الذي، ودون أدنى شك، سيرفضها وفي أحسن الأحوال سيقوم بتأويلها. وتأويل ذلك بنظري سهل جداً، لأنّ كل ما ورد في التوراة ما هو إلاّ من باب القصص الخيالي حيث لا يجوز التعامل معها على أساس تاريخي ولا حتى على أساس مقدّس، إذ متى كانت القصص والأساطير مقدّسة وهي نتاج الفكر البشري؟ يقول اسبينوزا: «إنّ من يعتقدون أنّ التوراة على ما هي عليه الآن رسالة من الله بعث بها من السماء إلى البشر، لن يفوتهم أن يصرخوا قائلين بأنّي ارتكبت الخطيئة في حق الروح القدس، إذ لقد قلت فعلاً: إنّ كلام الله مزيّف ومنقوص ومحرّف»(171)، ثم يستطرد قائلاً: «ولهذا السبب نفسه لا يكون الكتاب مقدًّسا، ولا تكون نصوصه إلهية، إلاّ بقدر ما يحث الناس على تقوى الله. فإن تخلوا كلية عن هذه التقوى، كما تخلى عنها اليهود من قبل، أصبح حبراً على ورق أو ضاعت قدسيّته كليّة»(172). فهل يكفي أن يعتبر اليهود، لا سيما الغلاة منهم كأصحاب مذهب العصمة الحرفية الذين يؤكدون «أنّ الكتاب المقدّس معصوم من الخطأ ليس في قضايا العقيدة والأخلاق فحسب، بل أيضاً فيما يتعلق بالتاريخ ومسائل الغيب»(173)، هل يكفي لكي يتقبّل كلّ الناس، في كلّ زمان ومكان، هذه المرويّات على أساس أنّها مقدّسة وحقائق تاريخية؟ فماذا إذن عن الدارسين والمفكّرين والباحثين، ومنهم يهود، والذين أخضعوا هذه المرويّات لمجهر العقل فوجدوا أنّها قصص تنتمي إلى الأدب لا إلى التاريخ؟

فأبراهام بورغ، الرئيس الأسبق للكنيست الإسرائيلي وأحد أبرز القادة السابقين لحزب العمل الإسرائيلي، تطرق إلى قصة يعقوب ووصل إلى استنتاج مفاده أنّها قصة رمزية فسّرها الحاخام موشيه بن نحمان، المفسر التوراتي من القرون الوسطى، على أنّها تتضمن عبرة للأجيال «والأجدى لنا أن نتمسّك بطريق الصديق، وأن ندعو أنفسنا لثلاثة أمور دعاها هو لنفسه، وهي الصلاة والوهب والنجاة في الحرب»(174)، ويكمل بورغ قائلاً: «كانت هذه القصة الأسطورية القديمة حجر الزاوية

لتفكير أجيال كثيرة»(175)، وأنا أضيف بأنّها لا زالت وستستمر للأجيال التي لم تولد بعد طالما أنّ هذه الأجيال ستنشأ على الثقافة ذاتها.

أما عن قصة يوسف فمعظم الباحثين الموضوعيين اليوم يؤكّدون أنّها من نسج الخيال وأنّ يوسف، كغيره من شخصيات الأسفار التوراتية، شخصية أسطورية وهمية. يقول جميل خرطبيل: «ولعلّ حكاية يوسف مسروقة من حكاية شعبية مصرية هي: أنوبو وبيتيو، التي وُجدت في بردية تعود إلى 1250 ق.م. ويمكن أن يكون تاريخها أقدم من ذلك»(176). فمعظم قصص التوراة مُقتَبَسة من آداب الشعوب القديمة والتي كانت قد قطعت شوطاً بعيداً في معارج الحضارة. ولمّا استفاقت هذه القبائل البربرية على وجودها البدائي قياساً بالوجود الحضاري للشعوب التي تحيط بها، قام بعض من تتلمذ على آداب هذه الشعوب بوضع هذا الكتاب، مستفيدين ممّا وضعته حضارات ذلك الزمن بين أيديهم من إبداع فكري مميّز فنسجوا على منواله ناسبين لأنفسهم فضل هذا الإبداع، حتى كان النصف الثاني من القرن العشرين فإذا بالمكتشفات الأثرية تفضح كلّ سرقاتهم وتعرّي فكرهم البدائي قياساً على من سبقهم في هذا المجال.

يقول الأب مايكل برير: «إنّ الإخفاق في تمييز القصص الكتابية على اعتبارها قصة من التاريخ بمفهوم نقل المعلومات عن الماضي، لم يعد مقبولاً. يجب أن يتخلى العلماء عن الاطمئنان إلى عد القصة الكتابية تاريخاً وأن يقبلوا بنتائج الدليل الجديد عن الماضي، وأن يحاولوا إعادة بناء العقيدة الدينية التي تحترم الدليل»(177). وكان قد ذكر أنّ «عدة عوامل تلتقي لكي توحي أنّ قصص الآباء ما هي إلاّ خيال أدبي»(178). ويقول جودت السعد: «وجد الباحثون والمنقّبون الآثاريون أثراً مهماً مكتوباً على ورق البردي يعود إلى الأسرة التاسعة عشرة ومكتوب بالهيروغليفية ألقى أضواء على قصة يوسف مع زوجة سيده المشهور بالتوراة، وهذه الوثيقة تحمل عنوان قصة الأخوين»(179). وعن يعقوب يقول: «ورغم أنّ التوراة تذكر منطقة جوش قرب أفاريس كمكانٍ سكن فيه يعقوب وأبناؤه، فلم يعثر الآثاريون على أيّ دليل على ذلك»(180). وكنّا قد ذكرنا سابقاً أنّ ورود بعض أسماء الأماكن لا يعطي القصة صدقية تاريخية، فكثيرون هم الأدباء الذين يكتبون القصة اليوم على أساس أنّ أحداثها تدور في بلد معيّن أو مدينة محدّدة. فهل هذا يعطي قصتهم بُعداً تاريخياً لا تمكن مناقشته؟

وبالعودة قليلاً إلى يوسف نجد أنّ سيغموند فرويد أيضاً اعتبر قصته من صنع الخيال، فهو يتحدث عن مسلك اليهود وطباعهم عبر التاريخ ليصل إلى استنتاج فيقول: «والخرافة اليهودية عن يوسف الذي باعه إخوته تكشف النقاب منذ ذلك العهد عن النتائج المحتملة لمثل هذه الغيرة أو مثل هذا الحسد»(181) (غيرة الأبناء الكبار من إيثار الأب لابنه الأصغر). ونحن إنْ أردنا التوسع أكثر حول أسطورية هذه القصص وعدم وجود أيّة صلة لها بالتاريخ لكان علينا أن ننكب على قراءة كلّ كتاب تطرّق إلى هذا الموضوع والاستشهاد بما جاء فيه وبالتالي لأَخَذَ منّا هذا الهدف الوقت الكثير ولضاقت صفحات هذا الكتاب لكي تستوعب كلّ ما قيل عن هذه المسألة.

حسبنا أن نشير إلى ما ورد في القرآن الكريم عن ذلك. يقول أسعد زيدان: «كما أنّ القرآن في بداية سورة يوسف، الآية 3، ينبّه عقول المسلمين عن واقع حقيقة الرواية بأنّها أسطورة وليست حقيقة

تاريخية مقدّسة فقال: (نَحْنُ نَقصُّ عَلَيْك أَحْسَنَ القَصَصِ) ﴿بر وكلمة القصص تعني الأساطير، وأنّها أمثال نضربها للناس. وهي للنقل وليست للعقل وللاستشهاد وليس للاعتقاد»(182).

وبالعودة إلى سفر الخروج نقف على تفاصيل ما حدث لبني إسرائيل بعد موت يوسف فإذا بالملك الجديد، الذي لم يكن يعرف يوسف، يخاف من تكاثر بني إسرائيل فيبدأ باضطهادهم وتسخيرهم للقيام بكلّ أنواع الأعمال لصالح المصريين. ثم قام هذا الملك بإعطاء أوامره «لقابلتي العبرانيات اللتين اسم إحداهما شفرة واسم الأخرى فوعة. وقال حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسي. إن كان ابناً فاقتلاه وإن كان بنتاً فتحيا» (خروج 1: 15 – 16).

ولن نمرّ بهذا الكلام كالعادة مرور القارئ العادي دون أن نطرح سؤالين، الأول هو: أيّهما أهم فرعون مصر أم القابلة العبرانية؟ والجواب بالطبع فرعون مصر، فلماذا إذن ذكر الكاتب اسم القابلتين وأحجم عن ذكر اسم الفرعونين؟ والثاني هو: إذا كان الإسرائيليون قد تكاثروا بعد موت يوسف حتى ملأوا الأرض، فهل يعقل أن تتمكن قابلتان فقط من توليد كلّ نسائهن؟ وتفسير ذلك هو ببساطة أنّ للكاتب مخططاً يريد السير به وصولاً إلى غاية محددة. فالمخطط هو إشاعة هالة حول ولادة البطل الأسطوري موسى والهدف هو إظهار أنّ الله كان يرعى شعب إسرائيل وصولاً إلى إرسال المخلّص موسى، وهذه الرعاية تظهر من خلال سرد الكاتب الذي يشير إلى أنّ القابلتين لم تلتزما بأمر فرعون، ومن كان يجرؤ على ذلك؟ وتفتّقت عبقريتهما عن اختراع عذر لا علاقة له بالمنطق يقول بأنّ «النساء العبرانيات لسنَ كالمصريات. فإنهنّ قويّات يلدن قبل أن تأتيهنّ القابلة» (خروج 1: 19).

قد يصح هذا الكلام على عدد محدد وقليل جداً من النساء، ولكن أن تتميّز النساء العبرانيات بهذه الميزة دون المصريات فهذا يدعونا إلى الاستغراب. فهل كان الفرعون وكلّ كهنته ومستشاريه أغبياء كي تنطلي عليهم هذه الحيلة؟ وبما أنّ الكاتب كان قد خطط مسبقاً إلى أنّ موسى هو النبي القائد المخلّص، وهو الذي سيعقد معه الله السابق ليهوه الكثير من العهود، فقد أشار إلى أنّ الله قد أحسن إلى القابلتين، وهذا يعني أنّ الله مع الكاذب إذا كانت غايته من الكذب تحقيق مصلحة خاصة به. ثم عاد وكرر أنّ الإسرائيليين قد كثروا جداً. فلماذا لم يقم فرعون بمعاقبة القابلتين لعصيانهما أوامره؟ ولكي تنجح خطته هذه المرة فقد أمر «جميع شعبه قائلاً كلّ ابن يولد تطرحونه في النهر» (خروج 1: 22). إذن كان على المصريين أن يعملوا جواسيس مراقبة نساء العبرانيات لكي يتأكّدوا من تاريخ ولادة كلّ امرأة حتى إذا ما وضعت مولودها سارعوا إلى فحصه فإذا كان ذَكَراً طرحوه في النهر.

ثم، ودون مقدّمات، يبدأ الإصحاح الثاني بخبر عن ذهاب رجل من بيت لاوي، أحد أبناء يعقوب، وزواجه من بنت لاوي. فقوله من بيت لاوي دون تحديد اسم الرجل قد يعني أنّه ربما يكون من الجيل الأول أو من الجيل المئة بعد لاوي، أمّا قوله: «وأخذ بنت لاوي»، فهذا يعني أنّ لاوي هو أب هذه الفتاة وبالتالي فهي من الجيل الثاني فقط، فكيف يمكن لثمانية وخمسين نفراً أن يتكاثروا ويملأوا الأرض؟ وبالرغم من كلّ هذا الابتذال، وبالرغم من قناعتنا المسبقة، وقناعة غيرنا، بأسطورية هذه الأسفار أحببنا أن نكمل الرحلة لكي نرى إلى أين سيقودنا خيال الكاتب، فنجد نفسنا أمام مشهد مسرحي جديد. فها هي ابنة لاوي تحبل فتلد ابناً وترى أنّه حسن فتقوم بتخبئته لثلاثة أشهر. ولما

خافت من افتضاح أمرها «أخذت له سَفطاً من البَرديّ وطلته بالحُمَر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحَلْفاء على حافة النهر. ووقفت أخته من بعيد لتعرف ما يُفعل به» (خروج 2: 3).

فمن أين أتت هذه الأخت؟ فالكاتب لم يأتِ على ذكر أيّة ذرية لهذا الرجل الذي تزوج بنت لاوي، بل مباشرة بعد إعلان هذا الزواج وفي المقطع الثاني من الإصحاح الثاني من سفر الخروج يعلن أنّ المرأة حبلت وولدت ابناً. فإذا قال قائل: هل تريد من الكاتب أن يؤرّخ لكل حدث ثانية ثانية؟ قلت لا، ولكن عندما يتعلق الأمر بمسألة خارجة عن المألوف يجب أن يكون أكثر دقّة وإلاّ فَقَدَ صدقيته، وهذا ما حصل بالفعل. وهذا الأمر بالتحديد هو ما دفع بالكثيرين من الدارسين والباحثين إلى بحث مسألتَيْ التناقض والمبالغة اللتين وقع بهما الكاتب أو الكَتَبة، وصولاً إلى استنتاجهم بأنَّ هذه القصص أبعد ما تكون عن التاريخ والحقيقة.

نقل جميل خرطبيل في كتابه «نقد الدين اليهودي» قولاً من كتاب «التوراة تاريخها وغاياتها» ترجمة وتعليق سهيل ديب، ما يلي: «ولا نستطيع مهما حاولنا أن نجد سنداً تاريخياً يؤكّد قصص «سفر الخروج» فالتاريخ المصري وهو تاريخ موازٍ زمنياً لروايات الخروج جرى تسجيله بعناية ودقّة بالغتَيْن يرفض بعناد وإصرار أن يعطينا أيّ تأكيد أو إشارة لهذه القصص».

وتستمر حركية الأحداث الدرامية فإذا بابنة فرعون تنزل إلى النهر لتغتسل فترى السفط وترسل أَمَتَها فتأخذه، وما أن تفتحه حتى تجد الولد، فترق له وتعرف أنّه من أولاد العبرانيين، وهنا يُدخل الكاتب أخت الصبي التي كانت تراقبه من بعيد إلى المشهد وكأنّ بينها وبين إبنة الفرعون وحدة حال وهي لم تكن من عداد جواريها، وتقترح عليها أن تنادي لها على «امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد» (خروج 2: 7)، فوافقت ابنة فرعون غير خائفة من غضب والدها لعصيانها أوامره، «فقالت لها ابنة فرعون اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أمّ الولد» (خروج 2: 8). فإذا كانت الفتاة أخت الولد، فهذا يعني أنّها ذهبت إلى أمها، فلماذا قال الكاتب «ودعت أم الولد» وكأنّ أمها غريبة عنها؟ وبسطرين فقط ترضع المرأة الولد ويكبر ويصير ابناً لابنة فرعون فتدعوه موسى: «فأخذت المرأة الولد وأرضعته. ولمّا كَبُرَ الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابناً. ودعت اسمه موسى وقالت إنّي انتشلته من الماء» (أي أنّ اسم موسى يعني المُنتشَل من الماء باللغة العبرية). فقول الكاتب بأنّ ابنة فرعون دعت اسمه موسى لأنّها انتشلته من الماء فيه الكثير من المغالطات، إذ من المفترض أنّ ابنة فرعون كانت تتكلم لغة بلدها وهي في ذلك الوقت المصرية القديمة أي الهيروغليفية، واللغة العبرية لم تكن قد وجدت بعد، وهي إن كانت موجودة فلماذا كانت ابنة فرعون تتكلمها وهي لغة العبرانيين المستعبدين، فالمعروف أنّ أبناء الملوك كانوا يستنكفون عن معاشرة عبيدهم ولا شيء يدعوهم إلى تعلّم لغتهم.

يقول جودت السعد «أ: إن الصيغة المصرية موسى تختلف لفظاً ومعنى عن الصيغة العبرية (موشيه) والتي تعني المنقذ من الماء. ب: إذا كانت إبنة فرعون هي التي أعطته الاسم العبري (خروج 2: 10) الذي يعني المُنتشَل من الماء فهذا يثير التساؤل حول معرفة ابنة فرعون اللغة العبرية. ج: واللغة العبرية لم تكن موجودة في القرن الثالث عشر ق.م. – فترة الخروج – وليس من دليل آثاري أو توراتي على وجود اللغة العبرية حتى حوالي القرن الثاني قبل الميلاد تقريباً كلغة معروفة ولم يبدأ أحد الإشارة إلى اللغة العبرية إلاّ بعد أن تبنّى عدد من أنبياء اليهود وكتبتهم (حوالي القرن الثاني

ق.م.) لهجة آرامية سميت «اللغة المقدسة» وهي التي عُرفت تالياً باللغة العبرية. فكيف إذن تسمي ابنة فرعون (القرن الثالث عشر ق.م.) لقيطها موسى بمعنى المُنتشل من الماء – بالعبرية، إذا كانت العبرية غير موجودة بعد»(183).

والتساؤل ذاته طرحه سيغموند فرويد: «من غير المعقول الافتراض بأميرة مصرية المعرفة بأصول الاشتقاق من العبرية»(184). أما ج. هـ. بريستد فيقول في كتابه «فجر الوجدان»، «من المهم أن نلاحظ أنّ اسمه: «موسى» كان مصرياً: فالكلمة المصرية (موسى) تعني طفل». وهذا ما تؤكده التوراة إذ نقرأ من سفر الخروج 2: 16: «فقلن رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة»، إشارة إلى موسى الذي كان هرب من وجه فرعون إلى مديان. وهذا الكلام يدفعني إلى أن أضيف بأنّ التوراة، وخاصة الأسفار الخمسة الأولى، هي من وضع عزرا الكاهن في القرن الخامس ق.م.، فحتى ذلك الوقت أيضاً لم تكن اللغة العبرية قد وجدت بعد.

يقول ماكلستر في كتابه «قرن من الحفريات في فلسطين» A Century of Excavation in Palestine: «إنّ الموسويين تكلموا لغة كنعان وخدموا آلهة كنعان». والمنطق يقول أيضاً بأنّ موسى الذي وُلد في مصر وتربّى في بلاط فرعون لم يكن يعرف سوى اللغة المصرية، وبالتالي عند الخروج المزعوم والدخول إلى أرض كنعان لم يكن العبرانيون يعرفون إلاّ اللغة المصرية وبعد دخولهم إلى أرض كنعان، والذي تحوم حوله شبهات كثيرة، استبدلوا لغتهم المصرية باللغة الكنعانية. ويقول فراس السواح: «فاللغة التي تكلموا بها هي لهجة كنعانية فلسطينية قريبة جداً من لهجة فينيقيا وأوغاريت، والقلم الذي كتبوا به لغتهم هو القلم الفينيقي الآرامي بعينه. وقد كان محررو التوراة مدركين لهذه الحقيقة عندما أطلقوا على لغتهم اسم لغة كنعان أو شفة كنعان، ولم يطلقوا عليها اسم اللغة العبرية أبداً»(185).

ونقرأ من سفر إشعيا الإصحاح التاسع عشر المقطع الثامن عشر: «في ذلك اليوم يكون في أرض مصر خمس مدن تتكلّم بلغة كنعان وتحلف لربّ الجنود يُقال لإحداها مدينة الشمس». وعزرا الذي كتب الأسفار وهو في بابل كان قد تيسّر له الاطّلاع على حضارة البابليين وقبلهم السومريين والتي كانت له مَعيناً لا ينضب غرف منه كلّ أحداث الأساطير ونسبها إلى إبداع قبيلته. ومع كشف المنقبين على ألواح سومر وبابل وماري وأوغاريت وغيرها من حواضر الإبداع المتميّز، فُضح أمر سرقاته وسقطت قداسة أساطيره وفقدت مصداقيتها التاريخية. ولم تكتمل التوراة فصولاً إلاّ في القرن الثاني الميلادي حيث كانت اللغة العبرية قد وُجدت كلهجة من اللهجات الكنعانية، وهذا ما يفسر ورود تفسير اسم موسى الذي، وعلى ما يبدو، قد أضافه أحد الكتبة اللاحقين.

ولقد تطرّق الكاتب عبد المجيد همو إلى مسألة اللغة العبرية فكتب: «سمّى الدكتور حسن ظاظا اللغة العبرية – وسامحه الله – متأثراً بالمستشرق اليهودي إسرائيل ولفنسون، ولو رجع إلى العهد القديم لرأى أنّ هذا العهد سمّى اللغة بشفة كنعان، ثم قال بأنّها اللسان المقدّس، ثم قال إنّها اللغة العبرية. فاللغة التي اكتُشفت آثارها هي لغة كنعان، السكان الأصليين لفلسطين، وهي لغة عربية، وأهلها خرجوا من الجزيرة العربية»(186) ثم قال: «لهذه النقاط أقول إنّ بني إسرائيل لم تكن لهم لغة خاصة، إنّما كانت لغتهم لغة أهل البلاد اللغة الكنعانية، وحينما احتلت الآرامية مكان العبرية كان الانتقال إليها سهلاً»(187). وأنا أرى أنّ هناك تناقضاً في كلام الباحث فهو يقول «لم تكن لهم لغة

خاصة»، وهم تكلموا العبرية وهو اعتراف منه بوجود اللغة العبرية وبأقدميتها على اللغة الآرامية، والحقيقة هي أنّ الآراميين استقروا في سورية المجوّفة في القرن الخامس عشر ق.م. أي قبل موسى والخروج العبراني بما لا يقل عن مئتي سنة. فالمنجد يحدّد خروج العبرانيين من مصر بين عامي 1230,1250 ق.م. وكانوا يتكلمون اللغة المصرية كما ذكرنا ولم يكن هناك وجود للغة العبرية. والصحيح أنّ اللغة العبرية كما أشرنا هي إحدى اللهجات الكنعانية التي استعملتها قبائل الإسرائيليين والتي كانت متداولة جنباً إلى جنب مع الآرامية، لكنّها لم تأخذ دور اللغة الآرامية التي فرضت سيطرتها على الهلال الخصيب.

ويقول جودت السعد: «لذا كتبت التوراة أول ما كتبت بالآرامية واعتبرت اللغة المقدّسة»(188). والآرامية هذه هي الكنعانية المتقدمة لغة السيد المسيح. فلماذا حرّر كتبة التوراة أسفارها باللغة الآرامية، لو كانت اللغة العبرية موجودة في ذلك الوقت؟ ألم يكن الأجدر بهم أن يكتبوا شريعتهم بلغتهم الخاصة؟ وهذا يؤكد أنّ الآرامية أقدم وأنّ العبرية لم تحل محلّها، بل كانت لهجة كنعانية – آرامية خاصة بقبائل الإسرائيليين. والكاتب اليهودي إيلان هاليفي يقول: «إنّ القانون العبراني الجديد ينظّم حياة المجتمع المشتت بدون عون من هذه شبه الدولة الرمزية التي أقامت الهيكل: في المجتمع المدني الآرامي الذي ستصبح لغته لغة التلمود»(189). فاللغة الآرامية إذن كانت لغة التوراة والتلمود، فأين كانت اللغة العبرية؟ ويورد عبد المجيد همو في كتابه «ما بين موسى وعزرا» جملة آراء حول لغة التوراة الأولى، فرشيد رضا يعتبر أنّ عزرا كتبها بالحروف الأشورية، أما الدكتور جورج بوست فيقول إنّ عزرا هو الذي جمع (وليس وضع) أسفار الكتاب المقدس، وأدخل الحروف الكلدانية عوض العبرانية القديمة، فما هي العبرانية القديمة؟ وأيّة وثيقة مكتوبة بهذه اللغة وصلت إلى أيدي الدكتور بوست؟

أما عن ولادة موسى الأسطورية فلقد تناولها الكثير من الباحثين ووجدوا أنّها مشابهة بأكثر ملامحها لولادة سرجون الأكدي. فيقارن الكاتب ناجح المعموري بين قصة ولادة كلّ من جلجامش، سرجون الأكدي، موسى، باريس وبرسيوس، روملوس وريموس وحي بن يقظان، ويصل إلى القول: «ويلاحظ التطابق في ولادة البطل أو الرجل المنقذ والطريقة التي تم فيها التخلّص منه طفلاً وبالتالي يحقّق الخلاص والفوز. والأمثلة على ذلك كثيرة أكثرها رسوخاً في الذاكرة وأقدمها قصة سرجون الأكدي وموسى وحي بن يقظان»(190).

و تطرّق سيغموند فرويد أيضاً إلى هذه المسألة بقوله: «وأقدم من نعرفه من الأشخاص الذين ارتبطت بهم خرافة الولادة هذه سرجون الأكدي، مؤسس بابل في حوالي عام 2800 ق.م.... وآلف الأسماء إلينا، في السلسلة التي تبدأ مع سرجون الأكدي، أسماء موسى وقورش ورومولوس... وبوجه عام يوضع الرضيع في سلة صغيرة ويُسلّم أمره لتيار الماء، وترضعه أنثى حيوان أو امرأة وضيعة»(191).

كما أنّ الكاتب فراس السواح قد أدلى هو الآخر بدلوه في هذا المجال فقال: «وكما يمكن أن يلاحظ القارئ بسهولة، فإنّ هذه القصة تقوم على عدد من العناصر المعروفة في الأدب الشعبي والخرافي لثقافات الشرق القديم، ولها متوازيات واضحة في آداب الشعوب الأخرى. فالرضيع الذي يوضع في

سلة تُلقى إلى الماء ثم تعتني به قدرة إلهية حتى يشب ويغدو حاكماً أو ملكاً، هو عنصر شائع ومعروف وله تنويعات عديدة»(192).

والأب سهيل قاشا تطرق إلى هذا الموضوع في أكثر من كتاب له، فيقول: «من يقرأ الفصل الثاني من سفر الخروج من كتاب التوراة، واللوح الذي سُطرت فيه سيرة سرجون الأكدي يلاحظ الشبه العميق في ولادة ونشأة سرجون الكبير مؤسس مدينة أكاد، ونشأة موسى معلم الشعب العبراني... هذا الشبه في طفولة هذين الرجلين مردّه في رأينا إلى أنّ كاتب حياة موسى أراد أن ينسج على مثال، هو سرجون الأكدي»(193). ويقول عن ولادة سرجون: «سرجون الأكدي: ويُعرف كذلك باسم شاروكين: ملك فاتح 2334 – 2279 ق.م. مؤسس السلالة الأكدية. تقول الأسطورة إنّ ولادته جرت سرًّا وأنّه وُضع في سلّة مدهونة بالقار على الفرات وانتشله متولّي شؤون الرّي وربّاه كابن له»(194). فأحداث الولادة هي ذاتها والذي تغيّر فقط هم الأشخاص. ويقول في كتاب آخر: «ومع هذا، فمولد موسى على رأي بعض علماء الآثار، إذا صح وجوده، كما وصفته كتب بني إسرائيل وكما وصفت حياته وأسباب قذفه في اليم يوم مولده من قِبَل أمه فيشابه كثيراً ما رواه البابليون في أساطيرهم عن حياة سرجون الأول»(195). ويؤكد على رأيه مرة أخرى فيقول: «هذه الشكيّة المتداخلة مع بعضها، هي التي صاغت أسطورة موسى وأضفت عليها ذات العناصر التي عرفتها شخصية المنقذ في التاريخ بحيث تؤكد أساطير البطل المعروفة بأنّ شخصية موسى مرتحلة من أساطير العراق القديم وحصراً شخصيتي كلكامش والإمبراطور سرجون الأكدي»(196).

أمّا الباحث طومسون فيقول: «... مثل موسى في سلته في نهر النيل، فإنّ سرغون الطفل، في خطر على حياته، يُرمى طافياً بلا هدف في سلة من الأسل»(197). ولقد كان الأحرى بطومسون أن يذكر قصة سرغون أولاً لأنّه الأقدم حتى لا يُفهم من ذكره قصة موسى أولاً أنّ قصة سرغون منقولة عنها.

إذن كُثُر هم الدارسون الذين شكّكوا بوجود شخصية موسى واعتبروها من الأساطير المشابهة لما سبقها من نتاج الفكر البشري. وفي هذا الصدد يقول جود أبو صوان: «هذه هي قصة المولد التوراتي لموسى مأخوذة بحرفيتها عن الأدب البابلي إذ إنّ قصة سرجون الأكدي الذي حكم الدولة الأكدية حوالي سنة 1600 ق.م.، تشبه القصة التي ذكرتها التوراة فيما بعد عن بطلهم موسى»(198). ونلاحظ الاختلاف بين قاشا وأبو صوان حول تاريخ حكم سرجون، ومرد ذلك برأيي هو اختلاط الأمر على أبي صوان بين سرجون الأكدي الذي حكم حوالي 2236 ق.م. حسب المنجد وسرجون الأشوري الذي حكم حوالي سنة 1775 ق.م. فتاريخية هذه الشخصية التوراتية المحورية مشكوك بأمرها، وبالتالي كلّ ما صدر عنها من وصايا وشريعة يصبح موضع شك، وهو ما دعا الكثير من الباحثين إلى اعتبار أنّ عزرا هو من وضع هذه الشريعة واختلق شخصية موسى ونزول الشريعة عليه ورعايته من قِبَل الإله يهوه لكي يعطيها قدسية معيّنة تجعلها تصمد أمام المشككين فيها.

ولقد لفت كيث وايتلام إلى مسألة الصدقية التاريخية وتطرق إلى رأي غاربيني حول هذا الموضوع فكتب: «إنّه دون توثيق خارجي، يستحيل تحديد أين يمكن أن تكون القصص الكتابية صحيحة. وبهذا فإنّه من دون مصادر كافية لا كتابية من المستحيل كتابة تاريخ بني إسرائيل»(199). ويضيف وايتلام: «إنّ تسييس التاريخ في طريقة تقديم ماضي إسرائيل، لم يتحول إلى قضية كبيرة، لأنّ معظم الباحثين الكتابيين كانوا متفقين على أساسيات المشروع، مستغلين تقليدياً ذلك القدر الكبير من الإيمان

والثقة في تاريخية المصادر الكتابية مع الثقة في موضوعية الباحث المعاصر»(200). أما بالنسبة له فقد رأى «أنّ صورة ماضي إسرائيل كما وردت في معظم فصول الكتاب العبري ليست إلاّ قصة خيالية. إنّها توليف وتركيب كما هو حال معظم الصور عن الماضي التي ركّبتها المجتمعات القديمة»، فناقض بموقفه هذا الباحثين الذين سبقوه بالكتابة حول هذا الموضوع بتوجيه من الصهيونية ودعمها مستفيدين كما ذكر من مسألة قدسية الكتاب التي فرضوها على كلّ المؤمنين من مختلف الأديان.

ونعود لنتتبع نشأة موسى في قصر فرعون لنجد أنّ الكاتب يستمر بتسخيف عقل القارئ فيقول مباشرة بعد أن ذكر أنّ ابنة فرعون قد تبنّت الولد وأطلقت عليه اسم موسى: «وحدث في تلك الأيام لمّا كبُر موسى أنّه خرج إلى إخوته لينظر في أثقالهم. فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته. فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل» (خروج 2: 11 - 12). فكيف عرف موسى أنّه من أصل عبراني والكاتب لم يذكر مثلاً أنّ المرضعة (أمه) قد أخبرته بأصله، وهي لو فعلت لكان بحث على الأقل عن أبيه وأمه البيولوجيين. فجأة يجعلنا الكاتب الدرامي نرى موسى ينصر أخاه العبراني دون أن يسأل عن سبب الخصام مع المصري فيقتل هذا الأخير ويطمره في الرمل علّه بذلك يدفن معه جريمته المستنكرة.

ونحن إنْ سلّمنا جدلاً بإمكانية حصول مثل هذه الحادثة في ذلك الزمن، فإنّنا لنستغرب كيف أقدم الإله يهوه على اختيار مجرم فجعله قائداً يتزعم القوم الذين لا يعرفهم ويقودهم إلى الخلاص من ظلم فرعون، ثم يختاره نبياً يُنزل عليه الشريعة والوصايا؟ فمسألة النبوّة كانت معروفة لدى كلّ شعوب ذلك الوقت في الهلال الخصيب. وكان على من يدّعي النبوّة أن يتحلّى بالمناقب والقِيَم الاجتماعية السامية. أما اختيار الله (إله إسرائيل) لموسى القاتل ليكون نبيّه فهو أكبر دليل على روحيته الإجرامية الإرهابية، وعلى أنّه لا يمكن أن يكون إله الكون الواحد الذي عاد فأوصى بعدم القتل.

وبمقارنة بسيطة مع المعتقدات التي كانت سائدة في الهلال السوري الخصيب نجد كم هو الفارق شاسع بين رقي تلك وإسفاف كَتَبَة التوراة. فالإله القبلي يهوه الذي نصّبه المحرّر إلهاً خاصاً ببني إسرائيل اختار موسى لينزل عليه الوحي ويسلّمه الشريعة رغم معرفته المفترضة بأصله ونشأته وتصرفاته، ومع ذلك هو لم يأبه أن يكون موسى لقيطاً لابنة فرعون غير معروف الأب، فالتوراة حدّدته كرجل من بيت لاوي، لا ولم يأبه بأنّه عنصري قاتل، ولم يكترث لجبنه الذي دفعه إلى الهرب بدلاً من مواجهة مصيره بشجاعة والدفاع عن موقفه.

أمّا في بابل وأشور فكان خلال الألف الثالث قبل الميلاد، قد بدأ فيهما تبلور مفهوم الكهانة والنبوءة يظهر من خلال تطور إنتاجهما الفكري وعلاقاتهما الاجتماعية. وانطلاقاً من هذا المفهوم المتطور وُضعت شروط صارمة لمن يمكن له أن يمتهن الكهانة والعرافة التي تطورت إلى مفهوم النبوءة. فالدكتور بشار خليف يقول: «اعتقد المشرقيون أنّ العرّافين كانوا يأخذون تفسيراتهم عن طريق الوحي»(201)، ومن «يمتلك أن يوحى له هو الكاهن الأكبر الأكثر حظوة من سواه من الكهنة»، ونقل عن كونتنو قوله: «لا يستطيع أن يكون كاهناً من كان أبوه غير طاهر أو كان غير كامل الأطراف أو الملامح وغير سليم العينين والأسنان والأصابع أو من كان يبدو عليه المرض أو به دمامل».

فلنقارن ما قاله فرويد عن موسى لنلاحظ الفارق بين حضارة البابليين والحضارة التي ادّعى اليهود بأنّهم أعطوها للإنسانية. يقول فرويد: «ثمة سِمة أخرى تُنسب إلى موسى جديرة، هي كذلك، بأن تحظى منا باهتمام خاص. فالنبي على ما يبدو كان ثقيل اللسان، أي أنّه كان يشكو، ولا بد، من علّة في التعبير أو من عيب في النطق، وهذا ما اضطره إلى أن يستعين بهارون، الذي يقال إنّه كان أخاه، في مناقشاته المزعومة مع فرعون»(202). لقد أضاء فرويد على نقطة هامة في شخصية موسى لكنّه أخطأ عندما اعتبر أنّ موسى استعان بأخيه هارون، والصحيح أنّ يهوه أشار عليه أن يستعين بهارون أخيه بعدما لمس عدم ثقته بنفسه وبإلهه، فنقرأ من سفر الخروج 4: 10 – 17: «فقال موسى للرب استمع أيّها السيد (وكأنه يخاطب رجلاً آخر قبالته) لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أوّل من أمس ولا من حين كلّمت عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان». فأجابه يهوه: «فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به. فقال استمع أيها السيد. أرسل بيد من ترسل. فحمي غضب الرب على موسى وقال أليس هرون اللاوي أخاك. أنا أعلم أنّه هو يتكلّم. فتكلّمه وتضع الكلمات في فمه. وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأعلمكما ماذا تصنعان. وهو يكلّم الشعب عنك. وهو يكون لك فماً وأنت تكون له إلهاً».

ألا يستحق هذا الكلام منّا أن نطرح حوله بضع أسئلة؟ فإذا كان ربّ موسى قد قال له: «من صنع للإنسان فماً أو من يصنع أخرس أو أصمّ أو بصيراً أو أعمى. أما هو أنا الرب» (خروج 4: 11)، فهذا يعني أنّه يشير إلى قدرته الكليّة كربّ ليس لقدرته حد، فلماذا لم يستعمل هذه القدرة، كونه اختار منذ البداية موسى وهو عارف بعلّته، لشفاء هذه العلة بدلاً من اختيار سكرتير له؟ أو لماذا لم يختر هرون بدلاً من موسى ليكون متلقي الوحي؟ فهل هناك فرق بين رجل وآخر متى حلّ الوحي على واحد منهما؟ ألا يصبح الموحى إليه، كائناً من كان، هو النبي الذي سيتلقى الشريعة لينقلها إلى شعبه الضال؟ خاصة أنّ الربّ قد قال عن هارون: أنا أعلم أنّه هو يتكلّم. فلماذا لم يعلم بأن ليس لموسى القدرة على الكلام؟ وقوله «هو يكون لك فماً وأنت تكون له إلهاً» لنا عليه تعليق أيضاً فذلك يعني أولاً أنّ هارون لا يتحلى بأيّة صفة من الصفات التي تؤهّله لأن يكون كاهناً، هو مجرد وسيط ببغاء يكرّر ما يقوله موسى، وثانياً كيف يعلن الرب ألوهية موسى القاتل ويجعله فقط إلهاً لأخيه؟ لقد سمعنا بآلهة لقبائل وشعوب وجماعات، ولكن لم نسمع أبداً بإله لشخص واحد.

فموسى هو إحدى الشخصيات التوراتية الأسطورية التي أرادها كاتب التوراة أن تكون محبة للقتل كتعبير عما كان يعتمل في صدره من حقد على شعوب المنطقة، غذّاه الشعور بالدونية نتيجة كونهم قبائل بربرية وُجدت في بيئات حضارية إنسانية، على الرغم من أنّها حضنتهم وقدّمت لهم كلّ حضارتها على طبق من ذهب. وكاتب التوراة هذا كان قد أسبغ على نوح نقيصة السُكر والتعري، وعلى إبراهيم نقيصة الكذب والخداع، وعلى لوط السكر والزنى، وعلى يعقوب وأولاده الخديعة والإرهاب، وعلى يوسف استغلال الفقراء، وهذا ما دفع أكثر من دارس إلى القول، واستناداً إلى القرآن الكريم أحياناً، بأنّ هذه الشخصيات التوراتية هي غير الشخصيات الأساسية المنزّهة عن هذه النقائص.

يقول يوسف رشاد: «إنّ التوراة المتداولة الآن ليست هي التي أُنزلت على سيدنا موسى عليه السلام»(203). ويشير إلى أنّ التوراة الأصلية المنزّلة التي ذكرها القرآن هي غير التوراة التي بين أيدينا وتختلف عنها اختلافاً بيِّنا. أما ما هو دليله، وهي مفقودة كما يقول، «والغالب أنّها كانت مكتوبة

باللغة المصرية التي كان يجيدها موسى»(204)، فهو لم يتطرق إلى هذا الموضوع مستنداً فقط إلى أنّه لا يمكن للتوراة التي بين أيدينا، على ما فيها من إجرام وموبقات، أن تُذكر في القرآن الكريم.

ويذهب عبد المجيد همو في كتابه «ما بين موسى وعزرا» أبعد من ذلك إذ يعتبر، واستناداً إلى بعض الآيات القرآنية الكريمة، بأنّ إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب لم يكونوا يهوداً بل مسلمين، وهو ينفي أيضاً أن يكون موسى يهودياً أو دعا إلى الدين اليهودي ويعتمد على ما كتبه المؤرّخ اليهودي يوسيفوس وعالم النفس اليهودي فرويد من أنّ موسى كان مصرياً، والأسفار الخمسة التي ينسبونها إليه لم تلفظ اليهودية كدين. ولقد أورد همو في كتابه عدة آيات قرآنية للدلالة على أنّ إبراهيم وذريّته كانوا مسلمين نذكر منها من سورة البقرة: (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131)وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اَللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (البقرة 130 – 131). وفي آية سابقة من السورة ذاتها نقرأ: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128)) (البقرة 127 – 128). وتفسير ذلك برأيي هو أنّهم قد أسلموا بوحدانية الله، فكلّ مؤمن بهذه الوحدانية هو مسلم حتى ولو لم يكن ينتمي إلى الديانة الإسلامية التي بشّر بها النبي الكريم. ومن هذا المفهوم ندرك قول أنطون سعادة: «كلّنا مسلمون لرب العالمين، منّا من أسلم بالإنجيل، ومنّا من أسلم بالقرآن، ومنّا من أسلم بالحكمة»، وهو لم يأتِ على ذكر التوراة لأنّه كان يدرك أنّ هذا الدين هو خاص بشعب معيّن نصّب له إلهاً خاصاً مع إبقائه على آلهة الشعوب الأخرى وبذلك يكون قد وقع في الشرك وابتعد عن التوحيد والتسليم بالإله الكوني الواحد.

ويتساءل سهيل التغلبي: «هل التوراة التي تحدّث عنها القرآن الكريم وعن نزولها على النبي موسى، هي نفسها ما حفظه اليهود وقالوا به؟»(205)، وهو إذ ينفي ذلك يستطرد قائلاً: «فقد عملوا جهدهم على تدوين جديد لها محرّفين وزائدين ما يتفق مع رغباتهم ونزعاتهم وميولهم برئاسة كَتَبَتهم وأحبارهم». فمثل هذا القول بأنّ توراة موسى قد فُقدت والتي بين أيدينا اليوم هي التي وضعها عزرا، مع تعدد الآراء بين قائل إنّ توراة موسى التي فقدت وصلت إلى عزرا عن طريق الانتقال الشفهي من جيل لآخر، إلى قائل بأنّ الله قد عاد وأوحى بها إلى عزرا، إلى قائل بأنّها من وضع عزرا الذي اختلق شخصية موسى الأسطورية، وهذا الرأي هو الأقرب إلى الصواب، فإنّنا نقول لماذا فقدت التوراة على أهميتها ووصلت إلينا أساطير الأقدمين السابقة على التوراة بما لا يقلّ على ألفي عام؟ ولماذا لم يذكر لنا تاريخ الشعوب التي عاصرت موسى أي شيء عنه؟ لا خلال وجوده في مصر، ولا عن خروجه منها ولا عن التيه الطويل في صحراء سيناء؟ ولماذا خلت كل الآثار المعاصرة لهذه الأحداث من أيّة إشارة إليها؟

وحدها التوراة الموجودة بين أيدينا تطرّقت إلى هذا الشريط من الأحداث التي لم يقم عليها أيّ دليل حتى الآن، وإلى أن يفرج باطن الأرض عن المزيد من الرقم الأثرية التي يمكن أن تشير إلى هذه الشخصيات وما رافقها من أحداث، سيظل رأي الباحثين الموضوعيين واحداً يؤكد على ما قاله فيليب دفيس من أنّ «إسرائيل المطروحة في الدراسات الكتابية هي بنية مشادة على القراءة الخاطئة للتراث الكتابي وبعيدة عن الحقيقة التاريخية»(206)، ويؤكد أيضاً حقيقة ما توصل إليه الكثير من الدارسين

عن علاقة التوراة بثقافة الشرق القديم حيث يقول سهيل التغلبي: «ومن هذا المنطلق، يطرح السؤال بإلحاح حول كيفية علاقات تراث الكتاب المقدس وثقافات الشرق القديم، ولا سيما ثقافات وادي الرافدين. فقد لقي هذا السؤال أجوبة مختلفة؛ فأثبت فريق من الباحثين أنّ الكتاب المقدس ملفّق من عناصر ثقافية مقتبسة من الشرق القديم، مما حدا بهم إلى اعتباره سرقة ونهباً أدبيين»(207).

وبالعودة إلى شخصية موسى نجد من الضروري الإشارة ولو إلى مصدر واحد يشكك بتاريخيتها، وهذا المصدر هو عالم النفس اليهودي سيغموند فرويد الذي يقول في مطلع كتابه «موسى والتوحيد»: «إنّ موسى، الرجل الذي كان للشعب اليهودي محرراً، والذي وهب هذا الشعب شرائعه وديانته، ينتمي إلى عصر موغل في القِدَم يُبيح لنا أن نتساءل على الفور هل ينبغي فعلاً أن نعدّه شخصية تاريخية أم أنّه لا يعدو أن يكون شخصاً خرافيا؟... ونحن لا نملك عنه من معلومات سوى تلك التي تقدمها لنا الكتب المقدسة والمأثورات اليهودية المكتوبة». وبعد أن ينطلق فرويد من فرضية تاريخانية هذه الشخصية لم يستطع التوصل إلى تأكيد ذلك فيقول: «لم يفلح أيّ واحد من الذين عدوا موسى شخصية تاريخية في ملء هذا القالب الفارغ بمضمون ما، ولم يتوصل أيّ واحد إلى أن يجعل منه شخصية عينية، ولم يستطع أن يُنبئنا بأيّ شيء عما أبدعه أو عن عمله التاريخي»(208).

فإذا كان فرويد، مستفيداً من خبرته الكبيرة بالتحليل النفسي، قد توصل إلى الاستنتاج بأسطورية شخصية موسى، فإنّ المكتشفات الأثرية التي تم الكشف عنها في النصف الثاني من القرن العشرين، وبعد وفاة فرويد، أكدت أكثر فأكثر، ليس فقط على أسطورية شخصيات التوراة، بل وحتى على إشكالية حقيقية متمثلة بخلوّ التاريخ القديم من أيّة إشارة إلى ما هو وارد في التوراة كما ذكرنا سابقاً، وواضعة بين أيدينا الأساطير الأساسية التي استقى منها كاتب التوراة أخباره بدءاً بآدم وحواء، اللذين بات الدارسون ينظرون إليهما ليس كحقيقة بل كرمزين لجنسيْ الذكورة والأنوثة، مروراً بنوح وذريته، وإبراهيم وذريته، ويعقوب وذريته وصولاً إلى موسى. فماذا يبقى من قدسية هذا الكتاب وألوهية أخباره إذا ما علمنا أنّها أخبار تداولتها الشعوب القديمة ولم تقدّسها كما فعل الإسرائيليون، ولا أضفت عليها صفة الألوهة كي تبعد عنها مبضع العقل؟

تركنا موسى وقد قتل المصري وطمره في الرمل لأنّه كان يضرب رجلاً عبرانياً. إذن هو رجل لا يقيم وزناً للعدل بل ينصر أخاه ظالماً كان أم مظلوماً، هذه العادة الجاهلية التي تنمّ عن العنصرية القبلية قد عالجها النبي الكريم بأن اعتبر نصر الأخ الظالم يكون بإظهار الخطأ له كي لا يقع به ثانية، لا أن تكون نصرته دون شرط. أما موسى فقد أكد عنصريته في اليوم الثاني مباشرة عندما خرج «وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان. فقال للمذنب لماذا تضرب صاحبك» (خروج 2: 12). فكيف علم من هو المذنب دون أن يسألهما لماذا يختلفان؟ لكنّ المتّهم يردّ مباشرة على موسى ويلفت نظره بأنّه على علم بقتله للمصري، فخاف موسى وهرب إلى مديان. ويبدو أنّ هربه إلى مديان قد أتى عليه بالفائدة، فلقد أكرمه كاهن مديان يثرون لأنّه أنقذ له بناته السبع من الرعاة وساعدهن على سقي غنمهن، فزوّجه ابنته صفورة، فولدت له ابناً دعت اسمه جرشوم. ولم يذكر الكاتب أين تقع مديان هذه.

في المنجد وتحت باب مدين نقرأ: «بلدة في مصر تقع على البحر الأحمر، محاذية لتبوك. فيها البئر التي استقى منها موسى»، وعن تبوك نقرأ: «واحة في شمال الحجاز على طريق الحج من دمشق إلى

المدينة». فكيف وصل موسى إلى مدين هذه التي تقع في الجزيرة العربية وليس في مصر؟ وفي خارطة تظهر خروج العبرانيين من مصر نشرها ك.س. هامون وشركاه – نيويورك 1962 وأثبتها الأب الدكتور يوسف يمين في كتابه «المسيح وُلد في لبنان لا في اليهودية» تظهر مدين شرق خليج العقبة داخل أراضي المملكة العربية السعودية اليوم أي الجزيرة العربية قديماً، وهذا يتوافق مع آراء كمال الصليبي حيث يقول: «يظهر من قراءة الإصحاح 10 من سفر التكوين أنّ العبرانيين كانوا يُعرفون في زمانهم بـ«بني عابر» (بني عبر). والتفسير التوراتي هو أنّ عابر (عبر)، جد الشعوب العبرانية كان من سلالة سام بن نوح. وكان لسام خمسة أبناء أحدهم آرام (ءرم) جد الآراميين. ومن الأربعة الآخرين أرفكشاد، وهو جد عابر الذي تحدر منه العبرانيون»(209). وسوف نعود إلى هذه التسمية لاحقاً، يكفي أن نقول بأنّ الدراسات الحديثة لم تتطرق فقط إلى أسطورية أحداث التوراة بل تعدت ذلك إلى مكان حدوثها وقيام المملكة العظيمة المزعومة والتي منها انطلقت الصهيونية لسلب الأرض الفلسطينية مرة ثانية، نقول ثانية على افتراض صحة سلبها في المرة الأولى. فإذا كان موسى يعيش في مصر بين طيبة وتل العمارنة لكان أسهل عليه أن يفرّ شمالاً باتجاه سيناء لا أن يقطع البحر الأحمر ليستقر في مدين على الضفة الأخرى، إلاّ إذا كان هناك مدين ثانية في سيناء.

وفي غياب موسى يواجه بنو إسرائيل حدثاً جديداً وهو موت ملك مصر، ولم يكلّف الكاتب نفسه أيضاً عناء ذكر اسم هذا الملك خاصة وأنّه سامهم العذاب والعبودية وقضى على أطفالهم، ألا يستأهل هذا الملك الظالم أن يُذكر اسمه إلى جانب مئات الأسماء الغريبة العجيبة التي ملأ بها الكاتب صفحات أسفاره؟ لعلّ اهتمامه كان منصباً على قومه الذين تنفّسوا الصعداء وصرخوا «فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية. فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب. ونظر الله بني إسرائيل وعلم الله» (خروج 2: 23 – 25). فهل كان الله بحاجة إلى صراخ بني إسرائيل لينظر إليهم فيعلم بما يقاسونه على يد فرعون؟ وهل كان الله بحاجة إلى سماع أنينهم لكي يتذكر ميثاقه؟ أليس في هذا الكلام تجديف على القدرة الإلهية اللامحدودة وتسفيه للعقول، إذ كيف علم الكاتب أنّ الله سمع الأنين ونظر وعلم؟ ألا يدعو هذا الكلام إلى الاعتقاد بأنّه هو وليس الله من تخيّل هذه الأسطورة فضخّم معاناة الإسرائيليين لكي يعطيهم مبرّر اجتياح أرض غيرهم وقتل شعوبها المسالمة؟ وهل حصل فعلاً هذا الاجتياح وما رافقه من إجرام وإرهاب، أم أنّه كغيره من أحداث التوراة مجرد أقاصيص ملفّقة الهدف منها إعطاء هوية محددة لمجموعة من القبائل البربرية التي لم يكن لها مستقر؟ سنكشف عن ذلك لاحقاً.

ولنتابع الآن رحلة موسى لنسدل الستارة على نهاية المسرحية. فها نحن نجده راعياً لغنم حميّه الكاهن يثرون فيسوق الغنم إلى جبل الله حوريب، وحوريب حسبما جاء في المنجد هو: «جبل في شبه جزيرة سيناء تجلّى فيه الرب لموسى ومن بعده لإيليا النبي، على ما جاء في الكتاب المقدس». فإذا كان حوريب جبلاً في سيناء، ومدين التي التجأ إليها موسى قرب تبوك على البحر الأحمر، فكيف وصل بقطيعه إلى سيناء؟ هذا التناقض شائع في التوراة وسنعالجه في فصل لاحق، وكان أحرى بالكاتب أن يجعل فرار موسى إلى مكان في سيناء منذ البداية إلاّ إذا كان يجهل جغرافية المنطقة في ذلك الوقت واعتمد على ما كان قد وصل إليه بالتواتر.

وفي الصحراء يرى عليقة تتوقد بالنار وهي لا تحترق، فاقترب منها موسى ليرى هذا المنظر العظيم، فرآه الرب وناداه من وسط العليقة، فأيّ مكان هذا ليحشر الكاتب فيه الربّ؟ ألم يكن الله قادراً أن يخاطب موسى في أيّ مكان آخر؟ وهنا نعود لنقول بأنّ الكاتب كونه يكتب قصة كان من الضروري في كلّ فصل أن يكون هناك مشهد درامي يشد القارئ وإلاّ لكان قاصاً فاشلاً. وإذا بالرب يعرّف عن نفسه كما يفعل الناس عادة عندما يتلاقون فقال: «أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب» (خروج 3: 6). وهذا ما يؤكد مرة أخرى أنّ هذا الإله هو إله خاص بإبراهيم وذريته وليس إله الكون إيل الذي كان يعتبر إلهاً كونياً.

يقول الدكتور بشار خليف: «الجدير ذكره أيضاً أنّ الألوهة في المشرق كانت ألوهة كونية شاملة لم تختص لقوم أو شعب وإنّما لشعوب الأرض كافة آنذاك»(210). ويضيف «ولكن في الإطار العام، حافظ المشرقيون على لفظ الإله العالي، ومقامه، فهو في الأكدية «إيلو»، وفي الكنعانية إيل، وفي الآرامية إله، وهو عند العرب، الله»(211). ثم يستطرد قائلاً: «وقد وصف إيل، في الوثائق والنصوص بأنّه الإله العالي والسلطان والحامي والحاكم والحكيم والمحرر، وهو أب الآلهة (الملائكة) وخالق البشر، وهو الخالد الأبدي، وخالق الجميع، اللطيف، الرؤوف، ومصدر الكلمة الأبدية»(212). فأيّ فارق بين هذا التحديد لله الذي أطلقه عليه الأقدمون وبين ما نعرفه اليوم عنه من الرسالتين الإسلاميتين: المسيحية والمحمدية؟ وحدها الموسوية جعلته إلهاً خاصاً بشعب خاص وغيّرت اسمه فمن الله الرب إلى أهيه الذي أهيه، إلى يهوه، إلى رب الجنود، مسميات عديدة لإله قبلي محدود فرضت شريعته العنصرية علينا على أنّها مقدسة وصولاً إلى اعتبار كلّ كلمة وردت فيها أنّها كلام الله ومشيئته، فما علينا إلاّ أن نتقبل كلّ مفاعيل هذه الأقوال الإلهية المقدسة، فنرضى باسم الألوهة والقداسة أن تُسلب أرضنا ونشرّد ونقتل لكي يتنسم هذا الإله رائحة الرضى. «ثم قال أنا إله أبيك إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب. فغطّى موسى وجهه لأنّه خاف أن ينظر إلى الله. فقال الرب إنّي قد رأيت مذلّة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخّريهم. إنّي علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة واسعة. إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً. إلى مكان الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين» (خروج 3: 6 – 8).

نفهم من هذا الكلام أنّ موسى لم يرَ وجه الله، الذي كما يبدو من الكلام، كان يتجسد رجلاً ساعة يشاء ويخاطب من يشاء، كما فعل مع يعقوب سابقاً، فكيف يقول موسى لبني إسرائيل: «وجهاً لوجهٍ تكلّم الرب معنا في الجبل من وسط النار» (تثنية 5: 4)، وهو الذي كان قد قال في سفر الخروج: «ويكلّم الربّ موسى وجهاً لوجه» (خروج 33: 11)، وقبل انتهاء هذا الإصحاح يقول لموسى: «لا تقدر أن ترى وجهي. لأنّ الإنسان لا يراني ويعيش». فأيّ كلام نصدّق؟ كيف عاش موسى إذن وكان قد رأى الله وجهاً لوجه؟ وإذا افترضنا أنّ ذلك ممكن، فإنّ تأويله يكون بأنّ من رأى الله قد وصل إلى مرتبة من العِرفان تخوّله، ليس فقط معرفة الله، بل الاتحاد به. وهذا ما أشار إليه غاري رينارد في كتابه «اختفاء العالم» إذ اعتبر أنّ الإنسان، كالمسيح، قادر على الاتحاد بالله عن طريق المحبة والغفران فقط. فلماذا حكم يهوه على كلّ من يراه بالموت؟ لأنّه، وبكل بساطة وكما أوردنا أكثر من مرة، إله متعالٍ، عنصري، محب للقتل، لا ترضيه إلاّ رائحة قربان اللحم المشوي.

ويعود الكاتب ليقع في التناقض مجدداً فيؤكد في سفر العدد أنّه يحادث موسى مواجهة وذلك واضح من قوله في الإصحاح الثاني عشر: «إن كان منكم نبي للربّ (مثل هرون) فالبرؤيا أستعلن له في الحُلم أكلّمه. وأمّا عبدي موسى فليس هكذا بل هو أمين في كلّ بيتي. فماً إلى فم وعِياناً أتكلّم معه لا بالألغاز. وشبه الربّ يعاين» (عدد 12: 6 – 8). فكيف يكلمه هنا فماً إلى فم وقبلاً قال لا يراني إنسان ويعيش؟ وكيف يكلمه وجهاً لوجه ثم يقول «وشبه الرب يعاين»؟ فإذا كان موسى يتكلّم مع الرب وجهاً لوجه، فلماذا يصبح هذا الربّ مباشرة شبهاً للرب؟ لماذا هذا التعقيد والتضارب الكلامي؟ فلو كان هذا الكلام بالفعل صادراً عن الله لما وقع الله بهذه الأخطاء وهو المنزّه، إلاّ إذا اقتنعنا بما توصلنا إليه من أنّ هذا (الله) ليس إله الكون المنزّه عن كلّ الصفات، بل هو الإله القبلي الخاص ببني إسرائيل والذي قوّله الكاتب ما أراد لكي يحقق الغاية الرئيسة من كلّ هذا السرد الأسطوري وهي اختراع شعب وهمي وإله خاص به، يلزمهما الواحد بالآخر، فإذا لهذا الشعب إله خاص ولهذا الإله شعب خاص، «رأيت مذلّة شعبي الذي في مصر»، فهل يمكن لإله الكون أن يكون له شعب خاص؟ أين الوحدانية التي تتجلى في هذا القول؟ وأين عدل إله الكون الذي يميّز بين مخلوقاته؟ وهل وحدهم الإسرائيليون، إذا صح هذا الادعاء، كانوا مظلومين في تلك الحقبة؟ ألم يكن يُظلم، ولا يزال، كلّ شعب يرزح تحت نيران الاحتلال؟ كيف يُفرض علينا التسليم بقدسية هذا الكلام الذي يروي أحداثاً حصلت لمجموعة من الناس، لم يذكر التاريخ عنهم شيئاً بل فرضوا وجودهم الاجتماعي والإثني والإلهي على كلّ الناس؟ أما آن لنا أن نستفيق من هذا السبات العميق لنقول كفى لدينا ما يملأ جوارحنا بالإيمان الحقيقي من خلال رسالتين تسموان بالإنسان إلى أرقى المراتب، فلسنا بحاجة إلى من يهبط به إلى الحضيض؟ ألم يكن الله يعلم بأوجاعهم قبل أن يصرخوا متظلمين؟ وهل يمكن لعقل سليم أن يتقبل فكرة نزول الله من عليائه إلى الأرض، أرض مصر تحديداً، فقط لينقذ الشعب العبراني؟

وهنا لا بد لي، كما فعلت سابقاً وسأفعل لاحقاً، من أن أؤكد حق اليهود أن يؤمنوا حرفياً بكلّ ما جاء في كتابهم، ولكن ليس من حقهم، ولا هو متوجب على بقية الناس، أن يرضخوا بالترغيب أو بالترهيب للقبول بهذه المعتقدات، وإلاّ سيكون إيمانهم منتقصاً خاصة وأنّ كاتب التوراة قد صرّح وفي مواضع عديدة على خصوصية هذا الإله ببني إسرائيل، فأيّ حق لهم علينا؟ أقول سأذكر دائماً هذه الفكرة في فصول الكتاب لا حباً بالتكرار وإنّما لأبعد عن ذهن القارئ الكريم أيّ انطباع خاطئ قد يكوّنه عن مناقشة هذه المعتقدات.

إنّ الشعوب التي عدّدها الله لموسى، والذي كان قد وعد إبراهيم بإعطائه أرضها، أرض كنعان، التي تفيض خيراً، لبناً وعسلاً، كان قد عدّدها لإبراهيم على وجه آخر عندما قال له في (تكوين 15: 18 – 19): «لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير. القينيين والقنزويين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين»، أمّا في (سفر التثنية 7: 1) فإنّه يضيف إلى الشعوب الستة التي حدّدها لموسى شعباً آخر: الجرجاشيين ليصبح العدد سبعة بعدما كان عشرة مع إبراهيم، ليصبح ستة مع موسى الخروج، وسبعة مع موسى التثنية: «سبع شعوب أكثر وأعظم منك». وهذا كما أشرت إليه سابقاً مظهر من مظاهر التناقض الواضح بين دفّتيْ الكتاب. ثم يؤكد الكاتب مرة جديدة أنّ الرب هو إله العبرانيين، عندما جعل هذا الإله يقوم بتعليم موسى الخطوات التي يجب أن يقوم بها لتخليص العبرانيين من ظلم فرعون وإخراجهم من مصر،

وهذا ما يؤكد مرة أخرى أنّ العبرانيين لم يكونوا يوماً موحّدين لأنّهم لم يؤمنوا بإله واحد، هم آمنوا بإله واحد لهم وهذا لا يسمى توحيداً لأنّهم بذلك تركوا للشعوب الأخرى آلهتها ولم يقوموا مثلاً بدعوتها إلى عبادة هذا الإله الواحد الذي يعبدون، كما فعل المسيح ومحمد لاحقاً.

واقرؤوا معي توجيهات هذا الرب التي أعطاها لموسى عندما وقع اختياره عليه لقيادة شعبه الخاص: «ولكنّي أعلم أنّ ملك مصر لا يدعكم تمضون ولا بيدٍ قوية. فأمدّ يدي وأضرب مصر بكلّ عجائبي التي أصنع فيها. وبعد ذلك يطلقكم. وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين. فيكون حينما تمضون أنّكم لا تمضون فارغين. بل تطلب كلّ امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضّة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم. فتسلبون المصريين» (خروج 3: 19 – 22). إنّه إجرام الكاتب أسقطه على إله العبرانيين الغاضب على فرعون الذي أذلّ وسخّر شعبه الخاص، وبدلاً من الانتقام من فرعون وحده، سبب الأذية، سلّط إرهابه على كلّ مصر، ولم يكتفِ بذلك فقط بل علّم موسى كيفية سرقة المصريين، فأيّ إله هذا أيّها المؤمنون؟ وهل قرأ أحدكم للمسيح أو محمد دعوة مشابهة؟ فما بالكم تمرّون على هذا الكلام الذي لا يمكن أن تربطه أيّة علاقة بالقداسة والألوهية، دون تمهّل وعمق نظر وفهم مدرك واعٍ لمعانيه؟ يُقبل هذا الكلام من قائد عسكري ظالم يطلق العنان لجنوده كي يعملوا قتلاً ونهباً وتدميراً بالعدو وممتلكاته، وكلّنا نعلم أنّ هذا التصرّف أيضاً في هذا الزمن أصبح محكوماً بالاتفاقيات الدولية حول حقوق الإنسان. أمّا أن يصدر هذا الكلام عن إله فنصدّقه ونسلّم لهذه الشريحة من الناس بكلّ ادعاءاتها المريضة دون أن يكون لنا موقف حازم منها، ليس فقط على صعيد قدسيتها، بل حتى على صعيد أسطوريتها التي لا تعطي الأجيال أيّة أمثلة للتعلّق بالفضيلة ومحبة الآخرين والتسامح والمغفرة، بل هي تربيهم على أبشع ما يمكن أن يتحلّى به الإنسان من خصال، فإنّه لعمري أمر يدعو إلى العجب.

وحول هذه النقطة يقول جميل خرطبيل: «وهكذا دعوات ما هي إلاّ دعوات بدائي همجي، يقود قطعاناً من الذئاب المتوحشة إلى أرض حضارية وإنسانية. وتلك الحقائق تتناقض مع الحق والخير والعدل، أي تتناقض مع المطلق. فالدين اليهودي لا يحمل أي قدسية، ولا علاقة له بالقِيَم أو المُثُل أو الكمال»(213). ويقول عبد المجيد همو: «هل يمكن أن يكون كتاب التوراة والعهد القديم كتاباً يدعو إلى السموّ الروحي والديني والأخلاقي؟ إنّ هذا الكتاب (العهد القديم بما فيه الأسفار الخمسة) كتاب على العكس من كلّ ذلك. يقول إرنست بيغن: (إنّ العهد القديم هو أشدّ الكتب بُعداً عن الأخلاق)»(214). ويستشهد بقول لغوستاف لوبون هذا نصه: «إنّ اليهود بدو، لا أثر للثقافة فيهم، وقد اقتبسوا من تلك الأمم العليا أخسّ ما في حضارتهم»(215). ويتساءل جود أبو صوان حول دروس التوراة الأخلاقية قائلاً: «أيوجد في التوراة المتداولة بجميع طبعاتها غير قصص العهر والزنى والفجور والبغض والحقد والكراهية؟ كراهية الإنسان للإنسان وكراهية الإله التوراتي للإنسان»(216).

أمّا أبراهام بورغ فيعترف بأنّ الشرّ ملازم للتوراة عندما يقول بوضوح: «منذ ذلك الوقت أتابع، باهتمام متزايد وبخوف وقلق كبيرين، أنشطة هذا الحاخام (إسحق غينزبرغ) ومعتقداته، كما أصحابه العنصريين اليهود الآخرين وتلامذتهم «رجال الفعل» الذين يؤمنون بأنّه ليس كافياً دراسة التوراة نظرياً دون الفعل الشرير الملازم لها»(217). فإذا كان المثقفون الموضوعيون اليهود ينظرون إلى

توراتهم بهذه الصورة ويقوّمونها هذا التقويم، فهل يتوجب علينا نحن أن نعليها ونقدّسها ونرفعها حتى أعلى من الأديان التي نؤمن بها، ونثبت قدسية كلّ ما جاء فيها؟ فإذا لم يكن للدين مهمة الترقي بالإنسان من المستوى الغرائزي البدائي إلى المستوى الخُلُقي الإنساني الشامل، فأيّ رجاء منه؟

ويتطرق إسرائيل شاحاك إلى مسألة الأخلاق اليهودية قائلاً: «فاليهودية الكلاسيكية من وجهة النظر الأخلاقية، تمثّل عملية انحطاط ما زالت مستمرة. وإنّ لهذا الانحطاط إلى مجموعة من الطقوس القبلية الفارغة والخرافات السحرية تبعات اجتماعية وسياسية شديدة الأهمية»(218). «إنّ تنافس الأديان وتفاضلها يجب أن يكون مبنياً على ما فيها من الآداب والفضائل لأنّ هذه هي أساس الشرائع والأديان»(219). وإذا كان هذا الدين، في كلّ صفحة من الكتاب المقدّس الذي يتكلم عنه، لا ينفكّ يشير إلى نفسه كدين خاص أعطاه إله محدد بشعب ما، فكيف ننبري نحن إلى اعتباره أساساً لكلّ الأديان، فيه تجد جذورها، ومنه كانت انطلاقتها، وعلى ما ورد فيه من حقائق إلهية ترتكز؟ فإسرائيل شاحاك اليهودي، وهو أستاذ في الكيمياء العضوية وناشط في مجال حقوق الإنسان يقول في كتابه «الديانة اليهودية وتاريخ اليهود» ما يلي: «إنّ الديانة اليهودية، كانت وما زالت، ديانة تؤمن بإله واحد، والآن، وكما يعرف العديد من علماء التوراة، وكما تكشف بسهولة، القراءة الدقيقة للتوراة، فإنّ وجهة النظر هذه التي لا علاقة لها بالتاريخ، وجهة نظر خاطئة تماماً. ففي العديد من أسفار التوراة، إنْ لم يكن في معظمها، هناك إقرار واضح، بصحة وجود، وبقوة، آلهة آخرين».

وعبد المجيد همو بعد إيراده مقطعاً من المزمور 82 هو 1 – 8 يورد عدة مآخذ عليه فيقول: «أ – اعتراف صريح بمجمع الآلهة فيهوه ليس وحده خالق السموات والأرض، وليس الله العلي الذي خلق الناس كلهم. ب – إذا كان الخطاب لبني إسرائيل، فهذا شرك محض، ورفع لمستوى هذا الشعب الذي وصفته التوراة بالبلادة والغباء، وإن كان خطاباً لبقية الآلهة، فهو اعتراف بالشرك واضح لا تشوبه شائبة»(220). ونحن وإن استشهدنا ببعض ما قاله الكتّاب حول موضوع التوحيد، فإنّنا نؤكد أن أفضل شاهد نورده يبقى دائماً ما ورد في التوراة نفسها. فمحرّر التوراة لا ينفك يذكر إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، حتى إذا ما تراءى لموسى نصّب نفسه وبشكل مباشر إلهاً للعبرانيين، فعندما دخل موسى وهرون على فرعون عملاً بأمر ربهما قالا لفرعون: «إله العبرانيين قد التقانا» (خروج 5: 3). وهما بهذا القول قد أبعدا برأيي أيّة علاقة لهما بالعبرانيين، إذ لو كانا منهم لقالا: إلهنا نحن العبرانيين، ثم بقولهما التقانا تشويه «للحقيقة» لأنّ الله لم يلتقِ إلاّ موسى وذكّره بأنّ له أخاً اسمه هرون، فمن أين أتت أخت موسى وأخوه هرون؟ حتى الراسخون بالعلم لا يستطيعون التكهّن فكيف بالإجابة.

وفي الإصحاح الرابع يبدأ الرب تعليم موسى فنّ السحر، وإثباتاً على لقياه لله وجهاً لوجه يذكر الكاتب في المقطع عشرين أنّ موسى أخذ عصا الله معه، ولكي يؤكد الله على همجيته التي ستقوده للانتقام من شعب مصر يقول لموسى أن يصنع أمام فرعون كلّ العجائب التي علّمه إياها، ويعترف بقراره المسبق أنّه سيشدّد قلب فرعون حتى لا يطلق الشعب. عند هذه «الحقيقة» من يكون مسؤولاً عمّا جرى لشعب مصر، أفرعون الذي لم يستجب لطلب موسى أم الله الذي شدّد قلبه لعدم الاستجابة؟ إنّنا نرى فرعون مسلوب الإرادة، يأخذ الله القرارات عنه، فكيف يحاسبه عليها؟ ولماذا لم يكتفِ بعقاب فرعون بدلاً من إنزال الويلات بالمصريين؟ إنّه إله سادي بكل بساطة. وهو الكلام الذي دار أكثر من

مرة بين الله ومن اختارهم الكاتب ليكونوا شخصيات أسطورته الأساسيين، فحتى بعض اليهود غير الحرفيين يُنكرون حدوثه. وحسبنا أن نورد كلاماً استشهد به عبد المجيد همو نقلاً عن كتاب شفيق مقار «السحر في التوراة» وهو قول قاله بن غوريون أول رئيس وزراء لدولة إسرائيل عندما سئل هل يؤمن بوجود الله، فقال: «الله، إنّ السؤال هو من يكون الله هذا؟ أنا أعرف أنّ هناك يهوداً كثيرين يتصورونه رجلاً عجوزاً ذا لحية بيضاء مسترسلة قاعداً هناك بأعلى على عرشه السماوي، ويصدقون فعلاً أنّه تكلّم مع موسى. لكن لا أعتقد أنّ إلهاً تكلّم مع موسى، وكلّ ما في الأمر أنّ موسى هجس في قلبه ذلك الصوت الإنساني، فأدرك أنّ عليه أن يفعل ما يفعل»(221).

وبعد فشل المحاولة الأولى التي قام بها موسى وهرون مع فرعون بعدم إطلاق إسرائيل على الرغم من قولهما له: «يقول الربّ إله إسرائيل أطلق شعبي ليعيّدوا لي في البرية» (خروج 5: 1)، يردّ فرعون قائلاً: «من هو الربّ حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل. لا أعرف الربّ وإسرائيل لا أطلقه. فقالا إله العبرانيين قد التقانا... فقال لهما ملك مصر لماذا يا موسى وهرون تبطّلان الشعب من أعماله» (خروج 5: 2 – 4)، ففرعون كان منطقياً لأنّه لم يكن قد سمع بعد برب خاص بإسرائيل أو العبرانيين، فلماذا يجب عليه الرضوخ لطلبهما؟ وكان برأيي منطقياً أكثر إذ رأى أنّ العمل أهم بكثير مما جاء به موسى وهرون إليه. فلو تقدّم موسى مثلاً من فرعون وحاول دعوته إلى اعتناق الدين الجديد وشرح له مضامينه ومفاهيمه وانصرف عنها لحُقّ لهذا الإله أن يعاقبه. لكنّهما وبأمر من هذا الرب لم يفعلا، لأنّ هذا الرب اتخذ قراره بمعاقبة فرعون وكلّ شعبه، لأنّ فرعون برأيه قد ظلم شعبه الخاص العبرانيين. إسرائيليون مرة وعبرانيون مرة ويهود مرة أخرى، فمن أين أتت هذه التسميات؟ نفتح قوسين لبحث هذه المسألة قبل إكمال رحلة الانتقام الإلهي من المصريين، والتي كنا قد أشرنا جانبياً إليها سابقاً عندما تكلمنا عن العابيرو.

مرّ معنا أن الله بعد معركته مع يعقوب غيّر اسمه، كما فعل مع إبراهيم وساره، إلى إسرائيل، وإسرائيل كما مرّ معنا أيضاً لفظة كنعانية تعني «ييسّر الله» وليس كما ورد تفسيرها في التوراة بمعنى «يجاهد الله»، وبالإضافة إلى اختلاف المعنى علينا أن نشير إلى حقيقة كونها لفظة كنعانية مكوّنة من جزءين (يشر) أي ييسّر و (إيل) أي الله الإله الكنعاني الكوني. وعلى هذا يكون الإسرائيليون قبائل كنعانية لا كما صوّرهم محرّر التوراة بأنّهم تحدّروا من أبناء يعقوب (إسرائيل) الأحد عشر الذين انتقلوا للعيش في مصر مع أخيهم يوسف الابن الثاني عشر فشكّلوا الأسباط الذين هاجموا كنعان بعد خروجهم من مصر. والجدير ذكره أنّ التوراة وحدها جاءت على ذكر الإسرائيليين دون غيرها من سجلات التاريخ القديمة.

وحول هذا الموضوع نقرأ ما كتبه جودت السعد: «كانت فلسطين معروفة للمصريين تحت أسماء (حارو) Haru، (خال) Khal، (باكانانا) Pa-Kanana، ثم عُرفت بأرض كنعان وكذلك بأرض الأموريين، ولكنها لم تذكر إطلاقاً أنّها تحمل اسم أرض إسرائيل، بل إنّ تسمية التوراة (دولة إسرائيل) في السامرة لم ترد في أي مصدر بهذا الاسم. وهذا يشكك بما ورد في التوراة من قصص وأحداث»(222). أما بالنسبة إلى مصطلح عبرانيين فقد تطرّق الكثيرون إلى تحليل جذوره. فجود أبو صوان يقول: «ومن الملاحظ أنّ أبرام سمّي في تكوين 14: 13 بالعبراني. وهذه التسمية خاطئة لأنّ نسب الرجل إلى الفعل عبر، لم يحدث، إذ لم يعبر أبرام أية مياه. وكلمة عبراني لم تطلق على الشعب

اليهودي إلا بعد عبور بحر سوف الفاصل بين سيناء ومصر، وأفضل لقب ينسب إلى أبرام هو أبرام البدوي»(223). فالكاتب هنا حاول الإضاءة على المعنى اللغوي لكلمة عبراني فأعادها إلى الفعل عبر. أما كمال الصليبي فينطلق من التفسير التوراتي لهذا المصطلح ويردّه إلى جدهم عابر الذي كان من سلالة نوح، فهم بنو عابر الذي كان ابناً لشالح ابن أرفكشاد ابن سام: «والواضح أنّ هذه القبائل كانت تعتبر عبرانية، أي من «بني عابر». أما ابن عابر الأول، وهو فالج، فمن سلالته «أبرام العبراني» (ء برم هـ - عبري) الذي صار اسمه فيما بعد إبراهيم (ء برهم)»(224). ثم يناقض الصليبي نفسه إذ ينتقل إلى تفسير العبرانيين من منطلق لغوي بعدما كان أعادهم إلى جدهم عابر. ثم يشير إلى المحاولات التي جرت لربط كلمة عبراني بكلمة خا – في – رو المذكورة في النصوص المسمارية أو أل عفرم المذكورة في النصوص الأوغاريتية أو الخابيرو المذكورين في رسائل تل العمارنه المصرية، وبعد استعراضه لهذه الاحتمالات يقول: «لكن هؤلاء ليسوا العبرانيين التوراتيين إطلاقاً». ونضيف هنا إلى ما ذكرناه سابقاً حول هذا الموضوع الذي تطرّق إليه بعض الدارسين مستندين إلى لوحة سجّل عليها الفرعون مرنفتاح بعض أعماله الحربية ورد فيها لفظ العابيرو فربطوا هذه اللفظة بالعبرانيين الذين لم يكن لهم تاريخ.

ويقول جودت السعد حول هذا الموضوع: «ويشير بعض الباحثين إلى وجود ذكر لبني إسرائيل على نصب وجد في طيبة يعود إلى مرنفتاح (1230 ق.م.)، لكن الحقيقة أنّ النصب يذكر العبيرو وليس الإسرائيليين أو العبريين. ولأنّ بعض الباحثين اعتبر العبيرو هم العبريين، وبما أنّ الكثيرين يعتبرون العبريين هم الإسرائيليون فقد قرأوا نص النصب على أنّه بني إسرائيل في بعض الترجمات»(225). أمّا فيليب حتي فيذكر ما يلي: «يحيط الغموض ببدء وجود العبرانيين في سورية الذي سُجّل بشكل أسطوري تقليدي»(226). وعن أصل العبرانيين يقول حتي بأنّ دخولهم إلى كنعان التي كانت تسمى سورية الجنوبية حينذاك جاء على ثلاث مراحل وبشكل هجرات، الأولى بدأت من بلاد الرافدين مع إبراهيم جدهم الأول، والثانية أيام الآراميين في القرن الرابع عشر، والثالثة هي خروجهم من مصر بقيادة موسى ودخولهم كنعان بقيادة يشوع في القرن الثالث عشر. أما عن الهجرة الأولى فلا أظن أنّه بإمكاننا إطلاق تسمية هجرة عليها لأنّها كانت مجرد انتقال أسطوري لرجل وأهل بيته بأمر من الله، والهجرة الثانية لم تأتِ كتب التاريخ بأيّ ذكر عنها، أما الثالثة فمشكوك بصحتها وبصحة كلّ الأشخاص الورادة أسماؤهم في الأسفار لجهة تاريخيتهم وحقيقة وجودهم».

وعلينا الإشارة أيضاً إلى ما كتبه كيث وايتلام عندما تصدى لموضوع نقش مرنفتاح فناقش نظريات بعض الباحثين مثل بيمسون وآهلشتروم وكوت، فوصل إلى الاستنتاج التالي: «ونقش مرنفتاح شبيه تماماً بنقش تل دان من حيث أنّه لا يقدم إلاّ دليلاً صغيراً غير واضح الدلالة حول طبيعة إسرائيل ومكان توضعها أو علاقتها بالصورة المقدمة في أماكن متعددة من الكتاب العبري»(227). أما كوت فذكر، مستنداً إلى أبحاث فنكلشتاين حول التطور الزماني للتوطن الإسرائيلي، بأنّ إسرائيل كانت تنظيماً قبلياً فلسطينياً استخدمه الفرعون حاجز عزل في وجه التهديدات الحثية من الشمال.

أما الباحث توماس طومسون فيعتبر بأنّ رقيم مرنفتاح ليس إلاّ تسجيلاً لأحداث أسطورية: «إنّ إعادة استعمال هذه الثيمات في (رقيم مرنفتاح)، الذي تطغى عليه مجازات نشيد الإنسان البائس، تربط أسطورة هزيمة التنين بالنصر على كلّ أعداء فرعون، التي يردد صداها في نشيد داود (صموئيل

الثاني 22: 1)»(228). ثم يعود ليحلل عناصر نقش مرنفتاح فإذا به، برأيه، «يمتلك خواص خرافية»(229)، ويرى أنّ افتتاحية النشيد «تؤدي الصفة المسرحية والدعاوية أكثر مما تؤكد الصفة التاريخية للنقش»، ولكي يؤكد أنّ هذا النقش لا يشكّل سجلاً تاريخياً بل نشيداً شعرياً يمجد الملك المنتصر بشكل عام فإنّه يورد هذا المقطع من النقش والذي يرد فيه اسم إسرائيل: «يسجد الملوك، وهم يقولون شالوم! لا أحد يرفع رأسه بين الأقواس التسعة. ليبيا صحراء؛ حتي مسفوعة، غزة منهوبة، مبتلية بكلّ شر؛ عسقلان مخطوفة؛ جزير مكبّلة؛ ينعام كأنّها غير موجودة. إسرائيل مُدمّر، بذرته قد انقرضت؛ حورو صارت أرملة مصر. كلّ البلدان موحدة، إنّها في سلام، وكلّ من كان يحدث ضجيجاً يكبّله الملك مرنفتاح؛ إنّهم يمنحون الحياة مثل رع، إلى الأبد»، فيستنتج من هذا المقطع بأنّ «دور إسرائيل بوصفه يرمز إلى شعب فلسطين وفي (رقيم مرنفتاح) بوصفه الزوج المتوفى لحورو، لا يعني أيّ جماعة إثنية بعينها ضمن فلسطين، بل بالأحرى يقوم بوظيفته كرمز سردي لكلّ فلسطين، بالأخص حيث كانت مصالح مرنفتاح، المنطقة المنخفضة من غزة إلى ينعام».

وأنا أزيد على ذلك لأقول: إذا كان مرنفتاح قد حكم حوالي 1230 ق.م. فهذا يعني أنّ العبرانيين خرجوا من مصر خلال حكمه لأنّ خروجهم مقدّر في هذا التاريخ، وإذا أضفنا سنوات التيه الأربعين فهذا يعني أنّه من غير الممكن أن يكون مرنفتاح على قيد الحياة، خاصة أنّ احتلال كنعان أيضاً حسب الرواية التوراتية قد استغرق سنوات طويلة والاستقرار النسبي للعبرانيين في كنعان، إذا ما سلّمنا بما ورد في التوراة، لم يبدأ إلاّ مع عصر القضاة الذي ابتدأ عام 1200 ق.م. تقريباً (حسب المنجد). فكيف يمكن لمرنفتاح أن يمجد انتصاره على دولة غير موجودة؟ والأمر الثاني الذي أكد عليه طمسن هو أسطورية هذه الأناشيد التي تمجد الملك مع ما تحمله من مجازات ومبالغات كقوله «إسرائيل مدمّر، بذرته قد انقرضت»، والتوراة تخبرنا عن فتوحات يشوع وعصر القضاة والملوك وصولاً إلى مملكتي داود وسليمان (1010 – 931 ق.م)، فكيف تكون بذرة إسرائيل قد انقرضت؟ ثم إيراد كلمة شالوم في مطلع هذا المقطع لا يدل برأيي على وجود العبرانيين، إذ إنّنا أشرنا سابقاً إلى أنّ اللغة العبرية لم تكن قد وجدت بعد في زمن موسى، إلاّ إذا كانت هذه اللفظة كنعانية انتقلت إلى الهيروغليفية بفعل التفاعل الحضاري بين مصر وكنعان، أو أنّ الدارسين الكتابيين أقحموها بالترجمة لكي يؤكدوا وجود إسرائيل الذي رفضته كلّ الآثاريات لغاية الآن.

فكما حاول الدارسون تسييس الآثار كما يقول وايتلام (إنّ تحديد المواقع الإسرائيلية والثقافة المادية الإسرائيلية جزء أساسي، بقصد أو بغير قصد، من تسييس التاريخ) فإنّهم حاولوا تزوير التاريخ وتحوير النصوص لكي تتوافق مع غاياتهم السياسية، لذلك قال دفيس «إذا لم تكن هناك نصوص مكتوبة يمكن الركون إليها حول المرحلة، فإنّه لن يكون من الممكن كتابة تاريخ أصلاً». ويقول حتي: «ويُرجّح أن يكون خروج العبرانيين من مصر قد تم في عهد خليفة رعمسيس، مرنفتاح (حكم في حدود 1234 – 1215)»(230)، وهذا ما يؤكد ما قلناه عن عدم منطقية ما جاء في هذا الرقيم لمن أراد اعتماده مستنداً تاريخياً لوجود إسرائيل. وإذا ما استقصينا المزيد من المراجع لتبين لنا، بما لا يقبل الشك، أنّ بني إسرائيل لا يملكون تاريخاً واضحاً حول تكوّنهم «كشعب» إلاّ ما ورد في المرويات التوراتية التي فقدت مصداقيتها التاريخية.

ويشير فراس السواح إلى ندوة دولية للبحث في أصول الشعب اليهودي عقدت في مدينة شيكاغو عام 1999 برعاية جامعة Northwestern University بالتعاون مع الفيدرالية اليهودية المتحدة للمدينة، بحضور مؤرخين وعلماء آثار ودارسين وأركيولوجيين لامعين، وبالطبع بينهم يهود كُثُر، يشير إلى أنّه عندما وصل النقاش إلى «موضوع بني إسرائيل في مصر، والخروج منها بقيادة موسى، لم يدّع أحد من المشاركين في الندوة بأنّ لديه أيّة بينات تاريخية أو أركيولوجية على وجود العبرانيين في مصر، ولم يجادل أحد في تاريخية أحداث الخروج أو يقدم أيّة شواهد على صحة أيّ عنصر من عناصر القصة التوراتية»(231). وإذا افترضنا أنّ بعض المصادر التاريخية تذكر أنّ بني إسرائيل استوطنوا مصر لمدة 430 سنة، ورد ذلك فقط في التوراة، فكيف خلا تاريخ مصر من أيّة إشارة إليهم؟ هذا يؤكد ما توصل إليه الدارسون الثقات من أنّ كلّ هذه المرويات عن الخروج والدخول والمعارك والممالك ما هي إلاّ محض خيال، فإسرائيل التوراتية هي تصوّر أدبي خيالي(232).

أمّا رجال الدين اليهود فيفسّرون المصطلح (عبري) انطلاقاً من التوراة فينسبه الحاخام موشيه بن نحمان وهو أحد كبار حاخامات القرون الوسطى إلى «إبراهيم، الذي كان رأس النسب، سُمي إبراهيم العبري لأنّه كان وراء النهر، وكبر اسمه بين الأغيار لأنّه عاش هناك ولذلك سُمي نسله بالعبريين. وهم أنفسهم سيحملون اسمهم كي لا يختلطوا مع شعوب البلاد الكنعانية»(233). فعن أيّ نهر يتحدث هذا الحاخام؟ لم تذكر لنا التوراة عن عبور إبراهيم لأيّ نهر. فأبرام خرج أولاً مع ابيه تارح من أور الكلدانيين إلى أرض كنعان متوقفاً في حاران، ومن هناك إلى بلوطة موره، وبعد حدوث الجوع في كنعان انحدر إلى مصر، ثم صعد من مصر إلى الجنوب ومنه إلى بيت إيل «إلى المكان الذي كانت خيمته فيه في البداءة بين بيت إيل وعاي» (تكوين 13: 2)، ثم ينتقل مجدداً إلى بلوطات ممرا، أي أنّه عاد إلى كنعان وهناك أتاه من أخبره أنّه بعد معركة لملكيْ سدوم وعموره مع ملوك شنعار وألاسار وعيلام وجوييم، وبعد هزيمة ملكيْ سدوم وعموره وهروبهما سيطر المنتصرون على أملاك سدوم وعموره بعد هرب أهلها «وأخذوا لوطاً ابن أخي أبرام وأملاكه ومضوا. فأتى من نجا وأخبر أبرام العبراني» (تكوين 14: 12 – 13)، وهي المرة الأولى التي يأتي فيها محرر التوراة على ذكر مصطلح عبراني، أمّا ماذا يعني به فما من أحد يعلم وهو بالطبع لم يعنِ به مصطلحاً لغوياً يفهم منه أنّ صاحب اللقب هو من عبر النهر، كأن نقول في هذه الأيام أنّ نسبة عائلة حداد إلى صُنعة جدهم أي الحدادة، وعائلة لحام إلى صُنعة الذبح وبيع اللحم إلخ... إذ لا ذكر لأيّ نهر خلال رحلته من أور إلى مصر مروراً بكنعان ذهاباً وإياباً. أما المرة الثانية التي يتكرر فيها هذا المصطلح فهي في سفر التكوين الإصحاح التاسع والثلاثين في المقطع الرابع عشر خلال سرد المحرّر لقصة تحرّش زوجة فوطيفار بيوسف بن يعقوب إذ قال: «قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا». أما لماذا دعت زوجة فوطيفار يوسف بالعبراني بدلاً من الإسرائيلي نسبة إلى أبيه يعقوب، فعلى الحاخام موشيه بن نحمان وكلّ الدارسين الذين يوافقونه الرأي أن يسألوا عزرا محرّر هذه الأسفار، أو أنّ عليهم التسليم بأسطوريتها بكلّ ما فيها من أحداث وشخصيات.

وإذا ما عدنا إلى علاقة اليهود بالخابيرو أو العابيرو نقرأ للأب سهيل قاشا ما يلي: «ظهرت رسائل تل العمارنة، وظهرت فيها كلمة خابيرو، كلمة مؤلفة من ثلاثة أحرف، فتبنى اليهود هذه المسألة على اعتبار أنّ خابيرو تعني عابيرو أي عبري، يعني اليهود. وبدأت التنقيبات والترجمات لهذه الرسائل.

فتبيّن أنّ الخابيرو كانوا مجرد قطاع طرق في شبه جزيرة سيناء، يقطعون الطريق على القوافل بين مصر وسورية، أي الخط التجاري في ذلك الوقت. فلما أثبتت الاكتشافات ذلك، تنصّلوا من الموضوع ولم يعودوا يعترفون به»(234). أما في كتابه «التوراة والتراث السوري» فقد تطرق مفيد عرنوق إلى عدة نظريات درست هذا الموضوع منها للدكتور أحمد سوسه في كتابه «العرب واليهود في التاريخ» والتي يعتبر فيها أنّ لفظة عبيرو كانت تطلق على أهل الصحراء الذين تم ذكرهم بهذه الصفة في جميع الكتابات القديمة وذلك قبل ظهور موسى بعشرات القرون. ثم انتقد الأستاذ إدمون جاكوب الذي حاول بنظريته التوفيق الإيجابي بين الـ Hapiru والـ Hebreux فرأى أنّ الأخيرين ليسوا إلاّ فئة من الأولين. ثم ينقل عن بارو من كتابه «أبراهام وزمانه» هذا الرأي: «هل ينتمي أبرام العبري إلى الخبيرو أو الهابيرو الموجودين تاريخياً قبل عهد العمارنة (1400 – 1300 ق.م.) علماً بأنّ نصوص ماري تأتي على ذكرهم وهذا يرتقي إلى 1800 ق.م. أي في عهد الآباء. إنّ المتخصصين في هذه المواضيع انقسموا إلى قسمين، الأول يرجع لفظة Hebreux إلى الخبيرو والقسم الآخر يرفضها». وهذا الاختلاف بوجهات نظر الدارسين الذي تخطى مفهوم هذا المصطلح إلى الأسفار بمجملها، بما في ذلك الحوادث والشخصيات، إنّما يدل على عدم وجود بيّنات وإثباتات علمية تفصل بهذه الموضوعات سلباً أو إيجاباً. غير أنّ علم الآثار لم يستطع حتى الآن تقديم أيّة أدلة على تاريخية المرويات، بالإضافة إلى تقديمه الكثير من الإثباتات على اقتباس محرّري التوراة من حضارة الشرق القديم، مما يرجح كفة العلماء الذين يقولون بأسطورية التوراة بكلّ محتوياتها.

وكنهاية لهذا الاستطراد، ولكي نُقفل القوس الذي فتحناه لبحث هذه المسألة، نشير إلى أن جميل خرطبيل اعتبر أنّ مصطلح عبري «يختص فقط بإبراهيم ومن كان معه من أهله وأقربائه»(235)، ويضيف: «إنّنا نجد أنّ عبور إبراهيم غير محدد الدلالة فهو قد يكون لنهر الفرات، أو لعبوره نهر الأردن إلى أرض كنعان، أو عبور حدود أو بحر... ويذكر ياقوت الحموي عدة احتمالات لتسمية العبرانيين ومنها: نسبة إلى عبورهم مع موسى البحر فارين من مصر»(236). فتفسير ياقوت خاطئ إذ إننا أثبتنا ورود هذا المصطلح في سفر التكوين كصفة لكلّ من إبراهيم ويوسف قبل الخروج من مصر بست مئة سنة لإبراهيم وما لا يقل عن 400 مئة سنة ليوسف.

كذلك ورد هذا المصطلح «عبراني»، للدلالة على هؤلاء الذين ورد ذكرهم في التوراة بأنّهم من ذريّة أبناء يعقوب الذين عاشوا في مصر قبل خروج موسى بهم من مصر إلى سيناء، فكيف يمكن أن يُسمّوا عبرانيين قبل حدوث فعل العبور؟ وقد ذكرنا سابقاً قصة موسى عندما قتل الرجل المصري حيث نقرأ من (خروج 2: 12) «فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً»، وعندما طلب موسى وهارون من فرعون أن يسمح لهم بالخروج قالا له: «إله العبرانيين قد التقانا» (خروج 5: 4)، فهذه الأحداث حصلت قبل الخروج والعبور، إذن لا علاقة لكلمة عبرانيين بالتفسير الذي اعتمده بعض الدارسين على أنّها من فعل عبر، وسيّان إن أعادوا العبور لإبراهيم أو لموسى. أمّا ذكر عبور موسى فلم يرد إلاّ في سفر التثنية الثاني في المقطع الثامن إذ يقول: «فعبرنا عن إخوتنا بني عيسو الساكنين في سعير»، أي اجتزنا مكان سكنهم دون التعرُّض لهم، ثم يقول في المقطع 30 من الإصحاح ذاته: «إلى أن أعبر الأردن إلى الأرض التي أعطانا الرب إلهنا»، ويعيد قوله هذا مرة ثانية في الإصحاح الثالث في المقطع الخامس والعشرين: «دعني أعبر وأرى الأرض الجيدة التي في عبر الأردن هذا

الجبل الجيد ولبنان». وهذا يؤكد ما قلناه أكثر من مرة على تخبط محرّر التوراة بالتناقضات، فهو لو ترك إطلاق صفة العبرانيين إلى ما بعد ورود هذه الأقوال الأخيرة لكان أكثر وضوحاً وتحديداً.

وكما نلاحظ هناك غموض يلفّ هذا المصطلح الذي حاول الدارسون الاستفادة من أيّة وثيقة تتضمنه لإثبات وجود إسرائيل التوراتية، وقد فشلوا فشلاً ذريعاً. يؤكد على ذلك الكاتب أسامه العيسة حيث يذكر رأياً لزئيف هرتسغ نقتطف منه ما يلي: «من المعتقد أنّ سكان العالم كلّه وليس مواطنو «إسرائيل» وأبناء الشعب اليهودي وحدهم سيُذهلون لسماع الحقائق التي باتت معروفة لعلماء الآثار الذين يتولّون الحفريات في «أرض إسرائيل» منذ مدة من الزمن. في العشرين سنة الأخيرة يحدث انقلاب حقيقي في نظر علماء الآثار الإسرائيليين إلى التوراة بعدّها مصدراً تاريخياً... من الواضح للعلماء والباحثين اليوم أنّ شعب إسرائيل لم يقم في مصر ولم يته في الصحراء ولم يحتل الأرض من خلال حملة عسكرية ولم يستوطنها من خلال أسباطه الإثني عشر»(237). مع هذه الأسطر للباحث الإسرائيلي الشهير البروفسور زئيف هرتسغ، الأستاذ في قسم آثار وحضارة الشرق القديم في جامعة تل أبيب ماذا يبقى من أسطورة موسى وخروجه الخرافي؟

ولا يسعنا إلاّ العودة إلى حوار الله مع موسى عندما ناداه من وسط العلّيقة فنجد أنّ الله قد عرّف عن نفسه بأنّه إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، وأنّه قد وقع اختياره على موسى لكي يرسله إلى فرعون لإخراج شعبه الخاص بني إسرائيل من مصر، ولم يقل العبرانيين. وبالرغم من ذلك لم تظهر على موسى أية دلائل تشير إلى ثقته بنفسه وإلى اغتباطه لأنّ الله اختاره من بين كلّ الشعب، بل ظلّ مشكّكا بقدرته فقال لله: «من أنا حتى أذهب إلى فرعون وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر» (خروج 3: 11). ثم يسأل موسى الله: «فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم. فقال الله لموسى أهيه الذي أهيه. وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلني إليكم. وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يَهْوَه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم. هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكري إلى دور فدور» (خروج 3: 13 – 15).

فإذا كان موسى قد علم أنّ المتحدث إليه هو الله بدليل قول المحرّر «لأنّه خاف أن ينظر إلى الله» (خروج 3: 6)، فلماذا سأله عن اسمه وكأنّه إنسان يريد التعرُّف إليه؟ ألا يكفي أن يقول لقومه إنّ الله كلّمني؟ ألا يجعلنا ذلك نؤكد أنّ المحرّر الذي ابتدأ سفر التكوين بالإشارة إلى الله خالق السموات والأرض وما عليها، إله الكون سيّد المخلوقات، قد عاد ليركز على إله محدّد بشعب خاص لأنّه لم يستطع أن يجاري حضارة البابليين الذين توصلوا إلى التوحيد قبل زمن بعيد فعبدوا إيل (الله) الكوني؟ ألا يدفعنا ذلك إلى الاعتقاد بأنّ محرّر التوراة الذي سرق الأساطير السومرية والبابلية التي تتحدث عن الخلق على يد الإله الكوني الذي كان له آلهة (ملائكة) تساعده على تسيير شؤون الكون، كما توصل إليه تفكير الإنسان في مغامرته العقلية حول تطور مفهوم الألوهة، لم يستطع استيعاب فكرة التوحيد، وفي الوقت نفسه لم يستطع الاندماج الكلي مع البيئة الحضارية التي أجبر على الوجود فيها، فعاد إلى قبليته فاخترع إلهاً خاصاً نصّبه حامياً ومدافعاً عن هذه القبيلة ومنقذاً لها من مسخّريها ومستعبديها؟ وإذا كان هذا الإله قد اتخذ أخيراً اسم يَهْوَه، فلماذا استمر الكاتب بالقول وفي كثير من المواضع: ثم قال له الرب بدل قوله قال له يَهْوَه؟ ثم إذا كان الرب قد التقى موسى وحيداً فمن سمع كلّ هذا الحديث الشخصي الذي دار بينهما فسجله بحذافيره، خاصة وأنّ الكاتب لم يذكر بأنّ موسى عاد

ونص ما دار بينه وبين الله، بل يذكر بأنّ موسى أخبر هرون بجميع كلام الرب، وهرون تكلم «بجميع الكلام الذي كلّم الرب موسى به» (خروج 4: 30)، ولم يذكر من دوّن هذا الكلام.

بعد ذلك نقرأ مقطعاً شديد الغموض إذ يقول الرب لموسى: «فتقول لفرعون هكذا يقول الرب. إسرائيل ابني البكر. فقلت لك أطلق ابني ليعبدني فأبيت أن تطلقه. ها أنا أقتل ابنك البكر» (خروج 4: 22 - 23). أنا أفهم من هذا الكلام أنّ الله هدّد فرعون بأن يقتل ابنه البكر مقابل رفضه إطلاق إسرائيل ابن الله البكر، وهو يرمز به إلى الإسرائيليين جميعاً. أما المفسرون فقد قالوا إنّ الله قد همّ بقتل ابن موسى البكر لأنّه نسي أن يختنه ناقضاً بذلك العهد الذي قطعه الله مع إبراهيم بختن كلّ ذكر عند بلوغه ثمانية أيام، عائدين بذلك إلى المقطع 24 من الخروج الرابع وما بعده إذ نقرأ: «وحدث في الطريق في المنزل أنّ الرب التقاه وطلب أن يقتله (التقى من؟) فأخذت صفورة صوّانة وقطعت غرلة ابنها ومسّت رجليه. فقالت إنّك عريس دم لي. فانفكّ عنه. حينئذٍ قالت عريس دم من أجل الختان»، عندها نفهم أنّ الله قصد ابن موسى وليس ابن فرعون، وفي كلّ الأحوال ألا يستدعي ذلك منّا التساؤل عن هذا الإله الذي يبادر فوراً إلى اختيار البكر لكي يقتله لذنب بسيط؟ كيف لنا اليوم أن نبقى مغمضي الأعين عن إرهاب هذا الإله الذي لم يسبقه إليه إله آخر، خاصة وأنّنا نؤمن اليوم بأنّ لكل منا حساباً في الآخرة يلقاه حسب أعماله؟ لماذا لا ينام يَهْوَه على ضيم بل يريد تنفيذ الانتقام المباشر كي يُرعب الآخرين؟

ثم يعود هذا الإله ليؤكد لموسى أنّه إله آبائه، ربما لعلمه أنّ موسى لم يستوعب الفكرة بعد أو أنّه، كما حدث مع إبراهيم، كان ناقص الإيمان فأراد أن يثبّت إيمانه مؤكداً أنّه الإله القادر على كلّ شيء، كاشفاً له أنّه «باسمي يَهْوَه فلم أعرف عندهم» (خروج 6: 3). قد نغضّ الطرف عن تغيير أسماء الأشخاص في التوراة، فأبرام أصبح إبراهيم وساراي أصبحت ساره ويعقوب أصبح إسرائيل، أما أن يتغيّر اسم الله إلى أهيه فيَهْوَه فهذا يعني أنّ الله متغيّر وليس ثابتاً، والمتغيّر لا يمكن أن يكون أزلياً، فالله إذن مُحدث ومن كان محدثاً لا يمكن أن يكون كلّي القدرة لأنّ هناك قوة أقدر أحدثته، وهذا دليل آخر على عدم قدرتهم الفكرية لبلوغ الرُّقيّ التوحيدي الذي وصل إليه من سبقوهم إلى مفهوم الألوهة الكوني.

ولا يكفي أن يعلن هذا الإله عن استعداده لإنقاذ بني إسرائيل لكي نتأكد من قدرته لأنّه يؤكد بنفسه انتماءه إلى قبيلة بني إسرائيل دون بقية الناس إذ يقول: «وأتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً» (خروج 6: 7). فقد قيّد محرّر التوراة هذا الإله وحصر قدرته ببني إسرائيل فقط فأسقط عنه الشمولية الكونية، فلماذا نتبرع نحن إلى التسليم بكلّ وعوده لشعبه الخاص على أنّها وعود الله الكوني الذي نؤمن به وهو الذي أخرجنا من ملكوته وأدخل فقط شعبه الخاص: «أدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب. وأعطيكم إيّاها ميراثاً. أنا الربّ» (خروج 6: 8). ألا يحق لنا أن نسأله أيّ ربّ أنت، وربّ مَنْ؟! فإذا بقي جوابه، كما تعلمنا التوراة بذلك، بأنّه إله إسرائيل فقط، فهل يكون له علينا حق الطاعة والعبادة والتقديس؟

بالطبع لا لأنّه ليس الإله الكوني الأوحد والشريعة التي لقّنها لموسى ولمَن أتى بعده من الأنبياء، وهم كُثُر، لم تكن أبداً ديانة شاملة. فالديانة الشاملة برأي اسبينوزا لا تحتاج إلى شعائر، وما أكثرها لدى اليهود، وهي لا تحتاج أيضاً إلى مؤسسات دينية. والطقوس الدينية برأيه لا تؤمّن السعادة الروحية

«وطقوس العهد القديم، بل وشريعة موسى كلها، تتعلق بدولة العبرانيين وحدها»(238). وبالنسبة له «لا يوجد شيء على الإطلاق مقدّس أو دَنِس، لا قدسية فيه خارج الفكر(239)، بل إنّه لا يكون كذلك إلاّ بالنسبة إلى الفكر». فالمقدس بالنسبة له اسم يطلق «على كلّ ما يؤدي إلى التقوى وإلى الدين، ولا يظل الشيء مقدساً إلاّ إذا استمر الناس في استخدامه على نحو ديني. فإذا لم يعودوا أتقياء، ضاعت قدسية ما كان مقدساً من قبل»(240).

فأين التقوى التي تحلّى بها بنو إسرائيل للإبقاء على كتابهم مقدساً، وكتابهم يفضحهم أكثر من مرة وإثباتاً على ذلك أورد مثلين: الأول من سفر العدد (14: 26) حيث نقرأ: «وكلّم الرب موسى وهرون قائلاً حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة عليّ»، والثاني من سفر التثنيه (9: 5 – 7): «ليس لأجل بِرّك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب إلهك من أمامك... فاعلم أنّه ليس لأجل بِرّك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنّك شعب صلب الرقبة... أذكرْ لا تنسَ كيف أسخطت الربّ إلهك في البرية. من اليوم الذي خرجت فيه من أرض مصر حتى أتيتم إلى هذا المكان كنتم تقاومون الرب». فإذا كان «العبرانيون» لم يتقوا الله مع بدء الدعوة الموسوية بالالتزام بالشريعة الجديدة، فلا يمكن للكلمات التي عبّرت عن هذه الشريعة أن تكون مقدسة شكلاً ومضموناً، فلا قداسة خارج فكر الإنسان وممارساته. وكيف تكون مقدسةً الشريعةُ التي لا تدعو إلاّ للقتل والنهب والتشريد والسيطرة على ممتلكات الآخرين؟

وبرهاناً على ذلك سأنتقي من الأسفار التي قصَّت علينا سيرة موسى ما يؤكد أنّ كلامي ليس تهماً تُساق جزافاً بل هو مستند إلى حرفية المصدر حيث لا مجال للتأويل. فيَهْوَه القادر على كلّ شيء لم يسعَ إلى جعل فرعون يرضخ لطلب موسى وهرون بالسماح للإسرائيليين الخروج من مصر، لأنّه ليس إله فرعون وشعبه، فهو إله الإسرائيليين فقط ومستعد أن يذيق الشعوب الأخرى الويلات كرمى لعيون شعبه الشرير. فبعد المباراة بين موسى وسحرة الفرعون وتراجع هذا الأخير كل مرة يربح فيها موسى عن تحقيق وعده بإطلاق الشعب، يبدأ يَهْوَه بإنزال العقوبة تلو الأخرى بالمصريين لا بفرعون، فهل بعد هذا الظلم الإلهي يُلام فرعون إن هو فعلاً كان يظلم الإسرائيليين؟ فرعون بشر والبشر يخطئون، فهل يمكن للإله أن يخطئ مثل البشر، أم أنّ إجرامه مبرَّر لأنّه يدافع عن شعبه الخاص؟

"ثم قال الربّ لموسى قل لهرون خذ عصاك ومدّ يدك على مياه المصريين على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دماً. فيكون دم في كلّ أرض مصر في الأخشاب وفي الأحجار» (خروج 7: 19). «ومات السمك الذي في النهر وأنتن النهر فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماء من النهر» (خروج 7: 21). «فقال الربّ لموسى قل لهرون مدّ يدك بعصاك على الأنهار والسواقي والآجام وأصعد الضفادع على أرض مصر» خروج 8: 5. «ثم قال الرب لموسى قل لهرون مدّ عصاك واضرب تراب الأرض ليصير بعوضاً في جميع أرض مصر» (خروج 8: 16). «فإنّه إنْ كنت لا تطلق شعبي ها أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبّان فتمتلئ بيوت المصريين ذباناً. وأيضاً الأرض التي هم عليها. ولكن أميّز في ذلك اليوم أرض جاسان حيث شعبي مقيم حتى لا يكون هناك ذبان» (خروج 8: 21). أهذا مثال على العدل الإلهي أم سادية الإله القبلي؟ «ثم قال الربّ لموسى ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الربّ إله

العبرانيين أطلق شعبي ليعبدوني. فإنّه إنْ كنت تأبى أن تطلقهم وكنت تمسكهم بعد فها يد الربّ تكون على مواشيك التي في الحقل على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم وبأ ثقيلاً جداً. ويميّز الرب بين مواشي إسرائيل ومواشي المصريين. ففعل الربّ هذا الأمر في الغد» (خروج 9: 1 – 6). «ثم قال الربّ لموسى وهرون خذا ملء أيديكما من رماد الأتون. وليذرّه موسى نحو السماء أمام عينيّ فرعون. ليصير غباراً على كلّ أرض مصر. فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كلّ أرض مصر» (خروج 9: 8 و 9). وإذ نفد صبر يَهْوَه على فرعون يأمر موسى بالدخول عليه ليقول له: «لأنّي هذه المرة أرسل جميع ضرباتي إلى قلبك وعلى عبيدك وشعبك لكي تعرف أن ليس مثلي في كلّ الأرض... ها أنا غداً مثل الآن أمطر بَرَداً عظيماً جداً لم يكن مثله في مصر منذ يوم تأسيسها إلى الآن... فضرب البرد في كلّ أرض مصر جميع ما في الحقل من الناس والبهائم. وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسّر جميع شجر الحقل. إلاّ أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل فلم يكن فيها برد» (خروج 9: 14 – 18 – 25 – 26).

ويستمر تمتع هذا الإله بالقتل والتدمير فقط لإخراج بني إسرائيل الذين ادّعى الكاتب بأنّهم أنّوا وتوجّعوا من الظلم فحنّ قلب إلههم وأخذ يتفنّن بالتمثيل بمسخّريهم. «فإنّه إنْ كنت تأبى أن تطلق شعبي ها أنا أحيّ غداً بجراد على تخومك. فيغطي وجه الأرض حتى لا يُستطاع نظر الأرض ويأكل الفضلة السالمة الباقية لكم من البرد» (خروج 10: 4 – 5). «ثم قال الربّ لموسى مدّ يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر حتى يُلمس الظلام. فمدّ موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس في كلّ أرض مصر ثلاثة أيام. لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام. ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم» (خروج 10: 21 – 23). وبعد كلّ هذه الفظائع التي أقلّ ما يقال فيها إنّها جرائم بحق الإنسانية يُعطي «الربّ نعمة للشعب في عيون المصريين. وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جداً في أرض مصر في عيون عبيد فرعون وعيون الشعب» (خروج 11: 2).

أمّا إذا تساءلنا لماذا تهبط النعمة على الإسرائيليين من المصريين، ولماذا يصبح صاحب هذه الشرور كلّها عظيماً جداً في أرض مصر؟ فما علينا إلاّ أن نسلّم بقدرة يَهْوَه وبحريته باختيار شعب خاص وإنزال كلّ أنواع الإرهاب بشعب آخر. ومن تبقى من هذا الشعب بعد كلّ هذه الويلات التي نزلت به فأفنته مع بهائمه وعشبه وشجر حقوله؟ كيف يمكن لأيّ عقل سويّ أن يُسلّم بتاريخانية وحقيقية هذه الأسطورة التي إنْ دلّت على شيء برأيي فإنّها يجب أن تدلّ على أنّ الله لا يترك المؤمنين به بل يأخذ بأيديهم ويساعدهم بالرغم من أنّ الكاتب استعان بما يعتمل في نفسه من حقد وإجرام وأسقطهما على إلهه فنفى، والحالة هذه، عنه الألوهة مجسداً به الإجرام والإرهاب.

وإمعاناً من الكاتب أيضاً بإظهار عنصرية هذا الإله ركّز على التمييز الذي قام به بين الإسرائيليين كشعب خاص به وبين المصريين، ولكي يعلم فرعون أن الربّ يميّز بين المصريين والإسرائيليين ولكي يكرّس هذه «الفضيلة» الإلهية نجده يخبر موسى بأنّه سيخرج في وسط مصر نحو نصف الليل «فيموت كلّ بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيّه إلى بكر الجارية التي خلف الرّحى وكلّ بكر بهيمة. ويكون صراخ عظيم في كلّ أرض مصر لم يكن مثله ولا يكون مثله أيضاً. ولكن جميع بني إسرائيل لا يُسنّن كلبٌ لسانه إليهم لا إلى الناس ولا إلى البهائم» (خروج 11: 5 – 7). وبالرغم من كلّ هذه الفظائع التي أنزلها يهوه بفرعون وشعبه يريدنا المحرر أن نصدّق بأنّ

فرعون ظل يَعِدُ ثم يمتنع عن إطلاق الإسرائيليين. وما ذلك برأيي إلا مقدمة لإظهار مدى تعسّف فرعون والظلم الذي كان يلحقه بهم لكي يبرر لهم ما عادوا وفعلوه هم، حسب روايتهم، بشعوب كنعان.

ويستمر الفيلم الأميركي الطويل ويتحفنا الكاتب بسرد أحد الطقوس التي ستصبح تقليداً في عيد الفصح اليهودي. ونحن لن نناقش هذا الطقس من الناحية اللاهوتية فهو حق لهم، ولكننا سنناقشه من الناحية الإنسانية التي لم يُقم لها يَهْوَه أي اعتبار، إذ أمرهم بعد ذبحهم شاة من الخرفان أو من المواعز أن يأخذوا الدم «ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا في البيوت التي يأكلونه فيها» (خروج 12: 7). ليس في هذا الطلب ما يستدعي التوقف عنده باعتباره «فصح للرب»، ولكن أن يكون ذلك «الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها. فأرى الدم وأعبر عنكم. فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر» (خروج 12: 13). فإنّ ذلك يجب أن يستوقفنا لنحلّل هويّة هذا «اليَهْوَه» الإجرامية التي دفعته إلى اجتياز «أرض مصر هذه الليلة وأضرب كلّ بكر في أرض مصر من الناس والبهائم». فأيّ إله يفعل هذا الفعل؟ هل فعل يسوع ذلك أو النبي الكريم أو بوذا قبلهما بمئات السنين، أو آلهة السومريين، أو إيل البابليين والكنعانيين؟ بالطبع لا. يكفي أن نطّلع على تراث هذه الشعوب، وعلى التراث المسيحي والإسلامي، لكي نتأكد أنّ الإله الإسرائيلي يَهْوَه كان فريداً من نوعه بين الآلهة لأنّه كان إلهاً قبلياً أسندت إليه مهمة الدفاع عن شعبه الخاص والمحاربة عنه وإفناء كلّ من يواجهه.

وهذه الصفات أخذها الإسرائيليون أيضاً من حضارة الشعوب التي سبقتهم والتي كانت تسبغ على آلهتها القدرة على الحماية والدفع إلى الانتصار. وما ذلك برأي توماس طومسون إلاّ لأنّ كَتَبَة التوراة هدفوا إلى إيجاد «قيمة خاصة بتاريخ إسرائيل باعتباره متميِّزًا في تاريخ الشرق الأدنى القديم، سواء في ضوء المفاهيم التوراتية للزمن، أو في علاقة إسرائيل، التي لا مثيل لها، مع إلهها، وخاصة رعاية يَهْوَه لمصير إسرائيل ودوره الفاعل والمهيمن في تاريخها... الفكرة المتكررة عن هداية الله لإسرائيل (بالرغم من كلّ الشرور التي كان يقترفها) وقيامه بدور نشط في الحوادث التاريخية وسيطرته على تاريخ العالم، لم تكن في أي حال فكرة خاصة بإسرائيل، لأنّها وصف نموذجي للعمل الإلهي وُجد في السجلات التاريخية في كل أرجاء الشرق الأدنى القديم، كما كانت فكرة سائدة في الأدب منذ الحقبة الآشورية، وبعدها»(241). فكلام طومسون هذا يؤدي إلى ثلاث نتائج مهمة: الأولى تأكيده على عدم تميّز الإسرائيليين وإلههم عن غيرهم من الشعوب، والثانية تأكيد سرقتهم لتراث الشعوب ومعتقداتهم، والثالثة إسقاط تاريخية هذه المرويات وإلحاقها بالفن القصصي الأدبي.

وتأكيداً على ذلك يرى كثير من الباحثين أنّ الإله يَهْوَه كان إلهاً كنعانياً صادره كاتب التوراة وعبرنه. يقول فراس السواح: «على أنّ ما لم يقله لنا محرّرو التوراة، الذين كانوا يؤسسون لوحدانية عبادة الإله الفلسطيني القديم يَهْوَه، هو أنّ عشيرة لم تكن تُعبد وحدها في المملكتين، بل مع زوجها الذي هو يهوه بالذات، قبل أن تتبدّل صورته المشرقة كإله للخصب، ويغدو أقرب إلى الكائنات الشيطانية الظلامية في أسفار التوراة»(242). أما جودت السعد فيقول: «فعبادة (يَهْوَه) التي أول من عرفها القبائل العربية الشمالية كانت تتمركز في جبل سيناء، ويتميّز يَهْوَه – بحكم الطبيعة – بالقسوة والجبروت، وقد عرفت هذه العبادة قبل مجيء الموسويين بآلاف السنين»(243). ولقد اعتمد برأيه

هذا على ما كتبه ويليام فريدريك بايد في منشورة University of California Cronical Vol 13 No. 1.

وإذا عدنا لتفقد الإسرائيليين لنرى ماذا حلّ بهم لوجدناهم يتبعون وصية يَهْوَه القاضية بوضع علامة الدم على بيوتهم، ويا لها من علامة، فمرّ الرب ببيوتهم فصانها بمن فيها، أما في أرض مصر فقد ضرب كلّ بكر إنسان وبهيمة معتبراً إياها خدمة لبني إسرائيل يجب أن يذكروها لأولادهم على أساس أنّها ذبيحة فصح الرب الذي عبر عن بيوت بني إسرائيل. فإذا كان الإسرائيليون يعيشون في جاسان فهذا يعني أنّ بيوتهم لم تكن متداخلة ببيوت المصريين لكي يضعوا عليها علامة، وهذا يعني أيضاً أنّ يَهْوَه ليس إلهاً كليّ القدرة وإلاّ لكان بإمكانه تمييز بيوت العبريين دون الحاجة إلى علامة. وكلّ هذا ما هو إلاّ إثبات آخر على عدم إيمانهم بالتوحيد الذي كان معمولاً به قبلهم لأنّ إله الكون الواحد لا يحتاج إلى ارتكاب كلّ هذه الفنون الإرهابية بحق المصريين لكي يريهم قوّته، ولكي يعلم فرعون أنّه هو «الربّ في الأرض».

ألم يكن باستطاعة هذا الإله، لو كان الله الذي نعبد، أن يري فرعون والمصريين قوّته وقدرته من خلال أعمال خيّرة يقوم بها كما فعل المسيح في أكثر من مناسبة، فبدلاً من قتله للناس كان يشفيهم من أمراضهم ويحنو عليهم؟ كيف يمكن لنا أن نبقى اليوم، في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، نتمسك بهذا اليَهْوَه وبكل شريعته التي تعتبر وبحق الدروس الأولى في مادة الإرهاب التي تمت تنشئة الإسرائيليين عليها منذ ألفيتين ونصف من السنين خاصة أنّنا لا نزال نشهد حتى اليوم تقيُّدا حرفياً بها يبرّر إرهاب دولة إسرائيل الحديثة؟ ألا تجعلنا مباراة موسى مع سحرة فرعون نعتقد أنّ موسى كان ساحراً مثلهم، فهو، إن صح وجوده التاريخي، قد نشأ في بلاط الفرعون وبالتالي تسنت له الفرصة لكي يتتلمذ على أيدي سحرة البلاط؟ ألا يحق لنا أن نتساءل عن تغيير يَهْوَه لقراراته، حيث قال أولاً لموسى بأنّه يكون إلهاً لهرون وبالتالي لشعب إسرائيل (خروج 4: 16)، ثم يقول في الإصحاح السابع: «أنا جعلتك إلهاً لفرعون. وهرون أخوك يكون نبيك»، أيّ أن موسى أصبح إلهاً إلى جانب الإله يَهْوَه فأصبح للإسرائيليين إلهان، وللمصريين أيضاً، لأنّ المصريين كان لهم إلههم وها هو يَهْوَه يفرض موسى عليهم إلهاً آخر، فأين التوحيد؟ ولئن أردنا الاسترسال بطرح الأسئلة على هذا السرد الأسطوري لما انتهينا، ولمّا كان المقصود هو كشف خرافية هذه القصص وصولاً إلى رفع حصانة القداسة عنها، وإسقاط البُعد التاريخي، نكتفي بطرح بعض الأسئلة حول كل إصحاح انطلاقاً من حريتنا الشرعية التي منحها لنا العقل.

وبالعودة إلى مهمة موسى نجده وقد رضخ فرعون لطلبه «فدعا موسى وهرون ليلاً وقال قوموا اخرجوا من بين شعبي (وهل بقي له شعب) أنتما وبنو إسرائيل جميعاً» (خروج 12: 31). وعليك أخي القارئ أن تصدّق أنّه بعد كل ما حلّ بالمصريين بجريرة الإسرائيليين يقوم هؤلاء بالطلب «من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً، وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين» (خروج 12: 35 – 36). لماذا حجب الربّ نعمته فلم يعطها للمصريين لإطلاق الإسرائيليين بدلاً من إعطائها فقط لسلبهم؟ أيّة عِبرة أخلاقية يحاول هذا الإله أن يعطيها لشعبه ذي الرقاب الصلبة؟ وهل يُلام الإسرائيليون بعد ذلك إنْ هم اتّبعوا وصايا إلههم الداعية إلى القتل والسلب؟ وماذا عن وصيتي لا تقتل ولا تسرق؟ أم هل يُلام المؤمنون، من مختلف الأديان،

إن هم تقبّلوا كل هذه الأقاصيص لمجرد ورودها في كتاب قرروا هم قداسته كمقدمة لاعتبار كل ما جاء فيه مشيئة إلهية غير قابلة للرد والمساءلة؟

أليس هذا استغلالاً واضحاً لمشاعر المؤمنين وتلاعباً بإيمانهم الفطري؟ وهل ينفي ذلك عن المؤمنين مسؤولية النظر إلى هذه المرويات على أساس عقلاني فيقبلون منها ما يتوافق مع العقل ويرذلون ما يخالفه؟ بالطبع لا، وهنا تكمن المشكلة الكبرى التي لا يزال العقل البشري يعاني منها وهي هذا السكون الفكري الظلامي عندما يتعلق الأمر بالأديان. فالفيلسوف ابن رشد يرى أنّ «كلّ شيء لا يقبله العقل والبرهان العلمي يجب تأويله»(244). ونقل أسعد زيدان في كتابه «الناس والتاريخ» عن أمين الريحاني قوله: «الشرائع تسترقّ، والأديان تفرّق، ولا سيادة إلاّ للعقل». وعن كمال جنبلاط نقل هذا القول أيضاً حول وظيفة العقل: «وظيفة العقل وهبته الأساسية هي بالتوفيق والتمييز، وإلاّ إذا كان علينا أن نقبل كلّ شيء كما هو وكما سيأتينا بطلت هذه الوظيفة ووقع أحدنا في عاهة التقليد الأعمى». وانطلاقاً من هذا المفهوم لوظيفة العقل يتوجّب على كلّ مؤمن أن يُعمل عقله عند قراءة هذه القصص، وإنِّي لواثق عندها أنّه سيدرك أنّ الله، سيد الكون، لا يمكنه أن يقوم بهذه الأعمال، ولا يمكن أن يصدر عنه شرّ إذ بذلك نكون قد أدخلنا عليه ثنائية الخير والشر، فتنتفي عنه الوحدانية.

نصل إلى مفصل مهم يؤكد على تخبّط محرّر التوراة ومقالاته ومبالغاته التي لا يمكن إلاّ أن نشير إليها لماماً الآن لنعود إليها بشيء من التفصيل في باب خاص. كنا قد أشرنا إلى أنّ موسى ولد لرجل من بيت لاوي تزوج من ابنة لاوي، أي من الجيل الثاني لأبناء يعقوب الذي بقي منهم ثمانية وخمسون نفراً، لنجد أنّهم حينما سمح لهم فرعون بالخروج من مصر قد أصبحوا، وبقدرة يَهْوَه العظيمة «ست مئة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد» (خروج 12: 27). أما إقامة جيلين من الإسرائيليين فيقرّرها المحرر بأربع مئة وثلاثين سنة (خروج 12: 40) فأية دقة تاريخية تحاول التوراة أن تفرضها علينا؟ حتى لو قال أحدهم ليس من الضرورة أن تكون إبنة لاوي من الجيل الثاني، أي ابنته المباشرة بل هي كزوجها من بيت لاوي، وبذلك تسقط حجتنا حول عدد السنين والتكاثر، فإننا نقول، واستناداً إلى المنطق الإحصائي، إنّه لا يمكن لهذا العدد القليل (58) أن يتكاثر خلال 430 سنة ليصبح ست مئة ألف رجل عدا النساء والأطفال.

وإذا ما علمنا أنّه بعد ثلاثة آلاف سنة كان عدد سكان فلسطين دون المليون حسبما تذكر مصادر كثيرة (عام 1944 بلغ عدد العرب في فلسطين 1,169,824 نسمة)(245) ويقول السيناتور الأميركي بول فندلي: «عند صدور وعد بلفور في عام 1917، كان في فلسطين حوالي 600,000 عربي وما يقارب من 60,000 يهودي»(246)، أي أنّ مجموع السكان لم يتجاوز السبع مئة ألف. ويضيف: «... في عام 1947، كان العرب يشكّلون الغالبية الكبرى، بينما كان اليهود يشكّلون ثلث السكان (بعد الهجرة الاستيطانية تحت حماية الانتداب الإنكليزي). فكان فيها 1,327,332 عربياً و 608,225 يهودياً(247). وهذا برأينا يعني أنّه بعد ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة لم يزدد عدد سكان فلسطين بل نقص، إذ لو أضفنا إلى سكان فلسطين القرن الثالث عشر ق.م. عدد الإسرائيليين الذين دخلوا إليها بعد الخروج المزعوم لزاد عددهم عن المليونين. إنّها المبالغة بالأرقام لإضفاء أهمية كبيرة على الإسرائيليين الذين، وعلى الرغم من هذا العدد الكبير، الذي استطاع حاسوب محرّر التوراة في تلك الأيام إحصاءه، نجدهم يتيهون في سيناء لمدة أربعين سنة، ولنا عودة إلى ذلك.

ولكنّ محرر التوراة ربما تذكر أنّه لم يحدد اسمَيْ أبوَيْ موسى، فأراد أن يؤكد انتماءه إلى بيت لاوي، فبعدما كان في الإصحاح الثاني من سفر الخروج قد قال: «وذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي» (خروج 2: 1)، ها نحن نجده في الإصحاح السادس يعرفنا إلى العريسين اللذين أثمر زواجهما طفلين بدل طفل واحد ولكنّه أيضاً لم يأتِ على ذكر أخت موسى. فبعد أن يعدّد المحرر أولاد أبناء يعقوب، ومن بينهم لاوي، يقول: «وهذه أسماء بني لاوي بحسب مواليدهم. جرشون وقهات ومراري... وبنو قهات عمرام ويصهار وحبرون وعزّئيل... وأخذ عمرام يوكابد عمّته زوجة له. فولدت له هرون وموسى» (خروج 6: 16 – 20). من هذا الكلام نفهم أنّ والد هرون وموسى هو عمرام بن قهات بن لاوي، إذن هو حفيد لاوي، تزوج من عمته أي إحدى بنات الجيل الثاني وهو من الجيل الثالث، وبأنّ هرون هو البكر وليس موسى، فلماذا لم يأتِ على ذكر هرون في الإصحاح الثاني بل قال فوراً بأنّ بنت لاوي حبلت وولدت ابناً خبأته عندما بلغ ثلاثة أشهر؟ وهذا الطفل هو الذي وجدته ابنة فرعون ودعت اسمه موسى، فكيف استطاعت ابنة لاوي هذه أن تخفي خبر ولادة هرون والذي لم يأتِ الكاتب على ذكره أبداً حتى قام يَهْوَه بتذكير موسى أنّ له أخاً اسمه هرون؟ ولماذا لم يذكر الكاتب إلاّ ذريّة ثلاثة أبناء ليعقوب هم بنو رأوبين وبنو شمعون وبنو لاوي؟ خاصة أنّه ذكر أنّ هرون تزوج أليشابع بنت عميناداب أخت نحشون، فابن من هو عميناداب؟ ولماذا يذكر الفتيات أحياناً وأحياناً أخرى يتجاهل وجودهن، حتى لو كانت إحداهن أختاً لموسى؟

وهنا نعود لنؤكد على المبالغة التي وقع فيها المحرر لجهة عدد بني إسرائيل، فإذا كان موسى من الجيل الرابع فقط، فكيف وصل عددهم إلى ست مئة ألف رجل عدا النساء والأطفال؟ لقد حاول المحرر أن يُغطي على كلّ هفواته بإسقاط صفة القداسة والألوهة على أقاصيصه، وأظنه قد نجح بذلك، ليس فقط بين أفراد قبيلته الذين قلّما تقيّدوا بالشريعة والوصايا كما تخبرنا التوراة ذاتها، بل بين كلّ المؤمنين الذين ماشوا كَتَبَة التوراة بكلّ تلفيقاتهم. ونحن وإنْ كنّا لا نلوم الأقدمين على تصديق الادّعاء بقدسية هذه الأقاصيص ونسبتها إلى أحاديث إلهية، فلا يسعنا أن نبقى صامتين تجاه السكوت المخيِّم على مؤمني القرن الحادي والعشرين، إذ بينهم كما ذكرنا سابقاً، اللامبالي والخائف والبسيط والمغرض الذي لا يزال يركّز على قدسية التوراة لأسباب سياسية لم تعد خافية على أحد.

ويستمر إله موسى (الإله) بإظهار قدرته وجبروته بشكل إرهابي مرعب لا يتقبّله عقل أو منطق فيفرض على موسى أن يقدّس له «كلّ بكرٍ كلّ فاتح رحم من بني إسرائيل من الناس ومن البهائم. إنّه لي». يَهْوَه إله إسرائيل يريد أجراً لإخراجه بني إسرائيل من مصر، وأيّ أجر؟ أضاح بشرية على عادة الإنسان الأول. فهو يعلّم موسى، وبكلّ بساطة، أن يقول للجيل الذي سيأتي بعده بأنّ «الربّ قتل كلّ بكر في أرض مصر من بكر الناس إلى بكر البهائم. لذلك أنا أذبح للربّ الذكور من كلّ فاتح رحم. وأفدي كلّ بكر من أولادي» (خروج 13: 15). فبعد أن طلب يَهْوَه من موسى تقدمة كلّ بكر من بني إسرائيل، تراجع دون أي تبرير وأبلغ موسى أنّه باستطاعته افتداء «كلّ بكر إنسان من أولادك» (خروج 13: 13).

ولقد سمع الكاتب، في القرن الخامس ق.م. الله (يَهْوَه) الذي كان يرعى شعبه الإسرائيلي، في القرن الثالث عشر ق.م. (أي بعد ثمانية قرون)، يقول لنفسه بعد أن أخرجهم من مصر «لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنّها قريبة» (خروج 13: 17)، «لئلاّ يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى

مصر» (خروج 13: 17). فأيّ تبرير عقلاني هذا؟ لم يترك أيّ فعلٍ إرهابي إلا واستعمله لإخراجهم من مصر إلى الأرض الموعودة، أرض الفلسطينيين، وهي قريبة، فيجعلهم يتجهون باتجاه البحر الأحمر ليُظهر للإسرائيليين قدرة موسى المستمدة من قدرته فيضرب الماء بعصاه فتنفلق، لكنّ موسى لم يعد بحاجة إلى العصا بل هو بحركة من يده يُجري على البحر ريحاً «شرقية شديدة كلّ الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء» (خروج 14: 21). ثم يأمره بمد يده على البحر بعد عبور شعبه إلى اليابسة، فيرجع الماء على المصريين المساكين الذين لحقوا بالإسرائيليين بعد خروجهم، فلا يُبقي منهم أحداً «ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطئ البحر. ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الربّ بالمصريين. فخاف الشعب الربّ وآمنوا بالربّ وبعبده موسى» (خروج 14: 20 – 21).

مهلاً، مهلاً يا محرّر التوراة، كفاك استخفافاً بالعقول، لقد قتلت كل المصريين بعدما أنزلت عليهم كلّ الويلات، ثم أقمتهم من الموت لكي يتبعوا شعبك الذي سلبهم، ثم أعدت قتلهم جميعاً في البحر، كلّ ذلك بأمر من الإله الذي اخترعته ليقاتل عن شعبك، وتريدنا أن نصدق أنّ فرعون المجهول وعظمة دولته التي امتدت إلى سورية كما يفيدنا التاريخ، لم يبقَ من شعبه واحد، ولا حتى امرأة أو كهل أو طفل يسمع بهذا الخبر فيسجله كحدث استثنائي لم تشهد الأيام مثيلاً له؟ فقط وحده محرّر التوراة سمع به بعد ثمانية قرون فدوّنه بحذافيره، كلّ كلمةٍ قالها الله لنفسه، وأخرى همس بها لموسى؟ إنّه لعمري خيال قصّاص بارع لم يضاهِهِ فيه أحد لا قبلُ ولا بعدُ!

وبعد انتهاء هذا الفصل من مسرحية الخروج رنّم موسى وشعب إسرائيل لهذا الربّ الذي نصرهم قائلين: «الربّ رجل الحرب. الربّ اسمه» (خروج 15: 3). فكيف يكون هذا الربّ إلهاً للكون أجمع ثم يجعله الكاتب رجل حرب، قائداً بربرياً همجياً كأيّ قائد عرف التاريخ بفظائعه، بل قل هو كان المثال الذي نسج على منواله كلّ القادة الإرهابيين في العالم؟ هل هذا يعني أنّه كان أوّل من أسّس مدرسة الإرهاب؟ بالطبع لا فالحروب، قديمها وحديثها، كلّها فعل إرهاب يمارسه القوي تجاه الضعيف، وأحياناً كثيرة كان الضعفاء ينتصرون على الأقوياء، والأمثلة كثيرة، لكنّه كان الإله الأول الإرهابي بامتياز، والذي لا يزال لغاية اليوم، لا يشكل مدرسة عسكرية لتعليم الإرهاب وحسب، بل مدرسة دينية إرهابية خرّجت ولا زالت كبار الإرهابيين، وستبقى تشكّل مَعيناً تغرف منه الأجيال التي تُتلمذ على دروسه، مقتدية به وناسبة أفعالها إليه لكي تصبح مبرّرة فوق الانتقاد والإدانة.

لقد طفحت قلوب الإسرائيليين بالابتهاج والامتنان لأنّ يمين ربّهم حطمت العدو، وإذا بخطوط البرق والهاتف تنقل الأخبار إلى كنعان فـ«تأخذ الرعدة سكّان فلسطين... ويذوب جميع سكان كنعان» (خروج 15: 14 – 15). ولهذا صاح الشعب: «من مثلك بين الآلهة يا ربّ» (خروج 15: 11). من حقّهم أن يمجّدوا عظمته لأنّه بالفعل لم يكن مثله بين مجمع الآلهة القديمة، لقد تفرّد بحقده وعنصريته وإرهابه وإجرامه. إنّه اعتراف صريح بأنّه واحد بين كثيرين، فكيف يدّعون أنّ دينهم هو أول دين توحيدي؟ وماذا عن تغيير اسمه مجدداً، إذ بعد أن أبلغ موسى أنّ اسمه سيكون يَهْوَه، يُعرف به إلى الأبد يعود ليؤكد بأنّ اسمه «الرب». لقد كان كاتب التوراة يعيش في بابل التي عرفت التوحيد ومارسته مع شعوب الهلال الخصيب من خلال عبادتها لإيل، وهذا المعتقد الديني المتقدم أثّر لا شك بعزرا، لكنّه عندما قرر اختلاق الشعب الإسرائيلي وإعطائه أهمية مميّزة من خلال تخصيص إله

خاص به ضاع بين مفهومَيْ التوحيد الشمولي والتوحيد الخاص، فأتت كتاباته مزيجاً من المفهومين مع سيطرة مفهوم التوحيد الخاص بشكل واضح.

لقد أشرنا إلى هذه المسألة سابقاً وبيّنا أنّ التوحيد عرفه البابليون والكنعانيون الذين عبدوا الإله إيل الذي تطور اسمه ليصبح إله (الله) عند العرب. وعرفه المصريون مع أخناتون، ورأينا أنّ فرويد يرجح، في حال كون موسى شخصية تاريخية، أن يكون قد أخذ التوحيد من أخناتون. لكنّه عاد ليقع بالإشراك عندما اعتبر يهوه إلهاً خاصاً به وبشعبه. وهنا أعود لأؤكد على ظاهرة الاضطراب الفكري التي كانت مرافقة لمحرّري التوراة فجعلتهم يقعون في مغالطات وتناقضات لا حصر لها. ويذكر ربيع داغر ما يلي: «ومن ذلك أيضاً ذكر التلمود: «لخلاف وقع بين الله وعلماء اليهود في أمر من الأمور وبعد أن طال الجدال أحيل الخلاف إلى أحد الحاخامات الذي حكم بخطأ الله مما اضطرّه إلى الاعتراف بخطئه»(248)، ولقد استقى المؤلف هذه المعلومة من كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم التلمود ص 32». فالله بالنسبة لهم هو مجرّد إله يمكن مناقشة خطئه وإثباته وإلزامه الاعتراف بهذا الخطأ وبالتالي التراجع عنه، وهذا طبيعي إذ مرّ معنا كيف أنّ إبراهيم قد أقنع الله بالتراجع عن قراره، وكيف أنّ الله يندم، والندم هو فعل اعتراف عن خطأ مرتكب، فهل نحن بحاجة إلى إثبات على أنّ إله الإسرائيليين هو غير الله الذي نعبد ونُجلّ وإليه ننسب كلّ الخير والحق والجمال؟

ولقد أورد توماس طومسون في كتابه «داود ويسوع» في الصفحة 451 مقطعاً من سفر صموئيل الأول هو: «فإن أخطأ إنسان نحو إنسان، فالرب يدينه، ولكن إن أخطأ إلى يَهْوَه فمن يصلّي من أجله؟» (صموئيل الأول 2: 25). فالكاتب قد ميّز هنا بين الرب ويَهْوَه ، فجعل الرب هو الذي يدين إنساناً أخطأ إلى إنسان آخر، ولم يجد من يقوم بالصلاة لمن يخطئ إلى يَهْوَه. وفي الترجمة العربية الصادرة عن دار الكتاب المقدس في العالم العربي لا ذكر ليَهْوَه، فالله هو الذي يدين الإنسان، وبدلاً من القول (فإن أخطأ إلى يَهْوَه) نقرأ (فإن أخطأ إلى الرب). وهذا برأيي أيضاً دليل على الوقوع في الشرك وإثبات لعدم التوحيد. ونقرأ أيضاً ليوسف رشاد: «إذاً دعواهم بأنّهم أمة توحيدية دعوة باطلة وبشهادة كتابهم المقدس الذي وصفهم بأنّهم عُبّاد أوثان وأصنام بل تعدّوا ذلك إلى عبادة الشمس»(249). وإذا ما تتبعنا أبحاث كثير من الدارسين لوجدنا أن المجتمعات المشرقية القديمة توصلت إلى التوحيد حيث بقي الله خالق الكون مستوراً بعيداً عن الأضواء ينوب عنه بتسيير شؤون البشر آلهة دونه مرتبة (ملائكة).

يقول د. بشار خليف: «غير أنّ تعامل الناس مع عالم الألوهة آنذاك كان لا يتم عبر الإله العالي بل مع الآلهة الملائكية أو الأرضية التي كانت تُعنى بكافة أحوال المجتمع والمدن»(250). ويقول نقلاً عن أرين أرمسترونغ: «مهما كانت النتائج التي نتوصل إليها حول حقيقة الله فإنّ تاريخ هذه الفكرة يجب أن يخبرنا شيئاً عن العقل البشري... نحن بحاجة إلى رؤية ما كان الناس يفعلونه عندما بدأوا عبادة الله... وللقيام بذلك علينا أن نعود إلى العالم القديم في «الشرق الأدنى» حيث ظهرت فكرة إلهنا تدريجياً قبل نحو 14000 سنة خلت»(251). إذن فكرة الله، بالنسبة إلى بعض الدارسين، هي نتيجة تطوّر العقل البشري الذي، كما يشرح ذلك د. بشار خليف في مؤلّفه القيّم، ربط أيضاً إنتاجه الفكري بالقدرة الخالقة للسيّد العالي. فتوصل الإنسان القديم إلى إرساء جدلية وجودية بين قوّة الله الخالق وقوّة

العقل الذي ربط الإنسان بالألوهة. وهذه الجدلية هي التي مهدت الطريق، سواء عن طريق الفلسفة أو عن طريق الدين (المسيحي بداية ثم المحمدي) إلى التوحيد. يقول د. خليف: «ولا يمكننا اعتبار اليهودية، ديناً سماوياً منذ السبي إلى ما بعده، كون أنّ الإله الذي صدّره كتاب التوراة، في أسفاره الخمسة الأولى، هو الإله يَهْوَه، غير الشمولي، والإله الضيّق لمجموعة بشرية، لا تنطبق عليه أوصاف الله الخالق، إن كان في صيغته البدائية آنو، أو إيل، وصولاً إلى الله»(252).

ولكي نُسدل الستار على هذا الفصل نورد ما قاله فراس السواح: «وفي الحقيقة، فإنّ رواية الخروج من مصر، من بدايتها في مدينة رعمسيس إلى نهايتها عند شاطئ نهر الأردن، لم تجد لها سنداً حتى الآن من شاهد تاريخي أو أركيولوجي»(253). فإن قال قائل: لماذا تكمل إذن رحلتك مع هذه القصص طالما أنّك مؤمن، ككثيرين من الدارسين، بأنّها مجرد أساطير لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة؟ أُجِب بأنّه لم يكن من داعٍ لهذه الرحلة أبداً لو أنّ كلّ المؤمنين يُقبلون على قراءة كتاب العهد القديم على أنّه قصص أسطوريّة، أما وأنّهم، وبنسبة مرتفعة جداً تلامس حداً خيالياً، ما زالوا يسلّمون بهذه القصص على أنّها فعلاً كلام الله المقدس الذي على أساسه يعطون إسرائيل الحق بكلّ ما تقوم به ضدّنا من إرهاب منظّم وموجَّه من إلهها القبلي الخاص، وجدنا أنّه لا بدّ وأن نساهم مع من سبقنا لكشف هذا التزييف التاريخي للحقائق، وهذا التجديف على العزّة الإلهية المنزّهة عن كلّ الشرور والموبقات المنسوبة إليها. وأعود فأكرر أنّه لو أردت تتبع روايات التوراة جملة بجملة لاحتجت إلى سنوات من الكتابة وإلى مجلد إثر آخر، إذ لا بد من طرح الأسئلة على كلّ مقطع لنكشف النقاب عن مدى سخف هذه القصص وابتذالها أحياناً كثيرة. لكنني سأحاول انتقاء بعضها انطلاقاً من مقدار ما تثير في عقلنا من تشنُّج تجاه السخف الخيالي الممجوج.

أشرنا سابقاً إلى مسألة التيه لمدة أربعين سنة في صحراء سيناء، وأعود لأقول: أيّ ذي عقل يقبل بأن تكون هذه القصة واقعية ينطلق منها للشفقة على بني إسرائيل عمّا قاسوا في هذه الصحراء؟ أولاً لم يجبرهم أحد على مغادرة مصر، فهم اخترعوا عذاباتهم التي لم يُثبتها أيّ سجل تاريخي مصري، هذه العذابات التي سيتبين لنا بطلانها إذا ما تابعنا الرحلة. فبعدما تظلّم الإسرائيليون لموسى أكثر من مرّة ولاموه على إخراجهم من مصر، نقرأ من الإصحاح السادس عشر من سفر الخروج: «فتذمّر كلّ جماعة بني إسرائيل على موسى وهرون في البريّة. وقال لهما بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الربّ في أرض مصر إذ كنّا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع» (16: 2 – 3). ومن سفر العدد نقرأ: «فعاد بنو إسرائيل أيضاً وبكوا وقالوا من يطعمنا لحماً. قد تذكرنا السمك الذي كنّا نأكله في مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكرّاث والبصل والثوم. والآن قد يبست أنفسنا. ليس شيء غير أنّ أعيننا إلى هذا المنّ» (11: 4 – 6). فماذا نفهم من هذين المقطعين؟

إنّهم كانوا يأكلون اللحم والخبز حتى الشبع، وكانوا يأكلون السمك مجاناً، فهل يكون مظلوماً مستعبداً شعب هذا حاله؟ أم أنّ الكاتب نسي ما كتبه عن معاناة الإسرائيليين على يد فرعون، وأراد المبالغة بما مرّ عليهم من ضيق عيش في الصحراء، ففضح مبالغته بنفسه عندما جعلهم يتذكّرون أيام عزهم في مصر؟ ألم يقل داثان وأبيرام ابني أليآب لموسى: «أقليل أنّك أصعدتنا من أرضٍ تفيض لبناً وعسلاً لتميتنا في البريّة حتى تترأس علينا ترؤساً. كذلك لم تأتِ بنا إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً ولا أعطيتنا نصيب حقول وكروم» (عدد 16: 13 – 14). وفي الإصحاح الرابع عشر كان الكاتب قد أخبرنا أنّ

الجماعة كلها (أي بني إسرائيل) قد: «صرخت وبكى الشعب تلك الليلة. وتذمّر على موسى وهرون... وقال لهما كلّ الجماعة ليتنا متنا في أرض مصر... أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر» (عدد 14: 1 - 3). فهل لشعب مُستَعْبَد مقهور أن يتمنى العودة إلى قهره لو كان بالفعل مقهوراً؟ وإذا كان تمنى الموت، أليس أشرف له أن يموت حراً مع شظف عيش من أي يموت مُستَعْبَداً مع شيء من حلاوة العيش؟

وحول هذا الموضوع كتب توماس طومسون ما يلي: «إنّ قصة القفر هذه تقدمها حكايتان قصيرتان جداً إنّما هامتان تدوران حول التذمر واللحم. تبدأ الأولى (العدد 11) مع الشعب المتذمر بصوت عالٍ من المنّ الذي أعطاهم إياه الرب طعاماً لهم. إنّها حكاية مملة جداً. في الحقيقة، إنّ جوعهم إلى اللحم يجعلهم يريدون العودة إلى ترف مصر المشهور»(254) هذا الكلام يؤكد ما قلناه من أنّه يستحيل أن يكون الإسرائيليون قد عاشوا حياة العبودية وشظف العيش في مصر، وما هذا التصوير الدرامي لمعاناتهم إلاّ وسيلة من قِبَل الكاتب لكي يجد لهم، كما ذكرت سابقاً، المبرّر لما فعلوه بساكني فلسطين من أرض كنعان كردة فعل على عذاباتهم التي خلّصهم منها إلههم يَهْوَه وكافأهم، ليس بالإقامة الآمنة في أرض شعب حضاري آمن، بل بالدخول الإرهابي عليه وتدمير مدنه وإحراقها وقتل كل من فيها من البشر والبهائم. ولا بدّ لنا هنا من التطرّق إلى المعجزة الإلهية اليهوهية التي تتمثل بإنزال المنّ فأكل «بنو إسرائيل المنّ أربعين سنة حتى جاءوا إلى أرض عامرة. أكلوا المنّ حتى جاءوا إلى طرف أرض كنعان» (خروج 16: 25). فما هو المنّ، وكيف يمكن أن يُطعم، يومياً ولمدة أربعين سنة، ما يزيد عن مليوني نفس؟ جاء في محيط المحيط للبستاني بأنّ المنّ هو «كلّ ما يمنّ الله به مما لا تعب فيه ولا نَصَب. والمنّ أيضاً كلّ طلٍّ ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ. والمعروف بالمنّ ما وقع على شجرة البلوط. ومنّ بني إسرائيل هو الذي أنزله الله بنوع عجيب في البريّة ليقتاتوا».

صحيح أن نزول المنّ هذا عجيب كأمور كثيرة في هذه الدنيا تتحدث تلقائياً عن عظمة وقدرة الخالق. والصحيح أيضاً أنّ هذه المعجزة العجيبة لم تكن أبداً من أجل بني إسرائيل. هذه الظاهرة الطبيعية معروفة منذ القدم، وما زالت، في منطقة محددة من بلاد الرافدين أي العراق اليوم. ولمّا كان عزرا، عندما ابتدأ بكتابة التوراة، يعيش في بابل، فلقد كان على علم بهذه الظاهرة، فجعل منها معجزة يهوهية حصرها ببني إسرائيل الذين خرجوا من مصر وتاهوا في سيناء لمدة أربعين سنة. هي فكرة تبريرية لعملية بقاء بني إسرائيل في الصحراء التي لا يمكن أن تقدّم لهم الكثير، فكيف يمكن أن يستمروا بالحياة دون معجزة المنّ والسلوى؟ لو لم يُطل عزرا إقامة بني إسرائيل في الصحراء لتقبلت العقول الفكرة، أمّا أن يستمروا أربعين سنة يأكلون ليل نهار المنّ النازل من السماء وطيور السلوى الآتية كرمى لعيونهم من المجهول، فإنّه لعمري أمر لا علاقة له بالمعجزات الإلهية، بل باستغلال الظواهر الطبيعية في السرد الملحمي الأسطوري، الذي كان بالأساس سطواً على أساطير بابل وكنعان. وبعض الروحانيين اليوم يحاولون تأويل ذلك، كما مرّ معنا، بأنّ سنوات التيه لا يمكن أن تؤخذ بحرفيتها بل هي دلالة على المدة الزمنية التي حاول الإله فيها اختبار ثبات إيمان بني إسرائيل، والمنّ ليس إلاّ الزاد الروحي تماماً كخبز يسوع الذي لا علاقة له بالجسد بل بالملكوت السماوي. وسنصل إلى ذلك مع فتوحات يشوع المزعومة.

إن أرض مصر هي التي كانت تفيض لبناً وعسلاً بنظره، وإذا كان هذا شعوره تجاه الأرض التي كان يسكن فيها فهذا لا يتفق بأيّ حال من الأحوال مع أجواء الظلم والاستعباد التي حاول محرّر التوراة أن يصوّر بها حياة الإسرائيليين في مصر. خاصة، وأعود هنا إلى التكرار، أنّ كل المصادر التاريخية المصرية لم تأتِ على ذكر الإسرائيليين. وهذا ما دفع بالكثير من الدارسين الموضوعيين إلى نفي فكرة الخروج والدخول العسكري للإسرائيليين إلى فلسطين – كنعان. وعلى سبيل المثال لا الحصر نستشهد بما قاله الأركيولوجي الأميركي وليَم ديفر، والذي أشار إليه فراس السواح، من أنّ «إثبات

الفتح العسكري لكنعان قد غدا مجهوداً لا طائل من ورائه، بعد أن جاءت كل الشواهد الأركيولوجية مناقضة له»(255). فإذا كان الدخول العسكري مجرد خيال فهذا ينسحب أيضاً على الخروج وبالتالي على كلّ قصة وجود الإسرائيليين في مصر. وقد أشار إلى ذلك فراس السواح حيث يقول: «فمن غير المعقول أن يغادر مصر ستمائة ألف مسخّر من أشباه العبيد، وينسحبون من الدلتا في قتال تراجعي نحو برزخ السويس حيث يهزمون الفرعون ويتسببون في مقتله، دون أن تأتي سجلات ذلك العصر، الذي يُعتبر من أكثر فترات التاريخ المصري توثيقاً، على ذكرهم... أما عن دخول بلاد الشام وعبور نهر الأردن إلى أرض كنعان، فإنّ نتائج التنقيب الأثري تشير إلى بطلان الرواية التوراتية في كثير من أحداثها»(256). ولقد انسحب هذا الشك إلى بعض علماء التوراة حيث يقول كمال الصليبي: «وهناك بين علماء التوراة من يشك في أنّ خروج بني إسرائيل كان من أرض مصرايم، وهي برأيهم مصر وادي النيل، لأنّ علماء الآثار لم يجدوا أثراً لمثل هذا الخروج لا في أرض مصر، ولا في سيناء، ولا في فلسطين علماً بأنّ الرأي التقليدي هو أنّ خروج بني إسرائيل كان من مصر إلى فلسطين عبر سيناء»(257).

وإذا ما تجاوزنا هذا الأمر الشكلي لقلنا ثانياً إنّ عملية التيه لا يقبلها عقل، وحتى لو حاولنا فهمها لاهوتياً على أنّها فترة زمنية لاختبار إيمان الشعب بإلهه وقدرته على إخراجه من محنته، فهذا التأويل فيه الكثير من حرية التفسير، خاصة وأنّ الشعب الإسرائيلي قد أبدى رغبته أكثر من مرة في العودة إلى مصر. فإذا كان عدد الذين خرجوا من مصر، كما مرّ معنا، ست مئة ألف رجل، وإذا أضفنا إلى هذا العدد ما يقابله فقط من النساء والأطفال، لأصبحنا أمام وطن مهاجر لا هجرة عادية. فهل يمكن أن نصدق بأنّه لم يخطر ببال أحد من هؤلاء، فرداً كان أو جماعة صغيرة، أن يستكشفوا ماذا في الاتجاه الآخر لمصر؟ وكيف يمكن أن يجهلوا ذلك وسيناء كانت طريق القوافل بين مصر وبلاد الشام وطريق الغزوات العسكرية حيث كانت مصر أحياناً تُخضع الممالك الكنعانية وأحياناً أخرى تقوم هذه أو من أتى قبلها من كلدانيين وبابليين بإخضاع مصر؟ فالفرعون أوني غزا كنعان ما بين 2215 و 2205 ق.م. وسيزوستريس هاجم كنعان حوالي 1855 ق.م. واحتل سورية وفلسطين ما بين 1793 – 1779، والعبرانيون أنفسهم حسب الأسطورة التوراتية دخلوا مصر من كنعان حوالي 1700 ق.م.، فهم كانوا على علم بهذه المنطقة، وتستمر حروب مصر على بلاد الشام وكل هذه الحروب مثبتة إما في السجلات المصرية أو الأوغاريتية الكنعانية، فلماذا لم يرد اسم الإسرائيليين في أيّ منها خاصة كحدث مثل الخروج والقضاء على جيش فرعون والتيه المزعوم والدخول العسكري الخيالي الذي أتى بعده؟

يقول شلومو ساند في كتابه «اختراع الشعب اليهودي» ما يلي: «عدا عن حقيقة أنّه ليس من الممكن على الإطلاق ولا يعقل أن يكون مثل هذا العدد الضخم من الناس قد نزحوا وتاهوا في الصحراء طوال كلّ هذه السنوات، فإنّ حدثاً من هذا القبيل كان لا بد من أن يترك بقايا أبيغرافية أو أثرية معينة... المشكلة هي أنّه لم يتم العثور على أي ذكر أو إشارة لِـ «بني إسرائيل» الذين عاشوا في تلك المملكة (المصرية) وثاروا عليها أو خرجوا منها في أي وقت من الأوقات». ومن ناحية أخرى هل يُعقل لهذا العدد الكبير من الناس أن يعيش تائهاً في الصحراء دون أن يكون له مصدر للماء كافٍ لإروائهم؟ وهذا ما تنبّه له الكاتب إذ يقول في الإصحاح 17: «ولم يكن ماء ليشرب الشعب... وتذمّر الشعب على موسى وقالوا لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش». وإذا بيَهْوَه

يتدخل فيأمر موسى أن يستعمل عصاه السحرية، حيث بضربة واحدة على «الصخرة في حوريب فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب» (17: 6). فإن سلّمنا جدلاً بحصول معجزة كهذه، يبقى علينا أن نستعين بالعقل لنرى مدى إمكانية استيعابها. فإذا صحّ خروج الماء من الصخرة بقدرة إلهية، هل علينا أن نصدّق بأنّ هذا الينبوع الوحيد كان قادراً أن يروي ظمأ ما لا يقل عن مليوني نسمة وبشكل يومي ولمدة أربعين سنة؟ ألم يكن أجدر بالكاتب أن ينسب إلى قدرة الإله يَهْوَه تفجير آلاف الينابيع ليروي شعبه؟ إنّ ذلك برأيي يشكل ضعف البناء القصصي الذي يميّز أساطير التوراة على غير ما يعتقد بعض الدارسين من أنّها تشكّل أدباً راقياً متميًّزا.

يبقى أن نلفت إلى رأي بعض الباحثين، وهو برأيي مجرد استنتاج لم يؤيد بأيّ دليل أركيولوجي مادي، وينقسم إلى شقَّيْن: الشق الأول هو الذي يقول بأنّ الأحداث المرويّة في التوراة لم تحدث في البقعة الممتدة من بلاد ما بين النهرين إلى مصر، بل جرت كلّها في الجزيرة العربية، ورائد هذا الرأي هو المؤرخ كمال الصليبي الذي فنّد نظرياته في كتابيه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» و«خفايا التوراة»، مستنداً بالكامل على الشأن اللغوي الذي قاده إلى مقاربة أسماء الأماكن والأشخاص الواردة في التوراة بما يقابلها من أسماء الأماكن والقبائل في الجزيرة العربية. ولن أدخل في تفاصيل هذه النظرية التي رد عليها الباحث فراس السواح في كتابه «الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم» الذي خصصه بكامله لتسفيه نظرية الصليبي، إذ يحتاج مني ذلك وضع مُؤلف خاص كما فعل السواح، وليس هذا الكتاب المكان الصحيح لنقد هذه النظرية، وإنّما المقصود هو الإشارة إلى اختلاف الدارسين حول هذا الموضوع الذي يجب النظر إليه على أنّه مجرد أساطير لا علاقة لها بالواقع التاريخي، سواء لجهة الأماكن أو الأشخاص، إلى أن يقوم الدليل الأركيولوجي بتثبيتها أو نفيها.

والشيء الذي يمكننا تأكيده لغاية الآن استناداً إلى رأي المسح الأركيولوجي هو نفي كلّ هذه القصص جملة وتفصيلاً. فالصليبي يعتبر أنّ أرض مصرايم التي أقام فيها بنو إسرائيل تقع في وادي بيشه داخل منطقة عسير في الجزيرة العربية. ولقد أشار إلى هذه الإمكانية أيضاً الدكتور أحمد داوود في كتابه «تاريخ سوريا القديم» والذي أشار إليه جميل خرطبيل بدوره في كتابه «نقد الدين اليهودي» قائلاً بأن الدكتور داوود قد «نقل جغرافية العهد القديم من فلسطين إلى الجزيرة العربية». فهل يكفي تقارب الألفاظ لغوياً لكي نعتمد عليها بأمور تاريخية على أهمية أحداث التوراة لجهة ربطها بإرادة إلهية؟ ألم يتوصل الدارسون اليوم إلى اعتبار العربية والعبرية لهجات كنعانية - آرامية؟ مما يعني تداخل هذه الحضارات وبالتالي كان من الطبيعي، خاصة لجهة التبادل التجاري أيام السلم أم لجهة الاحتكاك العسكري أيام الحروب، أن يتم تبادل أسماء الأماكن على طريقة هذه الأيام حيث على سبيل المثال هناك أسماء متشابهة مثل لبنان وبيروت في أكثر من مكان في العالم.

والشق الثاني هو اعتبار موسى شخصية خرافية من قِبَل بعضهم، واعتبار بعضهم الآخر، ومنهم فرويد، أنّ هناك اثنين يحملان اسم موسى، والغموض الذي لحق بالقصة على يد محرّر التوراة، عن قصد أو غير قصد، هو ما جعل القارئ يعتقد أنّ بطل هذه الأحداث هو شخصية واحدة. أما كمال الصليبي فيقول بوجود ثلاث شخصيات في التوراة تحمل اسم موسى.

وأنا أقول إنّ تعدد الآراء حول كل التراث الكتابي لهو أكبر دليل على أسطوريته، إذ لو كان تاريخاً واضحاً ودقيقاً لما اختلف اثنان حوله، وما كلّ هذه الدراسات والأبحاث ما بين مؤيِّد ورافض إلاّ خير دليل على عدم توفر الإثبات القاطع والحاسم، وتبقى هذه الآراء مجرد استنتاجات قد تكون مصيبة وقد تكون بعيدة عن الواقع. وما يهمنا في هذه الدراسة، ليس الشخصيات بحد ذاتها، وقد أثبتنا آراء كبار الدارسين الذين حكموا عليها بأنّها من عالم الخيال، بل ما نتج عنها من آراء مشحونة بالحقد والعنصرية، ومن شرائع تبيح القتل والسرقة والتدمير والإبادة، مما كان له أسوأ الأثر على المجتمع البشري والإنسانية جمعاء إلى اليوم وإلى الزمن الآتي غير المنظور.

ولكي أثبت ما أقول سأتوقف قليلاً مع الشعب التائه في الصحراء لألقي الضوء على الشريعة والوصايا التي ادّعى الكاتب أنّها أنزلت على موسى وحاول تلقينها لبني إسرائيل الذين رفضوها المرة تلو الأخرى، ورفضوا حتى الإله الذي أتى به موسى فانفضّوا عشرات المرات عن عبادته وعبدوا آلهة الكنعانيين، مما يؤكد مجدداً أنّهم حتى لم يعرفوا التوحيد البسيط المتمثل بعبادة إلههم الخاص، فكيف بالتوحيد الشمولي الكوني الذي كان يدعو إلى عبادة إله واحد. فها نحن نسمع الربّ يطلب من موسى أن ينبّه الشعب لعدم الصعود إلى الجبل وإلاّ: «كلّ من يمسّ الجبل يُقتل قتلاً» (خروج 19: 12). «وأمّا الكهنة والشعب فلا يقتحموا ليصعدوا إلى الربّ لئلاّ يبطش بهم» (خروج 19: 24). بعد ذلك يقول الكاتب بأنّ الله «تكلّم بجميع هذه الكلمات قائلاً» (خروج 20: 1). فهل هذا يعني أنّ الربّ هنا (نلاحظ أنّ المترجم استمر باستعمال كلمة الرب بدل يَهْوَه) كلّم جميع بني إسرائيل مباشرة وليس بواسطة موسى؟ لا يمكن أن يُفهم من النص غير ذلك بدليل قوله مباشرة: «أنا الربّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية» (خروج 20: 2)، فلو كان يتكلم إلى موسى لقال الكاتب على عادته (فقال الربّ لموسى)، كما يفهم أيضاً من قوله (أخرجك من مصر) كلّ بني إسرائيل لأنّ موسى لم يخرج وحده بل خرج وهو وكلّ شعبه.

ويبدو أنّ بني إسرائيل قد تجاوزوا محنة العطش، والتي كانت قد ضربتهم مرتين، تحدّثنا عن الثانية، أمّا الأولى فكانت بعد خروجهم بثلاثة أيام حيث «ساروا في البريّة ولم يجدوا ماءً. فجاءوا إلى مارّة. ولم يقدروا أن يشربوا ماءً من مارّة لأنّه مرّ. لذلك دعي اسمها مارة. فتذمّر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب. فصرخ إلى الرب. فأراه الربّ شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذباً» (خروج 15: 22 – 25). فإذا سلّمنا أنّ البالغين من الرجال والنساء يستطيعون تحمل ثلاثة أيام دون نقطة ماء، فهل يعقل أن يتحمل ذلك الأطفال، ومن بينهم دون شك رُضَّع، والكهول والمسنّون؟ وأين هي هذه الناحية من سيناء والتي تدعى مارة لأنّ ماءها مرّ؟ وإذا كانت موجودة حقاً هل يمكن بمرور الزمن أن تصبح مياهها حلوة المذاق، أم أنّها تبقى مرة أبد الدهر؟ وإن هي بقيت كذلك فلماذا لم يذكرها أحد، لا في التاريخ القديم ولا في الحديث؟ وما ذلك إلاّ لأنّها من صنع خيال الكاتب، ولا ضرر من ذلك، كما سبق وذكرنا ذلك مراراً، لو بقيت هذه الأقاصيص تراثاً أدبياً، أمّا وقد أُعلنت أنّها سماوية مقدسة فهذا تَعدٍّ صارخ على العقل البشري يجب ألاّ يستمر مفعوله إلى ما لا نهاية.

ولكي تستمرّ حركية المشهد الدرامي لا يتأخر الكاتب بتصوير مشهد آخر مختلف هذه المرة ولا علاقة له بظلم الطبيعة لبني إسرائيل، بل هو مشهد قتال جرى ضدّ إسرائيل قاده عماليق ضدّ إسرائيل، حيث نقرأ من سفر الخروج الإصحاح السابع عشر ما يلي: وأتى عماليق وحارب إسرائيل

في رفيديم. فقال موسى ليشوع انتخب لنا رجلاً واخرج حارب عماليق» (خروج 17: 8). فمن أين أتى يشوع هذا؟ ومن أين أنبت الكاتب هؤلاء العماليق؟ لقد ورد اسم عماليق كابن لأليفاز بن عيسو من تمناع سريّته، وهذا يعني أنّ عماليق هو ابن أخ يعقوب أي ابن عم يوسف، وبالتالي ذريته التي حاربها موسى هي أبناء عمومة العبرانيين الذين خرجوا معهم من مصر؟ فلماذا حاربهم؟ أظن أنّ الكاتب تقصد ذلك لأنّه أراد أن يفصل بين ذريّة يعقوب وذريّة عيسو، لأنّه أراد أن يميّز الأولى كشعب خاص به، خاصة بعد أن أبدل اسم يعقوب إلى إسرائيل، وأصبحوا يُعرفون بالإسرائيليين، وذريّة عيسو لم تكن كذلك. مرة جديدة هي العنصرية التي أفرزت لنا الصهيونية الحديثة التي بدورها تقوم بالفرز العنصري في دولة إسرائيل بالذات بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين. هذه هي دروس التوراة، دروس الإله القبلي، تفعل فعلها إلى يومنا هذا.

وهو لم يكتفِ بذلك بل أدخل إلى المسرح وجهاً جديداً، وكالعادة دون مقدمات، وهو حور دون أن يحدد ابن من هو. نقرأ من سفر الخروج الإصحاح 17: 8 – 13: «وغداً أقف أنا على رأس التلة وعصا الله في يدي. ففعل يشوع كما قال له موسى ليحارب عماليق. وأمّا موسى وهرون وحور فصعدوا على رأس التلّة. وكان إذا رفع موسى يده أنّ إسرائيل يغلب وإذا خفض يده أنّ عماليق يغلب. فلمّا صارت يدا موسى ثقيلتين أخذا حجراً ووضعاه تحته فجلس عليه. ودعم هرون وحور يديه الواحد من هنا والآخر من هناك. فكانت يداه ثابتتين إلى غروب الشمس. فهزم يشوع عماليق وقومه بحد السيف».

لا بدّ من أن نطرح بضعة أسئلة على هذا الكلام. أولاً نفهم أنّ عماليق هذا هو رجل قائد بدليل قوله (فهزم عماليق وقومه)، فكيف لم يذكر التاريخ لنا شيئاً عن عماليق هذا وعن هذه الحرب الضروس التي كانت أول انتصارات يشوع الوهمي؟ ثم إذا كان يَهْوَه قد أعطى موسى القدرة وجعلها تتمركز في يده بحيث يجعل قومه يربحون إن كانت يده مرفوعة ويخسرون إن هو أنزلها، ألم يكن بمقدوره أن يمنحه القوة لإبقائها مرفوعة لتكون الغلبة مرة واحدة لقومه؟ أَوَليس من المنطق أن نتساءل لماذا لم يلهم موسى منذ البداية إلى وسيلة تجعل يده دائماً مرفوعة ليضمن فوز شعبه؟ ألا ترى معي عزيزي المؤمن بأنّها قصة سخيفة إذا ما أخرجناها من الإطار الأسطوري؟ وها هو يَهْوَه مجدداً وبعد انكسار عماليق يتدخل قائلاً لموسى: «اكتب هذا تذكاراً في الكتاب وضعه في مسامع يشوع. فإني سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء» (خروج 17: 14). الإله يَهْوَه ، إله إسرائيل الخاص، يقرر، وهو الإله العنصري المتغطرس، أن يمحو ذكر عماليق، لم يكتفِ بانتصار يشوع عليهم لأنّه كان لا يزال متعطشاً لمزيد من الدماء، لعلّ بعض الأطفال والنساء قد نجوا، فهو كفيل بإزالتهم من الوجود.

وإذا كان يَهْوَه قد قرّر محو عماليق من تحت السماء، فكيف نفسّر قول صموئيل النبي لشاول الملك: «والآن فاسمع صوت كلام الربّ. هكذا يقول ربّ الجنود. إني قد افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر. فالآن اذهب واضرب عماليق وحرّموا كلّ ماله ولا تعفُ عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة. طفلاً ورضيعاً (إله إنساني بامتياز). بقراً وغنماً. جملاً وحماراً...» (صموئيل الأول 15: 1 – 3). ألا يجعلنا هذا الكلام نتساءل عن هذا التناقض الذي وقع فيه الكاتب؟ يَهْوَه أبادهم في رفيديم عندما حاربوا الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر بقيادة موسى، فكيف يعود فيطلب من شاوول بعد عشرات السنين أن يعود لمحاربتهم وإبادتهم؟ وإذا كان قد أعطى شعبه وصية

لا تقتل فكيف يطلب منه أن يقتل، ليس فقط المحاربين على اعتبار أنّه إذا هوجم يجب أن يدافع عن نفسه، بل الأطفال والرُضَّع وحتى البهائم؟

ونتساءل أيضاً لماذا لم يُنفذ شاول طلب إلهه يَهْوَه القاضي بإبادة عماليق إبادة كاملة حيث نقرأ بعد أسطر قليلة على طلب يَهْوَه ما يلي: «وضرب شاول عماليق... وأمسك أجاج ملك عماليق حياً وحرّم الشعب بحدّ السيف. وعفا شاول والشعب عن أجاج وعن خيار الغنم والبقر والخراف... وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً ندمت على أنّي قد جعلت شاول ملكاً لأنّه رجع من ورائي ولم يقم كلامي» (صموئيل الأول 15: 7 -10). الملك أشفق على الحيوانات أما الإله فلا، الملك استحق العقاب لأنّه شفوق رحوم، أمّا الإله فلا. أفلا يحق لنا أن نضع علامة استفهام كبيرة حول هذا الإله؟

ثم إذا أكملنا قراءتنا ووصلنا إلى الإصحاح الثلاثين لوجدنا المزيد من التناقض من جهة، والفارق بين نفسية الإله الإسرائيلي والكنعانيين الذين كانوا قد وحدوا العبادة، وكانوا شعباً حضارياً لا عنصرياً. نقرأ: «ولمّا جاء داود ورجاله إلى صِقْلَغَ في اليوم الثالث كان العمالقة قد غزوا الجنوب وصقلغ وضربوا صقلغ وأحرقوها بالنار وسبوا النساء اللواتي فيها. لم يقتلوا أحداً لا صغيراً ولا كبيراً بل ساقوهم ومضوا في طريقهم». (صموئيل الأول 30: 1 – 2). لقد تصرف عماليق وفق المعاهدات الدولية المرعية الإجراء في أيامنا هذه، أمّا يَهْوَه فقد كان ولا يزال الإله (رب الجنود) المفعم بالحقد والآمر بالقتل والإبادة العلامتين الفارقتين للإرهاب.

أمّا لماذا أبلغ (يَهْوَه) موسى أن يكتب هذا الحدث في كتاب ويضعه في مسامع يشوع، فلأنّه أراد، برأيي، أن يهيئ يشوع كقائد للفتوحات المقبلة، والقائد يلزمه معنويات قوية، وأيّة معنويات أقوى من معرفته بأنّ إله حرب شعبه يسير أمامه لقتل الأبرياء دون تمييز بين رجل محارب أو امرأة أو كهل أو طفل. نسمع هذا الربّ (يهوه) يكلّم يشوع بعد موت موسى قائلاً: «فالآن قم اعبر هذا الأردنّ أنت وكلّ هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل. كلّ موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلّمت موسى. من البريّة ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم» (يشوع 1: 1 – 4). لقد استنفر يَهْوَه كلّ العاملين بمسح الأرض فنقلوا ملكيتها إلى أبناء شعبه الخاص دون أيّ نظر إلى مالكيها. لماذا؟ إنّها أرض كنعان، وكنعان ملعون، لعنه نوح قبل آلاف السنين، وأرض الملاعين حلال لشذاذ الآفاق. وهل بعد ذلك يمكننا أن نسأل هذا الإله: فماذا عن وصيتك لشعبك والتي تقول فيها «لا يُقتل الآباء عن الأولاد ولا يُقتل الأولاد عن الآباء. كلّ إنسان بخطيئته يُقتل» (تثنية 34: 16) إذ كيف تناقض وصيتك بنفسك فتحلل أنفس شعب آمن، من ذرية كنعان، لم يرتكب إثماً ولا فعل شراً، بل كلّ ما قام به هو أنّه تواجد فوق هذه الأرض وسقاها عرق جباهه؟ أم أنّ هذا الإله له الحق أن يغيّر بوصاياه ساعة يشاء إذ كان قد قال سابقاً: «لأنّي أنا الربّ إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيّ» (خروج 20: 5).

هذا الربّ (يَهْوَه) أراد أن يكون الكتاب بمتناول يشوع لكي لا ينسى أنّ (هذا الربّ) معه، يهمس دائماً بأذنيه قائلاً: «تشدّدْ وتشجّعْ. لا ترهبْ ولا ترتعبْ لأنّ الربّ إلهك معك حيثما تذهب» (يشوع 1: 9). هو معه ليس لخير الناس بل فقط لكي ينصر شعبه (إسرائيل) على أعدائه، وهو لذلك قد أسلم الأموريين إلى بني إسرائيل وقال: «يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي أيّلون. فدامت

الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه. أليس هذا مكتوباً في سفر يَاشَرَ. فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل. ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده سمع فيه الربّ صوت إنسان. لأنّ الربّ حارب عن إسرائيل» (يشوع 10: 13 – 14). إذن هذا الربّ لا يُرتجى منه خير للبشرية، ولا هو موضع رجاء، لا يقبل صلاة مؤمن ولا شفاعة قديس، ليس له من عمل إلاّ محاربة أعداء إسرائيل.

إن أعداء إسرائيل هو اخترعهم، أو الكاتب الذي اخترعه، إذ إن شعب كنعان كان مسالماً حضارياً مستقراً، وبنو إسرائيل هم الذين اجتاحوا أرضه، حسب زعم الكاتب، إذن هم المعتدون لا من حاول الدفاع عن أرضه. لكنّ هذا المنطق يسقط عندما يتعلق صراعهم هذا بالوعد الإلهي الخاص الذي فُرض على البشرية على أنّه وعد الله الكوني. ومن هذا الوعد انطلق صهاينة القرن العشرين للتخطيط مجدداً لاجتياح أرض كنعان (فلسطين) مستعينين بما وصلهم من آبائهم الغابرين من ملفّقات أعادوا إبرازها كجواز مرور إلهي إلى الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً.

يقول شلومو ساند: «كذلك قام هؤلاء بالطريقة نفسها، مستعينين بخيالهم الخصب (كَتَبَة التوراة) بإعادة نسخ وتدبيج قصص وروايات معروفة عن خلق الكون والطوفان الفظيع، ترحال الآباء وصراع يعقوب مع الملاك، خروج مصر وانشقاق البحر، احتلال أرض كنعان، والتوقف العجيب للشمس في جبعون»(258). فهل بعد هذا الكلام، لهذا المفكّر اليهودي، من زيادة لمستزيد، على أسطورية هذه القصص وخروجها الكلّي عن مفهومي التاريخ والقداسة؟ ثم أين هو سفر ياشر هذا؟ وإذا كان مهماً لهذه الدرجة فلماذا أُسقط ولم يُعترف به سفراً أصيلاً؟ لقد بات معروفاً اليوم أنّ أسفار العهد القديم المثبتة في كتاب التوراة المتداول حالياً، ليست هي كلّ الأسفار التي وضعها كَتَبَة كثيرون. ولقد قام مجلس الفريسيين باختيار ما يتوافق مع معتقداتهم وأهملوا الأسفار الباقية.

ثم إذا عدنا إلى متابعة رحلة بني إسرائيل لوجدنا أسماء أماكن لم تُثبت جغرافياً وتاريخياً. فمن بحر سوف إلى بريّة شور، ومنها إلى مارّة كما تقدم معنا، ومن مارّة إلى إيليم حيث «هناك اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة. فنزلوا هناك عند الماء» (خروج 15: 27). وبالرغم من عطشهم تركوا عيون الماء، وارتحلوا إلى بريّة سين التي بين إيليم وسيناء، ثم وصلوا إلى رفيديم حيث حاربهم عماليق كما رأينا، و«في الشهر الثالث بعد خروج بني إسرائيل من أرض مصر في ذلك اليوم جاءوا إلى برية سيناء» (خروج 19: 1). تبدو هذه الرحلة خيالية الغاية منها إظهار عجائب موسى التي قال لنا فولتير عنها: «أنا لا أنصحكم بالكلام عن معجزات موسى في حضور الناس الذين جف اللبن على شفاههم. فلو كانت هذه المعجزات الخارجة عن إرادة الإنسان قد تحققت، لكان المصريون قد ذكروها في كتاباتهم التاريخية. فمعجزات مثل هذه وبمثل هذا الكمّ لو حدثت لكانت كلّ الأمم قد حفظتها، ولم يذكر أيّ مؤرخ لا يوناني ولا سوري ولا مصري ولا غيرهم من المؤرخين كلمة واحدة عن ذلك»(259).

من حقنا أن نتساءل حول الصدقية التاريخية لهذه الأحداث، إذ من المنطقي أن يتوجه بنو إسرائيل الذين كانوا يعيشون في أرض جاسان، هذه الأرض التي تشير إليها خارطة الخروج المثبتة على موقع «غوغل الإلكتروني» على أنّها في شمال مصر مقابل صحراء سيناء، مباشرة عبر هذه الصحراء، إلى أرض فلسطين (كنعان). فلماذا جعلهم الكاتب يتجهون جنوباً وهم يعلمون أنّهم

يقتربون بذلك من جيوش فرعون فلا يصبح أمامهم إلا اللجوء إلى البحر الأحمر. فإذا كان المقصود، كما أشرنا سابقاً، إظهار معجزة موسى بشق البحر كي يمر شعبه إلى الضفة المقابلة ومن ثم إعادة المياه لكي تغرق جيش فرعون، فمعظم الدارسين اليوم لا يتقبلون هذه الفكرة الخارجة عن كلّ منطق، ولا ينفع رأي بعضهم القائل بأنّ موسى كان على اطلاع على عملية المد والجزر ومواقيتها، لأن هذه الظاهرة تحدث على ضفاف البحر لا في وسطه، وعندما نعلم أنّ معدّل عرض البحر الأحمر هو 280 كلم ويصل إلى 355 كلم، لظهرت لنا صعوبة حدوث الجزر فيه ليفسح في المجال أمام مليوني نسمة لكي يعبروه إلى الجهة الأخرى. أما السبب المباشر فهو ما ذكرت سابقاً أيضاً، وهو أولاً إظهار قوة المعجزة والتي كان يمكن لها أن تتم بشكل يتقبله العقل والمنطق، وثانياً لكي يظهر معاناة شعب إسرائيل، وكمقدمة أيضاً لإبراز مسألة التيه التي دامت 40 سنة. كلّ هذه الرحلة التي انطلقت من الشمال باتجاه الجنوب ثم إلى الشمال مجدداً ثم إلى الجنوب ثانية ثم شمالاً ليتوجهوا بعدها إلى أرض كنعان الموعودة هي رحلة خيالية أسطورية لم يستطع أحد من الدارسين، كما مرّ معنا، من اكتشاف أيّ دليل حسي ملموس على حصولها.

وأخيراً نتساءل أين كانت قدرة إلههم يهوه، إله الحرب وربّ الجنود، الذي كان قد حدّد لهم رحلتهم وغايتهم التي دأب على تذكيرنا بها وهي طرد شعوب كنعان وتقديم أرضهم لبني إسرائيل؟ وهل يكفي أن يقول الكاتب بأنّ «الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنّها قريبة. لأنّ الله قال لئلاّ يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر» (خروج 13: 17)، لكي نصدّق نحن هذا الكلام الذي عاد الكاتب فنقضه بنفسه إذ واجه بنو إسرائيل أكثر من حرب في هذه الطريق البعيدة عن أرض الفلسطينيين؟ وإذا كان هذا الإله قادراً على السير أمام شعبه «نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلاً في عمود نار ليضيء لهم» (خروج 13: 21)، ألم يكن قادراً أن يُصعدهم مباشرة إلى أرض كنعان ويهديهم إلى طريق بعيدة عن أعدائهم الوهميين فيوفر عليهم خوض الحروب؟ إنّه خيال الكاتب الذي أراد من ورائه أن يُظهر معاناة بني إسرائيل ثم عظمتهم التي تجسدت بالانتصار على كلّ شعوب كنعان. اليهود الذين أخضعوا هذه الأخبار لنور العقل توصلوا إلى رفضها، فلماذا علينا التسليم بها بالرغم من كلّ ما تمثّله من تسفيه للعقل.

يقول اسبينوزا: «وكثيراً ما ذكر الرواة أشياء، كنّا نظن أنّها حدثت بالفعل مع أنّها من محض خيالهم مثل نزول الله من السماء في عمود دخان على جبل سيناء وصعود الياس إلى السماء في عربة نار تجرّها أحصنة من نار»(260). إنّ طريق الخروج هذا هو ما دفع بكمال الصليبي إلى الاعتماد على اللغة لمطابقة أسماء الأماكن الواردة في التوراة بما يقابلها من منطقة عسير في الجزيرة العربية نافياً دخول الإسرائيليين إلى أرض كنعان، وكان الأجدر به التركيز على أسطورية الخروج والدخول واعتبار أن كلّ هذه الأسماء، حتى لو وُجِدت دون تحريف لغوي، لا تشكّل أيّ دليل على هذه الرحلة وهذا الشعب لعدم وجود أي أثر أركيولوجي يثبتها لا في الجزيرة العربية ولا في فلسطين.

وها هو الكاتب يُصعد موسى إلى الله، وإذ بالله ينتظره فوق الجبل ليقول له: «وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة» (خروج 19: 6). ولمّا كان الشعب وعد موسى بأن يفعل كما طلب منه الله، فلقد قرّر الله أن ينزل في اليوم الثالث «أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء» (خروج 19: 11). لكنّه طلب من موسى أن يُحذّر الشعب من الصعود إلى الجبل وإلاّ «كلّ من يمسّ الجبل يقتل قتلاً» (خروج

19: 12). فما سرّ هذا الجبل؟ ولماذا منع «الرب» شعبه من الصعود إليه وكان قد قال بأنّه سينزل أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء؟ ثم كيف يكون إلهاً خاصاً ببني إسرائيل ويُنزل بهم عقاب الموت مباشرة إنْ هم مسّوا الجبل؟ ما ذلك إلاّ لأنّه إله حرب (رب الجنود)، والقائد الناجح هو الذي لا يعرف الرحمة بل يفرض أوامره على كلّ جنوده، لا بل على الكهنة وكلّ الشعب: «وأمّا الكهنة والشعب فلا يقتحموا ليصعدوا إلى الربّ لئلاّ يبطش بهم». لا رحمة ولا تسامح ولا تحذير بل بطش وقتل وإبادة، فإذا كان الإله يتحلى بهذه الصفات فكيف ستكون إذن صفات قادتهم العسكريين؟ وبالرغم من كلّ ذلك لا بدّ لنا من أن ننوّه بما فعله موسى عند الخروج إذ «أخذ موسى عظام يوسف معه» (خروج 13: 19). هكذا وبكلّ بساطة، وفي أحرج الأوقات، استطاع موسى أن يبحث عن عظام يوسف المطمورة منذ 430 سنة ليأخذها معه تنفيذاً لطلب يوسف إلى أهله حيث استحلفهم عندما شارف على الموت قائلاً: «فتصعدون عظامي من هنا... فحنّطوه ووضع في تابوت في مصر» (تكوين 50: 25). فإذا قاموا بتحنيطه على الطريقة المصرية القديمة فهذا يعني أنّ جسده أصبح مومياء كالتي اكتشفت في مصر، فأين أنت يا يوسف؟ لماذا اختفيت وحدك وبقيت مومياءات المصريين؟

ثم يبدأ يَهْوَه بتلقين شعب إسرائيل وصاياه حيث كانت الأولى نهيه عن صنع التماثيل أو الصور والسجود لها وعبادتها، الأمر الذي لم ينفذه الإسرائيليون، ولا يمكن أن يُستدلّ منه التخلي عن عبادة الأصنام لصالح إله واحد، إلاّ بما يعني ذلك شعب إسرائيل فقط، لأنّ دعوته هذه اقتصرت على شعبه الخاص (بني إسرائيل) ولم يعمّمها لتشمل كلّ الناس. ثم قال لهم: «لا تنطق باسم الربّ إلهك باطلاً» (خروج 20: 7)، وهذه الوصيّة أيضاً لم يتقيد بها الإسرائيليون، وسنأتي عليها بشيء من التفصيل لاحقاً. ثم يصل إلى مسألة تقديس يوم السبت فيقول: «اذكر يوم السبت لتقدّسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك. وأما اليوم السابع ففيه سبت للربّ إلهك... لأنّ في ستة أيام صنع الربّ السماء والأرض والبحر وكلّ ما فيها. واستراح في اليوم السابع. لذلك بارك الربّ يوم السبت وقدّسه» (خروج 20: 8 – 11). ونقرأ من (سفر الخروج 31: 14) «فتحفظون السبت لأنّه مقدس لكم. من دنّسه يُقتل قتلاً. إنّ كلّ من صنع فيه عملاً تُقطع تلك النفس من بين شعبها». لا مزاح مع هذا الإله فعقوبة القتل والقطع والتحريم جاهزة لإنزالها بكلّ مرتكب هفوة مهما صَغُرت. لقد أشرنا إلى ذلك سابقاً ولن أكرر ما قلته بهذا الشأن بل سأستشهد بما جاء في بعض المراجع عن يوم السبت لأبيّن من جديد اقتباس كاتب التوراة عن عادات الشعوب القديمة. يقول جودت السعد: «لكن بالرجوع إلى التراث البابلي فإنّ «يوم الراحة» يسمّى (شباتوم Shabattum) ويتضمن نفس المفهوم التوراتي، ولمّا كان البابليون أقدم من موسى والموسويين فلم يعد من مجالٍ للشك أنّ كَتَبَة التوراة اقتبسوه منهم»(261)، خاصة وأنّ من كتب التوراة، كما مرّ معنا، ليس موسى بل عزرا أيام السبي في بابل حيث تأثر بكلّ المفاهيم الحضارية البابلية. لهذا يقول الأب الدكتور سهيل قاشا: «تقسيم السنة إلى 12 شهراً والأسبوع إلى 7 أيام لا يزال التقسيم الزمني المتبع في عهدنا هذا، وهو بابلي الأصل»(262). ولقد أخذ كاتب التوراة هذا التقسيم الذي أبدعه العقل البابلي لينسبه إلى نفسه عبر نسبته إلى الله ليجعل منه يوماً مقدساً أسبغت عليه فيما بعد الصفة الدينية، فأتت المسيحية لتقدس يوم الأحد والمحمدية يوم الجمعة. أمّا عملياً فالقداسة كما مرّ معنا، حسب رأي اسبينوزا، هي أمر فكري لا علاقة له بالدين بل بالممارسة. ونقرأ لفراس السواح حول هذا الموضوع من كتابه «مدخل إلى نصوص الشرق القديم» النص التالي: «وقد

دُعِي هذا اليومِ بيوم السباتو، أي يوم الراحة، وكانوا يحتفلون به مرة في كل شهر، ثم صاروا يحتفلون به مرة في كلّ ربع من أرباع الشهر القمري (أي مرة في الأسبوع). وعنهم أخذ اليهود هذه العادة خلال فترة السبي البابلي».

ولمّا كان يوم السبت هذا مرتبطاً بعملية الخلق التوراتية فلا بأس إن قرأنا رأي أحد المفكرين اليهود حولها وهو إيلان هاليفي: «من المؤكد أنّه يبدو من السذاجة تماماً أن نتخيّل اليوم كما تؤكد العقيدة الحاخامية أنّ العالم قد خُلق منذ خمسة آلاف وسبعمائة وأربعين سنة بالضبط (سنة تأليف الكتاب عام 1983). ما من حاجة قط أن نبرهن على أنّ هذا الحساب قرن الأوسطي الذي يعود إلى الكتابة التوراتية الثانية منذ أكثر من عشرة قرون خلت هو حساب خاطئ»(263). أما معروف الرصافي فيقول: «أما الحقيقة فهي أنّ خلق السموات والأرض في ستة أيام خرافة مذكورة في التوراة، وبما أنّ التوراة عند محمد كتاب مقدس من كتب الله أخذ ذلك منها وذكره في القرآن»(264). وكان أشار قبل ذلك إلى أنّ «أسماء الأيام هي من موضوعاتنا نحن بني آدم، فلمّا خلق الله السموات والأرض لم تكن الأيام ولا أسماؤها»(265).

أمّا إذا أكملنا بقية الوصايا، التي تبنتها المسيحية فيما بعد بالرغم من معارضة المسيح لبعضها كما سنبيّن ذلك لاحقاً، فإننا نقرأ: «أكرم أباك وامك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك. لا تقتل. لا تزنِ. لا تسرق. لا تشهد على قريبك شهادة زور. لا تشتهِ بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أَمَته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك» (خروج 21: 12 – 17). هذه هي الوصايا العشر التي قال اسبينوزا عنها: «أصبحت الوصايا العشر قانوناً لهم وحدهم (بني إسرائيل) نظراً إلى أنّهم لم يعرفوا وجود الله كحقيقة أزلية»(266)، والتي أصبحت دستوراً لكلّ المؤمنين على تعدد أديانهم.

وبالرغم من ذلك ولاعتبارات عديدة سنأتي على ذكرها، سأسمح لنفسي بوضع مفهوم القداسة جانباً لأضع هذه الوصايا على مشرحة العقل. أولاً لا بدّ من لفت النظر مجدداً إلى أنّ الإله يَهْوَه قد أعطى هذه الوصايا لشعبه الخاص (بني إسرائيل)، فهي إذن مقتصرة عليه يتعامل بها بمفهومها العنصري الضيّق وليس بمفهومها الإنساني العام. أريد أن أقول بأنّ يَهْوَه عندما طلب من شعبه أن لا تكون له آلهة أخرى قد سلّم بوجود آلهة للشعوب الآخرى، وبالتالي يكون قد دقّ بنفسه إسفيناً في مفهوم التوحيد. وهو إن حرّم صنع الأصنام وعبادتها والسجود لها فعلى شعبه فقط، أي أنّه تركها مباحة للشعوب الأخرى. وعندما أوصى شعبه بألا ينطق باسم الربّ بالباطل حدّد هذا الرب بأنّه إله بني إسرائيل، وهذا يعني أنّ هذه الوصية مفروضة عليهم فقط. وعندما قال لشعبه «اذكر يوم السبت لتقدسه»، كان يعلم أنّه لا يمكن أن يتقيد بهذه الوصية غير شعبه. فماذا نستنتج من كلّ ذلك؟ لا يمكن أن نرى من هذه الوصايا إلاّ الشِّرك عبر الاعتراف بتعدد الآلهة.

أما وصية «أكرم أباك وأمك»، فإنّها إلى جانب كونها قد طلبت من بني إسرائيل فقط، فإنّها تثبت الروح الاستغلالية التي قام يَهْوَه بتربية شعبه عليها، لأنّه يشير إلى الغاية من وراء هذه الوصية، وهي بالطبع ليست مفعمة بالأخلاق والمناقبية، بل بالنفعية على القاعدة المكيافيللية، التي صوّرها لهم بطول الأيّام على الأرض التي منحهم إيّاها: أكرم والديك فتطول أيامك، أي ادفع لله (الرشوة) بإكرامك والديك وهو على استعداد لإطالة أيامك. أمّا قوله: (لا تقتل. لا تزنِ. لا تسرقْ) وإن بدا بأنّه

دعوة أخلاقية لكل الناس للإقلاع عن القتل والزنى والسرقة، فإنّنا نكتشف بما لحقها من وصايا بأنّها لا تعني التوقف عن هذه الموبقات بالمطلق، أي عدم القيام بها في أيّ وقت وتحت أيّة ظروف ومع أيٍّ كان. لأنّه أولاً توجه بها فقط، كما ذكرنا لبني إسرائيل، ولأنّه في الوصايا الثلاث الأخيرة يؤكد على شعبه أنّه يجب عدم ارتكاب هذه المعاصي مع الأقرباء فقط، أي بين الإسرائيليين فقط. لقد كان واضحاً عندما حدّد لهم عدم ارتكابها مع القريب فقط، وهذا يعني تحليلها مع الغرباء الأبعدين. وما يؤكد لنا ذلك هو ما سنورده من وصايا مناقضة أوصى بها شعبه لكي ينفذها مع الآخرين. هذا الإله أبدى كلّ استعداد لإبادة كلّ شعوب كنعان لكي يقدّم أرضها لشعبه الخاص، مستعيناً حيناً بملاكه وحيناً آخر بتدخله المباشر. والأمثلة كثيرة سنورد أهمها:

«فإنّ ملاكي يسير أمامك ويجيء بك إلى الأموريين والحثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين. فأبيدهم» (خروج 23: 23).

«أرسل هيبتي أمامك وأزعج جميع الشعوب الذين تأتي عليهم... وأرسل أمامك الزنابير. فتطرد الحويين والكنعانيين والحثيين من أمامك. لا أطردهم من أمامك في سنة واحدة لئلا تصير الأرض خربة فتكثر عليك وحوش البريّة» (خروج 23: 27). ليس رأفة بهؤلاء القوم وإنّما لمصلحة بني إسرائيل.

«متى أتى بك الربّ إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين سبع شعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم الربّ إلهك أمامك وضربتهم فإنّك تحرّمهم (تقتلهم). لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم. بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لابنك» (تثنية 7: 1 – 3).

«والزنابير أيضاً يرسلها الربّ إلهك عليهم حتى يفنى الباقون وينمحقون من أمامك» (تثنية 7: 20).

«فاعلم اليوم أنّ الربّ إلهك هو العابر أمامك ناراً آكلة. هو يبيدهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعاً كما كلّمك الرب» (تثنية 9: 3).

«فضرباً تضرب سكّان تلك المدينة بحدّ السيف وتحرّمها بكلّ ما فيها مع بهائمها بحدّ السيف. تجمع كلّ أمتعتها إلى وسط ساحتها وتُحرِق بالنار المدينة وكلّ أمتعتها كاملة للرب إلهك» (تثنية 13: 15).

«وأمّا مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبقِ منها نسمة ما. بل تحرّمها تحريماً» (تثنية 20: 16).

«... وحرّموا كلّ ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحدّ السيف» (يشوع 6: 22).

«ويكون عند أخذكم المدينة أنّكم تُضرمون المدينة بالنار. كقول الربّ تفعلون» (يشوع 8: 8).

«فقال الربّ ليشوع لا تَخَفْهم لأنّي غداً في مثل هذا الوقت أدفعهم جميعاً قتلى أمام إسرائيل فتعرقب خيلهم وتُحرق مركباتهم بالنار» (يشوع 11: 6).

«وضربوا كل نفس بحدّ السيف. حرّموهم ولم تبقَ نسمة. وأحرق حاصور بالنار. فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها وضربهم بحدّ السيف. حرّمهم كما أمر موسى عبد الربّ» (يشوع 11: 11).

«وأما الرجال فضربوهم جميعاً بحدّ السيف حتى أبادوهم. لم يُبقوا نسمة» (يشوع 11: 14).

«وأرض الجبليين وكلّ لبنان نحو شروق الشمس من بعل جاد تحت جبل حرمون إلى مدخل حماة. جميع سكان الجبل من لبنان إلى مِسرَفوت مايم جميع الصيدونيين. أنا أطردهم من أمام بني إسرائيل» (يشوع 13: 5).

«رجل واحد منكم يطرد ألفاً لأنّ الربّ إلهكم هو المحارب عنكم كما كلّموكم» (يشوع 23: 10).

«وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحدّ السيف وأشعلوا المدينة بالنار». (القضاة 1: 8).

فأيّ توصيف يمكننا أن نطلق على هذا الله - الربّ - يَهْوَه - ربّ الجنود؟ وأيّة قداسة تنضح بها هذه الأقوال؟ وإذا أسسنا مدرسة لتعليم فنون الإرهاب، أنحتاج إلى دروس أفضل من هذه تُشحن بها نفوس المحاربين؟ كيف يمكن لأيّ مؤمن من غير اليهود أن يقرأ هذه المقاطع، وهي أمثلة غير حصرية، ولا ينتفض ليقول كفى، لا علاقة لهذا الإله بالبشرية؟ ألا يحق لنا عندها أن نوافق الأب مايكل برير حين يقول: «إنّ التناقض الواضح بين ما يدّعيه البعض بأنّه إرادة الربّ والسلوك العادي المتحضر والمهذب يطرح سؤالاً كما لو كان الربّ قومياً شوفينياً ويؤمن بالتفوق العسكري وبكراهية الغرباء»(267). ونقرأ أيضاً ما نقله عن (G.E.M. de Ste Croix, in said 1988: 166): «بإمكاني القول إنّني أعرف شعباً واحداً فقط يُحسّ أنّ بإمكانه الادعاء بأنّه تسلّم أمراً إلهياً لإبادة كلّ السكان الذين انتصر عليهم؛ وهذا هو إسرائيل. وفي هذه الأيام، من النادر أن يُمعن المسيحيون واليهود النظر في وحشية يَهْوَه التي تفتقر إلى الرحمة التي لا تتكشف في النصوص المعادية فحسب، وإنّما أيضاً في الأدب ذاته الذي يعدونه مقدساً»(268). ألا يحق لنا أيضاً أن نوافقه بأنّ مسيحيي القرون الوسطى وصولاً إلى العصر الحديث عامة، والصهاينة خاصة، تسلّحوا بما قاله هذا «الربّ»، ليشنّوا حرب إبادة على شعوب آمنة، كما حصل مع هنود أميركا وكندا ومع سكان أميركا الجنوبية، وما حصل ولا يزال مع سكان فلسطين: «هنالك دليل وافر بأنّ الكتاب (أي التوراة)، كان، ولا يزال إلى حد ما، المثل الأعلى الذي يسعى إلى استلاب الأرض بالفتوحات»(269).

وحول تصنيف هذه الأفعال الإلهية يقول: «إنّ ما أقرت به تلك القصص الكتابية وفقاً للمعايير العصرية للقانون الدولي وحقوق الإنسان هو (جرائم حرب) و (جرائم ضد الإنسانية)... وعلى المرء أن يعترف بأنّ أجزاء كثيرة من التوراة، ومن سفر التثنية بشكل خاص، تحوي عقائد مخيفة وميولاً عنصرية وكراهية للغرباء ودعماً للقوة العسكرية»(270). أليس هذا ما يحدث اليوم في فلسطين المحتلة بأمر من هذا اليَهْوَه الذي يجب أن يُحاكم على جرائمه المستمرة منذ تدوين هذا الكتاب ولغاية اليوم؟ وكيف يبقى المؤمنون، المسيحيون منهم بشكل خاص، على تمسُّكهم بهذا الكتاب، على أنّه منبع ديانتهم، على الرغم مما يحتويه من دروس بالإجرام والإرهاب؟ هل من متسائل مع الأب برير حول «هل كان ثمة طريقة في قراءة التقاليد التي يمكنها أن تنقذ الكتاب (أي التوراة) من أن يكون أداة

صماء في القمع وتبرئة الله من أن يكون المطهّر العرقي الكبير»؟ إنّها صرخات أب مؤرّخ وباحث موضوعي نظر إلى هذه المدوّنات بعين العقل، وهو اللاهوتي المسيحي، ولم يمنعه ثوبه وموقعه من وضع الأمور في نصابها، وقول الحقيقة دون مواربة أو ممالأة أو قرار مسبق غير قابل للاستئناف والنقض.

وبالعودة إلى الإرهاب الإلهي الذي يقدسه الإسرائيليون خاصة واليهود عامة، مع بعض الاستثناءات، نجد أن هذا الإله الخاص قد كان إرهابياً مع شعبه بقدر ما كان إرهابياً مع الغرباء. فبالإضافة إلى ما أثبتناه سابقاً حول حكمه بالقتل على كلّ من يخالف شريعته نراه يكمل تهديداته لأنّ الكاتب أراده أن يكون متشدداً مع شعبه الذي كان يعرف حق المعرفة أنّه شعب شرير. وقبل أن نثبت بعضاً من إرهابه الذي مارسه بحق شعبه، أرى أنّه من المفيد الإضاءة على ما أثبته محرّر التوراة من شرور بني إسرائيل الذين، وبالرغم من كلّ ما قام به إلههم لأجلهم من طرد للشعوب وتحريم وضرب وإبادة، وبالرغم من وصاياه الواضحة لهم لكي يتقيدوا بوصاياه وشريعته، نجد محرّر التوراة يكشف هذا الشعب على حقيقته فيقول عنه: «وفعل بنو إسرائيل الشرّ في عيني الرب وعبدوا البعليم. وتركوا الربّ إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الربّ. تركوا الربّ وعبدوا البعل وعشتاروت» (قضاة 2: 11). «وعاد بنو إسرائيل يعملون الشرّ في عينيّ الربّ...» (قضاة 3: 12). «وعاد بنو إسرائيل يعملون الشرّ في عيني الرب بعد موت إهود» (قضاة 4: 1). «وعمل بنو إسرائيل الشرّ في عيني الربّ...» (قضاة 6: 1). «وعاد بنو إسرائيل يعملون الشرّ في عينيّ الربّ وعبدوا البعليم والعشتاروت وآلهة أرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بني عمّون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الربّ ولم يعبدوه. فحمي غضب الربّ على إسرائيل وباعهم بيد الفلسطينيين وبيد بني عمّون» (قضاة 10: 6 – 7).

ورُبَّ قائل بأنّ هذا الكلام يعني أنّ بني إسرائيل تركوا عبادة الله الواحد وعادوا إلى عبادة آلهة الشعوب وهذا دليل على أنّهم كانوا موحِّدين على عكس ما أثبتُّ سابقاً. وعلى هذا الكلام المفترض أردّ قائلاً: إنّ بني إسرائيل كانوا يعبدون إلههم الخاص وليس إله الكون الشمولي، أما الكنعانيون فكانوا يعبدون الإله السيد العالي الواحد إيل، والآلهة التي عدّدها كاتب التوراة كانت بمثابة ملائكة إيل التي تدير شؤون البشر، فلم يستطع الإسرائيليون الارتقاء إلى هذا المفهوم والانعتاق من المفاهيم البدائية للألوهة والتي بدأت بالتبلور مع السومريين ووصلت مع البابليين ومن تبعهم إلى مستوى راقٍ جداً أثّر لاحقاً على مفهوم الألوهة لدى المسيحيين ثم المحمديين. يقول الدكتور بشار خليف: «إذن إنّ مجمل ما قدّمته لنا معطيات الألف الثالث، تشير إلى أنّنا أمام مجتمعات متديّنة بعمق ابتكرت معتقداتها بحسب تطور بنيتها الدماغية، عرفت الخير والشر، عرفت الثواب والعقاب، كادت أن تلامس وجه الحقيقة، حين جعلت رباً واحداً هو سيد السموات والأرض، الخالق، الرحيم، القوي، الجبار، العطوف»(271). ثم يستطرد قائلاً: «وهذه المجتمعات اقتضت الضرورة أن ترمّز الظواهر التي خشيتها وهابتها عبر تماثيل لم تُعبد لذاتها بل عُبد ما خلقها أي الإله العالي... فهذه المجتمعات إذن لم تكن مجتمعات وثنية جاهلية، لأنّ ما اختطته بنيتها الدماغية يلامس حقيقة ما جاءت به الأديان السماوية»(272). وكان قد استثنى الديانة اليهودية ولم يعتبرها سماوية «لأنّه بما عرفنا عنها في أسفار التوراة في أسفاره الخمسة الأولى المنسوبة إلى موسى، فإنّنا أمام إله (يَهْوَه) هو إله خاص

لليهود وحاقد على غير اليهود... فهو إله خاص لشعب خاص وليس إلهاً كونياً شاملاً لكل إنسان ومجتمع وزمان ومكان»(273).

وإذا ما لاحقنا خريطة بني إسرائيل اللاهوتية لوجدنا أنّهم استمروا بارتكاب المعاصي والشرور ففي سفر القضاة نقرأ من الإصحاح الثالث عشر: «ثم عاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عينيّ الربّ فدفعهم الربّ ليد الفلسطينيين أربعين سنة» (قضاة 13: 1). وهذا يعني أن كلّ ما جاء في سفر يشوع عن دخوله مدن الفلسطينيين وتحريمه لكلّ نسمة حياة لا فرق بين إنسان وبهيمة هو من صنع خيال الكاتب الذي درج على مناقضة نفسه. فإذا كان يشوع قد قضى على الفلسطينيين فكيف استطاعوا أن يتكاثروا بعد يشوع ويستعيدوا قوتهم فيقهروا الإسرائيليين ذوي الشدّة والبأس؟ وإذا سلّمنا جدلاً بوجود شخصية داود وبقيام مملكته التي تُعتبر العهد الذهبي لإسرائيل نجد أنّ الحروب استمرت بينه وبين الفلسطينيين طيلة فترة المملكة. إذن لا يشوع ولا داود استطاعا أن يقضيا على الفلسطينيين، والمملكة إن وجدت فلا يمكن اعتبارها إلاّ إحدى الممالك الكنعانية التي كانت تقوم مناوشات بينها وبين الممالك الأخرى، وبذلك تسقط الخصوصية التي حاول اليهود إضفاءها على مملكتهم.

أمّا إذا ما تتبعنا ملوك إسرائيل فنجد أنّ معظمهم قد عملوا الشرّ في عينيّ الرب. وما علينا لإثبات ذلك إلاّ العودة إلى سفري الملوك الأول والثاني ليبدأ مشوار الشرّ مع ناداب بن يربعام الذي «عمل الشرّ في عينيّ الرب» (الملوك الأول 15: 26). وبَعشا بن أخيا، وزمري، وعمري، وأخآب بن عمري، وأخزيا بن أخآب، ويهورام بن أخآب، وأخزيا بن يهورام، ويهو أحاز بن ياهو، ويهوآش بن يهو أحاز، ويربعام بن يوآش، وزكريا بن يربعام، ومنحيم بن جادي، وفقحيا بن منحيم، وفقح بن رمليا، وآحاز بن يوثام، وهوشع بن أيلة، ومنسّى بن حزقيا، وآمون بن منسّى، ويهو آحاز بن يوشيّا، ويهوياقيم بن يوشيا، ويهوياكين بن يهوياقيم، وحدقيا بن يهوياكين، هؤلاء جميعهم ملوك إسرائيل ويهوذا، أي الملوك الذين تسلّموا الحكم بعد موت سليمان وانقسام المملكة. ونلاحظ أيضاً أن هؤلاء الملوك كانوا يَرِثُون المُلْكَ الواحد عن أبيه، وكان الواحد منهم يعلم أنّ أباه فعل الشرّ بعينيّ الرب، وأنّ الرب عاقبه، فلَماذا لم يتّعظ أيّ واحد منهم فيتبع الطريق المستقيم مرضاةً للربّ كما فعل يوشيّا بن آمون؟ ألا يدعونا هذا الاستمرار بفعل الشرّ من جميعهم على التساؤل، ثم التوصل إلى نتيجة مفادها أن الكاتب كان يجترّ نفسه مما جعل أقاصيصه مبتذلة؟ وكما نرى لم يشذ عن فعل الشر منهم سوى واحد هو يوشيا بن آمون الذي ذكر الكاتب أنّه «عمل المستقيم في عينيّ الربّ» (الملوك الثاني 22: 2) (سنة 930 ق.م.). فتهديدات يَهْوَه لشعبه لم تمنع ملوك هذا الشعب من اقتراف المعاصي ومخالفة الشريعة والوصايا التي اعتبرها يَهْوَه أعمالاً شريرة، وهو بالرغم من ذلك لم يتخلّ يوماً عن دعمه لبني إسرائيل.

ومع قرب وقوع الأحداث مع زمن تدوين التوراة لم يعد بإمكان الكاتب الجنوح بخياله واختراع الأكاذيب وتلفيقها ليُظهر عظمة شعبه، خاصة بعد القضاء على مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة على يد سرجون الثاني الأشوري عام 721 ق.م.، وعلى يهوذا وعاصمتها أورشليم على يد نبوخذ نصّر الكلداني عام 587 ق.م.(274) فنسب ذلك إلى غضب الله على شعبه. ولإلقاء الضوء أكثر فأكثر على إرهاب يهوه، والذي سيكون له تأثير كبير على صهاينة القرن العشرين نتيجة تمسّكهم بحرفية ما ورد في التوراة، نقرأ من مآثره ما فعله بابنيْ هرون شقيق موسى والذي حدّده هو نبياً:

«وأخذ ابنا هرون ناداب وأبيهو كل منهما مِجمرته وجعلا فيهما ناراً ووضعا عليها بخوراً وقرّبا أمام الربّ ناراً غريبة لم يأمرهما بها. فخرجت نار من عند الربّ وأكلتهما فماتا أمام الرب» (لاويين 10: 1 – 2). فلماذا أيها الإله تحرق إبنيك؟ ألأنّهما قدّما لك البخور، تشبُّهاً ببني كنعان، ولم يقدّما لك الذبائح لكي تُسرّ نفسك برائحة الشواء؟ لماذا كلّ هذا الحقد على الذين يخالفون أوامرك القبلية العنصرية؟ الأمر بسيط أخي المؤمن ولا يحتاج إلى كثير من التفكير، إنّه ليس إله الكون المحب السموح، بل هو إله الحرب (ربّ الجنود) الذي لا يقبل أن يعارض قراراته أحد.

ومن يتابع قراءة سفر اللاويين لا بدّ من أن يتعرّف أكثر فأكثر على تعليمات هذا الإله التي تقضي بقطع كلّ نفس، أي قتلها، إن هي لم تلتزم الوصية والشريعة. فإذا قام أحد من بني إسرائيل بذبح بقرة أو معزى ولم يأتِ بها إلى باب خيمة الاجتماع ليروي ظمأ يَهْوَه إلى الدم «يُقطع ذلك الإنسان من شعبه» (لاويين 17: 4). و«كلّ إنسان سبّ أباه أو أمه فإنّه يُقتل» (لاويين 20: 9). و«إذا كان في رجل أو امرأة جانٌ أو تابعة فإنّه يُقتل. بالحجارة يرجمونه. دمه عليه» (لاويين 20: 27). «وإذا أمات أحد إنساناً فإنّه يُقتل... وإذا أحدث إنسان في قريبه عيباً فكما فعل كذلك يُفعل به. كَسْرٌ بكسر وعين بعين وسن بسنّ» (لاويين 24: 17 – 20). لقد تطوّر الإنسان بتفكيره وهذا التطور جعله يطوّر أيضاً عاداته وتقاليده وقوانينه الوضعية لكي يرتقي إنسانياً فيتميّز عن غيره من المخلوقات. إلاّ أنّ يَهْوَه الإله البدائي أراد أن يعيد الإنسان إلى همجيته إن هو لم يسمع كلامه: «وإن كنتم بذلك لا تسمعون لي بل سلكتم معي بالخلاف فأنا أسلك معكم بالخلاف ساخطاً وأؤدبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم. فتأكلون لحم بنيكم. ولحم بناتكم تأكلون» (لاويين 26: 27 – 29). إنّه لتأديب غريب عجيب لا يستطيع الواحد منا إلاّ أن يشمئزّ منه ومن هذا الإله المتوحش الذي فُرض علينا إلهاً كونياً لا يزال أبناؤه ينفّذون وعوده وتهديداته لغاية اليوم.

ونتابع رحلة الإله البربري فنسمعه يطلب من موسى أن يكلّم بني إسرائيل للالتزام بفرائض الفصح، وويل لمن «كان طاهراً وليس في سفر وترك عمل الفصح»، ماذا يا ترى يحلّ به: «تُقطع تلك النفس من شعبها لأنّها لم تقرّب قربان الربّ في وقته» (عدد 6: 13). أما الرجل الذي وجده بنو إسرائيل يحتطب من البريّة يوم السبت فلم يعرفوا ماذا يفعلون به «لأنّه لم يعلن ماذا يُفعل به» فإنّ يَهْوَه لا يتردد بحكمه: «فقال الربّ لموسى قتلاً يُقتل الرجل» (عدد 15: 25). فهل يهم إن كان هذا الرجل يشعر بالبرد فخرج يحتطب ليتدفأ مع أبنائه، أو كان يريد حطباً ليشعل الموقد لكي يهيء الطعام لأولاده؟ هو خرق الوصية الأهم، قام بعمل يوم السبت، والسبت يوم حدده يَهْوَه لنفسه يوم راحة، إذن على كلّ شعبه أن يقدس هذا اليوم فيمتنع عن القيام بأيّ عمل إلاّ إذا كان لمصلحته.

يقول إسرائيل شاحاك تحت عنوان انتهاك حرمة السبت لإنقاذ الحياة: «إنّ انتهاك حرمة أيام السبت – أي القيام بعمل يُفترض أن يكون محظوراً أداؤه يوم السبت – يصبح واجباً عندما تتطلب ذلك الحاجة لإنقاذ حياة يهودي»(275)، أمّا إذا كان ذلك يتعلق بالأغيار، أي غير اليهود، فمثلاً: «ينبغي الامتناع عن مساعدة امرأة من الأغيار في حالة الولادة أيام السبت، حتى لقاء أجر»، «فإنّ الطبيب اليهودي سوف يرتكب (معصية لا تُحتمل) إذا عالج أحد الأغيار يوم السبت»، إلاّ إذا كان غنياً أو من أصحاب النفوذ لأنّه «يمكن لعدائهم أن يكون عداء خطراً»(276)، وحيث يمكن أيضاً للأطباء «الأغيار أن ينتقموا من مرضاهم اليهود... وهناك تسليم في كلّ هذا البحث، بأنّ خداع الأغيار عوضاً عن

معالجتهم، أمر لا بأس به ما دام بالإمكان تفادي العداء»(277). كل ذلك ممنوع استناداً إلى أحكام «التلمود، ومجموعة الشرائع اليهودية»(278). هذا مثال فقط أورده كاتب يهودي فَعَل الاشمئزاز فعله بنفسيته، فعاد إلى إنسانيته ليواجه بغضب هذه الشريعة الحاقدة.

ونتيجة لاستمرار بني إسرائيل بالتذمّر لموسى عمّا لحق بهم من شظف عيش بعد الخروج من مِصر قال لموسى وهرون اللذين جاءا إلى قدّام خيمة الاجتماع: «اطلعا من وسط هذه الجماعة فإنّي أفنيهم بلحظة» (عدد 16: 45). ويستمرّ يَهْوَه بتذكير جماعته بالشريعة والوصايا، إذ إنّ مرة واحدة لم تكن بكافية لكي تجعلهم مؤمنين بهذا الإله وبشريعته. فيقول لهم في سفر العدد الإصحاح التاسع عشر: «هذه هي الشريعة. إذا مات إنسان في خيمة فكلّ من دخل الخيمة وكلّ من كان في الخيمة يكون نجساً سبعة أيام» (عدد 19: 14). «وأمّا الإنسان الذي يتنجّس ولا يتطهّر فتباد تلك النفس من بين الجماعة لأنّه نجّس مقدس الربّ» (عدد 19: 20). أما كيف يتطهّر النجس فأحيلك أخي القارئ إلى سفر العدد الإصحاح التاسع عشر.

واستمر تذمّر بني إسرائيل، أي أنّهم لم يؤمنوا بهذا اليَهْوَه بالرغم من وقوفه معهم خلال حروبهم وطرده لكلّ شعوب كنعان من أمامهم، كانوا يؤمنون به عند الشدّة فيتضرّعون له لكي ينجدهم، وكان يستجيب. وما أن يحقق لهم الانتصار حتى يعودوا إلى سابق عهدهم من التذمّر بمن فيهم موسى وهرون، بدليل قوله لهما: «من أجل أنّكما لم تؤمنا بي حتى تقدّساني أمام أعين بني إسرائيل لذلك لا تدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطيتهم إيّاها» (عدد 20: 12). وهو لم يكتفِ بذلك بل عاقب هرون بالموت بعد أن أمر موسى بإخلاعه ثيابه وإلباسها لأليعازر ابنه «فمات هرون هناك على رأس الجبل»، فكان حداد وبكاء لمدة ثلاثين يوماً. وها هو يَهْوَه يستجيب لنَذر بني إسرائيل فيسمع لهم ويدفع إليهم بالكنعانيين فيحرمونهم ومدنهم. وما لبث بنو إسرائيل حتى تكلّموا على الله وموسى قائلين: «لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البريّة لأنّه لا خبز ولا ماء وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف. فأرسل الربّ على الشعب الحيّات المحرقة فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل» (عدد 21: 6). طوال أربعين سنة في التيه ظل بنو إسرائيل يتذكّرون حياتهم في مصر ويتمنون العودة إليها، فهل يمكن لمن كان مُستَعبَداً مظلوماً أن يتمنى العودة إلى ما كان عليه فقط لأنّه في ترحاله واجه بعض الصعوبات الحياتية؟ مرة جديدة نؤكد على أسطورية الخروج، فهو لا يعدو كونه خرافة أراد منها الكاتب، كما أشرنا سابقاً، إظهار معاناة بني إسرائيل لاستغلالها فيما بعد، من خلال ممارسة إرهابهم الذي درّبهم عليه إلههم يَهْوَه ، والذي قادهم إلى السيطرة على بقعة صغيرة من كنعان لا بعامل الفتح كما صوّر ذلك الكاتب، بل بعامل التناحر الطبيعي لقبائل الشعب الواحد بغاية السيطرة والاستبداد بالآخرين.

وبالرغم من كلّ القتل الذي ارتكبه يَهْوَه مباشرة أو بالواسطة يعود في سفر التثنية الإصحاح الخامس ليذكّر شعبه بوصاياه التي تمنع القتل والزنى والسرقة، والتي لم يتقيد بها لا هو ولا شعبه. وفجأة نجده يناقض كلّ أفعاله وأقواله الداعية لإبادة الغرباء فنسمعه يخاطب شعبه قائلاً: «فأحبّوا الغريب لأنّكم كنتم غرباء في أرض مصر» (تثنية 10: 19). هذه وصية جيدة، بالرغم من أنّه لم يعطها بالمطلق بل ربطها بعقدة غربة شعبه. لكنّها لم تدم طويلاً، فها هو يعود إلى سابق عهده، يقوم بطرد الشعوب من أمام شعبه في الإصحاح الحادي عشر أي الذي يلي مباشرة بعد الإصحاح الذي تضمن وصيته بمحبة

الغريب، ولعله ندم على هذا التسامح فقال: «يطرد الرب جميع هؤلاء الشعوب من أمامكم فترثون شعوباً أكبر وأعظم منكم. كلّ مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البريّة ولبنان. من النهر نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم» (تثنية 11: 23). فأين محبة الغريب، وأين العدل الإلهي؟ لعلّه نسي وصيته أو ندم على قولها إذ إنّ الندم والنسيان صفتان لازمتاه منذ الخلق ورافقتاه طيلة رحلته مع إبراهيم وصولاً إلى موسى الذي جعله الكاتب يتلقّى شريعته من يَهْوَه، وهو عملياً كان قد قرأها على المسلّات الصخرية التي كان الملك المشرّع حمورابي قد نصبها في أماكن متعددة من مملكته، لكي تكون قانوناً، مدنياً لا إلهياً، يستجير به الضعيف لنيل حقه من الظالم.

فها هو موسى يأمر إلهه بالعودة عن غضبه الذي قاده إلى إنزال الشرّ بشعبه فيقول له في سفر الخروج: «ارجع عن حموّ غضبك واندم على الشرّ بشعبك... فندم الربّ على الشرّ الذي قال إنّه يفعله بشعبه» (خروج 32: 12 – 14). فمن هو الإله: يَهْوَه أم موسى؟ وموسى الذي يأمر الإله نجده يأتمر بأوامر كاهن مديان، حمّي موسى، الذي يقول له في (خروج 18): «... ليس جيَّدا الأمر الذي أنت صانع... لأنّ الأمر أعظم منك. لا تستطيع أن تصنعه وحدك. الآن اسمع لصوتي فأنصحك... فسمع موسى لصوت حميه وفعل كلّ ما قال» (17 – 24). موسى النبي أولاً والإله ثانياً ينصحه كاهن ويرشده إلى كيفية التصرف لكي يستطيع أن يقضي للشعب، ولا يمكننا أن نفهم من هذا إلاّ أنّ كاهن مديان كان أرجح عقلاً من موسى، فلماذا إذن اختار يَهْوَه موسى اللقيط الذي به عاهة خَلقية وعقلية، الأولى تمنعه من النطق السليم والثانية من الحكم السديد؟ إنّها ليست مشيئة الإله بل الكاتب الذي استمر بإسقاط ما يشاء على موسى، فها هو يستعير شريعة حمورابي، فيجعله بدلاً من أن يقوم كما تقول الأسطورة، بعدما لا يقل عن 400 سنة من حمورابي، بتطوير هذه القوانين نحو الأفضل، يقتبسها كما هي أحياناً، ويحوّرها إلى الأسوأ أحياناً أخرى

طبعاً لم يفعل موسى ذلك لأنّه شخصية أسطورية، بل إنّه عزرا الذي كان يعيش في بابل، والذي كان قد اطّلع على كلّ آدابها وقوانينها، هو الذي سرقها ونسبها إلى موسى وجاء من أتى بعده ليُضفوا عليها صفة القداسة وهي لا تعدو كونها قوانين وضعية اجتماعية رمت إلى الحد من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، بمفهوم العدل الذي كان قد توصّل إليه إنسان تلك الأيام انطلاقاً من عاملين: الأول حضاري يتعلق بشرعة التطور التي ما زالت تشكّل الأساس الذي قامت عليه الحضارة الإنسانية، والثاني اجتماعي يتعلق بمدى تفاعل التجمعات البشرية بعضها مع بعض وقدرتها على امتصاص ثقافة غيرها من التجمعات والتأثير فيها أو التأثر بها، تماماً كالقوانين التي طورتها المجتمعات الحديثة، بمعزل عن الأديان، لكي تنسّق العلاقة بين الإنسان والإنسان في كيان سياسي ما، ولكي تنظّم علاقات الكيانات (الدول) بعضها ببعضها الآخر، وكان من ذلك نشوء القوانين المدنية والدولية.

يتحدث الأب سهيل قاشا عن بعض شرائع حمورابي التي لم تتطرق إليها شريعة موسى ويصل إلى الاستنتاج التالي: «وهي غير موجودة في شريعة موسى، وذلك ما يدل على أنّ مستوى حياة المجتمع البابلي، ونظمه الحضارية، كانت أرقى من مستوى المجتمع اليهودي بالرغم من أنّ اليهود، ظهروا بعد زمن حمورابي بأكثر من خمسمائة عام»(279). ويعقد سهيل التغلبي مقارنة بين شريعة موسى وشريعة حمورابي فيقول: «ولو أنّنا قارنا هذا الاعتبار الوارد في الشريعة الموسوية، بما هو وارد في الشريعة البابلية... وما زاده المشرّعون الإسرائيليون في شريعتهم، يتناول الأمور اللاهوتية لأنّ

الفكرة الأساسية، في شريعة حمورابي، بيان حقوق الرعية المدني والعدالة... وأما الأسفار الخمسة، فالناحية اللاهوتية تغلب على محتوياتها، وفي مقدمتها الاضطهاد الديني، حتى أنّ كتاب التشريع لم يخلُ من لقاحها، في حين أنّ الاضطهاد الديني، كان مجهولاً في بلاد بابل، ولذا لم يرد ذكره في شريعة حمورابي حتى ولا في جميع الألواح والكتابات التي اكتشفت»(280).

وأجرى كثير من الدارسين مقارنة بين شريعة حمورابي وشريعة موسى، فتوصلوا جميعاً إلى حقيقة واحدة مفادها أنّ الثانية مأخوذة عن الأولى، اطلع عليها عزرا خلال وجوده في بابل كاطلاعه على الأساطير البابلية القديمة، فنسج على منوالها. ولما قام أتباعه فيما بعد، كما مرّ معنا، بإضفاء الألوهة والقدسية على هذه الأساطير، حافظوا عليها مكتوبة أولاً باللغة الآرامية، ثم قاموا بعد ذلك بقرون، وخلال العصر الهيلنستي، بترجمتها إلى اليونانية، وبعد أن تحولت إحدى اللهجات الكنعانية إلى ما بات يُعرف باللغة العبرية، ترجموا هذا الكتاب الذي اعتبروه كتابهم المقدس، ثم أقدموا على كتابة الشروح عليه التي جمعت في كتاب بات يُعرف بالتلمود. وبعد الفتح العربي تُرجمت التوراة إلى اللغة العربية.

حتى أنّ الطريقة التي جعل بها الكاتب الشريعة تنزل على موسى عبر الإله يَهْوَه، مشابهة لما تم اكتشافه من تسليم الشريعة لحمورابي من الإله شمس، ذكر ذلك الدكتور بشار حيث يقول: «ونتذكر أنّ ملك بابل حمورابي حين أرسله الإله العالي آنو وساعده الأيمن/ الإله الملائكي/ إنليل لنشر العدالة فإنّ القوانين التي وضعها واستمدّ بعضها ممن قبله استلمها من صاحب التخصص بالعدل والحق وهو شمس»، وذلك مثبت بنقش «يُظهر حمورابي واقفاً يأخذ القوانين من شمس الجالس»(281). ويشير جميل خرطبيل إلى هذه النقطة بقوله: «تتألف شريعة حمورابي من 282 مادة وهي منقوشة على قطعة حجر كبيرة في 3600 سطر بالخط المسماري. والشريعة هذه مجموعة من القوانين تنمّ عن تطور الفكر القانوني. وشريعة موسى مقتبسة من شريعة حمورابي بل هناك تطابق كبير بين الشريعتين»(282). ثم يقول: «وقد قام جرجي زيدان بمقارنة نصوص شريعة حمورابي بنصوص من شريعة موسى فوجد أنّه يوجد تشابه بين شريعة موسى وشريعة حمورابي... إذ أتينا بنصوص متقابلة متشابهة في الشريعتين وحمورابي قبل موسى بثمانمائة سنة»(283). أمّا في كتاب (شريعة حمورابي)، فنجد نصاً لحمورابي حول الأسباب التي دعت آنو إلى دفعه لوضع شريعته نقرأ منها: «ناداني آنو وإنليل من أجل الشعب ورخائه باسم حمو - رابي أي الأمير الذي يخاف الله وأمرني أن أقيم العدل في الأرض وأن أقتلع جذور الشر والأشرار حتى لا يضطهد القوي الضعيف وحتى أعلو كشمس»(284). ومرة ثانية يُعيد حمورابي إصدار الأمر إلى مردوخ فيقول: «عندما أمرني مردوخ أن أهيئ العدل لشعب الأرض فيفوز بحكم خيّر، قمت بإحقاق الحق والعدل في أرجاء الأرض وقمت بإسعاد الشعب». وعلى هذا الكلام لنا ثلاث ملاحظات: الأولى أنّ هذا الأمر الإلهي نتجت عنه شريعة مدنية لا إلهية. والثانية أنّ الهدف من هذه الشريعة إحقاق الحق عن طريق العدل وصولاً إلى إسعاد الشعب. والثالثة أنّ هذه الشريعة لا تقتصر على شعب واحد بل هي لشعب الأرض، والأرض هنا تعني مملكة حمورابي، لكنّه كان يعتبر شريعته صالحة لكلّ شعوب الأرض. لهذا نقول بأنّ شريعة حمورابي، وبالرغم من كونها أقدم من شريعة موسى، والجديد يجب أن يكون متطوراً أكثر من القديم، فإنّنا نلمس العكس تماماً، من خلال شمولية الشريعة وغايتها المثلى.

ويلقي الأب سهيل قاشا الضوء على نقطة بغاية الأهمية تتعلق بالشريعتين وهي تطرح تساؤلاً عن سبب وقوعنا بالخطأ الشائع الذي يعتبر الشريعة المنحولة شريعة إلهية والشريعة الأصلية مجرد نص تاريخي، حين يقول: «فأصبح من الواضح أنّ القوانين في التوراة مقتبسة عن شعب بابل الوثني على حد تعبير التوراة، فلماذا نسمي قوانين التوراة «نصاً من الوحي الإلهي؟»، أما قانون حمورابي فيبقى فقط «نصاً تاريخياً» يخلو من أي قيمة تاريخية»(285). ولإلقاء المزيد من الضوء، عبر مقارنة النصوص، حتى لا يبقى الكلام نظرياً، قام الباحث الأب سهيل قاشا بإثبات بعض نصوص الشريعتين لرسم حدٍّ للاقتباس بعيد عن اللبس والإبهام، أنقل بعضها على سبيل المثال لا الحصر. جاء في شريعة حمورابي في المواد 196 و 197 و 200 ما يلي:

«إذا سيد فقأ عين ابن أحد الأشراف، فعليهم أن يفقأوا عينه.

إذا كسر عظم سيد آخر، فعليهم أن يكسروا عظمه.

إذا سيد قلع سنّ سيد من طبقة فعليهم أن يقلعوا سنه.

أما في شريعة موسى فوردت في أكثر من سفر، نقرأ من سفر اللاويين:

«وإذا أحدث إنسان في قريبه عيباً فكما فعل كذلك يفعل به. كسر بكسر وعين بعين وسن بسن» لاويين 24: 19»(286).

ولمن أراد الاستزادة حول موضوع اقتباس شريعة موسى من شريعة حموارابي العودة إلى كتاب «التوراة البابلية»، فلا حاجة بي إلى ذكرها وهي مفصلة في ذاك المؤلّف في الأبواب التالية: عقوبة تهريب الرقيق أو سرقته وبيعه، عقوبة انتهاك حرمة الوالدين، عقوبة الزنى والاغتصاب، عقوبة السرقة والنهب، عقوبة الاتهام الكاذب، عقوبة الشهادة الكاذبة، عقوبة السّحر، الديون وكيفية استيفائها، التعويض عن الأضرار، التزوج بأكثر من امرأة واحدة، شؤون حياتية عامة، الوديعة والدية، استخدام الحيوانات، مبدأ الأشياء في العقود. ومن خلال هذه الأبواب نرى أنّها لا تعالج أموراً لاهوتية روحانية، بل أموراً حياتية دنيوية، لذلك اعتبرت شريعة حمورابي مجموعة من القوانين الوضعية، بالرغم من إعلانه أنّه سنّها بناء لطلب من إلهه شمس أو مردوخ لا فرق، ذلك لأنّ ملوك ذلك الزمان كانوا يدّعون أنّهم تولوا الملك بتكليف من الإله. وعلى هذا القياس كتب عزرا الشريعة ونسبها إلى موسى الذي سلمه إيّاها يَهْوَه، ولكي يميّزها عن شريعة حمورابي أضفى عليها، هو أو من تبعه، صفة الألوهية والقداسة فأضحت من صلب الديانة اليهودية لاحقاً.

كما أثبت فراس السواح أيضاً مختارات من شريعة حمورابي نجد لها ما يماثلها في شريعة موسى، ولفتت نظري إحدى المواد التي تقول: «إذا ولدت زوجة الرجل أولاداً، ثم ولدت له أَمَته أيضاً أولاداً، ثم قال الأب يوماً لأولاد الأَمَة: «يا أولادي»، (بمعنى أنّه اعترف علناً بأبوّته لهم)، اعتبِرهم بذلك كأولاده الذين ولدتهم زوجته، وعند وفاة الأب يتقاسم أولاد الزوجة الأولى وأولاد الأَمَة أملاكه بالتساوي. على أنّ للإبن البكر من الزوجة أفضلية الحصص»(287). فإذا ما قارنا هذه المادة بما فعل إبراهيم وسارة بالجارية هاجر وابنها إسماعيل لوجدنا كم هو الفارق كبير بين شرائع البابليين وبين شريعة العبرانيين الذين يعتبرون إبراهيم جدّهم الذي تحدّروا منه.

أثبتنا أنّ وصيّة (لا تقتل) كانت مقتصرة فقط على الإسرائيليين فيما بينهم، ولم تكن أمراً دينياً شمولياً، ولم تصبح كذلك إلاّ بعد أن فرض اليهود كتابهم على الآخرين بكونه الأساس الإلهي الذي نبعت منه كلّ الديانات، لكنّها بقيت بالرغم من ذلك لا تعني بالنسبة للإسرائيلي عدم قتل الأغيار بل عدم قتل الأقرباء كما نطقت بذلك بقية الوصايا (لا تشتهِ بيت قريبك، لا تشته أمرأة قريبك...). كذلك وصيّتا لا تزنِ ولا تسرقْ حيث، لم يقتصر الأمر على عدم التقيُّد بهما فحسب، بل كان هناك تشجيع من يَهْوَه على سرقة أملاك الآخرين، وكان هناك تفلت أخلاقي من أتباعه الذين ارتكبوا الفواحش ولم يرتدعوا بمن فيهم أشهر ملوكهم. وسنعطي أيضاً بعض الأمثلة ونترك للقارئ مراجعة أسفار التوراة، إنْ هو شعر بالاستفزاز من هذا القليل الذي سنثبته، علّ الكثير الذي سيقع عليه في هذه الأسفار يقدّم له خير دليل على ما أقول.

سألفت نظر القارئ إلى ما فعله داود، الذي، بالإضافة إلى أنّه يعتبر باني مجد إسرائيل القديمة، فهو يعتبر أيضاً أحد الأنبياء ليس لليهود فحسب بل لبقية المؤمنين أيضاً. فها هو يقيم في أورشليم ويخطر بباله أن يصعد إلى سطح بيت الملك ليتمشى وقت المساء «فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه بتشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي» (صموئيل الثاني 11: 3). لقد علم داود أنّ المرأة الجميلة متزوجة من أوريا فلم يأبه بل أرسل «رُسُلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهّرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إنّي حبلى» (صموئيل الثاني 11: 4 – 5).

وهنا نجد أنّ داود لم يتخلّ عن مسؤولياته فتصرف «بأخلاقية الرجل الرجل»، فطلب من يوآب ابن صَرُويَةَ قائد جيشه أن يرسل أوريا إلى جبهة القتال ويجعله «في وجه الحرب الشديدة» وأمرهم بأن يتركوه وحيداً: «وارجعوا من ورائه فيُضرب ويموت» (صموئيل الثاني 11: 15). وكان له ما أراد فأرسل يوآب وأخبر داود بأنّ عبده أوريّا الحثي قد مات، وما أن «مضت المناحة» حتى «أرسل داود وضمّها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً»، ولمّا كان يَهْوَه قد أوصى شعبه بأن لا يزنِ فقد اعتبر أنّ الأمر الذي فعله داود فعل قبيح، وأوكل إلى ناثان النبي أمر تقريع داود، فأتى إليه وقال: «لماذا احتقرت كلام الربّ لتعمل الشرّ في عينيه. قد قتلت أوريّا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة...» (صموئيل الثاني 12: 9). وماذا كان عقابه؟ «... من أجل أنّك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الربّ يشمتون فالإبن المولود لك يموت» (صموئيل 12: 14).

فأيّ عقاب هذا؟ وما ذنب المولود ليؤخذ بجريرة خطأ ارتكبه أبوه؟ لقد فعل داود ذلك لأنّه لم يكن يُقيم للأخلاق وزناً بل كان يستغل سلطته من أجل إرواء غريزته. فعندما أقدم على هذا الصنيع كانت له ست زوجات ما عدا السراري: «وأخذ داود أيضاً سراري ونساءً من أورشليم» (صموئيل الثاني 5: 13). ولمّا شاخ داود وأخذ منه الوهن كلّ مأخذ، بدأ يشعر بالبرد «وكانوا يدثّرونه بالثياب فلم يدفأ. فقال له عبيده ليفتشوا لسيدنا الملك عن فتاة عذراء فلتقف أمام الملك ولتكن له حاضنة ولتضطجع في حضنك فيدفأ سيّدنا الملك» (الملوك الأول 1: 1 – 2). وبالطبع فإنّ الملك الفاسق لم يمانع لأنّ المرأة بالنسبة إليه لم تكن ذات قيمة، بل هي سلعة يمكن استعارتها أو شراؤها أو استعبادها وجعلها أَمَة في قصره.

أمّا أمنون بن داود فإنّه لم يكن أفضل من أبيه، إذ أحبّ أخته من أبيه، فاحتال عليها إذ تمارض وطلب من أبيه داود أن «دع ثامار أختي فتأتي وتضع أمامي كعكتين فآكل من يدها... فذهبت ثامار إلى بيت أمنون... وقال أمنون أخرجوا كل إنسان عني.. فأخذت ثمار الكعك الذي عملته وأتت به أمنون أخاها إلى المخدع. وقدّمت له ليأكل فأمسكها وقال لها تعالي اضطجعي معي يا أختي» (صموئيل الثاني 13: 6 – 11). ولم تنفع معارضة الأخت في البداية لردع الأخ عن ارتكاب هذه الفاحشة، ولا إشارتها إلى عارها وإلى اعتباره من قبل الناس كواحد من السفهاء، «فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكّن منها وقهرها واضطجع معها» (صموئيل الثاني 13: 14).

ولم يكن تصرّف أبشالوم ابن داود بأفضل من تصرّف أخيه أمنون. لقد أضمر الشرّ لأخيه وانتقم منه بقتله بسبب ما فعله بأخته ثامار، ثم نجده يفعل بنساء أبيه ما فعله أخوه بأخته، فأين أصبح شرفه وكرامته؟ «فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل» (صموئيل الثاني 16: 22).

أمّا عن الملك سليمان، النبي الحكيم الذي فاقت حكمته «حكمة جميع بني المشرق وكلّ حكمة مصر»، فإنّ محرّر التوراة يخبرنا في سفر الملوك الأول الإصحاح الثالث بأنّ سليمان صاهر «فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود»، وهذا خبر جيد، ملك يصاهر ملكاً آخر وليس أي ملك بل فرعون بذاته، ولا حاجة به لأن يذكر اسم الفرعون كعادته لأنّه لم يعلم أنّ كتابه سيُعتمد وثيقة تاريخية إلهية وبأنّه انطلاقاً من ذلك سيصبح أيضاً مثاراً للنقد وصولاً إلى النقض. ولم تصل فرحة العروس ابنة فرعون إلى قلبها حتى كان سليمان الحكيم قد «أحبّ نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمّونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الربّ لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنّهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم... وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري» (الملوك الأول 11: 1 – 3).

فأي عاقل يصدّق هذه التفاهات؟ وماذا نسمي ذلك استناداً إلى علم الأخلاق؟ لقد زنى سليمان النبي الحكيم مرتين: الأولى عندما اتخذ لنفسه هذا العدد من النساء كزوجات وإماء، والثانية عندما لم يسمع نصيحة والده الذي قال له وهو على فراش الموت: «احفظ شعائر الربّ إلهك، إذ تسير في طرقه وتحفظ فرائضه ووصاياه وأحكامه وشهاداته كما هو مكتوب في شريعة موسى لكي تفلح في كلّ ما تفعل وحيثما توجهت» (الملوك الأول 2: 2 – 3). كذلك فإنّ التوراة تخبرنا بأنّ إسرائيل القديمة عاشت عصرها الذهبي أيام المملكة الموحدة، أي زمن ملك داود وسليمان، وهذا يعني أن يَهْوَه، الذي لم يتقيّد سليمان بوصاياه، لم يستطع منع سليمان من أن يفلح بكل ما يفعل، أو أنّه جارى سليمان بفعلته لأنّه شجع سابقاً إبراهيم وإسحق بأن يدفعا زوجتيهما إلى الزنى. وإذا اكتفينا بهذه الأمثلة عن الزنى الذي كان الإسرائيليون يرتكبونه غير عابئين بوصية إلههم (لا تزنِ)، فليست لأنّها الوحيدة، بل لكي أترك للقارئ حرية العودة إلى التوراة (كتاب البشرية الخالد) علّني أسمع من أحدٍ عن درسٍ واحدٍ بالأخلاق والفضيلة يمكن أن نتخذه مثالاً لأجيالنا المضلَّلة.

فإنْ تساءلنا حول ما إذا كان فعل الزنى قد اقتصر على ملوك إسرائيل وأبناء الملوك، لأتانا الجواب فوراً من محرّر التوراة إذ يقول: «وأقام إسرائيل في شِطِّيمَ وابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب» (عدد 25: 1). فماذا كان رد فعل يَهْوَه؟ «فحمي غضب الربّ على إسرائيل» (عدد 25: 3). أما لماذا

غضب الربّ؟ هل لفعل الزنى؟ بالطبع لا، بل لأنّ إسرائيل سجد لآلهة موآب، «وتعلق إسرائيل ببعل فغور» (عدد 25: 3). أما عن وصية (لا تقتلْ) فلقد التزم بها فنحاس بن أليعازر بن هرون الكاهن بأن «أخذ رمحاً بيده ودخل وراء الرجل الإسرائيلي إلى القبة وطعن كليهما الرجل الإسرائيلي والمرأة في بطنها» (عدد 25: 7 – 8). حيّاك يَهْوَه يا شهماً بين الرجال، يا حفيد هرون نبي موسى إله يهوه. القتل ليس آخر الدواء بل هو دائماً البداية، فبئس البداية هذه. ووصية (لا تزنِ) مثلها مثل وصيتي (لا تقتلْ ولا تسرقْ)، محصورة أيضاً ببني إسرائيل، الذين لم يتقيدوا بها أصلاً لا فيما بينهم ولا مع الأغيار، علماً بأنّ يَهْوَه قد حلّل لهم الزنى مع الأغيار.

نقرأ لإسرائيل شاحاك ما يلي: «وبموجب الموسوعة التلمودية إنّ من يملك معرفة جنسية بزوجة أحد الأغيار لا يتعرض لعقوبة الإعدام، لأنّه كُتب «زوجة قرينك» ولم يكتب زوجة الغريب... والنساء الأغيار كافة يُعتبرن بغايا»(288). لهذا لا يمكن اعتبار، ممارسة الجنس، بالرضى أو الاغتصاب، مع أيّة امرأة من الأغيار فعل زنى، لأنّ جميع نساء الأغيار بغايا، وممارسة الجنس مع بغي لا يعد زنى. إنّها فذلكة أخلاقية يجب اعتمادها لتوجيه الناشئة، بل هم بالفعل يُنشّؤون عليها قسراً، فإلى متى أخي المؤمن ستبقى غافلاً عن هذا الفكر الوثني المشوِّه للمناقب والأخلاق؟ لقد لفت الكاتب جود أبو صوان إلى ما يتلوه الكاهن المسيحي عند قيامه بمراسم الزواج إذ يقول للعروس: «عظّمك الله مثل سارة أيتها العروس وأبهجك مثل رفقة» ويتساءل إذا كان الكهنة قد قرأوا قصة هاتين المرأتين في التوراة واللتين تمثلان الزنى (ساره)، والعنصرية التي تفرّق وحدة العائلة (رفقة)، ويقول الكاتب للعريس: «وأنت أيها العريس أترضى أن تكون مثل إبراهيم، قوَّادا يدفع امرأته إلى الرذيلة طلباً للحياة؟»(289).

يبقى أن نتطرق إلى وصية (لا تسرقْ) حيث أحيل القارئ مباشرة إلى ما قاله الإله يَهْوَه لبني إسرائيل قبل خروجهم من مصر بأن قال لموسى: «وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين. فيكون حينما تمضون أنّكم لا تمضون فارغين. بل تطلب كلّ امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضةٍ وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم. فتسلبون المصريين» (خروج 3: 21). هو الإله بنفسه يعلّم شعبه السرقة فكيف يأمره بأن (لا تسرقْ)؟ وأيّة صدقية تبقى لهذا الإله بعين أتباعه فضلاً عن أتباع الديانات الأخرى؟ وها هو يؤكد مرة ثانية على «فضيلة» السرقة، فيعطي نعمة للشعب، كما وعد، في عيون المصريين «حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين» (خروج 12: 26).

وأعود لأؤكد الحقيقة الناصعة غير القابلة للشك أو الجدل وهي أنّ هذه الوصايا كانت لكي يتعامل بها بنو إسرائيل فيما بينهم، دون أن يقيموا وزناً لبقية الناس الذين اعتبروهم حيوانات يجب تسخيرها لمصلحتهم. هي وصية إلههم العنصري، أو قل وصية من اخترع هذا الإله واخترع له هذا الشعب، الوصية التي حافظوا عليها فسلبوا الآمنين ليس ملابسهم وفضّتهم وذهبهم فحسب بل أرضهم ونفوسهم أيضاً. ولعلّه أيضاً من المفيد أن نعطي بعض الأمثلة من التوراة ذاتها حيث كان الإله يَهْوَه يأمرهم بالسلب والنهب، وكانوا يلتزمون: «وأخذوا كلّ الغنيمة وكلّ النهب من الناس والبهائم وأتوا إلى موسى وألعازار الكاهن وإلى جماعة بني إسرائيل بالسبي والنهب والغنيمة» (عدد 30: 11 – 12). «ومتى أتى بك الربّ إلهك إلى الأرض التي حلف لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيك. إلى مدن عظيمة جيدة لم تبنها وبيوت مملوءة كلّ خير لم تملأْها وآبار محفورة لم تحفرها وكروم

وزيتون لم تغرسها... واعمل الصالح والحسن في عيني الربّ» (تثنية 6: 10 – 11 و 18). إذن العمل الصالح في عيني يَهْوَه هو سرقة أملاك الآخرين، الأرض وما عليها، ووصيته الأخرى إبادة كلّ نفس من البشر والحيوانات، كلّ ذلك كرمى لعيني شعبه الخاص.

فإلى هذا الإله أقول: كُنْ كيفما شئت، إرهابياً، سادياً، مجرماً، سارقاً، وعلّم شعبك ما شئت من فنون الإرهاب المنظّم، فأنت لست إلهنا، وإيّاك لن نعبد حتى لو اضطررنا إلى الكفر. إليك عنّا، كفاك شعبك الأمين على وصاياك الخاصة. «وكلّ الفضة والذهب وآنية النحاس تكون قدساً للرب وتدخل في خزانة الرب». (يشوع 6: 16). وما شأن الربّ بالفضة والذهب والنحاس؟ أهي للربّ أم للكهنة وتجار الهيكل؟ «فقال الربّ ليشوع لا تخف ولا ترتعب... غير أنّ غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم» (يشوع 8: 1 -2).

فإذا قال قائل إنّها شريعة الحرب في كلّ زمان ومكان، المنتصر ينهب كلّ ما تصل إليه يده من أملاك المهزوم، وما ذلك بالشيء الجديد تلفت نظرنا إليه، لقلت هذا صحيح إن كان من فعل البشر، أمّا أن يكون ذلك بأمر من الإله فإنّني لا أعتقد أنّ ذلك مثبت في كتب أيّة ديانة أخرى. خطورة هذه الأفعال أنّها أتت بناء على وصية وأمر من الإله، وإنّي وإن كنت مقتنعاً أنّ كلّ هذه الأحداث هي أساطير وأضغاث أحلام، فلا يمكنني إلاّ أن أشير إلى مفاعيلها السلبية في أيامنا هذه. فمنها انطلق الصهاينة لتنفيذ أكبر عمل إرهابي عرفه التاريخ، ومنها ما زالوا يغرفون الحقد والإجرام. هي الوصايا نفسها لا تزال تشكّل لهم المبادئ الأساس لإرهابهم الذي لم يسلم منه أحد وعلى أكثر من صعيد.

تكمن الخطورة عندما يعتبر المؤمنون، ولغاية اليوم، أنّ كلّ ما جاء في هذا الكتاب هو كلام الله المقدّس، وبناءً عليه يجب التسليم بحق اليهود في فلسطين لأنّهم منذ ثلاثة آلاف سنة مرّوا على هذه الأرض مرور غيرهم من الغُزاة، فلماذا لم يطالب غيرهم باستعادتها؟ هم طالبوا بها انطلاقاً مما جاء في كتابهم من وعد إلهي لإبراهيم، الذي اعتبروه جدّهم الأول، ومن ثم كرر إلههم الخاص هذا الوعد ليعقوب وإسحق وموسى. إنّ إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي قامت بموجب وعد إلهي خاص، وألزمت دول العالم الاعتراف بها انطلاقاً من هذا الوعد المقدس.

يقول روجيه غارودي: «ما ننبذه هو القراءة الصهيونية القبلية القومية لهذه النصوص، حين تقلّص الفكرة العملاقة «للميثاق» بين الله والإنسان، وجميع الناس، ولحضوره في الجميع، وحين نستخلص منها فكرة هي أكثر أفكار التاريخ الإنساني شرًّا: فكرة «الشعب المختار» من إله متحزّب ومتحيّز (فهو إذن وثن) مبرّر سلفاً جميع أنواع السيطرة والاستعمار والمذابح، وكأن ليس في التاريخ من «تاريخ مقدس» سوى تاريخ العبرانيين». إنّ برهنتي التي لم آتِ بأيّ من حلقاتها دون أن أعيّن مصدرها، لا تنتج عنها البتة فكرة تدمير إسرائيل، بل مجرّد نزع القداسة عنها: فهذه الأرض، كأي أرض أخرى، لم تكن أرضاً موعودة قط، بل أرضاً محتلةً، مثل أرض فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة، تبعاً لعلاقات القوة التاريخية في كلّ قرن»(290).

وسبق لنا أن أثبتنا رأي اسبينوزا بالقداسة التي اعتبر أنّه لا وجود لها خارج الفكر، لأنّ القداسة تسقط عن النصوص، إن لم تدفع هذه النصوص الإنسان إلى التقوى، وهي لم تفعل حتى الساعة. فعبثاً نتكلّم عن قداسة الكتب والأرض والمدن، لأنّ الأرض وما عليها من صنع خالق واحد فلا يمكن أن يميّز

بين أجزائها، ولأنّ ما أوجده الإنسان عليها، من مدن أو معالم حضارية بما فيها فكره الذي سطره قديماً على ألواح وحديثاً في الكتب ومؤخراً عبر الشبكات العنكبوتية، ليس فيه شيء من القداسة، بل هو تجسيد لإبداعاته بكلّ تجلياتها الجمالية.

وحول هذا الموضوع يقول جود أبو صوان: «أين القداسة في كلّ ما جاء في التوراة؟ أين مثالية التعليم التي أوردتها؟ أين المثل؟ أين المفاهيم؟ أيوجد في التوراة المتداولة بجميع طبعاتها غير قصص العهر والزنى والفجور والبغض والحقد والكراهية؟ أيوجد فيها غير السرقة والغزو والاحتيال والقتل وقهر الشعوب وطردها وتشريدها؟... ما هي معايير الألوهة التي اعتمدوها في تقييم الربّ التوراتي وهم المؤمنون بإله واحد ضابط الكل؟»(291).

ولكي ننهي هذا الفصل انطلاقاً من العنوان الذي وضعناه له، يجب أن نلقي الضوء على يشوع وحروبه الوهمية، بعد أن بيّنا أسطورية الخروج وحتى الإقامة في مصر التي لم يثبتها أيّ دليل. ويشوع كما مرّ معنا هو القائد العسكري الذي أسند إليه موسى مهمة محاربة العماليق بعد الخروج من مصر. يَهْوَه الذي اصطفى موسى لإخراج بني إسرائيل من مصر، وأكد له أكثر من مرة أنّه سيسير أمامه ويحارب أعداءه ويطردهم من أرض كنعان التي حلف لآبائه أن يعطيها لذريتهم، غضب عليه وقال له: «فإنّك تنظر الأرض من قبالتها ولكنّك لا تدخل هناك إلى الأرض التي أنا أعطيها لبني إسرائيل» (تثنية 32: 52). أمّا لماذا هذا الغضب؟ فلأنّ يَهْوَه اعتبر موسى وأخاه هرون مسؤولين عن بني إسرائيل الذين لم يقدسوا إلههم يَهْوَه «عند ماء مريبة قادش في بريّة صين»، وفعلهما هذا اعتبره يَهْوَه خيانة منهما بحقه، فحرمه من العودة إلى «أرض أجداده»، كي يدفن هناك مثل إبراهيم ويعقوب ويوسف، «فمات هناك موسى عبد الربّ في أرض موآب حسب قول الربّ. ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم» (تثنية 34: 6).

لقد حدّد كاتب التوراة سابقاً مكان دفن سارة وإبراهيم ويعقوب، والذين بالطبع لم يتم العثور على أيّ أثر لهذه الأمكنة، أمّا موسى الشخصية الأهم في تاريخ هذه الجماعة، فقد أهمله يَهْوَه في آخر حياته وجعله يموت ميتة بسيطة. يقول جود أبو صوان: «جاء أنّ موسى قد دُفِن مقابل بيت فغور وفي قبر لم يعرف مكانه حتى اليوم. فكيف يذكر الكاتب اسم هيكل الإله فغور كمكان محدد لموضع قبر موسى؟ فإن كان الهيكل مشهوراً، فمن البديهي أن يكون قبر موسى أكثر شهرة، فلماذا لم تحاول إسرائيل حتى اليوم الاهتداء إليه؟ والجواب بسيط وهو أنّهم يعلمون حق العلم أنّه لا وجود لموسى ولا لتابوت عهده، وما التنقيبات الأثرية التي قاموا ويقومون بها، والتي لم ترفدهم بشيء لغاية الآن، إلاّ خير دليل على أنّ تاريخهم أسطورة، قاموا بتقديسه وتلفيق بعض النظريات العنصرية حول عرقهم النقي، وعرفوا كيفية استغلال الحكومات الضعيفة لكي يفرضوا عليها دعمهم لسرقة أملاك الآخرين»(292).

وبعد موت موسى مباشرة نجد أنّ يَهْوَه قد وجد بيشوع وسيلته الجديدة لإكمال مخططه القاضي بإسكان بني إسرائيل في أرض كنعان «الموعودة»، ولم يجد حرجاً بأن يكلّم يشوع هذا كما درج أن يكلّم من سبقه، فقال له: «موسى عبدي قد مات، فالآن قُمْ اعبر هذا الأردن أنت وكلّ هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل. كلّ موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى. من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثيين وإلى البحر

الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم» (يشوع 1: 1 – 4). أمّا إنجاز يشوع الأول فقد كان إسقاط أريحا. أمّا كيف تم له ذلك؟ فبأبسط الوسائل التي يسفّهها العقل السليم.

أريحا كانت مدينة محصّنة «مغلّقة مقفلة»، ولكن لا شيء يستعصي على يهوه، فها هو يرسل رئيس جند الربّ إلى يشوع ويقول له: «انظر قد دفعت بيدك أريحا وملكها جبابرة البأس» (يشوع 6: 2)، ويطلب منهم أن يدوروا حول المدينة مرة واحدة ولمدة ستة أيام «وسبعة كهنة يحملون أبواق الهتاف السبعة أمام التابوت. وفي اليوم السابع تدورون دائرة المدينة سبع مرات والكهنة يضربون بالأبواق. ويكون عند امتداد صوت قرن الهتاف عند استماعكم صوت البوق أنّ جميع الشعب يهتف هتافاً عظيماً فيسقط سور المدينة في مكانه ويصعد الشعب كلّ رجل مع وجهه» (يشوع 6: 4 – 5). «فهتف الشعب وضربوا بالأبواق. وكان حين سمع الشعب صوت البوق أنّ الشعب هتف هتافاً عظيماً فسقط السور في مكانه وصعد الشعب إلى المدينة كلّ رجل مع وجهه وأخذوا المدينة. وحرّموا كلّ ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف. وأحرقوا المدينة بالنار مع كلّ ما بها. إنّما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الربّ» (يشوع 6: 20 – 21 و 24). إنّه درس لعلماء اليوم علّهم يتّبعونه في حروبهم ويوفّرون مليارات الدولارات التي يصرفونها على أسلحة الدمار الشامل. وفي هذا الصدد يعتبر الكاتب جود أبو صوان أنّ هذا الأمر ممكن استناداً إلى علم الفيزياء الذي يشير إلى أنّ «استجماع اهتزازات الأصوات المحدثة في اهتزازة واحدة تسبب في إحداث دوي هائل أسقط الأسوار». هذه إمكانية لو كان الدخول إلى أرض كنعان ومحاصرة أريحا قد حصل حقيقة. فماذا يقول الأركيولوجيون والدارسون حول هذه الواقعة؟

يقول الدكتور رفيق الحسيني ما يلي: «لا أريد الخوض كثيراً في صحة ما جاء في التوراة أو عدمه، فتلك مسألة معتقدات روحانية أكثر من كونها حقائق واقعية. ولكن الكثيرين من علماء الآثار والتاريخ ينفون واقعة احتلال أريحا (يريخو) على يد يهوشع وقومه وتدميرها في تلك الحقبة من الزمن. ومع أنّ المدينة تم احتلالها وتدميرها عدة مرات في التاريخ، إلا أنّ جميع هذه التواريخ تتناقض مع تاريخ احتلال يهوشع لها وتدميرها حسب ما جاء في التوراة»(293). ولقد تصدى الأب مايكل برير إلى عدد من الدارسين والآثاريين الذين حاولوا مطابقة المكتشفات الأثرية مع المرويات التوراتية ومنهم ألبرايت وبرايت ورايت وأهاروني وملامات ويادين، فرأى أنّ «سوق الحجج المختلفة لتقرير أنّ الرواية الواردة في سفر يشوع ليست سجلاً لما حدث فعلاً، ومحاولة جعل القصة تنسجم مع التاريخ الحقيقي للأصول ستكون بلا طائل. إنّ إعادة البناء عند ألبرايت افتقرت إلى دليل آثاري مقنع من حقبة العصر البرونزي الأخير. فالحقيقة القائلة: إنّ أريحا وعاي وجبعون وحشبون في شرق الأردن لم توجد كمدن ذوات أسوار في القرن الثالث عشر قبل الميلاد (تاريخ مهاجمتها المزعوم من قِبَل يشوع)، يجعل من الاحتلال نموذجاً غير مقبول»(294) ويضيف برير قائلاً: «استأنفت كنْين (كاتلين) حفريات أريحا في عام 1952 وتحققت من أنّ تلة تل سلطان كانت بحالة كاملة من الهجر طوال كلّ الحقب التاريخية للرواية الكتابية عن الاحتلال من (1500) تقريباً إلى (860 ق.م.)"(295). يكفينا هذا التأكيد من عالمة آثار مشهود لها بالموضوعية لكي نقول معها بأنّ قصة الخروج والدخول مُختلقة من قِبَل الكاتب عزرا، الذي أراد منها، كما سبق وأشرنا في أكثر من موضع، إعطاء شأن مهم لجماعته الذين حققوا انتصارات باهرة على شعوب قوية. فهل اكتفى يشوع

بما فعله بأريحا، أو فلنقل هل اكتفى يَهْوَه أم ظل يدفع بيشوع للقيام بالمزيد من التدمير والقتل والإرهاب؟

«فقال الربّ ليشوع لا تخفْ ولا ترتعبْ... قُمْ اصعد إلى عاي... قد دفعت بيدك ملك عاي وشعبه ومدينته وأرضه. فتفعل بعاي وملكها كما فعلت بأريحا وملكها. غير أنّ غنيمتها وبهائمها تنهبونها لأنفسكم» يشوع (8: 1 -2).

«ويكون عند أخذكم المدينة أنّكم تُضرمون المدينة بالنار. كقول الربّ تفعلون» (يشوع 8: 8).

«وضربوهم حتى لم يبقَ منهم شارد ولا منفلت... جميع إسرائيل رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف» (يشوع 8: 22 – 24).

وإذا ما قرأنا الإصحاح العاشر من سفر يشوع لوجدنا هذا «الربّ» يمطر حجارة عظيمة من السماء «إلى عزيقة فماتوا. والذين ماتوا بحجارة البرد هم أكثر من الذين قتلهم بنو إسرائيل بالسيف» (يشوع 10: 11).

ثم يُكمل إنجازاته الإلهية فإذا به يأمر قادة رجال الحرب، بعد أن أمسكوا ملوك أورشليم وحبرون ويرموت ولخيش وعجلون، أن يضعوا أرجلهم على أعناق هؤلاء الملوك، ثم يضرب مقيدة بحد السيف «وحرّم ملكها هو وكلّ نفس بها، لم يبق شارداً، وبعدها لبنة، ثم لخيش فجازر وعجلون وحبرون ودبير «فضرب يشوع كلّ أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكلّ ملوكها. لم يبقِ شارداً بل حرّم كلّ نسمة كما أمر الربّ إله إسرائيل» (يشوع 10: 40). هذه الهمجية اليشوعية الإلهية لم يقم عليها أيّ إثبات، أمّا همجيتهم الحديثة فلا تريد إثباتاً لأنّ العالم يعيشها يوماً بيوم عبر وسائل الإعلام الموضوعي منها، وهو قليل، والمأجور الذي يحاول قلب الحقائق وتصوير المجرم الإرهابي بأنّه الضحية.

ويتابع يشوع فإذا به يفعل بحاصور ما فعله ببقية مدن فلسطين – كنعان، ثم يعدد المحرّر في الإصحاح الثاني عشر أسماء الملوك الذين ضربهم يشوع وأفنى شعوبهم وأعطى أرضهم لأسباط إسرائيل فإذا عددهم واحد وثلاثون ملكاً، قضى عليهم قضاءً نهائياً لم يبقِ نسمة، فكيف عاد هؤلاء الفلسطينيون وتكاثروا حتى إذا ما حمي غضب الربّ على إسرائيل «باعهم بيد الفلسطينيين وبيد بني عمّون» (قضاة 10: 7). وكيف عاد هؤلاء أيام شمشون (الأسطورة) «في ذلك الوقت كان الفلسطينيون متسلطين على إسرائيل» (قضاة 14: 4). وكيف وهم على هذا الضعف وسيطرة الفلسطينيين عليهم يتوجهون إلى «لايش إلى شعب مستريح مطمئن وضربوهم بحدّ السيف وأحرقوا المدينة بالنار»؟ (قضاة 18: 27). وإذا كان يشوع قد «ضرب كلّ أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكلّ ملوكها» ألا نفهم من ذلك أنّه قد سيطر على كلّ الأرض التابعة لهؤلاء الملوك وأنّها بفنائهم قد أصبحت خالية إلاّ من الإسرائيليين، فكيف يقول الكاتب إنّه بعد موت يشوع «حارب بنو يهوذا أورشليم (التي قضى عليها يشوع) وأخذوها وضربوها بحدّ السيف وأشعلوا المدينة بالنار (للمرة الثانية)، وبعد ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين سكان الجبل والجنوب والسهل» القضاة (1: 8 – 9) ألا يدفعنا هذا التناقض إلى التساؤل عن مدى صدقية هذه الحروب المزعومة، وإلى استنطاق الدارسين لكي نرى رأيهم المستطر في بطون كتبهم؟

نبدأ مما كتب شلومو ساند، أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة تل أبيب: «ولحسن الحظ فإنّ ميثة الاستيطان الدموية هذه، والتي وُضعت بحيوية صارخة في سفر يهوشع كواحدة من عمليات الإبادة الجماعية الأولى في التاريخ، لا أساس لها من الصحة. وهكذا فإنّ احتلال أرض كنعان المعروف كان الميثة التالية التي هُزمت تماماً بواسطة معارك علم الآثار الحديث»(296). ثم كتب يقول: «بدأت تظهر في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي أصوات تشكك في رواية احتلال كنعان، منها على سبيل المثال أصوات لباحثين ألمان في مجال التناخ (التوراة) مثل ألبرخت ألت، ومارتن نوت»(297). ونستمر مع الدارسين الغربيين فنقرأ لتوماس طومسون ما يلي: «المسألة الثالثة التي يثيرها ألبرايت في مجال إعادة كتابة الأصول التاريخية لإسرائيل تقوم على أساس اعتبار فتح يشوع حملة عسكرية قام بها بدو إسرائيليون. هذه النظرية قامت على أساس الافتراض بأنّ تدمير ثقافة الدول المدينية في العصر البرونزي المتأخر وإنشاء ثقافة العصر الحديدي قد نتج عن التدخلات الحربية للقبائل البدوية. ولهذا تصبح تاريخية بعض القصص كتلك التي عن أريحا مؤيدة للحجة بدل أن تكون مستندها الأساسي. وأعني بهذا أنّ فرضية ألبرايت المتعلقة بالفتح لم تثبت أو تدحض على أساس تاريخانية أي قصة محددة من قصص يشوع»(298).

أما الباحث كيث وايتلام فقد اعتبر أنّ هذا الحراك العسكري كان داخلياً ولم يكن نتيجة أي هجوم من خارج فلسطين. يقول: «على أنّ الثقافة (الحضارة) المادية للتوطنات الجديدة في مرتفعات فلسطين وسهولها في العصر الحديدي كانت داخلية ومحلية بالنسبة إلى فلسطين، ولم تكن نتيجة غزو خارجي»(299). ويستطرد منتقداً نظرية ألت حول أصول الإسرائيليين فيقول: «وقد كشف النقد المستمر لفرضيات ألت، حول الأصول الإسرائيلية وإعادة صياغتها أكثر من مرة إلى أي مدى هو ماضٍ مُتخيَّل ومُخترَع ومُلفَّق»(300). ويتابع تأكيداته مستنتجاً من خلال دراسته للمواد التاريخية التي بين يديه فيقول: «وبمعنى آخر لم يكن هناك غزو مهم من الناحية العددية لفلسطين في بداية نظام الأسباط الإثني عشر في إسرائيل. ولم يكن هناك طرد كبير للسكان»(301). ويتطرق توماس طومسون إلى هذا الموضوع ليس من الباب التاريخي بل اللاهوتي، فيقول: «حاول البحث النقدي أن يكشف الوقائع التاريخية المخفية في الأسطورة المكتوبة. فعلى سبيل المثال، يُعرّف موسى بوصفه محرًّرا لشعبه، لكن قصص سفر الخروج استمدت من الحكاية الخرافية والتراثات الشفوية والقصص الخرافية الأخرى لإعطاء التاريخ أوراق اعتماد إلهية مؤثرة»(302).

هذه أمثلة من أبحاث المفكرين الغربيين الذين تمرّدوا على الإرهاب اليهودي. أمّا الباحثون العرب فقد تأخروا كثيراً قبل أن يدلوا بدلوهم في هذا المجال. فكلّ المؤرخين القدماء انطلقوا مما جاء في التوراة واعتبروا هذا الكتاب المصدر التاريخي الأوحد الذي يخبرنا عن أحداث الأيام الغابرة، ولم يتجرأ إلاّ نفر قليل منهم على إعمال العقل بهذه الأساطير، خاصة لأنّ القرآن الكريم قد أتى على ذكرها. فقد أورد الدكتور أسعد رزّوق رد العالم العربي ابن حزم الأندلسي (994 – 1064) في رسالة على يوسف ابن النفريلة اليهودي، مفصلاً بعض أقوالهم الغريبة معطياً بعض الأمثال اخترنا منها ما يلي: «ومن تكاذيبهم قولهم في الكتاب الذي يسمّونه (التوراة): أن الله تعالى قال لهم: سترثون الأرض المقدسة وتسكنونها في الأبد. ونحن نقول: معاذ الله أن يقول الله تعالى الكذب، وقد ظهر كذب هذا الوعد»(303).

أمّا في أواخر القرن العشرين ومطلع الألفية الثالثة فقد كثر التأليف حول هذا التاريخ الملفق، ووضعت هذه الأساطير تحت مجهر العقل، ولم يعد من مجال لتجاهل الحقائق التاريخية التي بدأت تتكشّف بفعل الحفريات التي قام بها الأركيولوجيون الذين حاولوا بداية، كما مرّ معنا، مطابقة هذه المكتشفات مع مرويات التوراة، إلى أن وصلوا إلى طريق مسدود، وقام من يقف في وجه محاولاتهم الهادفة إلى تزوير الحقائق لطمس التاريخ الفلسطيني تمهيداً للسيطرة على فلسطين من جديد. ينقل فراس السواح عن الأركيولوجي الهولندي فرانكن H. Franken مقطعاً من مساهمته في موسوعة كامبريدج للتاريخ القديم قوله: «إذا وضعنا النص التوراتي جانباً، فإنّ علم الآثار لم يتوفر لديه سبب واحد يدفعه إلى القول بوصول شعب جديد إلى فلسطين، تحوّل إلى أمة مع نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد» ص 85. ففي هذا القول نسف حتمي لكل تاريخ إسرائيل القديمة بما فيه تاريخ المملكة الموحدة التي استمرت حسب الأسطورة التوراتية من سنة 1010 ق.م.، مع استلام داود للملك، وانتهت عام 930 ق.م. مع انتهاء حكم سليمان. ونقلاً عن الآثاري جوزف كالاوي كتب في الصفحة 122: «إنّ الشواهد الأركيولوجية غير مقنعة وتتعارض في معظمها مع الرواية التوراتية، إلى درجة لا يستطيع معها أنصار نظرية الفتح العسكري إقناعنا بها إلاّ بواسطة الإيمان الأعمى».

ومن خلال إطلاعه على أبحاث أهم الدارسين للتراث الكتابي يتوصل فراس السواح إلى نتيجة مهمة فيقول: «ومن المرجّح أنّ الدخول قد تم بشكل بطيء وسلمي معظم الأحوال، وعلى فترات طويلة ومتباعدة سمحت للقادمين بالاختلاط مع المقيمين في الأرض واستيعاب ثقافتهم، وأنّ هؤلاء القادمين لم يدخلوا بأعداد كبيرة من شأنها تغيير الطبيعة السكانية للمنطقة والطغيان على الغالبية الكنعانية الموجودة هناك منذ بدايات التاريخ المكتوب. ومن المؤكد أنّ السيطرة القصيرة للإسرائيليين في مملكتي يهوذا والسامرة، لم تكن إلاّ سيطرة سياسية لا تعكس بالضرورة تفوقاً عددياً»(304). أما يوسف أيوب حداد فقد تطرق إلى هذا الموضوع قائلاً: «إنّ المرجع الوحيد لكلّ أعمال يشوع محصورة بالتوراة. بيد أنّ انتصاراته الساحقة وتدميره لعديد من الممالك والمدن لم تقم عليه أيّة بيّنة آثارية أو تاريخية، بل على العكس من ذلك، بدليل أنّ الأركيولوجية الحديثة في فلسطين قد أثبتت بطلان الرواية التوراتية»(305).

هذا غيض من فيض أوردناه علّ القارئ المؤمن يُعطي لنفسه فسحة عقلية ليعيد قراءة التوراة بعين المؤمن الواعي الذي لا يحرجه التحليل المنطقي لعقلانية الأحداث المروية أو خرافيتها، ولا أجد أفضل من كلام روجيه غارودي، لإثبات اقتفاء القادة الإسرائيليين الجدد لأثر القادة الأسطوريين، حيث يقول: «أولم تكن طريق يوشع نفس الطريق التي كان يعرّفها يورام بن بوراث، في الجريدة الإسرائيلية الكبيرة يديعوت آحرونوت، يوم 14 – 7 – 1972: (إنّه لا صهيونية، ولا استعمار لأيّة دولة يهودية، من دون إبعاد العرب، وحرمانهم أراضيهم)(306)». هذا هو خطر هذه الوصايا، وهذه الشريعة التي جعلت أتباعها يتحجرون في حنايا العصر الحديدي، فيستيقظون أواخر القرن التاسع عشر على أنّهم (أبناء يَهْوَه - شعبه الخاص)، وأنّه من واجبهم الإلهي المقدس تنفيذ وصية هذا الإله (ربّ الجنود)، فيشنون حرب إبادة مقتدين بيشوعهم وملتزمين وصايا إلههم.

ولكي ننهي هذا الفصل، الذي لم نستطع فيه أن نتتبع كلّ كلمة نطق بها الإله يَهْوَه والتي لا تحمل معها إلاّ دروساً بالإرهاب، نعود لنؤكد على أسطورية هذه القصص من جهة، وعلى خطورة اعتمادها

حقائق إلهية من جهة أخرى، لأنّ العالم كله لمس نتائج هذه القناعة. ولا بدّ لنا من أن نشير إلى مفهوم الأسطورة لكي نفصل بين النقل التاريخي الدقيق للأحداث وبين السرد الأسطوري الذي لا يرتجى منه إلاّ ترك أثر أدبي يدلّ على مدى التطور الفكري لجماعة بشرية معينة. ولقد أثبت جميل خرطبيل بعض تعريفات الأسطورة ننقل منها ما يلي: «جاء في تعريف الأسطورة في الموسوعة العربية الميسّرة ص 148 (أسطورة): «تشرح الأسطورة بمنطق العقل البدائي ظواهر الكون والطبيعة والعادات الاجتماعية». – والمعجم الأدبي: د. جبور عبد النور، ص 19: «ما الأسطورة إلاّ قصة خرافية صاغها الإنسان الأول حسبما أوحاه له خياله الضعيف»، «الأسطورة تفسير علاقة الإنسان بالكائنات، وهذا التفسير هو آراء الإنسان فيما يشاهد حوله في حالة البداوة»(307). أمّا فراس السواح فإنّه يعرّف الأسطورة كما يلي: «إنّها قصة رمزية يلعب الآلهة الأدوار الرئيسية فيها، وتتميّز موضوعاتها بالجدية والشمولية، وذلك مثل الخلق والتكوين، والموت والعالم الآخر، ومعنى الحياة وسرّ الوجود، وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظام الديني للجماعة(308)...». هذا الارتباط الديني الذي رافق التطور الفكري لحياة الجماعات كان ارتباطاً شمولياً مع حضارات السومريين والبابليين والكنعانيين والآراميين، وغدا ارتباطاً عنصرياً متقوقعاً مع ما حاول اليهود اعتباره حضارة خالدة خاصة بهم.

لقد لعبت الأسطورة إذن دوراً مهماً في حياة الشعوب، لكنّها لعبت دوراً خطيراً لدى اليهود الصهاينة لأنّهم انطلقوا من هذه الأسطورة - الخرافة باعتبارها حقائق تاريخية إلهية، وبنوا عليها كلّ نظرياتهم القومية العرقية وصولاً إلى قيام دولتهم مستغلين وعد إلههم وأساليبه ووصاياه الإرهابية للقضاء على «أعدائهم». وعلى الرغم من أنّ التطور العلمي قد وضع الأسطورة في إطارها الصحيح، حيث «أدى تبلور المناهج العلمية مع مطلع العصور الحديثة إلى الازدراء الكامل للأسطورة وإنزالها إلى مرتبة الحكاية المسلية، لما تحتويه من عناصر غيبية تتنافى والتفكير العلمي السليم»(309)، فما زلنا نجد بعض الباحثين المدفوعين من الصهيونية العالمية يصرّون على اعتبار أساطير التوراة حقائق لا يرقى إليها الشك، وهذا ما دفع قادة إسرائيل الحديثة إلى إطلاق تصريحات تتوافق مع ما جاء في التوراة. وفي هذا الصدد يورد روجيه غارودي ما يلي: «فها هي غولدا مائير تصرّح لجريدة Le Monde الفرنسية قائلة: «إنّ هذا البلد موجود، كإتمام أو إنجاز لوعد وعده الله نفسه. ومن المضحك أن نطلب منه حسابات وشروحاً لشرعية هذا الوعد» في 15 – 10 1971. مناحيم بيغن يصرّح لجريدة دافار في أوسلو بما يلي: «إنّ هذه الأرض، وُعدنا بها، ولنا الحق فيها» 12 – 12 – 1978. ولم يكن موشي دايان أقل تشدداً إذ صرّح لجريدة الجيروزاليم بوست قائلاً: «إذا كنا نملك التوراة، وكنا نعتبر أنفسنا كشعب التوراة، فإنّه يجب أيضاً أن نملك الأرض التوراتية، أرض القضاة والشيوخ، والقدس، والجليل وأريحا وأمكنة أخرى أيضاً» 10 – 8 – 1967 (310). فهل من متبصّر بما يجري في أيامنا هذه وعلاقته بهذه «الأساطير الإلهية المقدسة»؟

نحن نعلم مدى صعوبة تخلي الإنسان عن قناعاته خاصة متى كانت نتيجة تراث ثقافي ديني عمره عصور، وخير من وصف هذا الواقع هو شبلي الشميّل الذي نقل عنه أسعد زيدان قوله: «إنّ إزالة ما علق في أذهان الناس من الخرافات والأساطير، لا بدّ وأن تحول دونها المصاعب، وربما أدّت إلى إهراق الدماء. هذا لأنّ الأوهام الراسخة في العقول بواسطة النقل مدة قرون تكون كالحقائق الراهنة، لا تحتمل تأويلاً ولا تدع لمجال الجدل سبيلاً»(311). ولكن إذا كانت هذه المهمة صعبة فإنّها ليست

مستحيلة خاصة متى تضافرت جهود المؤمنين الحقيقيين لفضح ما أتت به التوراة ووضعه في الخانة الحقيقية التي يستحق، وهي الخانة الأدبية. كلّ ما نحتاجه شيء من الشجاعة لقول الحقيقة متّبعين أرسطو بقوله: «ليست الشجاعة أن تقول كلّ ما تعتقد بل الشجاعة أن تعتقد بكلّ ما تقول».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث

المملكة القديمة والدولة الحديثة وما بينهما

قصة الأسباط الإثني عشر من بني إسرائيل لم تعد اليوم سوى رواية لاهوتية لا تحمل أيّة مصداقية تاريخية.

فراس السواح

الوجه الآخر للمسيح

إن الثيمة المركزية للمملكة الموحدة والعصر الذهبي، التي تشكّل بنية طبعتي قصة داود وسليمان، بناء الهيكل: بيتاً لأجل يهوه، تعتمد اعتماداً شديداً على أسطورة بعل السورية القديمة

توماس طومسون

داود ويسوع بين التاريخ والتراث المشرقي

لن أتمكّن، كما ذكرت سابقاً، من التوقف عند كلّ محطات رحلة بني إسرائيل التي أوردها محرّر التوراة، لكنّني لا أستطيع تجاوز عدد منها لما كان له من كبير الأثر على تاريخنا الحديث، فتجاوزت بعض الأسفار التي كانت تكراراً لما سبقها حيناً، وسرداً لقصص «تليق أن تضاف إلى الطبعة المصرية الأصلية من كتاب ألف ليلة وليلة - أمين الريحاني». فبعد المحطة الأولى التي جعلتني أتنقّل مع ذرية آدم، وأتتبّع خطواتهم، لا عبر الآثار التي تركوها وراءهم، بل عبر خيال من نَسَج القصة فشيّد لها المحطة تلو الأخرى، وصلت إلى المحطة الثانية في أرض مصر التي لا تزال تحتضن آثار الفراعنة منذ خمسة آلاف سنة وعجزت عن تزويدنا بأثر واحد يعود لبني إسرائيل الذين عاشوا فيها 430 سنة ثم تهت معهم لساعات وليس لأربعين سنة، كانت كافية لقراءة قصة التيه الخرافية، ودخلت أرض كنعان، ليس مع ربّ الجنود ولا مع يشوع الذي أباد البشر وكلّ ذي نفس حية، بل مع قناعة راسخة حول قدرة العقل البشري الخلاّق بأن ينام نومة أهل الكهف ساعة يشاء، ويستيقظ وهو نائم على سرير الحكايا الإلهية، ليُكمل رحلة إبداعه دون أن يتخلى عن حنينه الدائم إلى قصص طفولته البدائية، لكي أجد أنّ هذا العقل قد تخطى كلّ الحدود ليبني كياناً سياسياً على أشلاء الأجساد البريئة مستلهماً بناءً خيالياً يعود إلى ثلاثة آلاف سنة.

لقد حفل التاريخ بأخبار حروب الشعوب القديمة وقيام إمبراطوريات وسقوط أخرى، وإبادة جماعات (الهنود الحمر في ما يعرف اليوم بالولايات المتحدة الأميركية وكندا، وشعوب أميركا الجنوبية وأستراليا)، وتسلّط شعوب على أخرى لمئات السنين (العرب على الأندلس والأتراك على بلادنا)، لكنّ هذا التاريخ نفسه لم يسجّل لنا إلاّ حالة واحدة نادرة سوّغت لنفسها احتلال أرض بالقوة وتشريد سكان لمجرد زعم بأنّه كان لهم وجود على هذه الأرض يعود إلى ثلاثة آلاف سنة. وهذا يجعلنا نتساءل: ماذا يمكن أن يكون موقف الدول الداعمة لإسرائيل، وخاصة الولايات المتحدة الأميركية، لو قام اليوم الهنود الحمر بالمطالبة بأرضهم؟ وماذا يكون موقف الإسبان خاصة والأوروبيين عامة إنْ

قام العرب بالمطالبة ببلاد الأندلس؟ وماذا يكون موقف العرب إنْ قامت تركيا بالمطالبة بكل أراضي سورية الطبيعية والجزيرة؟ بل ماذا سيكون موقف إسرائيل ذاتها وكلّ الأراضي التي احتلتها كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية لما يزيد عن أربع مئة سنة، ولمئة سنة خلت وليس لآلاف السنين؟ هل يدعم القانون الدولي حق هذه الجماعات؟ بالطبع لا، لأنّه في حالة العرب والأتراك فقد كان وجودهم احتلالاً واضحاً لأراضي الغير، أما في حالة القارتين الأميركية والأسترالية فالوضع يختلف إلى حد ما، اختلافاً بالشكل وليس بالمضمون، لأنّ الهجرات الأوروبية إلى هاتين القارتين قد أدتا إلى إبادة للشعب الأصلي أولاً، ثم وبفعل التفاعل نشأت فيهما جماعة جديدة شكّلت على مدى مئات السنوات أمة واحدة.

هذه الحالة الفريدة المتمثلة بإسرائيل لم تستند بشكل مطلق إلى القوة العسكرية أو القانونية أو إلى كلتيهما معاً، بل استندت إلى وعد إلهي مزعوم استطاعت من خلاله إرهاب جميع دول العالم فأخضعتهم لمشيئتها مؤكدة لهم، وبمختلف الطرق والوسائل، أنّها مشيئة الله، والويل لكلّ من يخالفها إذ إنّه لن يكون بمنأى عن غضب الله (يهوه). ولئن حاول الصهاينة إقناع العالم بأنّهم كانوا يملكون أرض كنعان، وأنّهم أقاموا عليها دولتهم الغابرة، وبالتالي شكّلوا على مرّ العصور عرقاً صافياً مرتبطاً بهذه الأرض، فإنّ توراتهم تفضحهم، والتاريخ يفضحهم، والعلم يفضحهم. فهم وحسب رواية التوراة لم يسيطروا كلياً على فلسطين بل ظلت الحروب قائمة بينهم وبين الفلسطينيين لعشرات السنين، ومرّ معنا كيف أنّ الفلسطينيين كانوا يهزمون الإسرائيليين أكثر من مرة، حتى وإن أرجع الكاتب ذلك إلى غضب الله (يهوه) على بني إسرائيل، وأنّهم بالرغم من كلّ البطولات الوهمية التي ذكرها محرّر التوراة، وكلّ فعل الإبادة الذي قام به قادتهم وقضاتهم وملوكهم بطلب من هذا (اليهوه)، ظل هذا المحرّر بين الفترة والأخرى يأتي على سيرة الكنعانيين كقوله في سفر يشوع، وبعد الإبادة التي قام بها، «فلم يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر. فسكن الكنعانيون في وسط أفرايم إلى هذا اليوم وكانوا عبيداً تحت الجزية» (الإصحاح 16: 10).

ومرّ معنا أنّ بني إسرائيل لم يتقيّدوا بوصايا موسى خاصة لجهة عدم الزواج من الأغيار، فأقدموا جميعهم، بمن فيهم أهم ملكين: داود وسليمان، على الزواج من الكثيرات من الأغيار مما كان يُعد فعل زنى، وهذا ما دفع بابن حزم الأندلسي على اعتبار كلّ اليهود أولاد زنى حيث قال: «ومن عجائبهم أنّهم يقولون: إنّ كل نكاح كان على غير حكم التوراة فهو زنا والمتولد منه ولد زنا، حتى أنّهم يُبيحون لمن تهوّد من سائر الأديان أن يتزوج أخته (من أبيه)... وعلى كلّ حال يُلْزمهم أنّ أولاد سليمان عليه السلام كانوا أولاد زنا بحت، لأنّهم مقرّون أنّهم كانوا من أبناء العمونيات والموآبيات وسائر الأجناس»(312). فإذا كان ابن حزم قد كتب هذا الكلام في مطلع الألفية الثانية، فماذا عسانا نقول في مطلع الألفية الثالثة عن مبدأ النقاء العرقي؟

سأترك هذا الموضوع إلى فصل لاحق لأتابع أخبار بني إسرائيل في أرض كنعان أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد، لنقف على كيفية اقتسام أسباط إسرائيل للأرض بالقرعة. يخبرنا المحرّر، ليس فقط عن حروب الإسرائيليين مع الفلسطينيين خصوصاً والكنعانيين عموماً، كقوله في سفر القضاة: «وعمل بنو إسرائيل الشرّ في عيني الربّ فدفعهم الربّ ليد مديان سبع سنين. فاعتزّت مديان على إسرائيل» (قضاة 6: 1 – 2)، وقوله في سفر القضاة الإصحاح الرابع: «وعاد بنو إسرائيل يعملون

الشرّ في عيني الربّ بعد موت إهود. فباعهم الربّ بيد يابين ملك كنعان الذي ملك في حاصور» (قضاة 4: 1 – 2)، بل أيضاً عن حروبهم بين بعضهم البعض، كقوله في سفر القضاة: «فضرب الربّ بنيامين أمام إسرائيل وأهلك بنو إسرائيل من بنيامين في ذلك اليوم خمسة وعشرين ألف رجل ومئة رجل» (قضاة 20: 35)، ثم أكملوا عليهم «فسقط من بنيامين ثمانية عشر ألف رجل جميع هؤلاء ذوو بأس»، (قضاة 20: 44)، وبنيامين هذا هو أحد الأسباط الذي «طلعت قرعة سبط بني بنيامين حسب عشائرهم. وخرج تخم قرعتهم بين بني يهوذا وبني يوسف» (يشوع: 18: 11).

وأحيل القارئ إلى سفر القضاة الإصحاح التاسع عشر ليعرف سبب حرب الأخوة، ويكفي أن أنقل ما فعله بنو بنيامين مع سريّة رجل شيخ آوى رجلاً غريباً حيث حاصروا بيته مطالبين بتسليمهم الرجل الغريب، «فخرج إليهم الرجل صاحب البيت وقال لهم لا يا إخوتي لا تفعلوا شرًّا... هوذا ابنتي العذراء وسريته دعوني أخرجهما فأذلّوهما وافعلوا بهما ما يحسن في أعينكم... فأمسك الرجل سرّيته وأخرجها إليهم خارجاً فعرفوها وتعلّلوا بها الليل كلّه إلى الصباح» (قضاة 19: 23 – 25)، (أي أنّهم تناوبوا على مضاجعتها طيلة الليل). هذه أخلاق بني إسرائيل التي ورثوها عن جدهم إبراهيم وابن أخيه لوط. وهذا السبب كان كافياً لأن يجتمع جميع بني إسرائيل «أربع مئة ألف راجل مخترطي السيف» لمحاربة بني بنيامين. فأين وصية يهوه (لا تقتلْ)، إنّها لم تُنفذ حتى بين بني إسرائيل أنفسهم، ومن لم ينفذ الوصايا يكون قد انتهك الميثاق الإلهي الذي كان، على حد زعمهم، مشروطاً بطاعة أوامر يهوه وتنفيذ وصاياه. الوعد الإلهي بإعطائهم أرض كنعان يقابله حكماً التزام من بني إسرائيل بتنفيذ بنود الشريعة، وأهم هذه البنود وصايا لا تقتلْ، لا تزنِ، لا تسرقْ، التي لم يتقيد بنو إسرائيل بواحدة منها، فماذا بقي من الوعد إذن؟ وكيف استطاع الصهاينة إقناع المؤمنين عامة وحكومات الدول خاصة بهذا الوعد الإلهي الذي لا يجد له من يصرفه في مجال القانون الدولي؟

نترك هذا الموضوع برسم المؤمنين وحكوماتهم لنكمل مشوارنا مع بني إسرائيل فنجد أنّ صموئيل يفتتح عهد القضاة وقبل موته «جعل بنيه قضاة لإسرائيل»، ولمّا لم يكن ابناه مستقيمين مثله، طالبه شيوخ إسرائيل أن يجعل لهم ملكاً كسائر الشعوب. ماذا نفهم من ذلك؟ بنو إسرائيل كانوا قبائل مرتحلة لا حضارة لها، سكنوا في كنعان المتقدمة حضارياً، ففيها ممالك مدينية، وفيها الاستقرار الناتج عن تطوير الزراعة، وفيها التجارة مع مصر ومع الجزيرة العربية عبر البر، ومع الإغريق عبر البحر بواسطة الفينيقيين الكنعانيين، فطاب لهم التشبه بشعوب كنعان، لذلك طالبوا بأن يكون لهم ملك.

ثم يتحفنا المحرّر بما دار من حديث بين الربّ وصموئيل، وهذا الأخير كما نعلم لم يكن نبياً بل قاضياً، ويريدوننا أن نصدّق هذه القصص التي تظهر الله كواحد من البشر. وإكمالنا لقراءة سفر صموئيل الأول يجعلنا نعلم أنّه، وبالرغم من تنبيه الربّ له لعدم الاستجابة للشعب، يخضع أخيراً ويختار شاول كأول ملك لإسرائيل (1030 – 1010 ق.م. – المنجد)، ونكتشف أنّ شاول هذا هو من بني بنيامين الذين زنوا مع سرّية الغريب الذي مرّ بهم، وهم الذين حاربهم أسباط إسرائيل الآخرون وحلفوا «في المصفاة قائلين لا يسلِّم أحد منا ابنته لبنيامين امرأة... وندم بنو إسرائيل على بنيامين أخيهم وقالوا قد انقطع اليوم سبط واحد من إسرائيل» (قضاة 21: 1 و 6)، لكنّ المحرر لا يأبه لما كتبه فالمهم أن تستمر أحداث قصته، فكان أول عمل قام به مؤسس مملكة إسرائيل هو الإعلان عن ضربه نَصَب الفلسطينيين، الذي قال الكاتب قبل أسطر من هذا الإعلان بأنّ يوناثان قد قام بهذا العمل،

لا فرق، المهم أنّ الفلسطينيين تجمعوا لمحاربة إسرائيل «ثلاثون ألف مركبة وستة آلاف فارس وشعب كالرمل الذي على شاطئ البحر في الكثرة... ولمّا رأى رجال إسرائيل أنّهم في ضنك. لأنّ الشعب تضايق. اختبأ الشعب في المغاير والغياض والصخور والصروح والآبار» (صموئيل الأول 13: 5).

ولم نفهم من الكاتب أنّ يوناثان هو ابن شاول إلاّ من المقطع 16 من الإصحاح الثالث عشر، وحيث نفهم أيضاً أنّه لم يبقَ من رجال شاول ويوناثان إلاّ نفر قليل (600 رجل)، وربما تكون المرة الأولى في التاريخ المكتوب تستعمل فيها كلمة «مخرّبون» عن الفلسطينيين الذين هبّوا للدفاع عن أرضهم، فالتاريخ يعيد نفسه، «فخرج المخرّبون من محلّة الفلسطينيين في ثلاث فِرَق» (صموئيل الأول 13: 17). وبقدرة يهوه يهزم يوناثان وحامل سلاحه كلّ هؤلاء الفلسطينيين بأعدادهم التي تساوي رمل البحر، إذ بعد أن ضرب ضربته الأولى وقتل نحو عشرين رجلاً، حصل «ارتعاد في المحلة في الحقل وفي جميع الشعب... ورجفت الأرض فكان ارتعاد عظيم» (صموئيل الأول 14: 14 – 15). بضعة آلاف من أتباع شاول وابنه يوناثان، والذين كانوا قد هربوا من وجه الألوف المؤلفة من جيش الفلسطينيين، يريدنا الكاتب أن نصدّق أنّ يهوه منح القوة ليوناثان لكي يتغلب عليهم بواسطة الارتعاد العظيم الذي أرسله على الأرض. وبعد الانتصار مباشرة يعمل إسرائيل الشرّ في عيني الربّ لأنّه أكل على الدم، وبالرغم من ذلك ظل يهوه يحارب عن شعبه الخاص حيناً، وحيناً آخر يعاقبهم.

وحتى لا نطيل الكلام ننتقل إلى أسطورة داود، راعي الغنم، مع جليات الفلسطيني الذي يقول المحرّر بأنّه «تكلّم بمثل هذا الكلام فسمع داود»، (صموئيل الأول 17: 23)، فما هو هذا الكلام الذي تكلّم به جليات والذي جعل رجال إسرائيل يخافونه فيهربون؟ ثم نجد تفسيراً لذلك عندما نقرأ ما قاله رجال إسرائيل ومفاده أنّه صاعد ليعيّر إسرائيل، بماذا؟ ليس من الضرورة أن نعلم، المهم أن يكمل المحرّر الأسطورة ليظهر بطولة داود الذي تكلّم مع الملك شاول قائلاً: «لا يسقط قلب أحد بسببه. عبدك يذهب ويحارب هذا الفلسطيني» (صموئيل الأول 17: 22). وكان أنّ داود، هذا الغلام الأشقر، انتصر على جوليات بضربة حجر من مقلاعه أصابت منه مقتلاً في جبهته ثم أخذ سيف جليات وقطع رأسه. عن هذه الحادثة يقول توماس طومسون في كتابه «داود ويسوع»: «تضاعف قصة دخول داود في خدمة شاول عن طريق الحكاية الخرافية البطولية عن قتل جوليات الذي تحدى بني إسرائيل مدة أربعين يوماً أن يرسلوا بطلاً لمبارزته...» إذن هذه القصة بالنسبة لطومسون هي من باب الأسطورة التي أراد منها محرر التوراة أن يظهر قوة داود المستمدة من يهوه، وهذا المشهد برأي طومسون «يعكس تراث الحرب المقدسة» التي كان كاتب التوراة يستغلها دائماً لصالح بني إسرائيل رغم كلّ الشرور التي كانوا يرتكبونها في عيني الربّ. لا شكّ أنّه كان لمحرّر التوراة خيال تقدّم به على مخرجي السينما في هوليوود.

فنحن إنْ سلّمنا بإمكانية حصول هذه الحادثة، وسلمنا أيضاً بأنّ داود «ذهب هو ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتي رجل وأتى داود بغُلفهم فأكملوها للملك لمصاهرة الملك» (صموئيل الأول 18: 27)، إنّه مهر يشرّف بنت الملك شاول! وإذا سلمنا أيضاً وأيضاً بأنّ داود هذا رجل الحرب الصنديد قد «خرج وحارب الفلسطينيين وضربهم ضربة عظيمة فهربوا من أمامه» (صموئيل الأول 19: 8)، فكيف نصدّق أنّ هذا البطل المحارب يهرب من شاول الذي غضب لأنّ النساء اللاعبات قد «قلن

ضرب شاول ألوفه وداود ربواته» (صموئيل الأول 18: 7) والربوة هي الجماعة الكثيرة التي تعد بحوالى 10 آلاف، حيث اعتبر شاول أنّ النساء قدّمن داود عليه فأراد به سوءاً. هرب داود إلى نايوت في الرامة ومنها جاء إلى يوناثان يشتكي واتفق معه أن يهرب إلى حقل قريب ليختبئ فيه، ثم هرب مجدداً من وجه شاول وجاء إلى أخيش ملك جتّ ولما عرفه الشعب «غيّر عقله في أعينهم وتظاهر بالجنون» (صموئيل الأول 21: 13)، ومن هناك هرب إلى مغارة عَدُلاّم، فهل هذا الهرب المستمر يدلّ على بطولة أم على جبن؟ وفجأة يُعيد المحرر إلى داود بطولته ليحارب الفلسطينيين في مقيلة، فحاربهم «وساق مواشيهم وضربهم ضربة عظيمة وخلّص داود سكان مقيلة» (صموئيل الأول 23: 5)، فيستشير داود يهوه إن كان أهل مقيلة سيسلمونه إلى شاول فأجابه بنعم (ولماذا يفعلون ذلك وقد خلّصهم من الفلسطينيين؟)، ففرّ مجدداً إلى بريّة زيف، ومنها إلى بريّة معون، فيتدخل الكاتب لإنقاذ داود إذ يبعث برسول إلى شاول يخبره «أنّ الفلسطينيين قد اقتحموا الأرض» (صموئيل الأول 23: 27).

ومن زيف يهرب داود إلى حصون عين جدي، وهنا تتفتق عبقرية المحرّر عن مشهد درامي مثير، حيث يرسل شاول إلى الكهف الذي اختبأ فيه داود «لكي يغطّي رجليه» (سبب وجيه!) فيتصرف داود بوحي من بطولته حيث اكتفى بقطع طرف جبة شاول سرًّا، ثم يواجه شاول ويخبره بفعلته فيندم على كلّ ما سببه لداود ويقول له: «والآن فإنّي علمت أنّك تكون ملكاً وتثبت بيدك مملكة إسرائيل» (صموئيل الأول 24: 20). وبالرغم من ذلك، وحيث كنّا نتوقع أن يعود داود مع شاول لإعلانه ملكاً على إسرائيل، نجد أنّ للكاتب مخططاً آخر، فإذا به يجعل من داود طريداً مرة أخرى، هارباً إلى تل حخيلة فيلحق به شاول إلى البريّة هو وجيش مؤلف من ثلاثة آلاف رجل فينزل عليهم الربّ سباتاً فناموا، فنزل داود وأبيشاي وأخذا رمح شاول وكوز الماء دون أن يشعر بهما أحد. لم يرد داود أن يصيب شاول بأيّ أذى لأنّه اعتبره «مسيح الربّ». ولمّا علم شاول قال لداود «ارجع يا ابني لأنّي لا أسيء إليك بعد من أجل أنّ نفسي كانت كريمة في عينيك اليوم» (صموئيل الأول 26: 21). أما داود البطل فقد علم أنّ شاول لا زال يُضمر له الشرّ فقال في قلبه: «لا شيء خير لي من أن أفلت إلى أرض الفلسطينيين... فقام داود وعبر هو والست مئة الرجل الذين معه إلى أخيش بن معوك ملك جتّ... فأعطاه أخيش في ذلك اليوم صِقلغ... وكان عدد الأيام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر... وضرب داود الأرض ولم يستبق رجلاً ولا امرأة...» (صموئيل الأول 27: 1 – 6 – 7 – 9).

دعني أخي القارئ أتوقف عند هذا الكلام لأطرح بضعة أسئلة. إنّها المرة الثانية التي يحتمي فيها داود بملك جتّ الفلسطيني أخيش، فكيف يُعقل ذلك وهو كان قد أغار عليهم وقتل مئتين منهم وأخذ غرلاتهم مهراً لبنت شاول؟ وكيف يُعقل ذلك وقد كان حارب الفلسطينيين أكثر من مرة وأعمل السيف فيهم؟ ألهذا الحدّ كان الفلسطينيون متسامحين مع أعدائهم؟ وهم إن كانوا كذلك، ألا يحق لنا عندها القول بأنّ البون كان شاسعاً بين النفسية الفلسطينية الكنعانية الحضارية المتسامحة، وبين النفسية الإسرائيلية العنصرية الحقودة؟ ثم كيف استطاع، وبست مئة رجل فقط، أن يقضي على الجشوريين والجرزيين والعمالقة و «هؤلاء من قديم سكان الأرض من عند شور إلى أرض مصر» (صموئيل الأول 27: 8)، وكان هارباً من وجه شاول الذي كان يرافقه ثلاثة آلاف رجل فقط؟ ومباشرة بعد انتهاء هذا الإصحاح الذي لا يملأ صفحة واحدة، كيف يقول الكاتب في مطلع الإصحاح الذي يليه: «وكان في

تلك الأيام أنّ الفلسطينيين جمعوا جيوشهم لكي يحاربوا إسرائيل»، وأبدى داود استعداده للمحاربة ضد شعبه إلى جانب أخيش؟ لقد كان داود مستعداً لمقاتلة شعبه لكنّ أقطاب الفلسطينيين، ولعدم ثقتهم به، طلبوا من أخيش أن يمنعه من المشاركة بالحرب إلى جانبهم، فعاد أدراجه إلى صقلغ.

أما الفلسطينيون فقد أجهزوا على أبناء شاول الثلاثة يوناثان وأبيناداب وملكيشوع، ثم أصيب شاول نفسه بنبال الرماة، فقال: «لحامل سلاحه استلّ سيفك واطعني به لئلاّ يأتي هؤلاء الغلف ويطعنوني ويقبحوني. فلم يشأ حامل سلاحه لأنّه خاف جداً. فأخذ شاول السيف وسقط عليه» (صموئيل الأول 31: 4). أليس موقف شاول بأشجع من مواقف البطل داود؟ وكيف نفسّر انتصار الفلسطينيين على أول ملك لإسرائيل؟ ألا يعني هذا أنّ وجود الإسرائيليين في أرض كنعان، والذي لم يقم عليه أيّ دليل، وحروبهم مع الفلسطينيين هو خير دليل على أنّهم استولوا على جزء بسيط من الأرض، إن صحت روايتهم، وأنّ فعل الإبادة الذي قام به يشوع ليس أكثر من خيال ووهم؟ كيف يمكن لنا بعد ذلك أن نتابع أحداث سفر صموئيل الثاني التي تخبرنا عن مملكة داود الموحدة الوهمية؟ أليس ما يُبنى على باطلٍ باطل أيضاً؟

يقول فراس السواح: «إنّ أورشليم داود هي مفتاحنا للولوج إلى التاريخ الإسرائيلي، ولكن تنقيباتنا لم تكشف إلاّ القليل مما يمكن أن نعزوه لتلك الفترة، ولقد جهدنا من أجل توضيح هذا القليل. وإنّي لعلى ثقة بأنّ البينات الأركيولوجية على أي شيء آخر قد فقدت تماماً»(313) (نقلاً عن كتاب digging up Jerusalem للعالِمة كاتلين كينيون)، هذه العالمة التي توصلت إلى نتيجة مفادها: «أنّ البيّنات المادية على تحصينات داود المذكورة في سفر صموئيل الثاني معدومة»، فكانت نتيجة كتاباتها هذه أن مُنعت من دخول إسرائيل التي خافت على اهتزاز صورتها التاريخية الوهمية التي حاولت ترسيخها في أذهان الناس، خاصة في الغرب.

ويتساءل السواح: «لماذا لم يرد ذكر لداود في السجلات الأشورية التي أعطتنا صورة شبه كاملة عن الخارطة السياسية لمناطق الفرات وشمال ووسط سورية؟ ولماذا خلت بالمقابل أخبار سفر صموئيل الثاني من أيّة إشارة إلى آشور»(314)، ويخلص إلى الاستنتاج بأنّ «المشكلة ليست في النص التوراتي، بل في عقول ومقاصد المؤرخين التوراتيين الذين ما زالوا إلى يوم الناس هذا يبحثون عن شبح تاريخي اسمه داود، متعامين عن كلّ الحقائق التاريخية والأركيولوجية». لهذا يعتبر السواح أنّ قصة داود مشابهة لقصة الملك الأوغاريتي كرت، فيقول: «إضافة إلى ذلك، فإنّ بقية سيرة حياة داود كملك تفشي الكثير من العناصر الملحمية المعروفة في الشرق القديم» حيث «يمكن أن تقارن مع ملحمة كرت الأوغاريتية»(315). وها هو العالِم توماس طومسون يؤكد على أنّ قصة داود منحولة عن الأدب السوري والرافديني: «في حين تجد شخصية داود في قصص سفري صموئيل الأول والثاني أقدم موازياتها في سورية وبلاد الرافدين في قصتي أسرحدون وآشور وإدرمي ألالاخ، فإنّ أقرب الموازيات ربما تكون أساطير هرقل الإغريقية والتراثات الأبوكريفية (المنحولة) لسفري المكابيين الأول والثاني»(316).

إنّ مملكة داود التي استفاض محرّر التوراة بوصف تحصينها وقوّتها وسيطرتها على جيرانها، لم تستطع أن تقدّم أثراً واحداً يدعم رواية التوراة بالرغم من كلّ التنقيبات التي قاموا بها في فلسطين. فالكاتب ظفر الإسلام خان أورد قولاً لأحد الباحثين الإنكليز جاء فيه: «لم يوجد في فلسطين نقش

واحد يمكن أن يُنسب إلى المملكة العبرية. لقد فشلت اليهودية في أن تقدم أيّ أثر لداود أو سليمان، أو أي نقش أو حجر أو حتى أي نصب تذكاري، ولهذا فإنّ قضيتهم تفتقر إلى دليل مادي مسجل على غرار الأمثلة التي توجد لحياة شعوب غرب آسيا»(317). وحول هذه المملكة الوهمية يقول جودت السعد: «فقيام دولة (أسطورية) في التوراة هو محض خيال، إذ لم يكن بالإمكان قيام دولة قوية في فلسطين وفي بلاد الشام كلّها وهذا ما تؤكّده السجلات والآثار والحوليات البابلية والأشورية والمصرية والحثية»(318).

كتب نيل سلبرمن بحثاً قيًّما عن محاولات الصهاينة للتنقيب في كامل الأرض الفلسطينية، ساعدهم على ذلك اهتمام الغرب المسيحي بهذه المسألة من منطلقَيْن: الأول ديني حيث أنّ «العالم المسيحي الغربي بدأ يطور فهماً جديداً لتاريخ مكان ولادة عقيدته بالانطلاق من علم الآثار الكتابي. ولقد عبّرمارك توين عن هذا الواقع المستجد بقوله: «ما عادت فلسطين من هذا العالم العملي؛ إنّها مقدسة بنظر الشعر والتقاليد، إنّها أرض أحلام»، أما الثاني فسياسي حيث بات «البحث عن الآثار الكتابية أسلوباً ماكراً لعملية التغلغل والتنافس الغربيَّيْن في إحدى أكثر مناطق العالم أهمية استراتيجية - امتداداً هادئاً لِـ (المسألة الشرقية) على أرض معركة الماضي»(319). وانطلاقاً من هذين المعطيَيْن تتالت البعثات الأوروبية والأميركية على فلسطين منذ مطلع القرن التاسع عشر، حيث حاول بعضها توفيق الأدلة المكتشَفة مع المرويات التوراتية. أمّا من الناحية الدراسية الموضوعية فنستطيع القول إنّ كلّ هذه البعثات واجهت فشلاً ذريعاً رافقها من موقع إلى آخر، «فأعمال الحفر في تل حاسي والقدس لم تكن، بالمقارنة، سوى اختبار للتقنيات، وخيبة أمل لاهوتية على التوالي»(320).

وينقل كيث وايتلام في كتابه «تلفيق إسراعيل التوراتية» عن (جورنال أف ببليكل لترتشر لعام 1997): «ثمة اعتراف متزايد بأنّ (أورشليم) في القرن العاشر قبل الميلاد (أي زمن داود الأسطوري)، والتي كانت أبعد ما تكون عن كونها عاصمة لملكية موحَّدة شاسعة أو حتى إمبراطورية حسب بعض الروايات، لم تكن أكثر من بلدة مرتفعات صغيرة». فكيف نوفق بين قول هذا العالِم وبين ما جاء في التوراة من أنّ داود قد حكم «في أورشليم ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا» (صموئيل الثاني 5: 5)؟ وكيف تكون أورشليم عاصمة لهذه المملكة القوية، والتي انطلق منها داود ليحارب الفلسطينيين أكثر من مرة، وليحارب هدد عزر بن رحوب ملك صوبة عند نهر الفرات؟ و«ضرب داود من أرام اثنين وعشرين ألف رجل» الذين أتوا من دمشق لنجدة هدد عزر، وبانتصاره هذا «جعل داود محافظين في أرام دمشق وصار الأراميون لداود عبيداً يقدمون هدايا» (صموئيل الثاني 8: 5 - 6). لماذا لم يذكر لنا التاريخ شيئاً عن هذه البطولات خاصة ضد أرام دمشق؟

دمشق هذه، كما يقول فراس السواح كانت كمثيلتها أورشليم «بلدة صغيرة تعيش على هامش الأحداث»(321). ويقول مبرراً بطولات داود الوهمية: «لقد أراد محررو التوراة ابتكار خصوم وهميين لمملكة وهمية وملك وهمي، ونظراً لجهلهم الكامل بتاريخ تلك الحقبة التي يتحدثون عنها وبخارطتها السياسية، وهو جهل استطعنا إثباته عبر نقدنا النص والتاريخ سابقاً، فقد التقط هؤلاء المحررون أخباراً متواترة عن مشيخات آرامية قريبة إليهم زمنياً، وجعلوا منها شعوباً وممالك قوية»(322). أما عن ملك صوبة هدد عزر الذي تحدث عنه محرّر التوراة فيقول فراس السواح، إذا كان صحيحاً ما ورد عنه في التوراة فلماذا صمتت عنه النصوص الآشورية؟ يعتقد الكاتب أنّ محرر

التوراة قد اختلطت عليه هذه الأحداث والأسماء التي كانت سابقة لزمانه بما لا يقل عن أربع مئة سنة، فإذا به يجعل من ملك دمشق هدد عدر، الذي كانت له مواقع مشهودة مع الآشوريين أهمها معركة قرقرة، ملكاً على صوبة تحت اسم هدد عزر، ويجعل من داود يتغلب عليه ويستعبد شعب أرام دمشق الذي هب لنجدته. هذه الواقعة لا مجال للتأكد منها خارج الرواية التوراتية لخلو كلّ سجلات ذاك الزمن من أيّة إشارة إليها. كما يعتقد فراس السواح أنّ الممالك التي ورد ذكرها في سفر صموئيل الثاني كآرام مقلة وطوب وآرام صوبه «يحوم الشك حول وجودها أصلاً»، مما دعاه إلى القول: «إنّني أطرح هنا، وبكل ثقة علمية، رأياً مفاده أنّ هذه الممالك لم تقم أصلاً لا في القرن العاشر قبل الميلاد ولا في أيّة فترة لاحقة من تاريخ المنطقة»(323).

وفي الوقت الذي لم تقدم لنا المكتشفات الآثارية أيّة معلومة عن مملكة داود، نجد أنّها على العكس من ذلك، قد أعطتنا الكثير من الأدلة على الفن السوري الذي تميّزت به ممالك عدة منها: «مملكة بيت بحياني في حوض الخابور، ومملكة بيت عديني بين نهري بليخ والفرات، ومملكة حداتو في كركميش، ومملكة بيت جوش في منطقة حلب، ومملكة يأدي في أقصى الشمال الشرقي. هذه الممالك تركت وراءها آثاراً مهمة بدأت تتكشف للمنقّبين تباعاً بدءاً من عام 1899، حيث حاول المؤّرخون بداية ربطها بالحضارة الحثية، إلاّ أنّ تطور التنقيب كشف عن الأصول السورية لهذه الممالك، وهذا ما دعا عالِم الآثار والمؤرخ باولو ماتييه مكتشف مدينة إيبلا إلى القول عن مصطلح «حثي جديد» الذي أطلق على بعض اللقى التي تم الكشف عنها في بعض المراكز الحضارية السورية، بأنّ «هذا المصطلح من أكثر المصطلحات والمفاهيم التي كوّنها الباحثون المبكرون دوغمائية وخطأ، وهو يحرم الفن السوري من كلّ أصالة وإبداع خاص»(324). حتى أنّ عالِم الآثار الإسرائيلي ب. مازار نفى أن يكون خلال تنقيبه في أورشليم قد وقع على أيّة «بنية معمارية ضخمة أو منشأة هامة يمكن لنا بيقين وصفها بالداودية» مع اعترافه، وهو اليهودي، بأنّه لم يعثر «إلاّ على القليل جداً من اللقى الأثرية التي تعود إلى العصر الداودي، سواء في موقع أورشليم أم خارجها»(325).

ونقل السواح مباشرة رداً من المؤرخ والآثاري توماس ل. تومبسون على ما قام به الباحثون من تأكيد على مملكة إسرائيل التي ابتدأت مع شاول وتوحدت وقويت أيام داود وسليمان، فيعتبر أنّ كلّ هذه السرديات ليست أكثر من تصورات لا مكان لها من الواقع و«أنّها غير موجودة خارج السياق القصصي التوراتي. وما نعرفه عن القصص التوراتي لا يشجعنا البتة على التعامل معها باعتبارها تاريخاً»(326). وانطلاقاً من ذلك يقول السوّاح: «فإذا كان داود ليس إلاّ شبحاً تاريخياً لم يعد يؤرق سوى بعض الحلقات الأكاديمية المحافظة، فإنّ أورشليم داود هي شبح أركيولوجي، لا يجرؤ اليوم أي آثاري مرموق التحدث عنها كعاصمة لمملكة مترامية الأطراف، دون أن يغامر بسمعته العلمية»(327). أما توماس طومسون فيقول: «وبالنظر لوجود إشارات سلبية، ربما كانت غير هامة، يمكن السماح للمرء بأن يشك في أنّ القدس كانت قوة رئيسية في المنطقة، في هذا التاريخ المبكر»(328). وكإثبات آخر على المبالغة التي وقع بها محرّر التوراة خاصة لجهة الأعداد، نثبت ما أورده فراس السواح من أنّ الدراسات الديمغرافية لفلسطين في العصور القديمة، تقدّر عدد سكان فلسطين الكبرى خلال القرن العاشر بمئة ألف نسمة، استناداً إلى أبحاث توماس طومسون. فكيف نوفّق بين هذه النتيجة وما أورده محرر التوراة عن دخول 600,000 مقاتل إلى فلسطين عدا عن النساء والأطفال والشيوخ؟ هذا ما أشرنا إليه سابقاً، حيث سنثبت المزيد من المبالغات لاحقاً.

بقي أن نشير إلى أنّ بعض الدارسين المحدثين بدأوا يشككون بتاريخية شخصية داود وصولاً إلى القول بأنّ «داود لم يكتب جميع المزامير، أو ربما لم يكتب شيئاً منها على رأي بعض المدققين. فقد كُتبت عن لسانه ونسبت إليه»(329). وكيف لرجل وهمي أن يكتب هذه المزامير والتي يبدو منها أنّ محرر التوراة، لم يكتفِ بالسطو على أساطير الشرق القديم، بل هو أيضاً سطا على النتاج الأدبي لهذه الشعوب، حيث بدأ دارسو الأدب بمقارنة نصوص هذه المزامير مع الأدب الأوغاريتي فإذا بها قد استقت منه الشيء الكثير. فأدمون جاكوب، الأستاذ في جامعة ستراسبورغ وضع كتاباً تحت عنوان رأس شمرا والعهد القديم حيث أبرز التشابه ليس فقط بالأساطير، بل أيضاً أثبت التشابه بين مزامير داود ومقاطع من الأدب الأوغاريتي (أوغاريت – قرب اللاذقية اليوم). وها هو سهيل التغلبي أيضاً ينقل عن كتاب «تاريخ سورية» الطبعة الإنكليزية للمؤرخ فيليب حتّي قوله بأنّ «مزامير داود وسليمان تعود إلى أصل كنعاني، تليت باللغة الكنعانية وعلى الطريقة الدينية الكنعانية ثم ترجمها الكَهَنة والأحبار اليهود وعدّوها من أسفارهم «المقدسة» في التوراة»(330). وإذا ما عدنا للمزامير فإنّنا نقرأ من المزمور الرقم 60 ما يلي: «يا فلسطين اهتفي عليّ». فماذا يعني ذلك؟ برأينا هذا يؤكد أنّ مملكة إسرائيل وهمية، وإنْ هي وجدت في وقت محدد، فمملكة فلسطينية كنعانية، وأنّ داود ومن تبعه من ملوك لم يستطيعوا القضاء على الفلسطينيين ولا تدمير فلسطين كما يدّعي محرّر التوراة. فالتناقض الذي وقع به يفضح صدقيته ولا يُبقي من هذا الكتاب إلاّ قصصاً أسطورية منحولة قصّرت عن الارتقاء إلى مستوى الأصل.

أمّا تابوت الربّ الذي حُفظ فيه لوحا الشهادة، والذي أعطى «الرب» مقاييسه لموسى، فقد قام بتنفيذه بصلئيل، وأمر «الربّ» موسى أن يضع تابوت الشهادة داخل خيمة الاجتماع. وكان من الطبيعي أن يتمسك بنو إسرائيل بتابوت عهد الربّ ويحافظوا على محتوياته القيّمة، لوحيْ الشهادة أو الوصايا المكتوبين بإصبع الربّ، وبالرغم من هذه المهابة التي أقاموها حول هذا التابوت نجد أنّ الفلسطينيين يسيطرون عليه وينقلونه من مكان إلى آخر، فيحصل معهم ما حصل للمصريين من إصابة بالبواسير. فمن أشدود إلى جتّ، إلى عقرون، سبعة أشهر وتابوت الله في بلاد الفلسطينيين، وكان الله في هذه الأثناء يتفنّن مجدداً بإبراز إرهابه، وها هو يضرب «أهل بيتشمس لأنّهم نظروا إلى تابوت الربّ. وضرب من الشعب خمسين ألف رجل وسبعين رجلاً» (صموئيل الأول 6: 19). لله درّك يا يهوه كم هي عظيمة قدرتك الإجرامية. وفي دراسة أعدّها دار الجليل تحت عنوان (مصطلحات ومناسبات وتواريخ وشخوص صهيونية) تم التطرق إلى تابوت العهد حيث تم ذكره «في التوراة 200 مرة لكنه لم يذكر في الكتب التالية على التوراة وأيضاً لم يكن في قائمة الممتلكات التي أخذتها جيوش نبوخذ نصّر عند انقضاضه على أورشليم 586 ق.م. ولم يُذكر عند بناء الهيكل ثانية كما يدّعي اليهود على يد ملك الفرس كورش 538 ق.م.».

ولن أتابع رحلة هذا التابوت الأسطورية، بل أريد أن أطرح سؤالاً واحداً وهو: إذا كان هذا التابوت مهماً لهذه الدرجة لبني إسرائيل، وإذا كان يهوه بسبب التابوت قد أرسل على الناس الأمراض وأفنى منهم الآلاف، فكيف ضاع هذا التابوت؟ ولماذا لم تتدخل قدرة يهوه لإعادته؟ ولماذا مثلاً لم تَضَع مسلاّت حمورابي الأقدم والتي لم تكن مقدّسة؟ وإذا كان كلّ من ينظر إلى هذا التابوت يموت، ألم يكن كافياً أن يقوم عدد من الإسرائيليين بحمل هذا التابوت من مدينة كنعانية إلى أخرى لكي يقتلوا كلّ السكان دون حروب يتعرضون خلالها أحياناً للخسارة والإذلال؟ هل يمكن لعقلنا اليوم أن يتقبّل مثل

هذه القصة، أم أنّه يضعها في إطارها الصحيح كجزء من الأدب الشعبي للشعوب القديمة؟ السبب الوحيد والمنطقي أنّ هذا التابوت لم يوجد أصلاً، مثله مثل موسى وشاول وداود وسليمان، هذه الشخصيات الأسطورية لم ينتج عنها إلاّ أحداث أسطورية لا علاقة لها بالتاريخ.

ويلفتنا خبر أورده الكاتب في صموئيل الثاني مفاده أنّ داود سأل الربّ إذا كان يتوجب عليه الصعود إلى إحدى مدائن يهوذا، فأذن له، فتوجه إلى حبرون مع امرأتيه أخينوعم اليزرعيلية وأبيجايل امرأة نابال الكرملي، ورافقه رجاله وعائلاتهم. وفي يهوذا يأتي الرجال ويمسحونه ملكاً على بيت يهوذا. أمّا رئيس جيش شاول أبنير بن نَيْر فقد أخذ «إيشبوشت بن شاول وعبر به إلى محنايم وجعله ملكاً على جلعاد وعلى الأشوريين وعلى يزرعيل وعلى أفرايم وعلى بنيامين وعلى كلّ إسرائيل» (صموئيل الثاني 2: 8 – 9). فأن يُمسح أبنير بن شاول ملكاً على كلّ إسرائيل فهذا شأن طبيعي، إذ إنّ المُلك ينتقل بالوراثة إلى ابن الملك، ولكن أن يجعله ملكاً على الأشوريين دون أيّة معارك لإخضاعهم، ودون أن تذكر المراجع الأشورية هذا الحدث، وهي التي ذكرت أحداثاً أقدم من ذلك، فإنّ هذا يجعل من السردية التوراتية مُلفقة خيالية لا تمتّ إلى الحقيقة التاريخية بأيّة صلة.

ثم تتجلى أخلاق داود بأمره أبنير أن يجلب له ميكال بنت شاول التي دفع مهرها مئة غلفة من الفلسطينيين، وميكال هذه كانت قد تزوجت من فلطئيل بن لايش إثر الخلاف بين داود وشاول. ثم يخبرنا المحرر في الإصحاح الثالث عن حرب طويلة بين الإسرائيليين أنفسهم، أي بين بيت شاول وبيت داود، ويخبرنا أيضاً أنّه قد ولد لداود في حبرون بنون، ويذكر أنّ بكره كان أمنون من أخينوعم اليزرعيلية ولهذا البكر حق وراثة الملك، فلماذا ملك سليمان بعد داود؟ يخبرنا المحرر في الإصحاح الخامس من سفر صموئيل الثاني بأنّ داود بعد أن ترك حبرون قد أخذ «سراري ونساء من أورشليم... فوُلد أيضاً لداود بنون وبنات وكان سليمان واحداً منهم. ولم يذكر اسم والدته إلاّ في الإصحاح الثاني عشر فنكتشف أنّ سليمان هذا هو ابن بتشبع زوجة أوريا الحثي الذي قضى عليه داود لكي يستولي على زوجته الجميلة التي رآها تستحم عندما كان يتمشى على سطح بيت الملك. لقد دخل عليها واضطجع معها بعد أن عاقبه الربّ بقتل ابنه منها الذي ولد له من فعلته الأولى معها. وإذا بهذا الربّ ذاته يرضى عن داود، فقط لأنّه صام نادماً على فعلته، وفور اضطجاعه مع بتشبع تلد له «ابناً فدعا اسمه سليمان والربّ أحبّه» (صموئيل الثاني 12: 24).

فلماذا أيّها الربّ قتلت الولد الأول وأحببت الثاني وكلاهما لداود وبتشبع؟ ألا يعني هذا أنّ المحرر ذا الخيال الواسع قد أتانا بكلّ هذه القصة ليملأ صفحات كتابه كأيّ قاصٍ، ثم اختار واحداً ليعطيه دور البطولة فإذا به هنا سليمان؟ سليمان هذا قد ملك بالحيلة التي ابتدعها ناثان النبي الذي كلّم والدة سليمان وعلّمها أن تدخل على داود، وتذكّره بأنّه قد وعدها بأن يملك ابنها سليمان بعده. فعل ناثان النبي ذلك بعدما علم أنّ المدعو أدونيا شقيق أبشالوم وسليمان من زوجة أخرى لداود، قد نصب نفسه ملكاً وداود لم يمت بعد. ونجحت حيلة ناثان النبي ونادى داود بابنه سليمان ملكاً بعده. فكان إنجاز سليمان الأول أن قتل أخاه أدونيا وطرد أبياتار الكاهن الذي كان يعضد أدونيا لتسلّم الملك، وفرض على شمعي الإقامة الجبرية. وبالرغم من أنّ داود قد أوصى سليمان وهو على فراش الموت أن يحفظ فرائض ووصايا وأحكام وشهادات الرب كما هي مكتوبة في شريعة موسى، نجد أنّ سليمان قد خالف هذه الوصايا مباشرة إذ تزوج من ابنة فرعون مصر. وكما في السابق لم يكلّف الكاتب نفسه عناء ذكر اسم

الفرعون ولا حتى اسم ابنته التي صارت زوجة لسليمان أعظم شخصية إسرائيلية مدنية في تاريخ إسرائيل القديم.

وحول صدقية هذه الرواية كتب جودت السعد: «وإذا كان سليمان قد تزوج ابنة الفرعون كما جاء في (الملوك الأول 3: 1) فإنّ ذلك يؤكد أنّ سليمان هذا مصري. فالأعراف المصرية لا تسمح بزواج بنات الفراعنة من غرباء، وليس من دليل أو إشارة في اللوائح المصرية تدلّ على أنّ أياً من الفراعنة قد زوّج ابنته من غير الوسط المصري الحاكم»(331)، بل على العكس الأدلة تفيد بأنّ الفرعون (أخناتون) قد رفض مثلاً طلب الملك البابلي كاداشمانبارب Kadashmanbharbe الزواج من إبنته، وهذا الرفض أثبتته رسائل تل العمارنة، كما رفض الملك المصري تزويج ابنته لملك فارس قمبيز Cambyses. فلماذا لم تذكر السجلات المصرية أي شيء عن هذا الزواج؟ الجواب كالعادة بسيط، وهو أنّ سليمان شخصية أسطورية وكلّ ما دار حولها من أحداث هو من باب الأسطورة التي ابتدعتها مخيّلة الكاتب. ولا بأس أن نكمل رحلتنا مع سليمان لكي نقف على أسرار حكمته التي طبقت الآفاق لنصل إلى إماطة اللثام عن الحقيقة التي أصبحت ثابتة بعدما ظهرت إلى الوجود كنوز الحضارات القديمة التي، وخلافاً «للحضارة الإسرائيلية الوهمية»، بات بالإمكان قراءة آلاف النصوص التي أصبحت شاهداً لا يمكن دحضه في مواجهة مرويات لم تستطع حتى الآن تثبيت محتواها بشاهد واحد.

لقد تراءى الربّ لسليمان في الحلم ليلاً، فطلب منه سليمان أن يعطيه «قلباً فهيماً لأحكم على شعبك وأميّز بين الخير والشرّ» (الملوك الأول 3: 9)، فتجاوب الربّ مع طلب سليمان وقال له: «هوذا أعطيتك قلباً حكيماً ومميزاً حتى إنّه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك. وقد أعطيتك أيضاً ما لم تسأله غنًى وكرامة حتى إنّه لا يكون رجل مثلك في الملوك كلّ أيامك» (الملوك الأول 3: 12 – 13). طبيعي أن يكون يهوه كريماً لهذا الحد مع سليمان، أليس الكاتب هو من اخترع يهوه وسليمان معاً؟ ألا يحق له أن يصيغ قصته بالشكل الذي يريد ويعطي أبطاله الأدوار التي يراها مناسبة كأيّ مخرج في أيامنا هذه؟

ودعونا لا نلتفت إلى ربط الكاتب الحكمة بالقلب بدلاً من العقل، ولنقل إنّه إنّما أراد بالقلب العقل، وننتقل معه إلى المثل الوحيد الذي رواه للدلالة على حكمة سليمان التي لا مثيل لها، وهو مثل المرأتين الزانيتين (؟؟) اللتين وقفتا بين يدي سليمان وادّعت كلّ واحدة منهما أنّها والدة طفل كانتا تختلفان على أمومته من خلال أحداث قصة سخيفة لم تصل إلى الناس، بل كلّ ما وصل إلى أذهاننا هو حكمة سليمان. فلكي يقدّم الكاتب للحكم الذي أصدره سليمان، أخبرنا أنّه لا يوجد أيّ شاهد على صدق كلام إحداهما، وبالتالي يصبح الحكم على لسان سليمان هو القضاء والقدر. وانطلاقاً من ثقافة الإجرام اليهوهية لم يخطر ببال سليمان إلاّ القتل لإثبات من هي الأم الحقيقية، لذلك طلب أن يشطروا «الولد الحيّ اثنين» ويعطوا «نصفاً للواحدة ونصفاً للأخرى»، لتصبح الأمور بسيطة بعد هذا القرار لأنّ الأم المزعومة وافقت عليه، أمّا الأم الحقيقية فرفضته. فأيّ مختلّ عقلياً يقتنع بأنّ الزانية التي ادّعت أمومة هذا الطفل، وهو ليس طفلها، ستقبل بأن يُقطع نصفين، إذ حتى ولو لم تكن أمه البيولوجية فهي تعلم حق العلم أنّ هذا القرار ما هو إلاّ حيلة فكيف توافق دون أدنى تردد أو تفكير؟

وللمقارنة فقط بين هذا القرار الذي لا يزال يدرّس حتى أيامنا هذه على أنّه قمة التفكير الحكيم الذي لم يصل إلى مثله حكيم آخر، لا قبل ولا بعد سليمان، يحضرني مثال آخر وهو تصرف غاندي، رائد حركة اللاعنف، عندما خلق له الاستعمار الإنكليزي الصراع الطائفي ليقضي على حركته، فما كان من غاندي إلاّ أن صام عن الطعام، وعبثاً حاول المتقاتلون ثنيه عن قراره فأبى إلى أن يضع الجميع أسلحتهم جانباً ويوقفوا القتال. أتاه أحد الهندوس والسيف بيده وقال له: كيف تريدني أن أتخلى عن سلاحي وعن مقاتلة المسلمين وقد قتلوا طفلي؟ فأجابه غاندي قائلاً: فتّش عن طفل مسلم قُتل أبوه وقم بتربيته كأنّه ابنك.

هذه هي ثقافة الحياة، هذه هي ثقافة الإنسانية البعيدة عن العنصرية، أمّا ثقافة يهوه فهي ثقافة إرهابية عنصرية لا تزال تسيطر على عقول الصهاينة فتجسد يوماً بعد يوم مزيداً من القتل والتدمير والتهجير. فأين حكمة سليمان من حكمة غاندي؟ يهوه أعطى سليمان قلباً حكيماً ومميًّزا فماذا كانت النتيجة؟ قتل أخاه، وطرد وسجن كلّ من دعم أخاه، وتسلّط على «جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر» (الملوك الأول 4: 21). والتسلّط لغة يعني القهر بعد الغلبة. فأين الحكمة من التسلّط برقاب العباد، وأين الحكمة من تسخير ثلاثين ألف رجل من جميع إسرائيل وإرسالهم «إلى لبنان عشرة آلاف في الشهر بالنوبة. يكونون شهراً في لبنان وشهرين في بيوتهم... وكان لسليمان سبعون الفاً يحملون أحمالاً وثمانون ألفاً يقطعون في الجبل. ما عدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين على العمل ثلاثة آلاف وثلاث مئة المتسلطين على الشعب العاملين العمل. وأمر الملك أن يقلعوا حجارة كبيرة حجارة كريمة لتأسيس البيت حجارة مربعة» (الملوك الأول: 5: 13 – 17).

ألا يعني ذلك أنّ سليمان كان ظالماً، لا يعطي الحق لأصحابه؟ هل تسخير هذا العدد من البشر لبناء قصره، وحتى لبناء الهيكل، فيه الكثير من الحكمة؟ هل يرضى الربّ الحقيقي بهذا الظلم يلحق بخلقه بحجة بناء بيت له؟ وهل الربّ بحاجة لبيت حتى ولو كان للصلاة والتعبّد؟ ألم يقل السيد المسيح: «وأمّا أنت فمتى صلّيت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء. فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية. وحينما تصلّون لا تكرروا الكلام باطلاً كالأمم. فإنّهم يظنون أنّه بكثرة كلامهم يُستجاب لهم. فلا تتشبّهوا بهم. لأنّ أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه» (متّى 6: 6 – 8). أليس في قول المسيح هذا نقض لكلّ الطقوس التي كانت قبله وارتقاء بمفهوم العبادة والصلاة وحتى بمفهوم الله الكوني الذي لا تزيده عبادتنا له رفعة لأنّه بغنًى عنها، ولأنّه لا يشترط أبداً على الناس: أن اعبدوني لكي أجازيكم خيراً؟ وأين حكمة سليمان وكيف تتجلى لنا حين يخبرنا كاتب التوراة عن سليمان وكيف أنّه أحبّ نساءً غريبات كثيرات (سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري) مخالفاً بذلك وصايا يهوه؟ وأين كانت حكمته عندما «عمل سليمان الشرّ في عيني الربّ ولم يتبع الربّ تماماً كداود أبيه» (الملوك الأول 11: 6)؟ فكان ذلك سبباً لغضب الربّ عليه وتمزيق مملكته. فهل كان سليمان حكيماً بالفعل؟ وهل كانت له مملكة ورثها عن أبيه داود؟ هل بنى الهيكل بناءً لطلب يهوه؟ وإذا كان هذا الهيكل قد تهدم وأعيد بناؤه وتهدّم من جديد، فأين أساساته على الأقل والتي شيّدت من أحجار كريمة كبيرة مربّعة؟

لنبدأ أولاً بالتعرف إلى ما قاله الباحثون والأركيولوجيون عن مملكة إسرائيل عامة ومملكة سليمان خاصة، ننتقل بعدها إلى الهيكل وأخيراً إلى حكمة سليمان. يقول جودت السعد «لم يشهد التاريخ في

الفترة الزمنية من القرن الخامس عشر ق.م. وحتى القرن السادس ق.م. قيام دولة قوية في فلسطين، إلاّ إذا كان وجود مثل هذه الدولة أسطورياً ومن نسيج الوهم والخيال»(332) ويضيف: «ما تورده التوراة من سيطرة سليمان على منطقة تمتد من العراق إلى مصر وحتى اليمن فمن باب الخيال»(333). ويقول فراس السواح: «إنّ ما يقوله لنا علم الآثار هو أنّ المملكة الموحدة لكلّ إسرائيل، لم تقم لها قائمة، لأنّ القاعدة الاقتصادية والسكانية لم تتوفر لها، ولم يكن هنالك عاصمة أو مراكز حضرية ذات شأن»(334). ويقول أيضاً: «إنّنا لا نناقش المؤرخين التوراتيين في مدى دقة رواية سفر الملوك الأول، أو في مبالغاتها، بل في عدم تاريخيتها من حيث الأساس. ونحن لا نشكك في قيام المملكة الموحدة لكلّ إسرائيل خلال القرن العاشر، بل نقول إنّه من المستحيل أن تكون قد قامت. وقولنا هذا يستند إلى نتائج التنقيبات الأثرية منذ أوائل الستينيات وحتى أواخر التسعينيات من القرن العشرين»(335). أمّا عالِمة الآثار كاتلين كينيون فلقد اعتبرت «أنّ الشواهد الأركيولوجية عن هذه المملكة ضئيلة إلى حد كبير(336). ولقد تطرق الباحث والأركيولوجي توماس طومسون إلى موضوع المملكة الموحدة أيام داود وسليمان، فاعتبر أنّ الوثائق التي وصلتنا، أي المرويات التوراتية وذلك لعدم توفر أي مصدر تاريخي غيرها، فإنّها غير كافية لإثبات فترة الملكية الموحدة «لا لسبب سوى ضعف التمسك بوجود حقبة ملكية موحدة»(337).

وبالانتقال إلى مسألة الهيكل لا بد بداية من الإشارة إلى أنّ الكثير من الدارسين باتوا يعتبرون أنّه لا وجود لهذا الهيكل استناداً إلى أبحاثهم التي توصلت إلى نفي وجود المملكة أساساً، وحتى إلى اعتبار شخصيتي داود وسليمان، كما مرّ معنا، من الشخصيات الأسطورية، وبالتالي فإنّ كلّ مجريات الأحداث المتّصلة بهاتين الشخصيتين لا يمكن أن تكون حقيقة ولم يقم عليها أيّ دليل أثري. ونقلاً عن البروفسور Badé أثبت جودت السعد رأياً له يعتبر فيه «أنّ مذبح هيكل يهوه قد اقتبس كلّيا من مذبح هيكل عشتارت، تؤكد ذلك الآثار المكتشفة في رأس شمرة والتي أشارت إلى الاسم الديني (يو إيلات)»(338). أمّا الكاتب خزعل الماجدي فقد اعتبر في كتابه «الدين السومري» أنّ المعابد السومرية تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد، وبالتالي فإنّ فكرة بناء الهيكل (المعبد) تعود إلى آلاف السنين قبل الإسرائيليين، كما كانت أماكن مشتركة للآلهة والكهنة معاً، وكانت تمارس فيها، بالإضافة إلى شؤون الطقوس والعبادة، كلّ أنواع الحركة الاقتصادية من عمليات مقايضة وإقراض، وهذه العادة أخذها الإسرائيليون حتى جاء السيد المسيح وطرد التجار من الهيكل.

ويقول سهيل التغلبي في كتابه «اليهودية – الصهيونية تحرّف الكتاب المقدّس» ما يلي: «لقد تخطى اقتباس اليهود من الحضارة الكنعانية الدين والأدب إلى النواحي العمرانية وفنونها». وفي هذا قال طه باقر: «إن هيكل سليمان المشهور لم يقتصر على أنّ بنّائيه كانوا من صور بل أنّه بُني بموجب تصميم معبد كنعاني، وكذلك يقال في زخرفته وتزويقه»، والجدير ذكره أنّ طه باقر ردّ كلمة «هيكل» اليهودية إلى «هيكال» الكنعانية». وفي الدراسة التي أعدّها قسم الدراسات في دار الجليل ورد خبر منقول عن صحيفة معاريف الإسرائيلية في عدد 7 شباط 1997 مفاده: «أنّ منليك بن سيدنا سليمان من بلقيس ملكة سبأ سرق تابوت العهد من أبيه أثناء بناء الهيكل وهرب به إلى الحبشة وأنّ الهيكل لا يعني أيّ شيء دون تابوت العهد وأنّ الحفائر تحت المسجد الأقصى للتوصل للهيكل ستبوء بالفشل وستهدم المسجد، وأضافت الصحيفة أنّ هذه القصة موجودة في كتاب «ترنيمة الملوك» وهو كتاب أثيوبي كتبه الحاخام الأثيوبي نيبوز جيز إسحق في القرن 14م».

فالتوراة نفسها لم تذكر أيّ شيء عن زواج سليمان من بلقيس ملكة سبأ، ولا أتت على ذكر ولد له منها إسمه منليك. والإصحاح العاشر من سفر الملوك خصّص لزيارة ملكة سبأ سليمان صفحة واحدة أُدخلت حشواً إلى هذا السفر فقط للكلام عن انبهار ملكة سبأ بحكمة سليمان دون أن يثبت الكاتب حديثاً بينهما تفوح منه رائحة الحكمة، إضافة إلى تبادل الهدايا. وما يهمنا من هذا الخبر هو إشارة الصحيفة إلى مفهوم ديني يقوم على تقديس الوصايا الموجودة داخل التابوت المفترض لا على تقديس البناء الذي وضعت فيه والذي يصبح غير ذي قيمة لاهوتية إن لم تكن الوصايا داخله. ومن جهة أخرى تأكيد الصحيفة على أنّ الحفريات تحت المسجد الأقصى لن تؤدي إلى أيّة نتيجة، غير هدم المسجد، لأنّ الهيكل سراب.

لقد كان الكابتن وارن R.E. Warren، الضابط في الجيش البريطاني، قائد أول حملة تنقيبية في القدس، وكان ذلك في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر. وعندما حاول الضابط المذكور التنقيب في منطقة الحرم الشريف، ظناً منه أنّ موقعه هو موقع هيكل سليمان، رفضت السلطات العثمانية ذلك، ثم تم الاتفاق على أن يتم التنقيب على بُعد بضعة أمتار من السور الخارجي. وكلّ ما توصل إليه هذا المنقِّب من معاينته للأساسات التي كشف عنها أنّه لا علاقة لها بهيكل سليمان، الأول أو الثاني، وبأنّها تعود إلى عصر هيرود الكبير، «وبذلك تم التأكد من ذلك الوقت المبكر من أنّ البقية الباقية من هيكل أورشليم، وهي مصطبته الهائلة، لا علاقة لها بهيكل سليمان ولا بالهيكل الثاني، وأنّ المسجد الأقصى وقبة الصخرة وبقية المنشآت الإسلامية قد قامت مباشرة فوق أرضيات معبد هيرود، التي جرى ترميمها والإفادة منها»(339).

كما أثبت توماس طومسون نصاً مكتشفاً يعود للملك نبونيد الثاني يفيد «بأنّ الآلهة اختارته لإعادة بناء الهيكل في حران... إنّ أهل بابل والقائمين على مدنها قد ارتكبوا الشرّ وأثموا... والإله سين أهلك القسم الأعظم من البلاد... سين يجبر نبونيد على ترك مدينته والتجول [التيه] في الصحراء لمدة عشر سنوات (يهوه يخرج موسى وشعبه من مصر فيتيهون في صحراء سيناء 40 سنة)... الآلهة التي فرّت إلى بابل عادت... يبني هيكلاً لسين ويسترجع الآلهة»(340). ثم أثبت نقشاً لقورش الفارسي وآخر لحثشتا، وإذا ما قارنا بين هذه النصوص لوجدنا تشابهاً كبيراً بمحتواها مما يدلنا على أنّ الشعوب القديمة كانت لها مفاهيم متشابهة حول الآلهة وعلاقتها بالملك وبناء المعابد. ويقول طومسون: «إنّ وجود معبد مركزي لكلّ الجماعات الدينية في فلسطين يستند إلى مزاعم غير مؤكدة ومشكوك بها»(341).

ففكرة المعابد لم يبتدعها الإسرائيليون زمن داود وسليمان، بل سمع بها كاتب التوراة خلال السبي إلى بابل من خلال اطلاعه على التراث البابلي القديم، فاستقى منه هذه الفكرة، كما فعل بدءاً بسفر التكوين الذي أثبتنا أنّ جذور أساطيره موجودة في الأساطير الشعبية السومرية والبابلية. وكذلك تأثر بفكرة إقامة المعابد على المرتفعات وتقديم الأضحية تقرُّباً للإله. يقول الدكتور بشار خليف: «وتحفل مواقع المشرق العربي القديم بالمعابد الأولى، ففي أريحا بفلسطين عثر على معبد يعود للألف العاشر قبل الميلاد»342، ثم يشير إلى حقيقة أثبتتها الدراسات الحديثة وهي: «أنّه في مجمل المناطق السهلية والتي تفتقد للهضاب والجبال، نجد أنّ إنشاء المعابد يتم على أساس البروز نحو السماء، في سعي من الإنسان للتسامي نحو سيد السماء والاقتراب من مقامه، كما في إنشاء الزقورات (هي المعابد التي

كانت تَشاد على شكل طبقات ترتفع صعوداً ومع ارتفاعها يقل عرضها وتنتهي بغرفة واحدة مخصصة للإله) في الهلال الخصيب. في حين أنّ المجتمعات ذات المناطق الجبلية، نلاحظ أنّ قمم الجبال تشكّل معابد لسيد السماء، كما في قمة جبل صفون في سوريا حيث تذكر الوثائق الأوجاريتية إقامة الإله بعل في قمة هذا الجبل»(343) (يهوه يُنزل الشريعة على موسى على رأس جبل حوريب في سيناء). ويعود الدكتور خليف إلى الإشارة بأنّ «إشادة المعابد على أماكن مرتفعة، تدل على حصول تطور عميق في القسم الحوفي من الدماغ... ما يعني هنا بداية إدراك البعد السماوي للمقدس... وهذا يشكل نقطة انعطاف مهمة في نشوء فكرة الألوهة على صعيد الفكر الإنساني»(344). ثم يكشف النقاب على أنّ التنقيبات الأثرية العائدة للثقافة العبيدية (5500 – 4500 ق.م.) قد كشفت عن معابد ضخمة ذات مقاييس محددة تذكّرنا بمقاييس معبد سليمان.

ويقول فراس السواح بأن «الباحث John Manson، بعد دراسته التفصيلية لمعبد عين دارا، (يقع على مسافة 50 كلم إلى الشمال الغربي من مدينة حلب) يقول بأنّ 33 تفصيلاً من أصل 65 تفصيلاً مذكوراً في وصف هيكل سليمان تتطابق مع مخطط وديكورات ومنحوتات معبد عين دارا»(345). وانطلاقاً من هذه الدراسات توصل السواح إلى استنتاج مفاده بأنّ «هذا يدعونا إلى القول بأنّ هيكل سليمان المدعو بالهيكل الأول، لم يكن بدوره إلاّ معبداً كنعانياً مكرًّسا لعبادة الإله الفلسطيني يهوه وزوجته عشيرة»، سطا عليه الإسرائيليون كما سطوا على كلّ التراث القديم.

أمّا بالنسبة إلى استعانة سليمان بحيرام ملك صور لكي يرسل له البنائين لبناء قصره وبيت الله فإنها تثبت أنّ الإسرائيليين كانوا قبائل بدوية غير حضارية يعيشون في الخيم، حتى أنّ بيت الله كان حتى ذلك الوقت لا يزال في خيمة الاجتماع، وهذا ينفي عنهم كلّ ما يحاولون ادّعاءه عن حضارتهم التي فاقت حضارة الكنعانيين. أمّا استعمال خشب أرز لبنان فقد استعاره الكاتب أيضاً من أسطورة بعل السومرية. فتوماس طومسون في مقارنته بين الأسطورتين يقول: «بعل يرسل المطر في موسمه، والرعد ويرسل البرق، فإنّه يمنح الإذن ببناء بيت في سبعة أيام خلاقة، يبني بعل بيته من الأرز اللبناني ويغطيه بالفضة والذهب والأحجار الكريمة من الجبال... يبني سليمان مثل هذا البيت تماماً ليهوه... يرسل في طلب الأرز من لبنان، والمهنيين الماهرين وكلّ ما هو ضروري، في سبع سنوات بنى الهيكل، غطاه بالذهب والفضة والأحجار الكريمة المطعّمة»(346). كلّ ذلك، إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على أنّ هذا الهيكل ليس سوى سراب، وإذا أردنا الالتزام بالموضوعية الدقيقة نقول بأنّه سيبقى كذلك طالما أنّ التنقيبات لغاية الآن لم تستطع أن تعثر على حجر واحد يمكن إعادته إلى تلك الحقبة، ونترك لعلم الآثار مهمة الاستمرار بالبحث فإن تم العثور على ما يثبت إثباتاً قاطعاً أنّه يعود إلى هذا الهيكل، عندها وعندها فقط، يمكن أن نغيّر قناعاتنا ونعترف بشجاعة أنّ سليمان ليس أسطورة، وهو بالفعل قد ترك معلماً دينياً يعود إلى ما يقارب الثلاثة آلاف سنة، علماً أنّ ذلك لن يغيّر قناعتنا الأخرى، بأنّ وجود الهيكل الذي يؤكد تاريخية المملكة الإسرائيلية، لا يعطي الحق ليهود اليوم بارتكاب الجرائم واحتلال أرض الغير وتشريد السكان بحجة أنّهم كانوا يمتلكون هذه الأرض بوعد إلهي مزعوم.

بقي أن أشير إلى خطأ ارتكبه كاتب التوراة إذ قال في مطلع الإصحاح السادس من سفر الملوك الأول ما يلي: «وكان في سنة الأربع مئة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في السنة الرابعة

لملك سليمان على إسرائيل في شهر زيو وهو الشهر الثاني أنّه بنى البيت للرب». فإذا كان الدارسون اليوم قد توافقوا على أنّ خروج الإسرائيليين المزعوم من مصر قد تم في منتصف القرن الثالث عشر ق.م.، وأنّ حكم سليمان قد بدأ عام 970 ق.م. وإذا أضفنا أربع سنوات على هذا التاريخ لكان بناء البيت قد تم عام 966 ق.م، وهذا يعني أنّ عدد السنين من الخروج إلى بناء البيت على يد سليمان هو 284 سنة، فيكون الفارق ما بين محرر التوراة والدارسين حوالي القرنين فأيّة دقة تاريخية اعتمدها المحرر؟ أو أنّنا نستطيع القول بأنّ كل التواريخ التي توصل إليها الدارسون يجب أن يرقى إليها الشك.

أمّا النقطة الثالثة والمتعلقة بحكمة سليمان، فلسوء حظ الإسرائيليين أنّ علماء الآثار قد كشفوا النقاب عن كنوز الفكر الإنساني القديم في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام ومصر، حيث تسنّى للدارسين عقد مقارنة بين ما جاء في هذه الألواح والرقم والمسلاّت وبين المدوّنات التوراتية اللاحقة، فتبين لهم مدى تأثر كتبة التوراة بتراث الشعوب التي سبقتهم، وهذا طبيعي لأنّ رحلة الإنسان الفكرية لا يمكن أن تبقى حكراً على الجماعة التي خطت فيها الخطوة الأولى، بل هي سجل لكلّ المساهمات التي أعلت هذا البنيان الحضاري. ولكن، وكما أشرنا إلى هذا سابقاً، وحدهم، من بين كلّ الشعوب القديمة التي كان لها مساهمة معينة بتطوير الحضارة الإنسانية، قام الإسرائيليون بنسبة كلّ ما اقتبسوه وأودعوه كتابهم إلى إبداعهم الفكري، وبهذا وضعوا حجر الأساس لأسوأ مؤامرة عرفتها الإنسانية في تاريخها لغاية اليوم.

يخبرنا الإصحاح الرابع من سفر الملوك الأول بأنّ سليمان «تكلّم بثلاثة آلاف مثل وكانت نشائده ألفاً وخمساً... وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته»، فبماذا تخبرنا النصوص السابقة للتوراة؟ في كتاب «أحيقار حكيم من نينوى وأثره في الآداب العالمية القديمة» قدّم سهيل قاشا مقارنة بين حكم أحيقار وحكم سليمان، فكانت النتيجة ذاتها التي توصل إليها الكثير من الدارسين حول استقاء محرّر التوراة شريعة موسى من شريعة حمورابي، فإذا بالكاتب ذاته، أو غيره لا فرق، قد أخذ حكم أحيقار وأطلقها على لسان شخصيته الأسطورية سليمان. ولمّا كانت هذه الأمثال قد أثبتت في سفر الأمثال الذي ضُمّ إلى إسفار التوراة التي بدورها ضُمّت إلى الأناجيل لتُقدَّم إلى الناس كجزء من الكتاب المقدس، فقد حُفظت هذه الأمثال وظلت إلى وقت قريب معروفة بحكم سليمان، إلى أن ترجمت المكتشفات من اللغات القديمة، السومرية والبابلية والكلدانية والكنعانية والآرامية، فتبين الأصل من النحل. وسأنقل من كتاب أحيقار لسهيل قاشا بعض النماذج لتكون تأكيداً لما نقوله وعلى سبيل المثال لا الحصر.

سليمان: «من وفّر عصاه فهو يبغض ابنه، والذي يحبه يبكّر إلى تأديبه».

أحيقار: «يا بنيّ لا تحرم ابنك الضرب (التأديب) لأنّ الضرب للصبي كالسماد للبستان، وكاللجام للبهائم، وكالقيد في رجل الحمار».

سليمان: «مساير الحكماء يصير حكيماً ومؤانس الجهّال يصير شريراً».

أحيقار: «يا بنيّ، مع الحكيم لن تفسد، ومع الفاسد لن تكون حكيماً».

أحيقار: «يا بنيّ نقل الحجارة مع رجل حكيم أفضل من شرب الخمرة مع رجل جاهل».

«يا بنيّ، إنّك لن تضلّ إذا عاشرت حكيماً، ومع الضال لن تتعلّم الحكمة».

«يا بنيّ، عاشر الحكيم تصبح حكيماً مثله، ولا تعاشر الوقح المهذار لئلا تُحسب نظيره». (يقابلها اليوم: قل لي من تعاشر أقل لك من أنت).

سليمان: «لا تترك صديقك، ولا صديق أبيك، ولا تدخل بيت أخيك في يوم بؤسك، جار قريب خير من أخ بعيد».

أحيقار: «يا بنيّ، صديق قريب خير من أخ بعيد، والاسم الجيد، خير من الجمال الباهر، لأنّ الاسم الجيد يدوم إلى الأبد والجمال يذوي ويزول» (يقابلها اليوم: الجار قبل الدار، ربّ أخ لك لم تلده أمك).

سليمان: «لا تشتهِ بقلبك جمالها ولا تفتنك بجفنيها».

أحيقار: «يا بنيّ، لا ترفع نظرك إلى امرأة متبرّجة متكحّلة، ولا تشتهِها في قلبك».

سليمان: «هكذا الداخل على امرأة قريبة كلّ من مسّها لا يكون زكياً».

أحيقار: «يا بنيّ، لا تفسق بامرأة صاحبك، لئلاّ يفسق آخرون بامرأتك».

سليمان: «فإنّ الصديق يسقط سبع مرات وينهض أما المنافقون فيقعون في العطب».

أحيقار: «يا بنيّ، إنّ الأثيم يسقط ولا ينهض، والبار لا يتزعزع لأنّ الله معه».

سليمان: «ككلب عائد على قيئه، هكذا الجاهل المكرّر سفهه».

أحيقار: «كنت لي يا بنيّ، كالكلب الذي دخل إلى فرن خزّاف ليتدفّأ، وبعد أن دفيء نهض لينبح على الخزّافين».

ويقول قاشا أيضاً: «يشتمل سفر الأمثال على واحد وثلاثين إصحاحاً، تضم 912 عدداً أو مثلاً»(347)فأين الأمثال الباقية التي قالت التوراة بأنّ سليمان قد تكلم بها وعددها ثلاثة آلاف؟ وهذا الإرث السليماني دفع بالكاتب جود أبو صوان إلى أن يتوجه إلى رجال الدين المسيحيين بقوله: «يا رجال الكنيسة، بالله عليكم أن تقولوا بعد أن تطّلعوا بعقل على سيرة سليمان في التوراة، أين الحكمة في تصرّفات هذا الملك؟ أين الفضيلة في حياته حتى جعلتموه رمزاً تبشّرون بأقواله؟ هل الحكمة هي في التعددية الشبقية الديكية التي كانت لسليمان؟ أو لتعددية الآلهة التي عبدها؟ وهل الحكمة هي في مجون كلمات سفر نشيد الأنشاد وفي فيض التهتك الذي تفخر التوراة بذكره في هذا النشيد؟»(348). أمّا القول بأنّ ملوك الأرض كانوا يأتون لسماع حكمة سليمان فلم يقم عليه أي دليل. فالتوراة لم تذكر إلاّ ملكة سبأ، وسجلات الشعوب الأخرى، كما ذكرنا، خلت من أيّة إشارة ليس إلى سليمان الملك فحسب بل إلى مملكة إسرائيل أيضاً. حتى أنّ محرّر التوراة كعادته لم يذكر اسم ملكة سبأ.

ويشير فراس السواح إلى أنّ مملكة سبأ المشهورة تاريخياً، وملكتها بلقيس، قد وجدت في القرن الرابع ق.م.، أي بعد سليمان بما لا يقل عن 500 سنة، لذلك نجد «أنّ المطابقة بين ملكة سبأ الواردة

في سفر الملوك الأول، وإحدى ملكات مملكة سبأ التاريخية، لا تقوم على سند علمي»(349). ونقل جورجي كنعان في كتابه «محمد واليهودية» عن الأب أنستاس ماري الكرملي قوله في أحد مؤلفاته: «رأينا أنّ علماء العرب غير متفقين على نسبها وأسماء أبيها وأجدادها. فكلّ مؤرخ يذكرها بوجه غير وجه من تقدّمه أو عاصره أو جاء بعده. ولا تكاد تجد إخباريين قد اتفقا في هذا المعنى. والذي أثبته المحققون من أبناء العصر أنّ ولادتها كانت في نحو السنة الثانية من تاريخ الميلاد. ولم تكن أبداً في عهد سليمان». وهذا دليل آخر على عدم الصدقية التاريخية للرواية التوراتية، لا بل هو دليل على تخبط محرر التوراة العشوائي في خضم الأحداث التاريخية المتناقَلة شفاهاً من جيل إلى جيل.

ولكي أنهي الكلام عن حكم سليمان أشير إلى الحكمة الأولى في سفر الأمثال والتي تقول: «مخافة الربّ رأس المعرفة»، ثم أصبحت عند بعضهم «رأس الحكمة مخافة الله»، هذه الحكمة تدعونا إلى الخوف من الله لأنّ يهوه الإله كان يستمتع بممارسة الإرهاب لإيقاع الرعب في النفوس، نسمعه يقول لموسى: «... اجمع لي الشعب فأسمعهم كلامي لكي يتعلموا أن يخافوني» (تثنية 4: 10)، ونسمع أيضاً موسى يحذّر شعبه من صنع التماثيل وعبادتها لئلاّ يغضب يهوه - الربّ إلهك هو «نارٌ آكلة إله غيور» (تثنية 4: 24). وهذا الخوف من الله انتقل من جيل إلى جيل وها نحن نسمع داود يرتّل في مزاميره قائلاً: «مخوف أنت يا الله في مقادسك» (68: 25). فعبادة الخوف كما نعلم هي عبادة العبيد، وأفضل تصحيح لهذه الحكمة سمعته من سيدة فاضلة من آل عابد في إحدى حلقات البرنامج التلفزيوني حديث البلد عندما قالت: «رأس الحكمة محبة الله». فالله الذي كان في الموسوية إلهاً إرهابياً دموياً سفاكاً لا ينطق إلاّ بفعل القتل والإبادة أصبح مع السيد المسيح محبة وغفراناً وتسامحاً، ومن كان حكيماً جعل الله في قلبه، اي أحب الله بكلّ جوارحه، وبمحبته لله وبتسامحه وغفرانه يتحد بالله وبعد ذلك لا يمكن أن يصدر عنه أيّ فعل مسيء، ولا يمكن أن يرتكب الشرّ. المحبة تلغي الشرّ، وإلغاء الشرّ قمة الحكمة. أمّا الخوف فإنّه يوقع الإنسان في الخطأ ويقوده حكماً إلى الشرّ.

وأخيراً أود الإشارة إلى نقد لسيرة سليمان كتبه أحد حكماء اليهود ويدعى يشوع بن سيراخ بداية القرن الثاني ق.م.، والذي تبنت كتابه الكنيسة الكاثوليكية وجعلته أحد الأسفار المقدسة تحت اسم سفر يشوع بن سيراخ، يقول: «أملت فخذيك إلى النساء فاستولين على جسدك. جعلت عيباً في مجدك ونجّست نسلك فجلبت الغضب على بيتك. لقد صدّعتْ قلبي جهالتك»(350). فهلاّ توقفنا عن تنشئة أجيالنا على أخبار بطولات داود وقصته مع جليات ومزاميره، وشمشمون ودليله، وبنت يفتاح، وسليمان وحكمه وقصوره وهيكله، ونشيد أناشيده، وأيوب وصبره، والتي باتت كلّها تحت مجهر الدارسين الذين أثبتوا سرقتها من تاريخنا القديم وتحويرها ونسبتها إليهم؟ وهلاّ انتقلنا إلى تراثنا المليء بالقصص التي تفوح منها رائحة الكرامة والكرم، العزة والإباء، الشهامة والإقدام، إغاثة المستجير وحمايته، المحافظة على العهود؟ أين نجد هذه المناقب والمُثُل في كتاب التوراة؟ وكيف يُعتبر مقدساً أي كتاب يخلو منها؟ وما قيمة القداسة إنْ هي تخلت عن الإنسان وقيَمه وارتباطها بأفعاله وممارساته؟ إنّ ممارسة سياسة النعامة لم تجلب لنا سوى الويل، فهلاّ سحبنا رؤوسنا من تحت الرمال وسمحنا لبصيرة عقولنا أن ترى الأمور على حقيقتها المجردة؟

غضب الربّ - يهوه على سليمان لأنّه خالف شريعته فقسّم مملكته وأباحها لأعدائه، فسقطت السامرة بيد سرجون الأشوري، ويهوذا بيد نبوخذ نصّر، ودُمّر الهيكل وسُبي الإسرائيليون إلى بابل، وبعد أن

سقطت بابل بيد قورش الفارسي، وأغلب الظن بمساعدة داخلية من الإسرائيليين، سمح لهم قورش، وهذا الأمر غير مثبت، بالعودة إلى أورشليم وبناء الهيكل من جديد. كلّ هذه الأحداث اعتبر كاتب التوراة أنّها حصلت بإرادة من الله. والوعد الذي أعطاه يهوه لإبراهيم أولاً، ثم جدّده لإسحق ويعقوب وموسى، والقاضي بمنح ذرية إبراهيم أرض كنعان، هذا الوعد كان مشروطاً بأن يتقيد بنو إسرائيل بشريعة يهوه ووصاياه. ولقد كرّر يهوه تهديداته بأن يبيد شعبه حيناً، وأن يحكّم به الشعوب الأخرى أحياناً، وأن يُنزل به النكبات على اختلافها.

إنّ من يقرأ التوراة لا بدّ وأن يستوقفه عدد المرات التي ذكر فيها الكاتب أنّ بني إسرائيل كانوا يفعلون الشرّ في عيني الربّ، كذلك فعل ملوكهم، لم يرتدعوا عن فعل الشرّ بالرغم من كلّ التحذيرات التي كان يهوه يوجهها لهم كقوله في سفر التثنية الإصحاح السادس: «ومتى أتى بك الربّ إلهك إلى الأرض التي حلف لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيك. إلى مدن عظيمة جيدة لم تبنِها وبيوت مملوءة كلّ خير لم تملأْها وآبار محفورة لم تحفرها وكروم وزيتون لم تغرسها وأكلت وشبعت فاحترز لئلاّ تنسى الربّ... لأنّ الربّ إلهكم إله غيور في وسطكم لئلاّ يحمى غضب الربّ إلهكم عليكم فيبيدكم عن وجه الأرض» (6: 10 – 15). ومن سفر القضاة نقرأ: «وفعل بنو إسرائيل الشرّ في عيني الربّ وعبدوا البعليم وتركوا الربّ إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الربّ. تركوا الربّ وعبدوا البعل وعشتاروت» (2: 11 – 13).

لقد كانت كلّ أيام بني إسرائيل شروراً ترتكب بعبادة آلهة أخرى، ويهوه أوصاهم بأن «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي»، وبشأن الزني أوصاهم قائلاً (لا تزنِ)، وبعدم الزواج من الأغيار فلم يمتثلوا، وعلى صعيد الختان الذي كان عهداً بين الله وإبراهيم حين قال له: «فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً. أمّا الذكر الأغلف الذي لا يُختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنّه قد نكث عهدي» (تكوين 17: 13 – 14)، على أن يحصل الختان لكلّ ذكر عند بلوغه ثمانية أيام. فنرى أنّ موسى الذي نزلت عليه الوصايا كان أول من خالفها لأنّه لم يختن ولده جرشوم من صفورة بنت يثرون كاهن مديان. وهذا هو الربّ نفسه الذي هدّد بقطع نفس كلّ ذكر غير مختون يتغاضى عن عهده، بل هو يقوم بفعل نكث العهد، فيغض الطرف عن الذين لم يُختنوا ويطلب من يشوع أن يصنع لنفسه سكاكين من صوّان لهذه الغاية، لأنّ «جميع الشعب الذين ولدوا في القفر على الطريق بخروجهم من مصر لم يُختنوا. لأنّ بني إسرائيل ساروا أربعين سنة في القفر» (يشوع 5: 5). فلماذا حاول قتل ابن موسى غير المختون وترك مئات الآلاف سنين عديدة غير مختونين ولم يمتهم؟

ويبقى السؤال الأهم وهو إذا كان الوعد الأساس بمنح الأرض لذريّة إبراهيم (الإسرائيليين) مشروطاً كما قلنا بالالتزام بالشريعة والوصايا، وإذا كان بنو إسرائيل لم يلتزموا، لا خلال وجودهم في أرض كنعان، ولا في بابل بعد السبي، ولا بعد العودة، ولا بعد التشتّت الأخير عام 70م على يد القائد الروماني تيتس، ولا خلال وجودهم بين كلّ الأمم التي استقبلتهم وأحسنت وفادتهم أولاً ثم انقلبت عليهم لفسقهم وإجرامهم وسوء أخلاقهم وطباعهم، فماذا يبقى من أهمية لهذا الوعد المزعوم؟ وكيف لنا أن نتبع هذا الإله القبلي الذي لا يقيم وزناً لعهوده وكلامه وتهديداته، فينزل عند رغبة البشر، ويندم

ويتراجع عن قراراته، تاركاً لهذا الشعب ذي الرقاب الصلبة إرادة الانفضاض عنه وعبادة آلهة أخرى، والزنى مع النساء الغريبات؟

كيف يمكننا أن نربي أطفالنا على مقولة الأديان السماوية وعلى أنّ الموسوية هي الديانة التوحيدية الأولى، وأنّ كلّ ما ورد في التوراة هو كلام الله وهو القضاء والقدر؟ وكيف تنطلي هذه الحيلة على عقول المؤمنين في القرن العشرين، وعلى حكومات الدول غرباً وشرقاً، فيسمحون للصهاينة وانطلاقاً من هذا الوعد، لا أن يعودوا إلى فلسطين ليعيشوا فيها جنباً إلى جنب مع الشعب المتجذّر فيها منذ ألفيّتين من السنين، بل أن يطردوا هذا الشعب من أرضه، وأن يهدموا منازله، ويقتلعوا الشجر، ويتعدوا على المقدسات، ويقيموا دولة إسرائيل الحديثة لمحاكاة تلك التي يزعمون أنّ الله أقامها لهم في العصور الغابرة على أرض كنعان، غير آبهين بكلّ ما أثبته العلم لغاية الآن، حول المملكة الوهم والشخصيات الأسطورية التي أسست لهم تاريخهم؟

لقد لفتنا النظر سابقاً إلى الندوة التي عُقدت في شيكاغو عام 1999 والتي لم يتجرأ أحد من المشاركين فيها على تقديم أيّ إثبات على وجود العبرانيين في مصر، ولقد علّق الباحث البريطاني فيليب ديفيس Philip Davies على أعمال الندوة بملف مفصّل أختار منه ما يلي: «إنّ ما يقوله علم الآثار بخصوص الجماعات التي شكّلت إسرائيل التاريخية، هو أنّها جماعات فلسطينية محلية، وأنّ ثقافتها التي تعكسها مخلفاتها المادية هي ثقافة فلسطينية لا يمكن تمييزها عن ثقافة بقية المناطق الفلسطينية... وإنّه لمن المؤكد أنّ هؤلاء الناس لم يتحدروا من سلف واحد جاء من منطقة ما في بلاد الرافدين (أبرام)... إنّ إسرائيل التوراتية هي تصور أدبي خيالي... من هنا فإنّي أرى بأنّ النص التوراتي هو الذي ابتكر اليهود واليهودية وليس العكس... وعلم الآثار لن يستطيع القيام بدوره كاملاً إذا لم يحرّر نفسه من الضغوط التوراتية والسياسية»(351).

فإذا كان الإسرائيليون القدماء فلسطينيين، وإذا كانوا قد تسمّوا مرة باسم العبرانيين وأخرى بالإسرائيليين، كما مرّ معنا، فلماذا بتنا نطلق عليهم اليوم اسم «يهود». يقول فراس السواح: «استخدم المحرّر تعبير يهود في إشارته إلى جماعة من أهل يهوذا... ولكن محرّر سفري عزرا ونحميا قد وجد نفسه حراً تماماً في إطلاق الصفة على أهل مقاطعة يهود. من هنا، فإنّ تعبير يهود ويهودي لم يُستخدم قط للدلالة على أتباع دين معيّن بل للدلالة على سكان أرض معينة. ولكن ابتداءً من القرن الثاني الميلادي، الذي شهد صياغة الديانة اليهودية التلمودية على يد لاهوتيين عُرفوا باسم الربانيين، ابتدأت الديانة التوراتية تتخذ اسم الديانة اليهودية، وصار أتباعها يدعون يهوداً»(352).

ويقول كمال الصليبي: «الآن توجد ضرورة لتوضيح أمر مهم مرتبط بضرورة تمييز اليهودية من ديانة بني إسرائيل، واليهود عن ذلك الشعب القديم المندثر... مثلاً موسى لم يكن نبياً يهودياً، ولا هو من أسّس اليهودية، والذي أسّس اليهودية صار معروفاً، وهو النبي عزرا، ومقامه في العراق. ولغة اليهودية هي اللغة الآرامية... عند الناس من غير أهل الاختصاص فكرة سائدة أنّ بني إسرائيل كانوا يهوداً. لكن هذا غير صحيح إطلاقاً لأنّه عملياً لم يكن يوجد في ذلك الوقت يهود أصلاً. إلاّ أن اليهودية الحديثة تبنت كلمة إسرائيل... وعلينا تذكّر أن لا التوراة ولا غيرها من الكتب تطلق أي اسم على ديانة بني إسرائيل»(353). كما أشار الصليبي إلى الفرضية القائلة بأنّ المسيح كان يهودياً بناءً على النسب المثبت في إنجيل متّى والذي يعيده إلى داود الملك، وقال بأنّ «هذا ليس بالأمر الضروري. لقد كان

يسوع من بني إسرائيل»(354). ويهودا التي انتسب إليها اليهود لم تكن سوى «مقاطعة غاية في الصغر وكان سكانها من التفاهة في العدد لدرجة أنّ أذكى وأبصر السيّاح في القرن الخامس قبل الميلاد (هيرودوتس) كان يزور ما كانت تسمى بفلسطين سورية أو بسورية الفلسطينية وقد لا يسمع عن اليهود شيئاً أبداً»(355).

إذن ما علاقة يهود اليوم بالإسرائيليين القدماء؟ يقول د. كارنييف: «والواقع لا توجد أي صلة بين اليهود المعاصرين واليهود القدامى غير صلة الدين ومن وجهة نظر العلوم الإنسانية. وهم بذلك لا يملكون أرضاً ثابتة أو لغة واحدة أو ثقافة متجانسة أو حياة اقتصادية واحدة. ولهذا لا يعتبر اليهود المعاصرون شعباً، وبالتالي فإنّهم لا يشكّلون قومية»(356). وعليه فمن حقنا أن نطرح السؤال التالي: «من هم هؤلاء الأوروبيون والأميركيون والأفارقة الذين احتلّوا أرضنا باسم إلههم وما زالوا يمارسون كلّ أنواع الإرهاب بحق شعبنا، ويزيّفون الحقائق فإذا بالجلّاد يصبح الضحية؟ يقول د. كارنييف: «إنّ 90% من اليهود الموجودين في فلسطين المحتلة وفي شتات العالم هم من اليهود الخزر الذين ينحدرون من أصول تركية»(357). وهذا يجعلنا نستطرد لنطرح السؤال التالي: من هم الخزر هؤلاء؟

يتفق معظم المؤرخين والدارسين على أنّ الخزر «لا تعني في الأصل جماعة عرقية خاصة: فالمقصود هو نوع التسمية الجنسية الشعوب التركية – المنغولية المتحركة في هذه المنطقة (الشاطئ الغربي لبحر قزوين). أمّا عن علاقة هؤلاء الخزر باليهود فيقول إيلان هاليفي: «إنّ معظم المصادر عصر – أوسطية – وبخاصة العربية تثبت أنّ مملكة الخزر الوثنية تصبح في غضون القرن الثامن مملكة يهودية قبل كل شيء»(358)، ويضيف: «إنّ بولان ملك الخزر يكون قد تحوّل إلى اليهودية في عام 740 جاعلاً من مملكته دولة يهودية ومسبباً تحول الشعب. إنّ الأوصاف العربية للمملكة بعد مرور قرن أو قرنين على هذا التحول لا تؤيد بشيء فكرة أنّ اليهودية كانت ديانة الشعب»(359). وهناك من يقول إنّ الخزر اعتنقوا الديانة اليهودية على طريقة القرائية، أي أنّهم كانوا إحدى الفِرَق اليهودية التي اعتمدت على التوراة وحدها دون التلمود كما أشار إلى ذلك كوستلر. وكلّ هذه الآراء ما هي إلاّ استنتاجات خاصة قد تكون مصيبة، وقد تكون مخطئة.

ويقول شلومو ساند: «الخزر هم ائتلاف من العشائر القوية من أصل تركي أو هونو – بلغاري، امتزجوا في بداية استيطانهم مع السكوثيين الذين سبقوهم إلى تلك الجبال والبوادي الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين الذي أطلق عليه لوقت طويل اسم بحر الخزر. واحتوت مملكتهم في أوجها على خليط كبير من القبائل والمجموعات اللغوية المختلفة»(360). ثم يستطرد قائلاً: «وتشير معارفنا إلى أنّه تحت مظلة مملكة الخزر عاش معاً اليهود والمسلمون والنصارى وعبدة الأصنام وقامت الكنس والمساجد والكنائس بجوار بعضها في مدنها المركزية»(361). وهذا يعني تسفيه رأي القائلين بأنّ مملكة الخزر كانت مملكة يهودية كما كانت مملكة إسرائيل القديمة، هذا الرأي الذي اعتمده الصهاينة لأنّ 90 بالمئة من يهود الأرض المحتلة اليوم تعود أصولهم إلى اليهود الأوروبيين أي الخزر، ولا علاقة لهم كما رأينا بإسرائيليي المملكة القديمة. وهذا ما حدا بالباحث دينور إلى اعتبار وجود اليهود في المملكة سابق لتهود ملكها ثم شعبها، حيث كان القصد من هذا الإعلان القول بأنّ «جزءاً مهماً من

الخزر هم «يهود في الأصل والمولد»، وقد بات بالإمكان التفاخر بجبروتهم الإقليمي والعسكري والاتكاء على كيان سيادي يهودي قديم».

لقد أتت مواقف الباحثين اليهود والمتهوّدين لتتناغم مع ما كتبه محرّرو التوراة عن مملكة إسرائيل المزعومة، فقط ليكون هذا البناء الوهمي أساساً لدولة حديثة تقوم على فرضيات لا علاقة لها بالتاريخ. ولكن بمرور الزمن، وضمن مخطط التكرار، تفرض نفسها على أساس حقائق يصعب مناقشة صدقيتها. وينقل شلومو ساند قولاً عن العالم الجغرافي البكري هذا نصّه: (كذلك تحدّث راوٍ عربي من معاصري تلك الفترة عن تهوّد ملك الخزر إثر جدل لاهوتي عاصف، ولكن حسب روايته فقد استأجر الحاخام اليهودي قاتلاً ليقوم بتسميم العلاّمة المسلم قبل وصول الثلاثة لِـ «المنازلة» الحاسمة، وبذلك «استمال اليهودي الملك إلى دينه وتهوّد»)(362).

إنّ اختلاف آراء الباحثين حول الأحداث التاريخية عندما لا تكون مثبتة بالوثائق يُخضع هذه الأحداث لأكثر من تقويم بانتظار اكتشاف المزيد من الوثائق التي تثبت هذا الرأي أو ذاك. ولكن بعض الآراء والأخبار تبدو ملفّقة لخدمة غرض سياسي. إن قسماً من الصهاينة روّج لحكاية حسداي بن شبروط، المستشار الشخصي للخليفة عبد الرحمن الثالث في الأندلس، والذي راسل كما يبدو ملك الخزر في ذلك الوقت يوسف، حيث يرى إيلان هاليفي أنّ «رسالة حسداي بن شبروط ترد وكأنّها رسالة شخصية من يهودي أندلسي إلى ملك يهودي وفي الوقت نفسه كسبر لرحلة حاخامية تسعى إلى تحديد صحة يهودية الخزر»(363). ثم يذكر أنّ أمين سر الملك يوسف، الذي لم يدّع إطلاقاً أنّه من أصل إسرائيلي، صرّح بأنّ (ملوك الخزر هم الذرية المباشرة ليافث الإبن الثالث لنوح ويتحدّرون من حفيده توغارما الجد الأول لكافة القبائل التركية: «لقد وجدنا في كتب آبائنا أنّ توغارما رزق بولدين وأنّ أسماء ذريته كانت الآتية: ويفور، دورسون، آخار، هون، بازيلي، تارنياخ، خزر، زاغورا، بلغار، سابير. ونحن أبناء خزر الإبن السابع)(364).

إنّ هذه الطريقة اتبعت من قبل كاتب التوراة من خلال تعداد ذرية رجل واحد ثم ربط سلالته بولد واحد. وإذا عدنا إلى التوراة نقرأ في الإصحاح العاشر من سفر التكوين ما يلي: «بنو يافت جومر وماجوج وماداي وياوان وتوبال وماشك وتيراس. وبنو جومر أشكناز وريفاث وتوجرمة. وبنو ياوان أليشة وترشيش وكتيّم ودودانيم. من هؤلاء تفرقت جزائر الأمم بأراضيهم كلّ إنسان كلسانه حسب قبائلهم بأممهم» (10: 2 - 5). ولا بدّ من التعليق على هذه الأسطر. أولاً عدّد الكاتب سبعة أولاد ليافث، فلماذا اختار اثنين فقط وهما جومر وياوان ليذكر أولادهما وأهمل الخمسة الآخرين؟ ثم كيف يقول أمين سرّ الملك إنّه وجد بين أوراق آبائه أن توجرمه (توغارما) رزق بولدين والتوراة لم تذكر شيئاً عن ذلك، بل توقف الكاتب عند الجيل الثاني ليافث؟ وإذا كان صحيحاً أنّ خزر هو من ذرية توغارما، فكيف انتقل من بلاد ما بين النهرين إلى بحر قزوين مع بدء الخليقة؟ ولماذا لم تأتِ التوراة على ذكره؟ وانطلاقاً من ربط مملكة الخزر بخزر هذا، ألا نستطيع أن نربط بلغاريا ببلغار الولد التاسع لتوغارما، فتكون بلغاريا أيضاً دولة يهودية وشعبها يهود؟ وانطلاقاً من هذا الربط العشوائي بالأسماء ألا نستطيع ربط يهود الأشكناز (تعبير عُرف به يهود ألمانيا في القرون الوسطى) بأشكناز بن جومر بن يافث؟ وإلى من نرد اليهود السفارديين (تعبير يطلق على يهود إسبانيا في القرون الوسطى)؟

وبالإضافة إلى ذلك ألا يناقض هذا الانتساب إلى يافث بن نوح كل جهود كاتب التوراة لربط الإسرائيليين بسام بن نوح الذي باركه الربّ فكان أبرام (إبراهيم) من ذريته والذي يعتبره اليهود جدّهم الأول؟ أما آن لنا أن نخرج من هذا الفخ الذي نصبه كاتب التوراة لكلّ شعوب الأرض لنعلن خرافية هذه السلالات التي لا يقوم عليها أيّ دليل علمي؟ وما قيمة هذه التقسيمات السلالية وقد مرّ معنا كيف اختلط الإسرائيليون بالكنعانيين، وكيف نكثوا عهدهم مع الربّ عندما تزوجوا من الأغيار ولم يلتزموا بشريعة موسى؟ وأيّ شعب في العالم يستطيع أن يعلن اليوم صفاء عرقه؟ ألا نلاحظ أنّه وبالرغم من تشدّد رجال الدين مع أتباعهم بعدم التزاوج مع أبناء الديانات الأخرى (تنفيذاً لوصايا يهوه)، لم يستطيعوا الحدّ من ظاهرة الزواج المختلط، وأنّها على تزايد يوماً بعد يوم؟ وكيف يرد اليهود على الدراسات التي تؤكد تمازجهم مع شعوب كثيرة؟

يقول فيليب حتي: «وتزاوج السكان الجدد مع جميع هؤلاء وكانت النتيجة هي الشعب العبراني الذي اتصف بأصول عرقية متنوعة تضم عناصر سامية وحورية وحثيّة وغير ذلك من العناصر غير السامية»(365). ويقول الدكتور رفيق الحسيني: إنّ الباحث الصهيوني آرثر كوستلر قد توصل إلى استنتاج أنّ اليهود الشرق – أوروبيين «لم يكونوا ينتمون إلى أيّ من القبائل الإسرائيلية الإثنتي عشرة، بل إلى قبيلة أسماها بالثالثة عشرة وهي قبيلة الخزر»(366). ويختلف كوستلر عن غيره من الباحثين عندما يعيد مملكة الخزر إلى القرن الثاني عشر الميلادي بدلاً من القرن الثامن. وبناءً على دراسة نظرية كوستلر يتوصل الكاتب إلى الاستنتاج التالي: «أولئك اليهود القادمين إلى فلسطين من روسيا وبولانده وباقي أنحاء أوروبا الشرقية، والذين أطلق عليهم اسم «القبيلة الثالثة عشرة»، ليست لهم أيّة علاقة بأرض كنعان من قريب أو بعيد عدا الصلة الروحانية، ولم يسكن أجدادهم فلسطين قبل آلاف السنين». وماذا يعني كاتب التوراة عندما يقول: من هؤلاء تفرقت جزائر الأمم... كلّ إنسان كلسانه حسب قبائلهم بأممهم؟ ألم يكن الجميع بعدُ أخوة يتكلمون اللغة ذاتها؟

لقد فشلت محاولات الصهاينة بربط أصول يهود الخزر بيهود العهد القديم، كما فشلت محاولاتهم الهادفة إلى مطابقة المكتشفات الأثرية بالمرويات الكتابية التوراتية، لكنهم بالرغم من ذلك ضربوا عرض الحائط بكلّ الدراسات التي كشفت زيف ادعاءاتهم. خططوا لاختراع الشعب اليهودي الحديث استناداً إلى أسطورة بني إسرائيل القديمة، وجاراهم بذلك العالم، ونجحوا بإقامة دولة إسرائيل الحديثة مستغلين مشاعر المؤمنين المضلّلين، ومستخدمين كلّ وسائل الضغط والإكراه لتنفيذ غايتهم، مستفيدين من تضعضع الوضع في العالم العربي أواخر أيام الإمبراطورية العثمانية، فدفعوا بالدول الكبيرة إلى الاقتتال فكانت الحرب العالمية الأولى التي استطاعوا خلالها السيطرة على الحكومة البريطانية بشخص وزير خارجيتها بلفور الذي أصدر وعده الشهير، فكان بالنسبة للصهاينة كوعد يهوه لإبراهيم.

لقد مهّد الصهاينة لعملهم هذا بفيض من الدراسات الكتابية من جهة والنظريات الاجتماعية المتعلّقة بمفهوم الشعب والأمة والقومية من جهة ثانية، لكي يثبتوا حقهم التاريخي بفلسطين. لقد فشلوا لاهوتياً واجتماعياً لكنّهم نجحوا سياسياً وعسكرياً. فإرهابهم الفكري لم يستطع كمّ أفواه الباحثين عن الحقيقة العلمية، بينما نجح إرهابهم السياسي والعسكري بفرض واقع جديد تمثّل باحتلال جزء من فلسطين أولاً، ثم وعلى مدى عقدين تمدد هذا الاحتلال ليشمل معظم فلسطين وأجزاء من لبنان وسوريا.

الجميع يعرف كيف استطاع اليهود احتلال فلسطين، ويعرفون أيضاً كيف استطاعت إسرائيل أن تصبح أقوى من الدول العربية مجتمعة لكي تؤمّن استمرارها، ولكن علينا أن نعلم النظريات الاجتماعية التي اعتمدها مفكروهم لإقناع الرأي العام بأنّهم يشكّلون شعباً وأمة ذات قومية واحدة.

كُثُر هم الذين يعتبرون موسى هس أول مفكّر يهودي طالب جدياً بإقامة مستعمرات يهودية في فلسطين. وفي هذا الصدد يقول ربيع داغر: «وفي عام 1862 صدر كتاب «روما والقدس» لمؤلفه «موسى هس»، وقد دعا فيه إلى إقامة مستعمرات يهودية في مناطق غور الأردن وقناة السويس... وقد عرض شلومو ساند في كتابه «اختراع الشعب اليهودي» معظم نظريات هؤلاء المفكرين الذين سخّروا العلم لأهدافهم السياسية، فأتت كلّ نظرياتهم مفعمة بالعنصرية المستمدة من توراتهم. فكان الكتاب الأول بعنوان «تاريخ اليهود من العصور القديمة وحتى أيامنا» للمؤلف هاينريخ غريتس، حيث يعتبر ساند أنّ هذا الكتاب «يشكّل أول مؤلَّف بُذل فيه جهد بانفعال وتناغم لاختراع الشعب اليهودي، بينما أضحى مصطلح (شعب) يتضمن جزئياً المعنى المعطى لـ(الأمة) العصرية»(367). وقول ساند (اختراع الشعب اليهودي - عنوان كتابه) يشير إلى أنّ الجميع، بمن فيهم اليهود، كانوا ينظرون إلى اليهود ليس كشعب ذي قومية لأنّ «اليهودية بالنسبة لمعظم المثقفين، ورثة حركة التنوير في وسط أوروبا وغربها، كانت طائفة دينية ولم تكن قطعاً شعباً مشرداً أو قومية أجنبية»(368).

ولقد أكد هذه النظرية كلٌّ من المفكرين اليهوديين يوسف حاييم برنر وبريتس سمولنسكن. وأورد جودت السعد في كتابه «أوهام التاريخ اليهودي» رأي كلٍّ منهما حيث كتب الأول يقول: «كلّ ما نعرفه عن حياتنا يشير إلى أنّ الجماهير اليهودية ليس لها السمة الاجتماعية بالمعنى السوسيولوجي، ونحن لسنا شعباً مترابط الأجزاء»، وكتب الثاني يقول: «نحن شعب تربطه وحدة الروح والنفس ويجمعه الحب، كما لم يجمع شعباً آخر على أنّنا لا نشكّل أمة بالمعنى الذي تتشكّل به الأمم الأخرى، كنّا دائماً أمة روحية، وكانت التوراة أساس تجمّعنا، لذا استمرت ديمومتنا حتى يومنا هذا، شعباً روحياً، الروح تجمع هذا الشعب وإن اختلف المسمى واختلفت الوسيلة». وفي كلام هذا المفكّر أكثر من جانب، الأول إضاءته على وحدة الروح والنفس المتولدة عن تعلقهم بكتابهم الديني، معترفاً بأنّ ما يجمعهم هو كتاب التوراة. الجانب الثاني هو كشفه عن حقيقة تاريخية ملازمة لهم وهي العنصرية، فعندما يقول «ويجمعه الحب كما لم يجمع شعباً آخر»، فهو يشير إلى خصوصيتهم التي يرفضها المنطق، فهم ككل الجماعات الدينية الأخرى التي أدّى تمسكها بكتابها وطقوسها إلى استمراريتها. فبماذا يتميزون بهذه النقطة عن المسيحيين أو المحمديين أو البوذيين؟ والجانب الثالث هو اعترافه بأنّهم لا يشكّلون أمّة «بالمعنى الذي تتشكل به الأمم الأخرى» لأنّ الأمم الأخرى لم تعتمد بتشكلها على العصبية الدينية بل على العصبية القومية، والفارق شاسع بين النظريتين.

إنّ أمماً كثيرة اليوم ذوات قومية واحدة فيها تعدّد للطوائف والمذاهب، وفيها في الوقت ذاته وحدة روحية ونفسية ناتجة عن تفاعل أبنائها بعضهم مع بعض اجتماعياً على أساس الانتماء، لا إلى طائفة واحدة، بل إلى أمة واحدة. وحدهم اليهود، ودولة إسرائيل تحديداً، يريدون أن يكونوا مواطني دولة ذات قومية دينية استناداً إلى نظريات المفكرين الصهاينة الذين سخّروا علم الاجتماع ليتوافق مع غاياتهم السياسية الرامية إلى السيطرة على فلسطين كخطوة أولى على طريق السيطرة على أراضي

إسرائيل الكبرى التي حددها لهم إلههم من الفرات إلى النيل. فموسى هس ركز على مسألة العرق معتبراً أنّها السند الأساس الذي يقف خلف المسألة القومية. واعتبر أنّ «سبب نزاع اليهود مع الأغيار يكمن في حقيقة أنّهم شكلوا على الدوام مجموعة عرقية منفصلة، بدايات هذا العرق القديم والمعمر في مصر»(369). وقد أتى بعد هس من انتقد هذه النظرية العرقية حيث كتب جوزف رايناش سنة 1919 قائلاً: «إنّ الكلام على عرق يهودي ينمّ عن جهل أو سوء نية. لم يوجد أبداً عرق يهودي بل كان هنالك عرق سامي أو عربي»(370). وهو يؤكد أيضاً تحدّر معظم اليهود الحاليين من يهود الخزر فيقول: «تتحدّر الأكثرية الساحقة من اليهود الروس والبولنديين والغاليين من الخزر، الشعب التتري الذي جاء من جنوب روسيا واعتنق اليهودية جماعياً زمن شارلمان»(371).

أمّا المفكّر دوفنوف فقد استند في نظريته عن القومية، برأي شلومو ساند، إلى نظريات رينان الفرنسي وهردر وفيخته الألمانيين، وتوصل إلى استنتاج خاص مفاده: «ليس العرق وليست اللغة وليست البقعة الجغرافية هي التي تحدد في شكل نهائي صورة الأمة في التاريخ. فالأمم متميزة بكونها الحاملة لثقافة روحية طويلة الأمد تُستنسخ وتنتقل من جيل إلى جيل»(372). وقد حاول دوفنوف المؤرخ اليهودي الروسي إلباس نظريته لباس العلمانية بعدم اعتماده على العرق واللغة، لكنّه ارتكب خطأين: الأول باستبعاد عامل الأرض، وهو العامل الأول والأهم بنشوء أيّة جماعة بشرية، والثاني بالتركيز، كبريتس سمولنسكن، على الناحية الروحية إذ «اضطر إلى التوكيد على استمرار صيانة الديانة اليهودية كشرط حيوي لوجود ثقافة الأمة العلمانية». فالثقافة الروحية، برأيه، لا تتجاوز حدود الديانة، فكيف يمكن اعتبار الثقافة الدينية ثقافة علمانية؟

ويجول شلومو ساند على مختلف المفكّرين الصهاينة متطرقاً إلى نظرياتهم في علم الاجتماع التي انصبت كلّها، كما أشرنا، على عملية المساعدة باختراع الشعب اليهودي. وها هو يضع على المشرحة نظرية الكاتب «باعر» والذي يعتبره «أول باحث مهني متخصص في شؤون التاريخ اليهودي والذي قُيِّض له أن يعلّم ويربّي عدداً كبيراً من التلاميذ»، فينقل مقطعاً من نظريته المثبتة في كتابه «منفى» نختار منه ما يلي: «أعدّ الله لكلّ أمة حصة من الأرض، وحصة شعب إسرائيل هي أرض إسرائيل، وهي مكانه الطبيعي... تشتت اليهود بين الأغيار يعتبر إذن معاكساً للنظام الطبيعي... وبما أنّ اليهود هم وحدة قومية واحدة، بل وبدرجة أسمى من سائر الأمم، فإنّ من الضروري أن تعود لتكون (أمة واحدة موحدة)... فإنّه يتعين على كلّ يهودي حيثما كان في شتات المنفى أن يعرف أنّ ثمة قوة تضع الشعب اليهودي فوق كلّ علاقة تاريخية سببية»(373).

فهذا المفكّر الصهيوني أظهر، من خلال نظريته هذه، من العنصرية ما يذكّرنا بيهوه الذي طرد الكنعانيين لأنّ نوحاً غضب على ابنه حام فلعن ولده الأصغر كنعان، وأعطى أرضه لشعبه المختار ذريّة إبراهيم. وهذا المنح كان نتيجة وعد إلهي لا يمت إلى المنطق بأيّة صلة، بل أثبتنا أنّه لا يعدو كونه تصوراً خيالياً لتاريخ جماعة من الناس لم تستطع أن تثبت تاريخها خارج المرويات اللاهوتية الخاصة. وهذا الوعد الإلهي مقتصر على هذا الشعب ومعطى من إله هذا الشعب الخاص، وهو يخلو من أيّة قيمة قانونية تسمح لهذا الشعب بإعادة تملك الأرض التي يتخيل أنّه امتلكها بناءً للوعد الإلهي فيما مضى من الزمن السحيق. وتشتت اليهود ليس معاكساً للنظام الطبيعي، بل المعاكس هو إعادة سلبهم أرض الغير مرة ثانية ودعوة شتاتهم للتخلي عن انتمائهم للأمم التي استوعبتهم والعودة إلى

الأرض الموعودة. إذن نحن نجد أنّ هذا المفكر، كغيره من المفكرين الصهاينة والمتصهينين استوحى أفكاره السوسيولوجية من تراث يهوه التوراتي، إن لجهة حقهم بالأرض، مع ما يستدعي ذلك من إبادة للسكان الأصليين، أم لجهة بث روح العنصرية والاستعلاء التي تمثلت بقوله «وبدرجة أسمى من سائر الأمم». فأيّ قانون طبيعي اجتماعي يتوافق مع هذه النظرة الاستعلائية؟ إنّ انطلاق معظم الدارسين من مرويات أسفار التوراة باعتبارها أسفاراً مقدسة إلهية، وبأنّها تؤرخ بشكل دقيق لحياة «شعب إسرائيل»، فيه تسفيه للعقل والعلم على السواء، كما أنّه حمل في طياته بذور اختراع هوية قومية لهذه الجماعة استناداً إلى نظريات وُضعت خصيصاً لكي تتطابق مع واقعها وغايتها.

ويشير ساند إلى العقبات التي بدأ علم الآثار يكشفها بدءاً من ستينيات القرن العشرين، والتي أخذت تشكّل صدمة لدارسي التاريخ الإسرائيلي الذين فوجئوا بالتناقضات التي أبرزتها المكتشفات الأثرية مع المرويات التوراتية، والتي لم يستطيعوا طمسها أو تزوير حقائقها. والمشكلة الكبيرة التي واجهتهم كانت «أنّه لم يتم العثور على أيّ ذكر أو إشارة لِـ «بني إسرائيل» الذين عاشوا في تلك المملكة وثاروا عليها أو خرجوا منها في أيّ وقت من الأوقات»(374) (وهو يعني المملكة المصرية). فإذا أنكرت السجلات وجود هؤلاء القوم في مصر، فماذا يبقى من معنى تاريخي لخروجهم منها، وتيههم في الصحراء، ودخولهم البطولي أرض كنعان، وإقامتهم للمملكة المتحدة التي انتهت بالانهيار؟ فما بُني على خيال في مرحلة زمنية محددة، لا يمكن أن يتحول إلى حقيقة في مراحل لاحقة.

ونحن إذ نؤكد ذلك، نعود للقول إنّ يهود اليوم ليسوا سوى طائفة دينية، لا تشكّل عرقاً صافياً مميَّزا مؤهلاً ليكون نواة أمة ذات قومية واحدة. إنّهم كالبوذيين والمسيحيين والمحمديين يؤمنون بشريعة واحدة تشكل لهم بُعداً روحياً واحداً، لكنهم كالآخرين يعيشون في دول شتى، ويجب أن يكون انتماؤهم القومي، ويبقى، لهذه الدول، لا كما قال الحاخام موهيليفر: «إنّ الله يفضل أن يعيش مع أبنائه في أرضهم (فلسطين) حتى لو لم يتقيدوا بتعاليم التوراة، على أن يظلوا في الشتات متقيدين بها»(375). فما هي قيمة هذه الفتوى؟ وكيف علم الحاخام المبجّل ماذا يفضّل الله؟ وبقوله «مع أبنائه» ألا يذكّرنا أيضاً بعنصرية إلهه الذي ميّز بين الناس فإذا ببني إسرائيل وحدهم أبناء الله وبقية الناس حيوانات خلقها هذا الإله لخدمتهم؟ ألم يناقض بقوله هذا ما ورد في سفر التثنية (28: 9) من تنبيه الربّ لهم بأنّهم لا يكونون شعبه الخاص إلاّ إذا حفظوا وصايا الرب: «يقيمك الربّ لنفسه شعباً مقدَّسا كما حلف لك إذا حفظت وصايا الربّ إلهك وسلكت في طرقه». وهم كما أثبتنا لم يحفظوا هذه الوصايا ولا عملوا بموجبها، فكيف يقوّل هذا الحاخام الله أشياء من عندياته فتصبح عند الناس ثوابت إلهية؟

لقد تطرّق د. كارنييف إلى ما توصل إليه الباحثون وعلماء (علم الإنسان) من أنّ اليهود كغيرهم من الطوائف الدينية يتشابهون مع أبناء الأمم التي نشأوا فيها، فهم «يعيشون وسط عدة مئات من الأمم وليس لديهم أي صفة قومية مشتركة أو عامة ولا حتى صلات قومية فيما بينهم... ولا تجمعهم أي خاصية عامة عدا الدين»(376). وينقل الكاتب ما كتبه لينين في الجزء الثاني من المجموعة الكاملة وملخصه أنّ: «البحث العلمي المعاصر، الذي يعتني أساساً بخصائص تاريخ اليهودية، ينكر وجود خصائص قومية لليهودية بل أيضاً ينكر وجود خصائص عرقية لها»(377). أمّا ستالين فكان أكثر وضوحاً عندما قال: «الأمة هي شراكة - مستقرة بين مجموعة من الناس، نشأت بصورة تاريخية، وتبلورت استناداً إلى أربعة عناصر ومميّزات مشتركة أساسية، أي على أساس الشراكة في اللغة

والبقعة الجغرافية والحياة الاقتصادية والخاصية النفسية، والتي تتجلى في الشراكة في السجايا الخاصة للثقافة القومية»(378). فستالين لم يستطع بفكره الأممي أن يقفز فوق الواقع الاجتماعي، والعناصر التي عدّدها منها ما هو سببي ومنها ما هو نتائجي. وإذا ما حاولنا تطبيق هذه النظرية على بني إسرائيل لتوصلنا إلى نتيجة واضحة وهي أنّهم افتقدوا خلال ألفَيْ سنة إلى سبب رئيس هو البقعة الجغرافية، أمّا اللغة والحياة الاقتصادية فكانتا حاضرتين جزئياً في حياتهم نتيجة وجودهم في دول متعددة وتعاملهم مع شعوب كثيرة. وحدها الخاصية النفسية الروحية طبعتهم بطابع خاص هو طابع الاستعلاء والعنصرية والحقد على العنصر البشري بشكل عام.

وفي مؤلَّفه «اليهودية كجنس ودين» ينكر الفيلسوف رينان نقاء العرق اليهودي ويقول: «لا يجوز حتى الحديث عن هذا، فقد تعرّض اليهود للتمازج مع الشعوب الأخرى بنفس القدر الذي تعرَّضت له الأجناس الأخرى». ونقل سهيل التغلبي قولاً عن الفيلسوف اليهودي فيلون الإسكندري (20 ق.م. 54م) هذا نصّه: «إنّ اليهود - لكثرة عددهم - لا تحتويهم بقعة واحدة، ويتفرقون لطلب الرزق في أغنى البلاد من أوروبا وآسيا... ويحسبون وطناً لهم كلّ أرض عاشوا فيها، وعاش فيها آباؤهم وأجدادهم من قبلهم»(379). فهذا الفيلسوف اليهودي لم يقل بأنّ اليهود يحسبون وطناً الأرض التي وعدهم بها يهوه، ولا قال أرض كنعان، بل قال حيث عاش آباؤهم وأجدادهم في أوروبا وآسيا. ثم يشير التغلبي إلى دراسة حديثة قام بها أحد علماء اليهود الحديثين الأستاذ جوروفنتش، أستاذ الأجناس في الجامعة العبرية وعميد كلية الطب فيها في الوقت نفسه، حيث وصل إلى الحقيقة العلمية التي تقول بأنّ «اليهود ليسوا شعباً بل طائفة دينية تضم جماعات مختلفة من الناس اعتنقوا ديناً واحداً»(380).

وللتأكيد على خرافة النقاء العرقي واستغلالها لاختراع الشعب اليهودي أثبت يوسف أيوب حداد سلسلة من أسماء الآباء والملوك المعتبرين إسرائيليين والذين تزوجوا من غير الإسرائيليات مازجين بذلك دماءهم بدماء الأغيار، كما يشير إلى أنّ التوراة نفسها لا تعتبرهم إسرائيليين بدءاً بإبراهيم الذي قالت عنه إنّه كان آرامياً، وصولاً إلى سليمان الذي كان له ألف من النساء معظمهن من الأغيار. ويصل إلى الاستنتاج بناءً على أبحاث العلماء أنّه «من الثوابت التي لا تقبل الجدل أنّ بدعة النقاء العرقي السلالي بدعة خرافية ساقطة»(381)، وأنّ يهود إسرائيل بالمنظور الأنتربولوجي «يشاركون القرابة مع كلّ شكل من العرق الآسيوي/ الأفريقي، كما أنّ الجماعات اليهودية من أصل أوروبي تمثل كلّ تنوعات العروق الأوروبية من الشعر الأشقر والعيون الزرق في شمال أوروبا إلى الشعر الأسود والعيون العسلية والرؤوس المستديرة في المناطق الألبية الجنوبية»(382). كما ينقل المؤلف إعلاناً لرئيس المجلس الأميركي لليهودية، يسنغ روز نوولد، مفاده «أنّ اليهود مجموعة تدين باليهودية، وليسوا عرقاً صافياً»(383).

ولقد كتب وايزمن، أول رئيس لدولة إسرائيل الحديثة، في مذكراته بأنّ «يهود ألمانيا كانوا ألمانيين أولاً، ويهوداً من بعد... وكان الدكتور بارنيس، على يهوديته، يدعو إلى وجوب امتزاج اليهود في الأمم التي يعيشون فيها... وحاول أن يقنعني بأنّ اليهودية دين لا جنسية»(384). لكنّ وايزمن الصهيوني أفهم الدكتور المذكور «أنّ اليهودية جنسية وقومية، وأنّ كل يهودي حيث كان هو يهودي أولاً، وروسي أو ألماني أو غير ذلك من بعد». وانطلاقاً من هذا القرار الصهيوني يعترف وايزمن بأنّ أصحاب الصهيونية العملية كانوا يقولون بضرورة «احتلال أراضي فلسطين، والعمل على

إحياء التقاليد اليهودية بين يهود العالم، وإحياء وتعميم اللغة العبرية، ثم ربط يهود العالم بفكرة وطنهم، ووطنهم هو فلسطين»(385).

ومع أرنست غِلنَر يختلف تحديد مصطلح القومية، فبالنسبة له «ليست الحركات القومية يقظة الأمم لكي تعي ذواتها، بل إنّها تخترع الأمم حيث لا تكون موجودة»(386). ومن هذا التحديد نفهم أنّ غِلنَر كان يعلم حق العلم بأنّ اليهود لا يشكّلون أمة فاعتمد هذا التعريف لكي يساعد السياسيين الصهاينة على اختراع الشعب اليهودي الموجود دينياً لا قومياً. وكإشارة إلى اختلاف علماء الاجتماع حول مفهوم الأمة والقومية نقرأ لبندكت أندرسن تحديداً قريباً من تحديد غِلنَر ولكن بصياغة مختلفة، إذ يقول ما يلي: «وإنّه لمما يجعل الأمور أسهل، في اعتقادي، أن نتعامل مع القومية على أنّها من قبيل «القرابه» و"الدين»، وليس «الليبرالية» أو الفاشية»... إليكم، إذاً، هذا التعريف للأمة، الذي اقترحه بروح أنثروبولوجية، الأمة هي جماعة سياسية متخيّلة، حيث يشمل التخيّل أنّها محددة وسيّدة أصلاً»(387).

وهذه النظرة إلى القومية والأمة فيها الكثير من السطحية الغائية، فهو يحاول أن يسهّل الأمور وكأنّ وضع تعريف علمي للأمة هو لعبة للتسلية ويجب ألاّ تكون شروطها معقّدة، ثم يحاول ربط القومية بالقرابة، أي العرق، والدين وهذان العنصران هما ركيزة التفكير الصهيوني. أمّا أن تكون الأمة مرتبطة بجماعة سياسية متخيّلة، فهذا يعطي الحق لكلّ حزب سياسي داخل الأمة الواحدة بأن يسعى إلى الانشقاق والسيطرة على قطعة من الأرض والانفصال عن الدولة الأساسية التي تشكّل المظهر السياسي للأمة. وبث هذا التعريف لا يقود إلاّ إلى تفتيت المجتمعات التي تشهد صراعات طائفية أو مذهبية أو سياسية، بينما تبقى الدول القوية بمنأى عن تأثيره.

من كلّ هذه التحديدات لمفهومي الأمة والقومية نستنتج اختلاف العلماء فيما بينهم والذي نتج عنه هذا الكم الذي لم نَسُقْ سوى عدد قليل منه، للتدليل على أنّ المفكرين الذين كانوا يدورون أولاً في فلك الحلم اليهودي التوراتي، ومن ثم في فلك الصهيونية، لم يكن لهم من هم إلاّ أن يعطوا شرعية لوجود غير شرعي لما كان يسمى قديماً ببني إسرائيل وحديثاً باليهود، فأتت نظرياتهم لتتوافق مع هذه الغاية، كما جاءت نظريات الأركيولوجيين والمؤرخين بداية لتتوافق مع المرويات التوراتية إلى أن اصطدمت في النصف الثاني من القرن العشرين بحقائق آثارية ألغت كلّ ما كان قد توصل إليه علماء الفترة السابقة.

هل ساهم أحد من أمتنا بوضع مفهوم واضح ومحدد انطلاقاً من درس موضوعي لعلم الاجتماع؟ الجواب هو نعم، فأنطون سعادة خاض غمار هذا العلم وشرّح نظريات كبار العلماء ووصل إلى نتيجة في كتابه «نشوء الأمم» بأنّ أول من حدّد مفهوم الأمة هو بسكال منتشيني. ثم يعدّد أسماء العلماء الذين أدلوا بدلوهم بهذا الموضوع الدقيق والمهم، شارحاً نظرياتهم، ليصل بعد ذلك إلى مفهومه الخاص للأمة والقومية والذي خالف فيه رأي الكثيرين والتقى جزئياً مع بعضهم، ومنهم منتشيني وإيوانوف. فالأمة بالنسبة لسعادة واقع اجتماعي، أمّا الدولة فهي المظهر السياسي للأمة. وانطلاقاً من كونها واقعاً اجتماعياً فهي لا يمكن أن تكون ذات «أصل سلالي واحد، حتى ولا أصل شعبي واحد، إذا أردنا أن نعود إلى الأصل الفيزيائي أو التاريخي»(388). «فالأمة تجد أساسها، قبل كلّ شيء آخر، في وحدة أرضية معينة تتفاعل معها جماعة من الناس وتشتبك وتتحد

ضمنها» (389). ومتى توفرت البقعة الجغرافية والعنصر البشري، فإنّ التفاعل يحصل لا محالة على وجهين: الأول تفاعل الإنسان مع ما تقدمه هذه البيئة الجغرافية المحددة من إمكانيات، والثاني تفاعل الجماعة البشرية بعضها مع بعض بداية، ثم مع الجماعات التي يمكن أن تعود للوجود في البقعة الجغرافية ذاتها، إمّا بعامل الغزو فالتمركز، وإما بعامل الدخول السلمي التدريجي. وبهذا تصبح «الأمة جماعة من البشر تحيا حياة موحدة المصالح، موحدة المصير، موحدة العوامل النفسية – المادية في قطر معين يكسبها تفاعلها معه، في مجرى التطور، خصائص ومزايا تميّزها عن غيرها من الجماعات» (390).

وانطلاقاً من هذا التعريف المحدد فصل سعادة بين أسباب نشوء الأمة ونتائج هذا النشوء، الأمر الذي كان ملتبساً على الكثير من الدارسين والعلماء إن لم نقل كلّهم. فالسببان الرئيسان هما الأرض والشعب، أمّا الدين واللغة والتاريخ المشترك والثقافة الروحية – المادية الواحدة فهي نتائج يفرزها تفاعل الجماعة البشرية مع البيئة الجغرافية التي تشكّل لها الأرضية الصالحة لكي تشعر فيها بخصائصها المميّزة على كلّ صعيد. من هنا كانت الاختلافات بين أمة وأمة نتيجة طبيعية لاختلاف المعطيات البيئية من جهة وكيفية التعاطي معها من جهة ثانية. وينتقد سعادة نظرية المفكر اليهودي إسرائيل زنفويل التي تقول بأنّ الشعب اليهودي تمكّن من الاحتفاظ بنفسه دون بلاد، واعتبر أنّ هذه النظرية تشكّل غلطاً اجتماعياً فاضحاً. «فاليهود احتفظوا بيهوديتهم الجامدة من حيث هم مذهب ديني. وقد أكسبهم دينهم الشخصي عصبية لا تلتبس بالعصبية القومية إلاّ على البسطاء والمتغرّضين. اليهود ليسوا أمة أكثر مما هم سلالة (وهم ليسوا سلالة مطلقاً)، إنّهم كنيس وثقافة» (391).

أمّا عن القومية فيقول سعادة إنّها «يقظة الأمة وتنبهها لوحدة حياتها ولشخصيتها ومميّزاتها ولوحدة مصيرها. إنّها عصبية «الأمة». وقبل تحديده لمفهوم الأمة والقومية انطلق سعادة من مفهوم لم يتطرق إليه غيره وهو مفهوم المتحد، فاعتبر أنّ «كلّ قرية متّحد ولا يُعكس، وكلّ مدينة متّحد ولا يُعكس، وكلّ منطقة متحد ولا يُعكس، وكلّ قطر متّحد ولا يُعكس. والقطر الذي هو متّحد الأمة أو المتّحد القومي هو أكمل وأوفى متحد»، إنّه المجتمع الواحد. وانطلاقاً من هذا المفهوم، وجواباً على سؤال طرحه يوسف الخال على كمال جنبلاط، حول ما إذا كان كيان لبنان الحاضر هو الكيان الصحيح، أجاب: «مع الأسف، هذا المجتمع ليس مجتمعاً بالمعنى الصحيح، لأن ليس هنالك من متّحد لبناني، على حد تعبير أنطون سعادة الذي هو ولا شك، خير من كتب في هذا الموضوع» (392).

وأعتقد أنّ جنبلاط أصاب وأخطأ في الوقت ذاته. أصاب عندما اعتبر أنّ لبنان لا يشكل مجتمعاً بالمعنى الصحيح، لأنّ المجتمع هو المتّحد الأتم، أي المتحد الذي يمثل الأمة جمعاء من الناحية القومية وأخطأ عندما قال بأنّ لبنان ليس متَّحدا، إذ انطلاقاً من تحديد سعادة نفهم أنّ القرية متحد، والمدينة والقطر كذلك، لكنّ المتّحد الأتم لا يمكن أن يكون قرية أو مدينة أو قطراً. ولمّا كان لبنان يشكّل، بنظر سعادة، جزءاً من أمة، فهذا يعني أنّه ليس متَّحدا كاملاً أي لا يمكن أن يكون مجتمعاً كاملاً، وإلاّ أصبح بذاته أمة لها عصبيتها القومية الخاصة، وهو نقض بهذا أيضاً نظرية القومية اللبنانية من حيث كونها تعتمد أولاً على المفهوم السلالي (الفينيقي)، وثانياً لارتكازها على مفهوم المتّحد العادي وليس المتّحد التام.

إلى أين نصل من عرض كل هذه النظريات؟ إلى نتيجة واحدة هي أنّ الصهيونية سخّرت العلم بمختلف وجوهه لخلق ما يسمى الشعب اليهودي والأمة اليهودية. لقد فشلت من الناحية النظرية لأنّ كلّ المنظّرين الاجتماعيين لم يستطيعوا التسويق لتعريفاتهم إلاّ ضمن نطاق ضيّق. لكنّها نجحت، كما ذكرت سابقاً، على الصعيدين العسكري والسياسي مستخدمة كلّ أنواع الإرهاب التي استمدته من الإله يهوه، الذي لم يفتأ حتى الساعة، يغفر لهم ذنوبهم وعدم تمسّكهم بوصاياه، فيسدد طريقهم بمزيد من أفعال الإبادة والتدمير والتهجير، ولكأنّه كتب علينا اليوم أن نعيش ظروف الفلسطينيين الكنعانيين التي عاشوها منذ ثلاثة آلاف سنة، ربما خيالياً في الماضي، ولكن فعلياً في أيامنا هذه.

ولا بدّ لنا من طرح السؤال التالي في نهاية هذا الفصل: هل اكتفى المفكّرون اليهود عامة والصهاينة خاصة باستغلال علم الاجتماع لخلق ما يسمى بالأمة اليهودية؟ والجواب بالطبع لا، لأنّ التوراة، بما تحمل بين صفحاتها من تلفيق واضح لوجود بني إسرائيل ومملكتهم، كانت المرجع الأساس الذي انطلق منه كلّ هؤلاء لتأييد نظرياتهم. يقول شلومو ساند: «منذ إيزاك يوست مروراً ببعض المثقفين الذين التحقوا في المرحلة الثانية لِـ «علوم اليهودية» وانتهاء بظهور هاينريخ غريتس (1818 – 1891)، المجدّد الكبير، أخذ العهد القديم يشكّل أيضاً نقطة انطلاق في المحاولات الهستريوغرافية الأولى في عملية الاختراع المدهشة لِـ «الأمة اليهودية»، هذا الاختراع الذي لم يكتسب انطلاقة وزخماً سوى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر»(393).

هذا الاستناد إلى نصوص التوراة، جعل بعضهم يقوم بعملية تحريف هادفة باتجاه إيجاد سند تاريخي لوجود إسرائيلي موغل في القِدَم، والغاية من هذا التحريف كانت إثبات أقدمية بني إسرائيل بالوجود قبل البابليين، لكي يقولوا للعالم إنّ شعب بابل هو الذي سرق أساطير العبرانيين من التوراة وليس العكس. فبن غوريون، أول رئيس لدولة إسرائيل الحديثة، قد «ادّعى على سبيل المثال أنّ العبريين الذين آمنوا بإله واحد، عاشوا في أرض كنعان ردحاً طويلاً من الزمن قبل مجيء إبراهيم وأنّ ذلك هو السبب الذي جعل مؤسس الأمة يهاجر إلى بلدهم بالذات. وبالتالي لا يصح الافتراض أنّ الشعب وُلد وتبلور، لا قدّر الله، فوق أرض غريبة»(394). إنّ التوراة ذاتها تنفي مقولة بن غوريون هذه والتي لم ترغم الأركيولوجيين، الذين كان يشجعهم على التنقيب بهدف إثبات نظريته، من أن يعلنوا عن الحقيقة التي تكشفت لهم والتي بدلاً من تأييدها سفهتها. فهذه «الميثات أخذت تتآكل وتتداعى بسبب علماء آثار وباحثين لاهوتيين مزعجين «عديمي المسؤولية» (كما وصفهم الصهاينة)، وبحلول نهاية القرن العشرين تولد انطباع بأنّها يمكن أن تتحول إلى ضرب من الأساطير الأدبية التي راحت تنشأ بينها وبين التاريخ الحقيقي هوة سحيقة لا يمكن الجسر عليها»(395).

وكان من نتيجة هذه الأبحاث المضادة أن حاول بعضهم اللجوء إلى القانون الدولي لإثبات حق إسرائيل بعد أن سدّت المكتشفات الأثرية المنافذ أمام دعاويهم التاريخية والدينية المطالبة بحقهم الذي يمنحهم حق السيطرة على فلسطين. وها هو الصهيوني آرثر كوسلتر يقول: «... هذا الحق غير مبني على مصادر وهمية للشعب اليهودي ولا على العهد الميثولوجي لإبراهيم مع الله، بل هو مبني على القانون الدولي – أي على قرار الأمم المتحدة في العام 1947 (القاضي بتقسيم فلسطين) ومهما يكن الأصل العرقي لمواطني دولة إسرائيل ومهما تكن الادعاءات ضدهم فإنّ دولتهم قائمة ولا مجال لإلغائها إلاّ بإبادة شعب»(396).

هذا الكلام يستدعي منا الكشف عن بعض الحقائق التي تتعلق بالمنظمات الدولية التي يعتبر معظم الناس أنّها معصومة عن الخطأ، وأنّها وُجدت لمنع تعديات الدول الكبيرة والقوية على الدول الصغيرة الضعيفة. عصبة الأمم كانت المنظمة الدولية الأولى، وحسب ما أثبت شيريب سبيريدوفتش عن هذه العصبة من أقوال، فإن اللورد ألفرد دوغلاس، محرّر «بلين إنكلش» قال عنها ما يلي: «إنّ عصبة الأمم ستصبح حكومة اليهود المركزية لسيطرتهم العالمية». أما ناحوم سوكولوف، القائد الصهيوني، فقد خاطب مؤتمر كارلباد في 27 آب 1922 قائلاً: «فكرة عصبة الأمم فكرة يهودية خلقناها بعد صراع استمر خمسة وعشرين عاماً». وأعلن إسرائيل زانفويل أنّ: «هذه العصبة (عصبة الأمم) هي سفارة لإسرائيل»(397). كما أثبت المعلومة التالية: «سيطر اليهود سيطرة كاملة على عصبة الأمم: بول هيمانز (رئيس المجلس) والسير ج. أريك دروموند (السكرتير العام) وبول مانتوكس (رئيس أهم قسم سياسي) والميجر أبراهام (مساعده) والسيدة ن. سبلر (سكرتيرة القسم... إلخ، إلخ... وألبرت توماس – عميل اليهود الذي ساعد بالملايين الفرنسية على سيطرة البلشفيك على روسيا – هو الآن رئيس قسم العمل براتب لا يُصدَّق»(398). ويقول الأب مايكل برير إنّ عصبة الأمم «عهدت إلى بريطانيا مسوؤلية قيام الوطن القومي اليهودي، مع ضمان الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين»(399). ونحن إن أردنا التسليم بهذا القرار الجائر، ألا يحق لنا المطالبة بتنفيذه كاملاً؟ فكيف استطاعت هذه المنظمة تطبيق قراراتها المتعلقة بالفلسطينيين؟ هذا عن عصبة الأمم فماذا عن الأمم المتحدة؟ لقد أشار لوسيان كافرو دومارس إلى الضغوط التي تمارس على الأمم المتحدة لوقف تنفيذ قراراتها المتعلقة بإسرائيل. كما أشار إلى تعيين يهود في مراكز حساسة لكي يتمكنوا من خدمة إسرائيل عند الحاجة. فعندما أنشئ المعهد الدولي لحقوق الإنسان في ستراسبورغ، تم تكليف البروفسور رينيه كاسين، المستشار القانوني لحكومة إسرائيل العسكرية، لإنشائه. وقد صرّح لإذاعة «صوت إسرائيل» متناولاً قرارات مجلس الأمن الصادرة في 22 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1967 قائلاً: «أنا واثق من قوة الإجراءات القضائية المختارة في جعل هذه القرارات غير قابلة للتطبيق من قِبَل الأمم المتحدة. هكذا احتفظت إسرائيل بالأراضي الجديدة التي احتلتها بنزعتها العسكرية عام 1967، كما احتفظت بالأراضي المحتلة عامي 1948 – 1949 بفضل التلاعب بالقانون الدولي الذي أتقنه مجلسها»(400).

ولقد أفرد الأب مايكل برير فصلاً كاملاً من كتابه «الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني» عن تأثير الاستعمار البريطاني – الفرنسي على تمكين اليهود بواسطة قرار الأمم المتحدة من جهة، ودعم اليهود عسكرياً من جهة ثانية، على احتلال فلسطين بالقوة وقتل المواطنين دون رحمة، وطرد مئات الآلاف من منازلهم وأرزاقهم، حيث لم تستطع الأمم المتحدة أن تلزم اليهود، لا بالبقعة الجغرافية التي حددتها لهم بموجب قرار التقسيم، ولا بالامتناع عن الإبادة والتدمير والتعذيب، هذه الأعمال المحرّمة بموجب القانون الدولي الصادر عن الأمم المتحدة ذاتها. ويذكر الأب برير أنّ الأمم المتحدة التي أرسلت لجنة تقصّي حقائق بشأن فلسطين قبل إعلان قرار التقسيم، وبدلاً من أن تتحلى هذه اللجنة بقدر عالٍ من المسؤولية والعدل، رضخت لضغوط الصهاينة وأشارت على الأمم المتحدة بضرورة التنازل عن منطقة النقب لصالح الدولة اليهودية الناشئة، «مع أنّ مئة ألف بدوي يقومون بزراعة مساحات شاسعة منها، بينما كان يقيم في أربع مستوطنات هناك حوالي 475 يهودياً فقط(401). ويتابع الأب برير الحديث عن هذه اللجنة وقرار التقسيم قائلاً: «وفي توصية اللجنة الخاصة للأمم

المتحدة بشأن فلسطين حصل الصهاينة على (57 بالمئة) من الأرض، تشتمل على أفضل الأراضي الصالحة للزراعة، بل لعلّها الأفضل والتي كانت في حينها موطناً فعلياً للسكان العرب، مقابل نسبة (43 بالمئة) لدولة عربية فلسطينية، مع أنّ نسبة ما كان يمتلكه اليهود حتى عام (1948) من إجمالي الأراضي الفلسطينية كان (6,6 بالمئة) فقط»(402).

فما هي القيمة القانونية لقرارات الأمم المتحدة أو مجلس الأمن والتي تكيل بمكيالين؟ وما قيمتها وهي تتجاهل حقوق شعب فتعطي أرضه لجماعة مُتخيّلة بناء لوعد إلهي؟ وهل يقيم القانون الدولي قيمة لمثل هذا الوعد؟ القيمة الوحيدة بالنسبة لإسرائيل هي القوة لذلك لم تكن لتقيم وزناً للقرارات الدولية لأنّ «القانون الدولي هو قصاصة من الورق»(403) (بن غوريون). وبن غوريون هذا كان قد قال في أحد اجتماعات الهستدروت عام 1937، أي قبل قرار التقسيم بعشر سنوات: «إنّ إسرائيل لا يمكن أن تعيش إلاّ بقوة السلاح. إنّ قوة السلاح، وليس القرارات الرسمية هي التي ستحسم القضية، لأنّ العرب لن يفهموا إلاّ لغة القوة، وأنّ التباحث معهم لا يجدي»(404). ولقد اعتبر الكاتب علي حسن طه أنّ قرار الأمم المتحدة القاضي بتقسيم فلسطين هو دليل على «أنّ المنظمة الدولية أهدت اليهود في سابقة لم تحدث ولم تتكرر في تاريخها عشرة أضعاف الأراضي التي كانت بحوزتهم آنذاك»(405). هذا ما قاله بعض المعلّقين والدارسين فماذا يقول القانون الدولي في هذا المضمار؟

بداية يشير جيرهارد فان غلان إلى حقيقة يجهلها الكثيرون وهي «أنّ المراقب العادي يمكن تضليله بسهولة بالنسبة لوضع القانون الدولي الحالي بواسطة المعلومات التي يحصل عليها من الصحف ووسائل الإعلام الأخرى»(406). وكان قد أشار إلى أنّ «وضع ميثاق الأمم المتحدة موضع التنفيذ، أنهى شرعية الحصول على حق امتلاك أرض بالغزو. وتوضح النصوص المتعلقة بهذا الموضوع في الميثاق (خاصة المادة الثانية الفقرة الرابعة) توضيحاً كاملاً أنّه يُحظّر من وجهة النظر القانونية على جميع الدول الأعضاء في المنظمة استخدام أو التهديد باستخدام القوة، خلافاً للالتزامات المنصوص عليها في الميثاق»(407). ثم يعترف «أنّ هذه الدول الأعضاء نفسها أذعنت في عدة مناسبات للاستيلاء بالقوة على أرض من قبل دولة عضو أو دولة غير عضو»، فأيّة قيمة لهذا القانون الدولي إذا لم يُحترم من الدول التي ساهمت بوضعه وأقرته في الجمعية العامة للأمم المتحدة؟

ويشير الكاتب أيضاً إلى أنّ «عدة كتّاب أبرزوا ناحية جديرة بالاهتمام ومتناقضة تتعلق بالغزو في ميثاق الأمم المتحدة. فمع أنّ الميثاق يحظر، كما يبدو، الاعتراف الفردي بثمار العدوان، فإنّ الأمم المتحدة تستطيع كمنظمة، كما يظهر، أن تقبل وضعاً حتى لو كان ذلك الوضع غير شرعي في أساسه. ولا بد من الافتراض بأنّ ذلك كان صحيحاً في حالة إسرائيل التي احتلت بالقوة العسكرية في سنة 1948 أراضي تزيد كثيراً على المساحة التي خصصتها لها قرارات الأمم المتحدة الصادرة في سنة 1947»(408). وبالرغم من إشارة الكاتب إلى هذا الخلل الذي مثّلته بوضوح إسرائيل، إلاّ أنّه لم يتنبّه إلى مسألة أهم وهي أنّ إسرائيل لم تكن موجودة كدولة عام 1948 قبل الغزو والاحتلال. بل كانت هناك عصابات صهيونية عملت على قتل المواطنين، سكان الأرض الأصليين، وسيطرت على أرضهم بالقوة ثم قامت بإعلان الدولة، التي توالت اعترافات الدول بها على الرغم من عدوانها الفاضح. وهذا ما يجعلنا نقول إنّ فرض تنفيذ القوانين الدولية وقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن

أصبح أمراً استنسابياً يخضع لمبدأ قوة الدولة المعنية، وبالتالي تصبح بالفعل هذه القوانين والقرارات الناتجة عنها مجرد قصاصة ورق على حد قول بن غوريون.

ويلفت شلومو ساند النظر إلى هدف الصهيونية التي كانت «منذ بداية طريقها حركة قومية مركزية - إثنية سيجت بشكل محكم الشعب التاريخي الذي اخترعته في خيالها، ورفضت أيّ دخول مدني اختياري إلى القومية التي شرعت بنسج خيوطها في برنامجها»(409). ولقد استمر هذا الصراع العلمي، أو قل، المغلّف بطابع علمي معظم الأحيان، إلى أيامنا هذه. وعلى سبيل المثال نشرت صحيفة هآرتس تقريراً، في تشرين الثاني من عام 2000، للبروفسورة أريئيلا أوبنهايم ومجموعة من زملائها في الجامعة العبرية في القدس، أظهر «وجود تشابه مدهش بين نوع التغيرات الإحيائية في كروموزوم X الذكوري لدى اليهود "الأشكنازيين" و"السفارديم" على حد سواء، وبين تلك الموجودة لدى "العرب الإسرائيليين" والفلسطينيين. ودلّت التغيّرات في كروموزوم Y أيضاً على أنّ "اليهود" يشبهون "العرب اللبنانيين" أكثر من التشيكوسلوفاكيين»، ولكن اليهود "الأشكنازيين"، خلافاً لـ "السفارديم"، هم أقرب إلى "الويلزيين" منهم لـ "العرب"»(410). ونشرت الباحثة تامارا تراوبمان عدة أبحاث توصلت في كلّ مرة إلى معلومة جديدة منها: «لليهود والفلسطينيين في إسرائيل والأراضي المحتلة آباء أولون مشتركون» هآرتس 12 تشرين الثاني/نوفمبر 2000». ثم تقول في هآرتس 21 كانون الأول/ديسمبر 2001: «تشابه وراثي شديد بين اليهود والأكراد». وفي 16 أيار/مايو 2002 تقول: «للرجال اليهود الأولين جذور في الشرق الأوسط، وأصل النساء ما زال مجهولاً». ألا يدلنا ذلك على التخبط الذي يقع فيه أهل العلم أيضاً في بعض الأحيان، أو على غايات محددة جعلتهم يستغلون مركزهم العلمي فيزوّرون الحقائق حسب ما تشتهي غاياتهم؟ وهذا ما يدفعنا مجدداً للقول بأنّ البناء الذي أسّس على أساطير سيبقى بناء أسطورياً، والتاريخ الذي بُنِي على بطولات وهمية سيبقى تاريخاً وهمياً، والدولة التي قامت بناء لوعد إلهي مزعوم ستبقى ثمرة لهذا الشعب الخاص وهدية من إلهه الخاص. وبالتالي متى وعى العالم هذه الحقائق لا بد من أن يغيّر موقفه، وأن ينتفض بوجه الأكاذيب الأسطورية، لأنّ «الأساطير الناجعة التي وجهت بناء الدولة القومية يمكن أن تساهم مستقبلاً في تقويض حقيقة وجودها»(411).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الرابع

- بدعة السامية -

إنّ «الهجرات السامية» من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب، بالشكل الذي تم تصوّره لدى بعض المؤرخين، بقيت تفتقر إلى الأدلّة المادية القاطعة»

د. بشار خليف

«إنّ صيحة اللاسامية القبيحة هي العصا التي يستعملها الصهاينة لحمل غير اليهود على قبول وجهة النظر الصهيونية بشأن الأحداث العالمية أو التزام الصمت»

الصحافي هارولد د. بايتي

السامية مصطلح يُقال إنّ أول من أطلقه «كان أ. ل. شلوز لوصف الشعوب ذات العلاقة بالعبريين ولغاتهم. والتعبير مأخوذ من اسم سام بن نوح (شم بالعبرية)، وهو الجَدّ المزعوم للعبريين ولأقوام توراتية أخرى. وتتحدث التوراة العبرية عن شعوب تحدرّت من سام دون أن تصفها بالسامية»(412). وبإمكاننا أن نستنتج من كلام كمال الصليبي هذا عدة أمور. أولها أنّ سام، وكما أثبتنا في الفصل الأول، هو شخصية أسطورية بدليل قوله «الجد المزعوم»، أي أنّ وجود هذه الشخصية تاريخياً أمر مشكوك فيه. وثانيها أنّ التوراة لم تقل عن الجماعات التي تحدّرت من أبناء سام إنّها شعوب سامية. وثالثها أنّ هذا المصطلح مستحدث قصد منه مطلقه تحديد الشعوب التي تحدثت التوراة عن علاقتها بالعبريين خاصة لجهة اللغة. أمّا الكاتب يوسف رشاد فإنّه يضع أولاً تفسيراً لغوياً لكلمة سامية فيقول: «لغة: معناها من السمو، والعلوّ، يقال مقام سام: أي عالٍ ورفيع، وتسامى القوم: أي تباروا وتفاخروا»(413)، ثم ينتقل إلى شرح الكلمة من حيثً المصطلح فيقول: «ينقسم معنى كلمة سامية إلى لغات وشعوب – فاللغات السامية هي اللهجات التي يتكلّم بها سكان القسم الجنوبي من غرب آسيا من حدود الأرمن شمالاً إلى البحر العربي جنوباً، ومن الخليج شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً، وهي منسوبة إلى سام بن نوح عليهما السلام – والشعوب السامية هي التي تتكلّم بهذه اللهجات»(414). ونحن إن جارينا المؤلّف بالتعريف الأول نقول لا علاقة لهذا المصطلح بالتعريف اللغوي، ولا المؤلف قصد ربطه بهذا التعريف. أما تقسيم معنى الكلمة إلى لغات وشعوب ففيه الكثير من الخبث والبعد عن الحقائق اللغوية والأنثروبولوجية. فإن كان اليهود ساميين، أو الشعب السامي الوحيد كما يعتبرون، فهذا يعني أنّ لغتهم، أي العبرية، هي إحدى اللغات السامية. فماذا يقول الباحثون عن هذه اللغة؟ الصهيونيون منهم والمتصهينون سلّموا بما ورد في سفر التكوين حول تعدد اللغات.

كتب جوش ماكدويل: «يقول سفر التكوين إنّه قبل بناء برج بابل كانت الأرض تتكلّم لغة واحدة (تكوين 11: 1). وبعد بناء البرج بلبل الله لسان كلّ الأرض (تكوين 11: 9). ويتفق كثيرون من علماء اللغات حالياً على صحة هذه النظرية. ويقول ألفريدو ترومبيتي إنّه يستطيع أن يتابع ويبرهن الأصل المشترك لكل اللغات. ويذهب أوتوياسبرسن إلى أبعد من ذلك ويقول إنّ اللغة جاءت للإنسان

الأول من الله»(415). ولقد تطرقنا في فصل سابق لهذه المقولة وأثبتنا بطلانها وسخافتها. أمّا القول «إنّ اللغة جاءت للإنسان الأول من الله» فينقضه العلم والعقل. فالإنسان الأول لم يعرف الكلام وبالتالي لم يكن بعد قد اخترع الحرف أو الرسوم التي تدل على معنى معيّن. وعلم اللغات اليوم أو الفيلولوجيا يقول إنّ اللغات مرت بأدوار أربعة: 1 - دور الإشارات والرموز. 2 - الدور الصُوَري والدور الرمزي. 3 - الدور الانتقالي، والدور الكتابي المختلط. 4 - دور حروف الهجاء(416). وهذا يعني بكل بساطة أنّ اللغة التي تعتمد على أحرف الهجاء كانت نتيجة تطور طويل للعقل البشري الذي توصل بعد عشرات آلاف السنين إلى اختراع الحرف وبالتالي ضم حروف عدة إلى بعضها لتشكيل كلمة واستعمال كلمات عدة لتشكيل الجملة عماد اللغة. أمّا من حيث مجيء اللغة للإنسان الأول من الله فالعقل يفسّر هذه الظاهرة ليس بقيام الله بكتابة اللغة وتلقينها للبشر، كما تحاول التوراة إيهامنا بذلك، بل بإلهام الإنسان عبر العقل كيفية التعبير عما يختلج داخله من أحاسيس، فابتدأ يعبّر أولاً بالحركات، ثم بالرسوم، ثم بالأصوات، ثم بالحرف الذي أعطاه شكلاً وصوتاً وصولاً إلى الكلمة التي أعطاها المعنى.

ثم أخذ هذا المصطلح بالتطور على يد الصهاينة حتى بات يعني حصراً كراهية اليهود. أمّا لماذا قام الصهاينة بهذا التحوير؟ فالإجابة بسيطة على ذلك وهي تتمثل بسعيهم إلى استغلال كلّ ما من شأنه، بداية، المساعدة على اختلاق إسرائيل، ثم بعد ذلك، استمرار الاستغلال لإسكات كلّ من يتجرأ على انتقاد السياسة الإسرائيلية أو مفاعيل الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين. يقول إسرائيل شاحاك: «إنّ معاداة السامية كانت، وإلى حد كبير، تعبيراً عمومياً لكراهية الغرباء. ولكن اليهودي كان في بلدان أوروبية عديدة، في حوالي العام 1900، الغريب الوحيد عملياً. فالعنصريون الألمان في أوائل القرن العشرين، كانوا مبدئياً، يكرهون السود ويحتقرونهم، بقدر ما كانوا يكرهون اليهود ويحتقرونهم»(417). في هذا القول بعض من الحقيقة وشيء من الخطأ. فما هو موقع اللغة العبرية بين اللغات التي تم التعارف على تسميتها سامية؟

يقول جودت السعد: «اللغة العبرية لغة حديثة نسبياً، لم يبدأ الحديث والكتابة بها قبل القرن الثاني قبل الميلاد، وقد بُديء بتطويرها في القرن الرابع ق.م. ولم تصبح لغة كاملة إلاّ بعد القرن السادس الميلادي»(418). فماذا كان يتكلم هؤلاء العبرانيون - الإسرائيليون - اليهود، وما هي لغتهم؟ في كتاب «مصطلحات ومناسبات وتواريخ وشخوص صهيونية» نقرأ ما يلي: «وقد كُتب التلمودان (تلمود بابل وتلمود القدس) باللغة الآرامية التي كانت لغة الحديث في أوساط اليهود في أرض إسرائيل وبابل»(419). ونقرأ لجودت السعد ما يلي: «فالتوراة لم تذكر اسم «اللغة العبرية» والنص الوارد في التوراة: «وقال الياقيم بن حلقيا وشبنه ويؤاخ لربشاقي كلّم عبيدك بالآرامي لأنّنا نفهمه ولا تكلّمنا باليهودي في مسامع الشعب الذي على السور (الملوك الثاني 8: 17)(420). وهذا يعني أنّ بني إسرائيل كانوا يتكلمون الآرامية الكنعانية.

وينقل ظفر الإسلام خان عن كتاب الأدب العبري ما يلي: «أما تلمود بابل فأكثره بالآرامية الشرقية نسجت فيه عبارات بالعبرية، ويتضمن كلمات عربية وسريانية ويونانية ولاتينية وكلدانية»(421). وتحت عنوان: ما اللغة التي كُتبت فيها التوراة؟ يقول عبد المجيد همو: «إنّ العهد القديم سمّى اللغة بشفة كنعان ثم قال بأنّها اللسان المقدس... فاللغة التي اكتشفت آثارها هي لغة كنعان، السكان الأصليين

لفلسطين»(422). وأيضاً أشار جميل خرطبيل إلى الحقيقة ذاتها حيث قال: «ولغة كنعان أصبحت اللغة العبرية بشهادة العبران الذين كانوا يقولون: إنّهم تعلموا شفة كنعان أي لغة كنعان»(423). وحول هذه اللغة نختم مع ما كتبه جورجي كنعان إذ قال: «والواقع أنّ علماء اللغة يجنحون بغالبيتهم إلى الاعتقاد بوجود لغة أم تعددت لهجاتها أو ألسنتها إثر انتشارها الجغرافي الواسع... وأنّ هذه اللغة الأم هي لغة الصحراء العربية القديمة»(424).

إنّ اختلاف الباحثين سيستمر حول هذا الموضوع ولن يصل أحد إلى الحقيقة النهائية لأنّ دفائن الأرض التي تؤرخ للتاريخ البشري لم تكتشف كلّها وربما لن تكتشف. أمّا ما توصل إليه الباحثون لغاية الآن فلا علاقة له بأبناء سام لكي نقول بأنّ أصل كلّ اللغات هي اللغة العربية التي تجزأت إلى لهجات منها الكنعانية والآرامية والسريانية والعبرية. وإذا كانت هذه اللهجات قد تطورت عن أصل واحد فما علاقة ذلك بالشخصية الأسطورية سام بن نوح؟ وإذا كانت العبرية لهجة من الآرامية الكنعانية فهذا يعني اختلاط اللغة الآرامية التي تعود، حسب التوراة إلى أرام بن سام، مع الكنعانية التي تعود إلى كنعان بن حام، إذن هي مزيج من أصل سامي وحامي، فلماذا التركيز على سام وإغفال حام؟ أما إذا عدنا إلى التوراة نفسها أيضاً والتي تعتبر الإنجاز «الحضاري» الأكثر أهمية بالنسبة لبني إسرائيل فنجد أنّها لم تُكتب بالعبرية، بل بالآرامية صاحبة الانتشار الواسع.

يقول جودت السعد: «لذا كُتبت التوراة أول ما كتبت بالآرامية واعتبرت «اللغة المقدسة» ونُقل الحرف الآرامي (المربع) ليكون أبجدية «اللغة المقدسة» هذه. وعندما عاد عزرا إلى فلسطين حاملاً معه التوراة المكتوبة في بابل بالآرامية احتاج إلى توضيح هذه الكتابة عند قراءته للنصوص – كما تشير التوراة إلى ذلك – أمام أتباعه. وقد ترجمت النصوص من اللغة الآرامية إلى اليونانية وهي الترجمة التي تسمى بالسبعونية ومنها إلى اللهجة الآرامية الذي اختير لها اسم «اللغة العبرية» أثناء حكم اليونان وبالذات فترة المكابيين»(425). فإذا كان الإسرائيليون، كما يدّعون، أصحاب حضارة فلماذا لم تكن لهم لغة خاصة تختزن كنوز فكرهم؟

ويقول لوسيان كافرو دومارس: «اللغة العبرية الرابينية، التي ظهرت بعد التوراة، والتي فيها مزيج من البابلية والفارسية واليونانية واللاتينية والتي أهملها الشعب الذي كان يتكلّم الآرامية واليونانية واللاتينية، أعادها الانتداب الإنكليزي إلى التداول عام 1920 في فلسطين»(426) وتأكيداً لهذه المقولة نقرأ من كتاب لربيع داغر ما يلي: «علماً بأنّه في عام 1905 كانت نسبة اليهود الذين يتكلّمون اللغة العبرية حوالي 2% من يهود العالم. وبلغ عددهم عام 1938 (أي قبل قيام دولة إسرائيل بعشر سنوات) حوالى 3% من يهود العالم»(427). ويشير اسبينوزا إلى أنّ مؤرخ اليهود الأكبر فلافيوس يوسيفوس الذي ولد في أورشليم سنة 37 م ومات في روما سنة 98م، قد كتب، خلال إقامته في روما، «حروب اليهود» في سبعة أجزاء بالآرامية حيث ترجم بعد ذلك إلى اليونانية. فلماذا يُقدم مؤرخ اليهود الأكبر، وفي القرن الميلادي الأول، على كتابة مؤلّفه بلغة غير لغته «القومية» و«الدينية» لو كان لهذه اللغة وجود ومكانة؟(428) كلّ هذه التأكيدات تقودنا إلى نفي عامل اللغة كحاضن للتراث اليهودي وكعنصر أساس «للقومية اليهودية المزعومة».

وأختم مستشهداً بما كتبه إيلان هاليفي: «ومنذ قرون خلت كانت الآرامية، هذه اللغة (البابلية) التي أعطت أبجديتها للغة العبرية والتي كان التلمود قد كتب بها، هي اللغة الشائعة والشعبية لكل الشرق

المتمدن... إنّ كل من يُلمّ باللغات الثلاث – العبرية والآرامية والعربية – يعرف أنّها لا تشكل سوى ثلاثة فروع للغة واحدة بعينها... فكلّ اللغات القديمة لهذه المنطقة – الفينيقية، ولغات الكنعانيين، والعبرية والآرامية والعربية – تنتمي إلى أسرة (لغوية) بعينها... إنّ هذه الوحدة الألسنية لا تتمّ عن وحدة عرقية»(429). فهل بعد أوضح من هذا الكلام للدلالة على أنّ مصطلح سامية لا يدلّ على عرق ولا حتى على أصل لغوي، بل هو أطلق مجازاً وانطلاقاً من أسطورة سام بن نوح التوراتية التي لا تقدّم أيّ معطىً تاريخي ذي وزن تبنى عليه البدعة الصهيونية التي لا تزال تُستغل حتى في أيامنا هذه، دون أن يكون لأحد الجرأة للقول إنّ سام أسطورة، وتحدُّر الأمم منه ومن إخوته لا دليل عليه، ونحن وإنْ سلّمنا بتاريخيته فعلم السلالات بات ينفي مسألة النقاء العرقي.

يقول بندكت أندرسن: «ولقد أوحى ما شهده القرن السادس عشر من «اكتشاف» أوروبا حضارات عظيمة لم تكن قبل ذلك سوى إشاعات غامضة – في الصين، واليابان، وجنوب شرق الأزتيك في المكسيك والإنكا في البيرو – بوجود تعددية إنسانية لا فكاك منها. فمعظم هذه الحضارات كان قد تطور بانفصال تام عن التاريخ المعروف لكلّ من أوروبا، والعالم المسيحي والعصور القديمة، والإنسان بوجه عام. فأنسابها تكمن خارج جنة عدن ولا يمكن لهذه الأخيرة أن تستوعبها وتتمثّلها... فمن الفتح الإنغليزي للبنغال جاءت تلك الاستقصاءات الرائدة التي قام بها وليم جونز في مجال السنسكريتية (1835) والتي أفضت إلى تحقّق متنام من أنّ الحضارة الهندية أقدم بكثير من الحضارة اليونانية أو اليهودية... أمّا ضروب التقدّم التي أحرزت في دراسة اللغات السامية فقد قوّضت فكرة أنّ العبرية إمّا أن تكون قديمة ذلك القِدم الفريد أو أن تكون من مصدر سماوي»(430).

وبالعودة إلى تفسير إسرائيل شاحاك لأسباب تنامي معاداة السامية نجد أنّه قد أصاب الحقيقة بقوله إنّ الإنسان العنصري لا يكره فئة واحدة معينة، بل هو يكره كلّ من لا يمتّ إليه بصلة. والخطأ هو اعتباره أنّ اليهودي كان وحده الغريب في بلدان أوروبية عديدة. وهذا الكلام قد نقضه وايزمن الذي ذكر في مذكراته كيف أنّ اليهود الألمان كانوا يشعرون بأنّهم ألمان أولاً ثم يهود. وهذا إن دلّ على شيء فعلى كونهم كانوا يشعرون بأن لا شيء يميّزهم عن مواطني ألمانيا في ما خص الانتماء الوطني. أمّا إذا عدنا إلى سام وسلالته التي لا تزال تنغّص عيش الكثيرين من المفكرين والأدباء والعلماء والسياسيين، الذين يخافون انتقاد إسرائيل أو التوراة كي لا يُتهموا بالعداء للسامية، فلا يسعنا إلاّ أن ندرك مدى الخبث والمكيدة الكامنة وراء هذه الأكذوبة - الكابوس.

فإذا كان العلم اليوم يثبت أنّ ما ورد في أسفار التوراة، خاصة تكوين وخروج، هو من باب الأساطير أولاً، وهو من باب التأثر والتقليد والسرقة عن أساطير الأقدمين ثانياً، فهذا يعني أنّ كلّ الشخصيات التي تم الاعتماد عليها لبناء فكرة الشعوب السامية، هي شخصيات وهمية خيالية، وبالتالي فكلّ ما بُني على خيال هو وهم أيضاً لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة. ومن هذا المنطلق يمكننا القول بأنّه إذا لم يكن هناك وجود فعلي لنوح، فإنّه لمن نافل القول أن لا يكون هناك وجود لأولاده. وفكرة تشعب الأمم من أولاده الثلاثة فكرة سخيفة لا تعدو كونها مجرد محاولة بدائية لتفسير تعدد الشعوب فوق هذه الأرض. ونحن إنْ سلّمنا بهذه المقولة التي تحصر النوع البشري بثلاثة من أولاد نوح، فمن حقنا أن نتساءل: لماذا كلّ هذا التركيز على الساميين، وبشيء أقلّ على الحاميين، في الوقت الذي تم طمس الذريّة اليافثية؟ وإذا كانت التوراة تقول إنّ أولاد سام هم عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وآرام، ألا يعني هذا

أنّ الأشوريين والآراميين هم ساميون أيضاً؟ فلماذا حصر الذرية السامية ببني إسرائيل وجعل معاداة السامية مساوية للعداء لليهود فقط؟ فمجرد قراءة سريعة للإصحاح العاشر من سفر التكوين، والذي خصصه الكاتب لتعداد ذريّة سام وحام ويافث، نجد أسماء لم يقدّم لنا التاريخ المكتوب السابق للتوراة أيّة معلومات عنها. فلماذا أعطتنا السجلات القديمة معلومات قيّمة عن أشور وكنعان مثلاً، ولم تفدنا بكلمة واحدة عن عيلام وأرفكشاد ولود أولاد سام، ولا عن أيّ من أولاد يافث، ولا عن مصرايم وفوط أولاد حام؟ ألا يجعلنا ذلك نستنتج بأنّ هم الكاتب، كما ألمحت لذلك، كان منصباً على ولد واحد من ذريّة كلّ رجل لإبراز غاية كان قد حدّدها سلفاً؟

أخطأ حام بحق نوح، فصب هذا الأخير غضبه على كنعان ابن حام، وما ذلك إلاّ لأنّ الكاتب كان يعيش في القرن الخامس ق.م. في أرض كنعان، وعندما أخضع نبوخذ نصّر مدينته أورشليم نقل معظم سكانها إلى بابل، فظل حنينه إلى أرضه مشتعلاً في حناياه، وعندما اطلع على التراث البابلي، بدأ بتدوين أفكاره التي استقاها من هذا التراث، وأضاف إليها تصوراته عن شعبه العظيم وأبطاله ومملكته، واخترع إلهاً خاصاً لهذا الشعب، أو قل سرقه من تراث الكنعانيين، واستأثر به، وجعل هذا الإله ناطقاً بأفكاره هو المليئة بالحقد والكذب والخداع والبربرية والإجرام فشوّه مفهوم الألوهة إضافة إلى القِيَم والمُثُل التي كانت سائدة بين الكنعانيين والبابليين. وهذا ما حدا بكثير من المؤرخين والدارسين إلى القول بأنّه لا يجوز اعتبار السامية عرقاً تنضوي تحت لوائه شعوب عدة، بل هي تشير إلى مجموعات كانت تتكلم لغات متشابهة.

يقول فيليب حتي: «إنّ أسماء الشعوب التي توطنت الشرق الأدنى القديم كالسومريين والحاميين والساميين والحثيين والعرب يجب أن تعتبر أسماء تعني مجموعات لغوية لا مجموعات عرقية»(431). وبنظرنا فهي يجب ألاّ تعني لا هذه ولا تلك استناداً إلى ما ذكرناه من أسطورية هذه المعلومات التي انفرد كتّاب التوراة بذكرها عن بدء الخليقة بآدم وصولاً إلى نوح وذريته. فإذا لم يكن هناك أيّ إثبات تاريخي على ما ورد في هذه الأسفار، فكيف يمكن اعتمادها لتفسير بعض الظواهر الطبيعية، التي وبالرغم من تقدّم العلم، لم يستطع أحد حتى الآن من تحديد ماهيتها. فضلاً عن ذلك نقول، هل يجوز اليوم، وبعد كلّ ما جرى في العالم منذ أن وعت الجماعات البشرية وجودها، وبلغت مرحلة من التطور خوّلها الانتقال إلى عصر جديد بدأ فيه الإنسان يعبّر عمّا يعتمل في داخله وفي عقله بواسطة رموز، عاد وطوّرها في مرحلة ثانية مسبغاً عليها الأصوات الملائمة، فكانت الأحرف وبالتالي الكلمات التي حمّلها معاني محدودة، والتي سمحت له بدء عملية التأرخة لوجوده الحسي والفكري عبر النتاج الذي خلّفه وراءه، هل يجوز بعد أن أصبحت بين أيدينا سجلات الشعوب القديمة وصولاً إلى اليوم، والتي تؤكد أنّه لم يبقَ شعب واحد لم يختلط بغيره من الشعوب، هل يجوز أن نتكلّم عن أعراق صافية، وأن نعيد أصول هذا الشعب أو ذاك إلى رجل واحد لا إثبات على وجوده؟

وإذا افترضنا سلفاً بوجود هذا الكائن منذ آلاف السنين، ألا يُعتبر سخفاً اليوم القول بانتماء شعوب إليه وأخرى إلى غيره؟ ألم يحن الوقت لإماطة اللثام عن أكبر مؤامرة عرفها التاريخ وهي تقسيم البشرية وفق منطوق الأسطورة التوراتية؟ ولو اكتفى الصهاينة بإثبات هذه النظريات من وجهة نظر لاهوتية، لما أدى ذلك إلى مشكلة. لكنهم، وكعادتهم، أرادوا استغلال هذا المصطلح الجديد بما يتوافق مع مصالحهم، فانطلقوا من العداء الذي أظهرته الشعوب الأوروبية لهم، والذي لم يكن أبداً ثمرة

لعنصرية الأوروبيين، ولكنه جاء كردة فعل على عنصريتهم التي جعلتهم لا يختلطون مع الأغيار تنفيذاً لأوامر إلههم التي أثبتها في الشريعة، من جهة، وعلى سوء تعاملهم مع الأغيار على كلّ الصعد الاجتماعية وخاصة الاقتصادية بحيث باتت هذه الجماعات تشعر بجشع اليهود ومؤامراتهم على الشعوب التي وُجدوا بين ظهرانيها.

يقول الفيلسوف الفرنسي بول - هنري ديتريك جولباخ (1723م - 1789م): «بسبب دينهم كان اليهود دائماً أعداء لكلّ البشرية، وليس مدهشاً أن تقف البشرية جميعها ضدهم»(432). ويقول المؤلف أيضاً: «إن سلوك اليهود خلق ضدهم كره ومقت ولعنة كلّ الشعوب، وكانوا السبب في كلّ ذلك»(433). وينقل الكاتب أيضاً أقوال العديد من المفكرين عن اليهود ومنهم يهود اعترفوا بحقيقة اجتذاب نقمة الأمم عليهم نتيجة أخلاقهم، من ذلك ما ورد في كتاب سيكولوجية النفس اليهودية لسولومون ميلاميد، وهو كاتب يهودي، بداية القرن العشرين، من أنّ الشعب اليهودي وضع «نفسه في مقابل كافة القوى التاريخية الأخرى وانعزل بسبب أخلاقياته وعقيدته الدينية». وهذه الأخلاقيات السيئة هي التي دفعت أيضاً سولومون لوربيه، اليهودي السوفيتي والأستاذ في علم التاريخ القديم إلى القول في كتابه «معاداة السامية»: «إنّ سبب معاداة السامية يكمن في اليهود أنفسهم، وبكلمات أخرى نرى السامية كظاهرة غير عفوية، أنها تملك جذوراً راسخة في الاختلاط بين المحيط الروحي لليهود وبين غيرهم». ويقول وليم غاي كار في كتابه «أحجار على رقعة الشطرنج»: «يكشف لنا التاريخ أنّ التجار اليهود وصرّافي النقود لم يقتصروا في أعمالهم غير المشروعة على تجارة العبيد بل كانوا ينظمون ويحتكرون التجارات الفاسدة من مخدرات ودعارة وتهريب المسكرات والعطور والجواهر والبضائع الثمينة الأخرى. وتأميناً لمصالحهم وحماية لعملياتهم غير المشروعة كانوا يلجأون إلى الرشوة وشراء ذمم المسؤولين الكبار، وهكذا استطاعوا بواسطة المخدرات والمسكرات والنساء تقويض أخلاق الشعب». فبعد كلّ هذه الأعمال التي مارسوها في كلّ الدول الأوروبية التي تواجدوا فيها، هل تُلام شعوب هذه الدول إنْ هي بادلتهم هذه الأعمال بمشاعر الاستياء والغضب والنفور؟

إنّ هذا الواقع يؤكّده الكثيرون ويجعلنا نتساءل: إذا كان اليهود، انطلاقاً من معتقداتهم اللاهوتية أولاً، وممارساتهم الاجتماعية ثانياً، قد استحقوا نقمة شعوب العالم، فلماذا استمروا باتباع التصرفات ذاتها ولم يغيروا طريقة تعاملهم حتى تغيّر الشعوب طريقة معاملتها لهم؟ ويأتينا الجواب سريعاً على وجهين: الأول سبب ديني مفاده أن لا مجال لتغيير نفسية اليهودي المستقاة من تعاليمه التوراتية القائمة على الخداع والكذب والغش والاستغلال وإلاّ بطل أن يكون يهودياً. والثاني سبب غائي تمثّل بتخطيطهم لزيادة احتقار الشعوب لهم وحقدهم عليهم بغية إيصالهم إلى القناعة بضرورة التخلّص منهم عن طريق خلق دولة خاصة بهم تكون لهم بمثابة الملجأ الذي يقيهم غضب الشعوب الأخرى عليهم. وخير مكان لهذه الدولة الأرض الموعودة التي تربطهم بها خرافة الوعد الإلهي. سنحت لهم الفرصة، في بداية تحركهم عبر المنظمة الصهيونية، لأن يتم منحهم بلاداً شاسعة، في أكثر من مكان، وغير مأهولة، كما بات يعلم الجميع فأبوا إلاّ «أرض كنعان» - فلسطين، فسخّروا كلّ طاقاتهم المادية التي حصلوا عليها عبر قرون من استغلال الأمم جميعاً، لتأمين الدعم السياسي أولاً لمسعاهم، ثم تأمين الدعم العسكري، ولن أتطرق إلى ذلك لأنّه مثبت في أكثر من مؤلّف.

بعض الدارسين يعيدون نجاح الصهيونية إلى تحالفها مع الاستعمار الغربي ويعتبرونها شكلاً جديداً من أشكال الاستعمار. وبعضهم الآخر يرى فيها مظهراً سياسياً للعنصرية اللاهوتية التوراتية. والحقيقة هي أنّها جمعت بين الاثنين. الفكرة الأساسية كانت خلق دولة يتجمع فيها اليهود للتخلص من اضطهاد الشعوب لهم. أمّا التنفيذ فجاء على خطين: الأول سياسي تمثل بمساعي هرتزل لإقناع أكثر من دولة وجهة، بما فيها الفاتيكان، على دعم مشروعه، والثاني ديني تمثل بإقناع العالم المسيحي أنّه بدعمه لمشروعهم فهو إنّما ينفذ كلام الله. لقد توافقت، دون شك، غاية الصهيونية مع أطماع الاستعمار الغربي، كما هو واضح من عنوان ومضمون كتاب الأب مايكل برير «الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني» والذي نقل بعض أقوال هرتزل المثبتة في يومياته ومنها: «ستكون الدولة الصهيونية جزءاً من المتراس الأوروبي ضد آسيا، ومخفراً متقدماً للحضارة في مواجهة البربرية». طبعاً لعب هرتزل المخادع على عواطف الأوروبيين وعلى حقيقة معرفته بخلفياتهم السياسية الساعية نحو تقطيع أوصال الإمبراطورية التركية واقتسامها واستغلال خيرات آسيا، فقدّم لهم نموذج الدولة اليهودية المتراس المدافع عن مصالحهم، ودفع باتجاه إشعال الحرب العالمية الأولى، لإنهاك الدول الأوروبية ثم اختيار الجهة المناسبة لدعمها مادياً (آل روتشيلد) شرط الحصول على الدعم السياسي المطلوب لتحقيق الوعد الإلهي المزعوم.

وليم غاي كار، الضابط في المخابرات الملكية البريطانية الذي نُقل بعد 1916 إلى سلاح الغواصات والذي دفع بوايزمن إلى استخدام علاقاته للضغط على المسؤولين البريطانيين لنقله إلى وزارة الإعلام ثم إلى المكتب الصهيوني في أواخر 1916، والذي لم يستطع إطباق فمه على الكم الكبير من المعلومات التي استطاع الاطلاع عليها حول مؤامرات الصهيونية، كتب يقول: «اجتمع قادة الحركة الثورية العالمية والمسؤولون الكبار في الماسونية الأوروبية في سويسرة عام 1912، وقرّروا في هذا المؤتمر اغتيال الأرشيدوق فرانسيس فرديناند تمهيداً للحرب العالمية الأولى»(434). وإذا كانت هذه الحرب قد اندلعت في أوروبا بهدف تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية التي كانت إلى ذلك الحين تقف في وجه المحاولات الرامية إلى منح اليهود فلسطين لإقامة دولتهم، فلماذا دخلت الولايات المتحدة هذه الحرب حيث استطاعت بدخولها تغيير موازين القوى؟

يقول كار: «وفي الخامس من نيسان/أبريل من العام نفسه (1917) أعلنت الحكومة البريطانية عن إرسال آرثر جيمس بلفور وزير خارجيتها إلى الولايات المتحدة للاتصال بممثلي المصارف الأميركية وإبلاغهم رسمياً بأنّ الحكومة البريطانية ستتبنى رسمياً مشاريعهم المتعلقة بالصهيونية مقابل تعهدهم بإدخال أميركا إلى جانب الحلفاء». إذن دخول أميركا الحرب العالمية الأولى لم يكن أبداً قراراً سياسياً من إدارتها، بل كان قراراً صهيونياً من الأخطبوط المالي اليهودي المتحكم بالاقتصاد الأميركي. وعندما يتحدث الكاتب عن الماسونية أو حركة الثورية العالمية أو النورانيين فإنّه يعني اليهود الذين كانوا يسيطرون على كلّ هذه المنظمات لعدم لفت الانتباه إلى أصولها وغاياتها. وجاءت نتيجة هذه الحرب مطابقة لمخططات اليهود التي استكملوها بسيطرتهم على مؤتمر السلام وتوجيه القادة العالميين لخدمة مصالحهم: «أما الدكتور ديلون فيوضح أنّ اليهود (أي الممثلين عن الممولين الدوليين) هم الذين وجّهوا مؤتمر السلام هذا التوجيه واختاروا فرساي في باريس ليحققوا برنامجهم المخطط بدقة والذي نفذ حرفياً»(435).

ويتوافق ما نشره وليام غاي كار مع ما نشره شيريب سبيريدوفيتش حيث يقول: «فقد أكد اليهودي الدكتور أوسكار ليفي أنّ اليهود دبّروا هذه الحرب العالمية، وجميع الحروب، وما يتبعها من سفك للدماء، من تدبير مجالس اليهود التنفيذية، أي المحافل الماسونية التي تديرها الهيئة اليهودية المركزية، أي الحلف الإسرائيلي العالمي في باريس»(436). وكان الدكتور أوسكار ليفي قد كتب بعد مئة سنة من وفاة نابليون معترفاً بأنّنا «نحن معشر اليهود صنعنا الحرب العالمية... نحن اليهود لسنا إلاّ مضلّلي العالم وحارقيه وقاتليه. إنّ ثورتنا الأخيرة لم تقم بعد ونحن وضعنا أسطورة (الشعب المختار)». لقد أتقن اليهود تعاليم التلمود التي تقول لهم: «اقتلوا من هم أكثر أمانة من غير اليهود... ومن يُرِق دم «الغوييم» (غير اليهود) يقدّم قرباناً لله»(437).

ولم يأبه هرتزل لأصوات اليهود، ومنهم رجال دين، الذين وقفوا ضد مسعاه. فها هو كبير حاخامي فيينا «موريتز غودمان» Moritz Gudeman «يؤكد أنّ اليهود ليسوا أمة، وأنّ الصهيونية تتعارض مع تعاليم اليهودية»(438). وأخذت الأصوات المعارضة تخفت أمام النجاحات التي بدأت تتحقق على يد الصهيونية والتي تُوّجت بحصولهم على وعد بلفور المشؤوم. وبالرغم من قيام دولة إسرائيل فإنّ مسألة العداء للسامية لم تنطفئ جذوتها، لأنّ اليهود دأبوا على تغذيتها لتكون لهم عوناً على تنفيذ مؤامرتهم. وكونهم قد جُبلوا على رغبة جامحة بحب استغلال الآخرين، فقد طمسوا كلّ معاني هذا المصطلح وركّزوا فقط على الناحية العرقية، وحصروا الانتساب إلى ذريّة سام بهم وحدهم، وهذا فيه الكثير من التجني على كلّ الحقائق التاريخية والعلمية كما مرّ معنا.

السامية إذن بمفهومها اليوم تعني اليهود حصراً، فكلّ كلام يطال اليهود سياسةً أو لاهوتاً أو تاريخاً فهو كلام لا سامي وبالتالي يتضمن عداءً للسامية. ولكن هذا الموقف الذي انطلى على الكثيرين، إمّا نتيجة القناعة، أو الخوف من المجاهرة بالحقيقة، أو عدم المبالاة، بدأت تلحق به الشوائب، وها هي الأصوات انطلقت أخيراً من عقالها لكشف المكيدة التي حاكها الصهاينة لكي تخدم مخططاتهم. نقرأ لجميل خرطبيل: «كما أنّ قضية سام في الأساس خرافة توراتية في الأنساب، وظفتها الأيديولوجيا اليهودية لخلق رابطة لليهود بفلسطين، إنّ الشعوب القديمة في المنطقة ليست بسامية (تاريخ سوريا القديم للدكتور أحمد داوود)، ولم يكن لليهود أو اليهودية أيّ انتماء للمنطقة أو شعوبها... قضيّة اللاسامية، ما هي إلاّ لتبرير تقديم المساعدات للكيان الإسرائيلي واحتضان المشروع الاستعماري. وإنّ عدم الخوض في أيّ نقاش يمسّ اليهود تحت شعار «العداء للسامية»، ما هو إلاّ لإخماد الأصوات المحتجة على الابتزاز وتجاوزات اليهود وما يفعلونه»(439).

لقد انطلت حيلة اليهود، ولا تزال، على الكثيرين الذين يشبعون من فتات ما يُرمى إليهم من موائد الرأسمالية اليهودية، والقلة القليلة التي تحررت، ولا تزال تحاول جاهدة التحرر، استطاعت أن تضع النقاط على الحروف فتعرّي هذه المقولة - المصطلح التي أصبحت مثالاً للاستغلال. كتب د. كارنييف: «إنّ أيّ نقد يُوجّه إلى الصهيونية وأثرياء اليهود يُقابل بالصراخ وبالحرب وبالاتهام بمعاداة السامية، الذي هو في واقع الأمر إحساس شرعي ضد أثرياء اليهود وإحساس طبقي من المُستغَلّين ضدّ الاستغلاليين، وإذا لم يكن هناك عيب في معاداة الإمبريالية الصهيونية فليس هناك جرم في معاداة ما يسمى بالسامية»(440). ثم يعرض الكاتب لآراء كبار الساسة في موضوع السامية مثل إنجلز ولينين. ونحن نقول أيضاً بأنّه ما من شعب، في كلّ حقب التاريخ، إلاّ وكان له أصدقاء وأعداء،

ومن الطبيعي أن يشعر تجاه أعدائه بالبغض والحقد، فلماذا إذن العداء لليهود فقط محظور بالرغم من كلّ جرائمهم الإنسانية؟ ولماذا هذا الدمج بين السامية واليهود، والشعوب السامية حسب الأسطورة متعددة؟

السبب واضح وجلي، وهو أنّ اليهود، كما سبق وأشرنا، استغلوا كتابهم الديني إلى أبعد مدى، وهو الكتاب الذي فرضوه سماوياً إلهياً غير قابل للجدل. فإذا كان هذا الكتاب يقول بأنّ سام بن نوح قد نال بركة أبيه، فإنّ ذريته، التي تفرقت منها أمم الأرض يجب أن تبقى مباركة أبد الدهر. وهذا القول اللاهوتي لا يحصر مطلقاً البركة ببني إسرائيل، وبالتالي كلّ الشعوب التي ينطبق عليها هذا المصطلح تصبح مساوية لبني إسرائيل، فلماذا لا تقوم قيامتها إذا ما تم انتقادها؟ والجواب بسيط، إذ إنّ كلّ الشعوب نشأت في بُقع جغرافية شكّلت لها عبر السنين حاضناً تفاعلياً مميَّزا، تطور في فترة معينة من وعي هذه الشعوب لوجودها إلى مفهوم اجتماعي متقدم جديد عرّفه أنطون سعادة بالإثم الكنعاني، الذي يعني شعور الكنعانيين برابطة قوية تجمعهم هي الرابطة القومية التي أسست لفكرة وطن واحد لشعب واحد، هذا الشعور هو «الوجدان القومي الذي هو أبرز الظواهر الاجتماعية العامة العصرية»(441).

غير أنّ اليهود، كطائفة دينية طامحة إلى أن يكون لها كيان سياسي، وجدت نفسها تعيش جماعات ضمن جماعات أخرى لها دولها، وليس بهذا أيّ شيء غير اعتيادي، ونتيجة لتراثها المفعم بالحقد على كلّ ما هو خارج عن إطارها، تفتقت عبقرية الموغلين بالشعور العنصري منها إلى إنشاء المنظمة الصهيونية التي كانت غايتها إعادة إحياء مملكة إسرائيل المزعومة. ولكي تنجح مساعي هذه المنظمة لم تستنكف عن القيام بأعمال يندى لها جبين الإنسانية، حيث جاء إطلاق مصطلح السامية ليقدّم لها خدمة كبيرة.

كتب السناتور الأميركي بول فندلي: «وتنطلق صيحة «اللاسامية» المدوية في مهلة قصيرة، وهذه التهمة هي التي تجبر الصحفيين على إعطاء إسرائيل أكثر من نصيبها في تغطية أحداث الشرق الأوسط. يقول الصحفي هارولد ر. بايتي: إنّ صيحة اللاسامية القبيحة هي العصا التي يستعملها الصهاينة لحمل غير اليهود على قبول وجهة النظر الصهيونية بشأن الأحداث العالمية أو التزام الصمت»(442). وفعلت الخديعة فعلها، وبات الجميع يحسبون ألف حساب قبل النطق بكلمة نقد للصهيونية أولاً ثم لإسرائيل. وهذا ما أكّده شيريب سبيريدوفيتش حيث قال: «وأمّا رجال الدين والسياسة وأساتذة الجامعات والكتّاب فهم يرتعدون خوفاً إن حاولوا النطق بالحقيقة»(443). فإذا لم يتكلّم هؤلاء فمن سيُقدم على الكلام؟ إنّ الإرهاب التي تمارسه الصهيونية على كلّ صعيد يجد جذوره في التراث التوراتي الذي لا يزال يمدّ الإرهاب الحديث بنسغ الحياة لكي لا تخبو له جذوة، وهو يستند بالدرجة الأولى إلى مُلفّقة السامية.

هل وقفت الأمور عند هذا الحد؟ بالطبع لا، لأنّ الصهاينة درجوا على القيام ببعض الأعمال الإرهابية بأنفسهم وضد اليهود بالذات لإثارة نقمتهم على الأغيار من جهة ولحثهم على الهجرة إلى مشروع الدولة، أي إلى فلسطين. وإذا أردنا إثبات بعض الأمثلة على ما نقول فلا بد من أن نتحدث عن محرقة اليهود على يد النازيين التي تُعرف بالهولوكوست والتي لا تزال تُستغل لغاية يومنا هذا، أي بعد ما يقارب ثلاثة أرباع القرن على حدوثها، بأبشع الأساليب وأخسّها. ينقل وليام غاي كار في كتابه

(أحجار على رقعة الشطرنج) مقاطع من خطاب الحاخام إيمانويل رابينوفيتش الذي ألقاه أمام لجنة الطوارئ لحاخامي أوروبا الذي عُقد اجتماعها في بودابست - هنغاريا في 12 كانون الثاني/يناير 1952، فلدى سؤاله من أحد الحاخامين عن مصير الأديان المختلفة بعد الحرب العالمية الثالثة!!! أجاب: «قد نحتاج في سبيل هدفنا النهائي إلى تكرار العملية المؤلمة نفسها التي قمنا بها أيام هتلر، أي أنّنا قد ندبّر وقوع بعض حوادث الاضطهاد ضدّ مجموعات أو أفراد من شعبنا حتى نحصل بذلك على الحجج الكافية التي تبرّر محاكمة وقتل القادة في أميركا وروسيا باعتبارهم مجرمي حرب» (إشارة إلى محاكمة نورمبرغ).

إن نسبة مرتفعة من الناس ما زالت تنظر إلى المحرقة بأنّها العمل الذي لم يقدم أحد على القيام بمثله في التاريخ القديم والحديث. أمّا من ينظر إليها بشكل عام، وقبل مناقشة التفاصيل، فإنّه يجدُ أولاً أن بني إسرائيل القدماء، وبأمر من إلههم وليس من سياسييهم، قد اقترفوا مجازر لا يمكن مقارنتها مع أية مجزرة أخرى، وقد أثبتنا الكثير حول هذا الموضوع سابقاً. ثم ألا يخبرنا التاريخ عن الحروب وويلاتها منذ أن بدأ الإنسان تدوين الأحداث التي تتعلق بالجماعات البشرية؟ إن ملايين من البشر، وعلى مر العصور، سقطوا وما زالوا يسقطون نتيجة صراع الوجود والمصالح، فلماذا فقط تكون الحرب على اليهود لعنة أبدية تلحق من نفّذها، وحربهم على كنعان المستمرة منذ ثلاثة آلاف سنة ويزيد ليست إلاّ حرباً إلهية مقدسة؟

يشرح لوسيان كافرو دومارس كيف حاول الصهاينة التعاون مع النازيين لإجبار اليهود على الهجرة إلى فلسطين قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ويسمي بالأسماء المسؤولين النازيين، ومنهم أيخمان الذي طارده الصهاينة واختطفوه من الأرجنتين بالتواطؤ مع الماسونيين فحاكموه في إسرائيل وتم شنقه، وهو الذي زار إسرائيل واتصل بمنظمة الهاغانا الإرهابية للتنسيق معها على «إجبار 300 ألف يهودي نمساوي على الهجرة إلى فلسطين، على نفقة اليهود الأغنياء ورغم أنف الانتداب الإنكليزي... فأتت الحرب وأوقفت هذه الهجرة اليهودية السرية التي ينظمها النازيون والصهاينة معاً»(444). ولم يعد بخافٍ على أحد أنّ توافق مصالح الصهيونية والإمبريالية ساعد على خلق دولة إسرائيل الحديثة التي سعى هرتزل منذ مؤتمر الصهيونية الأول في مدينة بازل في سويسرا عام 1897 إلى التأكيد على هذا التوافق، إذ أعلن، في خطاب له ألقاه قبل يوم من انعقاد المؤتمر، في كنيس مع أنّه غير متدين، بأنّه «لمن مصلحة الأمم المتحضرة أكثر فأكثر وللحضارة بشكل عام أن تُقام محطة متمدنة على أقصر طريق يؤدي إلى آسيا. المحطة هي فلسطين. ونحن اليهود حماة رايات المدنية مستعدون للتضحية بممتلكاتنا وأرواحنا من أجل قيامها. الصهيونية تسعى لضمان وطن للشعب اليهودي في فلسطين معترف به علناً وآمن شرعياً»(445).

ولقد أكّد مسألة تعاون الصهيونية والنازية أكثر من مفكر وباحث وكاتب. ففي كتاب (تواريخ الانشقاق)، وهو مجموعة حوارات أجراها ديفيد بارساميان مع نعوم تشومسكي، نقرأ في الصفحة 254 ما مفاده بأنّ عصابة شتيرن «قدمت اقتراحاً للنازيين في عام 1941 تعرض فيه لأن تصبح قاعدة للرايخ الثالث في الشرق الأوسط». طبعاً كان الشرط أن يحصلوا من هتلر على كلّ الدعم المطلوب لإقامة دولتهم. كان الصهاينة قد حصلوا على وعد من بلفور وزير خارجية بريطانيا عام 1917، كما هو معروف، وتحت أجنحة الانتداب البريطاني الذي فرضوه على فلسطين بدأوا بالهجرة

إليها وإقامة المستوطنات وشراء الأراضي بالترغيب والترهيب، فلماذا حاولوا أن يمدوا الجسور مع النازيين؟ لأنّهم وبكلّ بساطة لا يثقون بأحد، فسعوا للعمل على كلّ الجبهات تحسباً للطوارئ، فإن مالت دفة الانتصار إلى الحلفاء ضمنوا إقامة دولتهم، ولكن ماذا لو انتصرت ألمانيا؟ أليس من الأفضل الإمساك بالحبل من الطرفين ليكون لهم موقع مع الفريق الذي يستطيع شد الحبل باتجاهه؟

إن هدف النشاط السياسي الصهيوني لم يكن ليقتصر على حليف واحد، خاصة وأنّ دولاً كثيرة رفضت الانسياق وراء مشروع هرتزل في البداية الذي رأى أنّ حلّ المشكلة اليهودية يكون بخلق دولة لليهود حتى ولو كانت على حساب وجود شعب آخر. وهذا ما دفع بحركة «ليحي: الحركة من أجل تحرير إسرائيل» إلى الإعلان بأنّ «التعاون بين ألمانيا الجديدة (النازية) وبين شعب عبري مجدد سيكون ممكناً على أساس المساعدة لإقامة دولته»، وهذا الأمر يمكن أن يتم بمعاهدة مع الرايخ الألماني «ويمكن أن يساهم في إبقاء وتعزيز وضع ألمانيا في الشرق الأدنى في المستقبل... شريطة أن تعترف الحكومة الألمانية بالمطامح القومية للحركة من أجل تحرير إسرائيل. إنّ المنظمة العسكرية الوطنية ليحي NMO تقدّم عرضها للمساهمة في الحرب إلى جانب ألمانيا... إنّ حركة تحرير إسرائيل، تمضي في اتجاه الخطابات التي ألقاها المستشار الألماني، التي يؤكد فيها السيد هتلر، على أنّ كلّ معاهدة، وكلّ تحالف، ينبغي أن يساهما في عزل إنجلترا وهزيمتها»(446).

"لقد تناسى الإرهابي مائيركهانا ما تمّ الاتفاق عليه بين زعماء الصهيونية وزعماء النازية من وجوب قتل وإحراق عدد من اليهود كي يتم تهجيرهم إلى فلسطين من أجل إكمال المشروع الصهيوني. لقد أشعل اليهود أنفسهم بنيران أفران النازية، وبأيديهم أطفأوها، واستغلّوها لاستمالة عطف العالم لهم. إنّ ما يمثلونه من سلوك إجرامي يتجاوز إجرام النازية والفاشية والأبارتيد»(447). هذا التعاون لم يعد بخافٍ إلاّ على الذين يخافون الاعتراف به، وعلى الذين لا يتابعون ما يصدر من كتابات حول هذا الموضوع في العالم. فاليهودي إيلان هاليفي أشار إلى هذا التعاون حيث استمرت عصابة شتيرن بالسعي «إلى تحالف مع النازيين ضد الإمبريالية البريطانية في عام 1942، كما لم يمنع المفاوضات الغربية الألمانية – الصهيونية في هنغاريا حول مبدأ: يهود مقابل شاحنات»(448). كما أثبت المعلومة التالية: «لقد جمع الكاتب الأميركي الصهيوني المتطرف (بن هيشت) في كتابه «الغدر» منشورات جوليان ميسنر، نيويورك، 1951، مجموعة العناصر المعروفة لهذا التعاون وقد كشف النقاب عن وقائع عديدة بمناسبة قضية كاستنر الشهيرة في إسرائيل في مطلع الخمسينات بصدد اتصالات بين بعض الزعماء الصهاينة في هنغاريا المحتلة وبين الألمان، ومنهم كاستنر الذي يشغل منصب نائب وزير في إسرائيل»(449).

وتعاون الصهاينة مع النازيين كان يتم على أكثر من صعيد، فكانوا يساهمون بخدمة الأجهزة النازية والمصانع الحربية ويقومون بالأعمال الوحشية التي كان يتحمل وزرها النازيون، تماماً كما فعلوا مع لينين وستالين(450). يقول لوسيان كافرو دومارس: «وكانت الشرطة اليهودية التي سلّحها النازيون متوحشة قبل انتفاضة الغيتو في وارسو. وفي ألمانيا ساهم كثير من اليهود الألمان في خدمة الأجهزة والمصانع الحربية، وتمتعوا مع عائلاتهم والحرّاس اليهود للمعتقلات، «الكابو»، بالحماية»(451). نفهم من هذا الكلام أنّ اليهود الذين كانوا يتعاونون مع السلطات كانت هذه السلطات ترد لهم الجميل بحمايتهم، وهم بالذات كانوا مسؤولين عن المعتقلات التي كان اليهود يقتلون داخل أسوارها، وهذا

يؤكد قيامهم بالمجازر ضد أبناء دينهم لغايتين: الأولى إخافة الآخرين لحملهم على مغادرة ألمانيا إلى فلسطين، والثانية استثارة نقمة دول الحلفاء على ألمانيا، وإثارة شفقة هذه الأمم على اليهود مما يمهّد للحصول منها على الدعم المطلوب للمشروع الصهيوني.

كتب جودت السعد، نقلاً عن كتاب «احذروا الصهيونية» ليوري إيفانوف ما يلي: «الاصطفاء غير الطبيعي، بإثارة عداء الآخرين لليهود وتهيئة الأجواء لمذابح يذهب ضحيتها عدد من اليهود غير الموالين أو الفقراء لضمان التفاف بقية اليهود حول الصهيونية وأهدافها السياسية»(452). وانطلاقاً من مقولة نسمعها دائماً وهي: من فمك أدينك يا إسرائيل، نقرأ لأبراهام بورغ، الرئيس الأسبق للكنيست الإسرائيلي والوكالة اليهودية، اعترافاً واضحاً حول توافق مصلحة الصهاينة والنازيين: «في الأيام الأولى، قبل انتشار الفواجع، جرت اتصالات بين الييشوف اليهودي والوكالة اليهودية ممثلته، وبين النازيين. تعاون مشين: الصهيونيون والنازيون لم يريدوا اليهود في ألمانيا. النازيون أرادوهم في الخارج وبعيداً، والصهيونيون أرادوا أنفسهم في دولة خاصة بهم في الداخل، هنا وقريباً»(453). ثم يتابع شارحاً كيف وافق الألمان عام 1933 على السماح لليهود بالمغادرة «إلى أرض إسرائيل» على أن يحمل كلّ مغادر معه ألف جنيه استرليني ونقل بضائع بقيمة 20 ألف مارك.

ماذا يمكننا الاستنتاج من هذا الكلام؟ أولاً فيه إشارة واضحة إلى أنّ النازيين لم يخططوا أبداً لإبادة اليهود، بل أرادوهم «في الخارج وبعيداً» كما تقوم إسرائيل حالياً بإبعاد الفلسطينيين وكما فعلت عام 1948. وثانياً يدلنا الاتفاق إلى أنّ النازيين سمحوا لليهود بالمغادرة مع تسهيلات جيدة، فلماذا لم يغادروا بسلام؟ هذا السؤال هو برسم الصهيونية التي تآمرت على اليهود أنفسهم وفتحت لهم أبواب الجحيم لكي تستطيع تحقيق مآربها السياسية. حاول الصهاينة التعاون مع النازيين، لكنّهم فضلوا بعد ذلك التآمر عليهم مما أثار حفيظتهم على اليهود فتم الانتقام. فهل كان الانتقام إبادة كما يزعم الصهاينة؟

لقد أثبت روجيه غارودي جملة من المعلومات القيّمة حول هذا الموضوع إذ يقول: «ويعترف الدكتور كوبوفي، من «مركز توثيق تل أبيب، عام 1962 قائلاً: «لا توجد أي وثيقة موقعة من هتلر أو هملر أو هيدريش تتحدث عن إبادة اليهود... وكلمة «الإبادة» لا تظهر في رسالة غورنغ إلى هيدريش المتعلقة بالحل النهائي للمسألة اليهودية»(454). ويردف ناقلاً تصريح كل من ريمون آرون وفرانسوا فوريه على أثر حلقة دراسية عقدت في السوربون في شباط 1982 جاء فيه: «على الرغم من أكثر الأبحاث تنقيباً، لم يمكن أبداً، إيجاد أمر من هتلر بإبادة اليهود». وأثبت اعترافاً آخر من لاكور عام 1981 جاء فيه: «لم يوجد، حتى اليوم، أمر خطي من هتلر بتدمير الطائفة اليهودية الأوروبية، وهذا الأمر، كما تدل كلّ الاحتمالات، لم يعطَ أبداً»(455). ويشير غارودي في كتابه أيضاً إلى أنّ إسحاق شامير (الذي أصبح رئيساً للوزراء في دولة إسرائيل) قد أوقفته «السلطات البريطانية في كانون الأول/ديسمبر 1941، بحجة الإرهاب والتعاون مع العدو النازي»(456). ثم يؤكد على أنّ هتلر كان «يسمح لهملر بالتفاوض مع الصهاينة»(457). وينقل غارودي أيضاً من الوثيقة التبريرية رقم 464 في محاكمة أيخمان في القدس المعلومة التالية: «كان هملر قد وجه إلى هتلر مذكرة كان ختامها ما يلي: آمل أن أرى المسألة اليهودية محلولة نهائياً بفضل هجرة كل اليهود إلى أفريقيا أو إلى مستعمرة»، ثم يردف مؤكداً بأنّ «هتلر وافق على هذا الاقتراح»(458).

من هذا كله نفهم أنّ المحرقة تلفيقة صهيونية، ككل ما جاء في أساطيرهم، كان القصد منها النسج على منوال كتبة التوراة الذين حاولوا تضخيم معاناة اليهود على يد الفراعنة لكي يبرروا الخروج المزعوم والدخول البطولي وأعمال الإبادة الوهمية التي ارتكبوها في أرض كنعان. وهذا ما دفع بتوم سيغف للقول في كتابه المليون السابع: «إنّ الإبادة الجماعية هي، على غرار الوعد الإلهي في التوراة، عنصر تبرير أيديولوجي لخلق دولة إسرائيل».

لقد وضع الكاتب نورمان فنكلشتاين، وهو يهودي، مؤلَّفا خاصاً حول المحرقة تحت عنوان (كيف صنع اليهود الهولوكوست)، حيث يتضح من العنوان اقتناع الكاتب بأنّ الهولوكوست اختراع يهودي الغاية منه ابتزاز الدول الأوروبية خاصة ودول العالم عامة. يقول الكاتب: «أصبحت صناعة الهولوكوست منذ عدة سنوات – وبكلّ بساطة – مشروعاً صرفاً لابتزاز الأموال. فهي (إسرائيل) تزعم أنّها تمثل يهود العالم، أمواتاً وأحياء، وتطالب – من هذا الموقع – بثروات يهود فترة الهولوكوست في كلّ أوروبا. وكانت سويسرا هي الهدف الأول لهذا النهب المزدوج للبلاد الأوروبية»(459). ويؤكد أنّ «المبالغ الضخمة التي تنتج عن صناعة الهولوكوست، لا تذهب أبداً إلى الضحايا الحقيقيين»(460). ويشير الكاتب إلى أنّ صناعة الهولوكوست تنامت بعد حرب 1967 التي شنتها إسرائيل على الدول العربية لإسكات الأصوات التي تعالت منتقدة إسرائيل.

وكما ركّز اليهود على الخروج من مصر كحدث تاريخي فريد كذلك اعتبروا «الهولوكوست حدثاً تاريخياً فريداً من نوعه. الهولوكوست هو ذروة البغض اللامعقول والأزلي الذي يُكنّه الكفّار ضدّ اليهود»(461). بهذا التعريف شحن الصهاينة نفوس الأمم الأوروبية عداءً ضد ألمانيا من جهة، وضغطوا على حكومات هذه الأمم لتسهيل قيام دولتهم على أرض فلسطين كحل وحيد لمشكلة الاضطهاد الذي لاحقهم لمئات السنين. وإمعاناً بإثبات فرادة هذا الحدث ضغطوا على الكونغرس الأميركي لكي لا يتبنى يوم ذكرى للإبادة الأرمنية، كما تمكن «مجلس الهولوكوست في الولايات المتحدة من إلغاء أي إشارة أو تنويه عن الأرمن في متحف الهولوكوست في واشنطن»(462). لم يسمح الصهاينة لأيّة دولة خاضعة لسياستهم الاعتراف بالإبادة الأرمنية، أولاً للمحافظة على فرادة هذا الحدث الخاص بهم، وثانياً تملقاً لتركيا الحليفة لإسرائيل. ومؤخراً تجرأت فرنسا واعتبرت إنكار الإبادة الأرمنية جريمة، فلم تبد إسرائيل أيّ اعتراض، لأنّ علاقاتها مع تركيا قد اهتزت بعد تعرض السفينة التركية مرمرة، المتجهة لفك الحصار عن غزة، إلى هجوم إسرائيلي أدى إلى مقتل عدد من الناشطين الإنسانيين ضد حصار إسرائيل لغزة.

لقد استغل اليهود الاضطهاد النازي لهم، أو قل اضطهادهم لأنفسهم، فضخّموا عدد الضحايا لإثارة ضجة كبيرة في العالم ولإجبار ألمانيا على تمويل قيام دولة إسرائيل. نقل روجيه غارودي ما يلي: «وكانت المحكمة، فوق ذلك، تستند إلى تأكيد لأيخمان (أرغم على إعلانه) يدّعي أنّ سياسة الإبادة سببت موت ستة ملايين يهودي، منهم أربعة ملايين في المعسكرات. وإذا عدنا، الآن، إلى أحدث المؤلفات وأكثر الإحصائيات موثوقية – وتلك هي حال كتاب راول هيلبرغ، «تدمير يهود أوروبا» (فايار 1988) – فإننا نصل إلى حوالي مليون ميت في أشويتز، وهو مجموع يقرّه مجمل الاختصاصيين على اعتبار أنّ هؤلاء يتفقون على عدد ضحايا يتراوح بين 950 ألفاً كحد أدنى، ومليون ومئتي ألف كحد أعلى»(463). أمّا الصهيونية فأبت إلاّ أن تصرّ على عدد الستة ملايين

مستندة إلى تعاليم التوراة التي سنفرد للمبالغة فيها فصلاً خاصاً. ولفضح عملية استغلال المحرقة أثبت غارودي نصاً كتبه غاستون برنو، وهو دكتور بالحقوق يحمل وساماً من رتبة فارس، تحت عنوان صرخة أحد المنفيين جاء فيه: «على هؤلاء الصحفيين أن يعرفوا شيئاً واحداً: هو أنّ الأكثرية الساحقة من المنفيين في المعسكرات النازية لم يكونوا يهوداً، على الرغم من أنّ وسائل الإعلام منحتهم هذه السمة... لم يكن هنالك في المعسكرات من قومية معينة، بل كنّا من كلّ القوميات، وكنّا على قدم المساواة أمام العذاب والموت»(464).

إنّها الحرب من يدخل غمارها يتحمل تبعاتها، وما بالنا نغفل عن 50 مليون قتيل سقطوا في الحرب العالمية الثانية منهم 17 مليون سوفياتي و 9 ملايين ألماني، ولا نتكلم إلاّ عن المليون يهودي الذين أضاف إليهم اليهود خمسة ملايين من قتلى الدول الأخرى لكي يتاجروا بدمائهم تحقيقاً لأهدافهم. وعندما يقع شعب ما فريسة للاضطهاد على يد شعب آخر، ثم يتحرر ويقيم له دولة يدّعي أنّها ديمقراطية، ألا يُنتظر منه أن يكون عادلاً مع من سلب أراضيهم وهجّرهم وأقام دولة على تراب دولتهم؟ إذا تصرف هذا الشعب بعنصرية من كان يوماً ما يضطهده، ومارس فعل الاضطهاد نفسه بحق غيره، ألا يكون مساوياً لهذا الذي اتهم بالإبادة وتمت معاقبة شعبه بأسره بجريرة جريمته؟ فإذا حاولنا تبرير شعور العداء اليهودي للألمان بشكل عام والذي تمثل بحملة مسعورة عليهم قادها رجال الصحافة أمثال كليفتون فاديمان ناشر مجلة نيويوركر الأسبوعية الذي كان يقول: «الحل النهائي الوحيد قد يكون تعقيم النازيين بالمعنى الجراحي للكلمة»، وفلاديمير جابوتنسكي الذي صرّح للجريدة اليهودية «ناتشاريتش» قائلاً: «تقتضي مصالحنا اليهودية الإبادة النهائية لألمانيا، فالشعب الألماني يشكل، في كليته، خطراً علينا»، كان ذلك عام 1934، فهل نلوم هتلر، لو حصل بالفعل أمر منه بإبادتهم خلال الحرب العالمية الثانية؟

إنّ فعل القتل مذموم، ونحن لا نورد هذه الاستشهادات لكي نؤيد النازيين على ما أقدموا عليه، سواءً من قتل اليهود أو غيرهم، ولكننا في الوقت ذاته لا يمكننا الموافقة على اعتبار أنّ اليهود وحدهم هم ضحايا الحرب. إنّه استنتاج خاطئ وعقيم بكل المقاييس. فاليهود كانوا وراء كلّ الحروب التي اشتعلت منذ القرون الوسطى في إسبانيا، وهم كانوا وراء اندلاع الثورة الفرنسية، وهم الذين قتلوا مفكريها بعد أن استغلوهم، وهم كانوا وراء الثورة في إنكلترا، وهم من استغل الثورة البلشفية في روسيا وارتكبوا المجازر باسمها، وهم من كان وراء اندلاع الحرب العالمية الأولى والثانية، وهم من يخطط حالياً لاندلاع حرب عالمية ثالثة. هذه ليست اتهامات، وليست نتيجة هوس بمقولة إنّ اليهود هم وراء كلّ الأحداث التخريبية في العالم، وما عليك عزيزي القارئ إلاّ الاطلاع على كتابي وليام غاي كار (أحجار على رقعة الشطرنج)، وشيريب سبيريدوفيتش (حكومة العالم الخفية)، لتدرك كيف استطاع اليهود عبر أبناء روتشيلد من بناء مملكتهم المالية التي سيطروا بواسطتها على معظم حكومات أوروبا أولاً وأميركا ثانياً. وما نشهده اليوم في عالمنا العربي، وامتداداً إلى إيران وباكستان وأفغانستان، يشكّل استمراراً لهذه المؤامرة الكبرى التي حاكها اليهود وتلقفتها الصهيونية التي لا تزال تعمل بإخلاص وجهد على تنفيذ كلّ بنودها.

إن غرف الغاز التي كبرنا ونحن نشمئز من مجرد ذكرها، وأحسسنا بالشفقة على اليهود الذين قدموا أنفسهم ضحايا الصابون، كلّها كذبة كبيرة أكدها الخبراء واعترفوا بأن لا وجود لها. وقد تطرّق

غارودي إلى هذا الموضوع في أكثر من صفحة من كتابه وتوصل إلى التأكيد إلى أنّ «هناك خبراء، منهم المهندس لشتر Leuchter، المختص في الولايات المتحدة، بغرف الغاز المنشأة في ست دول، لإعدام المحكوم عليهم بالموت، لم يصل هذا المهندس بتحقيقاته إلاّ إلى نتائج سلبية»(465). ولم يكن المقصود من هذه الإشاعات إلاّ زيادة النقمة على النازيين، وحلب البقرة الألمانية لتغذية المولود الجديد: إسرائيل. يقول يوسف رشاد: «إن تضخيم أبعاد ما يُسمى بالهولوكوست هي من الحقائق المؤكدة التي اعترف بها اليهود وغير اليهود من المسيحيين الغربيين وذلك لابتزاز الحكومات الألمانية المتعاقبة – بعد سقوط النازية – وحتى الآن، بما في ذلك أيضاً الحكومات الأوروبية الأخرى وكلّ ذلك تحت زعم الاضطهاد لليهود»(466).

التاريخ يعيد نفسه، بكلّ تأكيد، فمن يقرأ التوراة ويرى بأم العين أفعال الصهاينة وممارسات إسرائيل اليوم، لا بد من أن يدرك مدى التطابق ليس بالأحداث والممارسات فحسب، بل أيضاً بالذهنية التي تستولد كلّ هذا الإرهاب وتتنصل منه وتلقي تبعاته على الآخرين. المحرقة لم تدفع ثمنها ألمانيا فقط، بل بالدرجة الأولى شعب فلسطين، وبالدرجة الثانية دول محيط فلسطين، وبالدرجة الثالثة دول العالم أجمع. لقد اعترف أبراهام بورغ بأنّ المحرقة كانت سبباً مباشراً لقيام إسرائيل، مما يؤكد ما قلناه من أنّها كانت من صنع اليهود لكي توفر لهم دافعاً قوياً يستغلونه لإنشاء دولتهم. يقول بورغ إن «قرارات الأمم المتحدة التي أدت لقيام الدولة، والاعتراف الدولي الفوري بالدولة الفتية، والمساعدة المالية السخية من جانب الألمان ودعمهم الدائم تقريباً لكلّ موضوع إسرائيلي (وهل كان لهم خيار؟)، والحساسية المتزايدة للحكومات والمنظمات تجاه العداء للسامية ومظاهر الكراهية العالمية، وهي التغيُّر النمطي للكنيسة الكاثوليكية وتعاملها مع الشعب اليهودي ودولته وأيضاً تجاه حقوق الإنسان بصورة مجردة، ما كانت ستتحقق من دون المحرقة التي أفسحت المجال لذلك»(467). وتقول الدكتورة زينب عبد العزيز: «لقد ضمن الصهاينة مساندة الغرب الصليبي لهم اعتماداً على أسطورة محارق النازي المزعومة والتي أصبح العديد من المتورطين الغربيين يقلل بكثير من الأرقام المشار إليها، بل هناك من ينكر وقوعها إجمالاً»(468). ويشير شلومو ساند إلى أنّ:هانس غونتر (1891 – 1968) الأب الروحي الشهير لنظرية تحسين العرق، والذي انضم إلى الحزب النازي منذ العام 1932، وأصبح لاحقاً مهندس إبادة الغجر، ظلّ حتى مماته مُنكراً للهولوكوست»(469).

إنّ السامية بدعة ليس لها أيّ مرتكز علمي، ولا أيّ إسناد تاريخي، أُطلقت كما أشرنا كمصطلح محدّد المعنى، فحرّفها الصهاينة عن المعنى المقصود وأمعنوا في استغلالها. ولقد أدرك الساسة هذه الحقيقة، ولكن قلة منهم كانت لها شجاعة الكلام عنها. خروتشوف كان له تصريح خلال حواره مع ممثلي وفود الأحزاب الاشتراكية الفرنسية في أيار 1956 قال فيه: «نحن لسنا ضد السامية، بل نحن نناضل ضد العداء للسامية التي عادة ما يكون اليهود أنفسهم سبباً في إشعالها»(470). أمّا الحقيقة الكاملة فهي أنّ السامية، فضلاً عن كونها بدعة، فهي في الوقت نفسه خدعة ابتلعها العالم بأجمعه دون تفكير أو تدقيق. هي بدعة تماماً ككلّ تاريخ بني إسرائيل المبني على الأوهام والأكاذيب، وهي خدعة لأنّ الصهاينة فرضوها على العالم كحقيقة، كما فرضوا سابقاً أساطيرهم على أنّها حقائق إلهية لا يرقى الشك إلى تاريخيتها. يقول فنكلشتاين: «إشارة الهولوكوست كانت إذاً خدعة لرفض أيّ شرعية للانتقادات الموجّهة ضدّ اليهود، هذه الانتقادات لا يمكن أن تكون إلاّ نتيجة حقد مرضي»(471).

وأفضل ما أختم به هذا الفصل ما كتبه إيلان هاليفي من أنّه «كان ممكناً جداً أن تكون ألمانيا النازية هي من يحظى بولاء الصهيونية اليهودية الكامل لو أنّها نجحت في حسم الحرب العالمية الثانية لصالحها نهائياً»(472). وما كتبه أيضاً نورمان فنلكشتاين: «كان أهلي يندهشون - غالباً - عندما يجدون أنّني مستنكر - إلى حدّ كبير - تزوير واستغلال الإبادة النازية. حان الوقت منذ زمن طويل لنفتح قلوبنا على آلام باقي البشرية. هذا هو الدرس الأساسي الذي نقلته لي والدتي. فأمام آلام السود الأمريكيين والفيتناميين والفلسطينيين، كان مبدأ أمي دوماً: أنّنا كلّنا ضحايا الهولوكوست»(473).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الخامس

الأنبياء على خطى يَهْوَه العنصري الإرهابي

«واستحلفتهم بالله قائلاً لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم... فهل نسكت لكم أن تعملوا كلّ هذا الشرّ العظيم بالخيانة ضد إلهنا بمساكنة نساء أجنبيات».

نحميا 13: 25 – 27

«ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حرّاثيكم وكرّاميكم. أما أنتم فتُدعوْن كهنة الربّ تُسمّون خدّام إلهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمّرون».

إشعيا 61: 5

«فهذا اليوم للسيّد ربّ الجنود يوم نقمة للانتقام من مبغضيه فيأكل السيف ويشبع ويرتوي من دمهم».

إرميا 46: 10

هذه أمثلة من أقوال أنبياء بني إسرائيل، تتماهى مع وصايا الإله يهوه العنصرية ومع توجهاته الإرهابية. بنو إسرائيل لم يتقيدوا كلّيا بالوصايا والشريعة، والدليل هو هذا التوسّل الذي أطلقه نحميا لكي يمنعهم من التزاوج من الأغيار عملاً بوصايا يهوه إلههم: «لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم. بنتك لا تعطِ لابنه وبنته لا تأخذ لابنك» (تثنية 7: 2 – 3). بنو إسرائيل هؤلاء سقط وعد الله المزعوم لهم، والذي كان مشروطاً بتنفيذهم الوصايا والشريعة: «ولا أعود أزحزح رِجْلَ إسرائيل عن الأرض التي عيّنت لآبائهم وذلك إذا حفظوا وعملوا كلّ ما أوصيتهم به كلّ الشريعة والفرائض والأحكام عن يد موسى» (أخبار الأيام الثاني 33: 8)، فإذا بالتوراة نفسها تفضحهم، وإذا بأنبيائهم، من موسى إلى آخر واحد منهم، يحمل عليهم ويهددهم بانتقام يهوه منهم، لأنّهم لم يتّبعوا عنصريته فزنوا كثيراً، وأحياناً بأمر منه: «أوّل ما كلّم الربّ هوشع قال الربّ لهوشع اذهب خذ لنفسك امرأة زنًى وأولاد زنًى لأنّ الأرض قد زنت زنىً تاركة الربّ» (هوشع 1: 2).

منذ أن أخرجهم من مصر، وخلّصهم من العبودية، لم يؤمنوا بهذا الإله الذي فُرض عليهم فكانوا منه يتذمّرون: «وكلّم الربّ موسى وهرون قائلاً حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشرّيرة المتذمرة عليّ» (عدد 14: 26)، وهو كان يردّ الصاع صاعين: «في هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعداً الذين تذمّروا عليّ» (عدد 14: 29)، لا مزاح مع هذا الإله ذي الطباع النارية: «الربّ إلهك هو نار آكلة إلهٌ غيور» (تثنية 4: 24) ولقد لاحقهم بمعاصيهم طيلة تاريخهم المزعوم: «لأنّي قد جعلت وجهي على هذه المدينة للشرّ لا للخير يقول الربّ» (إرميا 21: 10). فكيف يمكن لربّ الكون أن يكون للشرّ نذيراً لا للخير قديراً؟ فمهما كان السبب لا يمكننا أن نسلّم ونؤمن بأنّ الله يجازي الشرّ بالشرّ وهو الخير الكلّي الذي لا يفيض منه إلاّ الخير على من وجد إلى طريقه سبيلاً، ويُمهل الضالين علّهم عن ضلالهم يرعوون، وإن هم لم يفعلوا لا ولن يكون سفّاحا يحرّم الأنفس ولا يوفّر أحداً.

كلمات الإله هذا التي صارت إلى أنبيائه ليست سوى تكرار لكل تهديداته التي كلف بها موسى لكي يُنزلها على رؤوس بني إسرائيل، أصحاب الرقاب الغليظة، فإذا بها تفوح منها رائحة الدم يقطر من حدّ السيف الإلهي، ورائحة تحلّل الجثث جرّاء الجوع والوبأ يرسله يهوه إلى كلّ اليهود، شعبه الخاص، الساكنين أرض مصر: «لذلك هكذا قال ربّ الجنود إله إسرائيل. هأنذا أجعل وجهي عليكم للشر ولأقرض كلّ يهوذا. وآخذ بقيّة يهوذا الذين جعلوا وجوههم للدخول إلى أرض مصر ليتغرّبوا هناك فيفنوْن كلّهم في أرض مصر. يسقطون بالسيف وبالجوع يفنون من الصغير إلى الكبير. بالسيف والجوع يموتون ويصيرون حلفاً ودهشاً ولعنة وعاراً. وأعاقب الذين يسكنون في أرض مصر كما عاقبت أورشليم بالسيف والجوع والوبأ. ولا يكون ناجٍ ولا باقٍ لبقيّة يهوذا الآتين ليتغرّبوا هناك في أرض مصر ليرجعوا إلى أرض يهوذا التي يشتاقون إلى الرجوع لأجل السكن فيها لأنّه لا يرجع منهم إلاّ المنفلتون» (إرميا 44: 11 – 14).

ما بال هذا الإله لا يميّز بين الخطأة الذين يعون ماذا هم فاعلون، وما بين الأطفال الذين لا يفقهون معنًى للشرّ، لأنّهم جُبلوا على البراءة؟ وكيف يناقض هذا الإله نفسه كأيّ إنسان عادي إذا كان قد قال في سفر التثنية: «لا يُقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء. كلّ إنسان بخطيته يُقتل» (24: 16). هذا الإله لا يعرف إلاّ مبدأ القتل انتقاماً من كلّ عاصٍ لأوامره، فإن لم يكن بالسيف فبالجوع والوبأ. وقارئ التوراة يقع في كلّ صفحة تقريباً على أمثلة عن إرهاب يهوه وساديته. والقارئ الذي يسترشد العقل بكلّ ما يقرأه لا بدّ من أن يكتشف أنّ معظم ما قاله هذا الإله بقي حبراً على ورق. فكان يهدّد ثم يندم ويتراجع، ويتوعّد من جديد بالإبادة الشاملة التي لم تحصل أبداً.

لقد أعاد عزرا الكاتب بعض الحوادث التاريخية، غير المؤكدة، التي حلّت ببني إسرائيل إلى غضب يهوه ربّ الجنود عليهم، أو إلى ملائكته يرسلها أمام شعبه الخاص لإبادة الأمم أمامهم، وانكساراتهم أيضاً سبّبها يهوه لهم لأنّهم لم يتقيدوا بتعاليمه. وإذا كان هذا الشعب قد استكبر على إلهه، فهل من منتظر أن يتقيد بأقوال أنبيائه؟ فإذا لم يكن الإله بكافٍ وشافٍ لهم، فهل من منتظر أن يكون كذلك الأنبياء على كثرتهم المشبوهة؟ لماذا اكتفى أتباع بوذا به وحده وأفسحوا في المجال أمام مريديه أن يكرزوا بين الناس بأفكاره؟ ولماذا اكتفى أتباع عيسى به وحده فألّهوه، وأسند الحواريون لأنفسهم مهمة نقل ما جاء به دون أن يتجرأ أحدهم ادّعاء النبوة؟ ولماذا اكتفى العرب بالرسول الكريم واحداً أحداً ينطق بما ألهمه الله به، ولم يحتجِ المسلمون بعده إلى أنبياء آخرين لتثبيت إيمانهم؟ فما قصة هؤلاء الأنبياء؟ ولماذا لم يستطيعوا ردع شعبهم (عن عمل الشرّ في عينيّ الربّ)، هذه الجملة التي ملأت صفحات سفريْ الملوك الأول والثاني، وسفري أخبار الأيام الأول والثاني، من يهوذا ويربعام بن نباط إلى يهوياقيم ويهوياكين، مروراً بأعظم ملكين للمملكة داود وسليمان؟

إنّ هذه التساؤلات تستدعي منا بداية التعريف بالنبوة وتتبّع بداياتها لدى الشعوب القديمة. نقل سهيل التغلبي عن عباس محمود العقاد ما يلي: «إنّ كلمة نبي عربية لفظاً ومعنى، لأنّ المعنى الذي تؤديه لا تجمعه كلمة واحدة في اللغات الأخرى. والعبريون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد اتصالهم بهم، لأنّهم كانوا يسمّون الأنبياء القدماء بِـ «الآباء» – البطاركة – ولم يفهموا من كلمة النبوة من مبدأ الأمر إلاّ معنى الإنذار»(474). ثم يضيف التغلبي قائلاً: «ونحن نقول إنّ كلمة النبي سريانية في المعاجم العربية: المخبر عن الله (المصباح، وأقرب الموارد، وقطر المحيط. وفي السريانية:

الرائي أي الناظر والمنذر بوحي من الله بالكائنات قبل كونها نبيو Nbio والاسم نبيوتو Niboutho النبوة والفعل نبي Nabi وإثنابي Ethnabi تنبّأ والثاني آنس، وكذلك بالعبرية فهذه المادة ومشتقاتها سريانية عبرية»(475). «وفي مفردات الراغب الأصفهاني ص 499 «النبوة سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده، لإزاحة علّتهم في أمر معادهم ومعاشهم، والنبي لكونه منبئاً بما تسكن إليه العقول الذكية»(476). وأنا أوافق التغلبي على رأيه، فالعقاد لم يكن ملماً باللغة السريانية – الآرامية التي منها أخذ اليهود لغتهم وليس من العربية.

ويقول الدكتور بشار خليف: «وقد قدّمت وثائق ماري السورية (2900 – 1760) ق.م. أدلة على وجود نوع من النبوة حيث كان الأنبياء يوصفون كأشخاص تعتريهم حالات من الانفعال والاضطراب وهم يتلقون العلامات الخاصة بنبوءتهم»(477). ثم يشير إلى ما كتبه المؤرخ أرنولد توينبي «من أنّ الأنبياء كانوا ظاهرة في حياة المجتمع السوري إجمالاً»(478). إذن ظاهرة النبوة ليست مقتصرة على بني إسرائيل بل سبقتهم إليها شعوب الشرق القديم.

وحول هذه النقطة يقول جودت السعد: «لفظة نبي وفكرة النبوة ومدلولاتها وردت في التراث الكنعاني قبل وجود التوراة بمئات السنين مما يشير إلى اقتباسها من قبل كتبة التوراة، فقد كانت مستعملة عند البابليين ويطلقون على الأنبياء اسماً محدداً يتضمن هذا المعنى هو «موخوخو»، كذلك وُجدت في ألواح (ماري) كلمة موخوخو بمعنى رسول الإله كما وردت في إحداها كلمة نبوة (موخوخونوم)»(479). هذا يؤكد ما كنّا قد أشرنا إليه في الفصول السابقة عن تأثر كتبة التوراة بالتراث البابلي خاصة، ومنه استقوا أساطيرهم، ومنه أخذوا فكرة النبوة واخترعوا أنبياء لا وجود لهم ككل شخصيات قصصهم الأسطورية. وهذه الأساطير بدأت تأخذ لها طابع الديانة «خلال قرنين بعد سقوط بابل على يد قورش الفارسي، عن طريق أنبياء السبي والكتبة، وهؤلاء أعطوا أدواراً لشخوص مخترعة سموهم أنبياء في فترات زمنية متباعدة»(480)، فلماذا اخترع الكتبة كلّ هذه الشخصيات بمن فيهم الأنبياء؟

لقد تطرّقنا إلى الشق الأول من هذا الموضوع والمتعلق باختراع شخصيات التكوين والخروج، وأضأنا على الهدف الذي تمثل باختلاق تاريخ لشعب مغمور. أما بالنسبة للأنبياء فإننا نستشهد بما قاله المؤرخ والباحث توماس طومسون الذي رأى أنّ «نبوءات الدينونة – والقصص التقليدية في الملوك 2 – لا تقدّم نفسها على أنّها ذات معنى أيديولوجي، سوى الإدراك الضمني لما هو عكس الدينونة. هذه المفاهيم – التي أصبحت مألوفة لدينا من يهوشع وعاموس وإشعيا – عن الإدانة الكاملة لإسرائيل بسبب جريمة لا تُغتفر (الخروج 23)، يقتصر معناها كرواية متوارثة على رحمة يهوه الذي يغفر ما لا يُغتفر»(481)، طبعاً هو يغفر لشعبه الخاص بني إسرائيل وليس لكلّ البشر الذي دأب على تعليم شعبه كيف يبيدهم.

إذن اختراع الأنبياء لم يكن سوى وسيلة لمساعدة يهوه في حربه على شعبه الخاص الذي لم يلتزم بتعاليمه ووصاياه وشريعته. فإذا كان كاتب التوراة هو من اخترع يهوه، أو قل سرقه من التراث الكنعاني، وهو الذي اخترع الأنبياء، فهل يكون كلامهم بالفعل تنبؤات؟ أي هل أقدموا على إبلاغ الشعب عن أمور ستحصل في المستقبل وحصلت فعلاً بعد كلامهم عنها؟ يقول معروف الرصافي بأنّ محمداً لم يكن يعلم الغيب والدليل قوله: «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني

السوء» (حديث متواتر). وإرميا يقول في الإصحاح الرابع عشر: «فقال الرب لي. بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمي لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلّمتهم. برؤيا كاذبة وعرافة وباطل ومكر قلوبهم هم يتنبأون لكم» (14: 14). وكأنّ كاتب التوراة قد استدرك قيامه باختراع عشرات بل مئات الأنبياء، فعاد ليقوّل يهوه بأنّهم مجرد عرّافين يأتون بالأكاذيب. ولقد تشابكت قديماً مفاهيم العرافة والكهانة والنبوءة لدرجة بات من الصعب الفصل بينها.

ويقول عبد المجيد همو حول هذا الموضوع بأنّ محرري التوراة كانوا من البراعة «بحيث صوّروا هذه الأحلام أنّها نبوءات يجب أن تتحقق، وأنّ يهوه إلههم الخاص سينقذهم بعد أن أخفق إيل في حمايتهم»(482). إذن المسألة ليست مسألة نبوءات بل هي أحلام، أو قل تمنيات، كان الكتبة يأملون أن تتحقق، كما يحصل لأيّ منّا، عندما تأتيه أحلام اليقظة فيقول لنفسه ليتني أحصل على كذا وكذا، وبين مئات الأماني ربما يصح بعضها، فهل هذا يعني أنّ كلّ الناس أنبياء؟ العلم اليوم يثبت قوة الحاسة السادسة عند البعض والتي تؤهلهم أحياناً معرفة الأحداث قبل حصولها، وفي لبنان اليوم ظاهرة تطل عبر الشاشات لجملة من المتنبئين الذين تصح بعض توقعاتهم، فهل يجوز أن نقول عنهم أنبياء؟ أليس النبي الحقيقي هو المصلح الاجتماعي الذي يكون مثالاً للناس أولاً، ويسعى جاهداً لإرشاد الناس الى الصراط المستقيم؟

يقول معروف الرصافي: «ومما يدلّ على أنّ النبي في عرفه هو المصلح الذي فقه الأمور، وعرف طريق الخير فسلكه وأمر بسلوكه، وعرف طريق الشرّ فاجتنبه وأمر باجتنابه، حديث وفد الأزد»، حيث أشار إلى حديث الوفد مع النبي الكريم عندما قال له: وخمس تخلّقنا بها في الجاهلية، فسألهم النبي وما هي؟ قالوا: «الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمُرّ القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء. فقال رسول الله: حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء. فمن قوله «كادوا» تعلم ما هو معنى النبي في عرفه»(483). أليس هذا ما نفهمه أيضاً من كلام بولس إلى أهل كورنثوس الذين قال لهم في الإصحاح الثالث عشر من رسالته الأولى: «وإن كانت لي نبوّة وأعلم جميع الأسرار وكلّ علم وإن كان لي كلّ الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لي محبة فلست شيئاً» (13: 1 – 2).

وما قيمة النبوة إن لم يفض عنها غير الأمر بالقتل، وشحذ النفوس بالحقد والعنصرية والتعالي؟ وإذا كانت النبوة مجرد توقع لحصول أحداث محددة نتيجة استقراء المعطيات الآنية، ألا تصبح نوعاً من التحليل والتوقّع؟ وماذا إذا كانت مجرد تمنيات صادرة عن نفسية شوّهها الحقد، ألا تصبح مجرّد أحلام؟ ولقد أشار ناجح المعموري إلى مبدأ الأحلام بقوله: «وعرف الأدب في العراق القديم الأحلام والرؤيا باعتبارها وسيطاً مهماً في العلاقة بين الآلهة والملوك. وعرف الأدب العراقي القديم كثيراً من الأحلام»(484).

أمّا إذا أردنا أن ننظر إلى مسألة النبوّة على أنّها وحي إلهي وبالتالي حصولها أمر مفروغ منه لأنّ الله لا يمكن أن يوحي إلى رسوله بأمور غير قابلة للحصول وإلاّ شكك المؤمنون بكلّ الأنبياء والرسل، نقول إنّ مسألة الوحي الإلهي تعود إلى تطور الفكر البشري الذي بهره بروز بعض الرجال غير الاعتياديين، فلم يستطع الاقتناع بأنّ عقل الإنسان قادر على اجتراح المعجزات. يقول الدكتور بشار خليف حول هذا الموضوع في كتاب «نشوء فكرة الألوهة»: «وهذا يعني بشكل أو بآخر بأنّنا أمام

بشر دينيين، ما زالوا يسعون للوصول إلى إدراك مقام الألوهة الواحدة الخالقة ذهنياً، ويبدو أنّ هذا لم يتحقق إلاّ مع الأديان السماوية، حيث تبدى الله للبشر عبر الوحي، عبر الوسيط، الملاك الأكبر الذي ابتكره الإنسان سابقاً، منذ إنليل وبعل وحدد وذو الشرى وغيرهم»(485). فهذا الكلام يعني، كما يدل عنوان الكتاب، أنّ مفهوم الألوهة فكرة قديمة دغدغت أحلام الإنسان القديم، ثم أخذت بالتطور إلى أن استقرت على مفهوم أحادي خرج عنه الموسويون باعتمادهم إلهاً خاصاً بهم مفسحين المجال للشعوب الأخرى أن تكون لها آلهتها أو إلهها، فوقعوا بالشّرك في الوقت الذي وصل غيرهم إلى التوحيد الشمولي الحقيقي.

وعن الوحي يقول معروف الرصافي: «ولا شك أنّ الوحي تفكير في بعض صوره، كما يكون إلهاماً وإلقاءً في الروع في بعض صوره الأخرى»(486). ويقول محمد يوسف حمود: «لقد اعتادت القلوب والألسنة والأقلام والآذان، أن تؤمن وتقول وتكتسب وتسمع، أنّ آيات الرسل الخالدين ومعجزاتهم وانتصاراتهم، ما كانت غير وحي يوحَى ومشيئة تُملى ونصر يُحقّق من الله... فاستقى هذا المعتقد في أفئدة الناس وأدمغتهم إيماناً عميقاً مطمئناً، يجرد «الرسول» من عبقريته الذاتية وإرادته الشخصية وأعماله البطولية... حتى باتت لكل رسول عبارة مطبوعة في الخواطر معناها أنّه إنسان عادي مُرسَل من لدن العناية الإلهية، يردد ما تُلقّنه إياه وينفّذ ما تأمره به.. والمعقول، أنّ الوحي العالي ليس سوى الإلهام الكوني، وأنّ الرسل والهداة المتفوقين ليسوا سوى عظماء الكون وقادة الإنسان، وأنّه إذا كان لله فضل الإيحاء للنبيين، فإنّ لهؤلاء فضل إثبات وجوده تعالى للبشر وإقناعهم بالإيمان بالمجهول. فالرسول إذن ليس المستوحي المنفّذ فحسب، بل هو الإنسان المتفوّق والزعيم المصلح والقائد الباسل أيضاً»(487).

إنّ كلام الأنبياء انصبّ بمعظمه على فكرة خلاص شعب إسرائيل، هذا الشعب - الطائفة الذي اخترع له مختلقوه عذاباته، كان يحتاج دائماً إلى من يشد له عصبه ويقوي وحدته ويدفعه باتجاه إيجاد مستقرّ في الأرض الموعودة. يقول النبي ميخا: «وإني أجمع جميعك يا يعقوب. أضم بقية إسرائيل، (2: 12). ويقول النبي زكريا: «هكذا قال ربّ الجنود. ها أنذا أخلّص شعبي من أرض المشرق. ومن أرض مغرب الشمس. وآتي بهم، فيسكنون في وسط أورشليم. ويكونون لي شعباً، وأنا أكون لهم إلهاً» (8: 7). وأدلى حزقيال بدلوه في هذا المجال فقال: «هكذا قال السيد يهوه: عندما أجمع بيت إسرائيل من الشعوب الذين تفرقوا بينهم، وأتقدس فيهم أمام عيون الأمم. يسكنون في أرضهم التي أعطيتها لعبدي يعقوب» (28: 25).

إذن هذه التنبؤات هي مجرد رؤىً وتمنيات لإعادة جمع شمل بني إسرائيل الذي حصل في الماضي، كما روت التوراة، على يد قورش الفارسي الذي كرّسه محرّر التوراة مسيحاً، والذي لم يكن يقصد من إعادتهم إلى أورشليم تنفيذ أيّ وعد إلهي، بقدر ما كان يقصد استغلال بني إسرائيل وجعلهم خط الدفاع الأول له في مواجهة مصر، تماماً كما مرّ معنا عن مخطط هرتزل الذي أقنع به بريطانيا حول وجود إسرائيل الضامن لمصالحها في الشرق. وقد أشار سهيل التغلبي إلى هذا السبب فقال: «لقد طال انتظار اليهود لمخلّصهم، فتودّدوا إلى كورش الفارسي»(488)، أما عن كورش فقال بأنّ هدفه «ومنذ احتلال الفرس لمدينة بابل سنة 538 ق.م. كان الاستيلاء على الطريق التجارية والعسكرية الهامة لفلسطين وإعادة اليهود إلى بلادهم، كونهم لن يتعاونوا مع المصريين»(489).

وبعد، هل كان الأنبياء بالفعل يعلمون الأحداث التي ستحل ببني إسرائيل وبالشعوب المحيطة بها؟ لقد تلقّى النبي يونان أمراً من الرب طلب إليه أن يكرز في شوارع نينوى داعياً أهلها للتوبة وإلاّ فمصير مدينتهم الخراب. وها هي المدينة تستجيب لنداء النبي، فاستجاب الربّ بدوره لتوبتهم وعدل عن إنزال العقاب بها، «فرأى الله أعمالهم، وأنّهم رجعوا عن طريق الشرير، فندم الله على الشرّ الذي قال إنّه يصنعه بهم، ولم يصنعه» (يونان 10: 3). ولكن «غابت شمس نينوى عام 612 ق.م. وغاب ذكرها عن التاريخ حتى نسيها اليونان والرومان في فتوحاتهم، ولم يكشف بقاياها إلاّ بعض الأثريين والمؤرخين في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي»، لأنّ بنو بلاسر، حاكم بابل أعلن استقلاله عن نينوى ثم هاجمها ودمرها، «وتحوّل عمرانها إلى آثار غطاها الزمن ومضى(490)» وقد جاء خرابها، كما يقول الأب قاشا مطابقاً لما ورد في سفر صفنيا: «ويمد يده على الشمال ويبيد أشور ويجعل نينوى خراباً يابسة كالقمر». فلماذا هذا الاختلاف بين نبيين؟

لقد قلنا سابقاً بأنّ معظم الباحثين اليوم يعيد كتابة أسفار التوراة إلى فترة السبي البابلي وما بعدها. والسبي إذا كان قد حصل فعلاً فالرأي متفق أنّه جرى بعد سقوط أورشليم عام 587 ق.م. وبعضهم يقول 586 ق.م. وهذا يعني أنّ الأنبياء الذين تقول الكتب إنّهم عاشوا قبل هذا التاريخ ليسوا سوى من مخيلة محرّري التوراة الذين كانوا على علم بالأحداث التي حصلت وبنتائجها، فأثبتوها على شكل نبوءات أسندوها لأشخاص عاشوا قبل حدوثها. وكان من الطبيعي أن تمرّ هذه الخديعة على الناس البسطاء تلك الأيام والذين كانوا يجهلون بمعظمهم القراءة والكتابة، فعجزوا عن الاطلاع على تراث الأقدمين. وحدهم الكتبة استغلوا هذه الميزة ولفّقوا تاريخهم الذي لم يقم عليه أي دليل.

ويشير عبد المجيد همو إلى أنّ الدكتور زياد منى يرى «أنّ شخصية عزرا (الكاتب الذي يُنسب إليه تحرير التوراة خلال السبي البابلي) مجهولة لا يعرفها أحد، ثم يقول: «كما إنّ العديد من أهل الاختصاص ينظرون إليه كشخصية أسطورية»(491). وهذا يعيدنا إلى نظرية أخرى تقول بأنّ الديانة اليهودية برزت بعد العودة إلى أورشليم وسُمّيت كذلك نسبة إلى ولاية يهودا، وبالتالي تسقط مقولة كلّ التنبؤات لأنّها إنْ حصلت بالفعل فتكون قد حصلت بعد وقوع هذه الأحداث وليس قبلها. وإذا كان بعض المفكرين يشكك بسقوط أورشليم على يد نبوخذنصّر فإنّ بعضهم الآخر يشكك بنتائجها، أي سبي بني إسرائيل إلى بابل بالشكل الذي تصوره التوراة، حتى أنّ توماس طومسون يعتبر «أنّه لا يمكن تفسير السبي مباشرة بأنّه حقبة تاريخية ضمن تاريخ إسرائيل، لأنّه مفهوم أيديولوجي لإسرائيل عن ذاتها».

ولن نستطيع أن نفنّد أقوال الأنبياء لكي نظهر بطلان ما أتوا به، ولكننا سنأخذ بعض الأمثلة التي لم يقدّم لنا التاريخ أيّ سند لها. ففي الإصحاح السابع عشر من سفر إشعيا نقرأ: «وحي من جهة دمشق، هوذا دمشق تزال من بين المدن وتكون رجمة ردم» (1: 1)، وبالطبع هذا لم يحدث قط ولا تزال دمشق قائمة حتى اليوم. نعم تعرضت دمشق لحروب كثيرة، مثلها مثل أيّة مدينة حضارية قديمة، ولكنّ التاريخ لم يخبرنا عن أي فاتح بعد إشعيا (القرن الثامن ق.م.) انتصر على دمشق وهدمها وجعلها رجمة ردم.

ثم يأتيه وحي آخر عن مصر فيقول: «هوذا الربّ راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر فترتجف أوثان مصر من وجهه ويذوب قلب مصر داخلها» (إشعيا 19: 1). هذا الكلام يذكّرنا بما

كتبه محرّر التوراة في سفر الخروج حيث قال: «ثم غطت السحابة خيمة الاجتماع وملأ بهاء الربّ المسكن» (40: 24). فالله بالنسبة لهم هو راكب السحاب وهو يقيم في خيمة الاجتماع مثله مثل الكهنة. وها هو الكاتب يصوّر الله أيضاً على شكل بروق ورعود وسحاب في الإصحاح 19 من سفر الخروج حيث كتب: «وحدث في اليوم الثالث لمّا كان الصباح أنّه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جداً. فارتعد كلّ الشعب الذي في المحلّة. وأخرج موسى الشعب من المحلّة لملاقاة الله... وكان جبل سيناء كلّه يدخّن من أجل أنّ الربّ نزل عليه بالنار» (19: 16 – 18).

ويبدو أنّ كاتب سفر إشعيا هو نفسه كاتب الأسفار الأولى، لذلك جاء وصف إشعيا لله كما هو موصوف في سفر الخروج، ففي الإصحاح 24 أيضاً يقول الكاتب: «فصعد موسى إلى الجبل. فغطّى السحاب الجبل. وحلّ مجد الربّ على جبل سيناء وغطّاه السحاب ستة أيام. وفي اليوم السابع دُعي موسى من وسط السحاب. وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني إسرائيل» (خروج 24: 15 – 17). ونقرأ من الإصحاح 13 ما يلي: «وكان الربّ يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلاً في عمود نار ليضيء لهم» (خروج 13: 21). ولك أخي القارئ يعود حق تقبل هذا التصور لله أو رفضه لأنّ الله لا يتجسد أمام أحد، ولا بأيّة صورة، بل هو يتجسد فعلاً عقلانياً روحانياً، ويفيض عن هذا التجسد فعل المحبة والغفران والتسامح الذي يقود إلى التوحّد بالله.

وبالعودة إلى وحي إشعيا عن مصر نقرأ أيضاً: «وتنشف المياه من البحر ويجف النهر وييبس. وتنتن الأنهار وتضعف وتجفّ سواقي مصر ويتلف القصب والأسل. والرياض على النيل على حافة النيل وكلّ مزرعة على النيل تيبس وتتبدد ولا تكون» (19: 5 – 7). هذا التنبؤ لم يقم على صحته دليل، تماماً كوجود الإسرائيليين في مصر وخروجهم منها. فلا البحر الأبيض المتوسط، البحر السوري قديماً، جفّت مياهه ولا نهر النيل يبس من الجفاف ولا رياضه تلفت وتبدّدت منذ أن كان. صحيح أنّ فترات من الجفاف كانت تمر، ليس على مصر فحسب، بل على معظم بقاع الأرض، لكنّ النيل بقي متدفقاً وبقيت مصر تنعم بمياهه لذلك دعيت بهبة النيل.

وبالانتقال إلى الإصحاح الثالث والعشرين نقرأ: «وحي من جهة صور. ولولي يا سفن ترشيش لأنّها خربت حتى ليس بيت حتى ليس مدخل... عند وصول الخبر إلى مصر يتوجعون عند وصول خبر صور. أهذه لكم المفتخرة التي منذ الأيام القديمة قدمها. تنقلها رجلاها بعيداً للتغرّب. من قضى بهذا على صور المتوّجة التي تجارها رؤساء... ربّ الجنود قضى به ليدنّس كبرياء كلّ مجد ويهين كلّ موقّري الأرض... أمر الربّ من جهة كنعان أن تُخرب حصونها. وقال لا تعودين تفتخرين أيضاً أيتها المنتهكة العذراء بنت صيدون... ويكون في ذلك اليوم أنّ صور تُنسى سبعين سنة كأيام ملك واحد» (إشعيا 23: 1 – 15). فماذا نستشف من هذا الكلام؟

الكاتب كان على اطلاع على أمجاد صور، خاصة في القرن التاسع حيث أقدمت أليسار أو ديدون على مغادرة شواطئها وألقت مراسيها قبالة شواطئ تونس وأسست مدينة قرطاجة. وهو يعترف أنّ صور كانت مدينة عريقة مفتخرة على بقية المدن بحضارتها، ويعترف أيضاً بأنّ ابنة صور أليسار تغرّبت وأسست مدينة لا تقل حضارة وعراقة عن أمها، لذلك كان يشتهي خرابها، كما اشتهى غيره

خراب نينوى وبابل ودمشق، حواضر تلك الأيام التي عمّ صيتها الآفاق. إنّها النفسية اليهوهية الحاقدة المريضة التي دفعت بالكاتب إلى صبّ غضبه على هذه المدن نتيجة غيرته مما حققته على الصعيد الحضاري يوم كان هو وبنو إسرائيل قبائل بربرية لا تربطها إلاّ نزعة الحقد على الأغيار ورغبة الانتقام من كلّ من هو أفضل منهم.

هذا السفر الذي كُتب ما بعد القرن الرابع قبل الميلاد، تكلّم عن أحداث حصلت قبل خمسة قرون، فكيف يمكن لما جاء فيه أن يُعتبر تنبؤاً؟ صور ككلّ المدن القديمة واجهت عدداً كبيراً من الغزاة لكنّها لم تدمّر نهائياً ولفترة سبعين سنة. فهذه مثلاً أوغاريت في الشمال الغربي السوري قد خربت نهائياً حوالي القرن الثاني عشر ق.م. حيث يظن معظم الدارسين أنّ خرابها كان نتيجة عوامل طبيعية، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك الوقت، وهي اليوم أطلال تشهد على مدينة عظيمة. يخبرنا التاريخ أنّ صور بلغت ذروة مجدها أيام أحيرام (968 – 923 ق.م.)، الذي تروي التوراة وحدها دون سائر الوثائق التاريخية أنّه قدّم لسليمان خشب الأرز والبنّائين الذين شيّدوا له قصره والهيكل، وحيث لم يجد الآثاريون خشبة أرز واحدة تشهد على صحة هذا الكلام، وخشب الأرز كما هو معروف لا يتحلل تحت التراب. ثم ينتزع إيتو بعل المُلْك في صور عام 887 ق.م.، وإذا ما تتبعنا المحطات المهمة في تاريخ هذه المدينة لما وجدنا ما يشير إلى دمارها التام. فأشور بانيبال احتلّها عام 665 ق.م.، وبعده احتلها البابليون عام 573 ق.م.، ثم حاصرها الإسكندر المقدوني عام 332 ق.م.، وبقيت صور على مرّ العصور تتقلّب من حال إلى حال، وتواجه الغزاة فتُغلب على أمرها حيناً ولا تلبث أن تنتفض، أو تحافظ على سيادتها حيناً آخر وتستمر بلعب دورها الحضاري الريادي.

وإذا كان إشعيا اكتفى بالإعلان عن رؤيته لصور كما اشتهاها أن تكون ذليلة مكسورة الجناح بعد عزّها ومجدها، فخاب ظنّه، فماذا نقول عن نبوءة حزقيال، الذي حدّد المنجد فترة تنبؤاته ما بين 593 و571 ق.م. أما جوش ماكدويل فيحدد فترة النبوة ما بين 592 و 570 ق.م.، نقرأ من الإصحاح 26 من سفر حزقيال ما يلي: «وكان في السنة الحادية عشرة في أول الشهر (أي سنة؟) أنّ كلام الربّ كان إليّ قائلاً يا ابن آدم من أجل أنّ صور قالت على أورشليم هَهْ قد انكسرت مصاريع الشعوب. قد تحولت إليّ. أمتلئ إذ خربت». فأيّ سبب هذا يدفع الربّ للانتقام من صور؟ وماذا يعني هذا الكلام بأنّ (صور قالت هَهْ على أورشليم)؟ كلّ ما في الأمر أنّ الكاتب أيضاً نفث حقده على صور من خلال حزقيال المزعوم، لأنّ صور في ذلك الوقت كانت أهم بكثير من مدينته المقدسة أورشليم، وهذا أقضّ مضجعه. فهم خير الناس لأنّهم شعب يهوه الخاص، فمدينتهم التي تحتوي على الهيكل الوهمي يجب أن تكون أفضل المدن، وبالتالي يجب على منافساتها الزوال.

ثم يكمل حزقيال قائلاً: «لذلك هكذا قال السيد الربّ. هأنذا عليك يا صور فأصعد عليك أمماً كثيرة كما يُعلّي البحر أمواجه. فيخربون أسوار صور ويهدمون أبراجها وأسحي ترابها عنها وأصيّرها ضحّ الصخر... هأنذا أجلب على صور نبوخذ راصّر ملك بابل من الشمال ملك الملوك بخيلٍ وبمركبات وبفرسان وجماعة وشعب كثير. فيقتل بناتك في الحقل بالسيف ويبني عليك معاقل ويبني عليك برجاً ويُقيم عليك مترسة ويرفع عليك ترساً... ولكثرة خيله يغطّيك غبارها... بحوافر خيله يدوس كلّ شوارعك. يقتل شعبك بالسيف فتسقط إلى الأرض أنصاب عزّك». لم يؤيَّد هذا الكلام بأيّ مستند تاريخي يؤكد لنا أنّ هذه «النبوءة» قد صحت بالفعل. فالمنجد يحدد احتلال صور من قِبَل البابليين في

العام 573، وهذا يعني أنّ حزقيال الذي لم يحدد تاريخ نبوءته يمكن أن يكون قد عايش سقوط صور بيد البابليين فكتب عنه، أو قل إنّ الأرجح هو أنّ كاتب سفر حزقيال هو من كان قد اطّلع على هذه الأحداث فساقها على شكل رؤيا على لسان حزقيال.

وإذا ما افترضنا أنّ هذه الرؤيا أو النبوءة صحّت لمجرد أنّ صور سقطت بيد البابليين، فهي لم تصح أبداً لجهة قوله: «لا تبنين بعد لأنّي أنا الربّ تكلّمت يقول السيد الربّ» 26: 14، لأنّ التاريخ أيضاً يخبرنا أنّ صور قد انتفضت على البابليين بعد أقل من عشرين سنة (عام 552 ق.م.). فكيف يمكن لمدينة مندثرة خربة قد صيّرها الرب «أهوالاً ولا تكونين وتطلبين فلا توجدين بعد إلى الأبد» حزقيال 26: 21، أن تثور على الغازي فتسترجع مجدها وعزها؟ وكيف نفسّر مضمون نصّ لنبوخذ نصرّ نفسه يشرح غاية مهمته في لبنان حيث يقول: «... في ذلك الوقت، لبنان الجبل المقدس، وغابة الإله مردوخ الغنية والحلوة الرائحة، غابة الأرز العالي الذي لم يطمح إليه إله ولم يقطعه ملك، قد اشتهاه إلهي مردوخ لتعطير قصره، قصر حاكم السماء والأرض، وكان لبنان تحت وطأة عدو أجنبي حكمه ونهب خيراته وشتت أهله. لقد وضعت ثقتي في قوة إلهي مردوخ وإلهي نيبو، وجهّزت حملة وجهتها إلى لبنان. هناك جعلت البلاد سعيدة، وقضيت على عدوها في كلّ مكان، أما المشتتون من أهلها فقد جمعتهم وأعدتهم إلى أراضيهم... لقد جعلت أهل لبنان يعيشون بسلام مع بعضهم بعضاً، ولم أسمح لأحد بإزعاجهم».

هذا الكلام يناقض تماماً ما جاء في نبوءة كلّ من إشعيا وحزقيال. فنبوخذ نصّر لم يدمر صور ويجعلها خراباً، بل هو طرد الغزاة من لبنان جميعه ووفر لشعبه السلام والطمأنينة. هو لم يشمت بصور كما فعل إشعيا وحزقيال النبيان، المفترض أن يكونا من أصحاب الأخلاق الحميدة، مصلحين اجتماعيين يوجّهان الناس نحو الفضيلة كما فعل أحيقار الحكيم عندما قال مؤدباً نادان ابن أخته: «يا بنيّ، لا تبتهج عندما يموت عدوك» فأظهر الفارق ما بين النفسية الحضارية السورية والنفسية اليهودية المنحطة. ثم نجد أنّ كلام نبوخذ نصّر عن غابة الأرز الإلهية التي اشتهاها الإله مردوخ لتعطير قصره وقصر حاكم السماء والأرض (الله) هو الذي أوحى لمحرّر التوراة عند كتابته لتاريخ مملكة إسرائيل أيام سليمان أن يستعين بأحيرام ملك صور لكي يبني له قصره وهيكل الرب في أورشليم من خشب الأرز. فنصّ نبوخذ نصّر هذا جاء بعد فترة وجيزة من سبي أهل أورشليم إلى بابل، وكان من الطبيعي أن يطلع عليه عزرا أو غيره من كتبة التوراة، فراقت له الفكرة فاقتبسها ظاناً أنّه ابتكر امراً فريداً لم يسبقه إليه أحد، ولن يكشف سرّه أحد.

والمخجل أن ينبري اليوم بعض الدارسين الكتابيين ليؤكدوا صحة هذه النبوءات دون أن يكلّفوا أنفسهم البحث والتدقيق. فجوش ماكدويل يستعرض هذه النبوءة ويصل إلى النتيجة التالية التي يعتبرها حقائق نورد منها: تصير صور صخرة عارية – لن تبنى صور أبداً – لا توجد صور بعد إلى الأبد. ثم يقول: «ولم يتوقف تاريخ صور بعد الإسكندر، فقد بنيت وهدمت عدة مرات (صحيح كمعظم مدن ذلك العصر). ولكنّها أخربت بعد 16 قرناً ولم تُبنَ بعد ذلك(492)، بعد أن يستعرض تاريخ صور من الإسكندر إلى الفتح الإسلامي يقول: «ولم تقم للمدينة قائمة بعد ذلك! لقد هُدمت مدن كثيرة وأعيد بناؤها، ولكن يهودياً مسبياً في بابل قال عن صور بأمر من الله: «لا تبنين بعد» فبقيت صور صخرة جرداء منذ خمسة وعشرين قرناً. وعندما يريد أحد اليوم أن يعرف موقع صور، فإنّهم يشيرون إلى

مكان عارٍ... ومع ذلك فإنّ صور لم تبن! ولكن بعض الصيادين البسطاء يسكنونها اليوم ويبسطون شباكهم في موقعها تحقيقاً للنبوّة، ولكنها لم ترتفع أبداً لمكانتها الأولى»(493). فهل من كلام سخيف يضاهي سخافة هذا الكلام ويزوّر الحقيقة الجغرافية والتاريخية؟ فالكاتب يناقض نفسه لأنه اعتبر أنّ صور بقيت صخرة جرداء مدة خمسة وعشرين قرناً، أي منذ أن تحققت نبوءة حزقيال، حسب رأيه، في القرن السادس ق.م.، وهو في الفصل ذاته يحدثنا عن صمود صور بوجه الإسكندر ثم سقوطها، ثم يذكر أنّ المسلمين الذين عادوا فاستولوا عليها عام 1291، فكيف تكون صارت صخرة جرداء لمدة 25 قرناً؟

ويقول أمين معلوف: «ولكي يثأر بغدوين للخزي الذي ألحقه به مقاومو عسقلان فقد توجّه إلى صور المدينة الفينيقية القديمة التي انطلق منها لنشر الأبجدية عبر البحر المتوسط الأمير قدموس شقيق أوروبا التي ستعطي اسمها لقارّة الفرنج. ولا يزال سور مدينة صور المهيب يذكّر بتاريخها المجيد»(494): ويضيف «ها نحن أولاء في العاشر من نيسان/أبريل 1112م. فبعد مئة وثلاثة وثلاثين يوماً من الحصار أنزل أهالي صور بالفرنج هزيمة نكراء"(495). فهل يمكن لعدد من «الصيادين البسطاء» أن يقوموا بهذا العمل البطولي؟ أم أنّ صور، ككلّ المدن الفينيقية – الكنعانية، كانت تمرّ بأدوار، مثلها مثل غيرها، والتاريخ خير شاهد، فهل نعتبر أنّ الهزيمة هي دائماً تحقيق لنبوءة يهودي، والانتصار والمجد فهما فعل إرادة أبناء هذه المدن؟

وينقل أسد شيخاني عن الدكتور إدوارد روبنسون من كتابه «يوميات في لبنان تاريخ وجغرافيا» القول التالي عن المؤرخ سترابو Strabo: «إنّ صور مدينة تجارية زاهرة ذات مرفأين. تلك كانت حالتها عندما زارها السيد المسيح مع تلاميذه، ثم زارها بولس بعد ذلك. صارت صور أسقفية مسيحية في عهد مبكر. ويذكر جيروم في القرن الرابع أنّها أفخم وأجمل مدينة في فينيقيا... والظاهر أنّها بقيت كذلك تحت الحكم الإسلامي وحتى الحروب الصليبية». وينقل أيضاً عن وليم الصوري، وهو شاهد عيان، قوله: «إنّها منيعة التحصين، يحيط بها من جهة البحر سور مزدوج تعلوه أبراج، ومن الشمال داخل المدينة كان المرفأ المسوّر، يُدخل إليه بين أبراج مزدوجة، وفي الشرق يحميها سور مثلث الجدران». فكيف لمدينة لها هذه التحصينات أن تكون قد حققت نبوءة أحد اليهود وصارت صخراً ولم تُبنَ بعد ذلك؟ وإذا كان حزقيال قد قصد المدينة البحرية فقط، فإنّ صور كانت جزءين: جزء بحري وجزء برّي، ولا يمكن اعتبار صور فقط الجزء البحري.

ويذكر روبنسون في كتابه أنّه «أيام شلمناصر ملك أشور، نحو 720 ق.م، كانت المدينة الرئيسية على الجزيرة، أمّا المدينة البرية فكانت تسمى باليتراس أي صور القديمة. وهذه خضعت لشلمناصر بينما حاصر تلك خمس سنوات ولم يظفر منها بطائل. وبعد شلمناصر حاصرها نبوخذ نصّر ثلاث عشرة سنة، ولا ندري هل تمكّن من أخذها بعد ذلك الحصار الطويل أم لا». فهل نصدّق نبوءة اليهودي أم سجلات التاريخ؟ وهذا يدعونا للتساؤل عن صدقية هذا الكاتب الباحث الذي يبدو أنّه لم يكلف نفسه عناء زيارة لبنان ليرى بأم عينه أنّ صور اليوم هي إحدى المدن القلاع اللبنانية الصامدة بوجه البربرية الإسرائيلية الحديثة التي لا زالت تستمد فنون إرهابها من دروس يهوه الإرهابية.

أما إذا كان يشير إلى أنّ مدينة صور كما كانت منذ 2500 سنة لم تعد موجودة، فيكون حقاً عنواناً للسخافة، إذ أيّة مدينة قديمة لا تزال على حالها منذ آلاف السنين؟ من بعلبك إلى جبيل، إلى صيدا

وصور فبيروت، وصعوداً إلى الشاطئ السوري حيث أوغاريت وتوغلاً في الداخل السوري حيث آلاف المواقع الأثرية التي لا تزال شاهدة على الحضارة السورية العريقة، ووصولاً إلى أرض الرافدين ومدنها التاريخية نينوى وبابل، هل كلّها دمرت لأنّ يهودياً قال إنّ الله أبلغه ماذا سيحل بها؟ ألا يكفينا استهزاء بعقولنا حول لصق صفة الألوهية بأساطيرنا القديمة واعتبارها مقدسة غير قابلة للجدل كونها كلام الله، حتى يأتي من يريد أن يقنعنا بأنّ ما قاله يهودي منذ 2500 سنة قد تحقق بالفعل؟ إذن اسجدوا لهذا اليهودي، وطأطئوا رؤوسكم، واجعلوا رقابكم مداعس لرجليه، وسلّموا بكلام إلهه، وارحلوا عن أرضكم ومنازلكم، فهذا الإله قدّمها هدية لشعبه الخاص فويل لمن وقف بوجه عملية الانتقال العقارية الإلهية!!!

لقد أشار نيل سلبرمن في كتابه (بحثاً عن إله ووطن) إلى محاولات بعض الدارسين ربط بعض الأحداث بالتنبؤات التوراتية في محاولة خبيثة لإيجاد شرعية لاحتلال اليهود أرض فلسطين ثانية. أمّا من كان منهم صاحب منطق ورأي عقلاني فقد رفض الانسياق وراء كلام الأنبياء لأنّ «الوحي الذي أرسله الله كان يتغير وفقاً لفهم الأنبياء وآرائهم، وأنّ الأنبياء كان يمكن أن يجهلوا، بل وجهلوا بالفعل... وأخيراً إنّ آراء الأنبياء كانت متعارضة فيما بينهم. لذلك، فلا جدوى على الإطلاق من أن نلتمس لديهم معرفة بالأشياء الطبيعية والروحية»(496) هكذا نظر اسبينوزا إلى أقوال أنبياء اليهود في كتابه «رسالة في اللاهوت والسياسة». ولقد علّق د. حسن حنفي مترجم الكتاب على هذا الكلام قائلاً: «يظهر هنا أيضاً منهج سبينوزا فهو يذكر نصوصاً عديدة متناقضة وسينتج منها تكيّف الوحي حسب آراء الأنبياء، ولكنّه يرمي في نهاية المطاف إلى إثبات أنّ الوحي والنبوّات تتكوّن من خلق الخيال الذاتي»(497)، أي لا علاقة لله بها. بالإضافة إلى ذلك نقول ونؤكد أنّ النبوءة لم تولد لدى بني إسرائيل، فقبلهم كان هناك أنبياء، وبعدهم أتى أفضل الأنبياء. وكما أشرنا فإنّ فكرة النبوءة انتقلت إليهم عبر تراث الأقدمين ككلّ أدبياتهم المثبتة في التوراة.

كتبت الباحثة مهى عون، ما يلي: «ولقد أدخل بعض الباحثين اليهود والبروتستانت براهين جديدة في سياق هذه الأبحاث تضيء على موضوع علاقة النصوص التوراتية ببعض التقاليد والمعتقدات السومرية والعالمية. فالنبوءات، والمراثي، والمزامير، والأناشيد، والحِكَم، والأمثال والملاحم (صموئيل 1 و 2) كلّها أشكال مستعارة من أدبيات الشرق الأوسط وبالأخص من أدبيات بلاد ما بين النهرين (La Mesopotamie) بينما نرى أنّ العديد من الشخصيات لها شبيهها، والمعتقدات والطقوس لها مثيلها عند الكنعانيين وعند الأوغاريتيين»(498).

يبقى أن نشير إلى أنّ هؤلاء الأنبياء لم يشذوا عن القاعدة التي أرساها لهم إلههم، والتي سار عليها ملوكهم، أعني قاعدة الإرهاب. وما على القارئ إلاّ العودة إلى أسفار الأنبياء لكي يتأكد مما أقول، وبضعة أمثلة ستؤيد قولي: «وقال لأولئك في سمعي اعبروا في المدينة وراءه واضربوا. لا تشفق أعينكم ولا تعفوا. الشيخ والشابّ والعذراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك» (حزقيال 9: 5 – 6). «فهذا اليوم للسيّد ربّ الجنود يوم نقمة للانتقام من مبغضيه فيأكل السيف ويشبع ويرتوي من دمهم» (إرميا 46: 10). «فيكون سيف كلّ واحد على أخيه. وأعاقبه بالوبأ وبالدم وأمطر عليه وعلى جيشه وعلى الشعوب الكثيرة الذين معه مطراً جارفاً وحجارة برد عظيمة وناراً وكبريتاً. فأتعظّم وأتقدّس وأعرف في عيون أمم كثيرة فيعلمون أنّي أنا الربّ» (حزقيال 38: 21 – 23). «وتعالوا احتشدوا من كلّ جهة

إلى ذبيحتي التي أنا ذابحها لكم ذبيحة عظيمة على جبال إسرائيل لتأكلوا لحماً وتشربوا دماً. تأكلون لحم الجبابرة وتشربون دم رؤساء الأرض... وتأكلون الشحم إلى الشبع وتشربون الدم إلى السكرِ» (حزقيال 39: 17 – 19). «تجازى السامرة لأنّها قد تمردت على إلهها. بالسيف يسقطون. تحطّم أطفالهم والحوامل تُشق» (هوشع 13: 16).

وبعد كلّ هذا الحقد على شعبه وعلى الآخرين، يغيّر يهوه رأيه ويقول: «ها أنذا أخلّص شعبي من أرض المشرق ومن أرض مغرب الشمس. وآتي بهم فيسكنون في وسط أورشليم ويكونون لي شعباً وأنا أكون لهم إلهاً بالحق والبر» (زكريا 8: 7 – 8)، فأيّ حق وأي برّ؟ ثم يردف قائلاً: «هكذا عدت وفكّرت (كأيّ إنسان يدرك أنّه اتخذ قراراً خاطئاً) في هذه الأيام في أن أحسن إلى أورشليم وبيت يهوذا. لا تخافوا. ولا يفكّرنّ أحد في السوء على قريبه في قلوبكم» (زكريا 8: 15 – 17)، أما على الأغيار فدعوا تفكيركم لا ينصبّ إلاّ بالسوء، «افتح أبوابك يا لبنان فتأكل النار أرزك» (زكريا 11: 1). «أحببتكم قال الربّ. وقلتم بم أحببتنا. أليس عيسو أخاً ليعقوب يقول الربّ وأحببت يعقوب وأبغضت عيسو وجعلت جباله خراباً وميراثه لذئاب البرية» (ملاخي 1: 2 – 3).

لله درّك من إله تفرّق بين الأخ وأخيه، وتجعل الأب يساند واحداً وتساند الأم الآخر، ثم تبيد شعوباً من أجل يعقوب المحتال وتخرّب ميراث الآخر. وها هم بنو إسرائيل اليوم يقتفون أثر إلههم، فيميّزون بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين داخل إسرائيل، وكأنّ ساستهم قد قرروا أنّ من أتى من الغرب هو من نسل يعقوب المبارك، أما من أتى من الشرق فهو من نسل عيسو ذي الميراث الخرِب، ناقضين بذلك التاريخ الذي يؤكد أنّ ما لا يقل عن 90 بالمئة من يهود اليوم يرجعون بأصلهم إلى الخزر الذين تهودوا في القرن التاسع الميلادي ولا يرتبطون بأيّة صلة، قريبة أو بعيدة، ببني إسرائيل القدماء. هؤلاء لم يفهموا قول المسيح الذي أورده متّى في الإصحاح الخامس: «لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات، فإنّه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين». كيف لهم أن يفهموا رسالة المسيح التوحيدية الكونية وقد استأثروا بالله وجعلوه يستأثر بهم شعباً خاصاً مباركاً، يدافع عنه، يثور عليه، يهدد بالويل والنار ثم يندم ويتراجع فيسير أمام هذا الشعب ناراً آكلة تبيد الأعداء من أمامه؟ وإن هم لم يفهموا، فما بالنا نحن نغض الطرف عن أكاذيبهم وأساطيرهم ومؤامراتهم؟

ألا ليتنا نقتنع بكلمات العالم الليبي الصادق النيهوم الذي قال: «الخوارق التي تنسبها التوراة إلى أنبياء اليهود ليست إلاّ مجرد أساطير ملفّقة، لا يمكن أن تولد إلاّ من ثقافة تؤمن بالسحر، وتعتقد أنّ الساحر لديه قوة خفية لتحقيق المعجزات»(499). وما بالنا أيضاً بأتباع براهما الذين يقولون: «كلّ نبي إذا جاء بالمعقول فعقلنا يغنينا عنه، وإذا جاء بغير المعقول فلا حاجة لنا به»(500). وينقل الكاتب أيضاً من حكمة مذهب الموحدين الدروز: «كلّ ما لا يقبله العقل لا يدخل في الدين»، وقول آخر لأفلاطون: «معرفة الوجود الحق هي المعرفة العقلية». فلنطلق العقل من عقاله وهو كفيل بأن يفرّق بسهولة بين المعقول واللامعقول، بين الإله ربّ الجنود وشعبه الخاص، وبين الله خالق الكون الواحد الأحد الذي لا فرق عنده بين مؤمن وآخر إلاّ بالتقوى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

التناقض والمبالغة سمتان واضحتان في السرد التوراتي

«وفيما يمكن للمرء أن يرى سيطرة كمية لهذا التصور أو ذاك في الروايات المتتابعة، فالنص النهائي وخاصة للأسفار التوراتية الأكبر يمثّل خليطاً متنافراً، إلى حدّ كبير، من اللاهوتيات والأيديولوجيات المتناقضة بحدة»

التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي

توماس ل. طومسون

كلّ قارئ عقلاني للتوراة لا بد من أن يلاحظ بوضوح لا يلامسه الشك، مدى التناقض الذي وقع فيه محرر أو محرِّرو التوراة، ومدى المبالغة المثيرة للسخرية والتي تذكّرنا بالأفلام الهوليودية، كما أشرت لذلك أكثر من مرة. لكننا ندرك ونحن نشاهد فيلماً هوليودياً أنّ مخيلة الكاتب وإبداع المخرج قد لعبا الدور الأساس بتقديم العمل إلينا بشكل متقن يجعلك تميل إلى تصديقه للحظات، فإذا بالعقل يتدخل ليقول لك: خفّف من اندفاعك فالأمر لا يعدو أن يكون بجملته أكثر من وقائع بعيدة عن الواقع وعلى شيء كثير من التشويق. أمّا مع السرديات التوراتية فالأمر مختلف حتى ولو أنّك ضمنياً توصلت إلى قناعة ثابتة بأنّ الأحداث المذكورة غير قابلة للتصديق. الأمر مختلف لأنّها فُرضت علينا، رغم انتمائنا إلى أديان أخرى، على أنّها نصوص إلهية، وبالتالي ما هو إلهي لا يجوز التشكيك بصحته، حتى لو ارتجف العقل منا وأحس بالإهانة. فإذا صح هذا الاعتبار مع المؤمن العادي، فإنّه لن يجدي نفعاً مع من آمن بالعقل منارة يستضيء بنورها على كشح الظلام الدامس لكي تتقشع الرؤية ويستبان الطريق.

يقول أسعد زيدان: «بين العلم وأساطير الدين حرب شعواء. ومنذ الوعي الإنساني حتى اليوم لم تتمكن الأساطير من دحض أو تكذيب اكتشافة علمية واحدة، ولكن العلم كذّب ودحض جميع أساطير الخرافات الدينية وأهمها: العالم لم يتكوّن في ستة أيام، البشرية لم تتحدّر من آدم وحواء ومن نوح وأولاده سام وحام ويافث، وأنّ بني إسرائيل ليسوا شعب الله الخاص، وأنّ قصص أنبياء أو رعاة العبرانيين المدوّنة في توراة العهد القديم ليست إلاّ قصصاً وأمثالاً نضربها للناس، وأنّ الشمس لا تدور (إشارة إلى ما جاء في سفر يشوع الإصحاح العاشر: حينئذ كلّم يشوع الربّ يوم أسلم الربّ الأموريين أمام بني إسرائيل وقال أمام عيون إسرائيل يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي أيّلون. فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه) 10: 12 – 13. والتي تدور هي فقط الرؤوس الفارغة التي تعتقد بأساطير التوراة»(501).

وإذا انطلقنا مما جاء في سفر يشوع من أمر الله للشمس أن تتوقف لاتّضح لنا مدى التناقض أولاً بين كلام التوراة الذي جاء في بداية سفر التكوين عن خلق الله لكلّ شيء في ستة أيام مما يعني أنّ الخالق على دراية تامة بما خلق فكيف لا يعلم بأنّ الشمس التي خلقها قد جعلها ثابتة لا تتحرك، وبأنّه جعل الأرض تدور حولها وحول نفسها، فيأمرها بأن تدوم على جبعون كرمى لعيني بني إسرائيل، إذ بقوله

دومي يعني أنّه كان يعتقد بأنّها هي التي تتحرك وليس الأرض؟ ثانياً: إذا كان قد أمر الشمس أن تقف مكانها لكي يبقي الضوء غامراً الأرض فيرى بنو إسرائيل أعداءهم فيتم قتلهم فما حاجتهم إلى ضوء القمر؟ ثالثاً: بعد توصل العلم إلى حقيقة ثبات الشمس كيف نستمر بتصديق كلام التوراة من جهة، وكيف لا نسقط عنها الألوهية والقدسية انطلاقاً من نسبتها لله كلاماً يناقض قدرته التي كانت سبباً بوجود الشمس؟

هذا يدفعنا إلى موافقة الأب سهيل قاشا على ما قاله حول التناقض الذي ارتكبه كاتب التوراة منذ الصفحات الأولى في سفر التكوين، وبالتالي فإنّ هذا التناقض يُسقط مسألة نسبة التوراة إلى الله المنزّه عن الصفات كما عن الوقوع بالتناقض في عدة مسائل: «على أنّ القراءة المتأنية لنص التكوين التوراتي، تظهر لنا تناقضاً واضحاً في أحداثه. ففي البدء خلق الربّ السماوات والأرض. ثم نجده يخلقهما مرة ثانية بفصل المياه عن بعضها. ومرة نجده يخلق البشر دفعة واحدة «ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم الرب وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض». وفي المرة الأخرى يخلق الرب الإنسان بدءاً من زوجين أوليين مقتفياً بذلك أثر الأساطير البابلية والسومرية»(502). فالتناقض حصل من الصفحة الأولى لسفر التكوين واستمر في معظم الأحداث التي ساقها المحرّر أو المحرّرون، والتي سأعطي عنها أمثلة إذ لا مجال لتسجيلها جميعها.

في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين نقرأ: «وهذه مواليد تارح. ولد تارح أبرام وناحور وهاران. وولد هاران لوطاً» (11: 27)، وهذا يعني بوضوح أنّ لوطاً هو ابن شقيق أبرام، وهذا ما يؤكّده الكاتب في الإصحاح 14: 12 بقوله: «وأخذوا لوطاً ابن أخي أبرام». فكيف يعود الكاتب مباشرة إلى القول: «فلمّا سمع أبرام أنّ أخاه سُبي» (14: 14)، و«استرجع لوطاً أخاه» (14: 16). هل هذا الكلام يحتاج إلى تأويل يقنعنا أن ابن الأخ هو بمنزلة الأخ؟ وإذا أكملنا مسيرتنا مع محرر التوراة نصل إلى قوله في سفر الخروج الإصحاح الأول: «ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا» (1: 8). وقد أشرت سابقاً إلى التناقض الأول في هذا الكلام، وهو كيف يمكن لأيّ ملك جديد على مصر أن يستلم الحكم من أبيه ولا يكون على معرفة بيوسف الذي قال له الفرعون الأول الذي لم يذكر الكاتب اسمه ولا اسم الفرعون الجديد: «قد جعلتك على كلّ أرض مصر. وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف... وأركبه في مركبته الثانية ونادوا أمامه اركعوا. وجعله على كلّ أرض مصر. وقال فرعون ليوسف أنا فرعون. فبدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله في كلّ أرض مصر» (41: 41 – 44). إذا كان شأن يوسف في مصر قد بلغ هذه المرتبة، فكيف يمكن لأيّ فرعون جديد أن لا يكون على معرفة به؟

وعندما يقول الكاتب بأنّ بني إسرائيل شعب أكثر وأعظم من المصريين، فكيف يريدنا أن نقتنع بعد ذلك بعدّة جُمَل أنّ المصريين: «اختشوا من بني إسرائيل. فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف. ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية»؟ قد نقتنع أنّ فئة قليلة من الناس يمكن أن تتحكم بجماعة أكثر منها عدداً، ولكن ما لا يمكن أن نقتنع به هو أنّ هذه الفئة المُستعبَدة كانت، ليس فقط أكثر، بل أعظم شأناً من الفئة المُستعبِدة. ومن جهة أخرى نجد أنّ بني إسرائيل الذين تكاثروا وعظم شأنهم يرضخون للعبودية مدة 430 سنة إلى أن أتى موسى وأخرجهم من مصر. ونحن وإن صدّقنا ذلك أيضاً، فكيف نصدّق حنين بني إسرائيل للعودة إلى مصر، بعد أن ملأ صراخهم الأرض من الذل حتى وصل إلى

آذان يهوه فنزل لإنقاذهم؟ لقد أشرنا إلى ذلك سابقاً وقلنا إنّ من خرج إلى الحريّة بعد مئات السنوات لا يمكن أن يحنّ إلى العبودية لمجرد شعوره بالعطش والجوع. إنّه تناقض فاضح ومن المعيب نسبة هذه الأساطير إلى الله.

في سفر التثنية يُبلغهم يهوه أنّه سيطرد من أمامهم شعوباً كثيرة «الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين»، ويأمرهم أن يقتلوهم جميعاً، هو يقوم بعملية الطرد أما شعبه الخاص فمهمته قتل كلّ هذه الشعوب «حرّموا (أي اقتلوا) كلّ ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف» (يشوع 6: 21)، فلماذا عدل عن رأيه فعاد وقال لهم أولاً: «الربّ إلهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك قليلاً قليلاً. لا تستطيع أن تفنيهم سريعاً لئلاّ تكثر عليك وحوش البريّة» (تثنية 7: 22)، ثم يقول في سفر يشوع: «فلم يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر. فسكن الكنعانيون في وسط أفرايم إلى هذا اليوم وكانوا عبيداً تحت الجزية» (16: 10).

فإذا سلّمنا جدلاً أنّ تعديل قراره كان تكتيكياً في المرة الأولى ينطلق من مصلحة شعبه المتمثلة بعدم إفساح المجال أمام وحوش البرية لمهاجمتهم، وهي النفسية اليهودية المكيافيلية، فكيف نسلّم بقراره الثاني والقاضي بالإبقاء فقط على كنعانيي جازر؟ الأمر بسيط لمن يتذكر أنّ نوحاً قد قال لحام أبي كنعان: «ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته» (تكوين 9: 25)، ويبدو أنّ الكاتب قد تذكر هذا الكلام أيضاً وأراد أن يحقق لنوح لعنته، فخلّص الكنعانيين من الإبادة وجعلهم عبيداً ليتم فيهم كلام نوح. أما الحقيقة فهي أنّ بني إسرائيل، أصحاب الحروب الوهمية، لم يستطيعوا القضاء على الكنعانيين أبداً، بل هم الذين عاشوا بينهم، وتعلموا منهم كلّ جوانب الحضارة، حتى أنّ لغتهم الخاصة كانت لهجة كنعانية غير قابلة لأن تعبّر عن نتاجهم الفكري الضحل، فكتبوا توراتهم باللغة الآرامية.

ويستمر التناقض الذي لم يأبه له المحرّر في تلك الأيام لأنّ الناس كانوا من البساطة بمكان لا يسمح لهم أن يدققوا ويلاحظوا، خاصة متى اقتنعوا أنّ هذا الكلام إلهي مقدس، فكيف يُعقل أن يتسرّب إليه التناقض، «فالناس لا يصبرون على بيان الحقيقة بالأدلة والبراهين إذا كانت مخالفة لأوهامهم – شبلي الشميّل» ولا لوم على ناس ذاك الزمان، بل اللوم كلّ اللوم على ناس القرن الحادي والعشرين الذين لا يزالون مشدوهين بما هو مسطّر في التوراة، ويأبون الانقياد إلى العقل الذي يحلّل ويدقّق ثم يقرّر.

في سفر يشوع الإصحاح الرابع والعشرين نقرأ: «هكذا قال الربّ إله إسرائيل. آباؤكم سكنوا في عبر النهر منذ الدهر» (24: 2)، وفي الصفحة المقابلة تماماً ومن السفر نفسه نقرأ: «وأعطيتكم أرضاً لم تتعبوا عليها ومدناً لم تبنوها وتسكنون بها ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون» (24: 13)، هذا الكلام الذي كان قد قاله لهم في سفر التثنية: «ومتى أتى بك الربّ إلهك إلى الأرض التي حلف لآبائك إبرهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيك. إلى مدن عظيمة جيدة لم تبنها وبيوت مملوءة كلّ خير لم تملأها وآبار محفورة لم تحفرها وكروم وزيتون لم تغرسها وأكلت وشبعت فاحترز لئلاّ تنسى الربّ» (6: 10 – 11)، ألا يناقض قوله لهم: «آباؤكم سكنوا عبر النهر منذ الدهر"؟ فالدهر لغة وحسب المنجد يحتمل معنيين: الأمد المحدود أو الزمان الطويل، ويقال كان ذلك في دهر الدهارير أي في الأزمنة القديمة. أما عندما يقول الكاتب منذ الدهر فإنّما يعني من العصور القديمة أي منذ الأزل. فكيف يقع

الكاتب بهذا التناقض وهو الذي أخبرنا عن تغرّب أبرام الذي ترك أور الكلدانيين وتوجه إلى أرض كنعان، والدارسون يُرجعون وجود إبراهيم الأسطوري في أرض كنعان إلى العام 1850 ق.م. فهل هذا التاريخ هو الأزل؟ وعندما يعترف الكاتب، أو يهوه - الربّ، بأنّ آباء بني إسرائيل قد دخلوا إلى مدن لا علاقة لهم بتأسيسها، وإلى بيوت لا علاقة لهم أيضاً ببنائها، كذلك بكرومها وبساتينها، ألا يعني هذا أنّ هناك قوماً قبلهم كانوا الروّاد الذين أقاموا هذه الحواضر؟ أليس هذا تزويراً للتاريخ وللحقائق وتناقضاً صارخاً في الإصحاح نفسه؟

وإذا ما انتقلنا إلى سفر صموئيل الثاني لوجدنا أنّ الكاتب قد جعل من حيرام ملك صور يرسل «رسلاً إلى داود وخشب أرز ونجارين وبنائين فبنوا لداود بيتاً» (5: 11). كان هذا بعد أن دخل داود إلى أورشليم، أي في السنة الثامنة لتسلمه الحكم، وفترة حكمه امتدت من سنة 1010 إلى 970 ق.م.، أما فترة حكم حيرام لصور فكانت ما بين 968 و 923 ق.م. أي أنّ داود لم يعاصر حيرام ، إذن قيام حيرام ببناء بيت داود أسطورة لا أساس لها من الصحة وقد أوقعت الكاتب بالتناقض كالعادة. ويخبرنا الكاتب في سفر صموئيل عن قيام داود وهو بعد غلام بمواجهة جليات الفلسطيني من جتّ، وقد كان رجلاً مبارزاً يهابه الأبطال، ويهرب رجال إسرائيل منه وكان يرتدي «على رأسه خوذة من نحاس وكان لابساً درعاً حرشفياً ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس» (17: 5)، وكلّ هذا لم يمنع الغلام داود من قتله بحجر من مقلاعه. فكيف يقتل الحجر هذا المبارز الجبار الذي كان يرتدي الخوذة؟ ولئن صدّقنا هذه الواقعة، فماذا يقول عقلنا عندما يخبرنا الكاتب وفي السفر نفسه بعد عدة إصحاحات أنّ من قتل جليات الجتي (نسبة إلى جتّ) هو الحانان بن يعري أَرَجيم البيتلحمي أثناء نشوب حرب في جوب مع الفلسطينيين؟ كلّ هذه القصص شبيهة بقصص ألف ليلة وليلة، هي للتسلية وليست تاريخاً موثقاً لحوادث حصلت، هي من خيال الكاتب لا من لدن الله، لذلك أتى الخطأ طبيعياً لكثرتها وتداخلها بعضها ببعض، وأحياناً دون ترابط مما أوقع الكاتب أيضاً بالتناقض.

ومن يكمل قراءة أخبار داود يقع على أكثر من تناقض خاصة عندما جعله الكاتب بطلاً صنديداً يقتل جليات، كما مرّ معنا، وهو بعد غلام، ثم نراه جباناً خائفاً هارباً من مكان إلى آخر، حيث لم يمنعه كرهه للفلسطينيين من الالتجاء إليهم والاحتماء بهم: «وقال داود في قلبه إنّي سأهلك يوماً بيد شاول فلا شيء خير لي من أن أفلت إلى أرض الفلسطينيين... وكان عدد الأيام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر» (صموئيل الأول 27: 1 و 7). وهذا إن دلّ على شيء فعلى ضعف السرد القصصي الذي أراد الكاتب أن يوهمنا بأنّه كلام الله أنزله عليه وما هو إلاّ بمبلّغ.

وبالرغم من كلّ الزنى الذي اقترفه داود، مما جعل الربّ يخاطبه قائلاً: «لماذا احتقرت كلام الربّ لتعمل الشرّ في عينيه» (صموئيل الثاني 12: 9)، وبالرغم من توبة داود التي نستشفّها من النشيد الذي وجهه للربّ في الإصحاح الثاني والعشرين، فنحن لا نجد إلاّ التناقض بين ما جاء في هذا النشيد وبعض ما جاء في مزامير داود. في النشيد المذكور يرضى داود عن الربّ لأنّه في ضيقه رعاه وإليه صرخ «فسمع من هيكله صوتي وصراخي دخل أذنيه. فارتجّت الأرض وارتعشت. أسس السموات ارتعدت وارتجّت لأنّه غضب. صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت. جمر اشتعلت منه... من الشعاع قدّامه اشتعلت جمر نار... أنقذني من عدوّي القوي من مبغضيّ لأنّهم أقوى منّي... يكافئني

الربّ حسب برّي. حسب طهارة يديّ يردّ عليّ. لأنّي حفظت طرق الربّ ولم أعصِ إلهي. لأنّ جميع أحكامه أمامي وفرائضه لا أحيد عنها» (صموئيل الثاني 22: 7 – 23).

فهل نسي الكاتب ما كتبه من أنّ الربّ طالب مخلّصه من أعدائه، ومنقذه من مبغضيه، هذا الربّ علّم داود الإرهاب والإجرام فإذا به، بعد أن انتصر على «ربّة» وأخذ تاج ملكها ونهب المدينة، يُخرج «الشعب الذي فيها»، ويضعهم «تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد»، ويُدخلهم «في أتون الآجرّ» (صموئيل الثاني 12: 21). أمّا في مزاميره فنراه يتكلّم عن الربّ - يهوه كإله خاص ببني إسرائيل: «مبارك الربّ إله إسرائيل من الأزل وإلى الأبد» (41: 13)، «أرنّم لإله يعقوب» (75: 9)، «الله معروف في يهوذا اسمه عظيم في إسرائيل. كانت في ساليم مظلّته ومسكنه في صهيون» (76: 1 – 2)، «يا راعي إسرائيل» (80: 1)، «ويعلموا أنّك اسمك يهوه وحدك العليّ على كلّ الأرض» (83: 18)، هذا الإله الذي «يُخضع الشعوب تحتنا والأمم تحت أقدامنا» (47: 3)، وهو الذي يعطي داود القوة والقدرة حتى إذا ما أحاطت به الأمم «باسم الربّ أبيدهم» (118: 10)، الربّ ذاته هذا، والذي يقول داود عنه بأنّه «حنّان رحيم طويل الروح كثير الرحمة صالح للكلّ» (145: 8 – 9)، ليس هو ربّ العالمين، وهنا مكمن التناقض الكبير، لأنّ قراءتنا لمجمل المزامير تجعلنا نعلم أنّ الربّ الذي يخاطبه داود هو إله إسرائيل كما قلنا، ورحمته وعدله لا يشملان سوى بني إسرائيل. فإذا كان هذا الربّ كذلك فلماذا نشعر أنّنا ملزمون باتّباع وصاياه والتي يكرر هو دائماً أنّها خاصة بشعبه الخاص؟ ولماذا نشعر بالحرج ونحجم عن إظهار الحقيقة للمؤمنين لكي يتوقفوا عن المشاركة بالمؤامرة الكبرى وينسحبوا من محكمة التاريخ التي أوقفوا فيها شهود زور على أكبر عملية تزوير طالت الإنسانية جمعاء.

أنتقل مع الكاتب إلى عهد سليمان حيث يقول في سفر الملوك الأول: «وهذا هو سبب التسخير الذي جعله الملك سليمان لبناء بيت الربّ وبيته والقلعة وسور أورشليم وحاصور ومجدّو وجازر. صعد فرعون ملك مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان» (الملوك الأول 9: 15 – 16). فكيف يكون سليمان هو من بنى حاصور وقد جاء الكاتب على ذكرها في سفر يشوع، أي قبل أن يولد سليمان، حيث يقول: «ثم رجع يشوع في ذلك الوقت وأخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف... وأحرق حاصور بالنار» (11: 10 – 11)، فكان الأولى به أن يقول وأعاد سليمان بناءها، هذا إذا لم تكن بنيت مجدداً قبل سليمان، أو قل إذا كانت قد أحرقت أصلاً على يد يشوع الأسطوري. وعندما يقول في يشوع 16: «فلم يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر» ألا يعني هذا أنّ جازر أيضاً كانت موجودة قبل سليمان، وكذلك الأمر بالنسبة إلى مجّدو؟ أما التناقض المحيّر فهو قوله إنّ فرعون أخذ جازر وأحرقها بالنار ثم أعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان.

فإذا كان سليمان قد بنى جازر وهو صهر فرعون، فلماذا يهاجمها فرعون ويحرقها ثم يقدّمها مهراً لابنته أمرأة سليمان، أي ملكة إسرائيل بما فيها جازر؟ والخبر الأغرب والذي لم يرد في سجلات حيرام ملك صور هو، ليس فقط إقدام حيرام على إرسال البنائين وخشب الأرز والسرو والذهب إلى سليمان، بل إقدام سليمان على منح حيرام مقابل هذه المساعدة القيّمة «عشرين مدينة في أرض الجليل. فخرج حيرام من صور ليرى المدن التي أعطاه إيّاها سليمان فلم تحسن في عينيه. فقال ما هذه

المدن التي أعطيتني يا أخي. ودعاها أرض كابول إلى هذا اليوم. وأرسل حيرام للملك مئة وعشرين وزنة ذهب» (الملوك الأول 9: 11 – 14). فإذا سلّمنا جدلاً بوجود عشرين مدينة في الجليل ذلك الزمن، معتبرين أنّ الكاتب أراد بالمدينة القرية، فكيف نفسّر قول حيرام لسليمان بأنّ هذه المدن لم تعجبه، ثم يقوم بعد ذلك بإرسال مئة وعشرين وزنة من الذهب إلى سليمان؟ ألا تدعونا هذه الأخبار والقصص إلى التساؤل عن مدى صحتها وسبب تناقضها مع بعضها أحياناً ومع سجلات التاريخ دائماً؟ ولا ضرورة لأن نعيد ذكر التناقض الذي تفيدنا به قصة ملكة سبأ، والتي لم تكن معاصرة أصلاً لسليمان.

لقد تتبعت التناقض الذي وقع فيه الكاتب، ولو أردت إثبات كلّ مواضع التناقض لاحتاج ذلك مني مؤلّفاً مستقلاً. وزيادة على ما ذكرت لا بأس من ذكر بعض الأمثلة السريعة أيضاً. يقول الكاتب في الإصحاح 24 من سفر الملوك الثاني: «كان يهوياكين ابن ثماني عشرة سنة حين ملك» (24: 8)، أمّا في أخبار الأيّام الثاني فيقول: «كان يهوياكين ابن ثماني سنين حين ملك» (36: 9). والتناقض واضح بأعداد بني إسرائيل التي ذكرها الكاتب في سفر العدد الإصحاح الأول، وبين الأعداد ذاتها التي ذكرها عنهم في أخبار الأيام الأول الإصحاح الخامس. في المزمور رقم 137 يقول الكاتب: «على أنهار بابل هناك جلسنا. بكينا أيضاً عندما تذكّرنا صهيون» (137: 1)، وحسب التوراة لم يذهب داود إلى بابل، بل الذين ذهبوا هم بنو إسرائيل الذين سباهم نبوخذ نصّر بعد داود بـ 384 سنة. فهذا يؤكّد لنا مسألتين: الأولى هي أنّ داود لم يكتب المزامير بل كتبها أحد المحرّرين ونسبها إليه، وثانياً، كالعادة، أوقعه ذلك في التناقض.

لقد تطرق عبد المجيد همو إلى المزامير مستعرضاً رأي بعض الدارسين، فوجد أنّ بعضهم يؤكد نسبتها إلى داود مثل فارجن وكريزاستم واكستاين وغيرهم، وبعضهم الآخر ينفي ذلك مثل هليري واتهاني وسبنش وجيرم وبوسي وهورن. ثم يقول إنّ القدماء من علماء اليهود يعيدون المزامير إلى آدم وإبراهيم وموسى أساف وهمان، وأنّ داود جمعها في مجلّد واحد، وآخرون قالوا جمعها أحباء حزّقيا. أمّا بعد اكتشاف سجلات الشعوب القديمة التي دوّنت فيها أساطيرها وآدابها فقال بعضهم «إنّ بعض هذه المزامير قد أُخذت من آداب أخرى كالأدب المصري وخاصة نشيد أخناتون»(503). أمّا سهيل التغلبي فيقول: «كما أنّ مزامير داوود وسليمان تعود إلى أصل كنعاني تليت باللغة الكنعانية وعلى الطريقة الدينية الكنعانية ثم ترجمها الكهنة والأحبار اليهود وعدّوها من أسفارهم المقدسة في التوراة»(504): «فإنّ داود لم يكتب جميع المزامير، أو ربما لم يكتب شيئاً منها على رأي بعض المدققين. فقد كتبت عن لسانه ونسبت إليه»(505). وتطرّق الكاتب جميل خرطبيل أيضاً إلى هذا الموضوع فكتب نقلاً عن دائرة المعارف الكتابية مادة (المزامير): «البحث الأركيولوجي في بابل وفي مصر قد كشف عن أناشيد متقدمة... كما أنّ الكشف عن آداب الكنعانيين في أوغاريت قد أمدّنا بقصائد هامة مشابهة للمزامير منذ عصر موسى. كما تتشابه الأعداد 120 – 30 من المزمور 104 مع ترنيمة مصرية قديمة للإله آتون من عصر أخناتون من القرن الرابع عشر قبل الميلاد»(506)، أي قبل داود بما لا يقل عن 400 سنة.

فإذا كان العلماء يقرّون بأنّ هذه المزامير لم يكتبها داود، لأنّه شخصية أسطورية، وأنّ كاتبها قد نقل عمن سبقه من الكنعانيين والمصريين خلال وجوده في بابل واطّلاعه على حضارات الشعوب

القديمة، فلماذا لا نزال نرفض هذه الحقائق ونتخلى عن حضارتنا الإنسانية الرائدة، بل أكثر من ذلك نقرّ بحضارة البرابرة الذين سطوا على حضارتنا؟ إنّ هذا لعمري لأغرب من الخيال الذي يحكم كلّ قصص وأساطير التوراة.

وقبل طي صفحة هذا الموضوع لا بد وأن أذكر آخر مثلين فاضحين على التناقض. الأول هو ما ذكره الكاتب في سفر التكوين عن تغرّب إبراهيم في أرض الفلسطينيين، وقد مرّ معنا أن إبراهيم دخل كنعان في القرن التاسع عشر ق.م.، حيث بات معلوماً أنّ وجود الفلسطينيين في أرض كنعان يعود فقط إلى القرن الثاني عشر ق.م.، يقول فيليب حتي: «وفي القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد اجتاحت أرض كنعان جموع من القبائل السامية النازحة، وكان من جملتهم ما عُرف بعد ذلك بالشعب الآرامي والإسرائيليين، وشعب هندو - أوربي يُعرف باسم الفلسطينيين (ومن هنا كانت تسمية جزء من كنعان باسم فلسطين)»(507). هذا التناقض لا يعود بالطبع إلى الله، بل إلى الكاتب الذي كان يجهل تاريخ كنعان القديم إذ كان الفارق الزمني بين دخول الفلسطينيين والإسرائيليين أرض كنعان وبين وضع أسفار التوراة لا يقلّ عن 800 سنة.

والثاني هو ما ذكره الباحث فراس السواح في كتابه «تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود» عن التناقض بين سفر وآخر حول عدد المسبيين إلى بابل فيقول: «ومما يزيد في غموض المعلومات التوراتية حول السبي وعدد المسبيين، عدم اتفاق محرّر سفر إرميا ومحرّر أخبار الأيام الثاني مع ما أورده محرّر سفر الملوك الثاني. فسفر إرميا يقول لنا إنّ عدد المسبيين في الحملة الأولى قد بلغ ثلاثة آلاف مسبي (الملوك الثاني 10,000 إضافة إلى الحرفيين المهرة والأقيان «وجميع أصحاب البأس سبعة آلاف والصُنّاع والأقيان ألف وجميع الأبطال أهل الحرب سباهم ملك بابل إلى بابل»، كان هذا في الحملة الأولى حسب الملوك الثاني)، وفي الحملة الثانية ثمانمئة. وهناك حوالي سبعمئة مسبي بعد القلاقل التي نجمت عن اغتيال الوالي جدليا. أي ما مجموعه أربعة آلاف وخمسمئة نفس (إرميا: 28 - 30).

أمّا سفر أخبار الأيام الثاني، فلا يذكر شيئاً عن سبي جرى في الحملة الأولى، ثم لا ينص على رقم محدد في الحملة الثانية، بل يكتفي بالقول: «وسبى ملك الكلدانيين الذين بقوا من السيف إلى بابل، فكانوا له عبيداً إلى أن ملكت مملكة فارس» (أخبار الأيام الثاني 36: 20)، أما الملوك الثاني وتحديداً في الإصحاح الخامس والعشرين فيقول الكاتب: «وفي الشهر الخامس في سابع الشهر وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذ ناصّر (الموافقة للعام 586 ق.م. إذا ما أخذنا برأي المؤرخين الذين اتفقوا أنّ نبوخذ نصّر حكم ما بين 605 و 562 ق.م.) ملك بابل جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم. وأحرق بيت الربّ وبيت الملك وكلّ بيوت أورشليم وكلّ بيوت العظماء أحرقها بالنار... وبقيّة الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقيّة الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط... وأخذ رئيس الشرط سرايا الكاهن الرئيس وصفنيا الكاهن الثاني وحارسي الباب الثلاثة. ومن المدينة أخذ خصيًّا واحداً كان وكيلاً على رجال الحرب وخمسة رجال من الذين ينظرون وجه الملك... وكاتب رئيس الجند. وستين رجلاً من شعب الأرض الموجودين في المدينة... وأمّا الشعب الذي بقي في أرض يهوذا الذين أبقاهم نبوخذ ناصّر ملك بابل فوكّل عليهم جدليا بن أخيقام بن شافان» (الملوك الثاني 25: 8 - 9 - 11 - 18 - 19).

فإذا ما دققنا بهذا الكلام ماذا نستنتج؟ أولاً أنّ من أحرق أورشليم بما فيها الهيكل وبيت الملك لم يكن نبوخذ نصّر بذاته بل رئيس الشرط. ثانياً: يقول الكاتب: «والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل» فهل من عاقل يصدّق أنّ المهزوم يهرب إلى عدوّه؟ وإذا سلّمنا بذلك يكون قد اختار الانتقال من أورشليم إلى بابل من تلقاء نفسه، فكيف يمكن أن يُعدّ مسبياً؟ ثالثاً: من كلّ هذا الكلام كيف نستطيع أن نحدّد عدد المسبيين لكي نجعل منه قضية كبيرة لا زال اليهود يستغلونها إلى يومنا هذا بالرغم من اختلاقهم للمحرقة كورقة جديدة بين أيديهم؟

ولا بدّ أيضاً من التساؤل حول أين ذهب مئات ألوف الإسرائيليين الذين خرجوا مع موسى، والذين من المفترض أن يكونوا قد تكاثروا أضعافاً مضاعفة بعد ما يقارب الثماني مئة سنة، وما بالنا لا نجد إلاّ بضعة آلاف يُسبون إلى بابل؟ «فدفع يوآب جملة عدد الشعب إلى الملك فكان إسرائيل ثمان مئة ألف رجل ذي بأس مثل السيف ورجال يهوذا خمس مئة ألف رجل» (صموئيل الثاني 24: 9)، فكيف يكون مجموع الرجال المقاتلين مليون وثلاث مئة ألف، وإذا ما أضفنا النساء والشيوخ والرضّع والأطفال لغاية الثامنة عشرة فقط، ألا يصل عدد سكان المملكة في عهد داود إلى الثلاثة ملايين؟ فما بالك عند سقوط المملكة أي بعد 384 سنة؟ علماً أنّ داود لم يأخذ عددهم من ابن عشرين فما دون حسب ما ذكر الكاتب في الإصحاح 27 من سفر أخبار الأيام الأولى. وإحصاء داود هذا، الذي جعل الربّ يغضب عليه بسببه، ألا يجعلنا نتساءل عن التناقض بموقف الربّ إذ هو نفسه كان قد أمر موسى «في بريّة سيناء في خيمة الاجتماع في أوّل الشهر الثاني في السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر قائلاً أحصوا كلّ جماعة بني إسرائيل بعشائرهم وببيوت آبائهم بعدد الأسماء كلّ ذكر برأسه من ابن عشرين سنة فصاعداً» (العدد 1: 2 – 3)، فلماذا غضب على داود على أمر طلبه هو من موسى؟

أكتفي بهذه الأمثلة عن التناقض والتي أوردتها لا على سبيل الحصر، بل للاستدلال والتأكيد، وأجد أن أفضل كلام في هذا المجال هو ما كتبه شلومو ساند الذي اعترف بالتناقض وبعدم تطابق المرويات الكتابية مع ما تم اكتشافه حتى الآن، وهو أكد فضلاً عن ذلك على تلاعب الدارسين بما يقع بين أيديهم لإثبات صحة هذه المرويات غير آبهين بسمعتهم العلمية وبتزويرهم للتاريخ. يقول ساند: «صحيح أنّه ظهرت هنا وهناك تناقضات معيّنة وأنّ جزءاً من المواد المكتشفة تمرّدت على عدم مراعاة النص المقدّس، غير أنّ علماء الآثار قاموا جرياً على عادتهم بحل المشاكل بطريقة تبريرية محكمة استنطقوا فيها المعطيات الصماء كما يحلو لهم ولاءموها لتتناغم مع الأصوات المتنفّذة القادمة من كتاب التناخ»(508).

وكما التناقض كذلك المبالغة نجدها سمة رئيسة تميّزت بها كلّ أسفار التوراة بنسب متفاوتة. وسأعطي بعض الأمثلة لكي يتأكد القارئ من عدم عقلانية القصص والأحداث المرافقة والأعداد المذكورة، مما يستدعي منّا مجدداً التوقف عند مسألة ألوهيتها وقداستها. فكيف ننسبها إلى الله وفيها ما فيها من التناقض والمبالغة؟ ألا يعني هذا أنّنا ننسب هاتين النقيصتين إلى العزّة الإلهية المنزّهة؟ فهذا أبرام عندما عاد من مصر إلى أرض كنعان، وأتى من أخبره أنّ ملوك عيلام جوييم وشنعار وألآسار قد تغلّبوا على ملوك سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم وبالغ «وأخذوا لوطاً ابن أخي أبرام وأملاكه» (تكوين 14: 12)، يجرّ «غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاث مئة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان. وانقسم عليهم ليلاً هو وعبيده فكسّرهم وتبعهم إلى حوبة التي عن شمال دمشق. واسترجع كلّ الأملاك

واسترجع لوطاً أخاه أيضاً وأملاكه والنساء أيضاً والشعب» (تكوين 14: 14 – 16). فكيف يمكن أن نصدّق أنّ 318 عبداً لإبراهيم استطاعوا قهر جيوش أربعة ملوك؟ ألا يذكّرنا هذا بجزء من الفيلم الأميركي «300»؟

وعندما يخبرنا الكاتب أنّ الذين خرجوا مع موسى كانوا 600 ألف محارب عدا النساء والأطفال والشبان والشيوخ، فكيف نتقبل قصص موسى مع هؤلاء وكيف كان يتحدث إليهم فيسمعوه، وينقل إليهم وصايا يهوه فيفهمها كلّ الشعب؟ ألعلّه كان قد اخترع مكبّرات الصوت في ذلك الزمن الموغل في القدم وسبق التقنيات الحديثة بثلاثة آلاف سنة؟ وعندما نقرأ من سفر يشوع في الإصحاح الخامس: «أنّ جميع الشعب الخارجين من مصر الذكور جميع رجال الحرب ماتوا في البريّة على الطريق بخروجهم من مصر» (5: 4)، ألا يجعلنا ذلك نتساءل من أين أتى بعد ذلك يشوع بجيشه ليدخل كنعان ويفتك بشعوبها العظيمة؟

لقد سبق وتكلّمنا أيضاً عن سقوط سور مدينة أريحا لمجرد أنّ الشعب قد هتف هتافاً عظيماً، أفلا يحق لنا أيضاً التساؤل عن هذه المبالغة المبتذلة؟ إنّ من يقرأ معارك يشوع الوهمية وبطولاته وإرهابه اليهوي الذي دفعه إلى إضرام النار بكلّ المدن التي دخلها، وقتل «كلّ ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ»، وأمر قادة رجال حربه إلى أن يتقدّموا ويضعوا أرجلهم على أعناق خمسة من ملوك تلك المدن، لا بدّ وأن يتساءل كيف إذن بقي للفلسطينيين الكنعانيين قوة لأن يجمعوا جيوشهم ويحاربوا إسرائيل، كما أخبرنا الكاتب في سفر صموئيل الأول أكثر من مرة؟ «وتجمّع الفلسطينيون لمحاربة إسرائيل. ثلاثون ألف مركبة وستة آلاف فارس وشعب كالرمل الذي على شاطئ البحر في الكثرة» (صموئيل الأول 13: 5)، «وفي ذلك الوقت كان الفلسطينيون متسلّطين على إسرائيل» (قضاة 14: 4)، فهل من يفسّر لي كيف تكاثر هؤلاء بعد أن أبيدوا حتى عادوا وصاروا كالرمل الذي على شاطئ البحر وتمكنوا من التسلّط على إسرائيل؟ ألا يجعلنا هذا النوع من المبالغة نستنتج أنّ قصد الكاتب كان إظهار عظمة أعداء إسرائيل، حتى إذا ما تم لإسرائيل الانتصار عليهم كان هذا الانتصار مدعاة فخر وكبرياء وتجبّر، إذ لا قيمة للانتصار على الضعيف وكلّ القيمة بالانتصار على القوي؟ الفكرة باتت واضحة وسأكتفي بسرد بعض الأمثلة دون التعليق عليها تاركاً لك أخي القارئ المؤمن أن تُفسح المجال لعقلك أن يحلّل فيقرر.

«وقتل داود من أرام سبع مئة مركبة وأربعين ألف فارس» (صموئيل الثاني 10: 18). «هذه أسماء الأبطال الذين لداود. يوشيب بشّبث التحكموني رئيس الثلاثة. هو هزّ رمحه على ثمان مئة قتلهم دفعة واحدة» (صموئيل الثاني 33: 8). «وكان طعام سليمان لليوم الواحد ثلاثين كرَّ سميذ وستين كرّ دقيق وعشرة ثيران مسمّنة وعشرين ثوراً من المراعي ومئة خروف ما عدا الأيائل والظباء واليحامير والإوز المسمّن» (الملوك الأول 4: 22). «وذبح سليمان ذبائح السلامة التي ذبحها للربّ من البقر اثنين وعشرين ألفاً ومن الغنم مئة ألف وعشرين ألفاً فدشّن الملك وجميع بني إسرائيل بيت الرب» (الملوك الأول 8: 63). «وكانت له (سليمان) سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري» (الملوك الأول 11: 3). «وفي اليوم السابع اشتبكت الحرب فضرب بنو إسرائيل من الآراميين مئة ألف راجل في يوم واحد... وسقط السور على السبعة والعشرين ألف رجل الباقين» (الملوك الأول 20: 29 – 30). «وكان في تلك الليلة أنّ ملاك الربّ خرج وضرب من جيش أشور مئة ألفٍ

وخمسة وثمانين ألفاً. ولمّا بكروا صباحاً إذا هم جميعاً جثث ميتة» (الملوك الثاني 19: 25). «هؤلاء من بني جاد رؤوس الجيش. صغيرهم لمئة والكبير لألف» (أخبار الأيام الأول 12: 14). «وكانت حرب بين أبيّا (ملك يهوذا) ويربعام (ملك إسرائيل). وابتدأ أبيّا في الحرب بجيش من جبابرة القتال أربع مئة ألف رجل مختار ويربعام اصطفّ لمحاربته بثمان مئة ألف رجل مختار جبابرة بأس... فسقط قتلى من إسرائيل خمس مئة ألف رجل مختار» (أخبار الأيام الثاني 13: 2 – 3 – 17). ولقد سار المؤرخ اليهودي يوسيفوس على نهج كتبة التوراة، فقد ذكر في كتابه (تاريخ حرب اليهود ضد الرومان) أنّ عدد قتلى «تمرد الزيلوت الذي اندفع في العام 66 للميلاد» قد بلغ «مليون ومئة ألف من السكان ووقع في الأسر 97 ألفاً (كما قُتل في المدن الأخرى عشرات الآلاف)»(509)، وهذا ما دفع ساند للقول: «وكعادة كتّاب المخطوطات السابقين، واضح أنّ تقديرات يوسيفوس تنطوي على مبالغة»(510) ويثبت ساند أنّ العدد «لدى تاكيتوس يُظهر الرقم 600 ألف محاصر»(511).

أحداث خيالية لمملكة وهمية، وأشخاص أسطوريون وأرقام تجاوزت كلّ منطق، فلا بدّ للعقل من وقفة جريئة لتقول فقط كلمة واحدة: كفى. فلماذا لا نقرأ ما يكتبه بعض الدارسين المتجردين من كلّ غاية، إلاّ غاية البحث العلمي الموضوعي، ونحاول تلمس الحقائق، ومثلاً على ذلك نقرأ للأب مايكل برير: «ومع ذلك، وفي ضوء الكشف المستمر لطبيعة اللغة وتعقيد خلق الربّ ومراميه التحريرية بات واضحاً وجود حاجة إلى إعادة النظر في أسس المبدأ القائل إنّ النصوص حقيقة وموصى بها»(512). هذه النصوص اعتمد عليها الاستعمار الغربي، كما الصهيونية الحديثة، للاستيلاء على أرض الآخرين بالقوة المرتبطة بالإرادة الإلهية، وهذا ما دفع بالأب مايكل برير إلى وضع مؤلّفه الذي يتطرق فيه إلى ما فعله الاستعماريون الأوروبيون في الأميركتين الشمالية والجنوبية بحق السكان معتمدين على «بعض القصص الكتابية التي قدمت بعضاً من الدعم المعتقدي لعدد من المشاريع الاستعمارية»(513)، ولا تزال هذه القصص حتى اليوم أفضل دروس الإرهاب والحقد والعنصرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السابع

المسيح نَقَض ولم يُكمل... وبنقضه تسامى إلى الكمال

«المحبة لا تسقط أبداً. وأمّا النبوّات فستبطل... ولكن متى جاء الكامل (المسيح) فحينئذ يُبطل ما هو بعضٌ (الناموس)».

من رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس

«آمنّا نحن أيضاً بيسوع المسيح لنتبرّر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس. لأنّه بأعمال الناموس لا يتبرّر جسدٌ ما»

من رسالة بولس إلى أهل غلاطيّة

«لأنّه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة بل الإيمان العامل بالمحبة»

من رسالة بولس إلى أهل غلاطيّة

في البداية أجد أنّه من المفيد الإضاءة على مصدر اسم «المسيح»، هل هو فعلاً اسم عيسى بن مريم؟ وإذا لم يكن كذلك فلماذا كُنّي به؟ كلمة المسيح كما هو واضح تعود إلى الفعل مسح، وقد جاء في المنجد «مسحه الله» أي خلقه مباركاً حسناً أو خلقه ملعوناً قبيحاً، أي أنّ الكلمة تعني الشيء وضدّه في الوقت ذاته. وتحت كلمة مسيح جاء: ج مسحاء ومسحى: الممسوح بالدهن. وفي محيط المحيط للبستاني نقرأ: والمسيح أيضاً لقب الربّ يسوع. وهو بالعبرانية مشيح وبالسريانية مْشيحا وباليونانية خريستس ومعناها ممسوح. سُمّي به لأنّه مسح من الله كاهناً ونبياً وملكاً. وكانت العادة في القديم أن يُمسح الكهنة والملوك بالدهن. إذن الكلمة تدل على طقس متبع لدى الشعوب القديمة. فهل كان حكراً على اليهود أولاً ثم أدخلوه إلى المسيحية؟

لقد أشرنا سابقاً إلى ما قاله د. بشار خليف حول الأنبياء، مؤكداً، واستناداً إلى المؤرخ أرنولد توينبي، إلى أنّهم كانوا ظاهرة في حياة المجتمع السوري إجمالاً. ثم يسوق د. خليف نص رسالة من ملك حلب ياريم ليم إلى زمري ليم نقرأ منها: «ألست أنا حدد سيد حلب الذي فقهك من بين الرعية، الذي أوصلك إلى العرش، وإلى منزل والدك، لقد مسحتك بزيت انتصاري»(514). هذه العادة الطقوسية السورية اقتبسها كاتب التوراة وطبقها على الأنبياء والكهنة والملوك الإسرائيليين معتبراً أنّه حقق سبقاً حضارياً. يبقى أن نتساءل: لماذا لُقّب يسوع بالمسيح؟ وما علاقة اليهود به كي يُطلقوا عليه هذا اللقب الذي أصبح تسمية لأتباعه؟ إنّ اليهود كانوا وما زالوا ينتظرون مسيحاً ملكاً مخلِّصا، وهم عندما بدأ يسوع بإلقاء مواعظه اعتقدوا أنّه المسيح المنتظر، وعندما اكتشفوا أنّه بدأ بهدم الناموس المتحجّر الذي حصره اليهود بالطقوس والشعائر، بدؤوا بالتآمر للتخلّص منه. المسيح المنتظر بالنسبة لليهود هو المسيح الذي سيكمل العمل الذي أسنده يهوه إلى موسى ويوشع، إلى داود وسليمان، المسيح الذي حَلُم به الأنبياء والذي سيجمع بني إسرائيل من الشتات ويعيد مجد أورشليم.

يقول الحاخام عوفاديا يوسف: «سيأتي المسيح الصادق ويبث الرعب فيهم. إنّنا نثق بالقدّوس بأنّه سيرسل لنا مسيحاً لا يخاف من أحد، وسيقوم بإرسال كلّ هؤلاء العرب إلى جهنم. كلّ أمم الأرض ستصرخ، وستتجنّد الأمم المتحدة. بريح شفتيه يدمرهم جميعاً»(515). فالمسيح بالنسبة لليهودي المؤمن لم يأتِ بعد، ومجيئه لن يكون سلمياً ولا حضارياً، بل من خلال معركة مدمرة (أرمجدون) ينتصر فيها هذا الإله الملك المنتظر على أمم الأرض، ويحكّم اليهود برقاب الناس لفترة ألف سنة. إنّه المسيح الذي يشكّل استمراراً ليهوه وتعاليمه الإرهابية التي لم تُشبع بعد نهمهم إلى القتل والدم والإبادة. أمّا المسيح عيسى فقد سعى الرسل اليهود إلى تحريف نبوءة دانيال ومن ثم تلفيق نسب له يربطه بداود بهدف إقناع اليهود أنّ عيسى هو المسيح المنتظر حتى ولو لمسوا منه اختلافاً بالتوجه يبعده عن الناموس والشريعة.

لقد تطرق سهيل التغلبي إلى التحريف الذي لحق نبوءة دانيال لكي يُفهم منها أنّها تعني عيسى بن مريم(516). وكتب توماس طومسون ما يلي: «في ندوة برنستن الأولى حول اليهودية والأصول المسيحية في عام (1985م)، على سبيل المثال، تبنّى الأعضاء المشاركون بالإجماع الرأي القائل إنّ مصطلح (مسيح) في الكتاب العبراني يشير إلى (قائد سياسي ديني، موجود، يمسحه الربّ، ينطبق غالباً على ملك، لكنه ينطبق أيضاً على كاهن وفي أحيانٍ قليلة على نبي»(517). لذلك سمّوا قورش الفارسي مسيحاً لأنّه، ودوماً حسبما ورد في التوراة، سمح لهم بالعودة إلى أورشليم لبناء الهيكل من جديد. فإذا كان كلّ ملك مسيحاً، وكلّ كاهن مسيحاً، وكلّ نبي مسيحاً، فما الفرق بينهم وبين المسيح عيسى بن مريم؟

بالنسبة للجميع يصح لقب المسيح من حيث الطقس الذي كان متبعاً أي مسح الملك أو الكاهن أو النبي بالزيت، أمّا بالنسبة لعيسى بن مريم فإنّه لا علاقة له بهذا الطقس لأنّه ليس ملكاً ولا كاهناً ولا نبياً. جاء في إنجيل لوقا: «فقال لهما إذا دخلتما المدينة يستقبلكما إنسان حامل جرّة ماء. اتبعاه إلى البيت حيث يدخل وقولا لربّ البيت يقول لك المعلّم أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذي» (لوقا 22: 10). وفي إنجيل يوحنا: «أنتم تدعونني معلّماً وسيداً وحسناً تقولون لأنّي أنا كذلك» (13: 13). وفي إنجيل متى: «وكان يسوع (وليس المسيح) يطوف كلّ الجليل يعلّم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت» (4: 23). وفي إنجيل متى أيضاً: «ليس كلّ من يقول لي يا ربّ يا ربّ يدخل ملكوت السموات. بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات» (7: 21). ومن إنجيل يوحنا نقرأ: «وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت. فاعترف ولم يُنكر وأقرّ أنّي لست أنا المسيح. فسألوه إذاً ماذا. إيليا أنت. فقال لست أنا. النبيّ أنت. فأجاب لا. قال أنا صوت صارخ في البريّة قوّموا طريق الربّ كما قال إشعياء النبي» (1: 19 – 23). فمسيح الأناجيل إذن ليس مسيح التوراة، وهذا الخلط بين الاثنين ما هو إلاّ جزء من التآمر على المسيحية من خلال إقناع المؤمنين أنّ جذور دينهم العيسوي - المسيحي موجودة في التوراة، وبالتالي على المسيحي المؤمن أن يتقيّد بكلّ ما جاء في التوراة عن وعد الله والشعب الخاص والأرض الموعودة إلى ما هنالك من أساطير خالية من كلّ روحانية أوعمل اجتماعي إصلاحي.

يقول فراس السواح: «ذلك أنّ مسيح بولس ليس المسيح الذي انتظره اليهود ليحمل الخلاص لهم وحدهم، بل المسيح الكوني الذي افتدى بدمه البشرية جمعاء»(518). وينقل من إنجيل توما ردّ

المسيح على تلاميذه عندما قالوا له: «أربعة وعشرون نبياً في إسرائيل أخبروا بك قال لهم: لقد تجاهلتم الحاضر بينكم (يعني نفسه) وتحدثتم فقط عن الأموات»(519). وبناءً على هذه القناعة التي أخذت تتجذّر لدى المسيحيين الحقيقيين ظهرت في سورية ومصر حركة مسيحية راديكالية اختلفت نظرتها عن التفكير النمطي السائد، كان ذلك في القرن الميلادي الثاني وعرفت هذه الحركة بالمسيحية الغنوصية التي تماهت مع الكنيسة القويمة بانفصالها عن المسيحية اليهودية، لكنّها انفصلت عنها معتبرة نفسها «أنّها الممثل الحقيقي للدين العالمي الجديد... وأظهرت العداء لكلّ الميراث التوراتي وتصوراته عن الألوهية والإنسان والعالم»(520).

هذا البعد التوراتي الذي انطلق منه بعض الرسل بالقول إنّ عيسى بن مريم هو المسيح المنتظر الذي تكلّمت عنه التوراة، دفع بمتى إلى اختلاق نسب للمسيح ربطه بداود مفسّرا بعض ما ورد في أسفار الأنبياء انطلاقاً من هذا الواقع، فأتى بقصة المجوس الذين جاؤوا إلى أورشليم قائلين «أين هو المولود ملك اليهود»، وهذا القول دحضه المسيح نفسه الذي لم يعتبر نفسه ملكاً لليهود ولا هم اعتبروه كذلك، ثم قال: «لكي يتم ما قيل بالأنبياء إنّه سيدعى ناصرياً» (2: 23)، وكثر اليوم يؤكدون أنّ المسيح ولد في بيت لحم أفراته من أعمال الجليل وليس بيت لحم اليهودية. حتى أنّ الأب الدكتور يوسف يمين اعتبر أنّ «يسوع المسيح وأمه العذراء مريم ووالده يوسف النجار وأهله وأقاربه جميعاً لم يكونوا أبداً من اليهود، ولا بالتالي من ذرية داود...، بل كانوا لبنانيين من قانا الجليل اللبنانية. ورفاة قبور جده يواكيم (عمران عند المسلمين) وجدّته حنة وسائر آبائهم وأجدادهم موجودة إلى اليوم في لبنان، في ضواحي قانا الجليل»(521). ولقد لاحظنا، كما لاحظ الأب يمين، أن سلسلة النسب التي أثبتها متى تختلف عن تلك التي أثبتها لوقا. يقول الأب يمين: «والغريب حقاً، والذي وحده يلغي تماماً «الصفة التاريخية» عن ربط يسوع بذرية داود هو أنّه، من داود إلى يسوع، هناك ثلاثة أسماء، فقط لا غير، تتطابق بين جدول متى وجدول لوقا!!! وهذه الأسماء الثلاثة هي: زربابل، شألتئيل، والياقيم»(522).

ولا بدّ لنا أيضاً من تسجيل الملاحظات التالية حول هذا النسب: أولاً نجد أنّ متى ابتدأ بإبراهيم وصولاً إلى المسيح، أما لوقا فيقول «وهو على ما كان يُظنّ ابن يوسف بن هالي» (3: 23)، ويكمل النسب عائداً إلى آدم ابن الله، ثانياً: بالإضافة إلى هذا الاختلاف نجد في لوقا أنّ هالي هو والد يوسف أما في متى فوالد يوسف هو يعقوب، ثالثاً: نجد في إنجيل لوقا أنّ ناثان يأتي بعد داود، أمّا في إنجيل متى فيأتي بعد داود سليمان، كما نجد أنّ متان هو ابن أليعازر في متى، أما في لوقا فهو ابن لاوي، إذن سلسلة النسب مختلفة كلياً بين الإنجيلين. ومن حقنا أن نتساءل أيضاً: لماذا لم يُذكر نسب المسيح في إنجيلي مرقس ويوحنا؟ بل إنّ يوحنا في إنجيله يقول عن لسان يوحنا المعمدان: «أنا قد رأيت وشهدت أنّ هذا ابن الله»، وهذا ما يفسّر ما جاء في الأناجيل عن حبل مريم من الروح القدس، فكيف إذن يمكن إعادة نسب المسيح جسدياً إلى داود؟ ألم يقل يوحنا في إنجيله مؤكداً أنّ المسيح هو نعمة من الروح القدس: «والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا» (1: 14). فالكلمة هي إرادة الله، هي النعمة والحق تجسدا بيسوع المسيح.

ثم يدحض يسوع نفسه بأنّه يهودي في إنجيل يوحنا أيضاً الذي سرد لنا قصة المرأة السامرية التي طلب منها يسوع ماء ليشرب فقالت «له المرأة السامرية كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية. لأنّ اليهود لا يعاملون السامريين. أجاب يسوع وقال لها لو كنت تعلمين عطيّة الله ومن

هو الذي يقول لك أعطيني لأشرب لطلبت أنت منه فأعطاك ماءً حياً» (4: 9 – 10). فلو كان يسوع يهودياً لكان أثبت أولاً كلام المرأة السامرية ثم أفهمها ما أراد عن طريق مثل الماء وهو إنّما كان يعني المفاهيم الجديدة.

ويوحنا كذلك يخبرنا أنّ معاصري المسيح لم يتفقوا بشأن نسبه: «فكثيرون من الجمع لمّا سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقيقة هو النبي. آخرون قالوا هذا هو المسيح. وآخرون قالوا ألعلّ المسيح من الجليل يأتي. ألم يقل الكتاب إنّه من نسل داود ومن بيت لحم القرية التي كان داود فيها يأتي المسيح. فحدث انشقاق في الجمع لسببه» (7: 40 – 43). وإذا كان متى قد أعاد يسوع بالنسب إلى إبراهيم، فإنّ بولس الرسول يعتبر أنّ أبوة إبراهيم كانت بالإيمان وليس بالتناسل، أي أنّ أبوته روحانية وليست جسدية، إذ قال في رسالته إلى أهل رومية: «فإنّه ليس بالناموس كان الوعد لإبراهيم أو لنسله أن يكون وارثاً للعالم ببرّ الإيمان. لأنّه إن كان الذين من الناموس هم ورثة فقد تعطّل الإيمان وبطل الوعد» (4: 13). ثم يكرّر تشديده على المعنى الروحاني للنسل فيقول: «أي ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلاً» (9: 8). وانطلاقاً من هذا المفهوم ندرك ماذا قصد المسيح من قوله: «الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يوحنا 8: 58)، فهو لم يقصد أبداً أنّه كان موجوداً قبل إبراهيم بالجسد وإنّما مفاهيمه التوحيدية الإنسانية الكونية كانت معروفة قبل إبراهيم وقبل الناموس والشريعة. ومن هنا أيضاً نفهم قوله لتلاميذه: «الروح هو الذي يُحيي. أما الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يوحنا 6: 63).

ويقول الأب الدكتور يوسف يمين إنّ لوقا يشدد على المسيحية الروحية الشاملة لكل البشر، ولا يهتم بالمسيحية الدنيوية الخاصة باليهود، ولا من سلالة يهوذا، ولا من داود وذريته. فمسيحية المسيح «مسيحية روحية، وليست بشرية دنيوية، ولا مسيحية يهودية أو داودية... إنّ مملكته ليست من هذا العالم... وحتى أنّ كهنوت المسيح ليس كهنوتاً يهودياً هارونياً... بل هو كاهن إلى الأبد على رتبة ملكيصادق، وملكيصادق كما هو معروف، كاهن إيل (إله الكنعانيين: الإله الكوني الأوحد)»(523). فإذا كانت الأناجيل تختلف حول هذا الموضوع، فما بال الدارسين والمؤرخين.

تطرّق إلى هذا الموضوع، ومن جوانب مختلفة، فراس السواح الذي يقول بالنسبة إلى يوسف النجار والد يسوع: «لاحظ الباحث جيزا فيرمي، فقيه اللغات السامية الشرقية، والأستاذ في جامعة أوكسفورد، أنّ كلمة «نجار» في اللغة الآرامية، لغة يسوع، قد لا تدل في السياق الذي استخدمت به في النص الإنجيلي على مهنة النجارة، وإنّما على الشخص المتعلم والمثقف والحكيم»(524). وينقل عن سبنسر لويس، وهو من مؤرخي الحركات السرانية العرفانية، قوله إنّ «صفة ناصري لم تكن في ذلك الوقت تعني شخصاً من مدينة الناصرة، وإنّما شخصاً ينتمي إلى شيعة سرانية غير يهودية تدعى شيعة الناصريين Nazarene، ومثلها أيضاً شيعة النذيرين Nazarites... ويخلص سبنسر لويس إلى القول بأنّ يسوع كان واحداً من شيعة الناصريين (وهم غير الناصريين، أو النصارى، الذين شكّلوا شيعة مسيحية يهودية بعد موت المسيح)»(525). ثم يعود السواح ليستشهد بما قاله المسيح مخاطباً اليهود وكأنّه ليس واحداً منهم معطياً أمثلة على ذلك كقوله لهم: بماذا أوصاكم موسى ولم يقل أوصانا، و: ألم يكتب في شريعتكم وليس في شريعتنا، وفي مكان آخر «وكتب في شريعتكم» و"ألم

يعطكم موسى الشريعة»، كل ذلك يثبت أن لا علاقة للمسيح بالنسب الذي أثبته كل من متى ولوقا(526).

ونقل الكاتب أسعد زيدان عن الكاتب المهجري نظير زيتون الذي بحث مسألة نسب المسيح في كتابه (هيرودس الكبير) مؤكداً أنّ هذا «عمل دهاة اليهود والمسيحيين المتهوّدين لربط العهد الجديد بالعهد القديم وأساطيره ولكي يتمكنوا بعدها من خردقة المعتقدات المسيحية وتهويدها»(527). ويشير الكاتب جود أبو صوان إلى الهدف من ربط يسوع جسدياً بداود فيقول: «من الملاحظ أنّ الإصرار على نسب يسوع إلى داود إنّما هو مقصود وهادف. فاليهود في توراتهم ومن خلال أنبيائهم كانوا ينتظرون مجيء المسيح الملك المنقذ الذي يبيد أعداءهم ويحقق حلم أرض الميعاد، فيكونون شعبه الخاص ويكون مسيحهم الخاص أيضاً. فإذا بيسوع الذي أتى رافضاً للملك الأرضي وقَدِم أورشليم على جحش ابن أتان وبيده غصن زيتون يبشّر بالمحبة للجميع على عكس ما كانوا يتوقعونه ملكاً على حصان ناري... فيسوع الذي بشّر به الملاك هو مسيح أممي لكلّ الشعوب دون تفرقة. هو محبة شمولية دون تمييز، وتسامح كوني لا حدود له. هذا المسيح روح الله وكلمته إلى مريم خيّب أملهم»(528).

لقد حاول كتبة الأناجيل إقناع اليهود برسالة يسوع، وهذه المحاولة تطلبت منهم أحياناً الرجوع إلى أسفار الأنبياء الذين تكلموا عن المسيح المنتظر بقصد التوفيق بين نبوءاتهم وبين يسوع. ولكن إذا دقّقنا بأقوال الرسل وقارناها بأقوال الأنبياء لتبيّن لنا أنّ محاولة التوفيق لم تكن صائبة. فما أورده لوقا عن يسوع وما قرأه من سفر إشعيا وصولاً إلى قوله: اليوم قد تمّ هذا المكتوب في مسامعكم، لا يتفق مطلقاً مع ما يعنيه إشعيا في الإصحاح الحادي والستين، ونجد أنّ لوقا قد حذف كلمة المسبيين لكي يتم التوافق، إذ إنّ مفاعيل السبي كانت قد انتهت أيام يسوع، فكيف يكون يسوع هو المعني بكلام إشعيا؟ فإذا كان اليهود رفضوا مقولة إنّ عيسى بن مريم هو مسيحهم المنتظر، وبما أنّ لا واحداً من الرسل قد أخبرنا أن يسوع قد مُسِح بالزيت أو الدهن حسب الطقوس اليهودية خصوصاً أو السورية عموماً، فلماذا هذا الإصرار على التمسك بهذا النسب، وبماذا يفيد هذا النسب يسوع؟ وكيف نفسّر قوله للمرأة السامرية: «أنتم تسجدون لما لستم تعلمون. أما نحن فنسجد لما نعلم. لأنّ الخلاص هو من اليهود» (يوحنا 4: 22). فلو كان يهودياً حقاً مؤمناً بالناموس والشريعة هل كان يصدر منه هذا القول بحق أبناء دينه؟ ولو كان يهودياً مقتنعاً بالناموس وبالشريعة فهل كان من حاجة لتعاليمه التي بدأ أحبار اليهود يرون أنّها تشكل خروجاً على الناموس فعجّلوا وتآمروا عليه؟

يقول الأب الدكتور يوسف يمين بأنّ أكثر مفسري الكتاب المقدس اليوم «يؤكدون جازمين أنّ قضية ربط يسوع المسيح «بذرية داود الجسدية» هي حديثة العهد من التاريخ المسيحي، وهي تعود إلى القرن الرابع للميلاد، لا قبل»(529). وهذا يعني أنّ إثبات نسب المسيح في كلّ من إنجيلَيْ متى ولوقا جاء نتيجة لبدء مؤامرة اليهودية على المسيحية. ويضيف: «وفي هذه الأيام تكثر الدراسات التاريخية النقدية حول السيد المسيح، حول حياته وأقواله، حول نسبه وأقاربه وأهله. وغالبية هذه الدراسات، خاصة في أميركا وأوروبا، لا تعترف بالعلاقة الذرية النسبية بين المسيح وداود، ذلك لأنّ قصة داود نفسه وأخباره في التوراة تعتبر اليوم مزيجاً من الروايات الشعبية والأساطير القومية. فلا يمكن بالتالي اعتبارها مرجعاً تاريخياً. وفي دراسة حديثة جداً يقول المؤرخ الفرنسي بيار أنطوان برنهايم

في كتابه «يعقوب أخ الرب (يسوع)»: «ليس من الثابت أبداً أنّ عائلة يسوع المسيح، وأقاربه، ويوسف ومريم هم من ذرية داود وسلالته»(530).

أمّا أنا فأقول: ليس من المهم في شيء أن يكون المسيح يهودياً أو غير يهودي، لأنّ المهم هو رسالته الإنسانية التي قزّمت اليهودية وأظهرتها على حقيقتها العنصرية لأنّها محصورة في جماعة معينة «المسيح لم يرسل لتعليم اليهود فقط بل أرسل للجنس البشري قاطبة»(531). وليس صحيحاً أبداً ما ورد في إنجيل متى من قول المسيح لتلاميذه الذين طلبوا إليه صرف المرأة الكنعانية: «فأجاب وقال لم أرسل إلاّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (15: 24)، بدليل أنّه تراجع عن هذا القول المنسوب إليه وقال للمرأة: «عظيم إيمانك. ليكن لك كما تريدين» (15: 28)، وإذا كان ذلك صحيحاً فلماذا أتى إلى لبنان ولم يكن فيه إسرائيليون؟ ولماذا لم يكلّم اليهود بالعبرية بدلاً من الآرامية؟ ولماذا قال في إنجيل يوحنا: «أنا هو الراعي الصالح. والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف» (10: 11) فلم يحصر نفسه بخراف إسرائيل؟ وكيف نفسّر قول المسيح لتلاميذه: «دُفع إليّ كلّ سلطان في السماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم» (متّى 28: 18 – 19) أو ما أورده مرقس: «وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» (16: 15). يتساءل جود أبو صوان: «فكرة شعب الله المختار، وفكرة المسيح الذي لم يأتِ إلاّ لأجل خراف إسرائيل الضالة، ألا تضعّفان من مشيئة الله؟ ألا تحجّمانه وتصغّرانه؟ ألا تنقصان من شمولية ملكوته؟».

ولكي نختم الجدل حول هذا الموضوع نقرأ من إنجيل متّى: «وفيما كان الفرّيسيون مجتمعين سألهم يسوع قائلاً ماذا تظنون في المسيح. ابن من هو. قالوا له ابن داود. قال لهم فكيف يدعوه داود بالروح رباً قائلاً قال الربّ لربّي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك. فإن كان داود يدعوه ربّا فكيف يكون ابنه» (22: 41 – 45). فإذا كان المسيح قد نفى أن يكون ابن داود، وأثبت متّى ذلك، فكيف يعيد نسبه إلى داود في بداية إنجيله؟ إنّه تناقض وقع فيه متّى، وتبعه بذلك لوقا، أو هو تحريف أُضيف إلى الإنجيلَيْن لاحقاً. أما مرقس ويوحنا فابتعدا عن ذلك. ومن ينظر للمسيح كجسد مرتبط بذرية إنسانية يقصّر بفهم رسالة يسوع، لأنّ الجسد لم يكن يعني له شيئاً، فمملكته ليست من هذا العالم لأنّها ليست مملكة سياسية ولا هو بملك يرث الملك عن أبيه، بل أبوه الله وأبناؤه جميعاً هم صانعو السلام لا الذين يُعملون السيف برقاب الأغيار تنفيذاً لوصايا إلههم، والله ليس إله أموات بل إله أحياء، إله الذين يطلبون الحياة الجديدة المبنية على المفاهيم الكونية الإنسانية الجديدة.

ألم يقل للكتبة والفرّيسيين: «ليس أحد يضع رقعة من ثوب جديد على ثوب عتيق. وإلاّ فالجديد يشقّه والعتيق لا توافقه الرقعة التي من الجديد. وليس أحد يجعل خمراً جديدة في زقاق عتيقة لئلاّ تشق الخمر الجديدة الزقاق.. بل يجعلون خمراً جديدة في زقاق جديدة فتحفظ جميعاً» (لوقا 5: 36 – 38). فالناموس والشريعة بالنسبة لعيسى أصبحا من الماضي ولا مجال أبداً للتوفيق بين الشريعة الموسوية المقتصرة على شعب إسرائيل والقائمة على الإرهاب والعنصرية والزنى والفجور، وبين تعاليم يسوع الكونية القائمة على المحبة والتسامح والغفران. الهوة عميقة لا يمكن أن تُطمر ولا يوجد حلّ وسط بين الإثنتين. إمّا تحجر طقوسي يهوهي، وإمّا انفتاح روحي إيلوهيمي.

وحول هذا الموضوع يقول عبد المجيد همو: «إنّ إله المسيحيين واضح وصريح في القول المنسوب إلى عيسى: إيلي، إيلي، لم شبقتني... فإيل هو إله المسيحيين، وليس يهوه»(532)، وهذا القول باللغة

الآرامية لغة المسيح، وهو لو كان يهودياً لكان قال هذه الجملة وهو على الصليب بالعبرية. وكثيرون أكدوا أنّ لغة السيد كانت الآرامية وليست العبرية، فكيف يكون يهودياً ولا يتكلم لغة اليهود. في فيلمه بعنوان Passion of the Christ جعل المخرج مل غبسون المسيح يتكلم بالآرامية فاستحق نقمة اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة خاصة لما أظهره من تعذيب واضطهاد ليسوع على يد اليهود. ويقول جورجي كنعان أيضاً: «وقد استطاعت الآرامية أن تحل محل الكنعانية في فلسطين منذ القرن الثامن ق.م. وفي أيام السيد المسيح كانت الآرامية هي اللسان المحلي الوحيد، فتكلّم بها المسيح ورسله»(533).

وأورد جوش ماكدويل آراء لعدة مؤرخين حول لغة الأناجيل فبابياس يقول عن إنجيل متى: «سجّل متى الأقوال باللغة الآرامية»(534). أما إيرنياوس فيقول: «نشر متى إنجيله وسط اليهود بلغتهم»(535)، ولقد مرّ معنا أنّ اليهود لم يكن لهم لغة خاصة بل لهجة مرتبطة باللغة الكنعانية التي حلّت محلها الآرامية لأنّ أصول هذه اللغات واحدة. ونقرأ لصهيب الرومي ما يلي: «وبما أنّ التاريخ يدلّ على أنّ يسوع لم يكن يهودياً، بل آرامياً، فإنّنا نستطيع القول إنّه نتاج ثقافتنا السورية (السريانية) وإنّه أول من وقف في وجه عقيدة عنصرية تحملها جماعة دخيلة على بلاد بنتها شعوب قد تواصلت وتفاعلت على أرضها وساهمت في تطوير ثقافتها»(536). ويؤكد على هذه الحقيقة التاريخية الكاتب جودت السعد حيث يقول: «انتشرت اللغة الآرامية انتشاراً واسعاً، حتى أنّ الأشوريين استعملوها في بعض شؤونهم. وبلغت أوج انتشارها في القرن الخامس ق.م. حيث أصبحت اللغة المحكية في جميع أنحاء الهلال الخصيب وغدت لغة المسيح وأتباعه وكتب الحواريون الأناجيل بها»(537).

ويقول البطريرك زكّا الأول عيواص: «وإذا كان العالم كلّه قد احتفل ويحتفل بهذه المناسبة المجيدة، جدير بنا نحن في سورية أن نفعل ذلك بافتخار لأنّ السيد المسيح كلمة الله الأزلي الذي ولد من الآب قبل كلّ الدهور، ولد بالجسد قبل عشرين قرناً في سورية. فهو سوري قوميةً ونسباً ولغةً وحضارة، فنحن إليه ننتمي وبه نعتز، وهو ينتمي إلينا بالجسد ولن ينجح أعداؤه في سرقته منّا أو في أسره عندهم ولا في تشويه طبيعته ورسالته... وإذا صحّ أن ننسب إلى السيد المسيح قومية أو وطناً أثناء تدبيره الإلهي بالجسد فهو سوري آرامي لا غير، قوميةً ونسباً ولغةً وحضارة. فقد تكلّم الآرامية السريانية لغة سورية القديمة وولد وعاش بالجسد في فلسطين التي كانت جزءاً لا يتجزأ من سورية»(538).

ونختم حول هذا الموضوع بكلام للدكتور بشار خليف: «ونشير هنا إلى أنّ السيد المسيح، لم يكن يهودياً، بل كان آرامياً سورياً، خاطب الناس بالآرامية، ونفى أن يدعى «ابن داود» كما أراد اليهود. وبتعاليم السيد المسيح نحن أمام ثورة على ما كانت تمثله اليهودية، فهذه كانت مقيدة بتقاليد وطقوس وتشريعات كثيرة، بمعنى أنّها كانت ديانة طقسية، في حين جاءت المسيحية بالإيمان الذي تحتضنه الروح، وبالطهارة القلبية والقلب النقي»(539). من هنا يؤكد الدكتور خليف بأنّ الإنجيل «ليس شريعة، بل تعاليم فلسفية مناقبية لا تحكم على مخالفيها أحكاماً جزائية، ولكنّها تقول إنّ الارتقاء نحو حياة أفضل أو الحياة المثلى لا يكون إلاّ بها أي بمعانيها الروحية»(540).

هذا الكلام يقودنا إلى موضوع مهم وهو يتمحور حول كلام نسبه متى في إنجيله إلى يسوع عندما بدأ يشرح للناس تعاليمه. قال: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل

لأكمل» (5: 17). وسواء أكان هذا الكلام صحيحاً أم لا، فإنّ كثيرين أعطوه تفسيرات مختلفة، وصولاً إلى إنكاره من قبل بعضهم. جاء في كتاب جميل خرطبيل ما يلي: «ويذكر روجيه غارودي في كتابه «فلسطين أرض الرسالات السماوية» أنّ مارسيون (144 ميلادية) اتّهم المسيحيين بتزوير نص الإنجيل الأصلي لمتى (ما جئت لأنقض بل لأكمل)، وأنّ النص الأصلي لمتى (لم آتِ لأكمل العهد بل لأنقضه). وهو يعتمد على ما جاء في إنجيل لوقا ورسائل القديس بولس. ويصل إلى نتيجة مفادها أنّ الإنجيل حلّ مكان شريعة موسى»(541). وحول هذه المسألة يقول الأب الدكتور يوسف يمين: «يسوع المسيح كمّل عمل من سبقه، بمعنى أنّه واصل هذا العمل وبلغ به إلى الكمال، كما أعلن هو نفسه قائلاً: «ما أتيت لأنقض بل لأكمل» وقد كمّل فعلاً عمل البشرية جمعاء بشكل عام، وعمل الديانات الشرقية بنوع خاص، وعمل الديانة الكنعانية بنوع أخص. ونحن نركّز هنا على عمل الديانة الكنعانية الخاص التي مهّدت هي، وليس اليهودية أبداً، للديانة المسيحية الكونية، وذلك بشكل واضح ومباشر»(542).

لقد أصاب الأب يمين بذلك والدليل ما جاء في الرسالة إلى العبرانيين تحديداً: «لأنّ أولئك بدون قسم قد صاروا كهنة وأمّا هذا فبقسم من القائل له أقسم الربّ ولن يندم أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق» (7: 21). وكان قال قبل أسطر: «فلو كان بالكهنوت اللاوي كمال. إذ الشعب أخذ الناموس عليه. ماذا كانت الحاجة بعد إلى أن يقوم كاهن آخر على رتبة ملكي صادق ولا يقال على رتبة هارون» (7: 11). ألا نفهم من هذا الكلام أنّ كهنوت اللاويين ناقص، والكهنوت الكامل هو كهنوت ملكيصادق كاهن الإله إيل؟ ألا يعني هذا أن هارون الذي اختاره يهوه نبياً لأخيه موسى هو أقلّ شأناً من ملكيصادق كاهن إيل؟ وبالتالي ألا يعني هذا أنّ يسوع لم تكن له علاقة بالشريعة اليهوهية بل كان ينتمي إلى الشريعة الإيلوهيمية الكونية؟ ثم عندما يقول أقسم الربّ ولن يندم، أليس ذلك إشارة انتقاد لما ورد في التوراة أكثر من مرة على ندم الربّ وتراجعه عن قراراته؟ «فندم الربّ على الشر الذي قال إنّه يفعله بشعبه» (خروج 32: 14). ومن كان الذي أمر الربّ أن يندم؟ إنّه موسى الذي قال له: «ارجع عن حمّو غضبك واندم على الشرّ بشعبك» (خروج 32: 12)، ألا يستدعي ذلك منا التعجب والتساؤل: هل يمكن لبشر أن يأمر الله فينصاع صاغراً لأمره؟

أمّا عبد المجيد همو فله رأي آخر بهذا الموضوع: «لهذا؛ حينما نقض عيسى آراء اليهود إنّما نقض ما حرّفه الأحبار اليهود ليعود بالديانة إلى المنبع الأصلي إلى الدعوة السماوية دعوة موسى عليه السلام، ولهذا؛ قال لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض، بل جئت لأكمل»(543). هذا الرأي ينطلق مما جاء في القرآن الكريم: (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) سورة البقرة/آية 75، إضافة إلى شواهد أخرى كثيرة، وإلى ما ورد أيضاً من نقض لسيرة الأنبياء بدءاً من نوح ومروراً بيعقوب ويوسف وموسى إلخ... ولكن إذا قلنا إنّ التوراة التي بين أيدينا محرّفة، ألا يدفعنا ذلك إلى التساؤل: أين هي الأصلية؟ لماذا لا يُظهرونها للناس؟ فإذا قالوا إنّها فُقدت لقلنا ولماذا لم تفقد السجلات التي سبقتها بآلاف السنين؟ أعتقد أنّ النبي الكريم كان على اطلاع تام بما تحويه التوراة، وكان يعلم أنّ ما فيها لا يشرّف الأنبياء، وبالتالي لا يمكن نسبة ما جاء فيها إليهم ولا إلى الله، وأراد أن يهديهم إلى الصراط المستقيم دون أن يفرض عليهم الدخول إلى الإسلام فرضاً، فصحّح لهم ما جاء في كتابهم علّهم يفهمون.

يقول معروف الرصافي: «كل ما في القرآن من قصص الأنبياء الأولين وأخبار الماضين مما هو مسطور في التوراة وغيرها من الكتب القديمة يدل على أنّ محمداً كان على علم بأخبار الأمم الماضية»(544). أما عن ورود هذه القِصص في الآيات القرآنية فيقول الرصافي: «وهي في أصلها من خرافات بني إسرائيل في التوراة فأُخذت منها وذكرت في القرآن بتصرف، فجاء في التصرف فيها على وجه يجعلها مؤدية إلى المغزى والغرض المقصود من إيرادها في القرآن. والذي نراه أنّ المراد منها لا حقيقتها إذ لا حقيقة لها، وإنّما المراد تصوير ما لله من قدرة باهرة وسلطان قاهر وحكم مطلق وأنّه تعالى لا يُسأل عمّا يفعل»(545). ولقد تصرف النبي برأيه مع خرافات العرب كما تصرف مع خرافات اليهود «فجاراهم في عقليتهم وفي عقيدتهم ولم يكذّبها، وإن كان يعلم أنّها خرافة... إذ يصعب عليهم أن يتركوا ما تلقوه من آبائهم ونشأوا عليه منذ الصغر، ورسخ في عقولهم»(546).

إنّ هذا التضارب بين الدارسين حول تفسير صدقية نسبة هذا القول إلى المسيح من جهة، وتأكيد هذا القول ولكن الاختلاف بتفسيره من جهة أخرى، لا يمنعنا من القول، كما قلنا حول نسبه، بأنّ الردّ جاء من المسيح نفسه، وفي إنجيل متى بالذات، قبل ذكر هذا القول وبعده. فهو عندما قال لمن أتى إليه مجرًّبا (إبليس)، ورداً على قوله: إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً، «مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكلّ كلمة تخرج من فم الله» (متى 4: 4). لقد بدأ فعل النقض لأنّه أراد إثبات أنّ الجسد فانٍ والحياة الحقيقية هي حياة الروح التي لا تُشبعها إلاّ كلمات الله. وعندما قال: «مكتوب أيضاً لا تجرّب الربّ إلهك» (متى 4: 7)، أراد أن يشير إلى عشرات المرات التي حاولت فيها شخصيات التوراة، بدءاً بإبراهيم، امتحان الله، وبقوله هذا أيضاً قد نقض ما جاء فيها. وعندما أخبرنا متى، قبل ذكر الجملة موضوع النقاش، بأنّ يسوع كان «يطوف كلّ الجليل يعلّم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كلّ مرض وكلّ ضعف في الشعب. فذاع خبره في جميع سورية» (4: 23)، ألم يكن ينقض ما جاء في الناموس: «وكلّم الربّ موسى قائلاً أوصِ بني إسرائيل أن ينفوا من المحلّة كلّ أبرص وكلّ ذي سيل (عند الإطباء ما يسيل من فضول البدن - محيط المحيط) وكلّ متنجّس لميت. الذكر والأنثى تنفون» (عدد 5: 1).

هذه الأمثلة الثلاثة ذكرها متى قبل جملة (ما جئت لأنقض بل لأكمل)، أما بعد هذه الجملة فالأمر يختلف تماماً لأنّ يسوع لم يترك من الناموس حجراً على حجر، أليس هو القائل: «الحق أقول لكم إنّه لا يُترك ههنا حجر على حجر لا يُنقض» (متى 24: 2). فهل كان فعلاً يعني بالحجر أحجار الهيكل أي هدم البناء الحجري، أم كان يعني هدم أحجار الناموس والشريعة المناقضة لتعاليمه الإنسانية ذات القِيَم الاجتماعية المثلى؟ هل كان يعني هدم هيكل مغارة اللصوص الذي جعلوه مركز تجارة وصيرفة، أم كان يعني هدم هيكل الجسد وبناء هيكل الروح ليصبح بالفعل بيتاً للصلاة الحقيقية؟

المواجهة كانت واضحة وصريحة بينه وبين اليهود منذ اللحظة الأولى، فإذا كانت تعاليمه تكملة للناموس والشريعة فلماذا ثاروا عليه إذن فتآمروا واضطهدوا وصلبوا؟ النقض كان سمة واضحة بتعاليمه وأبرزها بشكل صارخ عندما ألقى على الجموع موعظة الجبل. فإذا كنا لم نقرأ في وصايا يهوه لموسى، ولمن أتى بعده، غير أوامر القتل والإبادة والتهجير والنفي، فإنّنا مع موعظة الجبل بدأنا نشعر بأنّ الله الحقيقي الكوني بدأ يتجسد محبة ورحمة وعطفاً على الحزانى والودعاء والجياع

والعطاشى وأنقياء القلب، وخاصة لصانعي السلام «لأنّهم أبناء الله يدعون» (متى 5: 9). يهوه هو ربّ الجنود الذي كان يحارب عن بني إسرائيل مباشرة أو بواسطة ملائكته، فإذا بالمسيح يشدّد، وعلى جميع الناس دون تحديد، إذ لم يختر شعباً لنفسه، على أنّ مجرد الغضب بلا سبب وجيه يستوجب الحكم، لكنّه لم يحدد أبداً حكمه بأنّه تحريم أو قطع الأنفس أي قتلها كما جاء في الوصايا. فمقابل وصية لا تقتل المحصورة ببني إسرائيل، كما سبق وبرهنا، قال لا تغضب على أخيك بالباطل، وهو لم يعنِ هنا أبداً أخ الدين ولا أخ العرق، بل أخ الإنسانية أينما وُجد. وسأحاول أن أعقد مقارنة بين وصايا يهوه ووصايا المسيح وعلى كلّ مؤمن أن يستعمل بصيرته لرؤية الفارق.

إنّ الهيكل الذي يدّعي اليهود أنّ الملك الأسطوري سليمان قد بناه للربّ، قد هدمه يسوع من خلال نظرته الروحانية إلى الملكوت السماوي. فالهيكل ليس سوى حجارة، والصلاة الحقيقية يمارسها الإنسان أينما كان، وخير مكان هو مخدعه لكي لا تكون صلاته لمجرد التظاهر بالتديُّن أمام الناس، لأنّ الله يعلم السرائر، والخداع لا ينفع بهذه المسألة، «لأنّنا نعلم أنّه إن نُقض بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السموات بناءٌ من الله بيت غير مصنوع بيدٍ أبديّ» من رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس 5: 1. وإذا كان يهوه قد طلب من موسى وهرون ذبائح من الثيران والتيوس لإبعاد إثم الخطية، (وثور الخطية وتيس الخطية اللذان أُتيَ بدمهما للتكفير في القدس يخرجهما إلى خارج المحلّة ويحرقون بالنار جلديهما ولحمهما وفرثهما) لاويين 16: 27، فإنّنا نجد في الرسالة إلى العبرانيين ما يسخّف هذه الوصية وينقضها (لأنّه لا يمكن أنّ دم ثيران وتيوس يرفع خطايا – 10: 4).

إنّ ما جاء في التوراة عن الذبائح وسرور الربّ برائحة الشواء ليس سوى ترديد لصدى عادات الشعوب القديمة التي تخطاها يسوع بتقديم جسده ضحية نهائية عن خطايا البشر جميعاً علّهم إن اتّبعوا تعاليمه يكون لهم بها خلاص من الخطيئة (كونوا أنتم أيضاً مبنيين كحجارة حية بيتاً روحياً كهنوتاً مقدساً لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح – من رسالة بطرس الرسول الأولى 2: 5). وها هو يسوع يصرخ قائلاً: «إنّي أريد رحمة لا ذبيحة» (متى 9: 13)، فالبرحمة لا بالقتل عامل الخطاة ودعاهم إلى التوبة، أفلا نقرأ بكلّ ما سبق نقضاً؟ ولقد أعطيت عشرات الأمثال عن أوامر يهوه التي كان يُصدرها لكلّ من تكلّم معه من بني إسرائيل، وهم كثر، لقتل الأبرياء، النساء والأطفال والرضّع والشيوخ، لا لذنب اقترفوه بل لأنّ يهوه اعتبرهم أعداءه وأعداء شعبه الخاص. وها أنا بالمقابل أعطي مثالاً واحداً يظهر الفارق الكبير بين يهوه الإرهابي ويسوع الذي أتى ليحيي الأرواح لا ليميتها. «فلمّا رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا يا ربّ أتريد أن تقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا أيضاً. فالتفت وانتهرهما وقال لستما تعلمان من أيّ روح أنتما. لأنّ ابن الإنسان لم يأتِ ليُهلك أنفس الناس بل ليخلّص» (لوقا 9: 54).

فإذا لم يرَ عقلك أخي المؤمن تناقضاً بهذا الموقف فإنّي أرى أنّ إيمانك المسيحي تنقصه إعادة قراءة لعهدك الجديد لكي تتخلص من تأثيرات العهد القديم، لأنّ المسيح أراد لك ذلك عندما قال: «لا تظنّوا أنّي جئت لألقي سلاماً على الأرض. ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً. فإني جئت لأفرّق الإنسان ضد أبيه والإبنة ضد أمها والكنّة ضدّ حماتها» (متى 10: 34 – 35). فماذا برأيك عنى المسيح بكلامه

هذا؟ هل هو فعلاً أتى ليُدبّ الخلاف بين أفراد العائلة؟ هل أراد المسيح بكلامه أن يتماهى مع كلام «الربّ إله إسرائيل» الذي قال لهم: «ضعوا كلّ واحد سيفه على فخذه ومرّوا وارجعوا من باب إلى باب في المحلّة واقتلوا كلّ واحد أخاه وكلّ واحد صاحبه وكلّ واحد قريبه» (خروج 32: 27)؟ هل سيف المسيح هو ذاته سيف يهوه؟ أم أنّه الكلمة الإلهية التي تتضح بالمحبة وبالمفاهيم الجديدة التي تحتم المواجهة بين الذين اقتنعوا بها والذين حجّرتهم الشريعة بطقوسها، حتى ولو تمت المواجهة بين الأب والإبن وبين الأم والإبنة؟ لا تهاون ولا تراجع حتى تحلّ كلمة الروح الإلهي مكان كلمة السيف اليهوهي. أليس هذا نقضاً للقديم وإعلاءً لبناء التعاليم الجديدة؟

وإذا ما قارنّا بين تصرّفات يسوع وأحد أنبياء بني إسرائيل إيليا، لكانت دهشتنا كبيرة. فالأول أراد تهذيب حياة الناس أجمعين عن طريق هدايتهم إلى الطريق المستقيم، طريق المحبة والغفران، والثاني أراد أن ينتقم بالقتل لمن يخالف وصايا يهوه. نسمع إيليا يقول لبني إسرائيل: «أمسكوا أنبياء البعل ولا يُفلت منهم رجل. فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك» (الملوك الأول 18: 40). «ثم صعد من هناك إلى بيت إيل. وفيما هو صاعد في الطريق إذا بصبيان صغار خرجوا من المدينة وسخروا منه وقالوا له اصعد يا أقرع. اصعد يا أقرع. فالتفت إلى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم الربّ. فخرجت دبّتان من الوعر وافترستا منهم اثنين واربعين ولداً» (الملوك الثاني 2: 23 – 24).

ونحن وإن كنّا نسخر من هذه القصة ولا نصدّق منها كلمة، فإنّها تفيدنا عن ثقافة الموت والقتل التي لقّنها يهوه إلى أنبيائه وشعبه. فماذا لقّن يسوع بالمقابل: «فدعا يسوع إليه ولداً وأقامه في وسطهم وقال. الحقّ أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات. فمن وضع نفسه مثل هذا الولد فهو الأعظم في ملكوت السموات. ومن قبل ولداً واحداً مثل هذا باسمي فقد قبلني... انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار لأنّي أقول لكم إنّ ملائكتهم في السموات كلّ حين ينظرون وجه أبي الذي في السموات» (متى 18: 2 – 3 – 4 – 5 – 10). «حينئذٍ قُدّم إليه أولاد لكي يضع يديه عليهم ويُصلّي. فانتهرهم التلاميذ. أمّا يسوع فقال دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأنّ لمثل هؤلاء ملكوت السموات. فوضع يديه عليهم ومضى من هناك» (متى 19: 13 – 4 – 15). إنّه فعل النقض بأبدع مظاهره. والنقض هذا لم يكن ليحدث لو كان المسيح على دين الشريعة الموسوية. تلاميذه، أو على الأقل بعضهم كان لم يزل متأثراً بالشريعة، بدليل نهرهم للأطفال وإن كان فعلهم جاء ملطّفا عن فعل إيليا، أمّا المسيح فقد رأى بالأطفال البراءة الخالية من الخطيئة والتي تؤهلهم للملكوت السماوي.

ولا بد ونحن نتكلّم عن مبدأ النقض الذي باشره يسوع ضد الشريعة الموسوية وتابعه كلّ أيامه وحتى صلبه، من أن نعرّج على مسألة الختان وكيف نظر إليها. مرّ معنا أنّ الختان فرضه يهوه على كلّ ولد في عمر الثمانية أيام عندما قال لإبراهيم: «وأمّا أنت فتحفظ عهدي. أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يُختن منكم كلّ ذكر. فتُختتنون في لحم غرلتكم. ابن ثمانية أيام يُختتن... وأمّا الذكر الأغلف الذي لا يُختتن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنّه قد نكث عهدي» (تكوين 17: 9 – 14). طبعاً تراجع يهوه عن هذا التهديد بدليل أنّ يشوع قد قام بختن الرجال بعد أن مات الجيل الأول في سيناء. فلماذا لم يقتلهم يهوه بعد بلوغهم الأيام الثمانية؟ وماذا قال يسوع والرسل عن الختان وكيف فهموه؟ جاء في رسالة بولس الرسول إلى

أهل غلاطية ما يلي: «ها أنا بولس أقول لكم إنّه إنْ اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً» (5: 2). حتى يصل إلى قوله: «لأنّه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة بل الإيمان العامل بالمحبة» (5: 6). وينهي رأيه بالختان قائلاً: «لأنّه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة بل الخليقة الجديدة» (6: 15). وماذا يعني بالخليقة الجديدة غير الاقتناع وممارسة التعاليم الجديدة. وفي رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي نقرأ: «لأنّنا نحن الختان الذي نعبد الله بالروح ونفتخر في المسيح يسوع ولا نتكل على الجسد» (13: 3). «حيث ليس يوناني ويهودي ختانٌ وغرلة بربريٌ سكيثيٌ عبدٌ حرّ بل المسيح الكلّ وفي الكلّ» من رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي (3: 11). وفي رسالته إلى أهل روميه يتساءل بولس الرسول قائلاً: «إذاً إن كان الأغرل يحفظ أحكام الناموس أفما تُحسب غرلته ختاناً؟» (2: 26). فيصل إلى النتيجة المنطقية بأنّ: «ختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان» (2: 29). أليس هذا نقضاً لعهد يهوه مع إبراهيم؟ فما قيمة استئصال الغرلة وما علاقتها بالإيمان؟ وكيف يمكن لإيمان بقية المؤمنين بإله الكون وقدرته من غير المختونين أن يكون ناقصاً وغير معترف به؟ وإذا كان يهوه هو إله الكون الشامل فلماذا لم ينتقم بالقتل من بقية رجال الكون غير المختونين ماضياً وحاضراً؟

أمّا إذا قلنا بأنّ هذا كان عهداً خاصاً بين يهوه وشعبه لتأكد لنا أنّ هذا اليهوه ليس الله الكوني الشامل، بل هو إله قبيلة لا نفع منه يُرتجى. من هنا كان تركيز بولس الرسول على الإيمان الحقيقي المرتبط بالممارسة لا إيمان الناموس النظري: «إذاً نحسب أنّ الإنسان يتبرّر بالإيمان بدون أعمال الناموس. أم الله لليهود فقط. أليس للأمم أيضاً. لأنّ الله واحد هو الذي سيبرّر الختان بالإيمان والغرلة بالإيمان. أفنبطل الناموس بالإيمان. حاشا. بل نثبّت الناموس» من الرسالة إلى أهل رومية (3: 28 – 31). ولا يعتقدنّ أحد أنّ ما عناه بولس الرسول من تثبيت الناموس يتطابق مع القول المنسوب إلى يسوع حول الإكمال لا النقض. لأنّ بولس، ومن مجمل حديثه، إنّما عنى الإيمان الحقيقي والناموس الحقيقي أي ناموس الروح لا الجسد. أليس هو القائل: «فإنّ الذين هم حسب الجسد فبما للجسد يهتمون ولكنّ الذين حسب الروح فبما للروح. لأنّ اهتمام الجسد هو موت ولكنّ اهتمام الروح هو حيوة وسلام. لأنّ اهتمام الجسد هو عداوة لله» من رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (8: 5 – 6). وكنّا قد أشرنا إلى إنجيل توما، الذي لم يُضم إلى أناجيل العهد الجديد إمّا لمناقضته لها في بعض منه، بالنسبة لرأي بعضهم، أو لتشابهه مع إنجيل يوحنا كما يرى بعضهم الآخر. وفي هذا الإنجيل يقول توما: «قال له التلاميذ: هل الختان مفيد؟ فقال لهم: لو كان مفيداً لأنجبهم أبوهم من أمهم مختونين. ولكن إذا كان ختاناً حقيقياً بالروح، عندها يكون مفيداً»(547).

وإذا ما أكملنا إبراز التناقض ما بين الشريعة الموسوية وتعاليم يسوع، والذي لا يعني إلاّ نقض الأخيرة للأولى، لكان لزاماً علينا التطرق لمفهوم النجاسة التي أسقطها يهوه على أمور كثيرة منها الحيوانات، والمرضى والطعام إلخ... في سفر اللاويين، وتحديداً الإصحاح الحادي عشر، يتحفنا محرّر التوراة بجملة وصايا يهوه التي بلّغها لموسى لكي يقوم بدوره بتبليغها لبني إسرائيل حول الحلال والنجس من المأكولات البحرية والطيور وكلّ ما يدبّ على الأرض، وماذا يحل بالإنسان الذي لا يتقيد بهذه الوصية، وقال في الإصحاح السابع: «وأمّا النفس التي تأكل لحماً من ذبيحة السلامة التي للربّ ونجاستها عليها فتقطع تلك النفس من شعبها. والنفس التي تمسّ شيئاً ما نجساً

نجاسة إنسان أو بهيمة نجسة أو مكروهاً ما نجساً ثم تأكل من لحم ذبيحة السلامة التي للربّ تقطع تلك النفس من شعبها» (7: 20 – 21).

فبماذا ردّ يسوع على هذا الكلام. يذكر متى في الإصحاح الخامس عشر أنّ يسوع «دعا الجمع وقال لهم اسمعوا وافهموا. ليس ما يدخل الفم ينجّس الإنسان. بل ما يخرج من الفم هذا ينجّس الإنسان... ألا تفهمون بعد أنّ كل ما يدخل الفم يمضي إلى الجوف ويندفع إلى المخرج. وأمّا ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر. وذاك ينجّس الإنسان. لأنّ من القلب تخرج أفكار شرّيرة قتل زنًى فسق سرقة شهادة زور تجديف. هذه هي التي تنجّس الإنسان. وأما الأكل بأيدٍ غير مغسولة فلا ينجّس الإنسان» (15: 10 – 11 – 17 – 18 – 19 – 20)، فجاء كلامه هذا نقضاً لكلام الكتبة والفريسيين عندما قالوا له: «لماذا يتعدّى تلاميذك تقليد الشيوخ. فإنّهم لا يغسلون أيديهم حيثما يأكلون خبزاً» (متى 15: 2).

أما في إنجيل يوحنا فنقرأ ما قاله يسوع لليهود عندما تذمّروا عليه لأنّه قال أنا هو الخبز الذي نزل من السماء، «أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المنّ في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت» يوحنا (6: 49 – 50)، ولا بدّ لنا من وقفة عند هذا الكلام. طقوس الشريعة الموسوية ركّزت كثيراً على موضوع الطعام والنجاسة، فنقض المسيح هذا المفهوم انطلاقاً من تركيزه على الروح وليس على الجسد الذي لا يعيش إلاّ على الطعام. يهوه قد أنزل على شعبه المنّ لمدة أربعين سنة لكثرة ما تذمّر الشعب عليه وعلى موسى لعدم وجود طعام في الصحراء. فجاء يسوع ليشرح لهم أنّ التيه لم يكن تيهاً جسدياً بل روحياً، ولمّا لم يهتدِ بنو إسرائيل إلى الله الحقيقي ماتوا بالرغم من المنّ الذي أنزله الله عليهم. أما يسوع فقد أنزل طعاماً مختلفاً هو الخبز الذي يحيي، أي هو التعاليم الجديدة التي إن سار الإنسان على هديها، أي إن هو أصبح محبة خالصة وتسامحاً كاملاً وغفراناً شاملاً، أمكنه أن يتحد بالله ويحصل على الحياة الأبدية فيتحرّر من الموت. فشتّان ما بين الشريعة الطقوسية وما بين نقيضها شريعة الروح.

أمّا المثال الأخير الذي يُعتبر القشة التي قصمت ظهر البعير فهو موقف يسوع من السبت بشكل عام ومن العمل يوم السبت بشكل خاص، خاصة إذا كان العمل فعل خير. «وكلّم الربّ موسى قائلاً. وأنت تكلّم بني إسرائيل قائلاً سبوتي تحفظونها. فتحفظون السبت لأنّه مقدّس لكم. من دنّسه يُقتل قتلاً. إنّ كلّ من صنع فيه عملاً تُقطع تلك النفس من بين شعبها. فيحفظ بنو إسرائيل السبت ليصنعوا السبت في أجيالهم عهداً أبدياً» (خروج 31: 14 – 16). «وأمّا اليوم السابع ففيه يكون لكم سبت عطلة مقدّس للربّ. كلّ من يعمل فيه عملاً يُقتل» (خروج 35: 2). نفهم أن يكون يهوه قد اختار يوماً ليرتاح فيه الناس من تعب عملهم خلال ستة أيام، اقتداءً به إذ كما جاء في سفر التكوين: «وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. (خلق السموات والأرض). فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدّسه (2: 2 – 3). وكنّا قد علّقنا على هذا الكلام سابقاً قائلين إنّ فيه انتقاصاً للقدرة الإلهية أولاً، وإلصاقاً لصفة التعب بالله وهو منزّه عن الصفات ثانياً، ولفتنا ايضاً أنّ هذه الفكرة أخذها محرّر التوراة من البابليين ونسب الإبداع لنفسه. أما هنا فعلينا أن نشير إلى يسوع وكيفية مواجهته لهذه المسألة. يخبرنا متى ذاته الذي ذكر لنا في أول إنجيله عبارة يسوع الشهيرة، موضوع هذا الباب، «ما جئت لأنقض بل لأكمل»، بأنّ يسوع قد قال للفرّيسيين عندما عيّروه بتلاميذه

الذين أخذوا يقطفون السنابل لكي يأكلوا عندما جاعوا: «إنّ ابن الإنسان هو ربّ السبت أيضاً» (متى 12: 8).

أمّا في إنجيل مرقس فكلام يسوع وإن تغيّر شكلاً، لوصف الحالة ذاتها، فإنّ المعنى بقي واحداً، يقول مرقس في الإصحاح الثاني: «ثم قال لهم السبت إنّما جعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت. إذاً ابن الإنسان هو ربّ السبت أيضاً». وهذا يعني أنّ يسوع قد ثار على الطقوس الموسوية معتبراً أنّ أيام الأسبوع قد نظمها الإنسان، إذن كلّ الأيام سواء وهي ليست سوى لتنظيم حياة الإنسان لا لاستعباده. وكم يفترق يسوع عن يهوه بنظرته لمن يعمل يوم السبت، وهذا الفارق ينبع من نظرته إلى العمل بحد ذاته كفعل خير، لأنّ الذي يقوم به لا يقصد منه إلاّ الخير. فمثال الحطّاب في سفر العدد، الذي وجده بنو إسرائيل يحتطب يوم السبت فأمر الربّ موسى أن يقتل، يقابله مثل تلاميذ يسوع الذين دخلوا حقل السنابل يوم السبت فجاعوا، فما كان من المسيح إلاّ أن واجه الفريسيين مؤكداً لهم أنّ السبت خاضع لإرادة الإنسان وليس العكس. وعندما شفى إنساناً يده يابسة يوم السبت وحاول الفريسيون إحراجه قائلين: هل يحلّ الإبراء في السبوت؟ لم يتردد بإجابتهم بأنّه «يحلّ فعل الخير في السبوت» (متى 12: 12).

إنّه لنقض واضح لركيزة أساسية من ركائز الوصايا اليهوهية، ونحن لا يهمنا إن كان يسوع قد قال تلك العبارة أم لا، ما يهمنا هو ما مارسه يسوع في حياته اليومية مع تلاميذه وأتباعه وعامة الناس الذين لم يقل لهم يوماً كلمة تهديد واحدة. كان مثالاً للرحمة والمحبة والتسامح، وكان نقيض يهوه قولاً وفعلاً. أليس هو من قال: «سوف أهدم هذا البيت، ولن يتمكن أحد من إعادة بنائه»، أكان يتكلم عن بيت من حجارة، أم عن بيت الطقوس الحجرية أي هيكل أورشليم الذي فهمه يسوع بأنّه الإيمان القديم الذي يجب أن يقوّض مع إطلاق مفاهيم الإيمان الجديد، الإيمان الروحي الذي حدّد مملكة يسوع، فإذا بها ليست مملكة أرضية وبالتالي نفى أن يكون الملك المنتظر الذي تحدّث عنه أنبياء اليهود، لأنّ مملكته ليست من هذا العالم.

وأختم بما كتبه فراس السواح عن مفهوم يسوع للملكوت حيث قال: «يسوع قدّم منذ البدء مفهومه الخاص عن ملكوت الله، وميّزه بحدّة عن المفهوم السائد لدى يهود عصره الذين كانوا ينتظرون مسيحاً سياسياً، يعيد مجد إسرائيل ويُخضع جميع الأمم تحت قدميها، ثم يسلّم الحكم إلى يهوه. فملكوت يسوع هو ملكوت روحاني... وعلى عكس ملكوت الربّ اليهودي، فإنّ ملكوت السماوات الذي بشّر به يسوع يشمل جميع الأمم والشعوب وهو يؤكد في أكثر من قول له عدم أهلية اليهود لدخول هذا الملكوت»(548). يقول يوسف أيوب حداد: «لقد كانت المسيحية انتفاضة على تحجر اليهودية وعلى الأخذ بحرفية «الناموس» الذي يصفه بولس باللعنة (المسيح افتدانا من لعنة الناموس – رسالة بولس إلى أهل غلاطية 3: 13)»(549). ولو لم تكن تعاليم يسوع انتفاضة على الناموس نقضته فقوّضته لما كان قال: «ويل لكم أيّها الكتبة والفرّيسيون المراؤون لأنّكم تطوفون البحر والبرّ لتكسبوا دخيلاً واحداً. ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنّم أكثر منكم مضاعفاً» (متى 23: 15). وما تسمية تعاليم يسوع بالعهد الجديد إلاّ إشارة واضحة إلى أنّ التوراة وما فيها من عهود بين يهوه وإبراهيم أولاً، ثم مع إسحق ويعقوب ويوسف وموسى ثانياً، قد انتهى مفعولها مع العهد الذي كان ليسوع مع الإله الكوني والقاضي بأن يكون فادياً لكلّ البشرية.

إن إله بني إسرائيل حاول إبادة البشر عندما لاحظ كثرة شرورهم، أمّا يسوع فقد افتدى خطاياهم بجسده، فسما بهذه التعاليم إلى أرقى مستوى إنساني عرفته البشرية. عهد قديم أو عتيق يقابله عهد جديد، فكيف تكون جذور الجديد ضاربة في تربة القديم؟ أليس لنا من مثاليْ الثوب البالي وزق الخمرة المهترئ خير مثال على أنّه لا يمكن أن تكون هناك علاقة بين الإثنين. يكفي أن نردد مع يسوع ما كان يقوله للتلاميذ والجموع بعد كل مثل: «من له أذنان للسمع فليسمع»، ونزيد على ذلك قائلين: ومن كان له عقل فليحتكم إليه فبه تكون البصيرة والهداية، ومن خلاله يعلم بأنّ «الإنجيل هو انفجار غاضب ضدّ شرائع الحقد العرقي والفهم الوحشي والمشاعر غير الإنسانية التي تعلّمها التوراة(550).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثامن

الإرهاب الإسرائيلي الحديث

تجسيد لإرهاب الشريعة اليهوهية

الباب الأول

الإرهاب العسكري

«وأمّا مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الربّ إلهك نصيباً فلا تستبقِ منها نسمةً ما بل تحرّمها تحريماً».

تثنية 20: 16 – 17

«فاعلم اليوم أنّ الربّ إلهك هو العابر أمامك ناراً آكلة. هو يبيدهم ويُذلّهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعاً كما كلّمك الربّ».

تثنية 9: 3

«ما دام الشعب يؤمن بيهوه الخلاص، فلن يكون العالم بمأمن من يهوه الفاتح».

مواطن أميركي

لا بدّ لنا بداية، وقبل الحديث عن الإرهاب الإسرائيلي، أن نحدّد معنى كلمة إرهاب. فهل هي كلمة مستحدثة في قاموس اللغات، أم أنّها كلمة قديمة عرفتها الأبجديات الأولى، وعرفت مدلولها الحقيقي؟ وإذا قلنا إنّها جديدة أُطلقت على فعل محدد، بدأ بالبروز مؤخراً وارتبط بدول وتنظيمات محددة فهل نكون بذلك قد قاربنا الحقيقة؟ من حيث اللغة وحسب المنجد، وتحت باب رَهِبَ نقرأ: رهبة ورُهباً ورَهْباً: خاف. أرهبه: خوّفه. الإرهابي: من يلجأ إلى الإرهاب لإقامة سلطته، الحكم الإرهابي. وانطلاقاً من هذا المعنى ندرك أنّ فعل الإرهاب أي التخويف قديم قِدَمَ الإنسان الذي كانت تخيفه بداية العوامل الطبيعية، ومن شاركه الحياة على سطح الأرض من حيوان، حتى إذا ما بدأ بالتجمع والاستقرار اضطرّ إلى الصراع من أجل بقائه مع أخيه الإنسان أيضاً. وهذا الصراع أدى إلى مواجهات دموية كانت تلقي الخوف والرعب في النفوس مهما تحلّت بالشجاعة. وكان من الطبيعي أن ينتج عن هذا الصراع انتصار فريق على آخر، مما كان يستدعي حكماً ممارسة نوع من السلطة الفوقية من قِبَل المنتصِر على المهزوم، فكان ذلك بداية عهد الإنسان مع الإرهاب. وبدأ الإنسان رحلة تطوره، فكان له من الحوافز الكثير ممّا أثّر إيجاباً على عملية تطوره العقلي بحيث، كما أشار د. بشار خليف، «كان للبيئة والوسط الحيوي المحيط دور حاسم في زيادة نموّ الدماغ ولا سيّما قشرته التي هي أساس منجزات الاجتماع البشري»(551) والذي أشار أيضاً إلى «أنّ الإنسان العاقل اكتسب

صفاته الخاصة المميّزة قبل 80 ألف سنة... وابتكار الكتابة كان في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد حيث تطورت إلى أبجدية في منتصف الألف الثاني ق.م.»(552).

ولقد بدأ الإنسان بالتعبير كتابة عن إرهاصات فكره البدائي وترك لنا نتاجاً زاخراً يدلّ على تراكم تجاربه، حيث يلاحظ الدارسون خط التطور التصاعدي الذي رافق رحلة الإنسان. وبالاطلاع مثلاً على شريعة حمورابي يمكننا أن نفهم من مضمون القوانين التي وضعها أنّها كانت تتقصّد الدفاع عن المظلومين وصولاً إلى إعطائهم حقّهم وإلزام ظالميهم بما تفرضه عليهم هذه الشريعة من موجبات. ففي باب عقوبة الشهادة الكاذبة نقرأ نص المادة الأولى: «إذا اتهم سيد سيداً وأقام عليه دعوى بالقتل ولكنّه لم يستطع إثباتها فإنّ المتّهم يُعدم». ومن باب حكم العين بالعين والسن بالسن الذي سطا عليه محرّر التوراة نقرأ:

إذا سيد فقأ عين ابن أحد الأشراف، فعليهم أن يفقأوا عينه – المادة 196

إذا كسر عظم سيد آخر، فعليهم أن يكسروا عظمه – المادة 197

إذا سيد قلع سنّ سيد من طبقته فعليهم أن يقلعوا سنّه – المادة 200

فالبادئ بأعمال كهذه كان ينال جزاءه على الصعيد الفردي لأنّ عمله كان يُعتبر ظلماً ألحقه بإنسان آخر، وهذا الظلم قد تسبب بالخوف لمن وقع عليه الفعل، أي أنّ الظالم قد مارس فعلاً إرهابياً أدى إلى خوف المظلوم.

أمّا المعنى العام الذي ورد في المنجد حول الإرهابي وحصره بمن يلجأ للإرهاب لإقامة سلطته فقد تعدته الأفعال الإرهابية التي أخذت تسود العالم في الآونة الأخيرة، بحيث نستطيع أن نحدّد الإرهاب بأنّه كلّ عمل يقوم به فرد أو جماعة (حزب، تنظيم) أو دولة يسبب خوفاً لفرد آخر أو جماعة أو دولة، وتكون نتائج هذا الخوف، انطلاقاً من نوعية العمل المرتكب (تهديد، قتل، جرح، نسف، خطف، طرد، تهديم، إبعاد، نفي، سجن، تعذيب إلخ...)، مدمّرة على الطرف الذي وقع عليه هذا العمل. فإذا كان فعل التعدّي على الأفراد قد أدّى قديماً إلى وضع قوانين غايتها ردع المعتدي، فهل تمكّنت المجتمعات الإنسانية اليوم إلى تطوير هذه القوانين لكي تتوافق مع تطور الإنسان الحضاري؟

الجواب على هذا التساؤل ينقسم إلى شقّين: الأول يتعلق بالأفراد، والثاني يتعلق بالتنظيمات والدول. فيما يتعلق بالأفراد فقد لجأت كلّ دولة إلى سَنّ قوانين للحفاظ على حقوق مواطنيها والاقتصاص من المعتدين، وتتعاون بعض الدول فيما بينها أيضاً لمعاقبة أيّ منتهكٍ للقانون في بلد محدد يُقدم على مغادرته إلى بلد آخر بعد إقدامه على ارتكاب أيّ جرم مما يشكل مخالفة للقانون. أمّا الدول فقد حاولت أن يكون لها كيان مشترك من شأنه سنّ قوانين عامة تنظّم العلاقات فيما بينها للحدّ من عمليات التعدّي التي تقود عامة إلى الحروب مهددة الأمن الإقليمي والسلام العالمي، فكانت عصبة الأمم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، والأمم المتحدة على أثر وضع الحرب العالمية الثانية أوزارها.

لكنّ هاتين المنظّمتين بقيتا قاصرتين عن القيام بالمهمة التي أوكلت إليهما لأسباب متعددة منها: أولاً احتفاظ الدول القوية التي انتصرت بالحرب بامتياز الموافقة أو عدم الموافقة على قرارات هاتين المنظمتين، خاصة مجلس الأمن المنبثق عن الأمم المتحدة بما يُعرف بحق النقض (الفيتو)، ثانياً

تحصّن بعض الدول بقوتها الذاتية وقدرتها التأثيرية على دول أخرى لعدم تطبيق القرارات الدولية، ثالثاً عدم وجود نصوص قانونية كافية لإلزام الأعضاء الموقعين على الاتفاقيات والقوانين الدولية بتطبيق القرارات متى صدرت. وهذا ما حدا بالكاتب القانوني جيرهارد فان غلان للقول: «إنّ القانون الدولي يجب أن يُعتبر قانوناً حقيقياً ولكن غير متقن أو كامل، كما أنّ المؤسسات القانونية اللازمة لتطويره وتنفيذه لا تزال حتى الآن غير كافية وغير تامة»(553).

فإذا كانت القوانين التي تطال الأفراد داخل دولهم قد تطورت بشكل ملحوظ في معظم دول العالم، وسارت بالاتجاه العام نفسه الذي كانت عليه في العصور القديمة، أي محاولة الحفاظ على حقوق المظلومين وردع الظالمين، فإنّ الدول لا تزال مقصّرة في هذا المجال على الرغم من الضجيج الإعلامي والأبهة اللذين يغلّفان منظمة الأمم المتحدة وما يتفرع عنها. صحيح أنّ هذه المنظمة قد حاولت الاهتمام «بمكافحة الإرهاب إثر تفشي موجة العنف السياسي على المستوى الدولي، وانتشار ظاهرة خطف الطائرات، واحتجاز المبعوثين الدبلوماسيين في بداية السبعينيات على نحو خطير... فقد رأت الأمم المتحدة ضرورة معالجة تلك الظاهرة، ومحاولة التوصل إلى تعريف للإرهاب تندرج في إطاره كافة الأفعال المكوّنة له وبحث أسبابه والوسائل الكفيلة بعلاجه»(554). فهل تمكنت الأمم المتحدة من الإيفاء بالتزامها وضع تعريف للإرهاب، واتخاذ القرارات اللازمة بحق الدول المخالفة، وإرغامها على تطبيق هذه القرارات؟ في الكتاب السابق ذكره تفصيل لمراحل طرح موضوع الإرهاب في الأمم المتحدة بدءاً من العام 1972، ولعشرات القرارات الصادرة والتي تدين الإرهاب بكل وجوهه، ولمحاولة اتخاذ التدابير الهادفة، إن لم يكن إلى منع الإرهاب كلياً، فإلى الحد منه.

وفي الدورة الأربعين عام 1985 تم نقاش البند الخاص بالإرهاب، والذي بات بنداً دائماً يُطرح في كلّ دورة للجمعية العامة للأمم المتحدة، حيث طاول البحث ضرورة التوصل إلى وضع تعريف محدّد للإرهاب الدولي، لكن تدخل إسرائيل والولايات المتحدة بشكل خاص أفشل هذه المحاولة، لأنّهما كانتا على قناعة تامة بأنّ أيّ تعريف موضوعي للإرهاب سيطال أعمالهما وستتم إدانتهما وبالتالي اتخاذ القرارات بحقهما. ولما كانتا ترفضان الإدانة كيفما كان شكلها أو سببها انطلاقاً من اعتدادهما بقوتهما، فلم يكن من الوارد موافقتهما على توجه الأمم المتحدة هذا. ويعتبر نعوم تشومسكي بأنّ إسرائيل والولايات المتحدة كانتا وراء عدم تمكّن الأمم المتحدة من الاتفاق على تعريف الإرهاب، لأنّ هذا التعريف سيطالهما بصفتهما الدولتان الأكثر إرهاباً في العالم. ويضيف: «الولايات المتحدة لن تقبل أيّ شيء شبيه بتلك الفقرة المثيرة للغضب التي وردت في القرار الصادر عام 1987 (حول حق الشعوب بالكفاح لتقرير مصيرها)، كما لن يقبله أيّ من حلفائها (خاصة إسرائيل)(555).

وفي الدورة الرابعة والأربعين عام 1989 طالبت معظم الدول دراسة الأسباب الكامنة وراء الإرهاب، إذ لا يمكن معالجة النتائج دون النظر بالأسباب، وتقدمت الدول العربية باقتراح يرى «ضرورة عدم الخلط بين ظاهرة الإرهاب وبين الكفاح المسلح المرتبط بحق تقرير المصير الذي تمارسه حركات التحرير الوطني»(556)، وقد عارضت الدول الغربية البحث بهذا الموضوع وعقد مؤتمر خاص له وذلك بضغط من الولايات المتحدة وإسرائيل. واقتراح الدول العربية كان منطقياً وينسجم مع ميثاق الأمم المتحدة وقراراتها المتعلقة بحق الشعوب في تقرير مصيرها، بحيث تصبح مقاومة الاحتلال، أيّ احتلال، حقاً مشروعاً يجب أن ينال الدعم الدولي. ففي دراسة للأستاذ حسن

أحمد عمر تحت عنوان (حق الشعب الفلسطيني في مقاومة الاحتلال) يقول: «أقرّت الجمعية العامة للأمم المتحدة، في سنة 1974، بالقرار رقم 3214 حول تعريف العدوان، حق الشعوب في النضال بجميع الأشكال، بما فيها الكفاح المسلح، من أجل نيل الحرية والاستقلال وحق تقرير المصير. وبالتالي، أجازت حق جميع الشعوب في العالم بالمقاومة المسلحة للاحتلال في سبيل تحررها منه، وذهب إلى (أنّ أيّة محاولة لقمع الكفاح المسلح ضدّ السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية هي مخالفة لميثاق الأمم المتحدة ولإعلان مبادئ القانون الدولي الخاصة بالعلاقات الدولية والتعاون بين الدول، وللإعلان العالمي لحقوق الإنسان»(557). لكنّ الوضع يصبح مختلفاً عندما يتعلق الأمر بإسرائيل، إذ يقلب الإعلام الصهيوني الأدوار فتصبح الضحية هي الجلّاد الإرهابي والمجرم الحقيقي هو الضحية، ومرة جديدة يُفرض هذا المقياس على المجتمع الدولي باسم الحق الإلهي الذي أعطى بني إسرائيل حريّة إبادة الشعب وتهجيره وتدمير منازله وجرف كرومه وبساتينه، وإقامة المستوطنات لاستيعاب مئات آلاف اليهود من دول العالم أجمع استناداً إلى قوانين عنصرية جائرة تستند هي الأخرى على وصايا يهوه التي أطلقها لثلاث ألفيات خلت ويزيد.

وتنوّعت طروحات الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة تبعاً لنظرة هذه الدول المختلفة إلى الإرهاب من جهة وإلى حق الشعوب في تقرير مصيرها من جهة ثانية، إضافة إلى بدء الكلام عن إرهاب الدولة المنظّم الذي أكد عليه مندوب دولة الكويت في الدورة السادسة والأربعين عام 1991، فأشار إلى ضرورة «إدانة إرهاب الدولة الرسمي المنظم بجميع أشكاله لما يمثله من انتهاك صارخ وتهديد لأمن واستقرار المجتمع الدولي»(558). ونتيجة لخلافات الدول حول نظرتها إلى الإرهاب، وعلى الرغم من وضعه بنداً دائماً على جدول أعمال الاجتماعات الدورية لمنظمة الأمم المتحدة، لم يستطع قادة الدول التوصل لتوحيد رؤيتهم عبر استصدار قرار يتضمن تحديداً واضحاً للإرهاب تقبل به جميع الدول الأعضاء.

وفي الثامن من تشرين الأول/أكتوبر عام 2004 أقدم مجلس الأمن، وتحت الفصل السابع، على اتخاذ القرار رقم 1566، والذي أدان فيه الإرهاب موصًّفا إياه على أنّه الأحداث الإجرامية ضدّ المدنيين والتي تنفذ بقصد القتل أو إحداث جروح جسدية خطيرة، أو الخطف بقصد إحداث حالة من الذعر المدني في دولة محددة أو جماعة أو أشخاص محددين. واعتبر أنّ هذه الأحداث غير مقبولة بأيّة معايير سياسية أو فلسفية أو أيديولوجية أو عرقية أو عنصرية أو دينية. ودعا الدول إلى تجنب وقوع هذه الأحداث وإلى معاقبة مرتكبيها في حال حدوثها. لكننا بتنا نعلم اليوم أنّ مجلس الأمن، وبحصر حق الاعتراض (الفيتو) بدول خمس فقط، أصبح عُرضةً للضغوط الدولية القوية المسيطرة على القرار العالمي، وبالتالي بتنا نشهد على قيامه باتخاذ قرارات جائرة بحق بعض الدول الضعيفة التي تناضل من أجل حقوقها المكتسبة والصادرة من الدول الأقوى، وإلى عدم قدرته على إجبار بعض الدول، وفي طليعتها إسرائيل، على تنفيذ قراراته حتى ولو كانت ملزمة وتحت البند السابع.

لذلك يقول بعض الدارسين القانونيين، إنّه حتى الساعة، ولأسباب سياسية لم تعد بخافية على أحد، لم يتم التوافق على تحديد مشترك لمصطلح الإرهاب لا من الناحية الأكاديمية ولا من الناحية الحقوقية. من هنا يقول المحامي والباحث اللبناني سامي زيدان بأنّه ليس هناك اتفاق على تحديد الإرهاب وذلك لأنّ الوضع السياسي يتفوق لغاية الآن على الوضع القانوني. وهويعطي مثلين: الأول عن تنظيم

القاعدة الذي اعتبر في مرحلة معينة بأنّه تنظيم جهادي لوقوفه بوجه الاتحاد السوفياتي، وهو الآن عنوان للإرهاب العالمي لوقوفه بوجه الإرهاب الإسرائيلي الأميركي. والثاني اعتبار كفاح الشعب الفلسطيني من أجل استرجاع جزء من أرضه، ومقاومة حزب الله للاحتلال الإسرائيلي لجزء من الأرض اللبنانية، في خانة الأعمال الإرهابية في الوقت الذي يُعتبر عملهما بالنسبة لقرارات أخرى للأمم المتحدة حقاً مكتسباً يندرج في خانة نضال الشعوب من أجل التحرير من الاحتلال.

هذه المفارقة جعلت كوفي أنان، الأمين العام السابق للأمم المتحدة وفي ختام أعمال اجتماعها الدوري الستين، وعلى أثر صدور قرار مجلس الأمن ذي الصلة رقم 1566، إلى حث الدول على وضع خلافاتها جانباً لتبني تعريف مجلس الأمن للإرهاب قائلاً: حان الوقت لوضع الجدل حول مضمون الإرهاب جانباً، معتبراً أنّ استعمال الدول للقوة محكوم بالقوانين الدولية، وحق الكفاح ضد الاحتلال يجب أن يُفهم بمعناه الحقيقي. ودعا قادة العالم للاتفاق على تعريف الإرهاب قبل نهاية الاجتماع. لكنّ هذا لم يتم، ولن يتم، وسوف يبقى قرار مجلس الأمن مفتقراً إلى الجدية لأنّه ليس نابعاً من إجماع دولي.

ولم تقف ازدواجية المواقف عند هذا الحد بل وقعت في التناقض الفاضح خاصة بعد إقدام أحد المواطنين النروجيين على قتل تسعين يافعاً، حيث تمهل الإعلام بإلصاق التهمة بالعرب أو المسلمين بالرغم من أنّ البعض سرّب أخباراً كاذبة حول هذا الشأن مستبقاً التحقيق. وكانت المفارقة الكبرى، إذ ما أن أُعلن أنّ مرتكب الجريمة المروّعة هو مسيحي متطرف حتى تسابقت الوسائل الإعلامية إلى التخفيف من قيمة هذه الجريمة معتبرة مرتكبها مجرد مطلق نار (رويترز)، وجارتها بذلك كلّ من الـ BBC و CNN والجزيرة. أما حماة الحرية في البيت الأبيض الأميركي فوصفوها بأنّها عمل عنفي لا غير. وهذا ما دعا الإعلام المعاكس إلى التساؤل عن ماذا يمكن أن يكون التوصيف لو كان الفاعل عربياً أو مسلماً؟ وعليك أخي القارئ أن تتوصل إلى الإستنتاج بنفسك.

ولا بد من أن نشير أيضاً إلى عشرات الحوادث التي تحصل في المدارس، سواء في الولايات المتحدة أو في أوروبا، حيث يُقدم أحد الأشخاص على اقتحام المدارس أو دور السينما أو المتاجر الضخمة، ويفتح النار على الناس فيسقط عشرات القتلى والجرحى، حتى إذا ما تم تحديد هوية الفاعل وكان أميركياً أو أوروبياً غير مسلم، قيل مباشرة إنّ به خللاً عقلياً دفعه إلى ارتكاب جريمته، أمّا إذا كان مسلماً فيصبح حكماً إرهابياً يهدد السلام العالمي. وتأتي تحليلات الإعلام الصهيوني لتربط العمل بالدين الإسلامي كحاضن ومشجّع للإرهاب، متغافلين عن الوصايا الإرهابية الحقيقية التي لا تخلو منها صفحة من كتاب التوراة.

لقد أثبتت في الفصول السابقة العديد من النصوص التوراتية التي تنضح بإرهاب الإله يهوه وكلّ الأنبياء والملوك الذين ساروا حسب هدي وصاياه وشريعته. فهل شذّ القادة الصهاينة الجدد عن هذا الخط، أم أنّهم كانوا، وما زالوا، التلاميذ الأوفياء لهذه الشريعة؟ نقرأ من سفر يشوع: «وأخذ يشوع مقيدة في ذلك اليوم وضربها بحدّ السيف وحرّم ملكها هو وكلّ نفس بها. لم يُبقِ شارداً» (10: 28). «فضرب يشوع كلّ أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكلّ ملوكها. لم يُبقِ شارداً بل حرّم كلّ نسمة كما أمر الربّ إله إسرائيل» 10: 40). «وضربوا كلّ نفس بها (حاصور) بحدّ السيف.

حرّموهم. ولم يبقَ نسمة... وأمّا الرجال فضربوهم جميعاً بحدّ السيف حتى أبادوهم. لم يبقوا نسمة» (11: 11 – 14).

وفي 9 – 4 – 1948 ذبح مناحيم بيغن (رئيس وزراء إسرائيل سابقاً) 254 شخصاً من سكان قرية دير ياسين رجالاً ونساءً وأطفالاً. في هذا المجال يقول إيلان هاليفي: «إنّنا لا نستطيع مقارنة مذبحة دير ياسين، حيث الأنصار الصهاينة للأرغون بقيادة بيغن قد أعدموا رمياً بالرصاص سكان قرية عربية، بمذبحة أوشويتز التي ارتكبها النازيون ضد المعتقلين»(559). ويشير الكاتب إلى الفارق بالطبع حيث أنّ الألمان بعد مجزرة أورادور قالوا لقد وقع التباس بين القرية وقرية أخرى، «بينما الذين ارتكبوا مذبحة دير ياسين يتبجحون بأنّهم بزرعهم الرعب بين العرب قد سبّبوا فرار أكثر من ألف عربي من منطقة القدس»(560). وكان بن غوريون، أول رئيس وزراء لإسرائيل، قد أعلن في أحد اجتماعاته للهستدروت عام 1937 بأنّ «حكمة إسرائيل الآن ليست في الخلاص بل في الحرب. وإسرائيل لا يمكن أن تعيش إلاّ بقوة السلاح. إنّ قوة السلاح، وليس القرارات الرسمية هي التي ستحسم القضية، لأنّ العرب لن يفهموا إلاّ لغة القوة، وإنّ التباحث معهم لا يُجدي»(561). وبيغن ذاته، بطل مجزرة دير ياسين قال: «لقد قامت دولة إسرائيل بالدم والنار وبالإكراه والتضحيات، ولم تكن لتقوم بغير ذلك، ولكنّنا لم ننتهِ بعد، يجب أن نحارب وأن نكمل قتالنا»(562).

صحيح تماماً ما قاله الإرهابيان الإسرائيليان، ليس لجهة أنّ العرب لا يفهمون إلاّ لغة القوة، بل لجهة أنّ إسرائيل لا يمكن أن تستمر إلاّ بالدم والنار والقوة لسببين اثنين: الأول هو أنّ وصايا إله إسرائيل يهوه وشريعته قامت على الدم والنار والقوة، والثاني هو أنّ إسرائيل الحديثة زُرعت في فلسطين، كما إسرائيل القديمة المزعومة، رغماً عن إرادة شعب فلسطين، وبطريقة أقل ما يُقال فيها بأنّها قمّة الإرهاب المنظّم والذي انتقل من إرهاب العصابات إلى إرهاب الدولة. والدليل الذي يكذّب ادعاء بن غوريون هو أنّ اليهود لم يعرفوا السلام إلاّ بين المسلمين العرب، والتاريخ يشهد أنّ عصرهم الذهبي كان في الأندلس أيام العرب. ولقد لقي اليهود من الاضطهاد على يد المسيحيين ما لا يمكن مقارنته بالمعاملة الحسنى التي كانت لهم من العرب باعتبارهم أهل كتاب، وأيّ كتاب!!! ومن قرأ تاريخ اليهود في أوروبا لوجد أنّ المجازر التي ارتُكبت بحقهم خير دليل على كره الأوروبيين لهم، وهذا الكره وإنْ كان مبرراً نتيجة نفسية اليهود المتعالية العنصرية المستغلة، فإنّ القتل غير مبرّر لأيّ سبب من الأسباب.

يقول دايفيد ج. روتكوبف: «حينما تم التأكيد بأنّ اليهود سمّموا الآبار في غويانا بفرنسا، تم إحراق خمسة آلاف يهودي وهم أحياء. وفي وقت لاحق من ذاك القرن (الرابع عشر)، حينما كان عدد اليهود الذين ماتوا بسبب مرض الطاعون أقل من عدد المسيحيين، ألقي اللوم على اليهود في ذلك، فتم إحراق عشرات الآلاف منهم»(563). ويخبرنا أمين معلوف عن مصير يهود القدس عندما دخلها الصليبيون وكيف أضرموا النار بالكنيس الرئيس فيها عندما لجأوا إليه ظنًّا منهم أنّهم سيكونون في مأمن، حيث «أجهز على الذين حاولوا الخروج إلى الأزقة المجاورة واحترق الباقون أحياء»(564). وهذا ما حمل اليهود على الانتقام من الأمم الأوروبية، فكانوا وراء الثورات التي اندلعت في كلّ من بريطانيا، إسبانيا، فرنسا وروسيا، فاستغلّوها تحت شعارات برّاقة لارتكاب المجازر بحق الآمنين، وبحق كلّ من يواجه مخططاتهم الشرّيرة. وللاطلاع على دورهم في هذه الثورات يمكن مراجعة

كتاب (أحجار على رقعة الشطرنج) لوليم غاي كار، وكتاب (حكومة العالم الخفية) لشيريب سبيريدوفيتش.

إذن يمكننا القول بأنّ إرهاب بني إسرائيل لم يتوقف حتى إبّان ضعفهم حيث كانوا يلجأون إلى المؤامرات والاغتيالات كسلّم لبلوغ أهدافهم. وتقتضي الإشارة إلى أمثلة من الأعمال الإرهابية والتي ارتكبها اليهود مباشرة أو بواسطة منظماتهم الواسعة الانتشار كالماسونية، هذه المنظمة أو الجمعية التي دار حولها، ولا يزال يدور، الجدال ما بين مؤمن بأنّها إن لم تكن من اختراع اليهود فإنّهم يقومون باستغلالها لمصلحتهم، ومؤمن بأنّها من صنعهم وأوجدوها لخدمة مصالحهم، وفريق ينكر علاقة اليهود بها ويحاول إعطاءها بُعداً إنسانياً، وهو برأيي إمّا مُضلَّل أو جاهل.

يقول شيريب سبيريدوفيتش: «احتُفل في فلسطين المحتلة بوضع الحجر الأساس لأكبر محفل ماسوني في العالم، وقد تحدّث في هذه المناسبة الحاخام الإسرائيلي فقال بالحرف الواحد: أيّها الأخوة الماسون من كلّ بلاد العالم، نحتفل اليوم بوضع حجر الأساس لأكبر محفل ماسوني في العالم، وسيضيء الطريق أمام الماسونية لتحقيق أهدافها. إنّنا جميعاً نعمل من أجل هدف واحد، هو العودة بكلّ الشعوب إلى أول دين محترم أنزله الله على هذه الأرض، وما عدا ذلك فهي أديان باطلة. أديان أوجدت الفرقة بين أهل البلد الواحد وبين أيّ شعب وآخر... ونتيجة لمجهوداتكم سيأتي يوم يتحطم فيه الدين المسيحي والدين الإسلامي ويتخلص المسلمون والمسيحيون من معتقداتهم الباطلة المتعفّنة، ويصل جميع البشر إلى نور الحق والحقيقة»(565). ليت ماسونيي العالم العربي يدركون في أيّ مخطط هم ضالعون.

ويشير الكاتب لوسيان كافرو دومارس إلى دور الماسونية الإرهابي: «وبما أنّني أردت أن أثبت حضوري كفرنسي في المعركة التي كانت تخوضها الصحافة اللبنانية ضد الصهيونية، فقد قمت بدراسة تحليلية للمشاكل الراهنة المرتبطة بالحركة الصهيونية. فاكتشفت قصص تقرير لبسيوس (1917) وأعمال بول دوفييو 1936 – 1954، حول الأصل الماسوني للإبادات التي تعرّض لها مسيحيو الشرق: ومنهم البلغار، والأرمن، واليونانيون واللبنانيون، والآشوريون الكلدان وكلّها ارتكبت بإيعاز من «محفل سالونيك» التابع لمحافل «الشرق الكبير» في فترة الصهيونية السرية»(566). ثم يضيف قائلاً: «أخبرنا الأرمن اللاجئون من قليقيا عن الإبادة الجماعية المريعة للشعب المسيحي التي دفعت الماسونية بالأتراك لارتكابها بين عامي 1915 و 1920»(567).

ويشير شيريب سبيريدوفيتش إلى أنّ مصطفى كمال الذي قاد تركيا إلى الحداثة مطلع القرن العشرين هو يهودي مغولي، وكثيرون أشاروا إلى دور اليهود بإزاحة السلطان عبد الحميد لأنّه رفض السماح لهم بتأسيس وطن قومي في فلسطين، فأطلقوا حوله الشائعات لتشويه سمعته، كما فعلوا بقياصرة روسيا وملوك فرنسا، خاصة لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت، لكي يبرّروا المجازر التي ارتكبوها بحقهم. هذا لا يعني أنّنا نعطي شهادة حسن سلوك لهؤلاء القياصرة والملوك الذين كانوا يستغلّون شعوبهم، بالرغم من محاولات البعض لنفي هذه التهمة التاريخية عنهم. ويقول وليم غاي كار: «ولقد برهن المؤرخون أنّ الروايات المروية عن ماري أنطوانيت ليست إلاّ أكاذيب وتلفيقات»(568).

لقد استغل اليهود بواسطة الماسونية معظم قادة العالم الأوروبي، وتخلصوا منهم عندما شعروا بميل لدى هؤلاء القادة للتخلص من الضغوط التي مارسها الماسونيون بحقهم. فمن لويس السادس عشر والملكة ماري أنطوانيت، إلى روبسبيير وميرابو ودانتون وصولاً إلى نابوليون بونابرت في فرنسا. ويقول سبيريدوفيتش: «ومن اعترافات كاغليو سترو اليهودي قوله: الضربات الأولى ضدّ العروش الملكية يجب أن توجّه إلى فرنسا، وبعد ذلك إلى روما البابوية»(569). ثم يضيف: «إنّ عدداً كبيراً من الماسونيين اعترف صراحة بأنّ الثورة الفرنسية وغيرها من الثورات نظمت برعايتهم وتحت إمرتهم. وأعلن سيكار دوبلوزول في مؤتمر 1913: تستطيع الماسونية أن تفتخر بأنّ الثورة من فعلها هي»(570). كما يشير الكاتب إلى أيادي اليهود الماسون بمقتل القياصرة بولس، إسكندر الأول، نقولا الأول، إسكندر الثاني، إضافة إلى اغتيال آخر ستة قياصرة من آل رومانوف. ولم يستثنِ اليهود الولايات المتحدة من مخططاتهم فاستولوا بواسطة عائلة روتشيلد على الاقتصاد الأميركي. وهذا المخطط تنبه له أكثر من رئيس أميركي، مما دفع ببنجامين فرانكلين للقول: «إنّكم إنْ لم تبعدوا اليهود نهائياً فلسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم في قبوركم».

وكثر اليوم باتوا يتكلمون عن دور اليهود باغتيال الرؤساء الأميركيين من لينكولن وغارفيلد ومكينلي، مروراً بويلسون وهاردينغ، وصولاً إلى كينيدي. يقول لوسيان كافرو دومارس: «إن الإشاعات الصحفية حول اشتراك الصهيونية في مؤامرة اغتياله عام 1963، تأكّدت بأفعال وأقوال الصهيوني روبي روبنشتاين الذي مات في السجن من مرض السرطان (؟) بعد أن أسكت الشاهد أوزوالد بصفته قاتلاً محترفاً استخدم لمحو الآثار، كما تأكدت هذه الإشاعات من خلال سخاء الملياردير الصهيوني والتر أنبيرغ، سفير الولايات المتحدة في لندن والذي عوّض بالمال على أرملة الشرطي تيبيه الذي قضى أثناء عملية الشرطة المتواطئة، كما من خلال اختفاء الشهود الواحد تلو الآخر»(571). وأشار إلى هذه الواقعة أيضاً الدكتور رفيق الحسيني، والتي كان الدافع إليها الخلاف الذي نشب بين كينيدي وبن غوريون على خلفية عدم السماح لمفتشي وكالة الطاقة النووية بتفقد المنشآت النووية الإسرائيلية، فجاء الاغتيال ليُنهي دور رئيس أميركي معتدل وغير خاضع كلّيا لنفوذ اللوبي اليهودي الصهيوني(572). هذه أمثلة عن الإرهاب الذي مارسه اليهود انطلاقاً من تعاليمهم الدينية وليس لأيّ سبب آخر.

إنّ التركيز على فكرة اضطهاد اليهود كمحفّز أول لقيامهم بالأعمال الإرهابية هو ذرّ للرماد في العيون. إنّ ما مارسوه من إرهاب خلال عصور، وفي كلّ مكان كان لهم فيه تواجد، كان مبعثه الروح العدائية العنصرية المتعالية التي ربّاهم عليها إلههم يهوه. وهذا لا يدفعني إلى إنكار الاضطهاد والمجازر التي حلّت بهم، والتي كانت نتيجة طبيعية، ولكن غير مبرّرة برأيي، لمؤامراتهم الدنيئة وأفعالهم الشنيعة التي كانت سِمة واضحة تدمغهم أينما وجدوا. فلو كانت ديانتهم تدعو إلى المحبة والتسامح والغفران، القِيَم التي دعت إليها المسيحية، فهل كنّا نعيش اليوم كابوس الإرهاب الإسرائيلي المسلّط، ليس فقط على رقاب الفلسطينيين، بل وعلى كلّ الدول المحيطة بإسرائيل، وأيّة دولة في العالم ترى إسرائيل أنّ سياستها معادية لها؟

وإذا كان الإرهاب الإسرائيلي لم يعد خافياً على أحد، بالرغم من محاولات التكتم وكمّ الأفواه، فإنّ ضغوط اللوبي الصهيوني العالمي لم تعد تنفع لصرف الأنظار عن إرهاب إسرائيل في فلسطين

المحتلة والدول المجاورة. هذا الإرهاب المستمر، منذ أن أسس هرتزل المنظمة الصهيونية الحديثة عام 1897، لن يتوقف طالما أنّ اليهود المتطرفين ينطلقون من حقهم التوراتي بأرض إسرائيل الكبرى التي وعدهم بها إلههم. يذكر الكاتبان فيليب سيمون ورفائيل ميرجي ما يلي: «ترى حركة كاخ أنّ الحدود الطبيعية لدولة (إسرائيل) هي من النيل إلى الفرات، وهذا يتطلب أن تقوم إسرائيل باحتلال أجزاء واسعة من سورية ولبنان ومصر والعراق من أجل إكمال الحدود الطبيعية (لدولة إسرائيل الكبرى)»(573).

«حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل» شعار مرفوع فوق باب الكنيست في إسرائيل وهو مأخوذ من سفر التكوين حيث كان الوعد الأول الذي قطعه الربّ يهوه لأبرام قائلاً: «لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» (تكوين 15: 18)، حيث تكرر هذا الوعد في أكثر من سفر وإصحاح ونُسب زوراً إلى الله، وهو لا يعدو كونه من مخيّلة محرّر التوراة الذي اختلق هذا الإله وأطلق الوعد على لسانه. وكما كانت نتيجة هذا الوعد في الماضي كارثية، حسب الرواية التوراتية، على بلاد كنعان، كذلك كانت على فلسطين كنعان حديثاً حيث أقدم الصهاينة على تدمير ما لا يقلّ عن 340 قرية وقتل وتهجير أهلها وإقامة مستوطناتهم على أراضي الفلسطينيين المهجّرين، حيث ما زال الإعلام يطالعنا حتى اليوم بأحداث جرف المنازل وإقامة المستوطنات لاستيعاب المزيد من يهود العالم الذين لا تربطهم بفلسطين الأرض والسكان المحتلين إلاّ العلاقة الدينية.

لقد حاول القادة الصهاينة، في بداية رحلتهم الهادفة إلى الإستيلاء على فلسطين، إقناع القادة الأوروبيين آنذاك بأنّ فلسطين أرض خالية من السكان ورفعوا شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، وسواء أأظهر القادة اقتناعاً بهذه النظرية أم جاروا الصهاينة فيها تحقيقاً للمصالح المشتركة، فإنّ هذه النظرية سقطت اليوم السقوط المريع حيث تجرأ الكثيرون على إنكارها ورفضها خاصة وأنّ القادة الصهاينة ناقضوا أنفسهم حولها.

يقول الأب مايكل برير: «كتب يوسف فايتس، وهو الشخصية المحركة للجنة ترحيل (ترانسفير) السكان ومدير دائرة الأراضي التابعة للصندوق القومي اليهودي، في مفكرته بتاريخ 20 كانون أول/ ديسمبر (1940) بثماني سنوات: يجب أن يكون واضحاً فيما بيننا أن لا مكان في هذا البلد لشعبين... الحل الوحيد هو أرض إسرائيل دون عرب»(574). أليس هذا اعترافاً قاطعاً بوجود سكان في فلسطين قبل قيام إسرائيل بثماني سنوات؟ ثم إذا كانت فلسطين أرضاً خالية من السكان فعلى من كان الإنتداب البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى؟ ويذكر إحسان أديب مرتضى في كتابه (الإرهاب الصهيوني) أنّ الصهاينة قاموا بتدمير 450 قرية عربية خلال عامي 1948 و 1949، حيث ارتكبت العصابات الصهيونية أبشع المجازر في قرى قبية وكفرقاسم وخان يونس وأبو شوشه. فإذا كانت الأرض خالية فمن أين أتت مئات القرى التي هدمتها العصابات اليهودية، وإذا كانت قرى غير مأهولة فمن أين أتت أعداد القتلى وأعداد المهجّرين من منازلهم؟ وإذا كانت فلسطين أرضهم بالفعل، فلماذا قال موشي دايان عام 1970: «لقد اغتصبنا بلداً عربياً وجعلنا منه بلداً يهودياً»(575) وما الذي دفع بأبراهام بورغ إلى القول متهكماً: «محونا بجرّافات كبيرة الباحة أمام حائط المبكى، ودمّرنا بيوت سكان حي المغاربة الذين طُردوا بليلة واحدة من بيوتهم إجلالاً لقداستنا المتجددة»(576).

كتب الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر ما يلي: «قدّرت الأمم المتحدة أنّ نحو 710 آلاف عربي غادروا طوعاً أو طُردوا من إسرائيل، وقد منعتهم القوات المسلحة من العودة وسوّت بالأرض أكثر من خمسمئة من القرى التي ورثوها عن أجدادهم»(577). وحول ضم الأراضي وطرد الفلسطينيين من أملاكهم يقول روجيه غارودي: «استطاعوا (الصهاينة) عام 1949 أن يستولوا على 80 بالمئة من الأراضي وطردوا 770 ألف فلسطيني»(578). وعن عملية استمرار الطرد والتطهير العرقي نقل نعوم تشومسكي عن صحافي أمريكي كتب لصحيفة هآرتس الإسرائيلية عن خطط بيغن وشارون «لطرد أكبر عدد من العرب من الضفة الغربية وخاصة الزعماء ومن يمتلكون صفات الزعامة بكلّ الطرق غير الشرعية... كيف؟ إنّكم تدفعون الإرهابيين إلى وضع القنابل في سيارات العُمد الفلسطينية المنتخبين وتقومون بتسليح المستوطنين اليهود وقلّة من العرب الحالمين بالسلطة لإثارة القلاقل في القرى العربية. إنّ المستوطنين قتلوا عدداً من الفلسطينيين، ورغم أنّ البوليس كان يعرف القتلة، إلاّ أنّه لم يتحرك لأنّ لديه أوامر... فما هو عذركم في عدم تناول هذه الانتهاكات للقانون الإسرائيلي والأخلاق اليهودية».

ونحن وإن كنّا نوافق الصحافي على ما كشفه من الإرهاب الإسرائيلي، فإنّنا نخالفه الرأي حول اقتناعه بعدالة القانون الإسرائيلي وبرفعة الأخلاق اليهودية. فالقانون الإسرائيلي وجد لحماية الإسرائيليين وليس الفلسطينيين، وإن كان لا يعلم شيئاً عن الأخلاق اليهودية، إلاّ ما ينشره الإعلام المتصهين، فما عليه إلاّ العودة إلى نصوص التوراة فهي خير وثيقة على إسفاف أخلاقهم، وإلى العديد من أقوال كبار المفكرين الذين اختبروا هذه الأخلاق عن قرب.

وكأمثلة فقط نقرأ ما كتبه أوليفر كرومويل (1599 – 1658): «للأسف فإنّني أرى أنّ ثمرة الحرب الأهلية قد استفاد منها أساساً العبرانيون، هؤلاء مصاصو الدماء غير الشرفاء حوّلوا الدم الإنكليزي إلى سبائك من ذهب وعملات رنانة وحصلوا على مكاسب ضخمة من خزينة الملك»(579). وما كتبه يوسف فلافيسي وهو مؤرخ لليهودية: «ولهذا أصبحوا مضرب الأمثال عند جميع الشعوب في الخسّة والمراوغة والنفاق فإذا لوحظ الاحتيال من أحد قالوا «هذا يهودي»، أي تصرفاته تصرفات يهودي وإذا شاهدوا مرابياً نعتوه باليهودي»(580).

لن أعدد كلّ المجازر التي ارتكبها الصهاينة في فلسطين المحتلة فهي مثبتة في أكثر من كتاب (على سبيل المثال لا الحصر كتاب «أشعب الله المختار أم لصوص وقتلة أشرار» للكاتب عبد المنعم الحسكير)، وأصبحت بمتناول الجميع، ولكن يجب التذكير بالإرهاب الإسرائيلي الذي صبّ جام غضبه على مدرسة بحر البقر في مصر حيث سقط 64 طفلاً ضحية هذا الإرهاب، ولا يمكن أن ننسى قيام الطائرات الإسرائيلية بالإغارة على منطقة أبو زعبل الصناعية المصرية، وقيامها عام 1972 بالاعتداء على سبع قرى سورية، وإسقاطها عام 1973 طائرة ليبية وقتل كلّ من فيها دون أن يرفّ لدول العالم جفن، أما ليبيا فكان عليها دفع ثمن باهظ لإسقاطها طائرة فوق لوكوربي، هذا العمل الذي لا يمكن لإنسان أن يُنكر وحشيته، ولكن لماذا تبرّر الإنسانية وحشية الصهاينة؟ وإن نسينا فكيف ننسى اجتياح لبنان عام 1982 وارتكاب القوات الإسرائيلية المحاصرة لبيروت مجزرة صبرا وشاتيلا التي ذهب ضحيتها أكثر من ألفي شهيد من أطفال ونساء ورجال وشيوخ، ولن أدخل بتفاصيل من نفذها.

لقد قامت الطائرات الإسرائيلية بتدمير المفاعل العراقي النووي السلمي عام 1981، وما من أحد يجرؤ على الكلام عن مفاعلَيْها النوويَّيْن العسكريين، اللذين اعترف شمعون بيريز، رئيس دولة إسرائيل، بوجودهما حيث قال: «كما أتاح البحث العلمي الرفيع المستوى بتزويدنا بمفاعلين نوويين، أحدهما صغير والآخر أكبر»(581).

ويشير لوسيان كافرو دومارس إلى نشاط اليهود بتصنيع القنبلة الذرية في الولايات المتحدة ونقل أسرارها إلى الاتحاد السوفياتي، وبعده بالطبع إلى إسرائيل بعد قيامها(582). ويقول السناتور بول فندلي: «كانت إسرائيل قد قطعت شوطاً كبيراً في إنتاج أسلحة نووية قبل الإعلان عن معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية في عام 1968. ولم تكن أي دولة عربية قد أوشكت على تطوير جهاز نووي في ذلك الوقت أو منذ ذلك الوقت. ومع هذا، فإن إسرائيل قاومت كلّ المحاولات الدولية والأميركية لتوقيع المعاهدة أو السماح بفتح منشآتها النووية للتفتيش الدولي. والسبب واضح: فإسرائيل حسب تقارير السي آي إي كانت قد حصلت منذ عام 1968 على الأسلحة النووية»(583).

أمّا (إيباك – اللجنة الأميركية الإسرائيلية للشؤون العامة) فقد أعلنت «أنّ قرار إسرائيل بعدم الالتزام بمعاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية مبني إلى حد كبير على أساس أنّ المعاهدة لم يكن لها إلاّ تأثير ضئيل على منع انتشار الأسلحة النووية في المنطقة». وفي العشرين من شهر أيلول/سبتمبر 2012 تناقلت وسائل الإعلام خبراً مفاده أنّ إسرائيل رفضت حضور اجتماع للنظر بمسألة الحدّ من انتشار السلاح النووي في الشرق الأوسط. فأين العالم الحرّ لا يعاقب إسرائيل على مواقفها، بل أين وكالة الطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة من هذا القرار الذي يُعتبر أشدّ صفاقة من ضغوط إسرائيل على المجتمع الدولي لمنع إيران من امتلاك السلاح النووي، الأمر الذي لا يزال بالوناً إسرائيلياً لا يدلّ سوى على إرهابهم. إنّ هذا الادّعاء ينكره الواقع المعروف لدى القاصي والداني بأنّ دول منطقة الشرق الأوسط عامة، والدول العربية خاصة، لا تملك أسلحة نووية.

أمّا تدمير المفاعل النووي العراقي، والذي أتى بعد ثلاثة عشر عاماً على الاتفاقية، فلم يكن سوى تدبير وقائي من قِبَل إسرائيل لكي لا يخطر ببال المسؤولين العراقيين السعي لامتلاك القنبلة النووية. وما الحملة المسعورة التي بدأت منذ سنتين، ولا تزال مستمرة، على إيران ونشاطها النووي، والتي تقودها إسرائيل محرضة الولايات المتحدة والدول الأوروبية ضدّ إيران، إلاّ محاولة لفرض أحادية القوة النووية في منطقة الشرق الأوسط لضمان تفوّق إسرائيل العسكري. ولا يمكننا هنا إلاّ أن نتساءل: هل كان موقف إسرائيل من نشاط إيران النووي ليكون هو ذاته لو كانت إيران الشاه المؤيدة لإسرائيل وأميركا هي القائمة بدل إيران الخميني وأحمدي نجاد المعادية لإسرائيل؟ إنّ استمرار إيران ببرنامجها النووي جعل اللوبي الصهيوني يوظّف كلّ طاقاته عبر عملائه الإعلاميين والمفكرين ومستشاري الإدارة الأميركية لربط إيران بمحور الشرّ الذي قام الرئيس بوش بتحديده على أساس كلّ من ليس معنا فهو مع الإرهاب.

لقد كتب Stephen Sheehi في مؤلّفه «إسلاموفوبيا» Islamophobia أنّ «منظّري السياسة الخارجية الأميركية مثل Bernard Lewis يشدّدون دائماً على خطر الإسلام حيث يقول لويس في إحدى خطبه: (إنّ على الولايات المتحدة مسؤولية مواجهة أحمدي نجاد وبرنامجه النووي قبل أن يقرع الإسلام أبواب فيينا مجدداً). وهذا يعني ضرورة استمرار محاربة الولايات المتحدة للتطرف

الإسلامي أينما وجد وبالقوة إذا اقتضى الأمر»(584). بعد هذا الحقن الطائفي ضد الإسلام عبر وصمه بالإرهاب بشكل عام، أنعجب من رد فعل بعض المسلمين إن اتهموا الغرب بالتحضير لحرب صليبية جديدة؟ ألا يعني هذا أنّ الصهاينة هم من يدفع باتجاه حرب عالمية ثالثة كما يؤكد لنا كلّ مِنْ وليم غاي كار وشيريب سبيريدوفيتش؟

إنّ المزاوجة التي يقوم بها الإعلام الصهيوني بين الإرهاب والعرب خاصة والإسلام عامة، تنمّ عن فكر شرّير تعود جذوره إلى تعاليم يهوه الإرهابية العنصرية التي جعلت من بني إسرائيل وحدهم شعباً لله ومن الشعوب الأخرى حيوانات يجب أن تُسخّر لخدمتهم. وهذه المزاوجة كان القصد منها صرف نظر المؤمنين في العالم عن التعاليم الإرهابية التوراتية، ولصق صفة الإرهاب بالإسلام، مما أثّر سلباً على الرأي العام الأميركي تحديداً دون أن ننسى الأوروبي أيضاً، وكان من نتيجتها قيام أحد الكهنة المسيحيين المتصهينين على إحراق القرآن الكريم انطلاقاً من الدعاية الصهيونية التي صورته كتاباً داعماً للإرهاب. ونحن وإن كنا حكماً ضد أي عمل إرهابي من أيّة جهة أتى، وعلى الرغم من قناعتنا بضرورة التمييز بين الإرهاب والكفاح ضد التخلص من الاحتلال، فلا يمكننا القبول بأمرين: الأول قيام بعض مدّعي محاربة الإرهاب الأميركي الإسرائيلي بأعمال إرهابية غير مبررة ضد المدنية وباسم الإسلام. والثاني استغلال أميركا وإسرائيل لهذه الأعمال للتعميم والقول بأنّ كلّ المسلمين إرهابيون.

إنّ مقارنة بسيطة بين دعوات يهوه إلى قتل وإبادة وطرد الشعوب، وبين الآيات القرآنية التي طلبت من المؤمنين الجهاد في سبيل الله ومقاتلة المشركين تظهر الفرق الواضح بين الدافعين. فالأول يعتمد على وعد إلهي وهمي جائر متوسلاً القتل وسيلة لتحقيقه، والثاني يعتمد القتال، كما درجت عادة الناس تلك الأيام، ضد المشركين الذين يبادرون من أقبلوا على الدعوة المحمدية إلى القتال، حيث يصبح الدفاع عن النفس حقاً مشروعاً، هذا القتال الذي يجب أن يبقى ضمن ضوابط محددة وهي التوصل إلى إجبار الوثنيين على عبادة الله الواحد وثنيهم عن مقاتلة المؤمنين إضافة إلى تجنّب قتال أصحاب الكتاب إن هم التزموا السلم ودفع الجزية. (قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) سورة التوبة/الآية 29. (فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) سورة التوبة/الآية 5. (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) سورة الأنفال/الآية 61. (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) سورة النساء/الآية 93. فهذه الآية الأخيرة أشارت بوضوح إلى عدم قتل المؤمن أيًّا كان، دون تحديد لدينه، فالقتال في سبيل الله إذن قد وضع أوزاره مع انتهاء عهد الوثنية وانتشار عبادة الله الواحد في كلّ مكان على سطح كوكبنا، وبالتالي لا مجال للاجتهاد أنّ الأعمال الإرهابية التي ترتكب اليوم هي في سبيل الله ومن يرتكبها قد حجز له مكاناً في الجنة، بل هو يستحق غضب الله. والقتال الذي يدور هذه الأيام لا علاقة له بالأديان وبالله، حتى لو أراد أتباع الديانات تصويره على أنّه جهاد في سبيل الله.

ونحن نوافق فريد زكريا، المسلم الهندي وأحد منظري السياسة الخارجية الأميركية في عهد بوش الإبن الذي تساءل بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر قائلاً: «لماذا يكرهوننا؟ (إشارة إلى العرب بشكل خاص والإسلام بشكل عام) إنّ المتطرفين في العالم الإسلامي يكرهون أميركا وسيستمرون بكرهها. يكرهون سياستنا، قِيَمنا، حريتنا وطريقة حياتنا. وفيما هذه الكراهية تعبر عن نفسها من خلال الإرهاب العنيف هناك جواب واحد: علينا إيصال حقيقة قِيَمنا وسياستنا للناس في الشرق الأوسط. الحرية يجب أن تكون الخيار الدائم، التقدم المستمر والإصلاح الاجتماعي يجب أن يأتي من الداخل»(585). نوافقه على تساؤله فقط، ولا نوافقه على جوابه. فكره المتطرفين العرب والمسلمين لأميركا ناتج بالفعل، وفقط، عن سياستها الداعمة بشكل مطلق لإسرائيل من جهة وللأنظمة العربية الرجعية من جهة ثانية. ونسأل هذا الهندي المسلم المتصهين عن القِيَم التي يتحدث عنها وعن الحرية التي يحاول أن يعلّمنا إياها؟

أما عن طريقة الحياة فما من أحد يجادلهم فيها، ولكن من حقنا أن نجادلهم في القِيَم وأين تجسّدت؟ أفي فيتنام أم في العراق أم في دول أميركا الجنوبية؟ لقد وصلت حقيقة قِيَمهم إلى الشرق الأوسط بوضوح، وهي نسخة طبق الأصل عن قِيَم يهوه التوراتية التي لا تدعو إلاّ للقتل والتخريب والتدمير والسيطرة على الشعوب ونهب خيراتها. ثمة كلمة واحدة نوافقه عليها، وقد ناقض نفسه وسياسة أسياده لها، وهي قوله إنّ الإصلاح الاجتماعي يجب أن يأتي من الداخل، فهلاّ أبعدت الولايات المتحدة أنفها عن مطابخ الدول الضعيفة وتركتها تطور فن الطبخ لديها بنفسها؟ هلاّ يستطيع هذا المنظّر أن يُقنع الولايات المتحدة مثلاً أن تتخلى عن منظومتها النووية وأن تحترم حقوق الإنسان في العالم، أو على الأقل توقّع معاهدة الحد من انتشار هذه الأسلحة التي وقفت هي وإسرائيل بوجهها، إفساحاً في المجال أمام إسرائيل لتطوير ترسانتها النووية؟

السلاح النووي تهديد خطير للإنسانية، وهذا الخطر كابوس سواء أكان هذا السلاح بيد الولايات المتحدة وإسرائيل وبعض الدول الأوروبية الغربية، أم كان بيد روسيا والهند وباكستان والصين وحتى إيران أو العراق. يقول ربيع داغر: «ومن خلال صور التقطتها الأقمار الصناعية، تبيّن وجود 7 مواقع ذريّة في الكيان الإسرائيلي»(586)، فإذا كانت هذه المواقع قد أنشئت لأغراض سلمية كما تدّعي إسرائيل، فلماذا تمنع مفتّشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية من التفتيش وتصرّ وتدفع مسؤولي هذه الوكالة للتفتيش فقط في إيران؟ ولماذا عندما أعلنت هذه الوكالة عدم وجود أسلحة دمار شامل في العراق، أبت الولايات المتحدة مدفوعة بالضغوط التي مارستها إسرائيل مباشرة بواسطة الموظفين اليهود في البيت الأبيض وحكومة إسرائيل على حد سواء، إلاّ أن تقود حرباً لتدمير العراق بحجة إنقاذه من براثن الدكتاتور صدّام حسين وجعله ينعم بالديمقراطية، فكانت النتيجة مئات آلاف القتلى، وإرهاباً لا يزال يضرب كلّ يوم، وتقسيماً للعراق بدأت ملامحه تتضح لاستكمال مفاعيل سايكس بيكو التقسيمية التي لم تُشبع نهم الصهاينة. وقد أكد وزير الخزانة الأميركي السابق بول أونيل، خلال حديث مع مجلة التايم أنّه لم يرَ «أبداً في التقارير الاستخباراتية ما يمكن أن أصفه بأنّه دليل حقيقي... لقد تضمنت تلك التقارير تأكيدات ومزاعم عبّر عنها أشخاص، لكنّي لست غبياً، فأنا أعرف الفارق بين دليل ومزاعم وتلميحات أو خلاصات يمكن استنتاجها من مجموعة افتراضات. إنّ إدارة بوش ناقشت في الأشهر الأولى من ولايته الخيارات العسكرية لإطاحة صدّام حسين»(587). أمّا الإدارة الأميركية، ولتبرير تصريحات أونيل فقد أعلنت أنّه «لم يكن في موقع يؤهّله الإطلاع على هذا النوع

من المعلومات». ونحن وإن سلمنا بهذا التبرير، فما هو ردّ الإدارة الأميركية على ما نشره الصحافي الفرنسي فنسان نوزيل عن قيام المحافظين الجدد في الإدارة الأميركية بإنشاء مكتب للخطط الخاصة في البنتاغون كُلّف «بمراقبة كلّ المعلومات حول العراق لتأويلها بطريقة تلائم رؤيتهم ولنقل هذه الرؤية إلى وسائل الإعلام وعلى رأسها فوكس نيوز. وضخّموا الإشاعات عن أسلحة الدمار الشامل التي يملكها العراق، ذاكرين مثلاً عمليات شراء مزعومة من الأورانيوم في النيجر لكي يجدوا ذريعة لهجومهم»(588).

ولا يمكننا أن ننسى ما تزود به الولايات المتحدة إسرائيل، وما تقوم هي بإنتاجه وتطويره، من أسلحة كيماوية، بالرغم من توقيعها على معاهدة عام 1972 تحظر، ليس حيازة هذه الأسلحة فحسب، بل إنتاجها أيضاً. ولم يعد ينفع إسرائيل إنكارها، أمام الرأي العام العالمي، امتلاكها للسلاح النووي، لأنّ مسؤوليها يعترفون بوجود هذا السلاح. نقرأ لأبراهام بورغ الرئيس الأسبق للكنيست الإسرائيلي والوكالة اليهودية: «لقد أخرجنا المحرقة من حيّز القدسية وحوّلناها إلى أداة سياسية روتينية، جوفاء. حوّلنا المحرقة إلى رصيد تكتيكي عملي للشعب اليهودي، أكثر عظمة من جيش الدفاع الإسرائيلي والقنابل النووية التي تنكر الدولة اليهودية امتلاكها»(589). لقد ضرب بورغ عصفورين بحجر واحد: استغلال المحرقة وامتلاك إسرائيل للقنبلة النووية.

ولئن كنت عاجزاً، لضيق الصفحات، عن ذكر كلّ حوادث الإرهاب الإسرائيلية المتعلقة بفلسطين، فلا بأس من ذكر بعضها حتى إذا ما قارناها بتعاليم يهوه ثبت لدينا من يقف وراء هذا الإرهاب، ألم يقل يهوه عن شعبه الخاص: «هوذا شعب يقوم كلبوة ويرتفع كأسد. لا ينام حتى يأكل الفريسة ويشرب دم قتلى» (عدد 23: 24).

- اغتيال الكونت برنادوت، وسيط الأمم المتحدة، ومساعده الكولونيل الفرنسي سيرو بإيعاز من موشي دايان في 17 أيلول/سبتمبر 1948.

في المغرب أقدم الماسونيون على قتل مئة يهودي في 7 و 8 حزيران/يونيو عام 1948 لإجبار اليهود على الهجرة إلى فلسطين.

- وفي عام 1961 أقدم الصهاينة على إغراق المركب المغربي Exodus وعليه 42 مهاجراً يهودياً وذلك لخدمة الدعاية الصهيونية (العار الصهيوني للوسيان كافرو دومارس، ص 331).

- اغتيال اللورد موين، وزير الدولة البريطاني، على يد عصابة شتيرن الصهيونية في القاهرة بتاريخ 6 – 11 – 1944، وذلك لإعلانه أنّ اليهود المعاصرين ليسوا من سلالة إبراهيم أو قدامى العبرانيين، مما يسقط حقهم المزعوم بفلسطين.

- نسف فندق (الملك داود) في القدس، مقر القيادة البريطانية عام 1946، والذي أسفر عن مقتل 91 عربياً وبريطانياً.

- في 18 نيسان/أبريل من العام 1946 قتل الصهاينة 8 عمّال فلسطينيين في الكرمل كانوا عائدين من عملهم في مصنع للفولاذ قرب إحدى المستعمرات.

- وحدة صهيونية تسللت في 31 تشرين الأول/أكتوبر من عام 1946 إلى قرية «حولا» الحدودية اللبنانية وقتلت 90 رجلاً من أهالي القرية.

- في 11 – 8 – 1969، قامت القوات الإسرائيلية باغتيال 5 لبنانيين في منطقة العرقوب الجنوبية.

- 23 – 12 – 69 أغارت الطائرات الإسرائيلية على بلدة الخيام اللبنانية حاصدة العديد من الشهداء الأبرياء.

- ما بين حزيران/يونيو وأيلول/سبتمبر من العام 1982 ترك الاجتياح الإسرائيلي للبنان 19 ألف شهيد مدني لبناني وفلسطيني، عدا الذين ذهبوا ضحية المجزرة في صبرا وشاتيلا ويفوق عددهم الألفين. وللمزيد من هذه المجازر راجع كتاب ربيع داغر «إسرائيل والصراع المستمر».

- 28 – 12 – 1968 أربع طوافات عسكرية تحمل رجال كوماندوس تقتحم مطار بيروت الدولي، ويتم تفجير 13 طائرة مدنية من أسطول شركة الميدل إيست الجويّ. وعلى أثر هذا الاعتداء صرّح فؤاد بطرس، وزير الخارجية آنذاك، بما يلي: «إنّ لبنان كان عرضة لاعتداء غاشم لا مبرر له، وإنّ الأفعال التي أقدمت عليها إسرائيل قبل يومين في مطار بيروت الدولي هي أفعال تشجبها شرعة حقوق الإنسان، وشرعة الأمم المتحدة ومبادئ العدل الدولي، لا بل الآداب الدولية. ثم ألقى كلمة أمام مجلس الأمن قال فيها: «الاعتداء موصوف، علني، وعن سابق تصوّر وتصميم استهدف منشأً مدنياً ولم يشكل خطراً فقط على الحياة والممتلكات بل أيضاً على أمن مركز أعمال دولي. ونتيجة لتقديم لبنان شكوى لمجلس الأمن، وبعد المداولات أصدر مجلس الأمن القرار رقم 262 بالإجماع الذي تضمن: 1- إدانة إسرائيل على عملها العسكري؛ 2 – اعتبار هذا العمل تهديداً للسلام؛ 3 – توجيه تحذير علني لإسرائيل على أنّ المجلس سيتخذ تدابير أخرى بحقها لإجبارها على تنفيذ قراراته في حال تكرار مثل هذا الحادث؛ 4 – إعطاء لبنان الحق بتعويض يناسب التدمير الذي ألحقته إسرائيل بأسطوله المدني الجويّ. نقلاً عن كتاب فؤاد بطرس (المذكرات). وبالرغم من إجماع مجلس الأمن بقي القرار حبراً على ورق.

ونشرت جريدة الديار في أحد أعدادها لائحة بأسماء أبرز الشخصيات الفلسطينية التي اغتالتها إسرائيل منذ 1973 نذكر منها:

- 13 نيسان/أبريل 1973 كوماندوس إسرائيلي يتسلل إلى شوارع بيروت ويغتال كلاً من كمال عدوان وكمال ناصر ويوسف النجار.

- 11 كانون الثاني/يناير 1979 اغتيال أبو حسن (علي حسن سلامة) رئيس دائرة العمليات الخاصة في حركة فتح.

- 9 تشرين الأول/أكتوبر 1981 إغتيال ماجد أبو شرار المسؤول الإعلامي لمنظمة التحرير الفلسطينية في غرفته في أحد فنادق روما.

- 16 نيسان/أبريل 1988 اغتيال أبو جهاد زعيم الجناح العسكري لحركة فتح.

- 8 حزيران/يونيو 1992 اغتيال عاطف بسيسو مسؤول الأجهزة الأمنية لمنظمة التحرير الفلسطينية في باريس.

- 5 كانون الثاني/يناير 1996 اغتيال مهندس حماس يحيى عياش.

- 27 آب/أغسطس 2001 اغتيال أبو علي مصطفى الذي انتخب في تموز 2000 أميناً عاماً للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

- 21 آب/أغسطس 2003 اغتيال إسماعيل أبو شنب أحد القادة السياسيين لحركة حماس.

- 22 آذار/مارس 2003 اغتيال الشيخ أحمد ياسين مؤسس حماس وزعيمها الروحي.

يضاف إلى هذه اللائحة اغتيال العالم الفلسطيني الدكتور سنا عطا الله، وعشرات العلماء العراقيين والإيرانيين الذين لا تزال المخابرات الإسرائيلية تلاحقهم للقضاء عليهم، علّها بذلك تقضي على آمال الشعوب بالتقدم. ولا يزال اللغط دائراً حول إقدام إسرائيل على تسميم ياسر عرفات بذاته، ولن يكون اغتيال المبحوح في دبي على يد الموساد آخر حبة في عنقود الإرهاب الإسرائيلي المنظّم. ولا بدّ من الملاحظة أنّ معظم هذه الاغتيالات تمت خارج الأرض المحتلة، مما يعني أنّ إسرائيل ارتكبت عملين إرهابيين في آن واحد. الأول يتمثل بعملية الاغتيال بحد ذاتها، والثاني إقدامها على تنفيذ هذا الاغتيال فوق أرض دولة ذات سيادة. فانتهاك سيادة الدول الأعضاء في الأمم المتحدة يعتبر خرقاً واضحاً ومداناً للقوانين والأعراف الدولية التي لا تقيم إسرائيل لها وزناً، مقدمة دائماً الأعذار انطلاقاً من مقولة الدفاع عن النفس والأمن الذاتي. هذه المقولة مردودة قانونياً بالأساس، لأنّ أيّ عمل ضد إسرائيل يعتبر بعين القانون الدولي من قبيل الكفاح من أجل حق تقرير المصير وإزالة مفاعيل الاحتلال الذي لم تستطع الأمم المتحدة منعه.

وإذا كان موسى قد أمر بني إسرائيل قائلاً: «فالآن اقتلوا كلّ ذكر من الأطفال. وكلّ امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها» (عدد 21: 17)، فإنّ إسحق رابين، داعية السلام، «أمر بكسر أذرع أطفال الأرض الفلسطينية الذين لم يكن لهم من سلاح إلاّ الحجارة القديمة الموجودة في بلدهم، ونهضوا بها للدفاع عن أرض أجدادهم»(590). إنّ هذا الأمر لم يكن سوى ترديد لأعمال رجال التوراة الذين كانوا ولا يزالون مثالاً يُحتذى بفنون الإرهاب. نقرأ من سفر أخبار الأيام الثاني: «وأمّا أمصيا فتشدّد واقتاد شعبه وذهب إلى وادي الملح وضرب من بني ساعير عشرة آلاف. وعشرة آلاف أحياء سباهم بنو يهوذا وأتوا بهم إلى رأس سالع وطرحوهم عن رأس سالع فتكسّروا أجمعون» (25: 11 – 12). إنّ المجازر الإسرائيلية الحديثة هي نسخة طبق الأصل، مع اختلاف الأساليب والتقنيات، عن مجازر بني إسرائيل في أرض كنعان، ودائماً حسب ما ترويها التوراة والتي تعتبر مجرد أوهام اخترعتها نفسية كتبة التوراة المريضة خاصة عزرا، وهي بالرغم من عدم صدقيتها، غير أنّها كانت زاداً إرهابياً للصهاينة الجدد غرفوا منه وتفوقوا عليه في أحيان كثيرة. صحيح أنّ الصهاينة احتلوا أرض فلسطين ومنها انطلقوا لاستكمال نظرية إسرائيل الكبرى، فاحتلوا جزءاً من لبنان وسورية، حيث لم تكن المجازر التي ارتكبوها بحق السكان في القرى اللبنانية بأقل شأناً من تلك في القرى الفلسطينية حيث عدّد عبد المجيد همّو 38 منها(591)، أمّا الأسوأ من حيث البُعد الأممي فكانت مجزرة قانا التي ارتكبها الإسرائيليون في 18 – 4 – 1996 بقصفهم مركزاً لقوة الطوارئ الدولية

في جنوب لبنان والذي التجأ إليه الكثير من مواطني الجنوب هرباً من القصف على منازلهم، فذهب ضحية القصف 106 من الشهداء الأبرياء. هذه العملية الإرهابية كانت بأمر من شمعون بيريز الحائز على جائزة نوبل للسلام. فأيّة سخرية هذه، وأين الضمير العالمي والأمم المتحدة من هذه الأعمال البربرية التي تجد مرتكزها الأساس في التوراة من خلال وصايا يهوه وشريعته.

يقول الأب مايكل برير بهذا الخصوص: «إنّ الهجوم الإسرائيلي الموجّه في الأساس ضد أهداف مدنية هو انتهاك لمعاهدة جنيف لعام (1949) والتي يُقدّم بمقتضاها مرتكبو جرائم الحرب إلى محاكم جرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية»(592). ولقد شهد رجل دين يهودي وعضو في حكومة بيريز آنذاك، الحاخام يهوذا عميتال، على هذه البربرية فقال: «القتل في قانا تدنيس لاسم الربّ»(593)، ويا ليت جميع اليهود يفكّرون بهذه العقلانية ويتخلون عن حرفية النصوص التوراتية المفعمة بالإرهاب والكره والعنصرية والتعالي، إذن لعادوا إلى إنسانيتهم، فارتاحوا وأراحوا الإنسانية جمعاء. وكان عمل الإسرائيليين البربري يرتكز على أوامر يهوه لشعبه بأن «لا يُشفقوا» على الشعوب التي سيطردها من أمامهم لكي يستولوا على أرضهم. إنّها الوصية المحفورة في قلب كلّ إسرائيلي صهيوني أصولي لا يزال ينظر إلى ما هو مسطور في التوراة على أنّه بالفعل أوامر إلهية دون أن يترك لعقله إمكانية السؤال عن «طريقة في قراءة التقاليد يمكنها أن تنقذ (الكتاب – التوراة) من أن يكون أداة صمّاء في القمع وتبرئة الله من أن يكون المطهّر العرقي الكبير»(594).

لم تقتصر مجازر الصهاينة على الفلسطينيين واللبنانيين ومواطني الدول المجاورة، بل لقد قاموا بقتل أبناء دينهم وألصقوا الفعل بغيرهم لكي يثيروا شفقة الأمم الأوروبية والأميركية، ولكي يستغلوا هذه الشفقة للحصول على دعم هذه الدول لمشروعهم الإرهابي الكبير. وقد أشرت في فصل سابق إلى بعض المصادر التي تؤكد أنّ الصهاينة كانوا وراء مجازر الألمان التي ارتكبت بحق اليهود، ومصادر أخرى تشير إلى أنّ «قادة الوكالة اليهودية كانوا متفقين على أنّ الأقلية التي يمكن إنقاذها، ينبغي أن تختار تبعاً لحاجات المشروع الصهيوني في فلسطين»(595). وكان رأي بن غوريون يرتكز على «أنّ مهمة الصهيوني ليست إنقاذ بقية إسرائيل التي لا تزال توجد في أوروبا، بل هي إنقاذ أرض إسرائيل من أجل الشعب اليهودي»(596). لذلك ضحى الصهاينة بمئات الآلاف من اليهود في ألمانيا لكي يبنوا أسطورة المحرقة، لتصبح أجساد أبناء دينهم محرقة حقيقية تساعدهم على بلوغ أهدافهم.

ولم يكن يهود أوروبا وحدهم ضحية الإجرام الصهيوني، بل طال إرهابهم يهود العراق لإجبارهم على مغادرته والهجرة إلى إسرائيل. يقول يوسف أيوب حداد: «من المعروف أنّ خروج يهود العراق، وتوجههم نحو فلسطين قد تم بإرهاب صهيوني منظّم لحملهم على الهجرة، وبتواطؤ مع رسميين عراقيين أيام النظام الملكي العراقي»(597). وحول هذا الموضوع يقول سعيد نفاع: «ونحن نعرف الأساليب التي اتبعتها الصهيونية، حتى ضدّ اليهود في البلدان العربية، لحثّهم على القدوم إلى البلاد (فلسطين) عندما لم يقبلوا بمحض إرادتهم، القيام بأعمال وصلت حدّ إلقاء القنابل عليهم كما حدث في بغداد»(598). ويُعتبر إيلان هاليفي أوضح من كتب حول هذه المسألة حين قال: «أمام تردد اليهود العراقيين بالاكتتاب على لوائح الهجرة (القانونية) نحو إسرائيل قامت المخابرات الإسرائيلية بإلقاء القنابل على اليهود في مناسبتين وأدى الهجوم الثاني على كنيس شيم – توف في بغداد إلى مقتل

ثلاثة أشخاص وجرح العشرات... وقد تأكدت هذه الأحداث من قِبَل الصحافي باروخ نادل في استجواب وجهه إلى مردخاي بن بورات بواسطة المحكمة العليا في تل أبيب بتاريخ 7 أيلول/سبتمبر 1977 ونُشِر المحضر في صحيفة يديعوت أحرونوت عدد 8 أيلول/سبتمبر 1977»(599). ويذكر لوسيان كافرو دومارس مزيداً من أعمال الصهاينة الإرهابية بحق اليهود حيث نقرأ الخبر التالي: «وتطبيقاً لمعارضتهم إيقاف الهجرة اليهودية الذي قررته السلطات المنتدبة، أغرق الإرهابيون اليهود السفينة الفرنسية «باتريا» في ميناء حيفا وعلى متنها 250 مهاجراً يهودياً كانت على وشك الإبحار إلى قبرص»(600)، والغاية طبعاً معروفة وهي إثارة شفقة العالم على اضطهاد اليهود، بعد إلصاق هذا العمل بالفلسطينيين ووصمهم بالإرهاب.

وهل اقتصر الإرهاب الإسرائيلي على سكان فلسطين والدول المجاورة ويهود أوروبا والدول العربية؟ طبعاً لا، لأنّه طاول الأصدقاء كما الأعداء لأنّ وصايا يهوه كانت واضحة، فبنو إسرائيل هم الشعب المختار، هم فوق كلّ البشر، لذلك عليهم، ليس عدم الإشفاق على أحد فحسب، بل عليهم أيضاً عدم احترام العهود، أو المعاهدات بلغة عصرنا، «لا تقطع لهم عهداً» قال لهم يهوه في سفر التثنية (7: 2). لذلك كان من البديهي أن ينقضّ الطيران الإسرائيلي على السفينة الحربية الأميركية ليبرتي عام 1967 تاركاً وراءه 37 بحاراً أميركياً ضحايا إرهابه. وعندما أعلن السيناتور إدلاي ستيفنسون عزمه على إجراء تحقيق حول هذه الحادثة «وعلى الرغم من القرائن القوية على أنّ إسرائيل تعمدت الهجوم على السفينة الأميركية، فقد عجز ستيفنسون عن إيجاد تأييد له بين زملائه»(601). ثم عاد فندلي إلى هذه الحادثة فكتب: «وعلى الرغم من أنّ إسرائيل ظلت طيلة سنوات تصرّ على أنّ الحادث كان عرضياً، وبسبب خطأ في تحديد الهوية، فقد ظهرت أدلة كثيرة جداً تثبت بقوة اتهام إسرائيل بالهجوم المتعمد على سفينة المخابرات لأنّها، على ما يبدو، خشيت من أن تكشف «ليبرتي» الاستعدادات الإسرائيلية للهجوم على مرتفعات الجولان في اليوم التالي"(602).

ولقد تطرّق إلى هذا الحادث الكاتب جو فيالز فكتب: «في 8 حزيران من عام 1967، خلال حرب الأيام الستة بين إسرائيل والبلاد العربية، هاجمت طائرات وزوارق طوربيد إسرائيلية سفينة الاستخبارات الأميركية المنزوعة السلاح «يو إس إس ليبرتي» لمدة 75 دقيقة، مات نتيجة الهجوم 34 شخصاً، وجرح 172. وعلى الرغم من الحقيقة المثبتة أنّ «يو أس أس ليبرتي» كانت بعيدة عن الشواطئ في المياه الدولية، وتحمل علماً أميركياً واضحاً وساطعاً، إلاّ أنّ إسرائيل أصرّت أنّ المسألة برمتها كانت عبارة عن اشتباه بالهويّة، وهو ما لم يكن صحيحاً إطلاقاً. فقد هاجمت إسرائيل «يو أس أس ليبرتي» في محاولة لمنع سفينة الاستخبارات الأميركية من تقديم معلومات عن الضربات الإسرائيلية إلى البنتاغون (وزارة الدفاع الأميركية)»(603). فهل تمت معاقبة الإرهاب الإسرائيلي ضد حليف رئيس هو الولايات المتحدة؟ وهل كانت الولايات المتحدة لتبلع الموسى وتسكت لو كان العمل من تنفيذ مجموعة أو دولة عربية؟ الجواب لا على التساؤلين، لأنّ «اللوبي اليهودي - الأميركي في واشنطن عمل بقوة لاحتواء الأمر، لدرجة أنّ جريمة قتل 34 جندياً أميركياً على السفينة المنزوعة السلاح مرّت مرور الكرام على الرأي العام»(604)، ولأنّ نظرة الولايات المتحدة إلى الإرهاب مزدوجة المعايير بحيث تبرره وتعتبره خطأ إن صدر عن إسرائيل وتشن حرباً شعواء على أيّة جهة عربية أو إسلامية، بحجة محاربة الإرهاب، إن تم العمل من أيّ منهما. القتل واحد من أيّة

جهة أتى ومفاعيله الإنسانية واحدة، فلماذا هذا الحَوَل الفكري؟ ببساطة إنّه الخوف من الإرهاب الصهيوني الذي لا يرحم أحداً.

وها هو اليهودي نعوم تشومسكي يفضح الكذب الإسرائيلي حول هذه الحادثة فيقول: «وقالت إسرائيل إنّ الهجوم وقع عن طريق (الخطأ). بينما تأكد الجميع ومنهم (الأدميرال توماس مور) رئيس أركان الجيش الأميركي السابق من كذب هذا الادّعاء الإسرائيلي، ولكن الصحافة الأمريكية استقبلت هذا الأمر بصمت مطبق، ذلك لأنّ هناك الكثيرين من الجماعات المؤيدة لإسرائيل وليس اليهود الأميركيون فقط»(605). إنّ كتاب (المثلث المحتوم) لنعوم تشومسكي يزخر بعشرات الأمثلة على الإرهاب الإسرائيلي ليس في فلسطين المحتلة فحسب بل في لبنان أيضاً، مثلاً يتحدث تشومسكي عن قيام إسرائيل بإلقاء قنابل فراغية على مبنى مؤلف من ثماني طبقات في بيروت الغربية فكانت النتيجة مقتل 100 شخص، وكان ذلك فقط لمجرد الاعتقاد أنّ ياسر عرفات كان موجوداً في المبنى(606).

وبمناسبة حديثنا عن إسقاط المباني لا بد من أن نذكر، ولو عرضياً، مسألة العمل الإرهابي الذي طاول برج التجارة العالمي في نيويورك في 11 – 9 – 2001، والذي كان اتهام القاعدة به جاهزاً كمقدمة لشن الحرب على العراق كداعم لإرهاب هذا التنظيم. بالرغم من أنّ العراق في ذلك الوقت لم تكن لديه أيّة علاقات مع تنظيم القاعدة، ولقد أشار إلى ذلك فنسان نوزيل قائلاً: «والأسوأ من ذلك أنّ المحافظين الجدد اخترعوا روابط لم تكن موجودة حتى حينه بين صدّام والقاعدة»(607). غير أنّ أصواتاً مشككة بدأت تتصاعد ومنها صوت نعوم تشومسكي الذي قال رداً على سؤال من الصحافي مايكل ألبرت في 22 أيلول/سبتمبر 2001: «كما أنّ الكثيرين من الذين يعرفون أحوال المنطقة معرفة جيدة، ليسوا على يقين من أنّ بن لادن لديه القدرة على التخطيط لهذه العملية البالغة التعقيد من كهف في مكان ما في أفغانستان. غير أنّ تورط شبكته شيء يلقى قبولاً كبيراً، ومن الجائز تماماً أنّ بن لادن كان يقول الحقيقة حين ذكر أنّه لم يكن يعرف شيئاً عن العملية»(608).

من جهة أخرى أشار يوسف رشاد إلى تقرير وزارة الخارجية الأميركية حول حقوق الإنسان في مصر عام 2004 والذي ورد فيه أنّه «ظهرت في الإعلام المطبوع والصحافة الإلكترونية مقالات وآراء معادية للسامية وافتتاحيات كاريكاتورية، وعلى سبيل المثال في 18 – 3 – 2004 اتّهم عبد الوهاب عدس نائب رئيس تحرير الجمهورية اليهود بارتكاب تفجيرات 11 مارس في مدريد، كذلك هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 في الولايات المتحدة»(609). فما علاقة هذا الاتّهام بمعاداة السامية؟ وهل اليهود وحدهم باتوا الشعب السامي الوحيد في العالم لكي يصبح أيّ كلام عنهم معاداة للسامية - البدعة؟ كما تناول الكاتب الأميركي جو فيالز أحداث الحادي عشر من أيلول فكتب: «يدلّ التنسيق والدقة في الهجمات على نيويورك وواشنطن على التورط المباشر لواحدة أو أكثر من وكالات الاستخبارات الحكومية للعالم الأول. لقد كانت الفوضى الناتجة عن الهجمات أكيدة ومميتة بالمنظور الاستراتيجي»(610). وأشار إلى أنّ الدكتورة تاتيانا كورياجينا، المقرّبة من الرئيس فلاديمير بوتين قد صرّحت لصحيفة البرافدا في 12 تموز 2001، أي قبل شهرين، من وقوع الاعتداء بأنّه «قد تم اختيار الولايات المتحدة لتكون هدفاً لهجمات مالية؛ لأنّ المركز المالي للكوكب موجود هناك»(611) ثم يضيف بأنّ هذا التوقع قد ثبتت صحته بعد الحادث.

أمّا ديفيد ديوك، الرئيس الوطني لمنظمة الوحدة والحقوق الأوروبية – الأميركية والعضو السابق في برلمان ولاية لويزيانا الأميركية، فقد كان أكثر وضوحاً وتحديداً عندما وضع كتيِّبا خاصاً تحت عنوان (أمريكا – إسرائيل و 11 أيلول 2001). ولقد أفرد فصلاً خاصاً في الكتاب تحت عنوان: ماذا كان دور إسرائيل في الهجمات على مركز التجارة العالمي؟ وأشار إلى دراسة قام بها المعهد العسكري الأميركي للدراسات العسكرية المتقدمة جاء فيها: «يقول ضباط معهد الدراسات العسكرية الأميركية المتقدمة عن جهاز المخابرات الإسرائيلي «الموساد» (متوحش، عديم الرحمة، ماكر، لديه القدرة على استهداف قوات أمريكية، وجعل ذلك يبدو وكأنّه عمل فلسطيني/ عربي)». هذه الدراسة نشرت في صحيفة واشنطن تايمز في 10 أيلول/سبتمبر 2001، أي قبل يوم واحد من وقوع الاعتداء. فهل كان ذلك مصادفة؟ وهل كانت مصادفة أيضاً غياب 4000 يهودي عن عملهم في المركز في ذلك اليوم، والذي أشارت إليه صحيفة جيروزاليم بوست في 12 أيلول/سبتمبر 2001.

وأشار الرئيس جورج بوش، في خطابه أمام الكونغرس، إلى 130 ضحية إسرائيلية إلى جانب آلاف الضحايا الأميركيين. فلماذا هذا التخصيص من الرئيس الأميركي؟ ألأنّه يؤمن بأنّ اليهود هم فوق البشر، كما علّمته التوراة، أم لأنّه عضو مشارك في المؤامرة الدولية التي تحيكها وتنفّذها الصهيونية العالمية محاولة دائماً إبراز ما يحصل لليهود على أنّه كارثة إنسانية، وما يحصل لبقية البشر فهو مجرد أحداث طبيعية؟ والأغرب من ذلك هو قول الكاتب أنّه «قد اتضح أنّ 129 إسرائيلياً من الـ 130 الذين ذكر الرئيس بوش أنّهم ماتوا في الحادث، لا يزالون أحياء»(612). ويردف ديوك قائلاً: «الأمر الثاني الذي بحثت فيه هو: هل تمّ تأكيد حصول أي تحذير مسبق عن الهجوم، لإسرائيليين، فعلاً؟ ووجدت بسرعة مقالاً في Newsbytes، وهو موقع خبري تابع لصحيفة واشنطن بوست، عنوانه (رسائل فورية لإسرائيل حذرت من هجوم على برج التجارة العالمي). كما أكّدت صحيفة هآرتز اليومية الإسرائيلية وقوع تحذيرات مسبقة لإسرائيل عن الهجوم، وأكدت أن مكتب التحقيقات الفدرالي FBI يقوم بالتحقيق في هذه التحذيرات»(613). ولكن بالطبع توقف التحقيق بضغط من اللوبي اليهودي الذي أكمل مؤامرة الموساد وألقى التهمة فوراً على القاعدة. وأتت إشارة ديوك الأخيرة إلى ما تناقلته وسائل الإعلام في حينه من أنّ «مكتب التحقيقات الفدرالي FBI أوقف خمسة إسرائيليين كانوا على سقف أحد المباني المجاورة للبرجين يصوّرون تصوير فيديو الحادثة كلّها وهم يصيحون تأييداً وابتهاجاً»(614).

أمّا الأبواق الصهيونية، التي ركّزت منذ البدء على أنّ هذا العمل مرتبط بالقاعدة، فإنّها لم تكتفِ بذلك بل بدأت أيضاً التركيز على المسلمين بشكل عام محمّلة إياهم مسؤولية هذا العمل فقط لمجرد أنّ أفراد القاعدة هم مسلمون. ويشير ستيفن شيحي إلى الضغوط التي مورست ضدّ الأكاديميين العرب والمسلمين والتهديدات بالقتل وعدم منحهم تأشيرة دخول، حيث لم يكن ذلك مقتصراً على الإدارة الأميركية بل أصبح جواً ثقافياً عاماً(615). إنّ ربط الإرهاب بالإسلام عامة وبالعرب خاصة هو من مفاعيل الإعلام الصهيوني المسيطر في الولايات المتحدة وأوروبا. ولقد تعالت أصوات كثيرة متهمة كلاً من المخابرات الأميركية والإسرائيلية ولكن سرعان ما تم كتم أنفاسها. وبغض النظر عمن أقدم على هذا العمل الإرهابي المذموم، فلا بد لنا من طرح السؤال التالي: لماذا أصبح بن لادن إرهابياً عندما وقف بوجه الإرهاب الأميركي والإسرائيلي، وكان مناضلاً في سبيل حرية الشعوب، بعين الإعلام الأميركي نفسه، عندما خلقته الولايات المتحدة لمحاربة الاتحاد السوفياتي؟ لماذا هذه

الازدواجية؟ أم أنّ القتل الأميركي والإسرائيلي مبرر، حتى ولو كان للمدنيين الأبرياء، لأنّه تنفيذ ملزم لمن اعتنق الشريعة اليهوهية؟

إنّ استمرار الإرهاب الإسرائيلي في فلسطين المحتلة لم يعد بحاجة إلى شهود. فالتطور التقني بات ينقل إلى أقطار الدنيا كلّها، وبعد لحظات من وقوع الحدث، لقطات حية عن الممارسات الإرهابية في غزة وفي الضفة الغربية. لقد نالت غزة حصتها منذ الأربعينيات والخمسينيات ولا تزال. يقول بول فندلي: «ففي عام 1955 اهتزت الولايات المتحدة فزعاً من المذبحة التي ارتكبها الإسرائيليون بحق المدنيين العرب في غزة. فقام كلوتزنيك، بصفته رئيساً لبناي بئرث (رابطة مكافحة الافتراء)، بإبلاغ رد الفعل إلى إسرائيل. فقال لموشي شاريت، رئيس وزراء إسرائيل (يا موشي رد الفعل كان فظيعاً. فما حدث لم يكن دفاعاً للقوات الإسرائيلية عن إسرائيل، لقد بدأ أشبه بالاستهتار بقيمة الحياة البشرية»(616). ولم تنته عذابات مواطني غزة، فالقتل مستمر، والحصار مستمر، والتجويع مستمر، وكمّ الأفواه المعترضة مستمر. وللتذكير فقط نشير إلى قيام جرافة إسرائيلية بسحل الناشطة الأميركية راشيل كوري لأنّها كانت تسير في مقدمة تظاهرة منددة بالأعمال الإرهابية في غزة. وبعد سنوات من تقدّم ذويها بدعوى أمام المحاكم الإسرائيلية، ردّت هذه المحاكم الدعوى بحجة أنّ الحادثة حصلت ضمن نشاط معادٍ لإسرائيل، وهذا يعطي الحق لإسرائيل ليس فقط بالقتل بل بالسحل تشبهاً بملكهم المزعوم داود الذي «أخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرّهم في أتون الآجّر وهكذا صنع بجميع مدن بني عمّون» (صموئيل الثاني 12: 31).

الإرهاب الإسرائيلي هو عملية مستمرة منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف عام، ما تغيّر هو الأسلوب والتقنيات، لأنّ الإرهاب واحد ونتيجته واحدة بغض النظر عن الزمان والمكان اللذين يُرتكب فيهما. إنّه واحد لأنّه ينطلق دائماً من الوصايا الإلهية نفسها، ومن الشريعة القبلية نفسها، وسيبقى كذلك طالما أنّ هناك صهاينة لا يعنيهم وجود البشر إلاّ بقدر ما يقدّم لهم هذا الوجود مجالات للابتزاز من شأنها المساعدة على تحقيق مصالحهم الخاصة. هل نصدّق الجلاّد عندما ينظر بعين العطف إلى ضحيته، أم ندرك أنّ غايته اللعب على عواطف الضحية قبل الإقدام على التخلّص منها؟ المشكلة الكبرى تكمن بأنّ الإرهاب الإسرائيلي يُستثنى دائماً من وصمة الإرهاب لأنّ الصهيونية فرضت على معظم الدول مفهوم الحق الإلهي، والذي يعني أنّ احتلالهم لفلسطين هو تنفيذ للوعد الإلهي المكرّس حقاً بالنصوص التوراتية الإلهية، وكلّ المفاعيل الناتجة عن هذا الاحتلال من قتل للسكان، وطرد لهم من منازلهم وأراضيهم، ليست سوى أمور طبيعية لا يمكن إلاّ القبول بها لأنّها تنفيذ لإرادة إلهية.

ونحن وإنْ حاولنا التسليم، كما ذكرت مراراً، بحرية اليهود التي تتيح لهم استمرارية هذه القناعة اليوم، فإنّه يحق لنا التساؤل عن قبول أتباع الديانات الأخرى بهذه الادعاءات غير الملزمة لهم، والتي تكون غالباً ضد مصالحهم. أليس غريباً أن نسمع اليوم بعض الأصوات الفلسطينية التي توافق على أنّ الله وعد بني إسرائيل بمنحهم أرض فلسطين؟ ألا يعتبر ذلك طعناً بالمسألة الفلسطينية وأحقيتها، بل تآمراً عليها، سواءٌ في ذلك حسن النية أو سوؤها؟ إنّ ما قامت به العصابات الصهيونية من أعمال إرهابية في فلسطين خاصة، ودول عديدة من العالم عامة، ليفوق بفظاعته كلّ ما ارتكب بحقهم من إرهاب طوال مئات السنين، والذي جرّوه على أنفسهم بأنفسهم. ولو لم يكونوا أبناء بررة لإلههم الدموي، بدلاً من أن يكونوا أبناء الله الكوني ككلّ البشر، لما قال لهم يسوع: «لو كان الله أباكم لكنتم

تحبونني لأنّي خرجت من قبل الله وأتيت... أنتم من أبٍ هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتَّالا للناس من البدء ولم يثبت في الحق لأنّه ليس فيه حق» (يوحنا: 42 – 44). كلام يسوع هذا لا يزال ينطبق عليهم لأنّهم باسم أبيهم ما زالوا يقتلون الأبرياء ويطردونهم من أرضهم كما فعل إلههم في بداية رحلته الإرهابية: «متى أتى بك الربّ إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك... فإنّك تحرّمهم لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم» (تثنية 7: 1 – 2). ألم يكن الصهاينة أولاداً أبراراً لهذا الإبليس الذي يأمر بطرد الشعوب من أرضها، وبقتل كلّ نسمة حياة دون شفقة أو رحمة؟

وبالرغم من أنّ عنوان الكتاب يشير إلى ضرورة التركيز على الإرهاب الإسرائيلي وبالتالي ضرورة إثبات كلّ عمل إرهابي فردي أو جماعي، قام به فرد أو جماعة أو دولة، فإنّ صفحات أي كتاب، بل أيّة موسوعة، تبقى قاصرة عن استيعاب كلّ الأعمال الإرهابية للدولة الصهيونية. وإذا ما تتبعنا الوسائل الإعلامية، المحلية منها والعالمية، لوجدنا أنّه قد لا يمرّ يوم واحد دون عمل إرهابي تمارسه دولة إسرائيل التي لا تزال تلاحق الفلسطينيين بأرواحهم وأرزاقهم. إنّ عملية الطرد التي تمارس بالقوة العسكرية لم تتوقف منذ بدء تنفيذ الخطة الصهيونية لاحتلال فلسطين. و«كعادتها، قبل أيام من سفر رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو للقاء الرئيس الأميركي باراك أوباما، كثَّفت إسرائيل مشاريعها الإستيطانية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، حيث شرعت في إجراءات لضم مطار قلنديا، وهو المقرر أن يكون المطار المركزي للدولة الفلسطينية المقترحة... وذكرت صحيفة معاريف أنّ بلدية القدس صادقت على تسجيل رسمي للأرض التي يقع عليها مطار قلنديا كأرض بلدية تعود إلى دولة إسرائيل... وتجدر الإشارة إلى أنّه بالرغم من سيطرة إسرائيل على المكان، إلاّ أنّ أرض المطار لم تكن على الإطلاق مسجلة كأرض بلدية»(617).

إنّها واحدة من مئات الأحداث التي تقوم بها إسرائيل لتهويد كلّ شبر من فلسطين مغلقة المجال أمام قيام دولة فلسطينية بالرغم من تظاهرها بأنّها جادة من خلال مفاوضات السلام على منح الفلسطينيين جزءاً من أرضهم ليقيموا عليها شبه دولة. إنّ عملية التهويد تتناقلها وسائل الإعلام ولا تقتصر فقط على مصادرة الأراضي، بل أيضاً تغيير المعالم وتغيير الأسماء التي عُرفت بها الأماكن منذ مئات السنين، وهي تستغل سلطتها كدولة قامت على الاحتلال لسنّ قوانين تمكّنها من الاستيلاء على مزيد من أراضي الفلسطينيين. و«تواصل إسرائيل وبشكل منهجي تهويد الأراضي الفلسطينية بطرق شتى. فبعد سنّ قوانين تمليك أغلب أراضي فلسطين للكيرن كيميت بحيث تغدو ملكاً خاصاً للشعب اليهودي، يجري سنّ قانون لتمليك الحدائق العامة لجمعيات يهودية، وذلك لتشجيع تهويد القدس المحتلة. وأشارت صحيفة هآرتس أمس إلى أنّ الحكومة ومجموعة أعضاء الكنيست بقيادة إسرائيل حسون من (إسرائيل بيتنا) استأنفت هذا الأسبوع خطوة إقرار التعديل على قانون الحدائق العامة، الذي يتيح نقل الحدائق إلى تجمعات تجارية بملكية خاصة»(618).

يقول الدكتور عبد الله الأشعل في دراسة له بعنوان: «قضيّة القدس حسب القانون الدولي وموقف إسرائيل منها»، واستناداً إلى uth LapidothR، «أنّ الفقه الصهيوني يستند في ضم غرب القدس إلى عدد من المبررات القانونية، المبرر الأول: أنّ الضم عمل من أعمال الدفاع الشرعي عن النفس، والمبرر الثاني: أنّه تجسيد للوعد التوراتي واسترجاع لحق طال غصبه، والمبرر الثالث: أنّ الضم قد

تم لهذا الشطر من المدينة بسبب الفراغ القانوني في السيادة الذي كان سائداً منذ قرار التقسيم»(619) وإنّه من السخرية اعتماد هذا الكلام في المجال القانوني، لأنّ إسرائيل قامت على احتلال أراضي الغير، وقد اختُلقت بشكل ينافي كلّ القوانين الدولية، وبالتالي فإنّ سيطرتها على مزيد من الأرض تمّ عبر تعدّيها المستمر وحروبها على الدول العربية مما يرفضه أيضاً القانون الدولي. فنظرية الدفاع عن النفس ساقطة أصلاً لأنّ إسرائيل هي المعتدية ولم يقم أيّ فلسطيني، قبل احتلال أرضهم، بمهاجمة أيّ يهودي في أيٍّ من دول العالم. أما القول بأنّ الضم هو تجسيد للوعد التوراتي فإنّه لأسخف مبرّر لأنّ هذا الوعد التوراتي يخص اليهود وحدهم ولا يلزم غيرهم من جهة، وهو وعد لاهوتي لا علاقة له بالقوانين الوضعية المتفق عليها بين دول العالم من جهة ثانية. والمبرر الثالث مرفوض أيضاً لأنّ هذا الفراغ القانوني أحدثه الإرهاب الإسرائيلي وتآمر المجتمع الدولي وخضوعه لهذا الإرهاب.

وبالرغم من كلّ الانتهاك الذي قامت به العصابات الصهيونية للقانون الدولي، يبقى الاحتلال الإسرائيلي للقدس الغربية عام 1948 «واحتلال المدينة كاملة سنة 1967، ومن ثم ضمّها إلى إسرائيل، يعدّ انتهاكاً صارخاً للقانون الدولي من قِبَل دولة الاحتلال ومخالفاً لالتزاماتها الواجب عليها كدولة احتلال»(620).

ويتابع الدكتور الأشعل قائلاً: «إنّ قرار التقسيم هو سند وضع القدس وقيام الدولة الفلسطينية، وأمّا القراران 242 و 338 فهما يحثّان إسرائيل على الانسحاب من الأراضي التي احتلتها في حرب 1967، على أساس أنّ الحرب لا توجد حقاً في الإقليم ولا تؤثر على السيادة»(621). إذن كلّ أعمال إسرائيل الهادفة إلى إفراغ القدس من الفلسطينيين عبر تهديم منازلهم وطردهم تعدّ، ليس خرقاً للقانون الدولي فحسب، بل أيضاً أعمالاً إرهابية تصفق لها الإدارة الأميركية بكلّ وقاحة مانحة كلّ الدعم لهذا الإرهاب، ثم تدّعي محاربة الإرهاب. إنّها ازدواجية المعايير التي تحددها المصالح لا المبادئ ولا القوانين. فالإرهاب الإسرائيلي لم يقتصر على قتل البشر وتعذيبهم وطردهم، بل طاول جرف الكروم وأشجار الزيتون والمنازل دون أن يرفّ لهم أو للعالم المتحضّر جفن. إنّها عملية تطهير عرقية تقودها إسرائيل بحق الشعب الفلسطيني محاولة محوه من خارطة الوجود الإنساني لكي تُنسي العالم خارطة فلسطين الجغرافية. يقول هشام شرابي في دراسة له ما يلي: «تفسير هذا الموقف واضح بلغة سيكولوجيا الجماعات. فبإلغاء وجود الفلسطيني يُلغي اليهود الجرائم التي ارتكبوها ضد الشعب الفلسطيني. وبإرساء صفة الإرهاب على الفلسطينيين وتجريدهم من صفتهم الحضارية والإنسانية يبررون سحقهم وإلغاءهم بالفعل»(622). هذا هو مخطط الصهاينة، أمّا إذا لم ينجحوا بتحقيق هذا المخطط لأكثر من سبب فعلى الفلسطينيين «إذا أرادوا البقاء فوق هذه الأرض أن يقبلوا العيش كالكلاب، ومن لا يعجبه هذا فليرحل وسنرى كيف ستنتهي الأمور»(623).

وإمعاناً منها بعملية التهويد تدخلت إسرائيل بالمناهج التربوية الفلسطينية لمحو أيّة كلمة تعتبر أنّ فيها إساءة إليها. وفي هذا الصدد جاء في جريدة السفير الخبر التالي: «خطت إسرائيل خطوة جديدة أمس باتجاه تهويد مدينة القدس المحتلة، بما فيها من مقدسات وأرض وحجر وبشر وتلاميذ في مدارس فلسطينية تعاني أصلاً من كوارث يضاف إليها اليوم مصيبة إلغاء طابع العروبة في مناهجها الدراسية الفلسطينية، وذلك بقيام بلدية الاحتلال بتوزيع تعميم يفيد بأنّها باشرت بتوزيع كتب المنهاج الدراسي

على هذه المدارس غير المنهاج المعتمَد. وقالت الحملة إنّ المنهاج «المحرَّف» على سبيل المثال يشطب فكرة أنّ القدس مدينة محتلة، ويُزيل أي كلمة لها علاقة بالانتفاضة أو قصائد وطنية»(624). هي ليست فقط عملية احتلال وإبادة شعب، بل هي أيضاً عملية محو ذاكرة الأجيال لكي لا يبقى اسم فلسطين يتردد على ألسنتهم. لكنّ الشعب الفلسطيني الصامد والمجاهد والمناضل في سبيل استعادة أرضه، لم تثنهِ كلّ هذه المحاولات الإرهابية عن متابعة مسيرته الجهادية، فإذا بالانتفاضة تنطلق من رحم الظلم، وإذا بالإرهاب يزداد شراسة متجسداً قمعاً وقتلاً وهدماً وسجناً.

لم يسلم أحد من إرهاب الصهاينة عملاً بوصايا يهوه الذي قال لبني إسرائيل: «وحرّموا كلّ ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحدّ السيف» (يشوع 6: 21). لقد حفظوا الوصية، ومن منا لا يذكر كيف قتلوا الطفل محمد الدرّة في حضن أبيه. إنّ أعمال العنف بحق الأطفال لم تتوقف، وقد جاء في جريدة السفير الخبر الآتي: «كشفت مواقع إلكترونية، من بينها موقع «يوتيوب» مجدداً عن فضائح يمارسها جيش الاحتلال بحق الفلسطينيين، ولا سيما الأطفال، وآخر هذه الفضائح فيديو يصوّر خمسة من جنود الاحتلال وأربعة مستوطنين يقتلون طفلاً في مدينة القدس المحتلة عمره 13 سنة. ويُظهر الفيديو أربعة مستوطنين في سيارة بيضاء اللون يقومون بمهاجمة أطفال يلعبون كرة القدم، ثم يتلقون مساعدة من حرس الحدود الذين يعتدون على الطفل إسلام جابر بطريقة بشعة قبل اعتقاله»(625). «فمن يجرؤ على الكلام»؟! إنّ تهمة اللاسامية جاهزة في أفواه الإعلام الصهيوني الحاضر أبداً للتشهير بكلّ من تسوّل له نفسه انتقاد إسرائيل وأعمالها الإرهابية، وعلى سبيل المثال لا الحصر، أوردت جريدة السفير الخبر التالي: «وجّهت إسرائيل، أمس، انتقادات حادة لأربع دول أوروبية أعضاء في مجلس الأمن الدولي بعد إصدارها بياناً أدانت فيه قرار حكومة نتنياهو الأخير طرح استدراج عروض لبناء وحدات استيطانية في القدس والضفة الغربية المحتلتين، فيما ساندت الولايات المتحدة الموقف الإسرائيلي معتبرة أنّ اعتراض الدول الأوروبية في الأمم المتحدة على الاستيطان لا يفيد»(626). وبالطبع لم تتجرأ أيّة دولة الرد على رئيس وزراء إسرائيل بما يحفظ ماء وجهها أولاً، ويحفظ الحق لأصحابه ثانياً. ويذكر إحسان أديب مرتضى أنّ المؤرخ الإسرائيلي تيدي كاتس اكتشف «دلائل مادية وموثقة على أنّ قوات عسكرية إسرائيلية قتلت مئتي فلسطيني في قرية واحدة يوم إنشاء إسرائيل عام 1948 في واحدة من أبشع المجازر التي يكشف النقاب عنها، والتي عُرفت في الصحف الإسرائيلية بمجزرة الطنطورة». وكان هذا الاكتشاف كافياً لإحالة المؤرخ إلى المحاكمة بتهمة الإساءة إلى الجيش الإسرائيلي(627). كذلك كشف المؤرخ الإسرائيلي آربيه إسحق «عن قتل قرابة ألف أسير من الجنود المصريين في سيناء أثناء حرب حزيران 1967 بعد أن ألقوا سلاحهم»(628) إلى جانب حوادث أخرى مماثلة تم الحديث عنها من قِبَل بعض الإسرائيليين أنفسهم.

وكيف يمكننا أن ننسى ما تقوم به إسرائيل من سجن الذين يواجهون بربريتها بحجارة أرضهم الطيبة، حيث يقبع الآلاف منهم في سجونها متحملين كلّ أنواع التعذيب التي يستمدّها الصهاينة من وصايا إلههم. لقد أجريت دراسة ميدانية مع أكثر من 50 معتقلاً لبنانياً كشفوا خلالها أساليب التعذيب التي تعرضوا لها، منها الصلب على العمود، صب الماء البارد والساخن تباعاً على الجسم، الصعق بالكهرباء إلخ... ويصل الكاتب إلى القول: «ويتبين من البحث الميداني أنّ التعذيب يمارس وفق طرق منهجية، مما يؤدي إلى إصابة العديد من المعتقلين بعاهات وأمراض مزمنة بسبب عدم توفير العلاج

اللازم لهم»(629). إنّ المشكلة الأساس لهذه المسألة هي أنّ إسرائيل التي لا تتقيد بالقوانين الدولية تعتبر السجناء الفلسطينيين وغيرهم أسرى حرب وتتعامل معهم على هذا الأساس.

وتقول سيلفيا نيكولاو جارسيا في دراسة قانونية لها تحت عنوان (الأسرى الفلسطينيون في السجون الإسرائيلية: وضعهم القانوني وحقوقهم) «على الرغم من أنّ «إسرائيل»، كسلطة محتلة، لها الحق وفقاً للقانون الدولي الإنساني بإنشاء محاكم عسكرية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، فإنّ تطبيق القانون الدولي لحقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني يقيّد حق محاكم كهذه في نظر الدعاوى والفصل فيها»(630) ثم تقول: «يمكن اشتقاق شروط أسرى الحرب وأوضاعهم من المادة الرابعة من اتفاقية جنيف الثالثة ومن المادتين 43 و 44 من البروتوكول الأول، اللتين نشأت منهما المادة الرابعة المذكورة. وبتطبيق التعريفات المعطاة في المادة الرابعة من اتفاقية جنيف الثالثة حول أسرى الحرب، فإنّ الأسرى الفلسطينيين لا يمكن اعتبارهم أسرى حرب»(631). لكنّ إسرائيل لا تشعر بالحرج من خرقها لكلّ القوانين الدولية لأنّها وُلدت أصلاً من رحم خرق القانون الدولي على يد الأمم المتحدة، راعية هذا القانون، والتي أصدرت قرارها بتقسيم أرض شعب له كيانه دون أن يكون له رأي بهذا القرار الجائر.

ولم تكتف إسرائيل بهذا الكم من الإرهاب المبرمج والمستند إلى تعاليم ووصايا يهوه والأنبياء، إذ إنّ أوامر طرد الشعوب القديمة من أمام بني إسرائيل لم تتم بدليل ما ورد في التوراة عن الحروب التي استمرت بين بني إسرائيل والفلسطينيين الذين كانوا يفوزون ببعض المواقع ويسيطرون لفترات طويلة، والتمازج الذي تحدثت عنه التوراة أيضاً بين سكان كنعان وبني إسرائيل والذي أدى في أحيانٍ كثيرة إلى ترك بني إسرائيل عبادة إلههم وانتقالهم إلى عبادة آلهة كنعان. أمّا إسرائيل اليوم، معتمدة على قوتها ودعم العالم الغربي الاستعماري لها، فإنّها لم تكتف بالقتل والطرد، بل منعت الفلسطينيين من العودة إلى ممتلكاتهم مرتكبة بذلك مخالفة أخرى للقوانين الدولية وقرارات الأمم المتحدة.

يقول الدكتور شفيق المصري في دراسة له تحت عنوان (حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة) ما يلي: «يشكّل حق الفرد في العودة إلى بلده جزءاً أساسياً من حقوق الإنسان، فالمادة 13 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر سنة 1948 تنص على أنّ: «1 - لكلّ فرد حق حرية التنقل، وفي اختيار محل إقامته داخل حدود الدولة؛ 2 - لكلّ فرد حق في مغادرة أي بلد، بما في ذلك بلده، وفي العودة إلى بلده»(632). ثم يشير إلى «أنّ إسرائيل عضو في هذه النصوص المتقدمة، سواء في ما يتعلق باتفاقية منع التمييز العنصري أو الشرعة الدولية للحقوق المدنية والسياسية أو اتفاقيات جنيف الأربعة. وبالتالي فإنّها مُلزَمة، حسب الأصول، بكلّ بنود هذه النصوص المتقدمة... إنّ حق العودة، كنص مُلزِم، لا يقتصر على النصوص الدولية الآنفة الذكر فقط، فهو ملحوظ في عدد كبير من الشرعات الناظمة الإقليمية أيضاً»(633). هذه الحقوق ملزمة لكلّ الدول إلاّ لإسرائيل والولايات المتحدة المتسلحتين بالقوة العسكرية، وقوة حق النقض.

إنّ الثقافة الصهيونية تقوم على مبدأ القوة المستمد من التعاليم اليهوهية. يقول المفكر الصهيوني جابوتنسكي: «لا يمكن أن توجد قوانين صالحة إلاّ حينما توجد أسلحة قوية، وحيثما توجد أسلحة قوية توجد قوانين صالحة». أمّا بن غوريون فكان له رأي بوضع فلسطين مستمد أيضاً من الفكر الصهيوني، يقول: «إنّ الوضع في فلسطين لا يمكن أن يسوّى إلاّ بالقوة العسكرية، الحرب هي

الحرب، وبالتالي فإنّ عودة العرب إلى يافا ليس ظلماً وإنّما خطيئة كبرى». هذه الأقوال، وغيرها الكثير، تؤكد على الثقافة الإرهابية العدوانية للصهيونية ووليدتها إسرائيل، هذه الثقافة التي تجسدت مجازر وإبادة وهدم وطرد دفعت المندوب السامي الأول لبريطانيا في فلسطين اليهودي هربرت صموئيل إلى القول: «إنّ الشعب اليهودي قد فاخر دائماً بالأعمال الطيبة، آيات التفوق التي أنجزها وظفر بها الشعب وبعدد العلماء والكتّاب والموسيقيين والفلاسفة، والساسة الذين خرجوا من صفوف اليهود. واليوم وجدت في صفوف هذا الشعب نفسه طائفة من السفاحين تنكّروا في ثياب مزيّفة للجنود ورجال الشرطة، قد أخذوا يلقون القنابل خبط عشواء وينسفون القطارات...»(634).

وهذه الثقافة الإرهابية نفسها تركت آثاراً سلبية على بعض مسؤولي إسرائيل ومفكري اليهود. جاء في صحيفة السفير أنّ «رئيس الشاباك السابق يوفال ديسكين صرّح بأنّ إسرائيل تحوّلت في السنوات 10 – 15 الأخيرة إلى دولة عنصرية أكثر فأكثر. هذه عنصرية تجاه العرب، تجاه الأجانب، تجاه المختلفين، لقد أصبحنا مجتمعاً نازعاً نحو القوة من حيث نظرتنا إلى طريق حل المشاكل»(635). وها هو أبراهام بورغ، الرئيس الأسبق للكنيست الإسرائيلي والوكالة اليهودية يعترف بـ«أنّ المفاجأة الأكبر التي ظهرت أمامي خلال كتابة هذه الصفحات هي أنّ البنى السياسية والاجتماعية والقومية الأكثر شبهاً لإسرائيل هي بُنى ألمانيا في فترة بلورتها، منذ إقامة الرايخ الثالث وحتى فترة الفوضى التي أدت إلى صعود النازيين»(636). ولقد أدلى إسرائيل شاحاك، أستاذ الكيمياء العضوية، بدلوه في هذا المجال فقال: «وينبغي أن نتذكّر، وأن يتذكّر اليهود أنفسهم بصفة خاصة، حقيقة أنّ مجتمعنا الاستبدادي اعتمد ولقرون من الزمن، عادات بربرية وغير إنسانية لتسميم عقول أفراده وبأنّه لا يزال يفعل ذلك... وإنّنا جميعاً نصبح شركاء في هذا الخداع إذا لم نواجه هذه الحقيقة الاجتماعية الواقعية، متواطئين في عملية تسميم أجيال الحاضر وأجيال المستقبل، مع كلّ ما لهذه العملية من عواقب»(637).

وهذا الإرهاب العسكري هو ما دفع بالأب مايكل برير إلى اعتبار الكتاب (أي التوراة) «يتمتع بسلطة فريدة داخل الكنيست والكنيسة. فالتوراة مرسلة من السماء. وبما أنّها تشتمل على المطالب التي فرضها الرب على شعبه، فالحرص على التقيد بشرائعها هو أسمى الواجبات الدينية»(638). وهو يعتبر أنّ الاستعمار الأوروبي للقارة الأميركية تحديداً، وقتل السكان الأصليين استمد شرعيته من «الكتاب المقدس» مما دفعه إلى التساؤل «عمّا إذا كانت التوراة ما تزال مصدر تقديم شرعية سماوية لاحتلال أراضي شعب آخر وإبادة فعلية للسكان الأصليين»(639). ورأى أنّ هذه الشرعية تُعتبر «نفياً لوجود العناية الإلهية بحد ذاتها». ثم يورد قولاً للمؤرخ أرنولد توينبي الذي أكد أنّ «اعتقاد بني إسرائيل المسجل كتابياً بأنّ يهوه حضّهم على إبادة الكنعانيين هو الذي أقرّ للإنجليز الاستيلاء على أمريكا الشمالية وإيرلندا وأستراليا، وأقر للهولنديين الاستيلاء على جنوب أفريقيا، وللبروسيين الاستيلاء على بولندا، وللصهاينة الاستيلاء على فلسطين»(640).

هذا من الناحية السياسية، أمّا من الناحية اللاهوتية فقد تطرّق الأب برير إلى رأيين، الأول للقس الفلسطيني نعيم عتيق الذي وضع الإصبع على الإشكالية التي أوقع المسيحيون أنفسهم فيها من خلال اعتبارهم أنّ العهد الجديد هو إكمال للعهد القديم فقال: «عدّ العهد القديم، قبل قيام إسرائيل جزءاً أساساً من النصوص المسيحية المقدسة المسيّرة إلى يسوع والشاهدة له. فمنذ قيام الدولة، قرأ بعض

المسؤولين اليهود والمسيحيين العهد القديم نصاً صهيونياً بشكل أساس، إلى الحد الذي اقترب فيه من أن يكون نصاً منفراً للفلسطينيين المسيحيين. إنّ السؤال الذي يطرحه العديد من المسيحيين، سواء جهروا به أم لا، هو: كيف يمكن أن يكون العهد القديم كلمة الرب، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار معاناة الفلسطينيين المسيحيين واستخدامه في دعم الصهيونية»(641). والرأي الثاني لعالمة اللاهوت الصينية كووك بوي لان التي تساءلت: «أين أرض الميعاد الآن؟ وهل يمكنني أن أؤمن بإله قتل الكنعانيين ولم يُصغِ منذ أربعين عاماً إلى صرخات الفلسطينيين؟»(642).

إن إله الكون الشمولي المتجسد بيسوع المسيح سمع أنين اليتامى والجياع والمرضى والخطأة فصُلب فداءً عن البشرية جمعاء، أمّا يهوه، إله بني إسرائيل الخاص، فلم يسمع إلاّ صراخ شعبه «الذي في مصر»، ولم يعلم سوى أوجاع شعبه، ولم ينزل إلاّ لإنقاذ شعبه الخاص: «فقال الربّ إنّي قد رأيت مذلّة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخّريهم. إنّي علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة واسعة» (خروج 3: 7 – 8). فإليك أخي المؤمن أتوجه بالسؤال التالي: إذا كان المصريون قد أذلّوا شعب يهوه فنزل لإنقاذه، فما ذنب الكنعانيين ليطردهم ويبيدهم؟ ألم يكن الأجدر به مثلاً إبادة شعب مصر، وتثبيت شعبه في مصر بدلاً من إخراجه منها وتركه يتيه 40 سنة في الصحراء؟ ألا يقودنا ذلك إلى مُلفّقة لعنة نوح لكنعان تمهيداً لاستباحة أرضه من قِبَل شعب يهوه الخاص؟ ألم يحن الوقت لوقفة جريئة تنهي هذه المقولة المنسوبة إلى الله وتضعها في إطارها الأسطوري الصحيح؟ إلى متى سنبقى أسرى الإرهاب اليهوهي الذي يستمد منه اليوم الإرهاب الإسرائيلي شرعيته، ومغمضي الأعين عن «المشكلة الرئيسية في بعض تقاليد العهد القديم، وعلى وجه الخصوص تلك التي تعنى بأرض الميعاد، التي تصور الربّ، كما ينظر إليه العديد من الناس العصريين، على أنّه إله عنصري ذو نزعة عسكرية يكره الغرباء»؟ (643).

إنّ النزعة الاستعمارية التوسعية لدى دولة إسرائيل، والتي كانت نتيجتها لغاية اليوم سلسلة من الحروب ابتدأت مع احتلال جزء من فلسطين عام 1948 واستمرت بعدوانية إرهابية مشهودة في حروب 1956 و 1967 و 1973 واجتياح لبنان عام 1982 وتدمير بناه التحتية عام 2006، لن تنتهي فصولها، لأنّ هذه الدولة تقتات من الإرهاب وهو الذي يمدّها بنسغ الحياة. الإرهاب الذي ترتكبه إسرائيل لا يُبرَّر بما ارتكبته أوروبا بحقهم، خاصة النازية، إذ كيف يجوز أن تشتكي من الشيء وتقوم بمثله. وقف أرنولد توينبي في جامعة «ماك فيل» في مونتريال – كندا عام 1961 وقال: «إنّ الطريقة التي عامل بها اليهود العرب عام 1947 كانت غير مبرَّرة من الناحية الأخلاقية بقدر مجزرة الستة ملايين يهودي على يد النازيين»(644).

إن قيام دولة إسرائيل كان العمل الإرهابي الأكبر واستمرارها هو استمرار لإرهاب يهوه. كان بمقدور اليهود الهجرة سلمياً إلى فلسطين والعيش بسلام مع أهلها، لكنّهم اعتادوا على فعل الشرّ منذ القِدَم، وبأفعالهم الشرّيرة ما زالوا مستمرين. جاء في «وثيقة الاستقلال» التي أعلنت قيام دولة إسرائيل عام 1948 «وعندما أجلي الشعب اليهودي (ليس هناك شعب بل طائفة) عن بلاده بالقوة، حافظ على عهده لها وهو في بلاد مهاجرة بأسرها ولم ينقطع عن الصلاة والتعلق بأمل العودة إلى بلاده واستئناف حريته السياسية فيها. وبدافع هذه الصلة التاريخية التقليدية أقدم اليهود في كلّ عصر

على العودة إلى وطنهم القديم والاستيطان فيه». ألا يعني هذا الكلام أنّه ما من أحد قد منع اليهود من العودة والإقامة في وطنهم، عندما أتت عودتهم طبيعية، عكس عودتهم الأخيرة المرتكزة على الاحتلال والإرهاب؟ ألا يُعتبر هذا تناقضاً مع منعهم الفلسطينيين اليوم من العودة إلى وطنهم بدافع صلتهم التاريخية التقليدية به؟ أليس شعورهم بحبهم لأرضهم مشابهاً لشعور كلّ إنسان ينتمي إلى أرض معيّنة بغض النظر عن دينه وعرقه ولونه ومعتقداته؟

قال غاندي: «لقد أخطأ اليهود خطأ قاتلاً حين فرضوا أنفسهم على فلسطين بمساعدة أميركا وبريطانيا، والآن بمساعدة الإرهاب البشع لماذا يريد اليهود فلسطين؟ إذا كانوا يريدونها لأسباب دينية فالعنف ليس الطريق إلى الحصول عليها، بل عليهم أن يعيشوا مع أهلها كمواطنين عاديين وبسلام». وكأني بغاندي قد علم حق العلم نفسية اليهود القائمة على حقدهم على البشر جميعاً، وعلى الانتقام متشبهين بإلههم وانتقامه من المصريين، فاستدرك ليقول: «الانتقام حلو المذاق، أمّا الغفران فميزة إلهية وليست لبني الإنسان»(645). ونحن بالرغم من كلّ إجرامهم وإرهابهم نردّد مع يسوع: اغفر لهم يا أبتاه لأنّهم لا يدرون ما يفعلون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الباب الثاني

الإرهاب السياسي

«إنّ القانون الدولي هو قصاصة من الورق»

بن غوريون

«خذوا إعلان الأميركيين لاستقلالهم. إنّه لا يشتمل على أي إشارة إلى الحدود الأرضية. ونحن لسنا مرغمين على تثبيت حدود الدولة»

جيروواليم بوست 10 – 8 – 1967

«ليس من حق الدولة المحتلة أن تقوم بنقل جزء من شعبها المدني إلى الأراضي التي احتلتها»

المادة 49من اتفاق جنيف

12 – 8 – 1949

يعتقد كُثُر أنّ الإرهاب يقتصر على الأعمال العسكرية العدائية التي تنتج عنها أضرار تلحق بالأرواح (قتل، جرح، إعاقة...)، ويغفلون عن حقيقة بيّنة وهي أنّ الإرهاب، وانطلاقاً من المفهوم اللغوي الذي أشرنا إليه، يتعدى فعل الأذية الجسدية ليصل إلى كلّ أذيّة تطال حياة الإنسان الفرد أو الجماعة. وإذا كان الإرهاب العسكري يتم عبر استعمال القوة المسلّحة، فإنّ أنواعاً أخرى من الإرهاب تُمارس بحق الأفراد، أو الجماعات، أو الدول، بحيث لا تقلّ تأثيراتها سلبية عن الإرهاب العسكري. فالقوة العسكرية تسلب الشعوب حريتها، وتمعن بهذه الشعوب اضطهاداً وظلماً، فيأتي الإرهاب السياسي، الذي يمارس على المطالبين بالحق والعدل، ليخفت الأصوات الشجاعة المستنكرة، وليصبح بذلك الداعم الأول للإرهاب العسكري. ولقد لمست الصهيونية أهمية هذا الإرهاب فمارسته بكلّ إتقان ودقة، معتمدة على ما قام به منظّروها، من وضع الخطط الكفيلة بالسيطرة على مراكز القرار العالمية. ومن يتتبع نشاط المنظمة الصهيونية، منذ انطلاقتها مع مؤتمر بال في سويسرا عام 1897 ولغاية اليوم، يدرك مدى دقة هذا التخطيط وفعاليته.

لم يترك هرتزل، الأب الروحي للصهيونية، باباً إلاّ وطرقه لإقناع قادة العالم آنذاك، السياسيين والروحيين، بالحسنى أحياناً والتملّق والكذب والخداع والرشوة أحياناً أخرى، حتى توصل الصهاينة، وبعد موته، إلى الحصول على وعد بلفور، وزير خارجية بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى، والذي أثبته في رسالة بعث بها إلى اللورد روتشيلد أحد زعماء الصهيونية في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، والذي جاء فيه: «إنّ حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي، وسوف تبذل أفضل جهودها لتسهيل بلوغ هذه الغاية». لقد تطرّق الكثيرون إلى عدم قانونية وإلزامية هذا الوعد، كونه أتى من سياسي لا يملك أي حق بتقرير مصير أرض يسكنها شعب، بغض النظر عن وضعية الأرض والشعب معاً في زمن وظرف محدَّدَيْن. حتى بعد الانتداب البريطاني على فلسطين، والذي سعى الصهاينة إلى فرضه سبيلاً وحيداً إلى تحقيق

غايتهم وتنفيذ وعد بلفور، فإنّ هذا الإنتداب لا يعطي الحق لبريطانيا بتغيير معالم البلد الذي فرضت نفسها مُنتَدَبة عليه بالقوة، لا من الناحية الجغرافية ولا من الناحية الديمغرافية.

يقول حاييم وايزمن في مذكراته: «كان الحل عندنا هو أن ننتدب بريطانيا على فلسطين لتتولى الإشراف علينا 10 – 20 سنة، حتى إذا تقوّينا ذهبت بريطانيا وبقينا نحن، فنحن الذين أعطينا فلسطين إلى بريطانيا مؤقتاً وليست بريطانيا هي التي أعطتنا فلسطين»(646). وهنا سار الإرهاب السياسي جنباً إلى جنب مع الإرهاب العسكري الذي بدأت تمارسه العصابات الصهيونية التي تسللت إلى فلسطين تحت غطاء الانتداب. وتمكّن الصهاينة عبر إرهابهم السياسي من دفع الأمم المتحدة على اتخاذ قرار التقسيم متجاوزة بذلك كلّ القوانين الدولية والأعراف الإنسانية. لقد تمكّنت الصهيونية من فرض إرادتها على الأمم المتحدة من خلال إدخالها أعداداً هائلة من الموظفين المنتمين إلى الماسونية إلى كوادر الأمم المتحدة، ومن خلال ضغوطها على مندوبي الدول مستعملة شتى الوسائل المشروعة منها وغير المشروعة.

أورد سهيل التغلبي الخبر التالي: «في إحصائية للأستاذ عبد الله التلّ في كتابه «خطر اليهودية» تبيّن منها أنّ 60 بالمئة من عدد العاملين في الأمم المتحدة أعضاء عاملون في الجمعيات الماسونية»(647). ولقد تطرّق وليام غاي كار إلى هذا الموضوع فبعدما أشار إلى قيام النورانيين العالميين، الذين يصفهم بالأيدي الخفية ويتكلّم عنهم بوضوح على أنّهم الماسونيون واليهود تحديداً، بتحطيم عصبة الأمم، يقول بأنّ الفرصة واتتهم، بعد الحرب العالمية الثانية التي كانوا وراء إشعالها، لتأسيس الأمم المتحدة والسيطرة عليها. يقول: «وقد يعتقد بعض القراء أنّنا نبالغ في أمر النفوذ الذي تمارسه الماسونية في القضايا الدولية. إنّنا نحيل هؤلاء على كتاب «دكتاتورية الماسونية الفرنسية» لمؤلّفه أ. ج ميشيل. ففي هذا الكتاب يثبت المؤلف أنّ محفل الشرق الأكبر في فرنسا أصدر قراراً عام 1924 بوجوب السيطرة على عصبة الأمم وجعلها أداة تابعة للماسونية الحرة»(648)، ويضيف قائلاً: «والدليل على سيطرة القوى الخفية على الأمم المتحدة وتمكّنهم من تنفيذ مخططاتهم عبرها هو أنّ الأمم المتحدة سلّمت فلسطين إلى الصهيونية السياسية بعدما كان الصهيونيون يسعون وراء ذلك لمدة نصف قرن من الزمان»(649). ولم تكتفِ الأمم المتحدة باتخاذ قرار التقسيم، الذي منحت بموجبه أرض شعب إلى شعب آخر، بل ومنذ ذلك الوقت لم تستطع إلزام الدولة التي خلقتها من لا شيء التقيُّد بقراراتها وتنفيذها، في الوقت الذي نفذت فيه ما يلائمها من هذه القرارات.

ينقل السيناتور الأميركي بول فندلي عن موشي شاريت الذي تولى وزارة الخارجية في إسرائيل قوله: إنّ قرار الأمم المتحدة المتعلق بتقسيم فلسطين له قوة مُلزمة، وبما أنّه ورد ثلاث مرات في وثيقة إعلان استقلال إسرائيل (استقلالها عن من؟ هل كانت تحت الاحتلال؟ أم أنّها خُلقت من العدم؟) فهذا يعني أنّه قد أصبح مبرراً قانونياً لإقامة الدولة. وعلى هذا الكلام يردّ السيناتور الأميركي قائلاً: «لكن الجمعية العامة، بعكس مجلس الأمن، لا تملك صلاحيات تتعدى إصدار التوصيات. كما أنّها لا تستطيع فرض توصياتها بالقوة. وأنّ توصياتها ليست ملزمة قانونياً»(650). لكنّ إسرائيل لم تكتفِ بعدم تطبيق توصيات الأمم المتحدة بل هي رفضت تطبيق قرارات مجلس الأمن الملزمة مستعملة كل الطرق للتملّص من الالتزامات. ويقول لوسيان كافرو دومارس: «احتفظت (إسرائيل) بالأراضي المحتلة عام 1948 – 1949 بفضل التلاعب بالقانون الدولي الذي أتقنه مجلسها»(651). وغالباً ما

يكون نص قرارات مجلس الأمن من صنع الصهاينة أنفسهم، بحيث تسمح لهم النصوص بتأويلها حسب مصالحهم. فالمعهد الدولي لحقوق الإنسان أنشئ على يد البروفسور رينيه كاسين الذي كان مستشاراً قانونياً لحكومة إسرائيل، وبعد أن حاز على جائزة نوبل للسلام صرّح لإذاعة صوت إسرائيل «حول القضية المتعلقة بتطبيق قرارات مجلس الأمن الصادرة في 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1967، بقوله إنّه واثق من قوة الإجراءات القضائية المختارة في جعل هذه القرارات غير قابلة للتطبيق من قِبَل الأمم المتحدة»(652).

وإذا كان قرار التقسيم غير قانوني، فإنّ تنفيذ إسرائيل له كان استنسابياً، إذ إنّها لم تعط المساحة التي كانت أقرتها الأمم المتحدة للفلسطينيين لإقامة دولتهم، وهي لغاية الآن لم تفعل، ولم تنفذ القرار رقم 194 والقاضي بعودة اللاجئين (المطرودين) الفلسطينيين إلى أراضيهم، وهي لغاية اليوم لم تفعل أيضاً. إسرائيل ربما تكون الدولة الوحيدة في العالم الموقعة على المعاهدات الدولية المتعددة، والتي تعنى بحقوق الإنسان، حماية المدنيين، التمييز العنصري، عدم احتلال وضم الأراضي بالقوة، والتي لا تلتزم هذه المعاهدات ولا تحترم توقيعها. وأهم القرارات والتوصيات الصادرة عن مجلس الأمن والأمم المتحدة والتي لا تزال حبراً على ورق هي: 123 – 181 – 194 – 242 – 338 – 425 – 487 – 520 – 521 وأهمها القرار 521 المختص بإبطال إجراءات ضمّ القدس، مما دفع وزير خارجية الفاتيكان الكاردينال جان لوي توران للقول في ندوة نظّمتها في القدس البطريركية اللاتينية في تشرين الأول/أكتوبر 1998: «إنّ أيّ حلّ منفرد ومفروض بالقوة لا يمكن أن يكون حلاً... إنّ القدس محتلة بشكل غير شرعي من قِبَل إسرائيل»(653).

إنّ وضع القدس لم يكن ليبقى كذلك لولا الدعم المسيحي الذي لقيه الإرهاب الصهيوني الذي لا ينفك يقضم الأرض متراً متراً. يقول جورجي كنعان حول هذا الموضوع: «ولكن المسيحيين الأصوليين في العالم الغربي شجبوا هيئة الأمم المتحدة (التي أدانت إعلان إسرائيل ضم القدس القديمة على أثر حرب حزيران 1967) وأيّدوا إسرائيل في عملها وفي تجاهلها لقرارات وتوصيات هيئة الأمم.. وصدرت البيانات المؤيدة للعمل الصهيوني، من ذلك مثلاً البيان الذي صدر عن اللجنة التنفيذية للمجلس الإسكندنافي الإنجيلي في أوائل آب/أغسطس، جاء فيه: طبقاً للرؤيا الإلهية في العهد القديم تخص مدينة القدس إسرائيل». ولم يقف هذا الدعم عند هذا الحد، بل إنّه استمر ولا يزال مستمراً إلى اليوم، وعلى سبيل المثال نظمت السفارة المسيحية الدولية في القدس، في 27 آب/أغسطس 1985، «المؤتمر الصهيوني المسيحي الأول، في القاعة ذاتها التي عقد فيها تيودور هرتزل المؤتمر الصهيوني الأول في آب/أغسطس 1897، صدر بنهايته بيان جاء فيه: «1 – يعلن المؤتمر أنّ اليهودية والسامرة (اللتين تسميان خطأ الضفة الغربية) هما جزء من إسرائيل. كما يجب أن تكونا كذلك بالحق التوراتي؛ 2 - يقرّ المؤتمر بوضع القدس غير الملتبس، مدينة داود، باعتبارها العاصمة الأبدية الموحدة لدولة إسرائيل المنبعثة حية»(654).

ولقد شهدنا في الماضي القريب تزلّف المرشح الجمهوري للرئاسة الأميركية رومني لليهود واعداً بالاعتراف بالقدس عاصمة أبدية لإسرائيل وبنقل السفارة الأميركية إليها. فكيف نطالب إسرائيل بتطبيق القرارات الدولية، إذا كان لها كلّ الدعم السياسي والديني الذي تتمناه للاستمرار بإرهابها؟ هذا المرشح زحف، وركع، وتوسّل، وقبّل الأحذية والأقفية لتأمين وصوله إلى الرئاسة، فهل سيكون

بإمكانه بعد الوصول، إن وصل، رفض طلب واحد لإسرائيل؟ إسرائيل هذه استطاعت التفلت من التزاماتها القانونية تجاه المجتمع الدولي ممارسة الإرهاب السياسي على قادة الدولة الأقوى في العالم، الولايات المتحدة الأميركية، باعتبارها الدولة الأكثر فاعلية في الأمم المتحدة ومجلس الأمن، مما دفع بالسيناتور الأميركي ويليام فولبرايت، الرئيس الأسبق للجنة العلاقات الخارجية للكونغرس الأميركي، إلى القول لمحطة ABC: «إنّ إسرائيل تسيطر على مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة الأميركية»(655).

إنّ كتب السيناتور الأميركي السابق بول فندلي الثلاثة (من يجرؤ على الكلام – لا سكوت بعد اليوم – الخداع) تعتبر مرجعاً مهماً لإثبات الإرهاب الصهيوني السياسي في الولايات المتحدة. فهذا السناتور الشجاع دفع حياته السياسية ثمناً لمواقفه الجريئة، والتي لم تتجاوز المطالبة بإعطاء الفلسطينيين حقهم بإقامة دولتهم، فكان ذلك كافياً لينصبّ غضب اللوبي اليهودي الصهيوني عليه فيصبح بنظرهم «عدو السامية النشط الذي يعتبر أحد أسوأ الأعداء الذين واجههم اليهود وواجهتهم إسرائيل في تاريخ الكونغرس الأميركي»(656). ويشير فندلي إلى خوف كلّ من اتصل بهم، من أساتذة جامعيين وسياسيين ورجال أعمال بارزين، من كشف هوياتهم حتى لا يصبحوا هدفاً للإرهاب الصهيوني(657). ويُعطي السيناتور فيندلي أمثلة كثيرة في مؤلفاته عن الإرهاب السياسي الذي يمارسه اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة. ففضلاً عن إسقاطه في انتخابات عام 1982، وإعلان هذا الإسقاط كانتصار للجنة الأميركية الإسرائيلية للشؤون العامة (AIPAC) حيث قال مديرها التنفيذي آنذاك توماس داين: «هذه حالة تثبت ما للوبي اليهودي من تأثير في تغيير الموازين. وقد تغلبنا على العقبات ودحرنا فندلي»(658)، لم يقف إرهاب هذا اللوبي عند هذا الحد، بل كان مستعداً للتدخل الفوري لإسكات أيّ صوت يحاول انتقاد سياسة إسرائيل ضد الفلسطينيين. وسنعطي بعضاً من الأمثلة التي أثبتها بدقة السيناتور بول فندلي. فنائب كاليفورنيا بول كلوسكي، الذي زيّن له النظام الديمقراطي الحق بإمكانية التعرض لهذا السيل من المساعدات العسكرية والمالية لإسرائيل، فتح عليه أبواب جهنم وتسابقت الصحف الصهيونية على مهاجمته واتهامه كالعادة بعدو السامية. إنّ هذا الإرهاب السياسي بحق عضو منتخب من قِبَل فئة من شعب الولايات المتحدة الأميركية يُعدّ تحدياً صارخاً لديمقراطية هذه الدولة التي يحاولون تصديرها إلى «الدول المتخلفة»، وهذه الديمقراطية دعت السيناتور فندلي إلى التساؤل: «ألا يحتمل أنصار إسرائيل صوتاً منشقاً واحداً»(659)، خاصة وأنّ هذا الصوت لم يُسمع في إسرائيل ذاتها بل في الولايات المتحدة.

ولقد كانت ضغوط اللوبي اليهودي سبباً باستقالة أندرو يونغ سفير الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة لمجرد اجتماعه في آب/أغسطس من عام 1979 بزهدي لبيب الطرزي، مراقب منظمة التحرير الفلسطينية في الأمم المتحدة. بهذه الطريقة سيطر اللوبي اليهودي على الأمم المتحدة. وهذه الحادثة لم تمنع القس ولتر فونتري من الاتصال بزهدي الطرزي، احتجاجاً منه أولاً على الضغوط التي أدت إلى استقالة يونغ، وثانياً لإثبات عدم موافقته على سياسة الولايات المتحدة المنحازة إلى إسرائيل. وبالرغم من أنّه، كالسيناتور فندلي، لم يكن معادياً لإسرائيل بالمطلق إذ قال بصراحة: «أنا من مؤيدي إسرائيل، ومؤيدي حق إسرائيل في الوجود، ولدي نفس الإحساس تجاه شعب مشتت هو الشعب الفلسطيني»(660)، فإنّه لم ينجُ من ملاحقة اللوبي اليهودي له والذي يعتبر أنّه لا توجد منطقة

وسطى ما بين الأسود والرمادي. فأنْ يصرّح أحدهم جهاراً بحق الفلسطيني بالوجود فهذا يعني أنّه ضدّ السامية أي ضد اليهود.

ويذكر فندلي كيف تعرض النائب الجمهوري تشارلز والن «لملاحقات اللوبي اليهودي لأنّه قبل دعوة لحضور مؤتمر عن الشرق الأوسط عقد في لندن في شباط/فبراير 1973 برعاية مؤسسة فورد»(661). وهذا هو النائب الديمقراطي كليمنت زبلوكي يعلن أنّ الحملة عليه لإبعاده عن تحمل مسؤولية رئيس لجنة الشؤون الخارجية كانت تستند إلى «الشعور بأنّني لا أكنّ صداقة كافية لإسرائيل»(662)، إذن على اللوبي اليهودي التحرك للجم هذا السياسي قبل أن يستفحل أمره.

سأكتفي بهذه الأمثلة من كتاب «من يجرؤ على الكلام» وهي لا تكاد تكون نقطة واحدة في بحر الإرهاب اليهودي المركّز في الولايات المتحدة. هذا الإرهاب الذي ما فتئ يستعمل بدعة السامية أسوأ استعمال والتي «لا تمت بصلة إلى الأصل العرقي أو الديني، ولا تدل على شيء أكثر من رفض المصادقة على كلّ قرار سياسي تتخذه حكومة إسرائيل... إنّ مجرد الاتهام باللاسامية يكفي لإسكات المنتقدين»(663).

أمّا إذا انتقلنا سوياً إلى كتابه «لا سكوت بعد اليوم» والذي يتطرق فيه إلى التركيز اليهودي على تشويه سمعة الإسلام في الولايات المتحدة عن طريق ربط كلّ عمل إرهابي ليس بالمنفِّذ، إن كان فرداً، ولا بالمنظمة، بل بالدين الإسلامي، فإنّه يتوصل إلى تحليل مفاده بأنّ التركيز الإعلامي على هذه المسألة سينتج عنه قبول بعض الأميركيين بالدعاية التي تقول بوجود خطر إسلامي على الولايات المتحدة، مما يُنتج خوفاً لديهم من الإسلام وازدياد عدد المسلمين فيها. ويركز الإعلام الصهيوني إلى أنّ هذا الأمر لا بدّ وأن يؤدي «إلى إضعاف دعم أميركا غير المشروط لإسرائيل القائم منذ زمن طويل»(664). ويشير إلى أنّ الإسلام دين سلام وتسامح، أما الإعلام الصهيوني فيربطه بالعنف وعدم التسامح.

وسأقتبس من كتابه السابق الذكر مقطعاً من مقال في Los Angeles Herald – Examiner عام 1989 جاء فيه: «هناك العديد من المنافقين بين قادة المسيحيين. لكن الإسلام بخلاف الأديان الأخرى، يُربط، في الأخبار والتقارير والمقالات، بالعنف باستمرار، في حين أنّه نادراً ما تذكر ديانة الفاعلين عندما ترتكب أعمال مروّعة على أيدي أناس ينتمون إلى ديانات أخرى. فالتقارير الإخبارية لم تُشِر، إطلاقاً، إلى المذابح المرتكبة ضد ألبان كوسوفو بأنّها أعمال قتل ارتكبها الصرب الأرثوذكس، وأنّ البورميين يُقتلون بأيدي البوذيين، وأنّ الفلسطينيين يُقتلون بأيدي اليهود. فالجناة يحددون روتينياً بهويتهم القومية، وليس بانتماءاتهم الدينية إلاّ عندما يكونون مسلمين. إذ لا يُنظر إلى مرتكبي العنف المسيحيين بأنّهم يشوّهون سمعة المسيحية، ولكن، إذا ارتكب مسلم إثماً، فإنّ هذا الإثم يُصوّر كعنصر من عناصر الخطر الإسلامي الداهم على أميركا»(665). إنّ المسؤول المباشر عن هذا الواقع هو اللوبي اليهودي الذي يسيطر على الإعلام في الولايات المتحدة ويلقّنه ما يريد لغسل أدمغة الأميركيين وحقنها بالحقد على الإسلام، ليس فقط، كما قال السيناتور فندلي، لضمان استمرار الدعم الأميركي لإسرائيل، بل أيضاً لحرف الأنظار عن الإرهاب الإسرائيلي اليومي الذي يمارس بحق الفلسطينيين.

ينقل ستيفن شيحي قولاً لهيرسي ألي مفاده: «إنّ أيّ تدخل عسكري في الشرق الأوسط مبرّر لأنّ الغرب في حالة حرب، ليس فقط مع المسلمين، بل مع الإسلام بذاته. وسبب الحرب يكمن، ليس بتواجد قوات الغرب على الأرض في عدة دول إسلامية، بل لأنّ الحرب أعلنت باسم الإسلام على الحضارة الغربية»(666). فهل بعد هذا الإسفاف بالتفكير من سبب يدعونا إلى تقبل الديمقراطية الأميركية - الإسرائيلية؟ وهل بعد هذا القلب للحقائق من مسوّغ لبعض الدول العربية والإسلامية من اللهاث وراء الحلول السلمية الأميركية - الإسرائيلية؟ وهل أقوال هؤلاء المنظّرين للسياسة الأميركية تنطلق من رؤوسهم الفارغة، أم من أفواههم التي جعلها اللوبي اليهودي أبواقاً تقرع طبول الحرب على الإسلام؟

إنّ الدعم الذي تحظى به إسرائيل في الأمم المتحدة جعلها بمنأى عن المحاسبة، وهذا الدعم ما كان ليتوفر لها فقط نتيجة ما نسجته من صداقات حول العالم فحسب، بل أيضاً نتيجة إرهابها السياسي ذي الأوجه المختلفة، لأنّ العالم كلّه قد أدان إسرائيل، واعتبرت الأمم المتحدة أنّ الصهيونية صورة من صور التمييز العنصري في جلستها العامة في 10 – 11 – 1975. ولكن سرعان ما تسنّت الظروف لإسرائيل بعد انهيار الإتحاد السوفياتي، حيث تفردت الولايات المتحدة بالسلطة المطلقة في الجمعية العامة، فضغطت على الدول وأجبرتهم على التراجع عن القرار وصولاً إلى إلغائه في 16 – 12 – 1991، لاغية بذلك كلّ الإثباتات على عنصرية إسرائيل، ليس فقط من خلال قمعها للفلسطينيين، بل أيضاً من خلال تعاملها لسنوات مديدة مع نظام جنوب أفريقيا العنصري. ولم يكن ضغط الولايات المتحدة بهذا الشأن، الذي مارسه الرئيس الأسبق جورج بوش (الأب) يتيماً في هذا المجال، بل تدخل رجال الدين المسيحيون مجدداً، فأصدروا بياناً إلى جميع المسيحيين ونشر في جريدة نيويورك تايمز، بمناسبة مرور أربعين عاماً على انتهاء الحرب العالمية الثانية «اعتبر فيه قرار الأمم المتحدة الذي أصدرته الجمعية العامة في 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1975، فضيحة لا بد من إزالتها من سجل الأمم المتحدة... وقد وقّع هذا البيان المئات من الكنائس البروتستانتية والقيادات الدينية»(667).

ولم تكن إسرائيل لتكتفي بالتمرد على الشرعية الدولية، بل كانت تتحداها. يشير إيلان هاليفي إلى هذه المسألة بقوله: «وفي سنة 1973 عندما تبنت الجمعية العمومية للأمم المتحدة قراراً يماثل الصهيونية بشكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري، كان رد الفعل عند الحكومة الإسرائيلية بأن غيّرت اسم كل «جادات الأمم المتحدة» لتصبح «جادة الصهيونية»، وقررت إقامة مستوطنات إسرائيلية جديدة في الضفة الغربية المحتلة»(668). أما نتائج التراجع عن هذا القرار فكانت مزيداً من العنصرية تمثل مؤخراً ببناء جدار الفصل العازل بحجة التخفيف من هجمات الفلسطينيين.

ومن جديد تحاول الأمم المتحدة التصدي لهذا الإرهاب الإسرائيلي المستدام دون جدوى. ففي 21 – 10 – 2003 اجتمعت للتصويت على قرارين: الأول إدانة بناء الجدار (وليس ضرورة تهديمه)، والثاني إمكانية عرض الموضوع على محكمة العدل الدولية في لاهاي علّها تتمكن من اتخاذ قرار يقضي بوقف البناء وهدم الجزء الذي تم بناؤه. وعلى الرغم من أنّ الجمعية العامة قد أدانت العمل بأغلبية 144 صوتاً، فقد أتى الدعم الأميركي ليضع حداً للمسّ بالمصالح الإسرائيلية فأسقط بالفيتو. وأظهرت إسرائيل الاستخفاف بالأمم المتحدة على لسان وزير التجارة والصناعة الذي قال: «إنّ

الجمعية العامة عبارة عن مؤسسة سياسية ولا يحق لها اتخاذ أيّة قرارات قانونية»، فكيف يتفق هذا المنطق مع ما قيل في وثيقة إعلان الاستقلال، عن قانونية قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة؟

ولقد تطرق شلومو ساند إلى هذه الازدواجية في المعايير متسائلاً كيف ستستطيع إسرائيل التوفيق بين ما جاء في هذه الوثيقة من «تلبية لمطالب الأمم المتحدة بشأن الطابع الديمقراطي للدولة... وبين الاستجابة للفكرة الصهيونية القاضية بالتشديد على حق اليهود في النهضة الوطنية في بلادهم والتي يجب أن تتجسد في دولة يهودية في أرض إسرائيل»(669). ولكن إسرائيل كانت مطمئنة، إذ كانت العقول الشرّيرة دائماً جاهزة لقلب الحقائق، وتأويل القوانين والقرارات الدولية بما يسمح لها الاستمرار بمخططاتها على حساب الشعب الفلسطيني. كانت مطمئنة إلى الدعم الدائم من الولايات المتحدة التي دجّنها الإرهاب اليهودي، فباتت تقدّم مصلحة إسرائيل على مصالح مواطنيها، وبات المواطن الأميركي يتحمل مبالغ طائلة كدافع للضريبة التي، وبدلاً من أن تُصرف للارتقاء بحياته نحو الأفضل، نجدها تُصرف بلا حساب لدعم إسرائيل عسكرياً ومالياً، ربما لأنّ هذا الدعم يؤمن لها استمرار وجودها في العالم العربي، وبالتالي نهب خيراته وإبقاء شعوبه فقيرة لا حول لها ولا قوة. وعلى الرغم من تصاعد بعض الأصوات التي تحاول جاهدة إبراز حقيقة أنّ مصالح الدول تتضارب أحياناً، وبالتالي على كلّ دولة العمل على تأمين مصالحها لا مصالح الآخرين، فقد بقيت هذه الأصوات دون الفعالية المطلوبة نتيجة لهيمنة اللوبي اليهودي على مراكز القرار السياسي.

يذكر بول فندلي أنّ وزير الدفاع الأميركي، أيام الرئيس كارتر، هارولد براون كان يرفض أنّ إسرائيل هي سند استراتيجي للولايات المتحدة، وكان يقول: «إنّ تلك الفكرة كلها تبدو لي ضرباً من الجنون. إذ يقول لنا الإسرائيليون دعونا نساعدكم، ثم ينتهي بنا الأمر وقد أصبحنا أداة في أيديهم. إنّ للإسرائيليين مصالحهم الخاصة بهم، وإنّ لنا مصالحنا وهي مصالح غير متطابقة»(670). وكتب الصحافي والتر بينكوس متسائلاً: إن كان على الولايات المتحدة أن تضع في الحسبان أولوياتها أم أولويات إسرائيل، متطرقاً إلى المبالغ الطائلة التي دفعتها الولايات المتحدة لإسرائيل، لكي تقوم بإنتاج صواريخ مضادة للصواريخ، تنفيذاً لما أسمته الدرع الحديدية للتخفيف من الأضرار المادية والبشرية التي تسببها الصواريخ المطلقة من غزة ولبنان. ولفت قائلاً إنّ الولايات المتحدة بصرفها ما يقارب من 3 مليارات دولار على هذا المشروع فإنّها تزيد من دَيْنها العام. واستطرد قائلاً بأنّ البنتاغون، وإمعاناً بالإهانة، سيسأل الحكومة الإسرائيلية إنْ كانت تسمح بأن تستفيد الولايات المتحدة من أرباح بيع مثل هذه الصواريخ. وعلق بعض القرّاء قائلاً: ألم يكن من الأفضل صرف هذه المبالغ لتحريك الاقتصاد الأميركي، وتأمين فرص عمل، أو إصلاح شبكة الطرقات أو على الأقل إطعام المشرّدين؟(671)

صحيح أنّ الإرهاب السياسي للوبي اليهودي يجد في الولايات المتحدة اليوم الأرض الأخصب انطلاقاً من الدعم الذي يلقاه من بعض الكنائس المسيحية التي تزايد بصهيونيتها على الصهاينة اليهود أنفسهم، ولكن هذا لا يعني أنّ هذا الإرهاب غير فاعل في الدول الغربية الأخرى. تحدّث الصحافي لورن غانتر عن قيام الحزب الليبرالي الكندي بطرد عضو البرلمان في ولاية مانيتوبا لزلي هاغس لآرائها العنصرية. أمّا ما هي هذه الآراء العنصرية؟ فقد أشار الصحافي المذكور بأنّ السيدة لزلي تؤمن بقوة بأنّ الاعتداء على مركز التجارة العالمي في نيويورك كان نتيجة تخطيط المخابرات

الإسرائيلية (الموساد)، أو السي، آي، إيه، أو كليهما مجتمعين، وأنّه حصلت ضغوط كبيرة على الإعلام والمؤسسات الاقتصادية الكبيرة والحكومات الغربية للسكوت وعدم كشف الحقائق. وأضاف بأنّ لزلي تعتقد بأنّ العملية كانت محض داخلية ولم تكن أبداً عملاً إرهابياً من المسلمين المتطرفين، واعتبرت أنّ المسؤول المباشر هم المحافظون الجدد في الولايات المتحدة(672). وكان من الطبيعي أن يتحرك اللوبي اليهودي لإسكات هذا الصوت الذي يفضح تورط إسرائيل بهذا العمل الإرهابي الذي يثير الغضب والاشمئزاز. فأين حرية الرأي؟ وإنْ كانوا حقاً غير ضالعين بهذا العمل، فلماذا أسكتوا كلّ الأصوات التي اتهمتهم بدلاً من تقديم الإثبات على عدم تورطهم؟ أليس إسكات الأصوات عملاً إرهابياً سياسياً يُضاف إلى إرهابهم العسكري؟

إنّ الإرهاب الصهيوني السياسي ذا الأوجه المتعددة لا يزال مستمراً بشكل أو بآخر في كل الدول الغربية، بحيث أنّ قِلة يتجرأون على الكلام وانتقاد سياسات إسرائيل التي يفوح منها الإرهاب. لقد بدأت منذ فترة حملة، لإقامة دعاوى على مسؤولين إسرائيليين بتهمة ارتكابهم جرائم حرب، في بعض الدول الأوروبية مثل بلجيكا وبريطانيا. أوردت صحيفة السفير الخبر الآتي: «كشفت صحيفة يديعوت أحرونوت أمس، أنّ أجهزة الأمن الإسرائيلية أقدمت في نهاية الأسبوع الماضي على خداع السلطات البريطانية لتمكين وزير الدفاع الأسبق عمير بيرتس من الإفلات من أمر اعتقال بحقه في لندن، كذلك أقدم الجنرال دان روتشيلد الذي كان في الماضي منسقاً لقوات الاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزة على تقصير إقامته في العاصمة البريطانية وإلغاء محاضرتين والخروج من المملكة المتحدة خشية اعتقاله... وتمثلت الخديعة بأن طلبت أجهزة الأمن الإسرائيلية من رجال بيرتس إرسال برقية إلكترونية للجامعة (حيث كان مقرراً أن يلقي محاضرة) يُكتب فيها أنّ بيرتس ألغى زيارته لأسباب شخصية... وبعد وصول هذه الرسالة جرى تجميد أمر الاعتقال في بريطانيا، فوصل بيرتس إلى المطار وأجرى اللقاءات الأخرى دون تغطية إعلامية»(673). العمل بحد ذاته لا يشكّل أيّ إرهاب، إنّه باللغة اللبنانية عمل محترف «والشاطر ما يموت»، ولكن ما جرى بعد ذلك هو الإرهاب بعينه، إذ بدأت الضغوط على الحكومة البريطانية لتعديل القانون البريطاني الذي يتيح إلقاء القبض على المتهمين بارتكاب جرائم حرب، خاصة وأنّ تسيبي ليفني كانت ستقع بنفسها ضحية هذا القانون في تشرين الأول/أكتوبر من العام 2011.

لقد أقدموا على ابتزاز ألمانيا وما زالوا نتيجة الأعمال الإرهابية التي قام بها النازيون بحقهم، أمّا إرهابهم فيجب أن يكون فوق المساءلة وغير خاضع لأيّة قوانين، دولية كانت أم إنسانية. وعلى سبيل المثال، حصل خلاف في آذار/مارس من العام الحالي، بين مجلس حقوق الإنسان وبين الحكومة الإسرائيلية، على أثر طلب المجلس إرسال بعثة للتحقيق بالخروقات التي يقوم بها المستوطنون ضدّ حقوق الشعب الفلسطيني. فثارت ثائرة رئيس الحكومة الإسرائيلية نتنياهو وقذف المجلس بأقذع النعوت واعتبره دمية في أيدي الفلسطينيين. وبعد صدور قرار المجلس الذي أكد على حصول انتهاك لحقوق الإنسان الفلسطيني اعتبر وزير خارجية إسرائيل أفيغدور ليبرمان بأنّ أعضاء المجلس مجانين ومنافقون.

وبالطبع لم يغيّر القرار شيئاً بسياسة إسرائيل تجاه الأرض الفلسطينية والشعب الفلسطيني. فبعد يومين على بدء مجلس الأمن دراسة طلب السلطة الفلسطينية لقبول عضوية فلسطين في الأمم

المتحدة، أعلنت الحكومة الإسرائيلية، ورداً على هذه الخطوة، موافقتها في 27 – 9 – 2011 على بناء 1100 وحدة سكنية في القدس الشرقية التي طالب بها عباس عاصمة للدولة الفلسطينية التي تتفاوض السلطة الفلسطينية مع إسرائيل على إقامتها، كما اتهم نتنياهو السلطة الفلسطينية بأنّها لا تريد السلام وأنّها تتخذ من الإستيطان ذريعة لذلك. طبعاً لم تحصل السلطة على ما أرادت وذلك بفعل الضغوط الإسرائيلية والفيتو الأميركي، وإضافة إلى ذلك اتهمت بإفشال محادثات السلام التي بات القاصي والداني يدرك أنّ إسرائيل لا تريدها، وهي التي تعرقلها تمسكاً بوصية يهوه «لا تقطع لهم عهداً». وفي أواخر تشرين الأول/أكتوبر 2011 اتخذت منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة قراراً بمنح فلسطين عضوية كاملة فيها، فما كان من الدول «الديمقراطية» (الولايات المتحدة – كندا – إسرائيل) إلاّ أن صوّتت ضد القرار، وقامت فوراً بتجميد الدعم المالي للمنظمة، وردت إسرائيل من جهتها بقرار إنشاء 2000 وحدة سكنية، ضاربة عرض الحائط بالمجتمع الدولي وقراراته بخطوة أقلّ ما يقال فيها بأنّها إرهابية بامتياز ومدعومة من أكبر دولة وأقوى دولة في العالم وأكثرها دعماً للإرهاب.

إنّ ترابط مصالح الدول الإرهابية باتت مكشوفة لكل ذي بصيرة. ولقد لفت نعوم تشومسكي إلى ازدواجية المعايير حول الإرهاب الذي تدّعي الولايات المتحدة محاربته، وقد أشار إلى ذلك في العديد من مقابلاته وكتاباته. ورداً على سؤال حول إمكانية فوز الولايات المتحدة بحربها على الإرهاب قال: «يجب أن نقرّ بأنّ الولايات المتحدة يُنظر إليها، في معظم أنحاء العالم، بوصفها دولة إرهابية من الطراز الأول»(674). إذن برأيه كيف يمكن أن تنتصر الولايات المتحدة على الإرهاب وهي المتهمة به. ويعطي مثالاً على ما فعلته في الثمانينيات بدولة نيكاراغوا، حيث دمرت البلاد وقتلت عشرات الألوف، وعندما «ذهبت نيكاراغوا إلى مجلس الأمن، نظر بإصدار قرار يطالب الدول بمراعاة القانون الدولي، فاستخدمت الولايات المتحدة وحدها حق النقض. فذهبوا إلى الجمعية العامة، حيث حصلوا على قرار مشابه، عارضته الولايات المتحدة وإسرائيل لسنتين متتاليتين»(675).

إذن التحالف قائم ليس ضدّ الإرهاب وإنّما على حماية إرهاب الدولتين القويّتين ولصق الإرهاب بالشعوب الضعيفة التي تحاول النضال للحصول على حقوقها. فالدولة الإرهابية الإسرائيلية لا يمكن أن تهتم بالسلام لأنّه ضد توجهها وقناعاتها، ولأنّ السلام يقضي على حلمها الدائم بالتوسع. فلو كانت إسرائيل بالفعل مهتمة بالسلام، أو مقتنعة بجدوى السلام مع الفلسطينيين، فلماذا تقف في وجه نشطاء السلام الذين يقفون إلى جانب الحق الفلسطيني؟ جاء في جريدة السفير «اعتقلت الشرطة الإسرائيلية اليوم 30 ناشط سلام مؤيدين للشعب الفلسطيني فور وصولهم إلى مطار اللد، مؤكدة أنّها ستمنعهم من مغادرة المطار وستعيدهم إلى بلادهم»(676). السلام يُرعب إسرائيل ويعرقل مخططاتها التوسعية، والدولة الفلسطينية إن أقيمت تثبت الكذب الإسرائيلي الذي على أساسه قامت دولة إسرائيل «على أرض بلا شعب». إنّ إرهاب إسرائيل المستمر على غزة وشعبها لهو خير دليل على أنّها وحدها تقوم بعرقلة مفاوضات السلام عبر إنكارها للحق الفلسطيني، وأنّ تصديها لقوافل أساطيل الحرية لهو خير دليل على وقوفها بوجه حرية الآخرين، هذا التصدي الذي تحوّل دموياً مع السفينة التركية فتمازج الإرهابان العسكري والسياسي ليجهضا دعم الشعب الفلسطيني.

يقول تشومسكي في إحدى حواراته مع الصحافي ديفيد بارساميان: «فهناك إجماع دولي واسع جداً، وهو موجود منذ عدة سنوات، من أجل تسوية سياسية للنزاع، تسوية تتكون بشكل رئيسي من وجود دولتين، يعترف فيهما بالحقوق الوطنية لكلّ من اليهود والفلسطينيين على حد سواء. ونال هذا تأييد معظم دول العالم. إلاّ أنّه أعيق من قبل الولايات المتحدة التي قادت وتقود معسكر الرافضين لهذا الاقتراح»(677). وعندما يحدّد تشومسكي مسؤولية الولايات المتحدة بعرقلة هذا الاقتراح فإنّه يعلم تماماً أنّ ذلك لا يتم إلاّ عبر الضغوط الإسرائيلية على الكونغرس الأميركي الذي ينصاع لها، وكلّ من يخالف رغبة اللوبي اليهودي يُبعد عن المسرح. ولقد أشار تشومسكي إلى مثال على هذا الإرهاب السياسي إذ قال: «ثم جاء التقرير الذي تقدّم به توماس داين، رئيس مجموعة اللوبي الإسرائيلي (اليهودي) في واشنطن، وهي ما تعرف باسم (لجنة الشؤون العامة اليهودية الأميركية - أيباك)، والذي تحدّث فيه بإعجاب عن النجاحات التي حققها اللوبي السياسي اليهودي، اللوبي الإسرائيلي المتواجد هنا، في السيطرة على انتخابات الكونغرس الأميركي. وقال بأنّ إنجازهم الرئيسي كان في إزالة السناتور شارلز بيرسي وإبعاده عن المسرح السياسي بسبب انتقاداته الشديدة لإسرائيل»(678).

إنّ التكافل والتضامن ما بين إسرائيل والولايات المتحدة حول الاستمرار بالأعمال الإرهابية المعادية تحديداً للشعب الفلسطيني ولأيّ شعب ينشد الحرية في العالم، لم يمنع إسرائيل من التجسس على حليفتها. يكفي أن نعطي مثالاً واحداً من أمثلة عديدة عن هذا التجسس والذي تأتي الضغوط السياسية الإسرائيلية لطمسه ومنع وسائل الإعلام من تداوله. لقد أثبت السيناتور بول فندلي خبر إلقاء القبض «على جوناثان جي بولارد، وهو محلل للجاسوسية المضادة وذلك بسبب سرقة وثائق سرية وبيعها لإسرائيل»(679). ويضيف قائلاً: «وقبل القبض على بولارد كانت الملاحقة القضائية للتجسس الإسرائيلي أمراً محرَّما لدى مكتب التحقيقات الفدرالي». ولقد أكد ذلك ريموند و. ونال المساعد السابق للمكتب وأشار إلى عمله «باثنتي عشرة حالة نقل فيها الموظفون الأميركيون معلومات سرية إلى الإسرائيليين لكن لم يجرِ أي تحقيق وتركت الملفات وسط الغبار المتراكم»(680). وهذه الأسرار أفادت إسرائيل حيث مكّنتهَا المعلومات «التي زودها بها بولارد من إفلات طائراتها الحربية من المراقبة البحرية والجوية الأميركية في البحر الأبيض المتوسط خلال هجومها الجوي في أكتوبر 1985 على مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس»(681).

ما من رئيس في الولايات المتحدة يستطيع أن يصل إلى سدّة الرئاسة إذا لم يحز على دعم اللوبي اليهودي. ومن يحاول منهم التمرد على توجيهات هذا اللوبي فإنّه إمّا يُقتل، كما أشرنا سابقاً إلى العديد منهم، وإمّا يتم إسقاطه في الدورة الثانية عبر اتهامه باللاسامية كما حصل مع الرئيس كارتر الذي قال: «إلاّ أنّني دُهشت وأصابني الكرب عندما اتهمت بأنّني معادٍ للسامية، وخرف، وكاذب، ومنتحل، وعرقي، ولا عهد لي بالمنطقة، ومساند للإرهاب»(682). كلّ ذلك لأنّه تجرأ وقال بضرورة إعطاء الفلسطينيين حقهم بإنشاء دولة تضمهم تطبيقاً لقرارات الأمم المتحدة التي أكدت على مبدأ حرية تقرير المصير. ويقول يوسف أيوب حداد: «وجريمة كارتر في منظور هذه الجماعات أنّه قال بحق الفلسطينيين في وطن. ولم تشفع به الخدمات الجليلة التي قدّمها لإسرائيل... فلقد أسقطته الجماعات الصهيونية المسيحية رغم خدماته لإسرائيل... لأنّ تلك الجماعات تؤمن بأنّ مشيئة الله تقتضي التزام الولايات المتحدة المطلق بإسرائيل والإنكار المطلق لحقوق الشعب الفلسطيني»(683). واستعمل

اللوبي اليهودي الجنس للإيقاع بالرؤساء وجعلهم ألعوبة بين يديه، ولا زلنا نذكر مسألة مونيكا لوينسكي مع الرئيس بيل كلينتون. واستعمال الجنس في الشأن السياسي أيضاً يستقيه الصهاينة من توراتهم، وما عليك أخي القارئ إلاّ الرجوع إلى «سفر أستير» ففيه الخبر اليقين حول هذا الموضوع.

لقد صدقت نبوءة الرئيس الأميركي بنيامين فرنكلين الذي قال في أول اجتماع للكونغرس الأميركي عام 1789: «إنّ ثمة خطراً يهدّد الولايات المتحدة الأميركية. هذا الخطر هو الخطر اليهودي، فإن لم نمنعهم من دخول الولايات المتحدة الأميركية بنص دستوري، سوف لن تمضي مئتا سنة إلاّ وقد أصبح أبناؤنا يعملون لتأمين طعامهم ورفاهيتهم، ويقيمون هم في مؤسساتهم المالية يفركون أيديهم في غبطة عارمة. أحذّركم أيّها السادة وأنذركم، فإنّكم إنْ لم تمنعوا هجرة اليهود في دستور الولايات المتحدة، فإنّ أبناءكم سيلعنونكم في قبوركم». ألا يستحق فرنكلين وصفه بالنبي بدلاً من أنبياء إسرائيل الذين ادّعوا النبوّة وتكلّموا عن أحداث حصلت من خلال رؤاهم؟ لقد صدق وأصبح الأميركيون خاضعين كلّيا للوبي الصهيوني المالي، فهلاّ تصدق نبوءته الثانية فيسمع أميركيو اليوم لعنات أبنائهم في الغد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الباب الثالث

الإرهاب الاقتصادي

«إنّما الفضّة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الربّ»

يشوع 6: 24.

«منذ اللحظة التي نصبح فيها المالكين الوحيدين للذهب في العالم، فإنّ القوة الحقيقية تصبح ملك أيدينا، وعندئذٍ نحقق الوعود التي قُدّمت لإبراهيم»

من الوثيقة الصهيونية لاجتماع براغ 1869

«وسنشرع فوراً بإقامة احتكارات ضخمة ومستودعات هائلة للثروة، تعتمد عليها جميع ممتلكات الأغيار الكبيرة إلى الحد الذي يجعلها تنهار كلّها مع اعتمادات الحكومة المالية في نفس اليوم الذي تقع فيه الكارثة السياسية»

من البروتوكول السادس لحكماء صهيون

إنّ وصايا يهوه التي لقّنها لشعبه الخاص بواسطة موسى لم تذهب كلّها أدراج الرياح. صحيح أنّهم لم يتقيدوا بشكل عام بهذه الوصايا، خاصة ما لامس منها بُعداً إنسانياً كقوله لهم: «فأحبّوا الغريب لأنّكم كنتم غرباء في أرض مصر» (تثنية 10: 19)، فكان حبّهم للغريب دائماً قتلاً وذبحاً وطرداً وتشريداً، غير أنّهم تقيّدوا بوصاياه الإرهابية على أفضل وجه. فهم لا يزالون يقتلون الأبرياء ويذلّون الأحياء، ويمتصون عرق العمال الكادحين ليتحول في بنوكهم إلى سبائك ذهبية لم تُشبع حتى الآن نهم إلههم الذي طلب إليهم يوماً أن يودعوا الذهب في خزانته. وإذا كان إلههم فيما مضى قد أمرهم بسرقة المصريين، فإنّهم عمّموا هذه الوصية لتشمل كلّ شعوب العالم. لقد بات معروفاً أنّ اليهود ركّزوا اهتمامهم منذ القديم على المجال المالي، ولا عجب إنْ هم حوّلوا الهيكل إلى مكان للصيرفة والتجارة. فالمال كان دائماً بالنسبة لهم إلهاً يتعبدون له. ولقد وجدوا قديماً في عمليات منح المحتاجين ما يساعدهم من المال لاجتيازهم محنتهم خير وسيلة لاستغلال هذه الفئة من الناس الذين كانوا على استعداد لرهن ممتلكاتهم لقاء قرض تضاف إليه عند التسديد نسبة عالية بما يعرف اليوم في عالم المال بالفائدة. ولمّا لم تكن هناك في الماضي قوانين رادعة بهذا الشأن، فقد استغلّ اليهود هذا الأمر خير استغلال فكانوا المرابين الأوائل الذين تمكّنوا من جمع الثروات وتكديسها، ولا يزالون حتى هذه الساعة.

إنّ اللوبي اليهودي يسيطر اليوم على وول ستريت في نيويورك، ومنه ينطلق بعملياته الاقتصادية التوسعية والتي تُستغل غالباً في المجال السياسي. كتب وليم غاي كار: «تقول الموسوعة البريطانية حول هذا الموضوع: (كان لدى التجار والمرابين اليهود مَيْل شديد للتخصص بالتجارة وكان مما ساعدهم على الامتياز في ذلك الحقل مهارتهم وانتشارهم في كلّ مكان. وكانت تجارة أوروبا في العصور المظلمة بمعظمها في أيديهم وخاصة تجارة الرقيق"(684). ثم يتابع قائلاً: «ويكشف لنا

إلحاح اليهود بهذه الصورة للسيطرة على النقد وجعل إصدار العملة في أيديهم أنّ المرابين اليهود اعتنقوا منذ تلك الأزمنة الشعار الذي اشتهر به بعد ذلك بردح طويل آمشل مايرباور (1743 – 1812 وهو الصائغ اليهودي الذي أسس دار روتشيلد في فرانكفورت ووزع أبناءه الخمسة على خمس دول أوروبية واستولوا على الاقتصاد فيها) وهو: دعنا نتولى إصدار النقد في أمة من الأمم والإشراف عليه ولا يهمنا بعد ذلك من الذي يسنّ القوانين لهذه الأمة»(685).

وأتت سياستهم المالية في أوروبا عليهم بالفائدة العميمة من الناحية المالية، لكنّها كانت سبباً لنقمة الأوروبيين على جشعهم، مما أدى إلى طردهم من معظم الدول الأوروبية واضطهادهم الذي استمر إلى القرن العشرين. وكانوا دائماً يواجهون الاضطهاد بالمؤامرة على الدولة المضطَهِدة بحيث تقع في قبضتهم من خلال معوناتهم المالية. لقد دفعوا بالدول إلى محاربة بعضها بعضاً كما يُثبت ذلك وليم غاي كار، وتمكّنوا بدهائهم من لعب ورقة الإقراض إلى الدول المنهكة جراء الحروب، وعلى سبيل المثال «وافق المرابون العالميون (اليهود) على منح الخزينة الإنكليزية قرضاً بقيمة 1.250.000 جنيه شرط أن يكونوا هم واضعي بنود الاتفاق وشروطه. أما الشروط فهذا بعضها: 1 - تبقى أسماء الذين قدّموا القرض سرية ويُمنحون ميثاقاً بتأسيس مصرف إنكلترا؛ 2 – يُمنح مديرو مصرف إنكلترا الحق بتحديد سعر العملة بالنسبة إلى الذهب»(686). وهم بهذه العملية قد ضمنوا السيطرة الكاملة على الاقتصاد الإنكليزي، كان ذلك في القرن السابع عشر. إنّ سيطرة عائلة روتشيلد على اقتصاد أهم الدول الأوروبية مكّنها، وحفاظاً على ثرواتهم وسلطتهم المالية، من تقرير «جعل سويسرا حيادية وعدم زجّها في أيّ من المنازعات ضماناً لسلامتهم وسلامة أموالهم»(687)، ولم يكن لحياد سويسرا أيّة علاقة بثقافة السلام. إنّ السعي وراء الثروة لا يمنعه أيّ قانون، محلياً كان أم عالمياً. لكن أن تُستغل الثروات للضغط من قِبَل الفئة المتموّلة لتحقيق أهداف سياسية خاصة، فهذا العمل يتحوّل دون شك إلى إرهاب اقتصادي سياسي بامتياز. وأن تُجمع الثروات بطرق غير مشروعة، وأن يشكّل أصحابها تروستات تفرض سيطرتها على الأسواق المالية، وتحارب كلّ من يحاول شق طريق له في عالم الأعمال، فهذا قمة الإرهاب الاقتصادي. يقول جيرالد كي. سميث: «أحس المليونير وعبقري الصناعة هنري فورد، عندما كان في ذروة حياته العملية، أنّ هناك جهوداً مخيفة تبذل، لحرمانه ثمرة كفاحه وأعماله، والدفع بها إلى أيدي رجال الصيرفة لاحتكارها. وتولد الانطباع لدى فورد، بأنّ كبار الماليين اليهود من ذوي السلطان والنفوذ يقفون وراء هذه المحاولات ويتولون تدبيرها»(688). ويقول فورد نفسه: «وكان أول غزو للمال اليهودي في الولايات المتحدة عن طريق آل روتشيلد، ويمكن أن يُقال في الواقع إنّ الولايات المتحدة هي التي أقامت ثروات آل روتشيلد، ومن القصص المعروفة عن ثروات اليهود، أنّها جُمعت في أغلب الأحيان من أوقات الحروب، ومن المعروف أنّ إعلان الحرب الكونية قد تأجل عدة مرات بضغط من الماليين العالميين. وليس ثمة من شك في أنّ المال اليهودي العالمي كثير العناية بموضوعَيْ الثورات والحروب»(689). إنّ هذا الكلام يتوافق مع ما ذكره وليم غاي كار وشيريب سبيريدوفيتش من أنّ اليهود كانوا وراء الثورات الأوروبية والأميركية ووراء الحربين العالميتين وبأنّهم يخططون اليوم للحرب العالمية الثالثة، كلّ ذلك من أجل سببين: الأول زيادة ثرواتهم التي تأتيهم عن طريق القروض للدول التي ينهار اقتصادها بفعل الحرب، وإنتاج وبيع الأسلحة من المعامل التي يسيطرون عليها. والثاني تنفيذ مخططاتهم القاضية بالسيطرة على العالم.

جاء في بروتوكولات حكماء صهيون: «علينا أن نكون في موقف القادر على مواجهة كل عمل من الأعمال المعارضة لنا، وأن نجيب على ذلك بحمل جيران الدولة التي تجرؤ على معارضتنا على حربها، أمّا إذا وضع هؤلاء الجيران مخططهم على أساس الوقوف ضدنا بصورة جماعية، فعلينا أن نطلق الحرب الكونية من عقالها وأن نشعلها». أليس هذا ما تقوم به إسرائيل اليوم من خلال تهديدها بقصف إيران ومحاولة جرّها الولايات المتحدة وأوروبا إلى إشعال الحرب بحجة أنّ إيران دولة عدوة تسعى لامتلاك السلاح النووي؟ أمّا إذا قال قائل، وقد فعلت الصهيونية ذلك من قبل، بأنّ لا قيمة لبروتوكولات حكماء صهيون وبأنّها ملفّقة، نجيبهم بما قاله هنري فورد: «إنّ البيان الوحيد الذي يهمني الإفضاء به فيما يتعلق بهذه التعاليم، هو أنّها تتفق مع ما وقع... إنّها تتفق مع أوضاع العالم حتى اليوم بل وتتفق مع الوضع اليوم»(690)، وهي دون شك ما زالت تتفق مع ما يجري من حولنا في أيامنا هذه.

إنّ الإرهاب الاقتصادي لا يمكن تجزئته وفصله عن الإرهابين العسكري والسياسي، وعملياً فالإرهاب الإسرائيلي كلّ متكامل ولو كانت له أوجه متعددة. وإذا حاولنا أن لا نسمّي ما تقوم به إسرائيل اليوم من قطع لأرزاق الفلسطينيين تحديداً، ولكلّ معارض لسياستها في العالم، فرداً كان أو منظمة أو دولة، إرهاباً فبماذا يمكن أن نصف أفعالها الشرّيرة؟ لقد تناقلت وسائل الإعلام خبراً مفاده أنّ قرية أفيزل، إحدى قرى الضفة الغربية، كانت لوقت ليس ببعيد لا تزال تستعمل مولدات الغاز كمصدر وحيد للطاقة الكهربائية. ولقد قامت منذ سنتين منظمة سيبا الإسبانية، وبالتعاون مع جامعة النجاح الوطنية في نابلس، بتركيب لوحين شمسيين لاستبدال مصدر الطاقة. ولكنّ الجيش الإسرائيلي أصدر أمراً يقضي بهدم الألواح التي وصلت كلفتها إلى 495 ألف دولار بحجة أنّها أقيمت دون ترخيص. أمّا المسؤول الإسباني عن المشروع فقد قال بأنّه تقدم بطلب الترخيص قبل البدء بالتركيب، إلاّ أنّه لم يتلق أيّة إجابة على طلبه من القسم العسكري المسؤول عن إعطاء التراخيص، فاعتبر أنّ عدم الجواب يشكّل عدم اعتراض على المشروع. ومهما كان السبب ألا يشكّل هذا العمل انتهاكاً لأبسط حقوق الإنسان الحياتية اليومية والتي تؤثر على الوضع الاقتصادي؟ وبماذا يمكن أن نصف هذا الانتهاك إنْ لم نقل عنه بأنّه إرهاب من حيث أنّه يُفرض بالقوة من قِبَل محتلٍّ على شعب مقموع ومصادرة إرادته؟

إنّ الأعمال التي تمارسها سلطات الإحتلال الإسرائيلي بحق المزارعين الفلسطينيين لا يمكن أن توصف إلاّ بالعمل الإرهابي الهادف إلى إفقار وتيئيس هذا الشعب. وفي هذا المجال أوردت جريدة الديار اليومية اللبنانية الخبر التالي: «دارت مواجهات أمس بين عناصر من الشرطة الإسرائيلية ومستوطنين كانوا يمنعون فلسطينيين من قطف الزيتون في شمال الضفة الغربية... ولقد أوضح جان لوك سيبلو، مسؤول برنامج الأغذية العالمي، أنّه غالباً ما يواجه المزارعون صعوبة في التوجه إلى حقولهم وإنتاج الزيت وبيعه بسبب السياج الأمني الإسرائيلي... ويساعد البرنامج نحو 2600 مزارع فلسطيني عبر شراء إنتاجهم من زيت الزيتون وإعادة توزيعه مجاناً على جزء من الفلسطينيين المحتاجين في الضفة الغربية وقطاع غزة. وتغطي أشجار الزيتون 45 بالمئة من الأراضي الزراعية الفلسطينية»(691). كان ذلك عام 2004، أمّا اليوم فأغلب الاعتقاد أنّ هذه المساحة قد تضاءلت بفعل قيام الجرافات الإسرائيلية باجتثاث أشجار الزيتون وتقديم الأرض للمستوطنين لإقامة مستوطناتهم عليها. وأتى بناء جدار الفصل العنصري لكي يقضي على ما تبقى من أشجار الزيتون.

وتقول الدكتورة زينب عبد العزيز: «وقد أدّى بناء ما تم تشييده من ذلك الجدار المخزي حتى تاريخ التقرير المشار إليه (29-8-2003) إلى اقتلاع أكثر من 83 ألف شجرة زيتون وغيرها من أشجار الفاكهة، و 249 هكتاراً من الأراضي المروية، و 37 كيلومتراً من موارد المياه و 15 كيلومتراً من الطرق الزراعية، إضافة إلى مساحة قدرها 283 كيلومتراً مربعاً من الأراضي التي أصبحت معزولة»(692). فماذا فعل المجتمع الدولي أمام هذا العمل الإرهابي الاقتصادي الذي حرم مئات العائلات من دخلها ورماها في مستنقعات الفقر؟ لقد كانت توجيهات المسؤولين الإسرائيليين عند قيام إسرائيل، ولا يزال، تتركز على ضرورة حرمان الفلسطيني من مورد الرزق لكي يضطر إلى ترك أرضه.

كتب إيلان هاليفي: «وكما أنّ غزو العمل العبري وهو الشعار العمّالي الأول المعادي للفلسطينيين قد امتد إلى صراع البورجوازية اليهودية الجديدة في فلسطين – قطاع الدولة المتجسد بالهيستدروت ومشاريعه وكذلك بمؤسسات الحركة الصهيونية – ضدّ الإنتاج المحلي، فإنّ شعاراً آخر قد أطلق: «إنتاج البلاد» وإذا ما حللناه فإنّه يعني: أنتجوا يهودياً، واشتروا من اليهود، وقاطعوا – وأحياناً دمّروا – الإنتاج المحلي. وفي سنة 1968 صرّح البرلماني الصهيوني دافيد ها-كوهين قائلاً: «لم يكن من السهل أن نشرح في الثلاثينيات لرفقائنا في حزب العمال البريطاني لماذا كان ينبغي علينا أن نصبّ البنزين على بندورة (طماطم) النسوة العربيات»(693).

لم يقتصر الإرهاب الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني وحده، بالرغم من أنّه الأكثر تأذياً من هذا الإرهاب، بل طاول مروحة كبيرة من الدول والشعوب. إنّ احتلال إسرائيل لهضبة الجولان جاء بدافع التوسع لتحقيق إسرائيل التوراتية. وبالرغم من المفاوضات غير المباشرة التي حصلت بينها وبين سورية، والتي كادت أحياناً أن تصل إلى اتفاق من منطلق الأرض مقابل السلام، رفض المتشددون المتطرفون إرجاع الجولان، منهم لأسباب دينية، ومنهم لأسباب محض اقتصادية. يقول موشي دايان: لو أنّ الإنسان ملك التوراة، ونظر إلى نفسه كشعب التوراة، لكان عليه أن يملك كلّ الأراضي التوراتية»(694). أمّا مناحيم بيغن فيقول: «إنّ أرض إسرائيل ستُردّ إلى شعب إسرائيل. الأرض كلّها، وإلى الأبد»(695) واعتبر بعض الحاخامات أنّ إعادة أيّ شبر من الأرض التي احتلتها إسرائيل إلى أصحابها العرب يُعدّ خيانة عظمى، لكنَّ لنتنياهو رأياً آخر. «ففي حديث نشرته لوفيغارو الباريسية قال نتنياهو: هضبة الجولان ليست قطعاً موضوع تفاوض، يجب الاحتفاظ بالجولان لأسباب استراتيجية وتاريخية واقتصادية... ربع الثروات المائية لإسرائيل مصدرها الجولان، ويمكن أن نعيش دون نفط، ولكن لا يمكن أن نحرم أنفسنا من المياه»(696). ونقرأ من مذكرات وايزمن: «وذهبت من إيطاليا إلى ألمانيا ثم إلى باريس حيث قابلت الجنرال غورو وتحدثت إليه عن الحدود الشمالية لفلسطين، وبيّنت له أهمية نهر الليطاني للمشاريع اليهودية»(697)، فكانت عملية الليطاني.

إنّ المياه شريان مهم من شرايين الحياة الإقتصادية، ولا بأس بأن يستأثر بها بنو إسرائيل حتى ولو حرموا غيرهم منها، ألم يقم جدعون التوراة بإرسال رسل «إلى كلّ جبل أفرايم قائلاً انزلوا للقاء المديانيين وخذوا منهم المياه إلى بيت باره والأردن» (قضاة 7: 24)، فلماذا لا يفعل نتنياهو الشيء ذاته، ألا يعتبر نفسه حفيد جدعون ذاك حتى ولو كان أصله خزرياً أوروبياً؟ إن آلاف العائلات

الفلسطينية تَحرم من مورد رزقها الوحيد، فماذا يمكن أن نسمي ذلك؟ هل علينا أن نماليء الصهاينة فلا نقول لهم إنّ عملكم هذا هو عمل إرهابي بامتياز يخرق كلّ القوانين الدولية والأعراف الإنسانية والدينية؟ ألا يجب أن يقول لهم أحد: وَيْحكم أتركوا شجرة الزيتون فشلح منها حمله يسوع رمزاً للمحبة والسلام، فما بالكم تحرمون أرض فلسطين هذا الرمز؟ وإن قال قائل إنّ هذا العمل قام به مستوطنون لا الدولة، فإنّ الجواب بسيط وواضح وهو أنّ الدولة، بتغاضيها عن أعمال المستوطنين الذين استقدمتهم من جهات العالم الأربع، هي التي تشجّعهم على الاستمرار بممارسة الإرهاب بحق الشعب الفلسطيني، المالك الحقيقي لأرض فلسطين.

ولقد أوردت جريدة الديار الخبر التالي: اتهم سكان قرى فلسطينية في منطقة الخليل بالضفة الغربية سكان مستوطنة مجاورة بتسميم قطعان ماشيتهم لإرغامهم على مغادرة أراضيهم... وقال صابر الهريني، رئيس الهيئة المحلية للقرى الثلاث التي تضم ألفَيْ نسمة، إنّ المستوطنين لا يترددون في استخدام أي وسيلة لتحقيق أهدافهم المتمثلة في ترحيلنا والاستيلاء على أرضنا... كما أفاد محمد قنام، مدير وزارة الزراعة في الخليل، بأنّ الأمر الخطير هو أنّ هذه السموم يمكن أن تنتقل للإنسان إذا ما تناول أيًّا من منتجات هذه الأغنام مثل الحليب أو اللحوم وغيرها(698). هذا العمل الإرهابي يتفق مع تعاليم يهوه الذي قال لهم: «وحرّموا كلّ ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحدّ السيف» (يشوع 6: 21). لكنّ بني إسرائيل قد تطوروا فبدل السيف يستعملون الآن السموم والأسلحة الكيميائية والبيولوجية وكلّ ما توصّل إليه العلم من أسلحة الدمار الشامل، وتستمر خديعتهم للعالم بأن يبقى صوتهم مرتفعاً مظهرين أنفسهم ضحايا لا حول لها ولا قوة.

وإذا استعملنا عبارة «وشهد شاهد من أهله» على ما تقوم به إسرائيل من إرهاب اقتصادي إنساني، لكان خير مثال نستشهد به ما كتبه أبراهام بورغ: «من فكّر ملياً فعلاً كي يفهم معنى كلمة «تعرية» أو «تجريد»، يبدو هذا مثل إزالة شعر إلى الأبد، أو مثل تحقيق صحافي شجاع كشف عن حقيقة خفية. لكن لا. ليس المقصود كشف حقيقة، وإنّما إخفاؤها. عندما يتحدّث مذيع الأخبار عن تجريد، فهناك أحد ما في مكان ما يبكي على بيّارة اقتُلعت، على بستان قديم ورثه عن والديه وأجداده. لن يقطف زيتونه بعد الآن، وأشجاره لن تثمر بعد اليوم. لأنّ جرافات جيش الدفاع الإسرائيلي قامت بتجريده وأبقت الأرض مجرودة، نظيفة من أيّ عائق، ومفتوحة للمراقبة وللنشاط. والمنطقة قرب منزل وزير الدفاع الأسبق شاؤول موفاز في بلدة كوخاف يائير أصبحت نظيفة «مجرودة» (أو ربما مقطوعة فحسب، لأنّ محكمة العدل العُليا كانت شريكاً جزئياً في الغبن وأبقت على «أمر القطع» الذي أصدره الجنائني العسكري الرئيسي، قائد قوات جيش الدفاع الإسرائيلي في المنطقة)»(699). فهل بعد هذا الكلام لمسؤول إسرائيلي رفيع، الرئيس الأسبق للكنيست، يستطيع أيّ وقح على القول بأنّ الحكومة الإسرائيلية غير مسؤولة عن مثل هذه الأعمال الإرهابية؟

وبعد هذه الأعمال الإرهابية بحق الإنسان الفلسطيني تحديداً، هل يعود فرض الشريعة اليهودية باحترام يوم السبت، وفرض طعام الكوشر على «جميع الأماكن العامة مثل المطاعم والفنادق والإستراحات»(700) ذا أهمية بالنسبة للإنسان الذي يعيش اليوم في القرن الحادي والعشرين؟ ألم يقل يسوع «إنّ ابن الإنسان هو ربّ السبت أيضاً، إذاً يحلّ فعل الخير في السبوت؟ أولم يقل لهم أيضاً، وللعالم أجمع، «ألا تفهمون بعد أنّ كلّ ما يدخل الفم يمضي إلى الجوف ويندفع إلى المخرج»

فليس ما يدخل الفم بنجس بل ما يخرج منه؟ ألم يعنِ عندما قال: «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية» أنّ طعام الجسد ليس سوى وسيلة لإبقاء الإنسان على قيد الحياة، أمّا الذين يرومون الحياة الأبدية فعليهم أن يأكلوا من أفكاره وتعاليمه وأن يتقيّدوا بأعماله التي تفيض محبة لا حقداً وبغضاً؟

لقد دأب الصهاينة على العمل المنظَّم الهادف للسيطرة على اقتصاد العالم الذي يخوّلهم إحكام السيطرة على الحكومات والإعلام والمؤسسات المالية. يقول وليم غاي كار: «هذا ولم أكتشف مدى أهمية السياسة الصهيونية بالنسبة إلى الذين يخططون للسيطرة الكاملة على اقتصاديات العالم إلاّ بعد مدة طويلة من الحرب وبعد أن بدأت بنفسي دراسة التاريخ المعاصر والأديان المقارنة»(701). وتحدّث بول فندلي عن الضغوط التي يمارسها اللوبي اليهودي (أيباك) على الإدارة الأميركية لاستمرار دعم إسرائيل مالياً ولزيادة هذا الدعم باستمرار، دون الأخذ بعين الإعتبار مصلحة المواطن الأميركي خاصة إبّان الأزمات الاقتصادية. وتحدث عن هذه الضغوط قائلاً: «حتى الذين هم في المراتب العليا من زعامات مجلس النواب الذي يمثلون مناطق آمنة سياسياً ليسوا بمنجى من إرهاب اللوبي. فهم يتصورون ضغط اللوبي عندما يعودون إلى ديارهم، فيصوّتون ضدّ وجدانهم»(702). ويشير إلى ما قاله نيك رحال، نائب وست فيرجينيا، معترضاً على قرار السماح لإسرائيل إنفاق 250 مليون دولار من قيمة المنحة العسكرية لصنع طائرة «لافي» المقاتلة الإسرائيلية الجديدة: «ستضيع حوالي 6,000 وظيفة كنتيجة مباشرة لأخذ 250 مليون دولار من الاقتصاد الأميركي والسماح لإسرائيل بإنفاقها على مواد وخدمات دفاعية يمكن شراؤها بسهولة هنا في الولايات المتحدة»(703).

ولكن لا، فإسرائيل لا تهتم كثيراً للاقتصاد الأميركي، أو للمواطن الأميركي، إنّها لا تهتم إلاّ لمصالحها حتى ولو كانت تتعارض جذرياً مع مصالح الشعب الأميركي، وهي فعلاً كذلك. اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة يسرق عرق المواطن الأميركي لأنّ الضريبة التي يدفعها تذهب بمعظمها، ليس إلى تقديمات خدمات اجتماعية أو صحية يمكن أن يستفيد منها، بل إلى مساعدات عسكرية لإسرائيل خاصة ولبعض الدول الحليفة بشكل عام. فليجع المواطن الأميركي، وليمت المواطن الفلسطيني، المهم أن يبقى المواطن الإسرائيلي مسيطراً وممارساً إرهابه على كلّ من يقف بوجهه.

يقول فندلي أيضاً: «ويحدّد اللوبي الموالي لإسرائيل موظفي الحكومة الذين يعتبرهم غير متعاطفين مع احتياجات إسرائيل لمهاجمتهم شخصياً بل وتحطيم مستقبلهم في الوظيفة»(704). فليقل لي كلّ ذي عقل وضمير ماذا يمكن أن نسمي ذلك؟ كلّ ذلك ليس بكافٍ للوبي اليهودي في الولايات المتحدة، فهو لا يتوانى عن تدمير الإقتصاد الأميركي إذا كان ذلك يخدم مصلحته. يقول جو فيالز: «كان دافع اللوبي الإسرائيلي - اليهودي للعملية الأساسية «شيخينا» (السيطرة على نفط العراق)، وفيما بعد عملية حريّة العراق، وما يزال مؤسساً على التحقيق من التدهور الشديد للاقتصاد والبنية الاجتماعية الأميركيين»(705).

وها هو الاقتصاد الأميركي عامة، والمواطن الأميركي خاصة، يدفعان ثمناً عالياً لتدهور هذا الاقتصاد في السنوات الأربع الأخيرة، التي تشير كلّ الدلائل على استمراره وعدم إمكانية الخروج منه في وقت قريب. وها هو إسرائيل شاحاك، يقول وبكلّ وضوح: «لكنّني سأقول بأنّ الإختراع

المتسرّع لإسرائيل قد سمّم الحياة السياسية والفكرية في الدولة التي تَعتبر راعية لإسرائيل – والمستبعد أن تكونها في الوقت نفسه – عنينا بذلك الولايات المتحدة. وأقول الدولة التي كانت رعايتها لإسرائيل مستبعدة، لأنّه لا توجد أقلية أخرى في التاريخ الأميركي، استولت في وقت من الأوقات، على هذا القدر من الأموال من دافعي الضرائب الأميركيين»(706). فأنْ يدفع المواطن الأميركي جزءاً من ضريبته لمساعدة الدول الفقيرة النامية، فهذا يكون عملاً إنسانياً بامتياز يستحق عليه وحكومته الشكر والتقدير. أمّا أن تقوم الحكومة الأميركية، وبعامل إرهاب اللوبي اليهودي، باستعمال ضرائب المواطن الأميركي لحماية أمن المواطن الإسرائيلي فوق أراضي فلسطين المحتلة، كما تدّعي الحكومة الإسرائيلية، فهذا ليس فقط إرهاباً اقتصادياً بل هو جريمة كبرى بحق كلّ مواطن أميركي يجهل ماذا تفعل إدارته بالضريبة التي تجمعها من الشعب.

لقد عمل المتدينون المسيحيون المتطرفون في الولايات المتحدة على استغلال من تبقى من الهنود الحمر، الذين تمت إبادتهم ومصادرة أملاكهم وتوطين من بقي على قيد الحياة في أوهايو في مطلع القرن التاسع عشر، فإذا بالإرساليات التبشيرية تلقّنهم «أنّهم من ذرية الأسباط العشر الضائعة»، لكي يتبرعوا «بمبلغ 5,67 دولارات مع سوارين ذهبيين لصالح أجدادهم في القدس»(707). ولم تكن السرقة المظهر الإرهابي الإقتصادي الوحيد، سواء أكانت سرقة الأموال أم الأرض أم المياه، بل تمثّل إرهابهم أيضاً بدفع المكافآت المالية السخية لمن يجاريهم بإرهابهم. يذكر تشومسكي «أنّ الرئيس المكسيكي ميجويل أليمان تلقى مبلغ 1,5مليون دولار من فِرَق الهاغاناه مكافأة لتعاونه مع إحدى شركات الطيران لشحن أسلحة إلى فلسطين. كذلك تلقى استاسيو سوموزا، ديكتاتور نيكاراغوا، مبلغ 200 ألف دولار من عصابة الهاغاناه بشيك على بنك نيويورك مكافأة على ما قدّمه لليهود خلال عام 1948»(708).

إنّ الحرب على العراق كانت بتشجيع من اللوبي اليهودي، ليس كما أُشيع للقضاء على أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها صدّام حسين، وليس لثبوت علاقته بالقاعدة، وإنّما لسببين إثنين: الأول تمكين الولايات المتحدة من السيطرة على نفط العراق، والثاني تدمير قوته العسكرية التي كانت تشكّل إزعاجاً لإسرائيل. فالإرهاب العسكري تلاقى مع الإرهاب الاقتصادي لتدمير هذا البلد الحضاري. لقد أعلن ألن غرينسبان «ما يعلمه تقريباً الجميع بأنّ الحرب على العراق كانت من أجل النفط»(709). وثمة سبب آخر كان وراء الحرب على العراق سأتطرق إليه في باب الإرهاب الإعلامي.

إنّ الكلام عن الإرهاب الإسرائيلي لا يمكن أن ينتهي، ولأنّه كذلك لا يمكن حصره بين دفَّتَيْ كتاب، ويبقى الهدف هو الإشارة إليه وتأكيده بواسطة أقوال من خبروه. وخير كلام أختم به هذا الباب هو ما كتبه السيناتور بول فندلي حيث يقول: «إنّ الذي ينتقد السياسة الإسرائيلية بصورة مستمرة يجر على نفسه متاعب الرد المستمر المؤلم بل وخسارة مصدر رزقه، بسبب ضغوط اللوبي الإسرائيلي العنيد. فرؤساء الجمهورية يرهبونه، والكونغرس ينفذ أوامره، وبعض الجامعات المحترمة تتجنب البرامج الأكاديمية والهبات التي يعارضها، وعمالقة الإعلام والقادة العسكريون ينحنون تحت قسم أو أكثر منه»(710).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الباب الرابع

الإرهاب الإعلامي والثقافي

«علينا أن نُرغم حكومات الأغيار على اتخاذ إجراءات تؤدي إلى تشجيع خطتنا الشاملة التخطيط، والتي أخذت الآن بالدنوّ من هدفها الظافر، وذلك عن طريق فرض الضغط الذي يقوم به الرأي العام المتحمس، والذي أتممنا في الواقع تنظيمه بمساعدة ما يسمى «قوة الصحافة الكبرى». وإذا ما استثنينا بعض الصحف التي لا تستحق العناية، فإنّها جميعها قد غدت خاضعة لنا وتحت تصرفنا».

البروتوكول السابع

«حرية التعبير تماماً كحريّة التنفس، ومن يمنع الهواء عن رئة الإنسان يقتله، ومن يمنع الإنسان عن التعبير يقتل الإنسانية جمعاء».

رمزي النجّار

مع التقدم التقني الذي بدأت بوادره تلوح في أفق مطلع القرن العشرين، ومع اتّساع الإمبراطورية المالية للوبي اليهودي، خاصة في الولايات المتحدة، أدرك المشروع الصهيوني أهمية الإعلام لإنجاح هذا المشروع. ولمّا كانوا يعلمون صعوبة إقناع المجتمع الدولي بتوجهاتهم القاضية بطرد شعب من أرضه لإعادة استحداث مملكتهم التوراتية، لجأوا إلى البروباغندا الإعلامية، هذه البروباغندا نشأت بالأصل لكي «تنشر الأفكار والعقائد التي يعتبرها أصحابها صائبة، صالحة وإيجابية للخير العام»(711)، لا كما يسود الاعتقاد بأنّها «نشأت لأغراض سلبية تهدف إلى غسل الأدمغة عبر بثّ الفكر والعقيدة الشرِّيرَيْن»(712). ثم يعود النجّار للإشارة إلى المعنى المعجمي لكلمة بروباغندا، فإذا بها تعني: «مجموعة المعلومات والأفكار المترجمة إلى بيانات وحملات وشعارات تخدم قضيّة نبيلة»(713). ولكن هذا المعنى يقول النجّار «سرعان ما انحرف عن تعريفه السابق وصار مثلاً في الخمسينات، وفي طبعة القاموس «ويبستر» على الشكل التالي: (البروباغندا هي فعل نشر المعلومات والشائعات والدعوات التي من شأنها مساعدة سلطة أو حاكم لنشر وحدانية أفكاره وتطبيق العقاب على من يعاكسها». وأورد ثلاثة أنواع من البروباغندا حدّدها الدارسون وهي: البروباغندا البيضاء، البروباغندا السوداء، والبروباغندا الرمادية. وما يهمنا في بحثنا هو الإشارة إلى ماهية البروباغندا الإعلامية السوداء والتي «تعني فبركة معلومات كاذبة قد تُنسب أو لا، إلى مصادر غير محددة، بهدف بث أكاذيب واتهامات تمسّ أيضاً بالكرامات وبمعتقدات الآخرين».

إنّ هذا التعريف ينطبق تماماً على ما يقوم به اللوبي الصهيوني في كلّ الدول التي يتمتع فيها بالنفوذ المالي. فالمال كان الوسيلة الأفعل لشراء ضمائر الإعلاميين، حتى إذا لم ينفع تم اللجوء إلى أساليب أخرى تُرغم صاحب الرأي المعارض على تبديل رأيه أو السكوت. لقد استغل اللوبي الصهيوني هذه الظاهرة الإعلامية خير استغلال، بغض النظر عن التسمية والمصطلح، إذ إنّ الاستغلال يكمن بالمعنى، ويعتبر رمزي النجّار بأنّ البروباغندا «تسخّر ما نصطلح على تسميته «سيكولوجيا الجماعة» والمقصود أنّها ترمي في بؤر الغرائز والعقد الإنسانية النفسية، ومركّبات النقص

وطموحات التفوّق والتسلط، الكثير من السموم بقصد الإثارة وإشعال ما يهجع في اللاوعي البشري لكي ينام العقل وتستيقظ الغريزة»(714).

لكأنّ هذا الكلام قد فُصِّل تفصيلاً على قياس الخطة الصهيونية التي هدفت إلى تسويق فكرة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، مستعملة لذلك كلّ الأكاذيب، ومنطلقة للعب على عواطف الشعوب وغرائزها وإشعارها بذنب ما تم اقترافه بحق اليهود. فانقسم الناس إلى ثلاث فئات: فئة منحتهم الدعم المطلق، بل كانت أكثر صهيونية منهم، بناءً على قناعتها اللاهوتية بما جاء في التوراة، وفئة منحتهم الدعم مُكرهة نتيجة الضغوط التي مورست عليها بما يمكن تعريفه بالإرهاب الإعلامي الذي كان يتحوّل أحياناً إلى إرهاب عسكري يتهدد الأرواح، وفئة أرادت التخلّص من اليهود فوجدت بمسعى الصهيونية لإقامة دولة لهم خير مخرج لها من مشاكلها مع نفسيتهم المذمومة التي اتصفت على مدى عصور بالعنصرية والتعالي والاستغلال. وأثبت ظفر الإسلام خان ما يؤكد على هذه المسألة حيث قال: «ولكنّ اليهود لا يأبهون بهذه الحقائق، فهم أكثر الشعوب تعصّبا وأكثرهم نشاطاً في نشر الأكاذيب (التي لفّقوا بأنفسهم) عن تاريخهم وحضارتهم المزعومة. لقد نشطوا منذ أقدم العصور على تضخيم تاريخهم تضخيماً عظيماً. لقد نحتوا بأنفسهم الأكاذيب عن عظمتهم المزعومة وظلّوا يرددونها حتى أصبحوا أسرى تلك الأكاذيب نفسها. وهم قد فرضوا إرهاباً فكرياً غريباً»(715).

ومن الناحية العملية نستطيع أن نعيد البروباغندا السوداء إلى زمن موغل في القِدَم، يوم اخترع عزرا الإله يهوه ونسب إليه كلاماً وأفعالاً ألزم أتباعه العالم بها، فإذا بفكرة الشعب المختار والأرض الموعودة، ولكثرة تردادها، تصبح القوت اليومي الذي يغذي اللاوعي والإيمان النمطي. يقول رمزي النجار: «لكنّ الملاحظ، ومن دون تعميم، أنّ البروباغندا وأتباعها ينجحون غالباً حيث يفشل خصومهم، وذلك لأنّهم يكرّرون الأقوال نفسها والكذب نفسه والوعود نفسها، على مدى طويل من الزمن، فتترسّخ صورتهم «المثالية» في رؤوس البسطاء»(716). ويقول الكاتب الفرنسي جان لوي برنار: «وتحسّ بكلّ تأكيد أنّ أحبار اليهود قد اقتبسوا من تواريخ الأقطار التي جاسوا خلالها بعض الحكايات، فعبرنوا كلّ المعلومات التي كان الغرض منها تلفيق أكذب تاريخ للعالم. كلّ ذلك لاختراع مُلفّقة الشعب اليهودي المختار»(717). فالإرهاب الثقافي بدأ منذ ذلك الوقت، إذ إنّ كتبة التوراة سطوا على كلّ تراث الشعوب القديمة ولم يتورعوا عن أن ينسبوا هذا الإنتاج الفكري المميّز إلى إبداعهم، فكانوا بناة أول مدرسة للفكر الإرهابي في العالم. ونسج منظّرو الصهيونية الأوائل على منوال كتبة التوراة، فسرقوا النظريات الإجتماعية الأوروبية وحوّروها، واستغلوا براءة المؤمنين لينفثوا سمومهم مؤكدين على حقهم الإلهي الذي يكفل لهم ممارسة فعل الطرد والإبادة مجدداً بحق شعب كنعان - فلسطين.

يقول د. كارنييف: «إنّ إبداع اليهودية المعاصرة في مجال التكنيك والعلم والأدب يشبه اهتمامهم بالصحافة. فالإبداع عند اليهود سلعة خاصة عندما يأخذون الأفكار من غيرهم وينسبونها لأنفسهم ويتحد المال والصحافة فيكوّن احتكارات إعلامية، وبالتالي يصبح الإعلام في أيديهم سلاحاً للسيادة والسيطرة اليهودية»(718). ولكي يضمنوا ولاء المؤمنين المسيحيين، لم يقفوا عند حدّ التآمر على المسيحية عن طريق فرض مفهوم نسب يسوع إلى داود وتغيير اسمه إلى المسيح ليتوافق ذلك مع نبوءات أنبيائهم عن المسيح الملك المنتظر، بل عمدوا إلى نصوص الأناجيل يُعملون بها تحريفاً لكي

تتوافق مع مؤامراتهم. هذه المؤامرة الإرهابية الإعلامية الثقافية دفعت ببعض من وقف على تفاصيلها إلى فضحها. فسهيل قاشا وضع كتاباً حول هذا الموضوع تحت عنوان: «الصهيونية تحرّف الإنجيل»، وسهيل التغلبي وضع كتاباً آخر بعنوان: «اليهودية – الصهيونية تحرّف الكتاب المقدس»، وجورج متري عبد المسيح قدّم أطروحة لنَيْل الدكتوراه إلى كلية اللغة العربية في كراتشي تحت عنوان: «الفكر الديني عبر العصور» ثم عاد وأبدله بعنوان: «فكرنا الديني بين التحريف والتعريف». ولمن يريد الإطلاع على هذا التحريف يمكن الاعتماد على هذه الكتب الثلاثة.

سأكتفي بالإشارة إلى ما نقله الأب سهيل قاشا في كتابه «الصهيونية تحرّف الإنجيل» عمّا كتبه بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس مار أغناطيوس يعقوب الثالث في كتابه «لسان الواعظ» الذي أعاد نشره سنة 1975 تحت عنوان «أصابع صهيونية أثيمة تحرّف الكتاب المقدس»، لكي أدل على الإرهاب الثقافي الإعلامي، والمرتبط أيضاً بالإرهاب الديني، الذي ارتكبته الصهيونية، لا فرق أكانت صهيونية يهودية أم مسيحية أم محمدية. يقول البطريرك: «بيد أنّنا ويا للأسف الشديد، أصبنا بخيبة الأمل حين راجعنا هذا النص (نص نبوءة مجيء المسيح الرسمي المعتمد والنص المحرّف) في الطبعة الكاثوليكية الأميركية الحديثة طبعة القديس يوسف، نيويورك التي تمت بموافقة قداسة البابا بولس السادس في 18 أيلول/سبتمبر 1970 وتصديق الكاردينال باتريك أو بويل رئيس أساقفة واشنطن ذلك أنّه ورد محرَّفاً لصالح اليهود، بعيداً كلّ البُعد عن الحقيقة الراهنة»(719). ويعترف إسرائيل شاحاك أنّ فاعلية التحريف تتجسد بشكل لافت «في البلدان الناطقة باللغة الإنكليزية، حيث تحصل بانتظام، أفدح التحريفات لليهودية. والوضع على أسوأ ما يكون في الولايات المتحدة وكندا، الدولتين اللتين تفوق قوة تأييدهما للسياسات الإسرائيلية، قوة أي تأييد آخر لها»(720). وننقل ما كتبه جورج متري عبد المسيح عن تبني الكنيسة لبعض المقولات التي فرضها اليهود ليثبتوا صحة نبوءات أنبيائهم. «ونحن نهتم بوجود المسيح ومولده لأنّ الكنيسة كانت مبتدعة عندما تبنت ولادة المسيح بالشكل الذي أوردته. فقد جعلت المجوس يسجدون إكراماً لعيني إشعيا. وأرغمته على أن يكون في بيت لحم مماشاة لإرميا. وحشروا عدم رجوع المجوس إلى هيرودس ليزعموا أنّ المزامير كتبت كذلك. واختلقوا مذبحة الأطفال ليقولوا إنّ نبوءة إرميا تحققت»(721).

أمّا إذا أردنا الانتقال إلى أيامنا، وحاولنا مواكبة الإرهاب الإعلامي الصهيوني لاستطعنا أن نستشهد بما كتبه كثر من كبار المفكرين والدارسين والباحثين، الذين تحدّثوا عن سيطرة اليهود على الإعلام، وبالتالي خضوعه لتوجيهاتهم التي تصب دائماً في خدمة مصلحة مشروعهم. وليس أشدّ تعبيراً عن هذا الإرهاب أكثر من الخبر الذي أورده الموقع الإلكتروني «روسيا اليوم» والذي يقول: «تحدّث الكاتب والمفكّر الإسرائيلي إسرائيل شامير عن دور الإعلام العالمي في خدمة المشروع الصهيوني، كما تطرّق أيضاً إلى الدور الذي يلعبه اليهود على الساحات السياسية والاقتصادية الأوروبية والأميركية وإلى النظرة الحقيقية تجاه إسرائيل في العالم التي يحاول الإعلام تجميلها. وقال إنّ إسرائيل هي الدولة الأكثر خطورة على السلام العالمي وربط بين مقتل الرئيس الأميركي جون كينيدي والموساد الإسرائيلي» ويقول د. كارنييف نقلاً عن الكاتب الروسي أندريه بيلي (1880 – 1934) ما يلي: «يتوقف مصير الكتاب «الإمبراطورية الروسية» على النقاد اليهود، فالكاتب محاصر من دور النشر اليهودية التي تهدد بعدم نشر كتبه وبالتالي يكون مهدداً بالجوع»(722).

لقد عرف اليهود أهمية الإعلام ودوره بغسل عقول الناس البسطاء، فاستعملوا ثرواتهم للسيطرة على دور النشر، والصحافة، ووسائل الإعلام المرئية والإذاعات، فضلاً عن محاولاتهم كمّ أفواه المفكّرين الأحرار. هذا ما اعترف به روجيه غارودي حيث قال: «وأحاربه اليوم عند اليهود في كتابي هذا... مغامراً بأن أستنزل على رأسي ما نعرفه من الصواعق الإسرائيلية - الصهيونية»(723). كما يشير إلى أنّ الناشر الذي نشر كتابه (قضية إسرائيل) في باريس 1983 قد تعرّض للإرهاب وأجبر على الإفلاس (منشورات بابيروس - باريس)(724). وما كتبه السيناتور بول فندلي عن تمنّع أكثر من عشرين دار للنشر القيام بطبع كتابه، على الرغم من أنّ البعض أبدى إعجابه بمخطوطة الكتاب ووصفها بأنّها رائعة، ولكنّهم وجدوا أنّ الموضوع الذي تطرّق إليه السيناتور «في غاية الحساسية»(725). فالإعلام الحر هو الإعلام الذي يتوافق مع نظرة اليهود إلى الأمور، وأي إعلام آخر هو إعلام خبيث معادٍ للسامية، وإليك أخي القارئ يعود تقييم أيٍّ من الموقفَيْن لجهة وصفه بالإرهاب الإعلامي الثقافي.

ويتحدّث أيضاً هنري فورد عن الإرهاب الإعلامي اليهودي في الولايات المتحدة، وهو المتمول الكبير الذي لحقه جزء من الإرهاب الاقتصادي، ويروي كيف استطاع الضغط الذي مارسه اللوبي اليهودي على صحيفة «النيويورك هيرالد» عن طريق حجب الإعلانات عنها أن يُضعفها. لكنّ الصحيفة تجاوزت الضغوط لأنّ صاحبها جيمس غوردون بنيت كان «مناضلاً شرساً، وكان بالإضافة إلى ذلك يعرف النفسية اليهودية أكثر من أي إنسان آخر من غير اليهود في نيويورك»(726). ولم تتوقف الحملة مما دفع ببنيت عندما تقدّم بالعمر، وخوفاً من إقدام اليهود على شراء الصحيفة من الورثة، على تضمين وصيته نصاً يكفل عدم تحويل الصحيفة إلى ملكية فردية». ويُكمل فورد قائلاً: «وقد بات اليهود الآن المسيطرين على الحقل الصحفي في نيويورك بشكل يفوق سيطرتهم في أي عاصمة أوروبية أخرى، فهناك في أوروبا تقوم صحيفة على الأقل بنشر الأنباء الصحيحة عن اليهود، أما في نيويورك فليست هناك صحيفة واحدة»(727).

ويعطي الكاتب لوسيان كافرو دومارس بعض الأمثلة على دور الصحافة بالتستر عن أي شيء يطال اليهود، «وفي أوروبا الغربية، عندما يتعلق الأمر بمجرمين يهود، لا يمكن أن يتوبوا، تُبقي الصحافة المحلية أسماءهم طيّ الكتمان»(728). وعلى الرغم من كلّ هذه السيطرة التي باتت ملموسة في الوسط الإعلامي وبين المفكّرين والكتّاب، يبقى لدى إسرائيل هاجس مقلق، وهو ماذا لو لم يعد المجتمع الدولي يحتمل كذبهم وافتراءاتهم وإرهابهم؟ لقد أشار إلى ذلك جو فيالز حيث قال: «ساد اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلي القلق العميق، لأنّه، وعلى الرغم من التحكّم الفعّال بوسائل الإعلام الغربية من قِبَل اللوبي اليهودي - الأميركي، إلاّ أنّ تقييم المخاطر الذي أجرته تل أبيب أظهر وجود احتمال كبير لزيادة فرض العقوبات على (إسرائيل) من قِبَل الدول الغربية في حال استمرت في نشاطاتها التعسفية ضد الفلسطينيين»(729). ولكن المسؤولين الإسرائيليين يدركون تماماً كيفية الإلتفاف على أي موقف أو قرار تتخذهما أيّة دولة ويكونان ضد مصلحتها.

ويشير الكاتب ظفر الإسلام خان إلى العلاقة الدينية بالإرهاب الإعلامي. وموضحاً أنّ الرسالة الرابعة من التلمود توجب على اليهود «إقامة مجمع قومي عظيم يسمى سنهدرين. والفصل العاشر من نفس الرسالة يسمى العقاب ويتضمن وسائل العقاب والردع ضد اليهود الخارجين على

السنهدرين. ومما يجدر ذكره أنّ السنهدرين موجود الآن فعلاً تحت ستار شركة تمويل يهودية، ويسيطر على ما لا يقلّ عن ثلث رأسمال العالم، ولم يقتصر عمله على ردع اليهود فحسب وإنّما تجاوز – حسب الخطة اليهودية الجديدة – ليكون رادعاً للنظم والحكومات التي لا تتماشى سياستها والسياسة الصهيونية. والسنهدرين حكومة عالمية خفية، تعمل بالإشتراك مع وكالات المخابرات الغربية ونظمها وصحافتها التي يهيمن عليها اليهود أصحاب السنهدرين»(730).

هذا في ما خص الصحافة وهو، كما ألمحت في الفصول السابقة، مجرد أمثلة توضح كيف يعمل أخطبوط الصهيونية، وكيف يُرهب الدول والمؤسسات والأفراد على السواء من خلال العديد من المنظّمات. ففي الولايات المتحدة وحدها عشرات المنظمات اليهودية العاملة في هذا الإتجاه، وإن لم تكن كلّها بشهرة أيباك أو بناي بيئرث، وهذه الأخيرة التي اشتهرت بكونها منظمة للمحافظة على الحقوق المدنية اليهودية، إلاّ أنّها عملياً لم تكن سوى «منظمة مكرّسة لمحاولة تشويه وتخويف وإسكات الناس الذين ينتقدون السياسات الإسرائيلية»(731). لقد شكّل اللوبي اليهودي خلايا لمراقبة كلّ ما يصدر في دنيا الإعلام، حتى إذا ما اشتمّوا رأياً يخالف توجهاتهم بادروا إلى إسكاته مستخدمين كل الوسائل وصولاً إلى الإرهاب الجسدي.

وليس من وقت بعيد، ذكرت صحيفة معاريف أنّ البروفسور شلومو ساند من قسم التاريخ في جامعة تل أبيب، تلقّى تهديداً بالقتل ورسالة تتهمه بمعاداة السامية والعمل ضدّ إسرائيل. وهذا التهديد جاء على أثر نشره لمؤلّفه القيّم «اختراع الشعب اليهودي» والذي اعتمدته كمرجع مهم في هذه الدراسة. ومما أثار حفيظة الإسرائيليين عليه هو وضعه كتاباً آخر بعنوان «كيف اخترعت أرض إسرائيل»، حيث أكد أنّ هناك في إسرائيل ما يُعرف بالتابو أي الأمور التي يُمنع الكلام عنها وهي: فلسطين أرض اليهود – استمرارية دولة إسرائيل والهولوكوست. هذه مسلّمات بالنسبة للصهاينة لا يحق لأحد مناقشتها. لذلك كتب ساند في مقدمة الطبعة العربية لكتاب «اختراع الشعب اليهودي» قائلاً: «اتهمني المؤرخون الصهاينة بأنّي منكر الشعب اليهودي»، ويستطرد قائلاً: «فلا بدّ لي من الإعتراف بأنّهم كانوا على حق»، انطلاقاً من قناعته بعدم وجود شعب يهودي، كما أرادته الصهيونية، ولكن هناك يهود كما يوجد مسيحيون ومسلمون.

ويذكر يوسف كفروني في المقدمة التي وضعها لكتاب توماس طومسون «التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي»، كيف تم طرد المؤلف من جامعة ماركويت في ولاية ميلووكي – الولايات المتحدة على أثر صدور كتابه وقد كان يشغل فيها منصب أستاذ علم الآثار. وهذا الموقف من مؤرخ مرموق يذكّرنا بما حدث لعالمة الآثار كاتلين كينيون التي اتخذت الحكومة الإسرائيلية قراراً بمنعها من دخول إسرائيل ومتابعة تنقيباتها خلال السنوات الأخيرة التي سبقت وفاتها عام 1978، بعدما أثبتت حفرياتها بطلان الادعاءات اليهودية سواء لجهة المملكة الموحدة أو هيكل سليمان أو غير ذلك مما يُعتبر مسلمات لا تمكن مناقشتها. ودرج اللوبي اليهودي على تجنيد عملائه لمهاجمة كلّ من يتطرّق إلى المسلّمات التي تشكل ركائز الوجود الإسرائيلي في فلسطين.

ويحدثنا كيث وايتلام في كتابه «تلفيق إسراءيل التوراتية» كيف أقدم هرشل شانكس على مهاجمته قائلاً إنّه بسبب كونه (غير معتوه) ولأنّه ذكي وواضح فإنّ بحثه «جاء ماكراً وخطيراً وهو غير متوازن ودنيء الروحية بشكل مقلق» وذلك بعد قراءته للكتاب. ولقد تطرّق وايتلام في كتابه إلى ما

عاناه غيره من الباحثين الكتابيين أمثال غاربيني وليتش اللذين بقيا «صوتين هامشيين داخل خطاب الدراسات الكتابية وتحديداً بسبب تصدّيهما لتركيبة إسرائيل المتخيّلة التي اختُرعت وفق شروط النموذج الحاضر للدولة القومية الأوروبية والتي ارتبطت بالصراع من أجل تحقيق دولة إسرائيل»(732)، ثم يقول: «هنا يُستخدم الثقل الكامل لخطاب الدراسات الكتابية في محاولة لإسكات الإدعاءات البديلة حول الحق في الماضي»(733).

وفرويد نفسه أشار مداورة إلى ما يمكن أن يتحمله أيّ كاتب يناقض الفكر النمطي المسيطر على الدراسات الكتابية: «إنّ تجريد شعب من الشعوب من الرجل الذي يحتفي به على أنّه أعظم أبنائه ليس بمهمة بهيجة ينجزها المرء بخفة قلب. ولكن ليس ثمة من اعتبار، مهما جلّ، بقادر على إغوائي بتجاهل الحقيقة باسم مصلحة قومية مزعومة»(734). إذن هو توقع أن يكون هدفاً للصهاينة، لكنّ موضوعيته العلمية كانت فوق كلّ اعتبار «ديني أو عرقي أو قومي». صحيح أنّ قلّة من المفكّرين والباحثين تجاوزوا الخوف الذي يمكن أن يسببه لهم ضغط اللوبي الصهيوني لمجرد نشرهم أو إلقائهم محاضرات تفضح المؤامرة الصهيونية، ولكن صوت هذه القلّة كان مدوياً ولم يستطع هذا اللوبي إسكاتها، لكنّه التفّ عليها أحياناً كثيرة وحدّ من فعاليتها. يكفي أن يلقي القارئ نظرة على عناوين بعض الكتب لكي يعلم حق العلم بأنّ جدار الصمت بدأ يُخترق، ولن ينفع الإرهاب الإعلامي الفكري الثقافي بكمّ كلّ الأفواه والقيام بإخصاء الفكر الحرّ.

لقد تطرّقنا سابقاً إلى موضوع الهولوكوست وكيف تم استغلال هذه المسألة على أكمل وجه إعلامياً لابتزاز، ألمانيا خاصة وأوروبا عامة، مالياً وسياسياً وذلك لتأمين الدعم المطلوب لمشروعهم الاستعماري. ولكثرة ما نشروا من أكاذيب حول هذه المسألة بدأت بعض الأصوات تتعالى لتفضح التضخيم الذي اصطنعه الصهاينة بغية تصوير المحرقة على أنّها عمل إرهابي فريد لم يحصل له مثيل في التاريخ. ولقد أتى الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر، وبشكل غير مباشر، على ذكر معلومات عن عدد اليهود في ألمانيا أيام هتلر مما يسقط ادّعاء اليهود بسقوط ستة ملايين ضحية، وهو في الوقت نفسه لا ينكر فظاعة الجريمة. وانطلاقاً من حرصه على مجانبة الدقة والموضوعية حول هذه المسألة درس أعمال الناجين من المحرقة أمثال إيلي ويزل ومايكل بلومانثال، الذي كان وزير الخزانة في عهده، والذي وضع كتاباً بعنوان The invisible wall عن معاناة اليهود في ألمانيا، وهو الذي وُلد فيها ولم يغادرها إلا عام 1939 هرباً من النازيين.

وإذا قرأنا المقطع التالي من كتابه، الذي كتبه عام 1933، أدركنا مدى التضخيم الذي اخترعه اللوبي الصهيوني للمحرقة. «أحدث اليهود الألمان، في مجالات عدة، وقعاً مدهشاً على ألمانيا وما هو أبعد كثيراً من حدود البلاد، غير أنّه لم يوجد أبداً أكثر من 600 ألف منهم، وهي أقلية ضئيلة لا تتجاوز الواحد بالمئة من الشعب الألماني. وفي السنوات الثماني الأولى التي أعقبت استيلاء هتلر على السلطة، تدبّر 300 ألف منهم الهروب ومات نحو سبعين ألفاً، وبما أنّ السكان اليهود باتوا من المتقدمين في السن فإنّ معدلات الوفيات فاقت كثيراً معدلات الولادة. وهكذا، عندما أُقفلت الأبواب نهائياً في 1941 ولم يعد الهروب ممكناً، بقي هناك 163 ألف يهودي فقط. تمّ إبعاد معظمهم إلى الشرق، ونجحت قلة منهم، وقتل الآلاف منهم أنفسهم»(735). فهذا الكلام يعني أنّ الذين ذهبوا ضحية ما يُعرف «بالمحرقة» لا يتعدى المئة ألف، لكنّ الإرهاب الإعلامي الصهيوني جعل العدد

ستة ملايين لكي يكون وقع المجزرة على الرأي العام صادماً ومولدا لردة الفعل المطلوبة. ألا تذكرنا هذه المبالغة بالأرقام بما ورد معنا في التوراة خاصة لجهة العدد الذي خرج مع موسى من مصر والذي تجاوز المليونين تكاثروا من أصل سبعين نفراً فقط؟

وها هو روجيه غارودي أيضاً يفضح ادّعاءاتهم ويدحضها بما كتبوه هم فيقول: «يشير الكتاب السنوي اليهودي الأميركي، رقم 5702 من 22 أيلول عام 1941 حتى 11 أيلول عام 1942 الذي نشرته شركة النشر اليهودية في أميركا، يشير في الصفحة 666 إلى أنّه كان في أوروبا، الخاضعة لألمانيا، بعد التوسع النازي في روسيا، ومع أخذ عدد اليهود الباقي في ألمانيا في الحساب، ثلاثة ملايين ومئة وعشرة آلاف وسبعمئة واثنان وعشرون يهودياً عام 1941. فكيف يُباد منهم ستة ملايين؟»(736) ولا يزال الإرهاب الإسرائيلي مستمراً حول هذا الموضوع، وعلى كلّ منتقدٍ أيضاً لسياسة إسرائيل المستغلة لألمانيا على الصعيد المالي والعسكري. فها هو الأديب الألماني غونتر غراس، الحائز على جائزة نوبل للسلام، يُمنع من دخول إسرائيل، وهو في التسعينيات من عمره، على خلفية قصيدة كتبها بعنوان: «ما يجب أن يُقال» انتقد فيها ألمانيا لتزويدها إسرائيل مؤخراً بغواصة نووية، مؤكداً أنّ إسرائيل هي الخطر الأكبر على السلم العالمي وليس إيران.

لكنّ الأسئلة المنطقية تعتبر غير مشروعة بنظر اللوبي الصهيوني. والجواب على هذا العمل الإعلامي الإرهابي يعود برأي نورمان فنكلشتاين إلى أنّ «التُهم التي يستعملونها لتبرير السياسة الإجرامية (لدولة إسرائيل) ودعم الولايات المتحدة لهذه السياسة»، هي «لابتزاز المال من أوروبا على حساب الضحايا المحتاجين للهولوكوست»(737). كما يرى بأنّ «إثارة الهولوكوست كانت إذاً خدعة لرفض أيّ شرعية للانتقادات الموجّهة لليهود، هذه الانتقادات لا يمكن أن تكون إلاّ نتيجة حقد مرضي»(738). لقد قلبوا الحقائق ليس فقط لجهة عدد الضحايا، وإنّما أيضاً بإلصاق صفة الحقد، التي ورثوها عن تعاليم التوراة، بكلّ من ينتقد سياساتهم. كما شدّد الكاتب على أنّ اليهود، وانطلاقاً أيضاً من تعاليمهم التوراتية التي غذّت لديهم الشعور بالتفوق من خلال مقولة شعب الله الخاص أو الشعب المختار، سعوا عبر الإرهاب الإعلامي إلى فرض نظرية فرادة الهولوكوست لتأكيد التفرّد اليهودي من جهة، ولإبعاد أيّ انتقاد أو اتهام لإسرائيل على أيّ مستوى أتى. وينقل المؤلف عن الكاتب سيمورهيرش من مؤلفه «خيار شمشون» بأنّ «كلّ تنويه عن قرار متخذ من قِبَل (دولة إسرائيل) لصنع أسلحة نووية يستحضر شبح الهولوكوست»(739).

لقد رفضت إسرائيل بشكل دائم الإعتراف بالإبادة الأرمنية على يد الأتراك، لدرجة أنّ الناشطين «اليهود في الكونغرس شكّلوا سداً في وجه تبني يوم ذكرى للإبادة الأرمنية»(740). والسبب الكامن من وراء هذا الموقف ينقسم إلى شقين: الأول المحافظة على الفرادة حتى عندما تتعلق بالقتل لإظهار مدى الإضطهاد اللاحق بهم، والثاني هو عدم المسّ بالصداقة الإسرائيلية التركية. ولأنّ هذه الصداقة قد اهتزت منذ سنتين نتيجة هجوم القوات الإسرائيلية على أسطول الحرية المتجه إلى غزة وسقوط تسعة قتلى أتراك، صمتت إسرائيل بعدما وافقت فرنسا مؤخراً على الاعتراف بالإبادة الأرمنية، لكنّها لم تصمت على تصريحات رئيس وزراء تركيا أردوغان الذي اتهمها بقتل الفلسطينيين واستمرارها باستغلال المحرقة. وقد أوردت جريدة السفير الخبر التالي: «هاجم رئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو رئيس الوزراء التركي، رجب طيب أردوغان، لأنّه صرّح بأنّ إسرائيل قامت بقتل مئات الآلاف من

الفلسطينيين وباستغلال المحرقة. وقال: «إنّها ادعاءات كاذبة، إنّها اتهامات مشينة لإسرائيل لا تمت إلى الحقيقة بصلة». كما هاجمه وزير الخارجية أفيغدور ليبرمان قائلاً: «إنّ القيادة التركية وعلى رأسها أردوغان هي قيادة إسلامية متطرفة تساند الإرهاب وتغذيه»(741). فلماذا لم تكن هذه الحكومة كذلك عندما كانت لها علاقات مميّزة مع إسرائيل؟ وهل تحول نظام أردوغان، الذي يوصف دائماً بالاعتدال، وبين ليلة وضحاها، من نظام إسلامي معتدل إلى نظام إسلامي متطرف إرهابي؟ أم أنّه الإرهاب الإعلامي الإسرائيلي الذي لا يقبل أن يُوجّه إليه أيّ انتقاد؟

ولا ننسى أيضاً الضغوط التي مورست على تركيا لوقف بث أحد المسلسلات الذي رأى فيه الإسرائيليون نقداً يطال إسرائيل، وكذلك فعلوا مع مصر ومسلسل «فارس بلا جواد». إنّ إرهابهم في عالم السينما والتلفزيون أكثر من أن يُحصى، ولا نزال نذكر الضغوط التي مورست على مِل غبسون بعد إخراجه فيلماً عن آلام يسوع، ويندر أن يمرّ عام لا يقوم فيه اللوبي الإسرائيلي بمهاجمة ممثل أو ممثلة يُطلق أيّ تصريح فيه انتقاد لليهود، وصولاً إلى الضغط على صانعي السينما لعدم إسناد أيّ دور إليه، فيصبح إرهابهم الثقافي إرهاباً اقتصادياً في الوقت ذاته. الابتزاز مستمر، والإرهاب الإعلامي الثقافي مستمر، ولن يتوقفا طالما أنّ الإرهاب الصهيوني الإسرائيلي العام يصول ويجول في العالم أجمع دون أن يلاقي من يتصدى له.

بقي أن أشير، ليس إلى المثال الأخير عن إرهابهم الإعلامي الثقافي، ولكن إلى المثال الأخطر عن هذا الإرهاب والذي استهدف التراث الإنساني، أعني نهب المتحف العراقي. إنّ الحرب على العراق باتت أسبابها معروفة لدى كلّ شرائح الرأي العام في العالم، ولكن قلائل هم الذين يعرفون الدوافع الكامنة وراء سرقة المتحف العراقي. لقد شكّل العراق منذ العصور القديمة عقدة لبني إسرائيل، فهم كما تقول رواياتهم التوراتية، قد وقعوا ضحية سبي نبوخذ نصّر لهم إلى بابل، والذي تطرقنا إليه في فصل سابق. هذا السبي، غير المثبت تاريخياً، بالنسبة لبعض الناس، والذي كان خطوة طبيعية يقوم بها قادة وملوك ذاك الزمان مع الشعوب التي ينتصرون عليها، صوّره الإعلام اليهودي على أنّه ظاهرة فريدة في التاريخ، تماماً كما فعلوا بالهولوكوست. وتركزت كلّ أدبياتهم ونظرياتهم الصهيونية على نقطتين: الأولى أنّه لن يكون هناك سبي آخر يطالهم، والثانية لن تكون هناك محرقة أخرى تلحق بهم. وهاتان النقطتان كانتا جوهر المخطط الصهيوني القاضي بإقامة دولة ليهود العالم تكون ملاذاً لهم من مضطّهديهم.

وبعد قيام الدولة والعمل على ترسيخ جذورها بأعمال إرهابية يومية طاولت كلّ مناحي حياة الفلسطينيين، ظلّت عيون الإسرائيليين شاخصة إلى العراق، ففيه ثروة نفطية هائلة، وفيه محاولات جارية لمواكبة التقدّم العلمي والاستفادة منه إنسانياً، هذا التقدّم الذي أفسح للعراق أيضاً فرصة بناء قوة عسكرية لا بأس بها، وفيه أخيراً إثبات لتفوّق الحضارات المشرقية القديمة على كلّ حضارات العالم والتي يكفيها فخر السبق. هذه الأمور الثلاثة ظلت تلازم العقل الصهيوني الحاقد الذي كان يعمل بالخفاء لساعة الصفر التي تخوّله تدمير العراق كما دمّر نبوخذ نصّر أورشليم. هذا العقل الإرهابي كان يراقب الرياح السياسية العالمية، حتى إذا ما تنسّم منها رائحة الظروف المؤاتية مع تسلّم جورج بوش الإبن الرئاسة في الولايات المتحدة أحاطه بطاقم من المستشارين والمسؤولين الإداريين اليهود الذين أحكموا الطوق عليه.

لقد أقنعوه بخطر صدام حسين، ليس على الولايات المتحدة كما ادعى بسخفه المعتاد، وإنّما على إسرائيل، وخططوا لهجمات نيويورك ونسبوها إلى القاعدة، ونسجوا لصدام علاقات وهمية معها. ولم تنفع مواقف بعض الدول المعتدلة لوقف المؤامرة. ادّعوا أنّهم سيجلبون معهم الديمقراطية على أحصنة خيول الحريّة، لكنّهم لم يجلبوا سوى الدمار والقتل والتهجير والطرد، أليست هذه مشيئة يهوه التوراة القديمة المتجدّدة. وكأنّه لم يكف العراق حقد أنبياء إسرائيل الذين تنبؤوا بخراب بابل، فالعقدة لا تزال تلاحقهم وأشرعة الرياح السياسية بأيديهم فلماذا لا يغتنمون الفرصة ويخربون العراق مرة ثانية؟ وإذا كانت الغزوات في الماضي طبيعية لعدم وجود معاهدات دولية تمنع تعدي دولة على أخرى، فما بال المجتمع الدولي غافلاً عما يدور في أكثر من بلد باسم الحرية والديمقراطية. قورش نصّبه اليهود مسيحاً لأنّه سمح لهم بالعودة إلى أورشليم، واعتبروه المسيح المخلّص المنتظر، وهكذا كان الشاه يوم كان لإرهابهم نصيراً، أمّا أحمدي نجاد فهو قائد محور الشر، ليس لأنّه يحاول امتلاك القنبلة النووية، بل لأنّه صرّح أكثر من مرة بأنّ دولة إسرائيل يجب أن تزول.

احتل الأميركيون وحلفاؤهم العراق، وبدلاً من حماية المدنيين ومؤسسات الدولة ومنها متحف العراق الوطني، أمّنوا الحماية فقط لآبار النفط، وأطلقوا العنان لعصابات السرقة التي كانت حاضرة خصيصاً لنهب هذا المتحف والثروات الفكرية التي يكتنزها. أوردت جريدة النهار الخبر التالي: «يضم المتحف الوطني العراقي أقدم اللقى الأثرية (أدوات وآلات حجرية بدائية تتمثل في فؤوس ونصال ومقاشط يرجع تاريخها إلى العصر الحجري القديم الأدنى وقد حُدّد تاريخها 60 – 100 ألف سنة). تمت سرقة 15 ألف قطعة من المخازن، تمت استعادة 4679 قطعة»(742). ثم يستطرد كاتب الخبر قائلاً: «إسبانيا تحتفظ بلقى عليها كتابة مسمارية تُظهر اسم مدينة أور واسم الملك أورنمو، وبالرغم من ذلك لا يعترفون بأنّها تعود للعراق. وكذلك سُرق الإناء القدسي الكبير وهو مقدَّم إلى معبد من المعابد السومرية يعود إلى 4500 ق.م. فيه فلسفة السومريين بواسطة حقول منحوتة بشكل بارز تبيّن نظرة العراقي القديم إلى موضوع الحياة والموت... استعيد مهشَّما. كما سرقوا رُقماً طينية تحوي الكثير من المعارف والعلوم والآداب والأدعية والصلوات التي تعود إلى الأديان القديمة والتي لم يتسن بعد للعلماء قراءتها». إنّها محاولة لطمس إنتاج الفكر الرافديني القديم، الذي فضح جزء منه فقط أنّ كلّ ما جاء في التوراة إنّما هو انتحال واضح لإبداع شعوب بلاد ما بين النهرين. سلبوا الأرض، وسلبوا الفكر، لكنّهم لن يستطيعوا سلب إرادة الحياة والبقاء، فحجارة أرض فلسطين كافية لإسقاط أساطير يشوع وداود وسليمان، وأساطير بن غوريون ودايان وشارون وباراك.

يقول الأب سهيل قاشا: «المعلومات والأخبار تدل على تورط الأميركيين في مساندة اليهود في مسألة الآثار العراقية. مدير المتحف العراقي يقول إنّ السارقين الذين دخلوا إلى المتحف كانوا على علم بالأشياء التي يريدون أخذها فكانوا يتركون القطع المزوّرة أي المنسوخة ويأخذون القطع الأصلية، إضافة إلى أنّ السارقين نزلوا إلى الطابق الثالث تحت الأرض، ودخلوا إلى صندوق محدّد وسرقوا أشياء محددة»(743). لقد توزع لصوص الآثار على أكثر من متحف، ويذكر الأب قاشا: «بلاوات (بلاباذ) قرية في العراق جنوب شرق الموصل، أنقاض مدينة إيمكور بعل الآشورية حيث اكتشف المنقبون الآثاريون «الأبواب البرونزية» التي تعود إلى عهد الملكين شلمناصّر الثالث وآشور ناصر بال الثاني. سُرقت من متحف الموصل الوطني في نيسان 2003 إثر الهجمة الأمريكية على العراق»(744). والسبب برأيي واضح وهو أنّها تحتوي على إثبات يفضح قصة استيراد الملك

سليمان لخشب الأرز من لبنان لبناء الهيكل، فعليها كتب: «سرت إلى جبل لبنان وقطعت من غاباته عوارض الأرز والسرو والعرعر، بعوارض الأرز سقفت هذا الهيكل باباً من أوراق الأرز صنعت وبأشرطة من نحاس حزمتها وعلقتها في مداخله»(745). هذا النص يعود إلى ما بين 1028 – 1017 ق.م. أي قبل الملك سليمان الأسطوري بحوالي الخمسين سنة.

هل هي المرة الأولى التي يُقدم فيها اليهود على سرقة الآثار المشرقية القديمة؟ طبعاً لا، يذكر لوسيان كافرو دومارس عن سرقاتهم ما يلي: «وبينما كان علماء الآثار يبحثون دون جدوى عن ناطق باللغتين الآشورية والحثية، عثروا في «أرسلان طاش» على عاجيات فينيقية تعود لعرش حزائيل، ملك دمشق، في القرن الثامن قبل المسيح. وقد عُرضت بعض هذه الروائع الفينيقية المسروقة في «معرض إسرائيل عبر العصور» الذي أقيم في باريس 1969 على أنّها من الفن العبري»(746). لقد حاولوا من خلال إرهابهم الثقافي إيهام العالم أنّهم أصحاب حضارة ضاربة جذورها في التاريخ، لكنهم فشلوا في مؤامراتهم لأنّ الآثاريين الثقات كشفوا تلاعبهم بتواريخ اللقى وفضحوا عملية نسبتها إليهم. ويضيف دومارس: «كان هذا الجزء من الأرض السورية (فلسطين) – خلال 521 عاماً – على التوالي مهداً للمسيحية ثم الإسلام. تجاورت الديانات وعاشت في تكافل الحضارتين الغربية والشرقية. تشهد على ذلك الفنون المسيحية والعربية (ولست أدري لماذا قال الحضارة الغربية حيث لا علاقة لها بالفنون الشرقية) المجسدة في صروح خالدة تروي قروناً عبرت لا نجد فيها أيّ أثر لفن عبري»(747).

إنّ سرقة التراث الإنساني لهي قمة الإرهاب الثقافي الذي تمارسه السلطات الإسرائيلية دون حسيب أو رقيب. وقد أوردت جريدة السفير خبراً يقول بأنّ الإسرائيليين قد نهبوا خلال احتلالهم لجنوب لبنان «حجارة أثرية من قرية شقلبون أو شعلبون الآرامية الكنعانية والتي تقع غربي مدينة بنت جبيل وخراج بلدة عين إبل»(748). ولا يُستبعد أن تحتوي هذه الأحجار على كتابات آرامية وبما أن العبرية، كما مرّ معنا، هي لهجة آرامية، فلا بدّ وأن أحرف اللغتين تتشابه إلى حد كبير، وبالتالي سيعمد الإسرائيليون إلى تزوير التاريخ وذلك بأن ينسبوا هذه الآثار إلى حضارتهم المزعومة.

هل توقف الإرهاب الإعلامي الثقافي عند هذا الحد؟ بالطبع لا. فعندما تم اكتشاف مخطوطات البحر الميت تم التغرير بواحد من الصبيين، اللذين اكتشفاها صدفة في وادي قمران عام 1947. لن أدخل بتفاصيل هذه اللفائف أو المخطوطات، ولكن لا بد من الإشارة إلى أنّ إسرائيل وضعت يديها عليها بعد احتلال القدس، «وعندما أصبحت كلّ المخطوطات تحت تصرّف إيغال يادين بعد الاحتلال لم ينشر كثيراً منها، مع أنّ كثيرين من علماء العالم طالبوا بتحقيقها ونشرها»(749). أمّا لماذا هذا التستر عليها فلأنّ ما تسرّب منها جعل الباحثين يظنون بأنّها تحتوي على ما يدحض اليهودية المعروفة الآن. «قال أهارون كمبيسكي: إذا قبلنا بيهودية جماعة قمران، فإنّ ذلك يعني بطلان اليهودية المعاصرة»، «وهذا بدوره قاد كثيرين من العلماء إلى اتهام إسرائيل بحجب نصوص محددة خشية (افتضاح النقص والتناقض الوارد في التوراة المتداولة) كما يقول الدكتور عفيف البهنسي في مقال له عن المخطوطات»(750). هذه المخطوطات، وإن كانت «تحتوي جميع أسفار العهد القديم، فإنّها ملك للتراث الإنساني وليس لإسرائيل، وإسرائيل بعملية الاستيلاء عليها بعد الاحتلال إنّما خالفت اتفاقية لاهاي لعام 1954 والقاضية بضرورة حماية الممتلكات الثقافية في حال حصول أيّ

نزاع. ولم تكن السرقة مقتصرة على السلطات الإسرائيلية فقط بل تعدّتها إلى بعض المسؤولين الإسرائيليين مثل دايان ويادين. إنّ المخطوطات تعود إلى ما بين عامي 300 ق.م. و 70م ومعظمها مكتوب باللغة العبرية القديمة، وبعضها بالآرامية وجزء قليل باليونانية حسب الدكتور لويس حزبون. ولكن ما لم يتم الإفراج عنها لدراستها من قِبَل خبراء اللغات القديمة الثقات فستظل موضع شك وتساؤل.

لم يترك اللوبي اليهودي الصهيوني وسيلة تخاطب الرأي العام وفيها أيّ انتقاد لليهود أو لإسرائيل إلاّ وحاولوا لجمها، ولقد نجحوا معظم الأحيان. عرفوا كيف يستغلّون الثروات التي نهبوها من الأمم للسيطرة على عقول أبنائها من خلال السيطرة على الإعلام وتوجيهه بما يخدم مصلحتهم. لقد مرّت القبائل التي عُرفت تاريخياً ببني إسرائيل بمراحل عديدة، كانت العقيدة الدينية دائماً عامل جمع لهذه القبائل، واستغلت في القرن العشرين لقلب العقيدة الدينية إلى قومية عنصرية تم على أساسها اختلاق أمة من مجموعة من الناس المتعددي الأعراق والإنتماءات الوطنية لا تجمعهم سوى الرابطة الدينية، وبما أنّ الأمة لا يمكن أن تتجسد عملياً خارج بقعة من الأرض، اختلقت لنفسها كياناً تاريخياً انهار منذ ألفيتين، فأعادت إحياءه بعملية قيصرية لم يجر مثيل لها في التاريخ القديم والحديث. وبما أنّ كلاًّ من الأمة والأرض كان محض اختلاق، فلم يكن هناك من مهرب لفرضهما غير اللجوء إلى القوة، فاقترن كلّ عمل هادف إلى تحقيق هذه العملية بفعل إرهابي. وكان من الطبيعي أن يستمر هذا الإرهاب كنتيجة مباشرة لولادة هذا الكيان - الأمة لأنّ الركيزة الأساس لوجوده كان الإرهاب، فمن الطبيعي أن يرتفع البنيان مدماكاً بعد مدماك على أعمدة إرهابية غير مسبوقة. وأحد هذه الأعمدة هو الإعلام الإرهابي الثقافي الذي كان ضرورياً لطمس الحقائق ونشر الأكاذيب. لذا كان هذا الإعلام يتدخل قامعاً كلّ محاولة غايتها زعزعة البنيان المصطنع.

يذكر صهيب الرومي كيف ضغط الاتحاد اليهودي الفرنسي لسحب كتاب «إنجيل الغيتو» الذي صدر في فرنسا عام 1984 للمؤلف جان بيار أوزييه، لأنّهم اعتبروا أنّ الكاتب قد فضح في كتابه نظرتهم إلى تاريخ يسوع: ولادته، حياته، معجزاته ووفاته(751). وهل بعد ذلك يأخذنا العجب من قول الجنرال ديغول: «في فرنسا لوبي قوي موالٍ لإسرائيل، وهو يمارس تأثيره بخاصة في أوساط الإعلام»؟ ونقرأ لخيري حماد ما يلي: «وجاء هذا الكتاب الذي نضعه اليوم بين أيدي القراء العرب، نتيجة هذه الدراسات الشاملة، ونشرها المليونير العالمي، في الصحيفة التي تصدرها مؤسسته الصناعية لعمالها. ثم جمعها في كتاب ما لبث أن طبعه وشرع في توزيعه، فسارع اليهود وعملاؤهم إلى جمعه من الأسواق والمكتبات فور صدوره، ثم استهدف المليونير وزوجته وأسرته لضغط شديد، استخدمت فيه كافة الوسائل من تهديد وإرهاب ووعيد، مما اضطره إلى وقف نشره وتوزيعه»(752).

ونتيجة لكلّ هذه الضغوط كانت تتعالى بين الحين والحين أصوات تنبّه إلى خطورة ما يقوم به اللوبي اليهودي من تزوير للحقائق مما يُعتبر بعيداً عن أصول وآداب مهنة الإعلام. وقد أوردت جريدة الديار خبراً عن دراسة أعدتها الصحافية الأميركية أليسون وير اتهمت فيها «محطات التلفزيون الأميركية الكبرى بتبني وجهة نظر مؤيدة لإسرائيل في النزاع في الشرق الأوسط وإيلائها أهمية غير متوازنة عند تغطية سقوط قتلى إسرائيليين. وأشارت إلى وجود أحكام مسبقة مؤيدة لإسرائيل لدى

الصحافيين ورؤساء التحرير ومالكي وسائل الإعلام»(753). ونتيجة لوعيها لهذا الواقع المفروض على الإعلام الأميركي قامت بتأسيس منظمة أطلقت عليها اسم If American Knew، حاولت من خلالها نقل الحقائق للرأي العام الأميركي كما هي.

إنّ الإرهاب الإعلامي الثقافي ليس سوى انعكاس لإرهاب قادة إسرائيل الأسطوريين منهم قديماً والحقيقيين حديثاً. فدور اللوبي الصهيوني الإعلامي ينطلق من أقوال منظّري الصهيونية وقادة إسرائيل، السياسيين منهم والعسكريين. فلاديمير جابوتنسكي، أبرز وجوه الصهيونية قال: «التوراة والسيف نزلا من السماء». ومناحيم بيغن، قائد منظمة الأرغون الإرهابية، ومنفذ عمليات التطهير العرقي في فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل، وبطل مذبحة دير ياسين قال: «لولا دير ياسين لما قامت إسرائيل». وديفيد بن غوريون، أول رئيس وزراء لإسرائيل قال: «إنّ أيّة اعتبارات إنسانية لن تقف في وجهنا لاحتلال أمم أخرى واستعبادها وإهلاكها»(754). إنّ هذه الأقوال التي أسست للإرهاب الصهيوني، انتقلت من النظرية إلى التطبيق على مختلف الصعد. توزّعت الأدوار، ووقعت على عاتق كلّ فئة مهمة إرهابية محددة، صبت جميعها في خانة المشروع الصهيوني. ولم تنج الكنوز الأثرية التي احتضنتها تربة بلادنا آلاف السنين من التزوير والتشويه، فكان الاعتداء الأكبر على الفكر الإنساني الذي مثّله نتاج عقول إنساننا القديم.

كثيرة هي الدراسات التي أشارت إلى محاولة الباحثين الصهاينة الهادفة إلى مطابقة لقى الحفريات مع النصوص التوراتية للتأكيد على تاريخية التوراة وصدقيتها، وكان هذا العمل من المنظور الأكاديمي عملاً إرهابياً ثقافياً بحق الحضارة الإنسانية القديمة. هذا الإرهاب حوّل نفايات معمل للصابون إلى رماد بقايا القرابين لتأكيد وجود الهيكل. يقول نيل سلبرمن: «طوال قرون الحج إلى الأرض المقدسة، وجدت منطقة مغطاة بأكوام الرماد إلى الشمال من أسوار مدينة القدس شدّت اهتمام الزوار المسيحيين واليهود على حد سواء. وحسب الأساطير التلمودية والقروسطية كانت أكوام الرماد هذه بقايا القرابين المحروقة المقدمة من قِبَل الكهنة اليهود في هيكل يهوه... من الواضح أنّها لم تكن إلاّ نفايات مصنع للصابون بات منسياً منذ زمن طويل، بعيداً عن أن تكون مقدسة، أو حتى قديمة»(755).

فإلى المؤمنين والقراء الكرام أتوجه بقول ديكارت: «كلّ من لا يشك لا يبحث، ومن لا يبحث لا يكشف، ومن لا يكشف لا يرى، ومن لا يرى فهو أعمى». لا تشكّوا بإيمانكم ولكن ابحثوا واكتشفوا حتى تتمكنوا من الرؤية، ويتمكن عقلكم من فصل الغث عن السمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الباب الخامس

الإرهاب الديني

«لهذا السبب علينا أن نزرع الألغام لتهديم الإيمان، وأن نمحو من عقول الغير، مبادىء الله والروح، وأن نبدّل هذه المباديء بحسابات رياضية ورغبات مادية».

البروتوكول الرابع

«إنّ سكان الأرض قسمان: إسرائيل، والشعوب الأخرى. إنّ إسرائيل هي الشعب المختار، وهذه عقيدة أساسية».

من كتاب التلمود للحاخام كوهين

«فقال لهم إيليا أمسكوا أنبياء البعل ولا يُفلت منهم رجل. فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك».

الملوك الأول 18: 40

تعود جذور الإرهاب الديني إلى بدايات السردية التوراتية، إلى ذلك اليوم الذي بدأ فيه عزرا تدوين مسرحيته مختلقاً إلهاً قبلياً أسطورياً دموياً، وأطلق على لسانه مقولة الشعب المختار للإله الخاص. هذا الاختيار الإلهي كان قمة الإرهاب الديني من حيث أنّه حصر الانتماء الإنساني بفئة قليلة من الناس، وجعل الفئة الكثيرة أغياراً أو حيوانات يجب تسخيرها لخدمة الأخيار. هذه الفكرة تبلورت في القرن الحادي والعشرين مع الرئيس الأميركي السابق جورج بوش والصهاينة المحيطين به ليقسموا العالم إلى فريقين على طريقة الحاخام كوهين. الفريق الأول يشكّل محور الخير وهو مؤلّف من إسرائيل والولايات المتحدة أولاً، ومن الحلفاء ثانياً. والفريق الثاني وهو محور الشر ويضم كلّ من ليس في المحور الأول وفي الطليعة إيران. المقولة الدينية التي حوّرها اليهود لمصلحتهم، والتي كانت تعني عند من سبقهم أنّ الشعب المختار هو جميع المؤمنين بإيل إلهاً للكون، وجميع العاملين على ممارسة الفضائل والقيم الاجتماعية، وصارت تعني بالنسبة لهم مفهوماً سلالياً، حتى ولو مارست هذه السلالة المختارة كلّ الشرور والموبقات والفواحش، تحوّلت هذه المقولة إلى مفهوم سياسي صنّف الأمم انطلاقاً من اصطفافها المصلحي لا انطلاقاً من القِيَم الإنسانية التي تُمثّل.

إن إرهاب يهوه كان واضحاً من خلال تهديده شعبه الخاص بالإبادة إن هو لم يلتزم الوصايا وتطبيق أحكام الشريعة. وجاء الأنبياء ليتقيدوا بالتعاليم الإرهابية، فيهوه لا يحب الرأي الآخر، ولا مكان في شريعته لحرية المعتقد. هذا الإله القبلي وجد نفسه محاطاً بآلهة كنعان، التي كانت ملائكة للإله الواحد إيل، تساعده بإدارة شؤون الناس حسب ما توصل إليه فكر إنسان تلك العصور. وإيل كان إلهاً رحوماً، رؤوفاً، محباً، متسامحاً، يعكس نفسية الإنسان السوري الحضارية، فجاء يهوه إلهاً قبلياً، إرهابياً، دموياً، حقوداً، لا تعرف الشفقة طريقاً إلى قلبه، يعكس نفسية عزرا الكاتب، ومن سار على نسقه، هذه النفسية التي جسّدت عقدة الدونية التي شعرت بها قبائل بني إسرائيل البربرية بعد أن

استقرت في كنعان الحضارية. «ثم قال إيليا للشعب أنا بقيت نبياً للرب وحدي وأنبياء البعل أربع مئة وخمسون رجلاً... فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك». هو النبي الوحيد المتبقي ذلك الوقت ليهوه إلهه الخاص وليس للرب إله الكون. وترجمة يهوه بكلمة الرب فيها تزوير وتشويه للعزة الإلهية ودورها الكوني الشمولي. وإن سلّمنا مع إيليا بأنّه النبي الوحيد للرب، فأيّ نبي يقوم بذبح 450 رجلاً حتى لو كانوا من الخطأة المذنبين، فكيف إذا كانوا أنبياء - كهنة للإله بعل؟ واستمر إرهاب اليهود، على كلّ من يناقض شريعتهم حتى ولو لم يكن من عَبَدَة البعليم والعشتاروت أي الأصنام برأيهم.

لقد نال يسوع من اضطهادهم الشيء الكثير وصُلب على يدهم لأنّه رفض أن يكون مسيحهم الملك المنقذ، ولأنّه تحرر من طقوسية شريعتهم وأعطى العالم الخبز الذي يُحيي، والذي يؤمّن الحياة الأبدية عبر الانتقال إلى الملكوت الحقيقي. صحيح أنّ ضغط اليهود استمر طويلاً حتى حصلوا من الكنيسة على صك البراءة من دم يسوع، وصحيح أنّ الكثيرين قالوا كيف وهم قد صرخوا بأعلى صوتهم: دمه علينا وعلى أولادنا؟ وأنا أقول إنّ إرهابهم لم يستطع الاقتراب من يسوع لأنّه لو لم يُرد الموت لافتداء البشرية لما تمكّنوا منه، ولأنّ الموت بالنسبة ليسوع لم يكن النهاية بل البداية، ولأنّه كان الوسيلة للعودة إلى المصدر الأساس. وأقول أيضاً، أنّه وبالرغم من قولهم دمه علينا وعلى أولادنا، فإنّ يسوع نفسه يرفض تحميل أجيالهم وزر عمل جيل واحد، وهو الذي كما يعرف الجميع صُلِب فداءً عن خطايا البشر، واليهود بشر مثل غيرهم، فخطيئتهم غُفرت حينها ولم يكن من المنطقي أن تستمر إلى الدهر، وإلاّ ماذا يكون الفارق بين شريعتهم العنصرية المحدودة، وبين تعاليم يسوع الكونية الشمولية؟ وماذا يكون الفارق بين ممارستهم للإرهاب ضدّ من يختلف معهم بالنظرة الدينية إلى الله، وبين الآخرين إنْ مارسوا ضدّهم الإرهاب نفسه انطلاقاً من قناعاتهم الدينية؟

ألم يكن هذا موقف النبي الكريم الذي، وبالرغم من مؤامراتهم لقتله، والتحالف مع أعدائه، أمَّنهم على حياتهم انطلاقاً من كونهم أهل كتاب؟ فبالرغم من قناعة النبي الكريم من أنّ ما يحتويه كتاب التوراة من شرور، لم يفرض عليهم تغيير دينهم بالقوة بل صحّح لهم دينهم بما أُنزل عليه من آيات، وهذا ما اعتبر كثيرون أنّه جاء ليتوافق مع نصوص التوراة الأساسية لا التي حرّفوها. من ذلك مثلاً اعتبارهم أنّ الربّ اختارهم شعبه الخاص فأتت الآية التالية لتكذّب ادعاءهم: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} سورة البقرة/ الآية 94. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً (47) إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} سورة النساء/الآيتان 47-48 ولقد كشف النبي الكريم خفايا نفوسهم التي بقيت قاصرة عن الإيمان الحقيقي بالله الواحد وجعلهم بمصاف المشركين: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ) سورة المائدة/الآية 82.

لقد تطرّق اسبينوزا في رسالته اللاهوتية الفلسفية إلى مسألة الاختيار الإلهي وردّ على الذين يعتبرونه محصوراً باليهود ومقدراً عليهم إلى الأبد، قائلاً: «وإذن فلمّا كان هذا الاختيار يتعلق بالفضيلة الحقة، فيجب ألاّ نظن أنّه قد وعد الأتقياء من اليهود وحدهم، مع استبعاد الآخرين، بل يجب أن نعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ الأنبياء الحقيقيين من غير اليهود – وقد أثبتنا أنّ جميع الأمم كان لها أنبياؤها – قد وعدوا

المؤمنين من أممهم بهذا الاختيار ذاته، وقدّموا إليهم هذا العزاء نفسه»(756). وأشار معروف الرصافي إلى اثنين من اليهود حاول أحدهما إدخال الخرافات إلى عقول المسلمين، والآخر حاول القضاء عليهم وذلك عن طريق بث التفرقة بينهم. «وكعب الأحبار هذا يهودي أسلم كإسلام عبد الله بن سلام وغيره ممن أسلم من اليهود الذين لم يُسلموا إلاّ لكيد المسلمين وإضلالهم بمثل هذه الخرافات المذكورة في كتب التفسير وأحاديث القصّاص، وهي مما دسّه هؤلاء على المسلمين في أقوالهم... ثم إنّ عبد الله بن سبأ هذا كان من أصحاب علي بن أبي طالب، وشهد معه وقعة الجمل وهو الذي كان السبب في إيقاد نارها بعدما خمدت بشيء من الميل إلى الصلح بين الفئتين»(757). وما أشبه الأمس باليوم حتى يسعى اللوبي الصهيوني إلى إشعال الفتنة المذهبية بين السنّة والشيعة، إنّه الإرهاب الديني لا يزال يلازمهم وسيبقى طالما أنّ المؤمنين، ولا أقول اليهود فقط، سيستمرون بتصديق أساطيرهم اليهوهية.

إنّ انتشار المسيحية والمحمدية على نطاق العالم واستقطاب الناس من خلال تسامحهما، جاء ليكثف محاولات اللوبي الصهيوني الرامية لهدمهما. ولقد توّجت بروتوكولات حكماء صهيون هذه المحاولات بتركيزها، ليس على هدم إيمان الناشئة فحسب، بل أيضاً العمل على القضاء على كلّ الأديان. جاء في البروتوكول الرابع عشر ما يلي: «عندما نصبح حكاماً، سنعتبر وجود أيّة ديانة باستثناء ديانتنا أمراً غير مرغوب فيه، معلنين وجود إله واحد، يرتبط به مصيرنا بوصفه شعب الله المختار الذي جعل من مصيرنا شيئاً مرتبطاً بمصير العالم. وعلينا لهذا السبب أن ندمّر جميع الديانات الأخرى». لقد حاول اليهود أن يتهموا غيرهم بما ينوون هم أن يفعلوا. نقل شيريب سبيريدوفيتش خبراً نشرته مجلة البحوث اليهودية الفرنسية عام 1880 جاء فيه: «في 13 - 1 - 1489 كتب شامور حاخام مدينة إرل، من أعمال مقاطعة بروفانس، إلى المجمع اليهودي القائم في الآستانة يستشيره في بعض الحالات الحرجة. ومما جاء في الكتاب «إنّ الفرنسيين في إكس وإرل ومرسيليا يهددون معابدنا فماذا نعمل؟ فجاءه الجواب الآتي:

«أيها الأخوة الأعزاء،

- بمقتضى قولكم: إنّ ملك فرنسا يجبركم أن تعتنقوا الدين المسيحي.

اعتنقوه، لأنّه لا يسعكم أن تقاوموا، غير أنّه يجب عليكم أن تبقوا شريعة موسى راسخة في قلوبكم.

- بمقتضى قولكم: إنّهم يأمرونكم بالتجرد من أملاككم.

فاجعلوا أولادكم تجاراً ليتمكنوا رويداً رويداً من تجريد المسيحيين من أملاكهم.

- بمقتضى قولكم: إنّهم يعتدون على حياتكم.

فاجعلوا أولادكم أطباء وصيادلة ليعدموا المسيحيين حياتهم.

- بمقتضى قولكم: إنّهم يهدمون معابدكم.

فاجعلوا أولادكم كهنة وإكليريكيين ليهدموا كنائسهم»(758).

هذا مثال على توجيهات رجال دينهم المليئة بالحقد والكراهية. ويقول روبير عبده غانم: «قد يكون اليهود، منذ القرن الثامن عشر، دعاة نشر محو المسيحية أو علمنة المجتمعات الأوروبية، ولربما كانوا المتسببين في القطيعة الحاصلة بين المسيحية وبين المجتمعات المعاصرة، إذ إنّ تأثير فكرهم لا بل سعاياتهم الواضحة للعيان ليست بمنأى عن ذلك. ففي قلب المجتمعات، يتعارض وجود اليهودي الهدّام ومحطم القِيَم التقليدية مع وجود الدولة المسيحية ذاتها. وبما أنّه يطمح إلى القيام بثورة عالمية، فإنّه يهاجم المسيحية أولاً، باعتبارها سدّ الدفاع الأول الذي يعترضه»(759).

لقد تنوّعت مظاهر الإرهاب الصهيوني بحق المسيحية. يقول لوسيان كافرو دومارس: «كان لرحلة البابا إلى آسيا (كانون الأول 1970) أيضاً مغزى معارض للصهيونية وإدانة الحرب. عند عودته إلى روما، أدان قداسة البابا عملية البيع السرية المناهضة للكثلكة، للدير - الفندق الفرنسي في القدس إلى المنظمة الصهيونية في نيويورك: وهو نوتردام دوفرانس الذي بناه الحجاج الفرنسيون: إنّها عملية بيع احتيالية تخرق قرار الأمم المتحدة في منع أي تغيير بالوضع الراهن لمدينة القدس، كما تخرق ممانعة الفاتيكان»(760). ويذكر أنّه «وبأمر من محفل الشرق الكبير أغلق أميل كومب، رئيس الوزراء، 9000 مدرسة كاثوليكية في فرنسا»(761) كان ذلك خلال الحرب العالمية الأولى وبعد أن أقرّت حريّة التعليم الكاثوليكي في فرنسا.

ويذكر هنري فورد كيف ضغط اللوبي اليهودي على المدارس الدينية المسيحية لحذف بعض العبارات من التعاليم المسيحية والتي اعتبروها مسيئة لهم. ويضيف: «ولم يجرؤ أيّ رجل من رجال الخدمة العامة في أمريكا، على القول بأنّ الديانة المسيحية هي التي يؤمن بها لأنّه يتعرّض في هذه الحالة للوم والتعنيف من اليهود... ويلجأ اليهود إلى استبعاد كلّ ما يذكّر الأطفال في مدارسهم بأنّهم يعيشون وسط حضارة مسيحية، في أمة أعلنت محكمتها العليا أنّها ترتكز إلى المبادئ المسيحية»(762). ويضيف: «وليس ثمة من كنيسة مسيحية لم تتعرض بصورة مستمرة إلى حملات اليهود وهجومهم»(763).

وأكثر ما ساعد اللوبي الصهيوني بعمله هذا هم المسيحيون الصهيونيون، خاصة في الولايات المتحدة، الذين يتقيدون بحرفية ما ورد في التوراة دون التعمق بما ورد في الأناجيل. يقول أسامه العيسة ما يلي: «وعلى نفس أرضية عقيدة التفسيرات المختلفة للكتاب المقدس وخاصة العهد القديم (التوراة) تقف مجموعات مسيحية خطرة سياسياً لأنّها مجموعات مسيحية صهيونية تؤمن بأنّ فلسطين هي أرض الميعاد التي يجب أن يتجمع فيها اليهود من كلّ أنحاء العالم... وافتتحت هذه المجموعات سفارة لها في القدس أسمتها (السفارة المسيحية) لدعم إسرائيل بما فيها إنشاء مستوطنات»(764). ويذكر الأب مايكل برير رؤية أحد رجال الدين اليهود لمستقبل القدس، يقول: «أما الحاخام بن يوسف، واسمه السابق باروخ غرين، الذي قدم مهاجراً من نيويورك في عام 1976 فقد كان مرشحاً لتولي منصب عمدة القدس في عام 1993. ويقضي احترامه الشخصي لشرائع التوراة أن تكون القدس بكاملها يهودية: يجب أن لا يكون في القدس مساجد ولا كنائس ويجب ألاّ يُسمح للأميين (غير اليهود) العيش في القدس البتة... أن يزوروها نعم، لكن أن يعيشوا فيها لا. يجب ألّا يُسمح بعبادة الأصنام في المدينة على الإطلاق. ليس للقدس حدود. يجب أن تتوسع باستمرار، كلما اتسعت كان ذلك أفضل، حتى تتصل بدمشق»(765). هذا التفكير الصهيوني اليهوهي ليس إلاّ دلالة

على أنّ صوت يهوه الذي دعا إلى طرد السكان الأصليين من أرضهم لا يزال فاعلاً من الناحيتين الدينية والعسكرية. فهو من جهة يريد الاستئثار بالقدس وحرمان الديانتين المسيحية والمحمدية من حقهما بالمحافظة على معالمهما الدينية في المدينة، ومن جهة ثانية يريد التوسع الجغرافي الاستعماري لضم كلّ الأراضي التي شملها الوعد الإلهي المزعوم.

ويصل الإرهاب الديني الصهيوني إلى ذروته من خلال تعميم رؤياهم عن فلسطين والتأكيد على ضرورة التقيُّد بها. نقل الأب برير عن Schlink ١٩٩١: ٢٢ ما يلي: «إنّ أيّ شخص يشكك في حق إسرائيل في أرض كنعان، إنّما هو في الواقع يعارض الربّ وعهده المقدّس الذي قطعه مع الآباء الأولين الذين ورد ذكرهم في التوراة. وإنّه يكافح ضدّ كلمات ووعود الله المقدّسة التي حلف بأن يحفظها... حان الوقت للإنجيليين أن يؤكدوا إيمانهم بنبوءة (الكتاب) وفي حق إسرائيل بالأرض المقدسة»(766). ويتطرّق الأب برير إلى كذب الصهاينة الذين عمّموا مقولة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، مؤكدين للغرب بوجود «دليل وافر على أنّ فلسطين كانت غير مأهولة بالسكان عشيّة الاستعمار الصهيوني الحديث»(767)، حيث يعود ليذكر ما قاله قادة الصهاينة عن الفلسطينيين في الصفحات التالية، فإذا برئيس الوزراء الإسرائيلي بيغن يشبّه «الفلسطينيين بأنّهم حيوانات بقائمتين»، وإسحق شامير يقول عنهم بأنّهم أشبه «بذبابة أو جندب» معلناً أنّهم غزاة وغرباء متوحشون قساة موجودون في أرض إسرئيل». ونحن لن نناقش بذاءة هذين المسؤولين، ولكن ألا يعني حديثهما عن الفلسطينيين تأكيداً على وجودهم في فلسطين؟ أما قول شامير بأنّهم غزاة وغرباء فتدحضه التوراة نفسها التي تخبرنا أنّ بني إسرائيل أتوا إلى فلسطين غزاة وليس العكس.

إنّ هذا التجني الإلهي الصهيوني على فلسطين دفع بالمونسينيور صبّاح الذي كتب متسائلاً «في رسالته الرعوية بعد شهور قليلة على مصافحة رابين وعرفات على عتبات البيت الأبيض عام 1993: 1 – ما العلاقة القائمة بين العهدين القديم والجديد؟ 2 – كيف يُفهم العنف المنسوب إلى الربّ في الكتاب المقدس (العهد القديم)؟ 3 – ما تأثير الوعود وهدية الأرض والاصطفاء والعهد على العلاقات بين الفلسطينيين والإسرائيليين؟ هل يُعقل لإله عادل ورحيم أن يفرض على شعب آخر الظلم والاضطهاد لكي يحابي شعباً اختاره؟»(768).

إنّ الإرهاب الصهيوني الديني ضد المسيحية والمسيحيين بشكل عام وضدّ يسوع بشكل خاص لم يتوقف يوماً منذ ألفَيْ سنة. ولكي لا يظن أحد بأنّني أبالغ بما أقول، سأورد بعض ما ذكره إسرائيل شاحاك الأستاذ الجامعي اليهودي بنفسه عن نظرة اليهود إلى يسوع وعن بعض تصرفاتهم، يقول: «وعلى سبيل المثال، يقول التلمود، بالإضافة إلى سلسلة من المزاعم الجنسية البذيئة ضد يسوع المسيح، بأنّ عقابه في الجحيم يقضي بإغراقه في غائط يغلي – والقصد من هذا القول ليس بالضبط، تحبيب المسيحيين الأتقياء بالتلمود. ويستطيع المرء أن يستشهد بإحدى قواعد السلوك التي تشير على اليهود بإحراق أيّ نسخة من الإنجيل تقع في أيديهم، وأن يفعلوا ذلك علناً إذا أمكن. (وهذه القاعدة ما زالت سارية المفعول حتى يومنا هذا، بل تُمارس فعلاً، وعلى هذا النحو، أُحرقت علناً، في آذار/ مارس 1980، مئات النسخ من الإنجيل، في احتفال أقيم في القدس، برعاية ياد لأخيم، وهي منظمة دينية يهودية تقدم لها المعونات المالية وزارة الأديان الإسرائيلية... فالطبعة الأولى لمجموعة الشرائع التلمودية الكاملة (ميشنه توراة)، لبن ميمون، التي لا تزخر بقواعد سلوك منفّرة للغاية ضدّ الأغيار

كافة فحسب، بل بهجمات صريحة أيضاً، ضدّ المسيحية والسيد المسيح... وقبل هذا التاريخ ببضع سنوات (1480) نُشرت في روما الطبعة الوحيدة الأقدم لمؤلف أبوليوس «الحمار الذهبي» من دون أن يُحذف منها الهجوم العنيف على المسيحية»(769).

أن تحرق آلاف كتب التلمود في أوروبا العصور الوسطى (في عام 1569 حرق الأهالي 12,000 نسخة للتلمود)، أمر فيه نظر، وذلك لما يحتويه هذا الكتاب من إساءات إلى المسيحية وإلى الأخلاق العامة، ولكن أن يحرق الإنجيل الذي لا يحتوي على كلمة واحدة تدعو إلى القتل، أو الحقد، أو التعالي على الآخرين، وفي القرن العشرين، فإنّه أمر لا يدلّ إلاّ على إرهاب ديني بامتياز. وحول هذا الموضوع جاء في دائرة المعارف اليهودية العامة: «إنّ أحد أهم الأسباب لعدم بقاء مخطوط كامل (لتلمود بابل) هو التعصب الديني المغالي للمسيحية في العصور الوسطى، الذي دفع الكثيرين إلى إشعال النيران – أحياناً – في العربات المحمّلة بالتلمود المطبوع أو المخطوط»(770). ويؤكد ذلك أيضاً ظفر الإسلام خان فيقول: «فنرى أنّ اليهود هم الذين قاموا بهذا التزييف والتزوير المتعمدين، بعد أن رأوا أوروبا المسيحية التي يرتبط بها مصيرهم، ثارت ضدّهم في العصور الوسطى عندما اطلعت على كل ما في كتبهم، ضد المسيحيين، من أحقاد شيطانية ودسائس جهنمية»(771).

إنّ أكذوبة الاضطهاد الذي لاحق اليهود في كلّ العصور، أضاءت على ما أراده اللوبي اليهودي أن يظهر للرأي العام لإثارة شفقته وبالتالي دعمه، لكنّها طمست كلّ المعلومات عما كان يفعله اليهود ضدّ الأغيار لكي يستحقوا الاضطهاد. فالاضطهاد الذي لحق بهم لم يكن سوى ردة فعل عمّا كانوا يقومون به، أينما حلّوا، من أعمال استغلال وارتكاب الموبقات تماماً كما أمرهم إلههم. يقول ماري بوستين، الفيلسوف الإيطالي: «كان اليهود دائماً يطاردون دعاة المسيحية، وطافوا بالبلاد وكانوا يكرهون الديانة المسيحية ويتحينون الفرصة لتدميرها»(772). إن حقد اليهود على المسيحية ينطلق دون شك من أنّ يسوع خيّب آمالهم فلم يكن مسيحهم الملك المخلِّص، بل كان مخلّص البشرية جمعاء، لم يميّز بين شعب وشعب، بين عرق وعرق، بين لون ولون. الخلاص بالنسبة له لم يكن خلاصاً جسدياً ومملكته لم تكن من هذا العالم. الخلاص هو خلاص الروح الذي لا يكون إلاّ بتخلّيها عن الخمر القديمة، واللباس القديم أي الشريعة الموسوية، وبإقبالها على الخبز المحيي الذي يورّث الحياة الأبدية. وهذا الحقد ما زال مستمراً، فما أن أُعلن مؤخراً عن نيّة منظمة اليونسكو إعلان كنيسة المهد تراثاً عالمياً حتى ثارت ثائرة إسرائيل وحليفتها الولايات المتحدة. ولست أدري بماذا يؤثر هذا الإعلان على كلا الدولتين، لو لم يكن بنية إسرائيل هدم الكنيسة في المستقبل فجاء هذا القرار ليقضي على أحلامها، لأنّه بصدوره تصبح الكنيسة جزءاً من التراث العالمي الإنساني.

لقد حاول هرتزل اللعب على عواطف البابا بيوس العاشر، وعلى ما كان يظنّ من تناقض بين الكنيسة والخلافة الإسلامية التركية، لكنّه لم يلقَ من البابا غير الرفض لمشروع إقامة دولة لليهود على تراب فلسطين. قال قداسته لهرتزل: «القدس مقدّسة لعلاقتها بحياة المسيح، ونحن لا نسمح ولا نحتمل أن يستقرّ اليهود هناك. إنّ اليهود لا يعترفون بمخلّصنا ونحن لا نعترف باليهود. ولماذا الإصرار على القدس؟ لقد دُمّر هيكلكم إلى الأبد. نحن لا نوافق... إذا أردتم الذهاب إلى فلسطين والإقامة هناك، فسيكون هناك كنائس وقساوسة لتعميدكم جميعاً»(773). إنّ أساليب الخداع والكذب التي استعملها هرتزل في محاولة للضغط على قداسة البابا لا يمكن إلاّ أن توضع ضمن خانة الإرهاب الديني.

وتحت عنوان تزعم «إسرائيل» أنّها صديق المسيحيين أورد الأب سهيل قاشا عدة نماذج من الإرهاب الديني اليهودي ضد المسيحيين وفضح نواياهم: «ويكشف التلمود اليهودي عن الروح التي يجب أن يلتزم بها اليهودي إزاء المسيحي فيقول في ذلك (باستطاعتك بل من واجبك أن تقتل أفضل المسيحيين)(774)». ويشير إلى ما كتبه «مردخاي كنش في صحيفة حيروت بتاريخ 27 تشرين الثاني/نوفمبر 1864 بعنوان (نحن والعالم المسيحي): إنّ لنا حساباً دموياً مع العالم المسيحي»(775). كما أشار إلى ما نشرته الصحف من اعتداءات الصهاينة على الكنائس والأديرة والمقدسات المسيحية منذ عام 1948، «ففي هذا العام وحده دمّر اليهود أكثر من ثلاثين ديراً وكنيسة ومعهداً، وقتلوا عدداً غير قليل من رجال الدين المسيحيين»(776). وأثبت أيضاً ما كتبته صحيفة دافار اليهودية في 7 نيسان/أبريل 1954 من «أنّ مسيحيي حيفا قد انزعجوا عندما وجدوا ذات صباح مقابرهم منبوشة وجثث موتاهم ملقاة في أرض المقبرة وعدداً من الصلبان محطماً»(777). ويقول في النهاية: «هذا فضلاً عن الاعتداء المستمر المتكرر على قدسية كنيسة القيامة وسرقة تاج العذراء. ومن ذلك أيضاً إشعال النار عمداً في دير راهبات القربان، وإحراق كنيسة الآباء البندكتان، وتدمير دير القديس يعقوب، ودير رؤساء الملائكة، وهدم دير الراهبات، ودير القديس كارلوس، وكنيسة نوتردام، والمهم الأهم قصف كنيسة المهد»(778).

أمّا سهيل التغلبي فقد تطرّق إلى ضغط اليهود الذي مارسوه على الفاتيكان للحصول على وثيقة براءتهم من صلب يسوع، فكان لهم ما أرادوا. ولفت النظر إلى الكيفية التي عمدت إسرائيل إلى «إعادة كتابة الأناجيل والرسائل المقدسة وحرّفتها بأن غيّرت وبدلت حتى تقترب في صورتها المحرّفة مع ما جاء في وثيقة التبرئة»(779). ويشير في مكان آخر إلى أنّ جملة التحريفات بلغت 636 تحريفاً مثل التخلص من كلمة الصليب، وتجنّب كلمة القتل، ومحو الفقرات التي تلقي مسؤولية دم يسوع على اليهود وأولادهم، وإلقاء المسؤولية على الرومان. كلّ هذا التحريف، والعبارات المسيئة إلى يسوع والمسيحية، لم تمنع معظم الكنائس في الولايات المتحدة من دعم اللوبي اليهودي الذي استطاع أن يقنع بخبثه ودهائه مسؤولي هذه الكنائس، إمّا بالترغيب وإما بالترهيب، بأنّ التوراة هي كلام الله، وكلّ من لا يعمل على تنفيذ هذا الكلام فهو يرتكب معصية لا تغتفر. وانتقل هذا التفكير إلى أبناء هذه الكنائس الذين لا يزالون يعملون، انطلاقاً من هذا المفهوم، لدعم إسرائيل وبانتظار الألفية السعيدة التي ستطل على العالم إثر مجيء المسيح ونشوء معركة أرمجدون التي سيكون فيها الانتصار لهم فيحكمون العالم ويعيشون بسعادة لألف عام.

وإذا ما جارينا هؤلاء باعتقادهم ألا يحق لنا أن نسألهم عن مصير البشرية بعد الألفية السعيدة؟ وهل يُعقل لأصحاب الإيمان المسيحي الحقيقي أن يقتنعوا بهذه النظرية التي تخالف جذرياً تعاليم يسوع؟ ألا تعني هذه النظرية أنّ المسيح المنتظر سيكون على قياس مسحاء اليهود، ملكاً إرهابياً حاملاً سيفه ليبيد أعداء بني إسرائيل؟ وفي هذه الحال ماذا يجمعه بيسوع وتعاليمه التي تتضح فقط بالمحبة والتسامح والغفران والعمل على استحقاق الملكوت السماوي لا الأرضي؟ وفي هذه الحال أيضاً ألا يحق لنا التساؤل عن دور كنيستنا المشرقية بكلّ مذاهبها وموقفها من هذا الانحراف الهادف عن جوهر تعاليم يسوع؟ يشير يوسف أيوب حداد في كتابه «هل لليهود حق ديني أو تاريخي في فلسطين» إلى تأثير مفاهيم هذه الكنائس على دوائر صناعة القرارات الرسمية في الولايات المتحدة،

فيعدد بعض المنظمات المسيحية التي تؤمن بأنّ اليهود هم فعلاً «شعب الله المختار»، وهي على سبيل المثال:

- المصرف الأميركي المسيحي من أجل إسرائيل.

- مؤتمر القيادة الوطنية المسيحية من أجل إسرائيل الذي يترأسه القس فرانكلين ليتل صاحب شعار: «حتى تكون مسيحياً يجب أن تكون يهودياً».

- منظمة المائدة المستديرة.

- منظمة الصوت المسيحي.

- منظمة الإذاعيين الدينيين.

- منظمة جبل المعبد.

إنّ هذا الدعم من الكنائس المسيحية الغربية لا بدّ وأن ينتهي. أما عن الطريقة فهي ببساطة أن يتشكل لوبي مسيحي من كنائسنا الشرقية تفضح هذه الادعاءات، بل يقوم بإزالة الغشاوة عن أعين المؤمنين التابعين لهذه الكنائس، وإيصال حقيقة ما ترتكبه إسرائيل بحق المسيحيين عامة، وبحق يسوع خاصة.

وقد أوردت جريدة السفير الخبر الآتي: «نفذ المستوطنون الإسرائيليون أمس، اعتداء جديداً على المقدسات الفلسطينية، تمثل هذه المرة في تهديدات وكتابات معادية للعرب والمسيحية على جدران دير ومدرسة في القدس المحتلة. وقالت المتحدثة باسم الشرطة الإسرائيلية لوبا السمري إنّ عبارات دفع الثمن، وعبارات أخرى مسيئة للمسيحية كُتبت على أسوار دير وادي الصليب»(780).

ولم يكتفِ الصهاينة بهذا النوع من الاعتداءات، بل ومن خلال توصيات بروتوكولات حكماء صهيون، واستناداً إلى بعض الوقائع التوراتية، استغلوا الجنس بشكل عام للعمل على الحط من أخلاق الناشئة، وللضغط على السياسيين من خلال إيقاعهم بأعمال جنسية غير شرعية تُستغلّ ضدهم عند الحاجة، ولإهانة المقدسات التي تعود إلى الديانات الأخرى. ذكر لي أحد الأصدقاء الذين يعيشون في الدنمارك كيف يتقصّد الشبان اليهود من ممارسة الجنس على أبواب الأديرة والكنائس دون أي رادع أخلاقي. وأوردت جريدة الديار نقلاً عن صحيفة هندية «أنّ مجموعة من الإسرائيليات رقصن عاريات في ولاية راجاستان بالقرب من بلدة هندوسية مقدسة، وذلك بتنظيم حفل خارج مدينة بوشكار التي تعج بالمعابد. وأضافت الصحيفة نقلاً عن سكان محليين إن الإسرائيليات شربنَ الخمر وثملن ثم خلعن ملابسهن على خشبة المسرح ورقصنَ عاريات تحت ضوء القمر»(781).

إنّي أعتقد جازماً بأنّ يسوع لو عاد اليوم لما تأخر عن حمل السوط مجدداً لطرد تجار الهيكل الجدد الذين يسيئون إلى تعاليمه ورسالته، أو لربما، وانطلاقاً من كونه محبة خالصة لا يعرف معنى الإنتقام، سيصرخ بأعلى صوته، صرخته المدوية القديمة، اغفر لهم يا أبتي لأنّهم لا يعلمون ماذا يفعلون.

هل اقتصر إرهاب بني إسرائيل على المسيحية والمسيحيين؟ بالطبع لا، وهم الذين يعتبرون أنفسهم «شعب الله المختار»، والله وُجد، أو قل أوجدوه، لكي يحقق لهم مصالحهم ورغباتهم، فكيف يمكن أن

يقفوا مكتوفي الأيدي تجاه كل نبي أو معلم أو مصلح اجتماعي ينافسهم على التقرب من الله، خاصة إن كان هذا الله مخالفاً بكلّ شيء لإلههم الخاص. ليس بخافٍ على أحد، كما ذكرت سابقاً، تآمرهم على النبي محمد عند انطلاق دعوته، وليس بخافٍ على أحد أيضاً أن تسامح الإسلام تجاه اليهود فاق بكثير التسامح المسيحي، ليس لوجود فارق بمفهوم التسامح من الذين تسلموا مقاليد السياسة لدى الفريقين. لقد لقي اليهود من الصليبيين ومن مسيحيي العصور الوسطى في أوروبا اضطهاداً كبيراً، وبالمقابل عاشوا عصورهم الذهبية تحت مظلة الإسلام في الشرق والغرب على حد سواء. ولنا مما جاء في الكثير من المصادر خير دليل على ذلك.

فهذا شمعون بيريز يعترف قائلاً: «لم يتوانَ العديد من هؤلاء اليهود عن مغادرة شبه الجزيرة الأيبرية (إسبانيا بعد إسقاط الحكم العربي) متوجهين إلى بلد أكثر تسامحاً، لا سيما السلطنة العثمانية»(782). لكنّ حقدهم منعهم من ردّ الجميل بالمثل، فهذا ليس من شيَمهم، فتجسد هذا الحقد مؤامرة لم يشهد تاريخ الإنسانية لها مثيلاً، وإنّها لفي طريقها إلى الاستمرار، إذا ما بقي الجهل مسيطراً على العالمين العربي والإسلامي، إنْ لجهة عدم وعي خطورة الفكر والنهج الصهيونيَّيْن وما ينتج عنهما، أو لجهة زحف الأنظمة العربية لاستجداء الاستسلام لإسرائيل لكي تحافظ على استمراريتها. إنّ نفوذ إسرائيل يمارس على هذه الأنظمة إمّا مباشرة وهو الأسوأ، وإمّا مداورة عن طريق نفوذ الولايات المتحدة على معظم هذه الدول. وما لم يتوصل الربيع العربي إلى قلب المفاهيم السائدة، والعودة إلى الأصول الرافضة للوجود الاستيطاني الاستعماري الإسرائيلي، فإنّه لن يصبح ربيعاً حقيقياً، بل سيكون كابوساً جديداً يرزح على صدور المواطنين.

إنّ ما تمارسه إسرائيل هذه الأيام، وما دأبت على ممارسته منذ احتلالها لفلسطين وإطلاقها للحفريات بغاية إثبات حقها التاريخي عن طريق مطابقة الآثار مع المرويات التوراتية، ليس سوى ذروة الإرهاب الديني. وما تقوم به إسرائيل من حفر أنفاق تحت المسجد الأقصى للكشف عن أي أثر يشير إلى هيكل سليمان المزعوم، سيؤدي إلى انهيار المسجد، فإذا لم يكن هذا إرهاباً دينياً متعمَّدًا، فماذا يمكن أن نطلق عليه؟ أورد فراس السواح قولاً مهماً لعالمة الآثار المشهورة كاتلين كينين جاء فيه: «وحتى إذا سمحت الظروف بالتنقيب تحت الحرم الشريف وقبة الصخرة، والذي سيكون من نتيجته تخريب مكان على غاية من الجمال والقداسة، فإنّ من المؤكد أنّ المنقّبين لن يعثروا على شيء يُذكر»(783)، وكما أشرنا سابقاً، مُنعت السيدة كينين من دخول إسرائيل ومتابعة تنقيبها عقاباً لها على النتائج التي توصلت إليها.

وفي دراسة نشرتها «صحيفة معاريف الإسرائيلية في عدد 7 – 2 – 1997 أنّ الهيكل لا يعني أيّ شيء دون تابوت العهد وأنّ الحفائر تحت المسجد الأقصى للتوصل للهيكل ستبوء بالفشل وستهدم المسجد»(784). وذكر يوسف أيوب حداد أنّ «أعداداً من المسيحيين الأصوليين الأميركيين يجمعون الأموال، ويمارسون الضغط في سبيل إقامة هذا المعبد مكان المسجد الأقصى بعد هدمه»(785). كما أشار الكاتب اليهودي شلومو ساند «إلى أنّ «مركاز هكوهانيم» هو مؤسسة تستعد بانتظار بناء «الهيكل الثالث» حالما يُزال المسجد الأقصى ويُقام الهيكل اليهودي على أنقاضه»(786). إنّ هذه الحفريات ليست جديدة، بل هي بدأت بتوجيه من الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر، ومن ثم تحوّلت إلى دافع ديني لإثبات صحة المرويات التوراتية عن هيكل سليمان. لذلك تم «تجنيد العشرات

من علماء الآثار والمؤرخين، غير أنّ اليهود لم يتمكنوا – برغم هذه الجهود المدعومة من دول أوروبية – من العثور على أي أثر حقيقيٍ لهيكل أو تراث عبري»(787) كما أشار الأب مايكل برير إلى إقدام إسرائيل على محاولة نسف كلّ من قبة الصخرة والمسجد الأقصى في ربيع عام 1984 (788).

وعلى الرغم من محاولات إسرائيل القديمة المستمرة لهدم المسجد الأقصى لم تتحرك كلّ الأنظمة الإسلامية، عربية كانت أم أعجمية، لإنقاذ هذه المقدسات. وها هو الربيع العربي، والذي يفترض به أن يُزهر وعياً وغضباً على إرهاب إسرائيل المتعدد الوجوه، يقف ساكتاً لا موقف له، لا بل هو ذهب أبعد من ذلك بعدما أعلن الرئيس المصري أكثر من مرة تمسكه باتفاقيات الذل والعار والإستسلام التي فُرضت على مصر. وبالرغم من كلّ الإرهاب الديني الذي تمارسه إسرائيل على المؤمنين الذين يرغبون بالصلاة في المسجد الأقصى، فإنّ أشدّ ما نسمعه من الأنظمة العربية والإسلامية هو كلمات الاستنكار. أوردت جريدة السفير الخبر التالي: «أنهى المصلّون الفلسطينيون صلاة الجمعة في المسجد الأقصى على صدى انفجار قنابل الصوت والغاز المسيّل للدموع، واحتمت النساء خائفات داخل قبة الصخرة، بعد اقتحام الشرطة الإسرائيلية لباحات المسجد واندلاع مواجهات مع شبان فلسطينيين أسفرت عن إصابات واعتقالات. وقال قائد شرطة الاحتلال: إنّ الأحداث بدأت منذ أسبوعين نتيجة تحريضٍ وإثارة كبيرة من نشطاء اليمين الذين كتبوا على موقعهم على الإنترنت (هار هبيت شيالانوا) بمعنى المسجد الأقصى لنا»(789). كما أوردت السفير الخبر التالي: «اندلعت مواجهات عنيفة بين الفلسطينيين وقوات الاحتلال الإسرائيلي، أمس، في باحات المسجد الأقصى، وذلك عندما هاجمت قوات من الشرطة الإسرائيلية المصلّين الذين تجمعوا منذ صلاة الفجر لإحباط محاولة من قِبَل المستوطنين اليهود لاقتحام المسجد الأقصى ما أسفر عن إصابة عدد من المقدسيين واعتقال 13 آخرين»(790).

يعتدون على المصلّين وعلى المقدسات وتتم معاقبتهم لأنّ لهم في (الأرض الموعودة) أماكن مقدسة. فلو كان اليهود بالفعل يؤمنون بإله الكون الواحد، وينقبون بالفعل لإيجاد «هيكل الله»، أليس عليهم احترام أماكن عبادة هذا الله والتي تعود ملكيتها لأديان أخرى؟ أم أنّ مقولة شعب الله الخاص تخوّلهم وتعطيهم حق تدمير كلّ الأديان الأخرى لتأمين سيطرة دينهم كما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون؟ كثيرة هي الأخبار التي ترد كلّ أسبوع من الأراضي المحتلة والتي تفيد عن إرهاب الإسرائيليين الديني، ليس فقط للمسجد الأقصى ومحاولات تهديمه، بل للمصلّين فيه أيضاً، ولمساجد أخرى غيره. ففي جريدة السفير نقرأ هذا الخبر: «صعّد المستوطنون وقوات الاحتلال الإسرائيلي من الهجمات على الفلسطينيين، حيث كتب المستوطنون، أمس، بالعبرية على حائط مسجد في الضفة الغربية وأحرقوا سيارتين لفلسطينيَّيْن واقتلعوا أشجار زيتون شمال الضفة الغربية»(791) كما أوردت الخبر الآتي: «قام مستوطنون بحرق الطابق العلوي المخصص للنساء من مسجد قرية برقة وكتبوا على الجدران عبارات عنصرية بالعبرية مثل «الحرب بدأت». ورفض رئيس الوزراء وصف هذه التعديات بالأعمال الإرهابية»(792). وكيف له أن يقبل توصيفها بالإرهاب وهي من صميم تعاليمه الدينية، هي واجب مقدس يطلبه إلهه يهوه، وإن هو لم يمتثل يكون قد أساء إلى إلهه ووعوده وعهوده.

سلسلة من الاعتداءات الإرهابية الهادفة إلى محو المسجد الأقصى من خريطة القدس، إنّها خطوات أقلّ ما يقال فيها بأنّها دوس على كرامة المسلمين عامة، وليس فقط كرامة الفلسطينيين، فأين المسلمون من هذه المذلة؟ الاعتداءات مستمرة، والإرهاب الديني مستمر، والمتدينون يتلهون بفتاوى أقلّ ما يقال فيها بأنّها مصدر إساءة للعقل البشري، لا علاقة لها بالدين الحنيف. المقدسات تُنتهك يومياً، تقابلها فتاوى يندى لها الجبين، فكيف نطلب من أصحاب العقول التي تطلقها أن تهتم بالمقدسات واهتمامها لا يتعدى القشور والسطحيات من أمور الدنيا لا الآخرة. وإذا تذرعت الحكومة الإسرائيلية بالقول إنّ من يقوم بهذه الأعمال هم المستوطنون، ولا علاقة للحكومة بها، يأتي الرد المباشر من خبر أوردته جريدة السفير وفيه: «اتخذت الحكومة الإسرائيلية قراراً بهدم جسر باب المغاربة المؤدي إلى المسجد الأقصى في القدس المحتلة. وأوضح المفتي بأنّ إسرائيل تحاول هدم هذا الجسر منذ عام 2007 لتكمل سيطرتها على منطقة ساحة البراق. مما دعا البطريرك السابق ميشال صباح إلى الدعوة لإعطاء القدس وضعاً خاصاً يحميها من طابع التهويد الجاري على حساب السكان المسيحيين والمسلمين»(793). وكيف ننسى أنّ سبب اندلاع انتفاضة الأقصى هو إقدام أرييل شارون وحشد من أنصاره على اقتحام حرم القدس الشريف؟ أيريدوننا أن ننسى المجزرة التي ارتُكِبت في ساحة المسجد الأقصى، أو حادثة حرق المسجد الأقصى على يد الأسترالي اليهودي مايكل روهن، والذي سارعت السلطات الإسرائيلية إلى اتهامه بالجنون للتغطية على عمله الإرهابي؟

يذكر سعيد نفّاع في كتابه «العرب الدروز» ما يلي: «ربّما كانت الشرارة الأولى لبدء مرحلة جديدة، محاولة اليهود في أيلول 1928 تغيير واقع البراق، الأمر الذي جلب سلسلة من الأحداث، وكانت الشرارة الثانية في يوم الغفران، 14 آب 1928، وفيه نظّم اليهود مظاهرات تحت شعار «الحائط حائطنا» ردّ عليها العرب بمظاهرة يوم 16 آب 1929، عيد المولد النبوي، فانتشرت الصدامات وتُوّجت بما أطلق عليه «ثورة البُراق» (آب 1929) التي عمّت البلاد»(794). وتقول أ. د. زينب عبد العزيز في كتابها المخصص للحديث التاريخي والقانوني عن حائط البراق ما يلي: «يشكّل هذا الحائط الجزء الجنوبي الغربي من جدار الحرم القدسي الشريف بطول حوالي 47م وارتفاع حوالي 17 م... لم يكن في أي وقت من الأوقات جزءاً من الهيكل اليهودي... ولا يُشار إلى هذا الحائط البتة في المصادر اليهودية في القرن الخامس عشر على أنّ الحائط كان مكان عبادة أو صلاة لليهود. إنّ الحائط الغربي أصبح جزءاً من التقاليد الدينية اليهودية حوالي سنة 1520 نتيجة للهجرة اليهودية من إسبانيا. ولكن السلطات الإسرائيلية في عام 1967 استولت على حائط البراق بعد أن هدمت حارة المغاربة، ووضعت يدها على باب المغاربة»(795). وتشير المؤلّفة إلى عدد من الأحداث التي تؤكد أن لا علاقة لليهود بهذا الحائط بالرغم من محاولاتهم القديمة المتجددة للاستيلاء عليه. وبعد أن تطرقت إلى طلب تقدّم به أحد اليهود، سنة 1255 للهجرة، لتبليط زقاق أو ساحة الحائط، أشارت إلى أن الأمر أنهاه «محمد علي باشا بصورة قاطعة بإصداره أمراً تضمّن «وجوب منع اليهود عن تبليط البراق في القدس وعن رفع أصواتهم فيه وإبقاء القديم على قِدَمه عملاً بنصوص الشرع الشريف"(796). ثم تقول: «الحائط الذي يزعمون أنّه من الهيكل، ويقفون للبكاء عنده، وسموه حائط المبكى – هو جزء من «الحرم الشريف»، وهو ملك للمسلمين الخاص، كما أنّ الرصيف الذي يقف اليهود عليه عند قيامهم بالزيارة وقف إسلامي، من أوقاف أبي مدين الغوث، أنشئ هو والأملاك المجاورة في زمن صلاح الدين»(797).

لقد حاول اليهود، كعادتهم، الاحتيال في كل الأوقات لكي يضعوا يدهم على الحائط اقتناعاً منهم بأنّه جزء من هيكل سليمان، على الرغم من تأكيدات علماء الآثار الموضوعيين بأن لا شيء يؤكد أنّ الحائط ركن من أركان الهيكل. لقد حاولوا مع الأتراك، ومع المصريين، ومع الإنكليز، لكنّهم لم يوفقوا إلى تنفيذ مطلبهم. إنّ تقديس المسلمين لهذا الحائط يعود إلى إيمانهم بأنّ النبي الكريم «نزل ومرّ به ثم ربط براقه في الحائط نفسه ليلة الإسراء»(798). والبراق لغة هو الدابة دون البغل وفوق الحمار (حسب محيط المحيط للبستاني). ولكي لا نطيل الكلام حول هذا الموضوع نشير إلى ما ذكرته د. زينب عبد العزيز من لجوء اليهود والفلسطينيين إلى سلطات الانتداب للبت بملكية الحائط، والتي ألّفت لجنة بهذا الخصوص اجتمعت إلى الشهود واطّلعت على المستندات التي قدمها كلّ من الطرفين فتوصلت إلى القرار التالي: «تصرّح اللجنة في هذا المقام استناداً إلى التحقيق الذي أجرته بأنّ حق ملكية الحائط وحق التصرف به وما جاوره من الأماكن المبحوث عنها في هذا التقرير عائد للمسلمين... إنّ الرصيف الكائن عند الحائط – حيث يقيم اليهود صلواتهم – هو أيضاً ملك للمسلمين». كان هذا أيام الإنتداب، أمّا بعد الاحتلال فالأمر أصبح مختلفاً ولم تعد لتنجح تحقيقات لجان العالم. فالإرهاب اليهودي بسط سيطرته على الحائط وعلى الساحة كليهما.

وبالعودة إلى كتاب مذكرات وايزمن نجد أنّ الناشر في آخر الكتاب، وفي سياق التسلسل الزمني للأحداث أورد ما يلي:

- 28 آب/أغسطس 1919: تقرير لجنة كينغ – كراين، المقدَّم إلى مؤتمر الصلح في باريس، يوصي بِـ «التخلي عن مشروع فلسطين وطناً يهودياً».

- 24 أيلول/سبتمبر 1928: أول محاولة من جانب بعض الزعماء الدينيين اليهود لتغيير حقوق الملكية للمسلمين عند البُراق، أي حائط المبكى، وهو بحد ذاته أثر إسلامي مقدّس.

- كانون الأول/ديسمبر 1930: اللجنة الدولية لحائط المبكى توصي بإعادة الوضع الراهن كما كان في السابق، وتؤكد حقوق الملكية الإسلامية عند حائط المبكى (البُراق).

ويبدو أنّ النزاع على هذا الحائط وملكيته قد سُحب من التداول لأنّ الاحتلال أصبح أمراً واقعاً. لكنّ الصراع حول المسجد الأقصى وقبة الصخرة لا يزال محتدماً، وسيستمر طالما أنّ اليهود مستمرون بتزييف الحقائق والتاريخ لخدمة مصالحهم. ولا بدّ من أن نشير إلى أنّ الإرهاب الديني لم يقتصر على الأماكن المقدسة، المسيحية منها والمحمدية، بل طال أيضاً المعابد اليهودية، لأنّه كان لهم بذلك مصلحة تفيد مشروعهم الاستعماري الإستيطاني. يقول الأب مايكل برير: «ففي عام (1950 – 1951م) وجد بن غوريون نفسه مرغماً على السماح رسمياً بتفجير المعابد والأبنية اليهودية في بغداد لتدبير أمر هجرة (العِلَيْة) اليهود من العراق»(799). فهلاّ انتهت فصول الإرهاب الديني اليهودي؟

ما أكثر الأسئلة التي طرحناها في سياق هذه الدراسة، والتي تتمحور كلّها حول إرهاب بني إسرائيل. هذا الإرهاب ذو الوجوه المتعددة، وذو المصدر الواحد. فمن الإرهاب العسكري، إلى الإرهاب السياسي، إلى الإرهاب الاقتصادي المالي، مروراً بالإرهاب الإعلامي ووصولاً إلى الإرهاب الديني، رحلة قديمة حديثة من الإرهاب المستمر الذي لم يتوقف يوماً بعد بروز بني إسرائيل في التاريخ. هل هذا يعني أنّني أحصر الإرهاب بهم وحدهم دون غيرهم؟ بالطبع لا، ومن خلال تعريف

الإرهاب نجده ينطبق على الكثيرين من الأفراد والجماعات والتنظيمات والدول. والفارق بين الذي أشرت إليه من إرهاب بني إسرائيل وبين إرهاب غيرهم يتمثل بأنّ كلّ عمل إرهابي في العالم يُنظر إليه من خلال الظروف التي أنتجته، سياسية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية، أمّا إرهاب إسرائيل فمصدره ديني وهنا تكمن خطورته.

فما من دين شجع على القتل علناً إلاّ الدين الموسوي، وما من دين شجع على الإبادة والعنصرية والحقد والتعالي والكذب إلاّ الدين الموسوي، وهو انطلاقاً من هذه المسلّمات لا يمكن اعتباره ديناً، فغاية الدين نشر الفضيلة والقِيَم والأخلاق التي تضبط مسألة العلاقة بين الإنسان وأخيه، وهذا لا ينطبق أبداً على الدين الموسوي. ومهما حاول المؤمنون الاستشهاد بأقوال المسيح وبالآيات القرآنية، فهذا لن يغيّر شيئاً من الحقيقة الواضحة للعيان: إسرائيل دولة استيطانية عدوانية قامت على الإرهاب وتستمر به. وكلامي هذا لا يقلّل مطلقاً من احترامي لإيمان المسيحيين والمحمديين على السواء، لكنّه حق الاختلاف بالرأي، واحترام الرأي الآخر، خاصة إن كان هذا الرأي يستند إلى حقائق ملموسة لا إلى الماورائيات، وعملاً بما جاء في القرآن الكريم: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) سورة هود/الآية 118.

ليت المسلمين اليوم يعملون بموجب البيان الذي صدر عن لجنة الفتوى في الجامع الأزهر التي عقدت اجتماعها في 1 – 1 – 1956، والذي جاء فيه: «نحن الموقعين على هذه الوثيقة نعلن للمسلمين في هذه الظروف الصعبة: أنّ اليهود هم أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا، اغتصبوا فلسطين، واعتدوا على حرمات المسلمين فيها، وشرّدوا أهلها، ودنّسوا مقدساتها، ولن يقرّ لهم قرار حتى يقضوا على دين المسلمين. ونحن نعلن بما أخذ الله علينا من عهد وميثاق في بيان الحق: أنّ الجهاد هو السبيل الوحيد لتحرير فلسطين، وأنّه لا يجوز بحال من الأحوال الاعتراف لليهود بشبر من أرض فلسطين، وليس لشخص أو جهة أن تقرّ اليهود على أرض فلسطين أو تتنازل لهم عن أي جزء منها أو تعترف لهم بأيّ حق فيها»(800).

فأين اليوم من الأمس؟ إذعان، واستسلام، وخنوع، ومتاجرة، لا ينتج عنها إلاّ استمرار المؤامرة والمكابرة. بارقة الأمل الوحيدة هي المقاومة، لا اقتناعاً مني بأنّ العنف يحلّ المشكلة، وإنّما اقتناع راسخ بأنّ الوردة لا تقاوم الرشاش، وحبّة الزيتون لا تقاوم الرمّانة اليدوية القاتلة، والأعلام البيضاء لا تشكّل درعاً فوق رؤوس الأبرياء، ومحادثات السلام - الاستسلام لا يُقصد منها إلاّ التلهي بعواطف الناس، ولن تشكّل في أيّة مرحلة أرضاً صلبة لبناء عملية السلام. يقول جيمي كارتر: «طالما كانت فرضية السلام الحقيقي والأمن في مقابل الأرض الفلسطينية مقبولة من غالبية كبرى من الإسرائيليين لكن ليس من أقلية من الزعماء الأكثر محافظة الذين يحظون، ولسوء الحظ، بالدعم من الزعامة الأميركية اليهودية الأكثر جهراً بالكلام»(801).

«طوبى لصانعي السلام. لأنّهم أبناء الله يُدعون»، هل كان يسوع يعني سلام الدول بعضها مع بعض؟ السلام السياسي؟ السلام العسكري؟ أم أنّه كان يعني السلام الداخلي الذي لا يجده الواحد منّا إلاّ داخل نفسه؟ أليس هذا هو السلام الوحيد الذي يجعلنا ندخل الملكوت الإلهي لا الملكوت الدنيوي؟

قال لي يوماً أحد زملاء الدراسة القدامى: لا يمكن أن ننتصر على إسرائيل إلا بالمحبّة. لقد تأكدت من ذلك عندما قرأت الأناجيل، لكنني قرأت قبل ذلك التوراة فوجدت بيننا وبين تحقيق هذا النوع من النصر ملايين السنين الضوئية، ولا أظننا بوارد الانتظار؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الخاتمة

«إنّ أموراً عظيمة – أموراً عظيمة جداً – ستترتّب على هذه المحاولة الأثيمة التي لم يعرف التاريخ محاولة أخرى تضاهيها في الإثم، وإنّي أطمئنكم بأنّ نتائجها لن تقتصر على فلسطين بل ستتناول العالم أجمع، وأنّ عظتها البالغة لن تكون لبني إسرائيل، بل لجميع بني الإنسان ومن يعشْ يرَ».

من رسالة أنطون سعادة للويد جورج

18 – 5 – 1931

«إنّ الدين لا يخاطب العقول، وإنّما يخاطب العاطفة والإحساس النفسي ليس إلاّ، لأنّه لو خاطب العقول لما كانت النتيجة سوى الجدال والنقاش بلا جدوى».

معروف الرصافي

«إنّه لأقرب إلى الحكمة، فيما أرى، أن نصل إلى اتفاق مع العرب على أساس حياة مشتركة، سلمية، لا على أساس إنشاء دولة يهودية».

ألبرت أينشتاين

سؤالان أطرحهما على نفسي وأنا أكتب خاتمة الكتاب، قبل أن يطرحهما عليّ القارئ، هما: أهذا كلّ ما في جعبتك عن الإرهاب الإسرائيلي؟ ألم يقم غير الإسرائيليين، أفراد، جماعات، تنظيمات ودول، باقتراف ما هو أشدّ وأدهى من ذلك؟ وعلى هذين السؤالين أسارع إلى الجواب قائلاً: لم أذكر مرة واحدة في متن الكتاب أنّ الإسرائيليين هم الشعب الوحيد الذي يمارس الإرهاب ضدّ شعب أو شعوبٍ أخرى. وبالتالي أنا أدرك تماماً أنّ الإرهاب كان مصاحباً لحياة الإنسان منذ أن وُجد على سطح هذه الأرض، ولن يتوقف مهما بلغ الإنسان من تطور على الصعيد الفكري ومهما استنّ من قوانين للحدّ منه. إنّه نتيجة طبيعية لما جُبل عليه الإنسان من تضادٍّ يتحكّم بمشاعره وأفعاله. وهذا التضاد سيبقى ملازماً لطبيعة البشر وسيعبّر عن نفسه اختلافاً بالرأي والمصالح، سواء على الصعيد الفردي أو الاجتماعي، أو على صعيد العلاقات الأممية.

إنّ محاولات الحدّ من الإرهاب التي تقوم بها الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي باءت لغاية الآن بالفشل الذريع، وما ذلك إلاّ لأنّهما يحاولان معالجة النتائج وليس الأسباب. فلا أعتقد أنّ إنساناً عاقلاً يتزنّر بالمتفجرات ليفجّر نفسه بين من يعتبرهم أعداءه لمجرد هوس فكري أو ثقافة محددة تجيز له ارتكاب هذا العمل. فهذه الظاهرة مرتبطة إلى حدٍّ كبير بالشعور بالظلم والاضطهاد اللذين لا يمكن تحملهما. وبالرغم من أنّني ضدّ هذه الظاهرة، فهذا لا يمنعني من الإشارة إليها، لا لإدانتها، وإنّما لدراسة أسبابها. ومن هذا المنطلق نجد أنّ مرتكبي الإرهاب كثر، أمّا تركيزي على الإرهاب الإسرائيلي فله أسبابه. أولاً هو فريد من نوعه في التاريخ، القديم منه والحديث، لأنّه انطلق من مقولاتٍ إلهية مقدسة ومثبتة في كتاب ديني اعتبره أصحابه «سفر الحضارة الخالد». وثانياً لأنّه إرهاب منظّم مستمر منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة، وكلّ الدلائل تشير إلى أنّه مستمر طالما أنّ أتباع هذه الديانة، وما انبثق عنهم من منظّمات، يعملون في الخفاء والعلن على إخضاع العالم

لإرادتهم. ثالثاً لأنّه تسبّب بطرد شعب آمن من أرضه وإقامة دولة لأتباع ديانة كانوا يعيشون مواطنين في دول شتى من العالم لفّقوا لهم نظريات خوّلتهم اختراع شعب ذي قومية وهمية زرعوه قسراً وظلماً وعدواناً في أرض لا تربطه بها سوى مشاعر دينية لم يمنعه أحد من ممارستها بحريّة. فعلى سبيل المثال عرّف أرنست غلنر القومية بأنّها «ليست يقظة الأمم على وعي ذاتها، بل هي اختراع الأمم حيث لا وجود لها»(802). وواضح من هذا التعريف أنّه مفصّل كي يناسب بني إسرائيل.

فلهذه الأسباب كان إرهاب بني إسرائيل متميزاً عن كلّ إرهاب آخر، وما ذكرته من إرهابهم لا يشكّل قطرة في محيط هذا الإرهاب الذي بات يشكّل كابوساً، ليس فقط على فلسطين ومحيطها، بل على شعوب كثيرة في العالم. ولقد ذكرت في معظم فصول الكتاب أنّ ما أوردته لم يكن إلاّ على سبيل المثال لا الحصر، فالكتاب ليس سجلاً تاريخياً لكلّ محطات الإرهاب الإسرائيلي، إنّما هو ربط لهذا الإرهاب المستمر عبر العصور بالوصايا اليهوهية الخاصة ببني إسرائيل وهي فريدة من نوعها. هذه الفرادة التي يريد الصهاينة التباهي بها واعتبارها مصدر فخر لهم، ليست بالحقيقة إلاّ فرادة وتميُّزا بأحطّ ما عُرف عن الإنسان من صفات ومزايا. وكم هو الفارق عظيم بين مفهوم العقل السوري القديم للفرادة وبين مفهوم بني إسرائيل لها. يقول جورجي كنعان: «إذا كانت علاقة الإنسان القديم بالقوة العالية أو «السيد العالي» (الله) تقوم على طاعة الأول للثاني وخضوعه ومحبته واحترامه وتقديسه له، وهذا أمر طبيعي لدى مختلف الأقوام وفي سائر الأنحاء، فقد كانت هذه العلاقة في مجتمعات سورية القديمة تتوقف أيضاً على ما تقتضيه قواعد الأخلاق وأعراف السلوك... وهذا جانب فريد تتميّز به معتقدات المجتمعات القديمة في سوريا الطبيعية عن معتقدات الأقوام الأخرى وعن الديانات التاريخية أيضاً. وتعبّر، وهنا الفرادة، عن اعتقاد الفرد القديم في سوريا الطبيعية بأنّ أعمال الإنسان أبلغ دلالة على موقفه من الإله وعلاقته به»(803). فالفرادة إذن ليست بنظرية الاستعلاء على الآخرين، وليست بوهم الإيمان بإله خاص، لا وليست بالنظرية العنصرية القائمة على فكرة شعب الله الخاص، التي لا تمت إلى المنطق العقلي أو إلى المنطق اللاهوتي بأيّة صلة.

إنّ اختلاق ماضٍ لإسرائيل أنتج أمرين: الأول اختلاق دولة إسرائيل الحديثة، بعد ألفين وثمان مئة سنة، وكاستمرارٍ للمملكة القديمة، والثاني تظهير الأخلاق اليهودية على أبشع ما تكون كما صوّرتها التوراة. فعملية تزوير التاريخ لم تعد بخافية إلاّ على أصحاب التفكير الديني النمطي، وهم كُثر، فها هو الباحث كيث وايتلام يقول: «وبإدراك الإلتفافية الجوهرية للمنطق وحده، يصبح من الواضح كيف أنّ تفسير معطيات الحفريات وعمليات المسح قد نجم عنه ماضٍ مُتخيّل»(804). وما ادّعته الصهيونية من حق تاريخي بفلسطين بات كثير من الدارسين، وبعضهم يدور في فلك الصهيونية، يُنكرون هذا الحق، الذي أنكر بإثباته حق شعب آخر بالوجود. نقل الأب مايكل بْرَير عن الباحث فنكلشتاين قوله بأنّ «الحجج بالحق التاريخي للصهيونية لم يكن تاريخاً أو حقاً: ليس تاريخياً لأنّه أنكر ألفَيْ سنة من سُكنى فلسطين بغير اليهود وألفَيْ سنة من سُكنى اليهود في أماكن أخرى، وليس حقاً، إلاّ من ناحية استخدام المصطلحات الصوفية الرومانسية عن الدم والتراب»(805).

وحتى لو أردنا مجاراة الصهاينة بمؤامرتهم حول حقهم التاريخي الذي يستندون لإثباته إلى ما جاء في التوراة، لوجدنا أنّ هذا الحق، وكما أشرنا سابقاً إليه، قد سقط لأنّه كان مشروطاً بالتقيد بأحكام الشريعة، وهذا لم يحصل. وهذا الموضوع تطرّق إليه شفايد عام 1987 فرأى أنّ «حلّ المشكلة

الخَلقية والدينية» يكمن بحصول قناعة بأنّ سكان إسرائيل القدماء السابقون فقدوا «حقهم فيها بسبب الآثام والخطايا التي ارتكبوها، وسيواصل أسباط بني إسرائيل الإقامة في الأرض فقط عندما يكونون عادلين»(806). ومن هذا المنطلق فهم البعض كلام إرميا عندما خاطب نبوخذ نصّر قائلاً: «لا تظن أنّك بقوتك وحدها استطعت أن تتغلب على شعب الرب المختار، إنّها ذنوبهم الفاجرة التي ساقتهم إلى هذا العذاب». وبالرغم من عدم قناعتي بهذه الفكرة الماورائية، فإنّها الرد المناسب على الحركة الصهيونية، لأنّ هذه الفكرة كما يقول ظفر الإسلام خان «ظلت تسود الفكر اليهودي حتى القرن التاسع عشر، إلى أن ظهرت بدعة الصهيونية التي نادت، لأول مرة، بالعمل لإقامة دولة يهودية»(807). ثم يستطرد قائلاً: «وحتى ذلك الوقت لم تكن علاقة اليهود بفلسطين أكثر من علاقة روحية كالتي تربط المسلمين بمكة المكرمة والمدينة المنورة، والمسيحيين ببيت لحم، والهندوس ببناراس وماتهورا، والسيخ بمعبدهم الكبير في لاهور، والشيعة بكربلاء»(808). وهذه العلاقة الروحية كان المسلمون حريصين على احترامها، فأين حرص اليهود على احترام علاقة المسلمين بأماكنهم المقدسة؟

فالكلام إذن عن الإرهاب الصهيوني الإسرائيلي ليس بحصر هذا الإرهاب ببني إسرائيل، الذين يقومون هم بحصر الإرهاب بالمسلمين عامة والعرب خاصة، بل بالإضاءة على أسس هذا الإرهاب وأهدافه المعادية، ليس لجماعة محددة، وإن كانت هي التي تتحمل المفاعيل المباشرة لهذا الإرهاب، بل للإنسانية جمعاء. وإنْ قال قائل كيف تفسّر هذا الأمر وإرهابهم محصور في فلسطين وأحياناً يشمل محيطها، لقلت إنّه تناول الإنسانية كلّها من المنظور الديني الذي فرض مفاهيمه ورؤاه بالقوة على أبناء كلّ الديانات الأخرى من خلال فرض ما ورد في التوراة على أنّه كلام الله مع ما يعنيه ذلك من ضرورة التقيُّد به وتنفيذه، وكلّ معرقل يكون مارقاً آثماً مخالفاً لمشيئة الله.

هذا هو الإرهاب الأخطر الذي استطاعوا بواسطته استغلال براءة المؤمنين وصدق إيمانهم. والعنف عادة ما يكون وسيلة للتخلص من الظلم الناتج عن الاحتلال، أو ديكتاتورية حاكم، ومن هذا المنطلق لا يمكن وصفه بالإرهاب. أمّا عندما يصبح عملاً بربرياً يقتلع شعباً بأكمله من أرضه، ويسعى إلى محو تاريخه وإلغاء مستقبله، فهذا العمل يصبح حكماً إرهاباً، من حيث الغاية والنتيجة على حدّ سواء. وسعي إسرائيل اليوم إلى أخذ موافقة المجتمع الدولي على تحويلها إلى دولة دينية يهودية يُعدّ مفصلاً أساساً من مفاصل حلقات إرهابها. إذ هي تهدف من خلال هذا القرار إلى تهجير من تبقى من الفلسطينيين في أرضهم وتحت حكم الاحتلال منذ عام 1948. فكيف بعد هذا يبقى مقتنعاً بديمقراطيتها؟ وهل الديمقراطية تلتقي مع مبدأ التطهير العرقي والديني؟

ويشير بعض الدارسين اليوم إلى أنّ التلمود البابلي يحرّم الهجرة الجماعية إلى الديار المقدسة. أشار إلى ذلك شلومو ساند بالقول: «جاء في التلمود البابلي: «أن لا يكون الصعود إلى إسرائيل بالجدار» ويشرح معنى «الصعود بالجدار» بأنّه الهجرة الجماعية إلى الديار المقدسة. وهو ينكر ما ورد في التوراة عن عودة المسبيين إلى بابل للسكن في أورشليم ويقول بأنّهم تركوا بابل إلى بغداد، أي أنّهم ظلوا في أرض الرافدين. ويؤكد بأنّ «المتخيّل الديني اليهودي لم يتضمن في تصوّره هجرة جماعية من أجل العيش في المدينة المقدسة وممارسة حياة يهودية كاملة فيها، فيما اعتُبر الذين طرحوا هذا التصور في بعض الأحيان شواذاً أو مهووسين»(809). أمّا إسرائيل شاحاك فقد وضع إصبعه على

الجرح وفهم معنى إعلان إسرائيل «دولة يهودية» بأنّه إعلان حرب دائمة: «إنّ الخطر الرئيسي الذي تشكّله إسرائيل «كدولة يهودية» على شعبها واليهود الآخرين وجيرانها، هو سعيها، بالدافع الإيديولوجي، إلى التوسع الإقليمي، وسلسلة الحروب المحتومة، الناتجة عن هذا الهدف»(810). ومن هذا المنطلق يعتبر الحديث عن السلام مقابل الأرض مجرد ذرٍّ للرماد في العيون لأكثر من سبب. أولاً لأنّ إسرائيل لا تمتلك مفهوم السلام انطلاقاً من تعاليم يهوه الذي أمرهم بأن لا يقطعوا عهداً للشعوب التي يتواصلون معها. والثاني ينطلق أيضاً من المفهوم الديني لأرض الميعاد التي لم تتحقق لغاية الآن، وبالتالي فإنّ إسرائيل، ليست فقط غير مستعدة للتنازل عن أيّ شبر من الأرض المحتلة، بل ما زالت تسعى لتحقيق إسرائيل الكبرى، ولذلك فهي الدولة الوحيدة التي لا يزال دستورها خالياً من مادة تعيّن حدودها.

يقول الحاخام مردخاي إلياهو، كبير حاخامي إسرائيل سابقاً: «من يقول إنّ جزءاً من أرض إسرائيل يعود للعرب يكفر بالله الذي يقول: لذريتك منحت هذه الأرض». فكلّ مفاوضات السلام ليست إلاّ لإلهاء الفلسطينيين من جهة، والمجتمع الدولي الضاغط بهذا الاتجاه من جهة ثانية. والعالم يشهد، أنّه ما من مرة اقتربت فيها المفاوضات لتحقق تقدماً إيجابياً، إلاّ وأقدمت إسرائيل على اختلاق الأعذار لعرقلتها، معتمدة بذلك على الوهن العربي والتخاذل أمام العربدة الإسرائيلية. والسلام لن يكون أبداً عن طريق الاستسلام لمشيئة المغتصب، وهذا أهون طريق يسلكه شعب من الشعوب قُمع بما يكفي لقبوله بالفتات الذي يرميه إليه ظالمه. أمّا الشعوب المقموعة، والتي حافظت على قِيَمها وعزتها وعنفوانها، فقد سلكت طريق المقاومة لكي تفرض إرادتها وتستعيد حقها المُغتَصَب.

كثيرة هي الأصوات التي بدأت ترتفع في العالم لفضح المخطط الإرهابي الصهيوني الذي تنفذه إسرائيل. هذه الأصوات منها ما هو فردي نابع من استقراء موضوعي للتاريخ وللدين اليهودي على السواء، ومنها ما هو جماعي عبر منظمات دينية يهودية وأخرى اجتماعية وإنسانية تعنى بالسلام. وقد يكون التطرق لمثال واحد في هذه الخاتمة كافياً. فمنظمة «ناطوري كارتا» اليهودية تضم عدداً كبيراً من الحاخامات الذين درجوا مؤخراً على زيارة لبنان وإيران وبلدان أخرى معنية بالمؤامرة الصهيونية. فالحاخام موشي هيرش، وهو واحد منهم، المولود في نيويورك والذي كان يعيش في القدس دعا إلى إقامة دولة فلسطين ومنح مواطني الطائفة التي ينتمي إليها (اليهودية) جوازات سفر فلسطينية. وقد أوردت جريدة السفير الخبر الآتي: «ستة حاخامات من أعضاء ناطوري كارتا يشاركون في المؤتمر الصحافي الذي دعت إليه اللجنة الوطنية لمسيرة القدس العالمية وحملوا العلم الفلسطيني. كما شارك في المؤتمر 250 ناشطاً من 64 دولة. وفي حديث للسفير مع الحاخامات الستة شددوا على أهمية الفصل بين إسرائيل واليهودية على اعتبار أنّ إسرائيل هي صهيونية وليست يهودية وتخالف كلّ مبادئ التوراة التي تتناقض مع أعمال العنف والسيطرة والاغتصاب التي تمارسها بحق الشعبين الفلسطيني واليهودي... وهي إذ تمارس هذه الأفعال الإجرامية باسم الدين اليهودي، فإنّ هذا الدين يتبرأ منها نافياً حقها في الوجود أساساً، لأنّ إسرائيل لا تملك الحق في أن يكون لها أرض أو أن تسمى دولة، وذلك وفق تعاليم الله التي تقول إنّ الشعب اليهودي يجب أن يعيش في المنافي كمواطنين صالحين في ظل حكم الدولة التي يعيشون فيها، وتحت سيطرة الحكومة الفلسطينية في حال كانوا يعيشون في فلسطين. وبالنسبة لهم إسرائيل مصيرها الزوال ونحن ننتظر هذه النهاية التي باتت قريبة جداً»(811).

وعلى موقعها الإلكتروني قرأت بعضاً من نشاطات هذه المنظمة وآخرها كان في 4 آذار/مارس 2012، حيث نظمت تظاهرة احتجاج في أوتاوا – كندا رُفعت فيها شعارات تقول بأنّ قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين هو عمل غير عادل، وهذه الدولة يجب أن تزول سلمياً وبسرعة. كما قرأت تصور المنظمة لحل المسألة الفلسطينية، أو ما أصبح يعرف بمشكلة الشرق الأوسط، والذي يجب أن يستند إلى الخطوات التالية:

1- إعلان الأمم المتحدة إلغاء قرارها القاضي بتقسيم فلسطين، وسحب اعترافها بدولة إسرائيل.

2- عودة السلطة إلى الفلسطينيين وعلى كامل التراب الفلسطيني.

3- إعطاء الحق لليهود المقيمين البقاء حسب إرادتهم، على أن يعود للسلطات الفلسطينية حق قبولهم كمواطنين أو رفضهم.

هذه الخطوات الثلاث ينتج عنها حكماً، برأي المنظمة، تغيير جذري بالعلاقات ما بين الإسرائيليين والفلسطينيين، من شأنه أن يؤدي إلى سلام شامل ودائم. وهذا الاقتراح يؤدي أيضاً إلى إنقاذ المواطنين، من كلا الطرفين، من خلال وقف الحروب، ووقف التسابق إلى التسلح وممارسة الإرهاب وتغذية واستغلال الشعور المعادي للسامية، على أن تستغل الأموال التي يدفعها الغرب لإسرائيل، خاصة الولايات المتحدة، لتحقيق النمو الشامل المطلوب.

إذا تمعنا جيَّدا بهذا المقترح لما تمكنا من إيجاد أيّ مقترح أفضل لإحلال السلام وإنهاء الصراع، لا من قِبَل إسرائيل، وهذا من المستحيلات، ولا حتى من قِبَل دول العالم العربي الغائبة عن الوعي القومي واللاهثة وراء الاستسلام لكي تحافظ على استمرارية الأنظمة، بل من قِبَل الذين يدركون أنّ السلام يلزمه ثوابت، وهي في هذه الحال إزالة الاحتلال ومفاعيله. مضى الزمن الذي تتاجر فيه إسرائيل بنيّة العرب الهادفة إلى رمي اليهود في البحر، فلم تعد تجارة رابحة، وحتى عندما يُعلن أحمدي نجاد بضرورة محو إسرائيل عن الخارطة فهو لا يعني مطلقاً قتل اليهود، بل إزالة العدوان الذي تُرجم واقعاً سياسياً تمثله دولة إسرائيل. وما يلفتني بتوجهات هذه المنظمة أنّها مناقضة لما جاء في التوراة على لسان الإله يهوه من إرهاب كان موضع تشريح في فصول الكتاب. وإنه لشيء جيّد أن يعتبروا قيام دولة إسرائيل منافياً للتعاليم على القاعدة التي أشرت إليها أكثر من مرة، وهي أنّ الوعد بالأرض سقط لعدم التزامهم بالشريعة، فالوعد كان مشروطاً، وانتهاك الشرط سقوطٌ للوعد. (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) سورة البقرة/الآية 40، فلا هم ذكروا النعمة، ولا أوفوا العهد، ولا هم تجنّبوا رهبة الله، فكيف لا يسقط كلّ من الوعد والعهد؟ ولكن كيف يفسّرون إيمانهم المستمر بأنّ العودة ستتم حين يأمرهم الله بالعودة؟ وكيف يتصورون عودتهم؟ هل ستنفذ حسب تعاليم يهوه القاضية بالإبادة والطرد والتشريد والسرقة مجدداً؟ أم أنّها ستكون عودة سلمية تخوّلهم العيش مع من هو موجود زمن العودة؟ وهل ستفرض هذه العودة قيام دولة باسم إسرائيل مجدداً، أم أنّ الإسم لن يكون مشكلة، لأنّ الغاية ستكون محصورة بالعودة وليس بفرض الأسماء ومحاولة التهويد؟ هل العودة ستكون عودة دينية أم عودة قومية؟ أم أنّ المنظمة تلتقي مع المجلس الأميركي لليهودية الذي وجّه في حزيران من عام 1961 «رسالة إلى السيد كريستيان هرتر، لكي يجرّد الحكومة الإسرائيلية من حق الكلام باسم جميع اليهود»(812)؟

وبالرغم من تساؤلاتي الصادرة عن قلق دائم على المصير ناتج عن اقتناع راسخ بأنّ الإرهاب الصهيوني لن يرضخ لأيّة ضغوط مهما كان مصدرها، أعتبر أنّ هذه التوجهات، سواء أكانت من أفراد أو منظمات يهودية، مهمة جداً ويجب تشجيعها علّها تخترق جدار هذا الإرهاب المنطلق من أسس دينية. وحدها التنظيمات الدينية، يهودية كانت أم مسيحية أم محمدية، تستطيع التأثير على الفكر الصهيوني المريض. فهذا الفكر انطلق من الوصايا اليهوهية، وهو مدعوم من كلّ الديانات التي تقبلت هذه الوصايا على أنّها كلام الله الذي يجب أن يُنفذ، وبالتالي ما لم تقم تنظيمات دينية رافضة لهذا المفهوم، وقادرة على مواجهة التزوير والاستغلال، فإنّ الإرهاب سيبقى سيّد الموقف. والإرهاب الصهيوني سيبقى مسؤولاً عن ردّات الفعل التي، وإن اتخذت أحياناً طابع الإرهاب، إلاّ أنّنا لا نستطيع وضعها في هذا الإطار لأنّها حركات تحررية مقاومة للإرهاب، ولن يكون بمقدورها ممارسة فعل المقاومة إلاّ بالطرق المناسبة.

إنّ التعاون مع هذه المنظمات، ومع الأفراد، انطلاقاً من رفض وجود إسرائيل، ولو بالحد الأدنى، قد يوسّع دائرة البيكار، التي لن يكون تأثيرها إلاّ إيجابياً على أكثر من صعيد. المهمة صعبة لكنّها جديرة بالدعم، لأنّ الغاية المستهدَفة جديرة بالإهتمام. يجب أن يكون التركيز على المحبة وليس على البغض، على التسامح وليس على الحقد، على الغفران وليس على المساءلة، «لا تَدينوا لكي لا تُدانوا» قال يسوع، وقال أيضاً: «أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم»، ولقد كان قصد يسوع من نشر هذه الفضائل الارتقاء بالإنسان إلى عالم المثل الملكوتي. وكذلك فعل النبي الكريم، فكم من الآيات خاطبت بني إسرائيل علّهم عن كفرهم يرعوون؟ وكم من الآيات دعتهم إلى الإيمان بالله الواحد الكوني لا بإله قبلي خاص؟ لكنّهم ظلّوا متمسكين بحرفية كتابهم لأنّها تتماهى مع أهوائهم. لذلك وردت الآية الكريمة: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ سورة البقرة/الآية 78. فهل هذا يعني أن نترك الظالم، مستبيحاً حق الآخرين، متجبراً بظلمه لكي نثبت له إيماننا المسيحي بمحبة الأعداء التي دعانا إليها يسوع؟

يقول أنطون سعادة: «يجب أن يكون واضحاً كلّ الوضوح أنّ قصد التعاليم المسيحية هو رفع المناقب الفردية والعائلية. فالتساهل الذي علّمه المسيح قصد به الأفراد لسلامة المجتمع وخلاصه. ولم يقصد به أن يتنازل المجتمع، أيّ مجتمع، عن حقوقه السياسية والاقتصادية والروحية، لأنّ هذا التنازل يكون معناه سقوط المجتمع، لا قيامه، والمسيح أراد قيام المجتمع لا سقوطه»(813). يسوع أراد من نشر هذه الفضائل، لا أن تعم مجتمعه فقط، بل أراد أن تعمّ كلّ المجتمعات على السواء، وبشيوعها ينتفي العداء ويعم السلام، الداخلي والأممي. فمن وقف في وجه تعاليم يسوع لكي يبقي على الأحقاد والبغضاء والجنوح نحو استعمال القوة لفرض واقع متخيّل؟ إنّها التعاليم اليهوهية التي ما أتى يسوع إلاّ لهدمها ونقضها لبناء الملكوت الحقيقي عبر الإيمان بإله الكون الشمولي. ومن هذا المنطلق نفهم قول المفكر الليبي الصادق النيهوم: «لا يمكن أن تكون شريعة ربانية، تلك التي لا تفعل شيئاً إلاّ خدمة أطماع أهل الأرض على حساب أهل السماء». فالتقيُّد بحرفية ما جاء في الكتب الدينية أبعد الإنسان عن جوهر الدين.

يقول أمين الريحاني: «إنّ التعبد لفي الصالحات لا في تتمة الصلوات». فإن ظل الصهاينة ينطلقون من حرفية ما جاء في كتابهم فإنّ البشرية ستبقى تدفع ثمن هذا التحجّر لمئات وآلاف السنين. وإزاء هذا التحجّر الذي لا يزال يُفرز مزيداً من الإرهاب، لا يمكن لأمّتنا أن تنعم بالسلام الحقيقي والعادل بتسليمها بمقولات المجتمع الدولي عن هذا السلام. إنّها مقولات استسلامية لأنّها لا تعيد كلّ الحق لأهله، بل جزءاً منه إنْ هي نجحت بإقناع إسرائيل بذلك، ولا أظنها ستفعل. إسرائيل قامت على أسس مجتمع حرب بحيث يكون لكلّ مواطن دور بالدفاع عن الدولة. إنّ السلام العادل بالنسبة لنا هو أن يسلّم العالم كلّه، وليس إسرائيل وحدها، بأنّ إسرائيل زُرعت في جسم أمّتنا ظلماً وعدواناً، وهي جسم غريب وستبقى كذلك ولن تصبح من أعضاء هذا الجسد، لذلك لا بدّ من عملية البتر والاستئصال، ولو طالت. وليس من المعيب أبداً إنْ تعلمنا من عدوّنا ما يفيد مصلحتنا، ولنا من تجربتنا في لبنان خير دليل على حتمية الانتصار. إنّ الأقنوم المثلث المتمثّل بالشعب والجيش والمقاومة أثبت فعاليته، ويجب ألاّ يبقى مقتصراً على لبنان، بل يجب أن يعمّ كلّ الدول المحيطة بإسرائيل. وعندها فقط يمكن أن نحلم بالانتصار الحقيقي.

وكم هو واقعي اليوم قول الدالاي لاما مؤخراً بأنّ «جميع الديانات الكبرى في العالم، مع تركيزها على الحب، والتعاطف، والصبر، والتسامح، والصفح، تستطيع تعزيز القِيَم الداخلية الذاتية. ولكن واقع العالم اليوم يُثبت أنّ ترسيخ الأخلاقيات التي دعت إليها الأديان لم يعد كافياً. لهذا السبب أنا مقتنع بقوة أنّ الوقت قد حان لإيجاد طريقة تفكير روحانية تتجاوز الديانات جميعها». الديانات الحقة، مثلها مثل كلّ نتاج العقل البشري، لم تستطع قتل الشرّ، لا لنقص فيها، وإنّما لاختلاف فهم الناس لها وتقيّدهم بحرفيتها لا بمعانيها، أي التزامهم النظري بها وبُعدهم عن ممارستها. قال أحد المفكرين: «كلّ إيمان مطلق يقود صاحبه للاعتقاد بالخرافات». فليكن العقل لنا هادياً، والقلب غافراً، فما بين العقل والقلب نجد السلام الداخلي، علّه يكون طريقاً إلى سلام الصهيوني سيبقى مسؤولاً عن ردّات الفعل التي، وإن اتخذت أحياناً طابع الإرهاب، إلاّ أنّنا لا نستطيع وضعها في هذا الإطار لأنّها حركات تحررية مقاومة للإرهاب، ولن يكون بمقدورها ممارسة فعل المقاومة إلاّ بالطرق المناسبة.

إنّ التعاون مع هذه المنظمات، ومع الأفراد، انطلاقاً من رفض وجود إسرائيل، ولو بالحد الأدنى، قد يوسّع دائرة البيكار، التي لن يكون تأثيرها إلاّ إيجابياً على أكثر من صعيد. المهمة صعبة لكنّها جديرة بالدعم، لأنّ الغاية المستهدَفة جديرة بالإهتمام. يجب أن يكون التركيز على المحبة وليس على البغض، على التسامح وليس على الحقد، على الغفران وليس على المساءلة، «لا تَدينوا لكي لا تُدانوا» قال يسوع، وقال أيضاً: «أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم»، ولقد كان قصد يسوع من نشر هذه الفضائل الارتقاء بالإنسان إلى عالم المثل الملكوتي. وكذلك فعل النبي الكريم، فكم من الآيات خاطبت بني إسرائيل علّهم عن كفرهم يرعوون؟ وكم من الآيات دعتهم إلى الإيمان بالله الواحد الكوني لا بإله قبلي خاص؟ لكنّهم ظلّوا متمسكين بحرفية كتابهم لأنّها تتماهى مع أهوائهم. لذلك وردت الآية الكريمة: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ سورة البقرة/الآية 78. فهل هذا يعني أن نترك الظالم، مستبيحاً حق الآخرين، متجبراً بظلمه لكي نثبت له إيماننا المسيحي بمحبة الأعداء التي دعانا إليها يسوع؟

يقول أنطون سعادة: «يجب أن يكون واضحاً كل الوضوح أنّ قصد التعاليم المسيحية هو رفع المناقب الفردية والعائلية. فالتساهل الذي علّمه المسيح قصد به الأفراد لسلامة المجتمع وخلاصه. ولم يقصد به أن يتنازل المجتمع، أيّ مجتمع، عن حقوقه السياسية والاقتصادية والروحية، لأنّ هذا التنازل يكون معناه سقوط المجتمع، لا قيامه، والمسيح أراد قيام المجتمع لا سقوطه»(813). يسوع أراد من نشر هذه الفضائل، لا أن تعم مجتمعه فقط، بل أراد أن تعمّ كلّ المجتمعات على السواء، وبشيوعها ينتفي العداء ويعم السلام، الداخلي والأممي. فمن وقف في وجه تعاليم يسوع لكي يبقي على الأحقاد والبغضاء والجنوح نحو استعمال القوة لفرض واقع متخيّل؟ إنّها التعاليم اليهوهية التي ما أتى يسوع إلاّ لهدمها ونقضها لبناء الملكوت الحقيقي عبر الإيمان بإله الكون الشمولي. ومن هذا المنطلق نفهم قول المفكر الليبي الصادق النيهوم: «لا يمكن أن تكون شريعة ربانية، تلك التي لا تفعل شيئاً إلاّ خدمة أطماع أهل الأرض على حساب أهل السماء». فالتقيُّد بحرفية ما جاء في الكتب الدينية أبعد الإنسان عن جوهر الدين.

يقول أمين الريحاني: «إنّ التعبد لفي الصالحات لا في تتمة الصلوات». فإن ظلّ الصهاينة ينطلقون من حرفية ما جاء في كتابهم فإنّ البشرية ستبقى تدفع ثمن هذا التحجّر لمئات وآلاف السنين. وإزاء هذا التحجّر الذي لا يزال يُفرز مزيداً من الإرهاب، لا يمكن لأمّتنا أن تنعم بالسلام الحقيقي والعادل بتسليمها بمقولات المجتمع الدولي عن هذا السلام. إنّها مقولات استسلامية لأنّها لا تعيد كلّ الحق لأهله، بل جزءاً منه إنْ هي نجحت بإقناع إسرائيل بذلك، ولا أظنها ستفعل. إسرائيل قامت على أسس مجتمع حرب بحيث يكون لكلّ مواطن دور بالدفاع عن الدولة. إنّ السلام العادل بالنسبة لنا هو أن يسلّم العالم كلّه، وليس إسرائيل وحدها، بأنّ إسرائيل زُرعت في جسم أمّتنا ظلماً وعدواناً، وهي جسم غريب وستبقى كذلك ولن تصبح من أعضاء هذا الجسد، لذلك لا بدّ من عملية البتر والاستئصال، ولو طالت. وليس من المعيب أبداً إنْ تعلمنا من عدوّنا ما يفيد مصلحتنا، ولنا من تجربتنا في لبنان خير دليل على حتمية الانتصار. إنّ الأقنوم المثلث المتمثّل بالشعب والجيش والمقاومة أثبت فعاليته، ويجب ألاّ يبقى مقتصراً على لبنان، بل يجب أن يعمّ كلّ الدول المحيطة بإسرائيل. وعندها فقط يمكن أن نحلم بالانتصار الحقيقي.

وكم هو واقعي اليوم قول الدالاي لاما مؤخراً بأنّ «جميع الديانات الكبرى في العالم، مع تركيزها على الحب، والتعاطف، والصبر، والتسامح، والصفح، تستطيع تعزيز القِيَم الداخلية الذاتية. ولكن واقع العالم اليوم يُثبت أنّ ترسيخ الأخلاقيات التي دعت إليها الأديان لم يعد كافياً. لهذا السبب أنا مقتنع بقوة أنّ الوقت قد حان لإيجاد طريقة تفكير روحانية تتجاوز الديانات جميعها». الديانات الحقة، مثلها مثل كلّ نتاج العقل البشري، لم تستطع قتل الشرّ، لا لنقص فيها، وإنّما لاختلاف فهم الناس لها وتقيّدهم بحرفيتها لا بمعانيها، أي التزامهم النظري بها وبُعدهم عن ممارستها. قال أحد المفكرين: «كلّ إيمان مطلق يقود صاحبه للاعتقاد بالخرافات». فليكن العقل لنا هادياً، والقلب غافراً، فما بين العقل والقلب نجد السلام الداخلي، علّه يكون طريقاً إلى سلام الإنسانية الشامل.

القلعة – المتن الأعلى

2012 – 9 – 12

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



المراجع

- الأب الدكتور سهيل قاشا: التوراة البابلية

- الأب الدكتور سهيل قاشا: لبنان في ذاكرة العراق القديم - دار أبعاد - 2008

- الأب الدكتور يوسف يمّين: المسيح ولد في لبنان لا في اليهودية – منشورات الجمعية الكونية «إيلّبانيون» – إهدن – لبنان – الطبعة الثانية 1999

- الأب الدكتور سهيل قاشا: بابل والتوراة – دار أبعاد: بيروت – التوزيع: الفرات للنشر والتوزيع – بيروت – الطبعة الأولى 2011

- الأب الدكتور سهيل قاشا: مقتبسات شريعة موسى من شريعة حمورابي – بيسان للنشر والتوزيع والإعلام – الطبعة الأولى آب 2003

- الأب الدكتور سهيل قاشا: أحيقار حكيم من نينوى وأثره في الآداب العالمية القديمة – بيسان للنشر والتوزيع والإعلام – بيروت – الطبعة الأولى كانون الثاني 2005

- الأب الدكتور سهيل قاشا: الصهيونية تحرّف الإنجيل – الركن للطباعة والنشر – طبعة ثانية – بيروت - 2005

- الأب مايكل بْرَيَر: الكتاب المقدّس والاستعمار الاستيطاني – قدمس للنشر والتوزيع – سورية – دمشق – الطبعة الثانية

- أبراهام بورغ: لننتصر على هتلر – الأهلية للنشر والتوزيع – المملكة الأردنية الهاشمية – عمّان – طبعة خاصة بالعالم العربي 2011

- إحسان أديب مرتضى: الإرهاب الصهيوني – باحث للدراسات - الطبعة الثانية 2007

- إدمون جاكوب: رأس شمرا والعهد القديم – دار الفن – بيروت 1968

- إدوار سعيد: الآلهة التي تفشل دائماً - ترجمة: حسام الدين خضور. التكوين للطباعة والنشر والتوزيع – لبنان – بيروت – 2003

- إدوارد روبنصون: يوميّات في لبنان – تاريخ وجغرافيا – منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة – الطبعة الأولى – نيسان 1949 بيروت

- أرنولد توينبي: تاريخ البشرية – الأهلية للنشر والتوزيع – بيروت - الطبعة الخامسة 2010

- الإرهاب الدولي: نشر مركز الدراسات العربي – الأوروبي – الطبعة الثانية كانون الأول 2002

- أسامه العيسة: مخطوطات البحر الميت – قدمس للنشر والتوزيع – دمشق – سورية – الطبعة الأولى 2003

- إسرائيل شاحاك: الديانة اليهودية وتاريخ اليهود – شركة المطبوعات للتوزيع والنشر – بيروت – الطبعة التاسعة 2007

- أسعد زيدان: الناس والتاريخ – توزيع معرض الشوف الدائم للكتاب 2005

- أمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب – دار الفارابي – بيروت - الطبعة السادسة 2010

- أنطون سعادة: نشوء الأمم – الطبعة الثانية – دمشق 1951 منقّحة بقلم المؤلف

- إيلان هاليفي: المسألة اليهودية – تنفيذ مكتب الخدمات الطباعية – دمشق الطبعة الأولى 1986

- بندكت أندرسن: الجماعات المُتخيّلة – شركة قدمس للنشر والتوزيع دمشق – سورية – الطبعة الأولى - أيلول 2009

- بول فندلي: الخداع – شركة المطبوعات للنشر والتوزيع - بيروت - الطبعة الرابعة 2003

- بول فندلي: لا سكوت بعد اليوم – شركة المطبوعات للتوزيع والنشر – بيروت – الطبعة الثالثة 2002

- بول فندلي: من يجرؤ على الكلام – شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - الطبعة السادسة 1990

- توماس ل. طومسون: التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي – ترجمة صالح علي سوداح - بيسان للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى 1995

- جميل خرطبيل: نقد الدين اليهودي - صفحات للدراسات والنشر - سورية – دمشق – الطبعة الثانية

- جود أبو صوّان: القراءات الملعونة – توزيع مؤسسة نوفل للنشر والتوزيع – الطبعة الماسية 2003

- جودت السعد: أوهام التاريخ اليهودي – الأهلية للنشر والتوزيع المملكة الأردنية الهاشمية – عمّان – الطبعة الأولى 1998

- جورج متري عبد المسيح: فكرنا الديني بين التحريف والتعريف – الطبعة الأولى – بيروت - 1978

- جورجي كنعان: فضح الكتاب أو فضح العقول – الطبعة الأولى 2008 - جمعية تراث فلسطين – دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت

- جورجي كنعان: محمد واليهودية - بيسان للنشر والتوزيع – بيروت - الطبعة الأولى 1999

- جوش ماكدويل: كتاب وقرار – حياة المحبة في لبنان - بيروت

- جيرهارد فان غلان القانون بين الأمم – مدخل إلى القانون الدولي العام – دار الجيل ودار الآفاق الجديدة - بيروت

- جيمي كارتر: السلام ممكن في الأراضي المقدسة – شركة المطبوعات للتوزيع والنشر – بيروت – الطبعة الأولى 2010

- جو فيالز: العراق أولاً – الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية - سورية – دمشق – الطبعة الأولى آب/أغسطس 2003

- د. بشار خليف: نشوء فكرة الألوهة – الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع – سورية – دمشق – الطبعة الأولى 2011

- د. زينب عبد العزيز: من حائط البراق إلى جدار العار – دار الكتاب العربي – دمشق – القاهرة – الطبعة الأولى 2004

- د./ل. كارنييف: اليهود واليهودية في نظر شعوب العالم – مكتبة مدبولي القاهرة – الطبعة الأولى 2006

- دايفيد ج. روثكوبف: الطبقة الخارقة – شركة المطبوعات للتوزيع والنشر – بيروت – الطبعة الأولى 2011

- الدكتور أسعد رزّوق: التلمود والصهيونية – منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث – بيروت – تشرين الثاني 1970

- الدكتور رفيق الحسيني: على خطى يهوشع – دار الشروق للنشر والتوزيع – عمّان - الأردن - الطبعة العربية الأولى 2001

- الدكتور صادق جلال العظم: نقد الفكر الديني – دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت – لبنان – الطبعة التاسعة – نيسان 2003.

- الدكتور فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين – دار الثقافة بيروت - 1982

- الدكتور محمد النويهي: نحو ثورة في الفكر الديني.

- ديفيد ديوك: أميركا – إسرائيل و 11 أيلول 2001 – الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية – سورية – دمشق – الطبعة الأولى 2002

- ربيع داغر: إسرائيل والصراع المستمر – شركة المطبوعات للتوزيع والنشر – بيروت – الطبعة الأولى 2007

- رمزي ج. النجّار: وجهة نظر وسفر – دار النهار – بيروت - الطبعة الأولى 2012

- روبير عبده غانم: عناصر تكوين دولة يهوديّة في فلسطين – صدر هذا الكتاب باللغة الفرنسية سنة 1946 – الطبعة الأولى باللغة العربية 2011 – سائر المشرق

- روجيه غارودي: الأساطير المؤسّسة للسياسة الإسرائيلية – ترجمة حافظ الجمالي وصياح الجهيّم – الطبعة الثانية تموز 1996 – دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع.

- سعيد نفاع: العرب الدروز – الدار التقدمية: المختارة – لبنان - الطبعة الثالثة أيلول 2010

- سهيل التغلبي: اليهودية – الصهيونية تحرّف الكتاب المقدّس – دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – الطبعة الأولى 2004

- سيغموند فرويد: موسى والتوحيد – ترجمة جورج طرابيشي – دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت – الطبعة السادسة 2009

- شريعة حمورابي: مجموعة من المؤلفين - تعريب أسامة سراس – دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، سورية – دمشق - الطبعة الخامسة 2008

- شلومو ساند: اختراع الشعب اليهودي – الأهلية للنشر والتوزيع: المملكة الأردنية الهاشمية – عمّان – طبعة خاصة بالعالم العربي 2011

- شمعون بيريز: الرحلة الخيالية مع تيودور هرتزل إلى إسرائيل – الأهلية للنشر والتوزيع – المملكة الأردنية الهاشمية – عمّان – الطبعة العربية الأولى 2001

- شوقي إبراهيم خير الله: الإنجيل الخامس – بيسان للنشر والتوزيع والإعلام – بيروت – الطبعة الأولى – تشرين الثاني 2004

- الشيخ عبد الله العلايلي: أين الخطأ – دار الجديد: بيروت الطبعة الثانية 1992

- شيريب سبيريدوفيتش: حكومة العالم الخفية – دار النفائس - الطبعة الرابعة عشرة 2005

- صهيب الرومي: المسيح بين التلمود والقرآن – بيسان للنشر والتوزيع والإعلام – الطبعة الأولى أيار /مايو 2005

- ظفر الإسلام خان: التلمود تاريخه وتعاليمه – دار النفائس – بيروت - الطبعة السابعة 1989

- ظفر الإسلام خان: تاريخ فلسطين القديم – دار النفائس – بيروت الطبعة الثالثة 1981

- عبد المجيد همو: الله أم يهوه؟ أيّهما إله اليهود؟ – دار الأوائل سورية – دمشق – الطبعة الثانية شباط/فبراير 2009

- عبد المجيد همو: المجازر اليهودية والإرهاب الصهيوني – الأوائل للنشر والتوزيع – سورية – دمشق – الطبعة الثانية 2004

- عجاج نويهض: بروتوكولات حكماء صهيون – دار الاستقلال للدراسات والنشر – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – الطبعة الرابعة 1996

- علي حسن طه: العنصرية الصهيونية اليهودية والبُعد الأيديولوجي الديني – دار الهادي بيروت – الطبعة الأولى 2002

- فؤاد بطرس: المذكّرات – دار النهار – بيروت الطبعة الأولى 2009

- فراس السوّاح: آرام دمشق وإسرائيل – دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة - سورية – دمشق. الطبعة الخامسة 2002

- فراس السوّاح: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم – دار علاء الدين - الطبعة الرابعة 1999

- فراس السوّاح: الوجه الآخر للمسيح – دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة – سورية – دمشق – الطبعة الأولى 2004

- فراس السوّاح: تاريخ أورشليم – دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة – سورية – دمشق - الطبعة الثالثة 2003

- فراس السوّاح: مدخل إلى نصوص الشرق القديم – دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة – سورية – دمشق – الطبعة الأولى 2006

- فراس السواح: مغامرة العقل الأولى - دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة سورية – دمشق – الطبعة الثالثة عشرة 2002.

- فرح أنطون: ابن رشد وفلسفته – دار الفارابي – بيروت - الطبعة الثالثة 2007

- فنسان نوزيل: أسرار الرؤساء – جرّوس برس ناشرون – طرابلس – لبنان – الطبعة الأولى 2011

- فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى – الدار المتحدة للنشر – بيروت – الطبعة الأولى 1975

- فيليب سيمون ورفائيل ميرجي: مائير كهانا وغلاة التطرف الأصولي اليهودي – دار الأوائل – سورية – دمشق – الطبعة الأولى 2003

- الكتاب المقدس: دار الكتاب المقدس في العالم العربي 1983

- كمال الصليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب – مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت – الطبعة العربية الثانية 1986

- كمال الصليبي: خفايا التوراة – دار الساقي: بيروت - الطبعة السابعة 2012

- كيث وايتلام: تلفيق إسراعيل التوراتية – قدمس للنشر والتوزيع -الطبعة الثانية تشرين الثاني/ نوفمبر 2002

- لوسيان كافرو دومارس: العار الصهيوني – دار البيروني – بيروت الطبعة الأولى 2007

- مجلة اتجاه عدد 19 – آب/أغسطس أيلول/سبتمبر تشرين الأول/أكتوبر 2001 - بيروت

- مجلة الثقافة عدد 7 أيار/مايو 1983 تصدرها عمدة الإذاعة في الحزب السوري القومي الإجتماعي

- مجلة القضايا المعاصرة: الجزء الثاني – المجلد الأول، تشرين الثاني/نوفمبر 1969 – دار النهار للنشر

- مذكرات وايزمن: بقلمه – دار الفنون للطباعة والنشر والتوزيع - ودار قانون النهر للأبحاث والدراسات الإنسانية – الطبعة الأولى 2006

- مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات: إسرائيل والقانون الدولي – بيروت – الطبعة الأولى 2011

- مصطلحات ومناسبات وتواريخ وشخوص صهيونية: دار الجليل – قسم الدراسات – الطبعة الأولى 2008

- معروف الرصافي: الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس – منشورات الجمل - الطبعة الأولى 2002

- مفيد عرنوق: التوراة والتراث السوري – منشورات دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت – الطبعة الأولى 1986

- ناجح المعموري: موسى وأساطير الشرق – الأهلية للنشر والتوزيع - المملكة الأردنية الهاشمية – عمّان – الطبعة العربية الأولى 2001

- نعوم تشومسكي: المثلث المحتوم – دار الجيل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية – عمّان – الطبعة الأولى 1991

- نعوم تشومسكي: تواريخ الانشقاق – الأهلية للنشر والتوزيع - المملكة الأردنية الهاشمية – عمّان – الطبعة العربية الأولى 1997

- نورمان فنكلشتاين: كيف صنع اليهود الهولوكوست – الأوائل للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى تموز/يوليو 2003

- نيل سلبرمن: بحثاً عن إله ووطن – قدمس للنشر والتوزيع – دمشق – سورية – الطبعة الأولى 2001

- هنري فورد: اليهودي العالمي – منشورات المكتب التجاري – بيروت 1967

- وليام غاي كار: أحجار على رقعة الشطرنج – دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – الطبعة السابعة عشرة 2009

- يوسف أيوب حداد: هل لليهود حق ديني أو تاريخي في فلسطين – بيسان للنشر والتوزيع والإعلام: بيروت – الطبعة الأولى كانون الثاني/يناير 2004

- يوسف رشاد: التوراة العدو اللدود للسامية – دار الكتاب العربي للنشر - سورية – حلب – الطبعة الأولى 2008

Gary R. Renard: The disappearance of the Universe Published December 31st 2004 ISBN HAY HOUSE - USA

Islamophobia Clarity Press, INC. Atlanta, GA, USA - 2010: Stephen Sheehi

Matthew E. Clancy: The Promised Land Servant Books – Ann Arbor, Michigan 1978

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



هوامش الكتاب:

(1) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى «التاريخ يبدأ من سومر» ص 32.

(2) محمد النويهي، نحو ثورة في الفكر الديني، ص 3.

(3) صادق جلال العظم، نقد الفكر الديني، ص 12.

(4) صادق جلال العظم، نقد الفكري الديني، ص 13.

(5) المرجع نفسه، ص 19.

(6) محمد النويهي، نحو ثورة في الفكر الديني، ص 37.

(7) الشاعر معروف الرصافي، الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس، ص 583.

(8) المرجع نفسه.

(9) الشيخ عبدالله العلايلي، أين الخطأ، ص 30.

(10) المرجع نفسه، ص 18.

(11) صادق جلال العظم، نقد الفكر الديني.

(12) إدوار سعيد، الآلهة التي تفشل دائماً، ص 132.

(13) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 23.

(14) جورجي كنعان، فضح الكتاب أو فضح العقول، ص 7.

(15) أرنولد تويني، تاريخ البشرية، ص 23.

(16) جورج حلو، حلقة لبرنامج كلام الناس على شاشة المؤسسة اللبنانية للإرسال.

(17) الشاعر معروف الرصافي، الشخصية المحمدية، ص 583.

(18) سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، 61.

(19) جود أبو صوان، القراءات الملعونة، ص 36.

(20) غاري رينارد، اختفاء العالم، ص 200.

(21) أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، ص 43.

(22) أسعد زيدان، الناس والتاريخ، ص 128.

(23) أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، ص 46.

(24) د. بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة، ص 16.

(25) د. بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة، ص 18 الحاشية رقم 3.

(26) فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، ص 34.

(27) يوسف أيوب حداد، هل لليهود حق ديني أو تاريخي في فلسطين؟ ص 14.

(28) الأب الدكتور سهيل قاشا، لبنان في ذاكرة العراق القديم، ص 151.

(29) أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، ص 61.

(30) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص 31.

(31) جورجي كنعان، محمد واليهودية، ص 112.

(32) فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، ص 33.

(33) فراس السواح، تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ص 9.

(34) جورجي كنعان، محمد واليهودية، ص 91.

(35) الأب الدكتور سهيل قاشا، التوراة البابلية، ص 109.

(36) الأب سهيل قاشا، التوراة البابلية، ص 53.

(37) فراس السواح، مدخل إلى نصوص الشرق القديم، ص 73.

(38) شوقي خيرالله، الإنجيل الخامس، ص 234.

(39) الأب سهيل قاشا، بابل والتوراة، ص 111.

(40) وليم غاي كار، أحجار على رقعة الشطرنج، ص 79.

(41) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 331.

(42) المرجع نفسه، ص 333 – 335.

(43) جورجي كنعان، محمد واليهودية، ص 13.

(44) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 39.

(45) كيث وايتلام، تلفيق إسرائيل التوراتية، ص 108.

(46) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، المقدمة.

(47) المرجع نفسه، ص 9.

(48) المرجع نفسه، ص 154.

(49) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 158.

(50) فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص 50.

(51) فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص 250.

(52) المرجع نفسه، ص 251.

(53) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 166.

(54) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 182.

(55) المرجع نفسه، ص 183.

(56) فراس السواح، الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، ص 30.

(57) جود أبو صوان، القراءات الملعونة، ص 87.

(58) الأب سهيل قاشا، بابل والتوراة، ص 110.

(59) المرجع نفسه، ص 121.

(60) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 11

(61) فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، ص 21.

(62) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص 45.

(63) سهيل التغلبي، اليهودية – الصهيونية تحرّف الكتاب المقدس، ص 92.

(64) الأب سهيل قاشا، التوراة البابلية، ص 96.

(65) مفيد عرنوق، التوراة والتراث السوري، ص 113.

(66) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 276.

(67) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 164.

(68) الأب سهيل قاشا، بابل والتوراة، ص 13.

(69) غاري رينارد، اختفاء العالم، ص 301.

(70) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 162.

(71) توماس ل. طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 247.

(72) توماس ل. طومسون، داود ويسوع، ص 230.

(73) المرجع نفسه، ص 343.

(74) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي.

(75) الأب سهيل قاشا، بابل والتوراة، ص 183.

(76) سهيل التغلبي، اليهودية - الصهيونية تحرّف الكتاب المقدس، ص 102.

(77) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص 181.

(78) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 56.

(79) أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، ص 119.

(80) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 171.

(81) مفيد عرنوق، التوراة والتراث السوري، ص 95.

(82) جورجي كنعان، محمد واليهودية، ص 50.

(83) الأب سهيل قاشا، بابل والتوراة، ص 5.

(84) جورجي كنعان، محمد واليهودية، ص 152.

(85) فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، ص 125.

(86) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 244.

(87) فراس السواح، الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، ص 245.

(88) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 168.

(89) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 169.

(90) جورجي كنعان، محمد واليهودية، نقلاً عن جريدة لوموند بتاريخ 15 تشرين الأول /أكتوبر 1971.

(91) عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، ص 243.

(92) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 60.

(93) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 144.

(94) غاري رينارد، اختفاء العالم، ص 26.

(95) جورجي كنعان، محمد واليهودية، ص 310.

(96) المرجع نفسه، ص 329.

(97) جورجي كنعان، محمد واليهودية، ص 224.

(98) المرجع نفسه، ص 368.

(99) سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ص 7.

(100) المرجع نفسه، ص 23.

(101) فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، ص 60-61.

(102) سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ص 44-45.

(103) إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، ص 13.

(104) فراس السواح، مدخل إلى نصوص الشرق القديم، ص 60.

(105) سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ص 61.

(106) سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ص 37.

(107) سهيل التغلبي، اليهودية – الصهيونية تحرف الكتاب المقدس، ص 99.

(108) كيث وايتلام نقلاً عن فوغل، تلفيق إسرائيل التوراتية، ص 51-52.

(109) المرجع نفسه، ص 49.

(110) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 168- 169.

(111) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 9.

(112) سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ص 7.

(113) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 23.

(114) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 216.

(115) جورجي كنعان، محمد واليهودية، ص 328.

(116) جورجي كنعان، محمد واليهودية، ص 38.

(117) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 237.

(118) سعيد نفاع، العرب الدروز، ص 40.

(119) آساف ميخائيل، العلاقة بين العرب واليهود.

(120) كوهين أهارون، إسرائيل والعالم العربي.

(121) شريعة حمورابي»، مجموعة من المؤلفين، ترجمة أسامة سراس.

(122) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 253.

(123) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 250.

(124) جورجي كنعان، محمد واليهودية، ص 179.

(125) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 247.

(126) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 261.

(127) المرجع نفسه، ص 264-265.

(128) جورجي كنعان، محمد واليهودية، ص 260.

(129) المرجع نفسه، ص 200.

(130) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب اليهودي، ص 248-249.

(131) روبير عبدة غانم، عناصر تكوين دولة يهودية في فلسطين، ص 61.

(132) عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، ص 243.

(133) المرجع نفسه، ص 244.

(134) روبير عبده غانم، عناصر تكوين دولة يهودية في فلسطين 158.

(135) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 380.

(136) الأب سهيل قاشا، التوراة البابلية، ص 80.

(137) المرجع نفسه، ص 103.

(138) فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص 53.

(139) سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ص 147.

(140) فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص 53.

(141) المرجع نفسه، ص 54.

(142) الأب سهيل قاشا، بابل والتوراة، ص 116.

(143) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 40.

(144) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 95.

(145) المرجع نفسه، ص 146.

(146) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 31.

(147) المرجع نفسه، ص 83.

(148) فراس السواح، مدخل إلى نصوص الشرق القديم، ص 76.

(149) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 109.

(150) المرجع نفسه، ص 113.

(151) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 127.

(152) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 149.

(153) المرجع نفسه، ص 151.

(154) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 144.

(155) فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص 38.

(156) الأب سهيل قاشا، التوراة البابلية، ص 17.

(157) المرجع نفسه، ص 20.

(158) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 14.

(159) المرجع نفسه، ص 16.

(160) المرجع نفسه، ص 25.

(161) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 158.

(162) كيث وايتلام، تلفيق إسرائيل التوراتية، ص 22.

(163) المرجع نفسه، ص 65.

(164) المرجع نفسه، ص 133.

(165) المرجع نفسه، ص 24.

(166) كيث وايتلام، تلفيق إسراعيل التوراتية، الفقرة العشرون من هوامش الفصل الثالث.

(167) يوسف أيوب حداد، هل لليهود حق ديني أو تاريخي في فلسطين، ص 40.

(168) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 48. (الطبعة الأولى للكتاب باللغة العربية عام 1986).

(169) معروف الرصافي، الشخصية المحمدية، ص 126.

(170) فرح أنطوان، ابن رشد وفلسفته، ص 218 - 222.

(171) اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 327.

(172) المرجع نفسه، ص 330.

(173) فيليب سيمون ورفائيل ميرجي، مائير كهانا ص 91، حاشية رقم 1.

(174) أبراهام بورغ، لننتصر على هتلر.

(175) المرجع نفسه، ص 71.

(176) جميل خرطبيل، نقد الدين اليهودي، ص 43.

(177) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 323.

(178) المرجع نفسه، 277.

(179) جودت السعيد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 52.

(180) المرجع نفسه، ص 51.

(181) سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ص 147.

(182) أسعد زيدان، الناس والتاريخ، ص 19.

(183) جودت السعيد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 93.

(184) سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ص 8.

(185) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 179.

(186) عبد المجيد همو، ما بين موسى وعزرا، ص 62.

(187) المرجع نفسه، ص 65.

(188) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 209.

(189) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 75.

(190) ناجح المعموري، موسى وأساطير الشرق، ص 22.

(191) سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ص 12-13.

(192) فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص 66.

(193) الأب سهيل قاشا، بابل والتوراة، ص 47.

(194) الأب سهيل قاشا، لبنان في ذاكرة العراق القديم، ص 58، الحاشية رقم 1.

(195) الأب سهيل قاشا، التوراة البابلية، ص 176.

(196) الأب سهيل قاشا، مقتبسات شريعة موسى من شريعة حمورابي، ص 101.

(197) توماس طومسون، داود ويسوع بين التاريخ والتراث المشرقي، ص 242.

(198) جود أبو صوان، القراءات الملعونة، ص 176.

(199) كيث وايتلام، تلفيق إسراعيل التوراتية، ص 338، حاشية رقم 57.

(200) المرجع نفسه، ص 169.

(201) بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة، ص 119.

(202) سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ص 44.

(203) يوسف رشاد، التوراة العدو اللدود للسامية، ص 17.

(204) المرجع نفسه، الحاشية رقم 1 من الصفحة ذاتها.

(205) سهيل التغلبي – اليهودية – الصهيونية تحرّف الكتاب المقدس ص 112.

(206) كيث وايتلام، تلفيق إسراعيل التوراتية، ص 22.

(207) سهيل التغلبي، اليهودية – الصهيونية تحرف الكتاب المقدس ص 239.

(208) سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ص 47.

(209) كمال الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، ص 235.

(210) بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة، ص 99.

(211) المرجع نفسه، ص 144.

(212) المرجع نفسه، ص 145.

(213) جميل خرطبيل، نقد الدين اليهودي، ص 139.

(214) عبد المجيد همو، ما بين موسى وعزرا، ص 75.

(215) المرجع نفسه، ص 208.

(216) جود أبو صوان، القراءات الملعونة، ص 324.

(217) أبراهام بورغ، لننتصر على هتلر، ص 283.

(218) إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، ص 87.

(219) فرح أنطون، ابن رشد وفلسفته، ص 318.

(220) عبد المجيد همو، الله أم يهوه؟ أيهما إله اليهود، ص 116.

(221) عبد المجيد همو، الله أم يهوه؟ أيهما إله اليهود، ص 66.

(222) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 55.

(223) جود أبو صوان، القراءات الملعونة، ص 92.

(224) كمال الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، ص 236.

(225) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 51.

(226) فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ص 191.

(227) كيث وايتلام، تلفيق إسراءيل التوراتية، ص 284.

(228) توماس طومسون، داود ويسوع بين التاريخ والتراث الشرقي، ص 225.

(229) المرجع نفسه، ص 289.

(230) فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، ص 66.

(231) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 213.

(232) المرجع نفسه، ص 217.

(233) أبراهام بورغ، لننتصر على هتلر، ص 170.

(234) الأب سهيل قاشا، بابل والتوراة، ص 116.

(235) جميل خرطبيل، نقد الدين اليهودي، ص 13.

(236) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 78.

(237) أسامة العيسة، مخطوطات البحر الميت، ص 154.

(238) اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 205.

(239) المرجع نفسه، ص 330.

(240) المرجع نفسه، ص 329.

(241) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 261.

(242) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 203.

(243) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 21.

(244) فرح أنطون، ابن رشد وفلسفته، ص 218.

(245) ربيع داغر، إسرائيل والصراع المستمر، ص 20.

(246) بول فندلي، الخداع، ص 25.

(247) المرجع نفسه، ص 26.

(248) ربيع داغر، إسرائيل والصراع المستمر، ص 46، حاشية رقم 30.

(249) يوسف رشاد، التوراة العدو اللدود للسامية، ص 54.

(250) بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة، ص 104.

(251) بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة، ص 109.

(252) المرجع نفسه، ص 230.

(253) فراس السواح، الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، ص 245.

(254) توماس طومسون، داوود ويسوع، ص 372.

(255) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 123.

(256) فراس السواح، الحدث التوراتي، ص 198.

(257) كمال الصليبي، خفايا التوراة، ص 213.

(258) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 164.

(259) د.ل. كازييف، اليهود واليهودية في نظر شعوب العالم، ص 68.

(260) اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 69.

(261) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 186.

(262) الأب سهيل قاشا، لبنان في ذاكرة العراق القديم، ص 152.

(263) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 48.

(264) معروف الرصافي، الشخصية المحمدية، ص 654.

(265) المرجع نفسه.

(266) اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 190.

(267) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 29.

(268) المرجع نفسه، ص 27.

(269) المرجع نفسه، ص 24.

(270) المرجع نفسه، ص 22.

(271) بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة، ص 126.

(272) المرجع نفسه، ص 127.

(273) المرجع نفسه، ص 126.

(274) فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى.

(275) إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، ص 138.

(276) المرجع نفسه، ص 140.

(277) المرجع نفسه، ص 143.

(278) المرجع نفسه، ص 144.

(279) الأب سهيل قاشا، مقتبسات شريعة موسى من شريعة حمورابي، ص 30.

(280) سهيل التغلبي، اليهودية – الصهيونية تحرّف الكتاب المقدس، ص 162-163.

(281) بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة، ص 245.

(282) جميل خرطبيل، نقد الدين اليهودي، ص 47.

(283) المرجع نفسه، ص 48.

(284) مجموعة من المؤلفين، شريعة حمورابي، ص 17.

(285) الأب سهيل قاشا، بابل والتوراة، ص 59.

(286) الأب سهيل قاشا، التوراة البابلية، ص 164 وما بعدها.

(287) فراس السواح، مدخل إلى نصوص الشرق القديم، ص 270.

(288) إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، ص 146.

(289) جود أبو صوان، القراءات الملعونة، ص 159.

(290) روجيه غارودي، الأساطير المؤسّسة للسياسة الإسرائيلية، ص 264.

(291) جود أبو صوان، القراءات الملعونة، ص 324.

(292) جود أبو صوان، القراءات الملعونة، ص 244.

(293) رفيق الحسيني، على خطى يهوشع، ص 17.

(294) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 293.

(295) المرجع نفسه، ص 385، الحاشية رقم 16.

(296) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 160.

(297) المرجع نفسه، ص 176، الحاشية رقم 115.

(298) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 21.

(299) كيث وايتلام، تلفيق إسراعيل التوراتية، ص 15.

(300) المرجع نفسه، ص 120.

(301) المرجع نفسه، ص 150.

(302) توماس طومسون، داود ويسوع، ص 22.

(303) أسعد رزوق، التلمود والصهيونية، ص 37.

(304) فراس السواح، الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، ص 200.

(305) يوسف أيوب حداد، هل لليهود حق ديني أو تاريخي في فلسطين، المجلد الأول، ص 94.

(306) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 65.

(307) جميل خرطبيل، نقد الدين اليهودي، ص 53.

(308) فراس السواح، مدخل إلى نصوص الشرق القديم، ص 33.

(309) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص 11.

(310) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 184.

(311) أسعد زيدان، الناس والتاريخ، ص 199.

(312) أسعد رزوق، التلمود والصهيونية، ص 35.

(313) فراس السواح، تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ص 44.

(314) المرجع نفسه، ص 52.

(315) فراس السواح، الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، ص 204.

(316) توماس طومسون، داود ويسوع، ص 419.

(317) ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم، ص 116.

(318) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 111.

(319) نيل سلبرمان، بحثاً عن إله ووطن – صراع الغرب على فلسطين وآثارها، ص 13-19.

(320) المرجع نفسه، ص 252.

(321) فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص 198.

(322) المرجع نفسه، ص 191.

(323) المرجع نفسه.

(324) فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل ص 190.

(325) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 57.

(326) المرجع نفسه، ص 58.

(327) المرجع نفسه.

(328) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 282.

(329) سهيل التغلبي، اليهودية – الصهيونية تحرف الكتاب المقدس، ص 202.

(330) المرجع نفسه، ص 79.

(331) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 83.

(332) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 99.

(333) المرجع نفسه، ص 100.

(334) فراس السواح، الوجه الآخر للمسيح، ص 99.

(335) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 68.

(336) كاتلين كينون، Archacology in the Holly land، ص 223.

(337) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 273.

(338) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 185

(339) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 30.

(340) توماس طومسون، داود ويسوع، ص 501، الحاشية رقم 7.

(341) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 36.

(342) بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة، ص 49.

(343) المرجع نفسه، الحاشية الثانية.

(344) المرجع نفسه، ص 50-51.

(345) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 87.

(346) توماس طومسون، داود ويسوع، ص 424.

(347) الأب سهيل قاشا، التوراة البابلية، ص 230.

(348) جود أبو صوان، القراءات الملعونة، ص 303.

(349) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 61.

(350) سهيل التغلبي، اليهودية – الصهيونية تحرّف الكتاب المقدس، نقلاً عن سفر ابن سيراخ (47:15-22) توراة المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1951.

(351) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 215-220.

(352) المرجع نفسه، ص 236.

(353) كمال الصليبي، حوار من زياد منى جُمع في كتيّب صادر عن دار قدموس.

(354) المرجع نفسه، ص 39.

(355) ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم، ص 98 من كتاب الدكتور فوكس جاكسون الأستاذ بجامعة كمبردج بعنوان (يوسف واليهود) ص 38-40.

(356) د. كارنييف، اليهود واليهودية في نظر شعوب العالم، ص 13-14.

(357) المرجع نفسه، ص 85.

(358) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 131.

(359) المرجع نفسه، ص 132.

(360) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 280.

(361) المرجع نفسه، ص 289.

(362) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 285.

(363) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 132.

(364) المرجع نفسه، ص 135.

(365) فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ص 191.

(366) رفيق الحسيني، على خطى يهوشع، ص 35.

(367) ربيع داغر، إسرائيل والصراع المستمر، ص 107.

(368) المرجع نفسه، ص 106.

(369) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 114.

(370) لوسيان كافرو دومارس، العار الصهيوني، ص 333.

(371) المرجع نفسه.

(372) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 127.

(373) المرجع نفسه، ص 140.

(374) شلومو شاند، اختراع الشعب اليهودي، ص 159.

(375) ربيع داغر، إسرائيل والصراع المستمر، ص 24.

(376) د. كارنييف، اليهود واليهودية في نظر شعوب العالم، ص 146.

(377) المرجع نفسه، ص 163.

(378) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 59.

(379) سهيل التغلبي، اليهودية – الصهيونية تحرّف الكتاب المقدس، ص 22.

(380) المرجع نفسه، ص 24.

(381) يوسف أيوب حداد، هل لليهود حق ديني أو تاريخي في فلسطين؟ الجزء الثاني، ص 107.

(382) المرجع نفسه.

(383) المرجع نفسه، ص 109.

(384) مذكرات وايزمن ص 13.

(385) المرجع نفسه، ص 23.

(386) كيث وايتلام، تلفيق إسراءيل التوراتية، ص 332 حاشية رقم 24.

(387) بندكت أندرسون، الجماعات المتخيّلة، ص 52.

(388) أنطون سعادة، نشوء الأمم، ص 167.

(389) المرجع نفسه، ص 166.

(390) انطون سعادة، نشوء الأمم، ص 178.

(391) المرجع نفسه، ص 166.

(392) مجلة قضايا معاصرة، الجزء الثاني، تشرين الثاني /نوفمبر 1969، ص 14.

(393) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 106.

(394) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 149.

(395) المرجع نفسه، ص 164.

(396) المرجع نفسه، ص 306.

(397) شيريب سبيريدوفيتش، حكومة العالم الخفية، ص 132.

(398) المرجع نفسه، ص 132، الحاشية رقم 2.

(399) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 175.

(400) لوسيان كافرو دو مارس، العار الصهيوني، ص 193.

(401) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 180.

(402) المرجع نفسه.

(403) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 16.

(404) إحسان أديب مرتضى، الإرهاب الصهيوني، ص 59.

(405) علي حسن طه، العنصرية الصهيونية اليهودية، ص 91.

(406) جيرهارد فان كلان، القانون بين الأمم – مدخل إلى القانون الدولي العام، الجزء الثالث، ص 233.

(407) المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص 17.

(408) المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص 19.

(409) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 332.

(410) المرجع نفسه، ص 353.

(411) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 389.

(412) كمال الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، ص 29، حاشية رقم 2.

(413) يوسف رشاد، التوراة العدو اللدود للسامية، ص 121.

(414) المرجع نفسه.

(415) جوش ماكدويل، كتاب وقرار، ص 78-79.

(416) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 210.

(417) إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، ص 121

(418) جودت السعد، أوهام التاريخ العبري، ص 13.

(419) مصطلحات ومناسبات وتواريخ وشخوص صهيونية، دار الجليل، ص 53.

(420) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 208.

(421) ظفر الإسلام خان، التلمود تاريخه وتعاليمه، ص 39.

(422) عبد المجيد همو، ما بين موسى وعزرا، ص 62.

(423) جميل خرطبيل، نقد الدين اليهودي، ص 37.

(424) جورجي كنعان، محمد واليهودية.

(425) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 209.

(426) لوسيان كافرو دومارس، العار الصهيوني، ص 318، الحاشية رقم 1.

(427) ربيع داغر، إسرائيل والصراع المستمر، ص 25، الحاشية رقم 11.

(428) اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 161، الحاشية رقم 79.

(429) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 86-87.

(430) بندكت أندرسن، الجماعات المتخيّلة، ص 94- 95.

(431) فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، ص 51.

(432) د. كارنييف، اليهود واليهودية في نظر شعوب العالم، ص 74.

(433) المرجع نفسه، ص 75.

(434) وليم غاي كار، أحجار على رقعة الشطرنج، ص 189.

(435) وليم غاي كار، أحجار على رقعة الشطرنج، ص 234.

(436) شيريب سبيريدوفتش، حكومة العالم الخفية، ص 61.

(437) المرجع نفسه، ص 84.

(438) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 152.

(439) جميل خرطبيل، نقد الدين اليهودي، ص 8-9.

(440) د. كارنييف، اليهود واليهودية في نظر شعوب العالم، ص 32.

(441) أنطون سعادة، نشوء الأمم، ص 178.

(442) بول فندلي، من يجرؤ على الكلام، ص 482.

(443) شيريب سبيريدوفيتش، حكومة العالم الخفية، ص 36.

(444) لوسيان كافرو دومارس، العار الصهيوني، ص 324-325.

(445) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 153.

(446) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 89.

(447) فيليب سيمون ورفائيل ميرجي، مائير كهانا وغلاة التطرف الأصولي اليهودي، ص 122، الحاشية رقم 1.

(448) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 207.

(449) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 207، الحاشية رقم 25.

(450) للمزيد يرجى قراءة كتاب وليم غاي كار «أحجار على رقعة الشطرنج».

(451) لوسيان كافرو دومارس، العار الصهيوني، ص 150.

(452) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 263.

(453) أبراهام بورغ، لننتصر على هتلر، ص 117.

(454) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 120.

(455) المرجع نفسه، ص 121.

(456) المرجع نفسه، ص 90.

(457) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 98.

(458) المرجع نفسه، ص 129.

(459) نورمان فنكلشتاين، كيف صنع اليهود الهولوكوست، ص 127.

(460) المرجع نفسه، ص 222.

(461) نورمان فنكلشتاين، كيف صنع اليهود الهولوكوست، ص 71.

(462) المرجع نفسه، ص 105.

(463) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، نقلاً عن صحيفة لوموند الفرنسية من العدد الصادر في 23 تموز /يوليو 1990.

(464) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 334.

(465) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 299.

(466) يوسف رشاد، التوراة العدو اللدود للسامية، ص 134، الحاشية رقم 4.

(467) أبراهام بورغ، لننتصر على هتلر، ص 134.

(468) زينب عبد العزيز، من حائط البراق إلى جدار العار، ص 20.

(469) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 343.

(470) د. كارنييف، اليهود واليهودية في نظر شعوب العالم، ص 192.

(471) نورمان فنكلشتاين، كيف صنع اليهود الهولوكوست، ص 69.

(472) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 10.

(473) نورمان فنكلشتاين، كيف صنع اليهود الهولوكوست، المدخل.

(474) سهيل التغلبي، اليهودية – الصهيونية تحرّف الكتاب المقدس.

(475) المرجع نفسه، ص 86.

(476) المرجع نفسه، ص 86، الحاشية رقم 5.

(477) بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة، ص 120.

(478) المرجع نفسه، ص 121.

(479) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي.

(480) المرجع نفسه، ص 179.

(481) توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 255.

(482) عبد المجيد همو، ما بين موسى وعزرا.

(483) معروف الرصافي، الشخصية المحمدية، ص 134.

(484) ناجح المعموري، موسى وأساطير الشرق، ص 124.

(485) بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة، ص 207.

(486) معروف الرصافي، الشخصية المحمدية، ص 116.

(487) محمد يوسف حمود، ذلك الليل الطويل، من مقال «المسيح ابن بلادي».

(488) سهيل التغلبي، اليهودية – الصهيونية تحرّف الكتاب المقدس.

(489) سهيل التغلبي، اليهودية - الصهيونية تحرف الكتاب المقدس.

(490) الأب سهيل قاشا، بابل والتوراة، ص 90-91.

(491) عبد المجيد همو، ما بين موسى وعزرا، ص 204.

(492) جوش ماكدويل، كتاب وقرار، ص 98.

(493) جوش ماكدويل، كتاب وقرار، ص 100-101.
(494) أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص 133.
(495) المرجع نفسه، ص 135.
(496) اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 162.
(497) المرجع نفسه، ص 162، الحاشية رقم 81.
(498) مهى عون، جريدة الديار، آراء وأبحاث في الكتابات التوراتية.
(499) أسعد زيدان، الناس والتاريخ، ص 61.
(500) المرجع نفسه، ص 129.
(501) أسعد زيدان، الناس والتاريخ ص 411.
(502) الأب سهيل قاشا، التوراة البابلية، ص 128.
(503) عبد المجيد همو، ما بين موسى وعزرا، ص 121.
(504) سهيل التغلبي، اليهودية – الصهيونية تحرف الكتاب المقدس، ص 79.
(505) المرجع نفسه، ص 202.
(506) جميل خرطبيل، نقد الدين اليهودي، ص 43.
(507) فيليب حتي، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، ص 119.
(508) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 154.
(509) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 179.
(510) المرجع نفسه.
(511) المرجع نفسه، ص 246، الحاشية رقم 3.
(512) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 335.
(513) المرجع نفسه، ص 21.
(514) بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة، ص 122.
(515) علي حسن طه، العنصرية الصهيونية اليهودية والبعد الأيديولوجي الديني، ص 94.
(516) سهيل التغلبي، اليهودية – الصهيونية تحرف الكتاب المقدس، ص 66.
(517) توماس طومسون، داود ويسوع بين التاريخ والتراث الشرقي.

(518) فراس السواح، الوجه الآخر للمسيح، ص 59.

(519) المرجع نفسه، ص 91.

(520) المرجع نفسه، ص 61.

(521) الأب يوسف يمين، المسيح ولد في لبنان لا في اليهودية، ص 41.

(522) المرجع نفسه، ص 199.

(523) الأب يوسف يمين، المسيح ولد في لبنان لا في اليهودية، ص 197.

(524) فراس السواح، الوجه الآخر للمسيح، ص 92.

(525) المرجع نفسه، ص 93-94.

(526) المرجع نفسه، ص 131.

(527) أسعد زيدان، الناس والتاريخ، ص 98.

(528) جود أبو صوان، القراءات الملعونة، ص 339.

(529) الأب يوسف يمين، المسيح ولد في لبنان لا في اليهودية، ص 192.

(530) الأب يوسف يمين، المسيح ولد في لبنان لا في اليهودية، ص 190.

(531) اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 191.

(532) عبد المجيد همو، الله أم يهوه، أيهما إله اليهود، ص 29.

(533) جورجي كنعان، محمد واليهودية، ص 155.

(534) جوش ماكدويل، كتاب وقرار، ص 72.

(535) المرجع نفسه، ص 73.

(536) صهيب الرومي، المسيح بين التلمود والقرآن، ص 85.

(537) جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 234.

(538) البطريرك زكّا الأول عيواص، من كلمة ألقاها خلال القداس الإلهي الذي أقيم بمناسبة اليوبيل الألفين لميلاد يسوع بالجسد، والذي أقيم في كاتدرائية الرسولين مار بطرس ومار بولس في دير مار أفرام للسريان في معرّة صيدنايا، دمشق 2000 / 9 / 14.

(539) بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة، ص 259.

(540) المرجع نفسه، ص 260.

(541) جميل خرطبيل، نقد الدين اليهودي، ص 160.

(542) الأب يوسف يمين، المسيح ولد في لبنان وليس في اليهودية، ص 286.

(543) عبد المجيد همو، المجاز اليهودية والإرهاب الصهيوني، ص 94.

(544) معرف الرصافي، الشخصية المحمدية، ص 166.

(545) المرجع نفسه، ص 684.

(546) المرجع نفسه، ص 215.

(547) فراس السواح، الوجه الآخر للمسيح، مترجماً عن ترجمة لإنجيل توما صدرت باللغة الإنكليزية.

(548) فراس السواح، الوجه الآخر للمسيح، ص 44.

(549) يوسف أيوب حداد، هل لليهود حق ديني أو تاريخي في فلسطين، الجزء الثاني.

(550) مفيد عرنوق، مجلة الثقافة، عدد 7، أيار /مايو 1983.

(551) بشار خليف، نشوء فكرة الألوهة.

(552) المرجع نفسه.

(553) جيرهارد فان غلان، القانون بين الأمم، ص 12.

(554) مركز الدراسات العربي – الأوروبي، الإرهاب الدولي، ص 157.

(555) نعوم تشومسكي، في مقابلة مع وسائل الإعلام الأوروبية، 20-22 أيلول /سبتمبر 2001.

(556) مركز الدراسات العربي - الأوروبي، الإرهاب الدولي، ص 183.

(557) حسن أحمد عمر، إسرائيل والقانون الدولي، ص 102.

(558) مركز الدراسات العربي – الأوروبي، الإرهاب الدولي، ص 189.

(559) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 247.

(560) المرجع نفسه، ص 248.

(561) إحسان أديب مرتضى، الإرهاب الصهيوني، ص 59.

(562) نقلاً عن وكالة نوفوستي، موسكو 1984.

(563) دايفيد ج. روثكوبف، الطبقة الخارقة، ص 394.

(564) أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص 13.

(565) شيريب سبيريدوفيتش، حكومة العالم الخفية، عن مجلة القوات المسلحة في القاهرة، العدد رقم 421، سنة 1964، ص 11.

(566) لوسيان كافرو دومارس، العار الصهيوني، ص 10.

(567) المرجع نفسه، ص 17.

(568) وليم غاي كار، أحجار على رقعة الشطرنج، ص 115.

(569) شيريب سبيريدوفيتش، حكومة العالم الخفية، ص 76.

(570) المرجع نفسه، ص 74.

(571) لوسيان كافرو دومارس، العار الصهيوني، ص 161.

(572) رفيق الحسيني، على خطى يهوشع.

(573) فيليب سيمون ورفائيل ميرجي، مائير كهانا وغلاة التطرف الأصولي اليهودي، ص 27.

(574) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 177.

(575) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 302.

(576) أبراهام بورغ، لننتصر على هتلر، ص 184.

(577) جيمي كارتر، السلام ممكن في الأراضي المقدسة، ص 26.

(578) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 187.

(579) د. كارنييف، اليهود واليهودية في نظر شعوب العالم، ص 61.

(580) المرجع نفسه، ص 65.

(581) شمعون بيريز، الرحلة الخيالية مع تيودور هرتزل إلى إسرائيل، ص 114.

(582) لوسيان كافرو دومارس، العار الصهيوني.

(583) بول فندلي، الخداع، ص 155.

(584) ستيفن شيحي، إسلاموفوبيا، ص 75.

(585) ستيفن شيحي، إسلاموفوبيا، ص 77.

(586) ربيع داغر، إسرائيل والصراع المستمر، ص 119.

(587) جريدة الديار، 2004 / 1 / 13.

(588) فنسان نوزيل، أسرار الرؤساء، ص 527.

(589) أبراهام بورغ، لننتصر على هتلر، ص 232.

(590) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 46.

(591) عبد المجيد همو، المجازر اليهودية والإرهاب الصهيوني.

(592) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والإرهاب الاستيطاني، ص 196.

(593) جويش كرونيكل، 1996 / 5 / 3.

(594) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والإرهاب الاستيطاني، ص 23.

(595) توم سيغف، المليون السابع.

(596) المرجع نفسه.

(597) يوسف أيوب حداد، هل لليهود حق ديني أو تاريخي في فلسطين، ص 214.

(598) سعيد نفاع، العرب الدروز، ص 137.

(599) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 36، الحاشية رقم 12.

(600) لوسيان كافرو دومارس، العار الصهيوني، 152.

(601) بول فندلي، من يجرؤ على الكلام، ص 151.

(602) بول فندلي، الخداع، ص 59.

(603) جو فيالز، العراق أولاً، ص 17.

(604) المرجع نفسه.

(605) نعوم تشومسكي، المثلث المحتوم، ص 32.

(606) المرجع نفسه، ص 70.

(607) فنسان نوزيل، أسرار الرؤساء، ص 527.

(608) نعوم تشومسكي، 11/9، ص 43.

(609) يوسف رشاد، التوراة العدو اللدود للسامية، ص 162.

(610) جو فيالز، العراق أولاً، ص 29.

(611) المرجع نفسه، ص 30.

(612) ديفيد ديوك، أميركا – إسرائيل و 11 أيلول /سبتمبر 2001، ص 51.

(613) المرجع نفسه، ص 53.

(614) المرجع نفسه، نقلاً عن صحيفة هآرتز بتاريخ 14 تشرين الأول /أكتوبر 2001، ص 56.

(615) ستيفن شيحي، إسلاموفوبيا، ص 119.

(616) بول فندلي، من يجرؤ على الكلام، ص 450.

(617) جريدة السفير اللبنانية عدد رقم 12118، 2012 / 2 / 28.

(618) جريدة السفير اللبنانية عدد رقم 11948، 2011 / 7 / 28.

(619) عبدالله الأشعل، إسرائيل والقانون الدولي، ص 121.

(620) عبدالله الأشعل، ص 117.

(621) المرجع نفسه، ص 119.

(622) هشام شرابي، مجلة اتجاه، عدد رقم 19، 2001.

(623) المرجع نفسه، ص 5.

(624) جريدة السفير اللبنانية، عدد رقم 11981، 2011 / 9 / 8.

(625) جريدة السفير اللبنانية، عدد رقم 11948، 2011 / 7 / 8.

(626) جريدة السفير اللبنانية، عدد رقم 12067، 2011 / 12 / 22.

(627) إحسان أديب مرتضى، الإرهاب الصهيوني، ص 112.

(628) المرجع نفسه، ص 113.

(629) المرجع نفسه، ص 130.

(630) سيلفيا نيكولاو جارسيا، إسرائيل والقانون الدولي، ص 248.

(631) المرجع نفسه، ص 249.

(632) الدكتور شفيق المصري، إسرائيل والقانون الدولي، ص 59.

(633) المرجع نفسه، ص 60.

(634) إحسان أديب مرتضى، الإرهاب الصهيوني، ص 29. نقلاً عن كتاب هنري كتن «فلسطين في ضوء الحق والعدل».

(635) صحيفة السفير اللبنانية، عدد رقم 12171، 2012 / 4 / 30.

(636) إبراهام بورغ، لننتصر على هتلر، ص 91.

(637) إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، ص 51.

(638) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 56.

(639) المرجع نفسه، ص 57.

(640) المرجع نفسه، ص 62.

(641) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 63.

(642) المرجع نفسه، ص 64.

(643) الأب مايكل برير، الكتاب المقدّس والاستعمار الاستيطاني، ص 63.

(644) ربيع داغر، إسرائيل والصراع المستمر، ص 158.

(645) إحسان أديب مرتضى، الإرهاب الصهيوني، ص 34.

(646) حاييم وايزمن، المذكرات، ص 44.

(647) سهيل التغلبي، اليهودية – الصهيونية تحرف الكتاب المقدس، ص 40، الحاشية رقم 1.

(648) وليام غاي كار، أحجار على رقعة الشطرنج، ص 131.

(649) المرجع نفسه، ص 133.

(650) بول فندلي، الخداع، ص 26.

(651) لوسيان كافرو دومارس، العار الصهيوني، ص 193

(652) المرجع نفسه.

(653) سهيل التغلبي، اليهودية – الصهيونية تحرف الكتاب المقدس، ص 412.

(654) جورجي كنعان، محمد واليهودية، ص 32.

(655) ديفيد ديوك، أميركا – إسرائيل و 11 أيلول /سبتمبر 2001.

(656) بول فندلي، من يجرؤ على الكلام، ص 32.

(657) المرجع نفسه، ص 518.

(658) المرجع نفسه، ص 40.

(659) بول فندلي، من يجرؤ على الكلام، ص 41.

(660) المرجع نفسه، ص 111.

(661) المرجع نفسه، ص 113.

(662) المرجع نفسه، ص 118.

(663) بول فندلي، من يجرؤ على الكلام، ص 512.

(664) بول فندلي، لا سكوت بعد اليوم، ص 87.

(665) المرجع نفسه، ص 89.

(666) ستيفن شيحي، إسلاموفوبيا، ص 111.

(667) يوسف أيوب حداد، هل لليهود حق ديني أو تاريخي في فلسطين، جزء 2، ص 221.

(668) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 302.

(669) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، 360.

(670) بول فندلي، الخداع، ص 260.

(671) والتر بينكوس، الواشنطن بوست، 16 أيار /مايو 2012.

(672) صحيفة كالغاري هيرالد، عدد 31 أيلول /سبتمبر 2008.

(673) صحيفة السفير اللبنانية، العدد 11930، 2011 / 7 / 7.

(674) نعوم تشومسكي، 11/9، ص 19.

(675) المرجع نفسه، ص 20.

(676) صحيفة السفير اللبنانية، العدد 11931، 2011 / 7 / 8.

(677) نعوم تشومسكي، تواريخ الانشقاق، ص 50.

(678) المرجع نفسه.

(679) بول فندلي، من يجرؤ على الكلام، ص 541.

(680) بول فندلي، من يجرؤ على الكلام، ص 542.

(681) المرجع نفسه، ص 547.

(682) جيمي كارتر، السلام ممكن في الأراضي المقدسة، ص 19.

(683) يوسف أيوب حداد، هل لليهود حق ديني أو تاريخي في فلسطين، ص 459.

(684) وليم غاري كار، أحجار على رقعة الشطرنج، ص 69.

(685) المرجع نفسه.

(686) وليم كاري غار، أحجار على رقعة الشطرنج، ص 86.

(687) المرجع السابق، ص 123.

(688) هنري فورد، اليهودي العالمي، مقدمة بقلم جيرالد. كي. سميث، ص 9.

(689) هنري فورد، اليهودي العالمي، ص 227 – 229.

(690) المرجع نفسه، ص 14.

(691) جريدة الديار اللبنانية، العدد الصادر بتاريخ 2004 / 11 / 18.

(692) زينب عبد العزيز، من حائط البراق إلى جدار العار، ص 12.

(693) إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ص 241.

(694) جيروزاليم بوست، 1967 / 8 / 10.

(695) مناحيم بيغن، التمرد: تاريخ الأرغون.

(696) علي حسن طه، العنصرية الصهيونية اليهودية، ص 16.

(697) مذكرات وايزمن، ص 134.

(698) جريدة الديار اللبنانية، العدد الصادر في 2005 / 4 / 8.

(699) أبراهام بورغ، لننتصر على هتلر، ص 103.

(700) فيليب سيمون ورفائيل ميرجي، مائير كهانا وغلاة التطرف الأصولي اليهودي، ص 106.

(701) وليم غاي كار، أحجار على رقعة الشطرنج، ص 204.

(702) بول فندلي، من يجرؤ على الكلام، ص 115.

(703) المرجع نفسه، ص 137.

(704) بول فندلي، من يجرؤ على الكلام، ص 253.

(705) جو فيالز، العراق أولاً، ص 45.

(706) إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، ص 13-14.

(707) نيل سلبرمن، بحثاً عن إله ووطن، ص 92.

(708) نعوم تشومسكي، المثلث المحتوم، ص 133.

(709) ستيفن شيحي، إسلاموفوبيا، ص 173.

(710) بول فندلي، من يجرؤ على الكلام، ص 511.

(711) رمزي النجار، وجهة نظر وسفر، ص 21.

(712) المرجع نفسه.

(713) المرجع نفسه، ص 22.

(714) المرجع نفسه 23.

(715) ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم، ص 50-51.

(716) رمزي النجار، وجهة نظر وسفر، ص 32.

(717) الأب سهيل قاشا، التوراة البابلية.

(718) د. كارنييف، اليهود واليهودية في نظر شعوب العالم، ص 184.

(719) الأب سهيل قاشا، الصهيونية تحرف الإنجيل، ص 83.

(720) إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، ص 176.

(721) جورج متري عبد المسيح، فكرنا الديني بين التحريف والتعريف، ص 71.

(722) د. كارنييف، اليهود واليهودية في نظر شعوب العالم، ص 130.

(723) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 23.

(724) المرجع نفسه، ص 147.

(725) بول فندلي، من يجرؤ على الكلام، المقدمة.

(726) هنري فورد، اليهودي العالمي، ص 247.

(727) هنري فورد، اليهودي العالمي، ص 250.

(728) لوسيان كافرو دوماس، العار الصهيوني، ص 191.

(729) جو فيالز، العراق أولاً، ص 10.

(730) ظفر الإسلام خان، التلمود – تاريخه وتعاليمه، ص 29، الحاشية رقم 1.

(731) نعوم تشومسكي، تواريخ الانشقاق، ص 49.

(732) كيث وايتلام، تلفيق إسراعيل التوراتية، ص 224.

(733) المرجع نفسه، ص 230.

(734) سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ص 7.

(735) جيمي كارتر، السلام ممكن في الأراضي المقدسة، ص 25.

(736) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 175، الحاشية رقم 1.

(737) نورمان فنكلشتاين، كيف صنع اليهود الهولوكوست، ص 31.

(738) المرجع نفسه، ص 69.

(739) نورمان فنكلشتاين، كيف صنع اليهود الهولوكوست، ص 79.

(740) المرجع نفسه، ص 105.

(741) جريدة السفير اللبنانية، العدد 11997، 2011 / 9 / 27.

(742) جريدة النهار اللبنانية، 2011 / 12 / 4.

(743) الأب سهيل قاشا، بابل والتوراة، ص 119.

(744) الأب سهيل قاشا، لبنان في ذاكرة العراق القديم، ص 81، الحاشية رقم 1.

(745) المرجع نفسه.

(746) لوسيان كافرو دومارس، العار الصهيوني، ص 16.

(747) المرجع نفسه، ص 215.

(748) جريدة السفير اللبنانية، 2011 / 10 / 29.

(749) أسامة العيسة، مخطوطات البحر الميت، ص 29.

(750) أسامة العيسة، مخطوطات البحر الميت، ص 34.

(751) صهيب الرومي، المسيح بين التلمود والقرآن ص 29-30.

(752) خيري حماد، مقدمة الطبعة العربية لكتاب هنري فورد «اليهودي العالمي»، ص 6.

(753) جريدة الديار اللبنانية، 2005 / 5 / 11.

(754) ربيع داغر، إسرائيل والصراع المستمر، ص 157-158.

(755) نيل سلبرمن، بحثاً عن إله ووطن، ص 305-306.

(756) اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 180-181.

(757) معروف الرصافي، الشخصية المحمدية، ص 699.

(758) شيريب سبيريدوفيتش، حكومة العالم الخفية.

(759) روبير عبده غانم، عناصر تكوين دولة يهودية في فلسطين، ص 61.

(760) لوسيان كافرو دومارس، العار الصهيوني، ص 197.

(761) المرجع نفسه، ص 252.

(762) هنروي فورد، اليهودي العالمي، ص 49.

(763) المرجع نفسه، ص 51.

(764) أسامة العيسة، مخطوطات البحر الميت، ص 49.

(765) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 220.

(766) المرجع نفسه، ص 236.

(767) المرجع نفسه، ص 233.

(768) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 336.

(769) إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، ص 46-47.

(770) علي حسن طه، العنصرية الصهيونية اليهودية والبعد الإيديولوجي الديني، ص 45.

(771) ظفر الإسلام خان، التلمود – تاريخه وتعاليمه، ص 24.

(772) د. كارنييف، اليهود واليهودية في نظر شعوب العالم، ص 42.

(773) رفيق الحسيني، على خطى يهوشع، ص 64-65.

(774) سهيل قاشا، الصهيونية تحرّف الإنجيل، ص 178.

(775) المرجع نفسه، ص 179.

(776) سهيل قاشا، الصهيونية تحرّف الإنجيل، ص 179.

(777) المرجع نفسه، ص 179.

(778) المرجع نفسه، ص 180.

(779) سهيل التغلبي، اليهودية - الصهيونية تحرف الكتاب المقدس، ص 265.

(780) جريدة السفير اللبنانية، العدد 12105، 2012 / 2 / 8.

(781) جريدة الديار اللبنانية، 2004 / 11 / 14.

(782) شمعون بيريز، الرحلة الخيالية، ص 160.

(783) فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص 32.

(784) دار الجليل، دراسة بعنوان «مصطلحات ومناسبات» ص 113.

(785) يوسف أيوب حداد، هل لليهود حق ديني أو تاريخي في فلسطين، الجزء الثاني، ص 216.

(786) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 356.

(787) زينب عبد العزيز، من حائط البراق إلى جدار العار، ص 107.

(788) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، مقدمة الطبعة العربية.

(789) جريدة السفير اللبنانية، العدد 12119، 2012 / 2 / 25.

(790) المرجع نفسه، العدد 12114، 2012 / 2 / 20.

(791) المرجع نفسه، العدد 11982، 2011 / 9 / 9.

(792) المرجع نفسه، العدد 12062، 2011 / 12 / 16.

(793) جريدة السفير اللبنانية، العدد 12054، 2011 / 12 / 6.

(794) سعيد نفّاع، العرب الدروز، ص 68.

(795) زينب عبد العزيز، من حائط البراق إلى جدار العار.

(796) المرجع نفسه، ص 127.

(797) المرجع نفسه، ص 132.

(798) المرجع نفسه، ص 172.

(799) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 268.

(800) زينب عبد العزيز، من حائط البراق إلى جدار العار، ص 101-102.

(801) جيمي كارتر، السلام ممكن في الأراضي المقدسة، ص 148.

(802) بندكت أندرسن، الجماعات المتخيّلة، ص 52.

(803) جورجي كنعان، محمد واليهودية، ص 172.

(804) كيث وايتلام، تلفيق إسرائيل التوراتية، ص 256.

(805) الأب مايكل برير، الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني، ص 255.

(806) المرجع نفسه، ص 269.

(807) ظفر الإسلام خان، التلمود – تاريخه وتعاليمه، ص 69.

(808) المرجع نفسه، ص 69-70.

(809) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي،ص 185.

(810) إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، ص 27.

(811) جريدة السفير اللبنانية، العدد 12147، 2012 / 3 / 30.

(812) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، عن جريدة لوموند 1961 / 6 / 21.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞





Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس الكتاب